



الناشر

مكتبة الدار العربية للكتاب

شارع الطيران : الحى السابع - مدينة نصر

تليفون : ٢٨٧٨٥٥٣ - ص. ب : ٢٠٢٢ - القاهرة

المدير المسئول : محمد رشاد

التصميم والغلاف : محمد حجي

التصحيح والمراجعة : محمد فتحي

التوزيع في مصر

الدار المصرية اللبنانية

١٦ ش عبد الخالق ثروت - القاهرة

تليفون : ٣٩١٠٢٥٠

برقياً : دار شادو - ص - ب : ٢٠٢٢ - القاهرة

e-mail INFO@ALMASRIAH.COM

www.almazriah.com

المراسلات والتوزيع الخارجى

أوراق شرقية

بيروت - النويرى - شارع العريسى

ص. ب : ١١/٣٠٣١ - هاتف : ٦٣٠٧٩٤ - ٦٤٤٤٢٢ - برقياً : Distlevan

المدير المسئول : محمود عطوى

الآراء الواردة بهذه المجلة تعبر عن وجهة نظر أصحابها

ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر الجمعية أو الناشر

رقم الإيداع بدار الكتب - ٩٩/٩٤٤٠

التقييم الدولى : 977-5366-11-9

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م



تُصدرُها

الجمعية المصرية للدراسات التاريخية

المراسلات - الأستاذ الدكتور / روفف عباس حامد

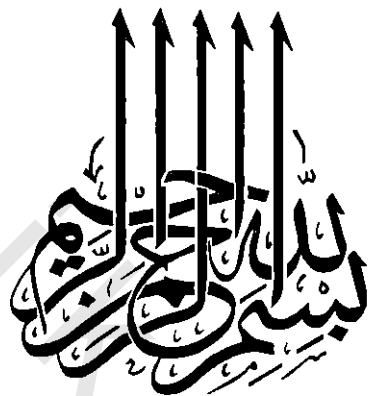
رئيس مجلس إدارة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية

قطعة ٤ بلوك ٧ - المنطقة التاسعة - مدينة نصر - القاهرة

تليفون : ٦٧٠٧٢٩٤ - ٦٧٠٧٢٩٦ - فاكس : ٦٧٠٧٢٩٨

Email: Egyhisstu@masrawy.com

obseikan.com



obseikan.com

تقديم

يسعد مجلس إدارة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية أن يقدم للمهتمين بالدراسات التاريخية على مختلف تخصصاتهم المجلد رقم (٤٢) من « المجلة التاريخية المصرية » .

وهذا المجلد ، يتضمن اثنتي عشرة دراسة متنوعة تتناول عددًا من الموضوعات في مختلف فروع تخصصات التاريخ ، والذي قام بكتابتها: نخبة من أساتذة التاريخ في مصر والعالم العربي .

وتأمل الجمعية أن يحوز هذا المجلد مثل سابقه رضاء الباحثين والقراء ، كما تأمل أن يساهم الباحثون والمتخصصون ببحوثهم في أعداد المجلة القادمة، وأن تتلقى الاقتراحات والآراء حول ما يضيف إلى المجلة الجديد في حقل البحث التاريخي والدراسات التاريخية الجادة .

والله والوطن العزيز من وراء القصد

أسرة التحرير

obeyikan.com

وفاءُ وراثاء

بينما كان هذا العَدَد من « المجلة التاريخية المصرية » مائلاً للطَّبْع ، فُجِعَ المشتغلون بالدراسات التاريخية برحيل عالمِ جَلِيلٍ ومؤرِّخٍ فَدٍّ ، هو شَيْخُ المؤرِّخين وعميد الدراسات اليونانية والرُّومانية، ورئيس الجمعية المصرية للدراسات التاريخية لأكثر من عشرين عاماً المرحوم الأستاذ الدكتور إبراهيم نُصْحِي قاسم (١٩٠٧ - ٢٠٠٤م) .

وُلِدَ الدكتور إبراهيم نُصْحِي في الثاني عشر من مايو سنة ١٩٠٧ ، وأتمَّ دراسته العُلْيَا في الجامعة المصرية ، ثم في جامعة ليفربول وجامعة لندن بالمملكة المتحدة ، حيث حصل من جامعة لندن على درجة الدكتوراه سنة ١٩٣٤ وكان عنوان رسالته . The Arts in Ptolemaic Egypt

وبعد عَوْدَتِهِ إلى القاهرة تَدَرَّجَ في مناصِبِ هيئة التدريس بالجامعة المصرية حتى حَصَلَ على كرسى أستاذ التاريخ اليوناني والروماني في أكتوبر سنة ١٩٤٦م . وعند إنشَاء جامعة إبراهيم (عين شمس الآن) عُيِّنَ الدكتور إبراهيم نُصْحِي في سبتمبر سنة ١٩٥٠ كأول عميد لكلية الآداب بالجامعة، وظلَّ في منصبه حتى سبتمبر سنة ١٩٥٤م، واستمرَّ بعد ذلك أستاذاً للتاريخ اليوناني والروماني، ورئيساً لقسم التاريخ بكلية الآداب جامعة عين شمس حتى سبتمبر سنة ١٩٦٦ ، وأصبح أستاذاً متفرغاً بنفس الكلية منذ أكتوبر ١٩٧٣ وحتى وفاته في ١٨ مايو سنة ٢٠٠٤م .

وعمل الدكتور إبراهيم نُصْحِي أستاذاً زائراً ومُحاضرًا في العديد من الجامعات العربية والأجنبية مثل جامعات ييل Yale وبرنستون Princeton وميتشجن Michigane بالولايات المتحدة الأمريكية وجامعة لندن ، وجامعة صنعاء باليمن .

وأعير الدكتور إبراهيم نُصْحِي أستاذاً للتاريخ اليوناني والروماني بالجامعة الليبية ببني غازي بين سنتي ١٩٦٦ - ١٩٧٣م .

والدكتور إبراهيم نُصْحَى من الأعضاء المؤسسين للجمعية المصرية للدراسات التاريخية وكان عضواً في أول مجلس إدارة للجمعية شكّل في ٢٥ أبريل سنة ١٩٤٦ ، كما كان عضواً مُراسلاً لجمعية الآثار اليونانية بأثينا منذ عام ١٩٣٨ ، وجمعية الوثائق الهندية منذ سنة ١٩٥١ . واختير عضواً بلجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب (المجلس الأعلى للثقافة) منذ عام ١٩٥٦ ، وأصبح مقرراً لهذه اللجنة منذ سنة ١٩٨٠ وحتى سنة ١٩٩٠ ، واختير كذلك عضواً بشعبة التراث الحضارى والثقافى بالمجلس القومى للثقافة منذ أول اجتماع لها سنة ١٩٨٣ حيث اختير مقرراً للجنة الأبحاث التاريخية المنبثقة من هذه الشعبة .

وانتُخب الدكتور إبراهيم نصحى عضواً في المَجْمَع العلمى المصرى في سنة ١٩٩٠ . وحَصَلَ على جائزة الدولة التقديرية في العلوم الاجتماعية سنة ١٩٩٤ ، كما حَصَلَ على وسام الاستحقاق من الطبقة الأولى سنة ١٩٦٨ ووسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى سنة ١٩٩٥ .

وأثرى الدكتور إبراهيم نصحى المكتبة التاريخية بالعديد من المؤلفات والأبحاث الأصيلة في التاريخ اليونانى والرومانى باللغتين العربية والإنجليزية ، يأتي في مقدمتها رسالته للدكتوراه التى تقدم بها لجامعة لندن عن : « الفن في مصر في عصر البطالمة » والى أصدرتها مطبعة جامعة أكسفورد سنة ١٩٣٧ ، وكتابه المرجع : « تاريخ مصر في عصر البطالمة » الذى صَدَرَ في خمس طبعات بين سنتي ١٩٤٦ و ١٩٨١ ، وكتاب : « تاريخ الرومان » الذى صَدَرَ لأول مرة في جزأين عن الجامعة الليبية ببني غازى سنة ١٩٧١ - ١٩٧٣ .

كان الدكتور إبراهيم نصحى آخر جيل الرواد الذين تَخَرَّج على أيديهم أجيالٌ من المؤرِّخين لا في مصر وحدها بل وفي العالم العربى على امتداده ، وكان يتمتع بسعة الأفق وسماحة الخلق وتواضع العلماء .

إن زملاء وتلاميذ الفقيد الراحل من أساتذة الجامعات ومن أعضاء الجمعية المصرية للدراسات التاريخية وروّادها ، يُقَدِّرون فجيعتنا بل وفجيعة العالم العربى كلّه لوفاته ، ويَضْرَعون إلى الله جلّت قدرته أن يتغمده برحمته وغفرانه ، ويتقدمون بخالص التعازى إلى أسرته ومحبيه وعارفى فضله .

حركة المختار الثقفي
وملامح الحراك الفكري والاجتماعي للشيععة والموالي

إعداد الدكتور

صلاح العاوي

مدير منطقة خان يونس التعليمية

بجامعة القدس المفتوحة

obeyikan.com

حركة المختار الثقفي وملامح الحراك الفكري والاجتماعي للشيععة والموالي

ملخص البحث

تعتبر ثورة المختار بن أبي عبيد الثقفي في الكوفة (٦٤هـ - ٦٧هـ / ٦٨٤م - ٦٨٦م) من أكثر أحداث القرن الأول الهجري أهمية ، فقد ساهمت بدرجة كبيرة في تطور الشيعة كفرقة دينية وسياسية ، كما أن لها تأثيراً مهماً في التاريخ الاجتماعي والسياسي للفترة الأموية خاصة ، والتاريخ الإسلامي عامة .

كانت ثورة المختار عربية في كيانها ضمت الموالى إليها وارتبطت بواقع الكوفة القبلي ، وقامت باسم العلويين ودعت لمحمد بن الحنفية ، وجاءت بعد فشل حركة السوابين ، وتمكنت من قتل كل من قتل وساهم في قتل الحسين بن علي والانتقام منهم ، وانتهت هذه الثورة على يد ابن الزبير .

لم يكن أهل العراق على وفاق مع بني أمية ، وذلك لسببين : إقدام الأمويين على قتل الحسين بن علي ، ونزوع غالبية أهل العراق إلى عداة الأمويين ، كونهم من المضربة الذين هاجروا إلى العراق من الحجاز ، في حين أن أنصار الأمويين من اليمنية في العراق كانوا أقلية . فبعد موت يزيد أخرج أهل البصرة ابن زياد ، واضطروه للرحيل إلى الشام على الرغم من تمسكه بالحكم فيها^(١) ، كما حصب أهل الكوفة أنصار الأمويين .

(١) الكامل : ابن الأثير ، ج٣ ، ص ٣٢٠ .

انتخب أهل الكوفة عامر بن مسعود والياً عليهم ، وكتبوا باختيارهم إلى ابن الزبير فأقرهم على ذلك ^(١) وبهذا خرجت الكوفة والعراق من يد الأمويين ، وقد استمرت ولاية عامر على الكوفة مدة ثلاثة أشهر ، ثم ما لبث ابن الزبير أن وجه إليها والياً جديداً من قبله ، هو عبد الله بن يزيد الأنصاري ^(٢) .

إن تأييد العراقيين للحركة الزبيرية كان تعبيراً عن سخطهم على البيت الأموي ، وليس إقراراً بالولاء القاطع لابن الزبير . لذا ، كانت الشخصية العراقية الصرفة تحاول تحقيق وجودها بعيداً عن الأمويين والزبيريين معاً ، ويبدو أنها قد وجدت فرصتها في حركة التوايين . فقد شكلت فاجعة مقتل الحسين نقطة البدء في نشأة هذه الحركة ، إذ رأى شيعة الكوفة بعد أن خذلوا الحسين ، أنه لن يغسل عنهم عار فعلتهم إلا الثأر والانتقام من قتلته أو الموت دون ذلك ^(٣) . فتجمع بعضهم عند قبر الحسين طالبين التوبة والغفران من الله تعالى ، وتسموا بـ (التوايين) ، نسبة إلى قوله تعالى : ﴿ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ ^(٤) ، وقد تزعم حركة التوايين سليمان بن صرد الخزاعي ، وهو أحد صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

شكل سليمان بن صرد الخزاعي منافساً كبيراً للمختار الثقفي ، فقد كان له السبق في الدعوة إلى المطالبة بدم الحسين ، نظراً لكبر سنه وتاريخه الحافل ، وبذلك ، فقد استعصى على المختار القيام بجمع الشيعة حوله ، إلا أنه لم يُسلم بالأمر الواقع ، بل دأب في العمل وفقاً لخططه الخاصة . إذ بدأ يفرق الشيعة عن سليمان بن صرد من خلال تأكيدهم بأنه أرسل إليهم من قبل ابن الحنفية ، وأن سليمان رجل كبير السن ، وليس له خبرة بالحرب ، وأنه يريد أن يخرجهم ، فيقتل نفسه ويقتلهم ^(٥) .

(١) تاريخ الطبري : ج ٥ ، ص ٥٢٤ .

(٢) المصدر نفسه : ج ٥ ، ص ٥٢٩ .

(٣) مروج الذهب : المسعودي ، ج ٣ ، ص ١٠٠ .

(٤) سورة البقرة : آية ٥٤ .

(٥) طبقات ابن سعد : ج ٥ ، ص ٦٨ - ٦٩ .

إن الجهود التي بذلها المختار في هذا الاتجاه قد أحرزت نتائج ملموسة ، فقد انسحب من معسكر سليمان بن صرد عدد كبير ممن سبق وعقدوا له البيعة ؛ إذ تشير الروايات بأنه قد تجمع في معسكره قبل خروجه لقتال عبد الله بن زياد أربعة آلاف فقط من مجموع ستة عشر ألفاً كانوا قد بايعوه ^(١) . ومع أن كلاً من المختار الثقفي وسليمان بن صرد كانا يدعوان للمطالبة بدم الحسين بن علي (رضى الله عنه) ، إلا أنهما كانا يعملان في اتجاهين مختلفين . فبسبب العلاقات القبلية بين أتباع سليمان ابن صرد وبين أشرف الكوفة ، فقد رفض سليمان احتلال الكوفة ، والقضاء على أولئك الذين شاركوا في مقتل الحسين بن علي ^(٢) ، وادعى أن ابن زياد وأهل الشام هم المسئولون عن مقتله . أما المختار الثقفي فقد كان يستعد للسيطرة على الكوفة ، الأمر الذي ساعده على كسب ولاء عدد من أتباع سليمان بن صرد .

وجد عبد الله بن الزبير في حركة التوابين فرصة عظيمة لتقوية نفوذه بشكل عام ، لأن إخماد هذه الحركة سيشتغل الأمويين عنه ، كما أن جهودهم في هذا الاتجاه ستستنفد قدرًا كبيرًا من طاقتهم القتالية التي قد يوجهونها ضده . لذا ، وبتوجيه منه ، قام عامله على الكوفة عبد الله بن يزيد - حين علم بتحركات التوابين - ^(٣) في الناس خطيبًا ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : " أما بعد ، فقد بلغني أن طائفة من أهل هذا المصر أرادوا أن يخرجوا علينا ، فسألت عن الذي دعاهم إلى ذلك ما هو ؟ فقيل لي : زعموا أنهم يطالبون بدم الحسين بن علي ، فرحم الله هؤلاء القوم ، قد والله دُلت على أماكنهم ، وأمرت بأخذهم ، وقيل : ابدأهم قبل أن يبدءوك ، فأبيت ذلك ، فقلت : إن قاتلوني قاتلتهم ، وإن تركوني لم أطلبهم ، وعلام يقاتلونني ! فوالله ما أنا قتلت حسينًا ، ولا أنا ممن قاتله ، ولقد أصبت بمقتله رحمة الله عليه ! فإن هؤلاء القوم آمنون ، فليخرجوا ولينتشروا ظاهرين ليسيروا إلى من قاتل الحسين ، فقد أقبل إليهم ، وأنا لهم على قاتله ظهير ، هذا ابن زياد قاتل الحسين ، وقاتل خياركم وأمائلكم ، قد توجه

(١) أنساب الأشراف : البلاذري ، ج ٥ ، ص ٢١٨ .

(٢) المصدر نفسه : ج ٥ ، ص ٢٠٩ .

(٣) خلافة بين أمية : نبيه عاقل ، ص ١٤٠ .

حركة المختار الثقفي وملاحم الحراك الفكرى والاجتماعى للشيعه والموالي إليكم ، عهد العاهد به على مسيرة ليلة من جسر منبج ، فقتاله والاستعداد له ، أولى وأشد من أن تجعلوا بأسكم بينكم ، فيقتل بعضكم بعضاً ، ويسفك بعضكم دماء بعض ، فيلقاكم ذلك العدو غداً وقد رققتم ، وتلك والله أمنية عدوكم ، وأنه قد أقبل إليكم أعدى خلق الله لكم ، من ولى عليكم هو وأبوه سبع سنين ، لا يقلعان عن قتل أهل العفاف والدين ، هو الذى قتلكم ، ومن قبله أتيتم ، والذى قتل من تتأرون بدمه ، قد جاءكم فاستقبلوه بحدكم وشوكتكم ، واجعلوها به ، ولا تجعلوها بأنفسكم ، إني لم ألكم نصحاً ، جمع الله لنا كلمتنا ، وأصلح لنا أئمتنا !^(١) .

وهكذا ، نجح عبد الله بن يزيد بخطابه هذا في تجنب لقاء ابن زياد الذى كان يقود حملة أنفذها مروان بن الحكم لاستعادة العراق ، ووضع هذا العبء على كاهل التوابين دون أن يتكلف هو عناء ذلك . هذا فضلاً عن أنه استطاع بذلك أن يخلص السلطة الزبيرية في العراق من فئة خارجة ، لا تقر لابن الزبير بالخلافة ، وتراها من حق آل البيت .

وقد بلغت عبء الله بن زياد أخبار وفاة مروان بن الحكم وهو في طريقه إلى العراق ، فثبته خليفته عبد الملك بن مروان في المهمة التى سبق وأن أوكلت إليه ، وأمره أن يسير إلى لقاء أعدائه في العراق . وبعد أن خرج سليمان بن صرد وأتباعه لقتال ابن زياد وأهل الشام ، أثارت نشاطات المختار شكوك أشرف أهل الكوفة الذين اشترك كثير منهم في مقتل الحسين . فقد حذروا الوالى عبد الله بن يزيد من المختار وحركته ، قائلين : " إن المختار أشد عليكم من سليمان بن صرد ، إن سليمان إنما خرج يقاتل عدوكم ويذلهم لكم ، وقد خرج عن بلادكم ، وأن المختار إنما يريد أن يثبت عليكم في مصركم " ^(٢) . ونتيجة لذلك قبض على المختار ، وأودع السجن لينظر في أمره بعد رجوع أتباع سليمان بن صرد من معركة (عين الوردة) التى قُتل فيها سليمان ومعظم أتباعه .

(١) تاريخ الطبرى : ج ٥ ، ص ٥٦١ - ٥٦٢ .

(٢) أنساب الأشراف : ج ٥ ، ص ٢١٨ .

وفي أثناء سجنه كانت هناك جمعية من خمسة أعضاء^(١) - كلهم من عرب اليمن يعملون لصالح المختار ويأخذون البيعة له . كما أن المختار نفسه كان يعمل من سجنه بنشاط ، مدعيًا بأسلوب نثرى مسحوع ، أن هدفه هو قتل كل جبار من أجل إقامة عمود الدين ، ولم شعت المسلمين بمساعدة أتباعه الذين سماهم: (الأنصار)^(١) .

التقى التوابون بقيادة سليمان بن صرد بجيش الأمويين بقيادة الحصين بن نمير في (عين الوردة) في سنة ٦٥هـ من أرض الجزيرة^(٢) ، فاستبسل التوابون في القتال ، وكان شعارهم : " اللجنة اللجنة " ، فقتل منهم عدد كبير من بينهم سليمان بن صرد ، وهرب الباقيون^(٣) . وقد سر عبد الملك الذي تولى الخلافة في الشام بعد مروان بهذا النصر ، فأبقى ابن زياد في منصبه ، وولاه الكوفة على أمل أن يفتح له العراق^(٤) .

المختار رجل من ثقيف ، وهو ابن أبي عبيد الثقفي شهيد معركة الجسر ، كان عمره حين قتل أبوه ثلاث عشرة سنة^(٥) .

وقد ظهر المختار بن أبي عبيد الثقفي في ميدان السياسة سنة ٦٦هـ . وكان ذا أطماع كبيرة ، كما أنه تقلب كثيرًا في الأحزاب^(٦) .

لقد أورد المؤرخون روايات متباينة ترسم للمختار صورة الزعيم الميكافيلي المتطفل الذي يزعم أنه يوالى بني هاشم ، مع أنه كان يعمل لحسابه الخاص^(٧) ، فذكروا أنه في شبابه قد حرّض عمه: عامل المدائن على خداع الحسن وتسليمه إلى معاوية^(٨) .

(*) وهم : السائب بن مالك الأشعري ويزيد بن أنس الأسدي وأحمد بن شमित الأحس ورفاعة بن شداد الفتياي وعبد الله بن شداد الجمحي .

(١) الخلافة الأموية : عبد الأمير دكسن ، ص ٦٩ .

(٢) معجم البلدان : ياقوت الحموي ، ج ٦ ، ص ٢٥٨ .

(٣) الكامل : ابن الأثير ، ج ٣ ، ص ٣٤٣ .

(٤) العقد الفريد : ابن عبد ربه ، ج ٢ ، ص ٣١٩ .

(٥) أنساب الأشراف : ج ٥ ، ص ٢١٤ وما بعدها .

(٦) تاريخ الإسلام : حسن إبراهيم حسن ، ج ١ ، ص ٣٢٨ .

(٧) الأخبار الطوال : الدينوري ، ص ٢٩٢ .

(٨) الكامل : ابن الأثير ، ج ٣ ، ص ٢٠٣ .

وحين بعث الحسين بن علي ابن عمه مسلم بن عقيل إلى الكوفة ، بايع المختار مسلماً سراً ، وأنزله في داره ، وكان جزاؤه على ذلك أن زج به عبید الله بن زياد في السجن ، وبقي في سجنه حتى مقتل الحسين . وقد سعى له الخليفة يزيد بن معاوية من أجل إطلاق سراحه ، فكتب الخليفة إلى عبید الله بن زياد بتخليه سبيل المختار ، على أن يمهل له للبقاء في الكوفة مدة ثلاثة أيام ، وبالفعل فقد أطلق سراحه وغادر الكوفة قاصداً الحجاز، وفي نفسه حقد كبير على عبید الله بن زياد ^(١) . وبعد موت الخليفة يزيد كتب المختار إلى علي بن الحسين ليبايع له ، فأبى ابن الحسين وتبرأ منه في مسجد المدينة ^(٢) .

وأخيراً، اتصل المختار بابن الزبير وحاول أن يبايعه ويدخل في خدمته ، وأن يوزر له، فلم يجد تجاوباً لدى ابن الزبير ، لأن الأخير كان قليل الثقة بالمختار ، فأعاد الكرة بعد سنة ، فتم له ما أراد ، وغدا من رجاله ^(٣) ، ولكنه لم يحقق مآربه بأن يكون وزيره ومحل ثقته .

ومكث المختار مع ابن الزبير حتى كان حصار الحصين بن نمير لمكة ، فقاتل إلى جانب ابن الزبير وأبلى بلاءً حسناً ، وظل معه حتى انصرف الحصين وأهل الشام بعد موت الخليفة يزيد بن معاوية .

ولما لم يجد المختار من ابن الزبير ما كان يصبو إليه ، رجع إلى الكوفة وانضم إلى الشيعة ، وهناك استغل ثورة التوابين لتحقيق أهدافه الرامية للنيل من ابن الزبير والأمويين ، واستتر لأجل ذلك وراء ابن الحنفية ، وادعى أنه أميره ووزيره ، وبذلك ، يكون قد وقف في وجه كل من ابن الزبير وعبد الملك بن مروان ، وفي المقابل ، اجتمعت الشيعة تحت لوائه ، وساعده على ذلك امتناع ابن الحنفية عن الدخول في الدعوة التي تصدرها ابن الزبير في مكة ^(٤) .

(١) تاريخ الطبري : ج ٥ ، ص ٥٧٣ .

(٢) أنساب الأشراف : ج ٥ ، ص ٢٧٢ .

(٣) المصدر نفسه : ج ٥ ، ص ٢١٧ .

(٤) تاريخ الإسلام : حسن إبراهيم ، ص ٣٢٨ .

ومن المرجح أن المختار بعد مقتل الحسين قد وضع نصب عينيه الثأر ممن سفكوا دم الحسين ، فكان شعار دعوته : " يا لثأرات الحسين " . ويبدو أن المختار قد تمسك بهذا الهدف ، حيث خصص أبو مخنف لذلك كتاباً سماه : (رسالة أخذ الثأر ، وانتصار المختار على الطغاة الفجار) . ويظهر أن ابن الحنفية - بعد هزيمة التوابين - قد اصطنعه لنفسه ، ليأخذ له بثأر أخيه ، ليقينه بمدى حماسه لذلك ، فأمره بالمطالبة بدم الحسين ، والأخذ بثأره والانتقام من قتلته ، وملاحقتهم حيث كانوا ، وسماه (كيسان) ؛ لكياسته وإخلاصه لمذهبه ، كما أنه أمر شيعة الكوفة بنصرته . وقد كان المختار يشعر بثقل عبء تلك المهمة ، فيقول : " أنا ملاح السفينة " . يضاف إلى ذلك أنه كان يصل آل البيت بالمال ، وأن أغلبهم كانوا يثنون عليه ^(١) .

كتب المختار - وهو في السجن - إلى من بقى من أتباع سليمان بن سرد وبعد عودتهم إلى الكوفة ، كتاباً ثمن فيه جهودهم ، ووعدهم فيه بالثواب قائلاً : " أما بعد ، فمرحباً بالعصب الذين أعظم الله لهم الأجر حين انصرفوا ، ورضى انصرافهم حين قفلوا . أما ورب البنية التي بنى ما خطا خاط منكم خطوة ، ولا رتا رتوة ، إلا كان ثواب الله له أعظم من ملك الدنيا " . إن سليمان قد قضى ما عليه ، وتوفاه الله فجعل روحه مع أرواح الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين ، ولم يكن بصاحبكم الذى به تُنصرون ، إني أنا الأمير المأمور ، والأمين المأمون ، وأمير الجيش ، وقاتل الجبارين ، والمنتقم من أعداء الدين، والمقيد من الأوتار ، فأعدوا واستعدوا ، وأبشروا واستبشروا ، أدعوكم إلى كتاب الله ، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وإلى الطلب بدماء أهل البيت والدفاع عن الضعفاء ، وجهاد المحلّين والسلام " ^(٢) .

وقد أطلق سراح المختار بوساطة سعى فيها صهره عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وبكفالة عشرة من وجهاء الكوفة وأشرافها ، وبعد أن أقسم بالله قال : " ... لا يبغيهما غائلة ولا يخرج عليهما ما كان لهما سلطان ، فإن هو فعل فعليه ألف بدنة ينجرها لدى رتاج الكعبة ، ومما ليكه كلهم ذكرهم وأنتاهم أحراراً " ^(٣) .

(١) طبقات ابن سعد : ج ٥ ، ص ٧١ - ٧٥ .

(٢) تاريخ الطبرى : ج ٥ ، ص ٦٠٦ .

(٣) أنساب الأشراف : البلاذرى ، ج ٥ ، ص ٢١٩ .

بدأ المختار يستعد للسيطرة على الكوفة في محرم ٦٦هـ / آب ٦٨٥ م ، فأرسل إلى أتباعه بهدف جمعهم في الدور حوله ، وبينما هو منشغل في الاستعداد للثورة ، انتاب جماعة من الشيعة من بين أتباعه شك فيما ادعاه بأن ابن الحنفية قد أرسل إليهم ، ولذلك ، قرروا المسير إلى مكة لسؤال ابن الحنفية عن حقيقة ما ادعاه المختار . وقد كان جواب ابن الحنفية لهم : " ... فوالله ، إن الله انتصر لنا من عدونا بمن شاء من خلقه ... " ^(١) . ويبدو أن الوفد قد اعتر تصريح ابن الحنفية هذا بمثابة موافقة منه لوقوفهم إلى جانب المختار وتأييده ، على أساس أنه لو كرههم في هذا الأمر ، لمنعهم من الانضمام إلى المختار وتأييده .

وقد كانت هذه المشورة قد حدثت دون علم المختار . ولما علم بما ، انتابه قلق شديد خشية أن يكون جواب ابن الحنفية قد جاء بما يتعارض مع خططه ، لذلك ، حاول أن يعلن ثورته قبل رجوع الوفد ، فلم يستطع ذلك .

وبعد شهر عاد الوفد وأخبر المختار بأن ابن الحنفية أمرهم بتأييده ونصرته . عند ذلك تنفس المختار الصعداء ، فجمع الشيعة وأذاع لهم تأييد ابن الحنفية له . وقد أكد ذلك رئيس الوفد وأتباعه الذين خطبوا بهذه المناسبة .

مما لا شك فيه بأن جواب التأييد الذي جاء به الوفد قد ساهم في رفع مكانة المختار ، وزاد من عدد أتباعه . لأنه شجع أولئك الذين شكوا في ادعاءات المختار حول حقيقة عمله لصالح ابن الحنفية على الانضمام إليه ، أو على الأقل تعاطفهم معه ومشاركتهم له في مشاعرهم ^(٢) .

وحتى يتمكن المختار من مواجهة الوالي وأشرف الكوفة ، كان ينبغي عليه أن يحصل على تأييد ومؤازرة إبراهيم بن مالك بن الأشتر . وكان إبراهيم بن مالك بن الحارث الأشتر - أحد أشرف قبيلة النخع من مذحج - ، من مؤيدي علي بن أبي طالب . وكان إبراهيم كوالده ذا نفوذ كبير في قبيلته . وقد رافق والده في موقعة (صفين) إلى جانب الإمام علي ، وبقي مخلصاً له ولأفراد بيته . ويمكن تفسير عدم

(١) تاريخ اليعقوبي : ج ٢ ، ص ٣٠٨ .

(٢) الخلافة الأموية : عبد الأمير دكسن ، ص ٧٢ .

انضمام ابن الأشر إلى سليمان بن صرد ، أو إلى المختار الثقفي ؛ انطلاقاً من أن ابن الأشر لم يكن يؤمن بالحركة الشيعية كما كانت آنذاك ، وربما لأنه لم يكن يثق بأى من هذين الزعيمين ، أو أنه اعتبر نفسه في موقع يوازي مكانتهما ، إن لم يكن يفوقهما كفاءة .

ومما يؤكد وجهة النظر هذه ، الجواب الذي أعطاه ابن الأشر لأتباع المختار عندما سألوه الانضمام إلى حركتهم . فقد أرسل المختار إليه وجهاء الشيعة والمتنفذين من أتباعه ، ومن بينهم : عامر الشعبي وأبوه ، وعندما سألوه الانضمام إليهم أبدى موافقته على ذلك ، ولكنه اشترط أن تناط به قيادة الحركة . وردوا عليه بعدم إمكانية ذلك ، طالما أن المختار كان قد أرسل إليهم من قبل المهدي محمد بن الحنفية . ورغم شرط ابن الأشر هذا ، حاول المختار أن يكسبه إلى جانبه ، فسعى إلى التوفيق بين مراده وبين مطلب ابن الأشر ، حيث ذهب بعد ثلاثة أيام بصحبة عدد من أتباعه إلى ابن الأشر حاملين له رسالة تحضه ، ادعوا فيها أن ابن الحنفية كتبها له . ونص هذه الرسالة هو : " بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد المهدي إلى إبراهيم بن مالك الأشر ، سلام عليك ، فإنني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو . أما بعد ، فإنني قد بعثت إليكم بوزيري وأميين ونجيبين الذي ارتضيتهم لنفسى ، وقد أمرته بقتال عدوى والطلب بدماء أهل بيتي ، فانهض معه بنفسك وعشيرتك ومن أطاعك ، فإنك إن نصرتنى ، وأجبت دعوتي ، وساعدت وزيري ، كان لك عندي بذلك فضيلة ، ولك بذلك أمانة الخيل ، وكل جيش غاز ، وكل مصر ومنبر وثغر ظهرت عليه فيما بين الكوفة أقصى بلاد أهل الشام ، وعلى الوفاء بذلك على عهد الله ، فإن فعلت ذلك نلت به عند الله أفضل الكرامة ، وإن أبيت هلكت هلاكاً لا تستقيه أبداً ، والسلام عليك " (١) .

وقد شهد جميع الذين وفدوا مع المختار أمام ابن الأشر بأنهم شاهدوا ابن الحنفية وهو يكتب الرسالة له ، فقبلت الرسالة دون اعتراض .

(١) أنساب الأشراف : البلاذري ، ج ٥ ، ص ٢٢٢ .

ولكن ابن الأشرر أشار إلى أن ابن الحنفية سبق وأن كتب له ، كما أنه كتب إلى ابن الحنفية قبل اليوم ، فما كان يكتب إلاّ باسمه واسم أبيه . بناءً على ذلك ، طلب من المختار توضيحات أكثر حول هذا الموضوع ، فأجابته : إن ذلك زمان وهذا زمان . ومع ذلك فقد طلب ابن الأشرر من عامر الشيعى بأن يشهد على ما ادعاه الشهود : وهو أن ابن الحنفية كان قد كتب الرسالة . ويبدو أن التوضيحات التى أوردها المختار بشأن ذلك ، وشهادة الشهود ، قد أقنعت ابن الأشرر . وقد شكل هذا الحدث بداية لتحالف ابن الأشرر مع المختار وتعاونه معه ، حيث بدأ يحضر الاجتماعات فى بيته .

لقد اجتمع رأى المختار وأصحابه على إعلان الثورة ، وحددوا يوم الخميس ١٤ ربيع الأول سنة ٦٦هـ موعداً لانطلاقها ، ولكن يبدو بأن استعدادات المختار للثورة لم تغب عن عيون صاحب شرطة الوالى ، إلا أنه لم يكن يعرف الموعد المحدد لها بالضبط .

وفى مساء يوم الثلاثاء ١٢ ربيع الأول سنة ٦٦هـ ، ذهب ابن الأشرر وبمجموعة من أتباعه تقدر بمائة فرد ، وأخفوا أسلحتهم فى بيت المختار كعادتهم . ولم يحاول ابن الأشرر تحاشى قوات الوالى ، ربما كنتحده له . وفى طريقه إلى هناك التقى بإياس بن مضارب وشرطته الذين حاولوا منعه من المرور ، وطالبوه بالاستسلام والسير معهم إلى الوالى . فكان جواب ابن الأشرر لهم ، بأن قتل صاحب الشرطة ، فتفرق أتباعه ، واستمر فى المسير إلى بيت المختار . وهناك أخبر المختار بما حدث ، وقدم له رأس إياس صاحب الشرطة ، فسر المختار بذلك ، ولكن ما حدث ، دفعه إلى إعلان الثورة قبل يوم من الموعد المحدد لها . وقد أبلغ المختار أتباعه ببداية انطلاق الثورة وأمرهم بإشعال النيران فى هرادى القصب ، والنداء بشعاراتهم " يا منصور أمت " و " يا لثارات الحسين " (١) .

إن اتخاذ المختار شعار : " يا منصور أمت " لم يكن ذا أهمية . فالمنصور هو الشخص الذى ينتظره اليمانيون ليعيد لهم سلطانهم وسيادتهم ، وهذا الشعار يعنى : " يا منصور اليمن ، أمت أعداء أهل اليمن " ، ولما كان عرب اليمن هم العنصر الغالب

بين أتباع المختار ، فإن تبني هذا الشعار ، كان بمثابة استقطاب لتطلعاتهم السياسية والدينية .

كان المختار وأتباعه يعسكرون قرب (دير هند) في منطقة السبخة ، وكان في جيشه حوالي خمسمائة من الموالي ، على رأسهم قائد منهم .

وقد أرسل الوالي عبد الله بن مطيع ثلاثة آلاف رجل ، على رأسهم شيبث بن ربيعي التميمي إلى (السبخة) ، وراشد بن إيّاس بن مضارب مع أربعة آلاف من الشرط إلى (جبانة مراد) في محاولة منه لمواجهتهم . وفي المقابل أرسل المختار تسعمائة رجل على رأسهم ابن الأشتر ، لمواجهة راشد بن إيّاس ومن معه ، وأرسل نعيم بن هبيرة مع ثلاثمائة فارس وستمائة راجل لمواجهة شيبث بن ربيعي التميمي ، كما جعل يزيد بن أنس مع تسعمائة رجل في مقدمته . وعندما التقى الطرفان بدأت قوات شيبث بن ربيعي تتراجع أمام قوات المختار ، مما دفع شيبث إلى المناداة في جنده لإثارة حفيظتهم ، فكان ينادى : " يا حماة السوء ، بئس خرسان الحقائق أنتم ، أمن عبيدكم تمربون " . إشارة إلى الموالي في جيش المختار ، فتابت إليه جماعة منهم . وكانوا يقتلون كل مولى يقع في أسرهم ، في المقابل هيئوا الفرصة أمام الأسرى العرب للفرار ، ونتيجة لذلك أصبح جيش المختار في موقف صعب .

وفي هذا الوقت ، قام الوالي بإرسال تعزيزات جديدة لأتباعه قوامها ألفا رجل ، على رأسهم يزيد بن الحارث بن رويم . وقد كان المختار في هذا القتال على رأس الرجالة من أتباعه ، بينما كان يزيد بن أنس على الخيالة .

وقد تمكن ابن الأشتر في هذا الوقت من دحر راشد بن إيّاس وقتله ، قبل عزمه على التوجه إلى نجدة المختار . وقد كان لهذا النصر أثر كبير في رفع معنويات أصحاب المختار ، وتثبيط عزائم من كانوا تحت إمرة شيبث بن ربيعي . بعد ذلك أرسل الوالي ، حسان بن فائد بن بكر العبسي مع ألفى رجل ليحول بين ابن الأشتر وبين المختار ، ولكن حسان هُزم واستمر ابن الأشتر في تقدمه . وعندما ظهر ابن الأشتر بدأت قوات شيبث بالتراجع أمامه حتى وصلت إلى الوالي ابن المطيع الذي أصابه اليأس بعد قتل راشد بن إيّاس وهزيمة جنده . ولكن القوات المهزومة عادت فتجمعت مرة أخرى في

الكناسة ، ومع ذلك تمكن ابن الأشتر من دحرها ، فهرب الأشراف ومعهم الموالى إلى القصر ، وظلوا محاصرين فيه مدة ثلاثة أيام . وفى مساء اليوم الثالث ترك ابن المطيع القصر ، وذهب إلى بيت أبى موسى الأشعرى وأخفى نفسه هناك . أما الأشراف فقد طلبوا الأمان من ابن الأشتر ، وعندما أجبوا إلى ذلك ، استسلموا للمختار .

وقد أمضى المختار تلك الليلة فى القصر ، وفى الصباح صعد المنبر فى المسجد وخطب فى الناس ، وعقب انتهاء خطبته بايعه الناس لا سيما الأشراف وغيرهم . وكانت البيعة على " كتاب الله وسنة نبيه والطلب بدماء أهل البيت وجهاد المحلين والدفاع عن الضعفاء وقتال من قاتلنا وسلم من سالنا والوفاء ببيعتنا لا نقيلكم ولا نستقيلكم " (١) .

وقد سعى المختار منذ استيلائه على الكوفة إلى التوفيق بين جميع الفئات ، كما أظهر العدالة ، ونشر الأمن .

وقد وجد المختار فى بيت مال الكوفة تسعة ملايين درهم ، فأعطى كل واحد اشترك فى مهمة السيطرة على القصر خمسمائة درهم ، وكانوا ثلاثة آلاف وثمانمائة رجل . وأعطى كل فرد انضم إليه بعد ذلك مائى درهم ، وقدروا بستة آلاف فرد . وفى محاولته لإظهار صفة التسامح منع المختار أتباعه من أن يقتلوا أحداً (٢) .

كما عمل المختار كذلك من أجل حماية الضعفاء ، وأكد فى بيعته تمثيلاً مع مبادئ الإسلام على مبدأ المساواة بين جميع المسلمين بغض النظر عن قوميتهم أو جنسهم .

لقد أباح المختار للموالى مشاركة العرب بالفىء وركوب الخيل . كما عين كيسان أباً عمرة مولى عرينة على حرسه . وربما جاء تعيين كيسان فى هذا المنصب جراء ثقة المختار به دون غيره ، أو لأن كيسان كان أكثر نفوذاً من بين الموالى المؤيدين للمختار . كما أعلن المختار أيضاً أن كل عبد ينضم إليه سيكون حرّاً . فليس غريباً أن يزداد عدد الموالى والعييد بين أتباعه إلى درجة كبيرة .

(١) أنساب الأشراف : ج ٥ ، ص ٢٢٨ .

(٢) المصدر نفسه : ج ٥ ، ص ٢٢٨ .

وفي هذه الأثناء تقدم ابن زياد نحو الموصل في طريقه إلى الكوفة . عند ذلك كتب عبد الرحمن بن سعيد بن قيس الهمداني والى الموصل إلى المختار بن أبي عبيد الثقفي يخبره أنه بسبب قلة رجاله ترك الموصل وذهب إلى تكريت منتظرًا أوامره ، فأرسل المختار بناءً على ذلك ثلاثة آلاف فارس كلهم من العرب بقيادة يزيد بن أنس الأسدي . فالتقوا مع جزء من الجيش الشامي في ١٩ ذى الحجة سنة ٦٦هـ / ١٧ تموز سنة ٦٨٦م عند الفجر في مكان يبعد خمسة فراسخ عن الموصل . وقد انتهت هذه المعركة بانتصار يزيد بن أنس بالرغم من مرضه في ذلك الوقت ، ومن أن جيشه كان يساوى نصف عدد جيش أهل الشام ، ولكن في أثناء القتال توفي يزيد الأسدي بعد أن كان قد أمر بقتل جميع الأسرى من أهل الشام . وقد سببت وفاته ضعفًا ملموسًا في عزائم أتباعه ، إذ رأوا أنه من الحكمة الانسحاب نظرًا لقلّة عددهم وعدم قدرتهم على مواصلة الصمود في وجه جيش أهل الشام الذي يقدر عدده بثمانين ألفًا، والذي كان يواصل الزحف نحوهم .

إن انسحاب جيش المختار كان له ردة فعل عنيفة في الكوفة . إذ راجت إشاعات مفادها : أن عبيد الله بن زياد دحر جيش المختار ، وقتل قائده يزيد بن أنس ، وهو يتقدم الآن بجيشه الكبير نحو الكوفة .

وعندما سمع المختار ذلك أمر قائده ابن الأشر بالتحول بملاقاة عبيد الله بن زياد بجيش قوامه سبعة آلاف رجل ، وأمره أن يضم إليه جيش يزيد بن أنس .

إن تقدم جيش أهل الشام تجاه منطقة نفوذ المختار من جهة ، وخروج جزء كبير من جيشه بعيدًا عن الكوفة من جهة أخرى ، جعل موقفه حرجًا ، فقد شجع هذا الظرف أشرف أهل الكوفة على إبداء مظاهر التحدي له ، بل والاستعداد للتخلص من حكمه . فقد أدان أشرف الكوفة المختار لإقدامه على تنصيب نفسه حاكمًا عليهم دون رضاهم ، وقيامه أيضًا على رفع مكانة مواليتهم ، ومنحهم امتياز ركوب الخيل والاشتراك في الفياء ، واستلام العطاء . وكان المتكلم باسمهم شيبث بن ربعي التميمي، حيث نقل شكواهم هذه إلى المختار^(١) .

(١) الأخبار الطوال : الدينوري ، ص ٣٠٦ .

استعد الأشراف للثورة ، وذهبوا إلى عبد الرحمن بن مخنف ، فدعوه إلى الخروج معهم ، فنصحهم بعدم الخروج على المختار ، قائلاً : " إني أخاف أن تتفرقوا وتختلفوا وتتخاذلوا ، ومع الرجل والله شجاعاً لكم وفرسانكم من أنفسكم ... ثم معه عبيدكم ومواليكم وكلمة هؤلاء واحدة ، ومواليكم أشد حنفاً عليكم من عدوكم ، فهو مقاتلكم بشجاعة العرب وعداوة العجم ، وإن انتظرتوه قليلاً كفيتموه بقدم أهل الشام أو بمجىء أهل البصرة ، فتكونوا قد كفيتموه بغيركم ولم تجعلوا بأسكم بينكم " ^(١) ، ولكن يبدو أن نصيحته هذه قد رُفضت ، ولكنه انضم فيما بعد إليهم في الثورة ضد المختار .

وبعد رحيل ابن الأشر لقتال جيش أهل الشام الذى كان يقوده عبيد الله بن زياد ، قامت ثورة الأشراف ، واحتل الثوار الأماكن المهمة في الكوفة .

وقد نجح المختار في استدعاء ابن الأشر مع قواته إلى الكوفة . وبينما كان في انتظار وصوله ، فإنه لم يدخر جهداً في سبيل مصالحة الأشراف ومهادنتهم ، فأرسل إليهم بوعوده واستعداده للاستجابة إلى جميع رغباتهم . وعندما طالبوه باعتزالهم ، بسبب بطلان ما ادعاه بشأن مسألة مراسلة ابن الحنفية لسؤاله عن ذلك . ويبدو أن المختار قد لجأ إلى هذا الإجراء لتحقيق هدفين مهمين : الأول أن يحدث خلافاً بينهم ، والثانى أن يكسب الوقت لحين وصول ابن الأشر . ومع ذلك لم يقبل الأشراف بما اقترحه عليهم المختار ، وقرروا انتهاز هذه الفرصة للتخلص من المختار ، كذلك لجأ المختار إلى اعتماد استراتيجية جديدة تهدف إلى زيادة العداوة بين الموالى - وهم أربعون ألفاً في هذا الوقت - وبين أسيادهم من الأشراف ، وذلك من خلال إقناعهم بأن قتالهم معه يصب في مصلحة قضيتهم الخاصة التى هى قضيتهم ، وأن الأشراف لم يخرجوا عليه إلا لأنه قام بتقديمهم في المناصب ، وسعى إلى تحسين أوضاعهم .

وبعد ثلاثة أيام من خروجه رجع ابن الأشر إلى الكوفة ، وفى يوم الأحد الرابع والعشرين من ذى الحجة سنة ٦٦هـ / الثانى والعشرين من تموز سنة ٦٨٦م ، جمع الأشراف قواتهم في ثلاثة مواقع : مضر في الكناسة ، وأهل اليمن في جبانة السبيع ،

(١) نهاية الأرب في فنون الأدب : النويرى ، ج١٩ ، ورقة ١٨ .

وربيعة في السبخة . ولعلمه بالعصية القبلية ، طلب المختار إلى ابن الأشتر قتال مضر بالكناسة ، بينما ذهب هو نفسه لقتال أهل اليمن ، لاعتقاده أن ابن الأشتر ربما يتعاس عن قتال قومه من أهل اليمن ، ولا يخلص له في أداء هذه المهمة .

وقد تحققت توقعات عبد الرحمن بن مخنف ، إذ سرعان ما بدأت المنافسة والغيرة تستشري بين الأشراف ، مما ساعد ذلك على تحقيق انتصار مؤثر للمختار .

نظم المختار أتباعه بعد الانتصار الذي حققه ، وعقد الرايات لقواده ، فأرسل جيشاً مع ابن الأشتر لقتال ابن زياد بالجزيرة ، الذي كان يستعد للزحف على العراق بعد هزيمة التوابين ، لولا انشغاله بفتنة القيسية في الجزيرة ، حيث يبدو أنه استمالهم في النهاية ، فتقابل جيش ابن الأشتر مع جيش ابن زياد عند نهر خازر ، قرب الموصل سنة ٦٧/٦٨٦م ، ودارت بينهما معركة عنيفة انتهت بانتصار ابن الأشتر ، وإذ بالدائرة هذه المرة تدور على جيش الأمويين ، لا سيما بعد أن انضمت القيسية في جيش ابن زياد إلى ابن الأشتر ، جراء حقد لم ينسوه تجاه الأمويين الذين أوقعوا بهم القتل في موقعة راهط ، وقد تتبع ابن الأشتر أعداءه ، فغرق منهم أكثر ممن قتل ، وتمكن ابن الأشتر من قتل ابن زياد بنفسه ، فضربه ضربة قذته نصفين ^(١) ، كما وقع الحصين بن نمير في الأسر ، فأقدم المختار على قتله بعد أن قرضه بالمقاريض ^(٢) ، وحينما أرسل ابن الأشتر ببشارة النصر إلى المختار ، ولاه على الجزيرة ، فأقام بها ، ووجه عماله على مدنها ^(٣) .

لقد ساهمت جملة من العوامل في الانتصار الذي حققه ابن الأشتر رغم قلة عدد جيشه بالمقارنة مع جيش عبيد الله بن زياد ، فإلى جانب شجاعة ابن الأشتر وكفائه العسكرية ، فقد لعب الحماس الديني للشيعنة دوره في هذه المعركة ، إذ التقى هؤلاء الشيعة وجهاً لوجه مع ابن زياد قاتل الحسين "رضي الله عنه" ، هذا الحماس الذي أذكته خطبة ابن الأشتر قبيل المعركة ، كما أن انضمام القيسية في جيش عبيد الله بن زياد إلى جيش ابن الأشتر ساهم في انتصار ابن الأشتر ، فقد ذكر أن عمير بن الحباب

(١) الكامل : ابن الأثير ، ج ٣ ، ص ٣٦٤ - ٣٨١ .

(٢) في مقتل الحسين ، ورسالة أخذ النار وانتصار المختار : أبو مخنف ، ص ١٠٠ .

(٣) الأخبار الطوال : الدينوري ، ص ٢٨٩ .

السلمى - الذى كان على ميسرة جيش ابن زياد ومعه القيسيون - قد زار ابن الأشر، وأخبره بأنهم يكون الكره تجاه آل مروان بسبب معركة مرج راهط ، ووعده بمزيمه ابن زياد عندما تبدأ المعركة ^(١) ، وبالفعل فقد تم ذلك .

وإبان ذلك أخذ المختار يتعقب بلا هوادة كل من خرج إلى قتال الحسين أو اشترك فى دمه ، فكان يحرقهم ، ويقطع أيديهم وأرجلهم ، ويطنعهم بالرماح ، ويتبعه الفعلة بالمعاول لهدم دورهم ، حتى بلغ من عذب منهم عشرون ألفاً ، وفوق ذلك تمكن من الإيقاع بالشخصين اللذين يعتبران مسئولين عن قتل الحسين ، وهما : شمر بن ذى الجوشن ، الذى ركب صدره الشريف وذبحه ، وكان شمر قد هرب من الكوفة بعد وثوب المختار بها ، ولكن المختار أرسل إليه من تمكن من قتله ، وعمر بن سعد ، الذى كان قد تولى قيادة الجيش الأموى إلى كربلاء ، ثم اختفى بعد ذلك بالكوفة ، ولكن المختار ظفر به وأحضره بين يديه ، فقتله صبراً ، بأن أمر به ، فجرده من أطماره ، ولوى شفتيه وأذنيه كما يلوى فى البهيمة ، وشد لحيته ، وقلع أضراسه ، وسبل عقد أصابعه ، وقرض لحمه ، وقطع لسانه ، وغور عينيه ، فمات ، وأخذ رأسه وبعث بها إلى بنى هاشم بالحجاز ، كذلك تمكن المختار من إخماد ثورة عرب الكوفة من غير الشيعة ، وعلى رأسهم أشرفهم من رؤساء القبائل ، تلك الثورة التى اشتعلت بحجة أن المختار باعد العرب وقرب الأعاجم ، وقد تم إخماد الثورة ، وهرب معظم الأشراف إلى البصرة ، فإن الإنجازات التى حققها المختار نالت إعجاب بنى هاشم وثناءهم ، حتى قال ابن العباس عنه : " إنه أصاب بثأرنا " ^(٢) .

حاول المختار أن يتجنب العداء السافر مع عبد الله بن الزبير ، لذلك بدأ معه اتصالات دبلوماسية، فحاول أولاً أن يبرر له أسباب طرد عامله على الكوفة عبد الله ابن مطيع متهماً إياه بأنه كان يعمل لصالح عبد الملك بن مروان ، كما كتب إليه يذكره بالشروط التى على أساسها بايعه قائلاً : " فقد عرفت مناصحتى إياك وجهدى على أهل عداوتك وما كنت أعطيتنى إذا فعلت ذلك من نفسك ، فلما وفيت وقضيت

(١) الخلافة الأموية : عبد الأمير دكسن ، ص ٩٩ .

(٢) طبقات ابن سعد : ج ٥ ، ص ٧٣ .

الذى كان لك على خست بي ولم تف بما عاهدتني عليه ورأيت مني ما قد رأيت فإن ترد مراجعتي أراجعك وإن ترد مناصحتي أنصح لك " (١) .

ولكن عبد الله بن الزبير أراد أن يختبر إخلاص المختار له ، فأرسل والياً جديداً على الكوفة هو عمر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي ، وعندما وصلت أخبار ما قام به ابن الزبير إلى المختار بواسطة أحد عيونه في مكة ، أرسل زائدة بن قدامة مع خمسمائة من الفرسان بقيادة مسافر بن سعيد الناعطي ، وسبعين ألف درهم - وهي ضعف ما أنفقه الوالي الجديد في جهازه - وطلب إلى قدامة أن يأمر الوالي الجديد بأخذ المال والرجوع من حيث أتى ، وفي حالة رفض الوالي ذلك ، فعلى ابن قدامة أن يريه الخيالة ، ويخبره أن هناك مائة كتيبة أخرى وراءها ، وقد رفض عمر المخزومي في البداية أن يأخذ المال ، وحاول أن ينفذ أوامر ابن الزبير ، ولكنه عندما رأى الخيالة ، رضخ وأخذ المال ، وذهب إلى البصرة (٢) .

ويبدو أن الظروف السياسية قد أجبرت المختار مرة أخرى على التصرف بصورة سرية ، فأخذ يسعى إلى صداقة ابن الزبير ، وفي نفس الوقت كان يعمل على تقويض سلطته .

أما نهاية المختار وحركته فكانت على يد مصعب بن الزبير الذي ولى في سنة ٦٧هـ - البصرة لأخيه عبد الله بن الزبير ، بعد أن عزل عنها عاملها السابق من قبله : القُباع ، فقد وجد عبد الله بن الزبير أن استفحال أمر المختار في الكوفة كان يشكل خطراً كبيراً على مركزه في العراق ، فعهد لذلك بولاية البصرة والكوفة إلى أخيه مصعب ، الذى كان كما وصفه عبد الملك بن مروان : " ذاك الليث النهدي " (٣) ، وأمره أن يقضى على المختار ، وأن يعيد الأمور إلى نصابها في العراق .

لما سمع المختار عن استعدادات مصعب للحرب ضده ، اعتقد أنه قد أرسل من قبل ابن الأشتر ، لأنه خذله وقعد عنه ، فقام خطيباً في أتباعه ، وأخبرهم أن ابن الأشتر قد

(١) الكامل : ابن الأثير ، ج ٤ ، ص ٢٠٣ .

(٢) أنساب الأشراف : البلاذري ، ج ٥ ، ص ٢٤٣ .

(٣) تاريخ الطبرى : ج ٦ ، ص ١٠ .

خذله وقعد عن نصرته ، وسألهم أن ينضموا إلى جيش أحمر بن شميظ ، ومع ذلك فإن المختار كان في حاجة ماسة إلى مساعدة ابن الأشتر وإلى خبرته العسكرية ، خاصة بعد هزيمة جيشه في المذار ، ولذلك كتب له عدة مرات يطلب مساعدته ، ولكنه رفض الاستجابة له .

قام مصعب بالمهمة التي عهد بها إليه أخوه خير قيام ، فاستدعى بعد قدومه البصرة المهلب بن أبي صفرة الذي كان يتولى فارس لابن الزبير ، ويقوم بحرب الخوارج فيها ، ووجهه إلى الكوفة لقتال المختار ، ثم لحق مصعب بالمهلب وجعله على مسيرته ، وقد قام مصعب بهذا الإجراء حتى يمنع المختار من استباقه ، فيقدم على مهاجمة البصرة ، لا سيما وأن المختار سرح جيشاً إلى المذار^(١) لمهاجمة البصرة ، ولكن مصعباً ترك البصرة وتوجه إلى المذار ، وعسكر قريباً من جيش المختار ، وجرت بين الجيشين معركة قُتل فيها قائد جيش المختار أحمر بن شميظ البجلي ، وتابع مصعب سيره بعد ذلك براً عبر واسط حتى وصل الفرات ، فأركب جيشه السفن وعبروا النهر حتى وصلوا الكوفة ، أما المختار نفسه فقد كان في المدائن كعادته ينتظر الأخبار ، وعندما وصلته أنباء الهزيمة^(٢) تألم وتمنى مينة كريمة مثل مينة أحمر بن شميظ ، وبدا أنه سيسميت بالقتال ، حيث بدأ يستعد للحصار ويتقوى بالأموال والسلاح في الوقت الذي انفتحت فيه الطريق إلى الكوفة أمام قوات مصعب بن الزبير ، الذي اتخذ احتياطات عسكرية ذكية ، تمثلت في قطع الطريق النهري أمام أصحاب المختار^(٣) ، أما أصحاب المختار الذين تحصنوا معه فكانوا ثمانية آلاف فقط وهرب الباقون عندما وصلت جيوش مصعب إلى الكوفة ، وقد أحكم مصعب بن الزبير الحصار على القصر^(٤) ، ثم شدد على المؤونة وحال دون وصولها إلى القصر ، وكانت المؤونة والمال تصل المختار وأصحابه عن طريق السبخة ، تحضرها النساء لهم بطرقهن الخاصة، فندب مصعب بن الزبير عبيد الله بن الحر لملاحقة السقائين الذين استغلوا فرصة عطش

(*) وهي بلدة بين واسط والبصرة بينها وبين البصرة نحو من أربعة أيام .

(١) الكامل : ابن الأثير ، ج ٤ ، ص ٢٧٠ .

(٢) المصدر السابق : ج ٥ ، ص ٢٥٨ .

(٣) المصدر السابق : ج ٥ ، ص ٢٦٠ .

أصحاب المختار ، وأخذوا يبيعون شربة الماء بدينار أو دينارين ^(١) ، وكان المختار قد وضع العسل في بئر الماء الوحيدة الموجودة في القصر ليتقوى به أصحابه ، ولكن نقص المؤونة والماء بينهم أدى إلى ضعف مقدرتهم القتالية وبث الذعر فيهم .

وتختلف الروايات في مدة الحصار ، فيذكر الطبرى أنها أربعة أشهر ^(٢) ، ويبين الدينورى في موضع أنها شهران ^(٣) ، وفي موضع آخر أنها أربعون يوماً ^(٤) ، ويبدو أن ما يذكره الواقدي غير ممكن ، لأن عدد المحصورين في القصر كبير ولا تكفيهم المؤونة، ثم إن في تجربة حصار المختار لابن مطيع في قصر الإمارة ما يوحي بصعوبة هذه التجربة مع أن عدد المحصورين مع ابن مطيع لم يكن كبيراً ، وهذا يدعو إلى الأخذ بأقل عدد توردته المصادر لمدة الحصار وهو أربعون يوماً ، وكان المختار يخرج أثناء الحصار مع أصحابه فيقاتلون قتالاً ضعيفاً ، ثم يعودون إلى القصر .

شعر المختار بعدم جدوى الحصار فقرر الخروج مستميتاً ، فدعا أصحابه فخرج معه مائتا رجل فقط ، وقد أبدى المختار شجاعة ومقدرة في القتال ، إذ قتل رجلاً بصرياً يعد من مقاتليهم الأشداء اسمه : يحيى بن ضمضم الضبي ، وكان أصحابه قد خافوه وتراجعوا عن مواجهته ، إلا أن المختار تراجع عندما تكاثر عليه أصحاب مصعب ، وحاول إثارة أصحابه ببلاغة مؤثرة قائلاً : (إني والله إن قتلت لم تزدادوا إلا ضعفاً وذلاً ، ثم إن أخذتم ذبحتم كما تذبح الغنم ، يقولون هذا قاتل أبي ، وهذا قاتل أخي ، وإن قاتلتم صابرين قتلتم فمتم كراماً) ^(٥) . ويبدو أن أصحاب المختار تخاذلوا وتمسكوا بالاختباء في القصر ، فتبين له فشل أصحابه وتخليهم عنه .

وبدت النهاية أمام المختار واضحة ، فتحنط وتطيب وخرج مستميتاً في عدد من أصحابه قليل ، لا أقل من سبعة عشر رجلاً ولا أكثر من تسعة وعشرين ^(٦) ، واندفع

(١) تاريخ الطبرى : ج ٦ ، ص ١٠٥ .

(٢) المصدر السابق : ج ٦ ، ص ١١٥ .

(٣) الأخبار الطوال : الدينورى ، ص ٣٠٩ .

(٤) المصدر السابق : ص ٣٠٧ .

(٥) أنساب الأشراف : البلاذرى ، ج ٥ ، ص ٢٦٢ .

(٦) تاريخ الطبرى : ج ٦ ، ص ١٠٧ .

يقاتل حتى ألقاه أصحاب مصعب بن الزبير إلى حائط فى سوق الزياتين وقتلوه مع أصحابه جميعاً ، وتختلف الأخبار فىمن قتله ، قيل: قتله أخوان من عتره اسمهما: طرفه وطريفه ، وقيل: إن تميمًا تدعى أن قاتله تميمى ، فى حين تدعى ربيعة أنه: طراف بن يزيد الحنفى ^(١) ، والمتفق عليه أنه قتل فى صبيحة الرابع والعشرين من شهر رمضان سنة ٦٧ هـ / ٦٨٦ م ، وله من العمر سبعة وستون عاماً ^(٢) .

وقد أمر مصعب بن الزبير بقطع يد المختار اليمنى ، ثم سمرها على حائط المسجد ، وبعث برأسه ورؤوس وجهاء أصحابه إلى أخيه عبد الله بمكة ، فلم تزل مسمورة حتى قدم الحجاج بن يوسف الثقفى إلى الكوفة ، فأمر بها ، فانتزعت ثم دفنت ^(٣) .

قام مصعب باضطهاد أهل الكوفة ، وسمى نفسه الجزار ، وفعل بهم ما كان يفعله عمال بنى أمية ، ويبدو أن ذلك حدث تحت ضغط الكوفيين الموتورين من الأشراف فأصدر أمراً بقتل المحصورين جميعاً صبراً فى مذبحه جماعية مؤثرة ^(٤) ، وتختلف الروايات فى عدد المقتولين ، حيث تتفق روايات أبى مخنف وعوانة وعمر بن شبة وابن عياش على أنهم ستة آلاف ^(٥) ، وفى رواية أخرى لعوانة أنهم خمسة آلاف ^(٦) ، ويصل العدد عند المسعودى إلى سبعة آلاف ^(٧) ، ثم تسعة آلاف عند صاحب تاريخ الخلفاء وهو تصحيف للخبر السابق ، أما ابن أبى شبيه فيذكر أنهم ثلاثة آلاف ، وأقل الأعداد التى رويت تجعلهم سبعمائة ^(٨) .

وأجبر حريم المختار على التبرؤ منه ، فقبلن إلاً واحدة قتلها ، هى عمرة بنت النعمان بن بشير ، التى قالت : " إنه كان عبداً من عباد الله الصالحين " ، وهى أول

(١) مروج الذهب : المسعودى ، ج ٥ ، ص ٢٢٥ .

(٢) أنساب الأشراف : البلاذرى ، ج ٥ ، ص ٢٦٤ .

(٣) طبيعة الدعوة العباسية : فاروق عمر ، ص ١٠٩ .

(٤) تاريخ الطبرى : ج ٦ ، ص ١١٦ .

(٥) الأخبار الطوال : الدينورى ، ص ٣٠٩ .

(٦) أنساب الأشراف : ج ٥ ، ص ٢٧١ .

(٧) مروج الذهب : المسعودى ، ج ٥ ، ص ٢٢٧ .

(٨) الإمامة والسياسة / ص ٢٥٧ .

امرأة ضربت عنقها صبراً في الإسلام^(١) ، فكان لمقتلها أثر مفرح حتى ذكرها الشعراء وتوجعوا لها^(٢) .

وبذلك عاد العراق إلى سلطان ابن الزبير ، وأخذت أكبر الحركات الثورية ، التي تطلعت إلى الانتصار لعصبة بني هاشم ، ولكن بعد مقتل المختار ، أصبح هؤلاء لا حول لهم ولا قوة في ظل حكم الطاغية ابن الزبير ، فرحل ابن العباس وابن الحنفية من مكة إلى الطائف هرباً منه ، حيث توفى بها ابن العباس في نفس العام ، أما ابن الحنفية فبقى فيها إلى أن وقعت حادثة قتل ابن الزبير ، حيث قفل بعدها إلى مكة ، وتوفى بالمدينة عام ٨١هـ / ٧٠٠م ، كذلك على بن الحسين أقام بالمدينة طيلة مدة الفتنة ، ويبدو أن ابن الزبير كان يعتقد أن علياً بن الحسين لم يكن على صلة بأعمال المختار ، ولذلك لم يتعرض له ، وتوفى في خلافة الوليد ، حوالي عام ٩٤هـ / ٧١٢-٧١٣م^(٣) .

إن هذه الحركة لم تكن مجرد ثورة على حكم بني أمية وثورة ابن الزبير معاً ، وإنما كانت بداية خط في حركة التشيع عرف باسم (الشيعة الكيسانية) ، نسبة إلى كيسان أبي عمرة صاحب شرطة المختار ، أو إلى مولى لعلي بن أبي طالب ، أو لمحمد ابن الحنفية اسمه كيسان ، استطاع أن يحيط بالعلوم ، ويقتبس الأسرار عن هذين السيدين من علم التأويل والباطن ، أو أن كيسان كان لقباً للمختار نفسه . كما عرفت حركة المختار بأسماء أخرى منها « المختارية » نسبة إليه أو « الخشبية » نسبة إلى العصى الخشبية التي كان الموالي يستعملونها أثناء القتال معه .

(١) تاريخ اليعقوبي : ج ٣ ، ١٣ .

(*) إن من أعجب العجائب عندي قتل يضاء حرة عطبول

قتلوها ظلماً على غير ذنب إن لله درها من قليل

انظر : البلاذري : ج ٥ ، ص ٢٦٤ ، والطبري : ج ٦ ، ص ١١٣ ، والدينوري : ص ٣١٠ ، وابن الأثير :

ج ٤ ، ص ٢٧٦ .

(٢) طبقات ابن سعد : ج ٥ ، ص ١٦٤ .

تعتبر هذه الثورة بمثابة انقلاب خطير فى حركة المعارضة العلوية ؛ ذلك لأنها نقلت الإمامة من الفاطميين العلويين إلى محمد بن الحنفية ، وهو ابن الإمام على من غير فاطمة رضى الله عنها .

إن التفاف عدد كبير من العرب حول المختار خلال مراحل ثورته ، كان جراً ما نشره بشأن أسباب مجيئه إلى الكوفة ، وهو الأخذ بثأر الحسين ، والانتصار لآل البيت ، وهذان أمران كان لهما سحرهما فى الكوفة باعتبارها مهذاً للحركة العلوية ، ومستقراً للإمام على نفسه ، ومحط آمال ابنه الحسين الذى روى دمه الطاهر أدم أرضها . هذا فضلاً عن العصبية الإقليمية التى كانت سائدة بين العراق والشام من جهة ، والعراق والحجاز من جهة أخرى .

أما وقوف الموالى إلى جانب حركة المختار ، فهو أمر تؤكد كل المصادر التى بين أيدينا ، ويمكن تفسير الأسباب التى دفعت الموالى إلى تأييد المختار ، وللثورات الأخرى التى رفعت راية التشيع فيما بعد ، بأن طبقة الأشراف من العرب استأثرت بمعظم الخيرات دولهم رغم إسلامهم ، بالإضافة إلى عدم المساواة ، فى وقت حض فيه الإسلام على المساواة بين أتباعه دون اعتبار لجنس أو لون ، هذه المساواة التى لم يحصل عليها الموالى ، بل وظلت حلمًا يراودهم حتى انتصرت الثورة العباسية^(١) .

إن انتصار مصعب على المختار أدى إلى عودة العراق إلى سلطان ابن الزبير ، وإلى القضاء على حركة من أكبر الحركات التى هبطت لنصرة آل على وبني هاشم عمومًا ، بيد أن ابن الزبير لم يهنأ بهذا النصر طويلاً ، حيث قطف ثمار هذا النصر الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان الذى وجه قواته للقضاء على مصعب بن الزبير ، وتمكن من استعادة العراق إلى الصف الأموى بعد أن زال عنه كابوس المختار .

إن المختار كان شيعياً مخلصاً ، لكنه أصبح نافذ الصبر فى ظل تردد محمد بن الحنفية وضعف نشاطه السياسى فيما يتصل بمسألة الأخذ بثأر الحسين بن على « رضى الله عنه » ، خاصة وأنه يرى بجلاء أهمية الانتصارات السياسية التى يمكن أن يحققها مثل

(١) طبقات الدعوة العباسية : ص ١٠٩ - ١١٠ .

هذا الثأر لرجل طموح مثله ، لذلك ، فقد سعى إلى تحقيق طموحاته المهادفة للوصول إلى السلطة من خلال تسميته لمحمد بن الحنفية بالمهدى ، وإثارته موجة متصلة من الحماس الديني وبراعته في صناعة النثر المسجوع ، وظف المختار هذا الحماس الديني في تحقيق طموحه السياسي ، وفي الانتقام من قتلة الحسين « رضى الله عنه » ، وكذلك فإن المختار يبدو أنه اهتم بصدق بالوضع الاجتماعي السيئ للموالى وسعى إلى إصلاحه، مع أن هذا الاهتمام كان يشكل إحدى إرهابات الثورة ، كون الموالى يمثلون فئة اجتماعية يمكن المراهنة عليها في تأييد ثورة كثورة المختار ، كونها تنادى بمبادئ وأفكار تلامس معتقداتها وتتحسس الأوضاع الاجتماعية السيئة التي كان يعاني منها أفرادها .

وعموماً، يمكن القول بأن النجاح السياسي المؤقت الذى انتهت إليه ثورة المختار يعتبر خطوة حاسمة ومفصلية في تاريخ تطور الحركة الشيعية ، وفي نهوض الموالى من المستقع الاجتماعي الذى فرضته ظروف العصر السياسية في ذلك الوقت .

مراجع البحث

- ١ - ابن أعثم الكوفى ، أحمد بن عثمان (ت ٣١٤ / ٩٢٦م) : كتاب الفتح ، مخطوط (Sary Library of Ahmet III) ، اسطنبول (رقم ٢٩٥٦) .
- ٢ - ابن الأثير ، عز الدين على بن محمد (ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٣م) : الكامل فى التاريخ ، دار صادر للطباعة والنشر ، بيروت سنة ١٣٨٥هـ / ١٩٦٥م .
- ٣ - ابن الطقطقى ، محمد بن على بن طباطبا (ت ٧٠٩هـ / ١٣٠٩م) : كتاب الفخرى ، القاهرة ، سنة ١٨٩٩م .
- ٤ - ابن العماد ، عبد الحى بن محمد الحنبلى (ت ١٠٨٩ / ١٦٨٧م) شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، القاهرة ، سنة ١٣٥٠م .
- ٥ - ابن سعد ، محمد (ت ٢٣٠هـ / ٨٤٥م) : كتاب الطبقات ، ليدن ، سنة ١٩٠٥م .
- ٦ - ابن كثير ، إسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٣م) : البداية والنهاية فى التاريخ ، مطبعة السعادة ومكتبة المعارف ، بيروت سنة ١٩٦٦م .
- ٧ - أبو الفداء ، إسماعيل بن على (ت ٧٣٢هـ / ١٣٣١م) : المختصر فى أخبار البشر ، المطبعة الحسينية ، ط١ ، القاهرة .
- ٨ - أبو شعر ، هند : حركة المختار بن أبى عبيد الثقفى فى الكوفة ، رسالة قدمت إلى الجامعة الأردنية لنيل درجة الدكتوراه فى التاريخ ، عمان سنة ١٩٨٣م .
- ٩ - أحمد ، د. محمد حلمى محمد : الخلافة والدولة فى العصر الأموى ، ط١ ، دار المنا للطباعة ، القاهرة سنة ١٣٨٦هـ / ١٩٦٦م .
- ١٠ - البلاذرى ، أحمد بن يحيى (ت ٢٧٩هـ / ٨٩٢م) : أنساب الأشراف ، مخطوط فى Suleymaniye Kutuyhanesi تحت رقم (٥٩٨) .
- ١١ - حمادة ، محمد ماهر : الوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصر الأموى (٤٠ - ١٣٢هـ / ٦٦١ - ٧٥٠م) ، ط٣ ، سنة ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .
- ١٢ - خالدى ، أبو النصر محمد : قصة المختار بن أبى عبيدة الثقفى ، أسباب ثورته ونتائجها ، دراسة اجتماعية وسياسية ودينية ، رسالة لنيل درجة الدكتوراه ، جامعة القاهرة ، سنة ١٩٤٩م .
- ١٣ - الخربوطلى ، على حسين : المختار الثقفى ، القاهرة سنة ١٩٦٣م .

- ١٤ - داوود ، نبيلة عبد المنعم : نشأة الشيعة الإمامية ، رسالة لنيل درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي من جامعة بغداد ، مطبعة الإرشاد ، بغداد سنة ١٩٦٨ م .
- ١٥ - دكسن ، عبد الأمير عبد حسين : الخلافة الأموية (٦٥ - ٨٦ هـ / ٦٨٤ - ٧٠٥ م دراسة سياسية) ، ط ١ ، دار النهضة العربية ، بيروت سنة ١٩٧٣ م .
- ١٦ - الدورى ، عبد العزيز : الجذور التاريخية للشعبوية ، دار الطليعة ، بيروت ١٩٦٢ م .
- ١٧ - الدينورى ، أبو حنيفة محمد بن داوود (ت ٢٨٢ هـ / ٨٩٥ م) : الأخبار الطوال ، تحقيق عبد المنعم عامر ، وزارة الثقافة ، ط ١ ، القاهرة سنة ١٩٦٠ م .
- ١٨ - السيوطى ، جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر (ت ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م) : تاريخ الخلفاء ، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ، الطبعة الثانية ، القاهرة سنة ١٣٧٨ هـ / ١٩٥٩ م .
- ١٩ - شاکر ، محمود : التاريخ الإسلامى ، ط ١ ، ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م .
- ٢٠ - الطبرى ، أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ / ٩٢٣ م) : تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، القاهرة سنة ١٩٧١ م والطبعة الأوروبية أيضًا .
- ٢١ - عاقل ، نبيه : خلافة بنى أمية ، سلسلة تاريخ العرب والإسلام ، دمشق سنة ١٩٧٢ م .
- ٢٢ - عطوان ، د. حسين : الأمويون والخلافة ، ط ١ ، دار الجليل ، سنة ١٩٨٦ م .
- ٢٣ - على ، سيد أمير : مختصر تاريخ العرب ، ط ٤ ، دار العلم للملايين ، بيروت ، سنة ١٩٨١ م .
- ٢٤ - فروخ ، عمر : تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية ، دار العلم للملايين .
- ٢٥ - كتاب سيرة المختار (منسوب إلى أبى مخنف) : مخطوط برقم (٥٢٧٤) فى Chester Beaty Library .
- ٢٦ - ماجد ، د. عبد المنعم : التاريخ السياسى للدولة العربية عصر الخلفاء الأمويين ، الجزء الثانى ، ط ٣ ، ١٩٦٦ م .
- ٢٧ - النجار ، محمد الطيب : تاريخ العالم الإسلامى الدولة الأموية فى الشرق ، مكتبة المعارف ، الرياض سنة ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٥ م .
- ٢٨ - الواقدى ، محمد بن عمر (ت ٢٠٧ هـ / ٨٢٢ م) : كتاب المغازى ، القاهرة سنة ١٩٦٤ - ١٩٦٥ م .
- ٢٩ - الوكيل ، د. محمد السيد : الأمويون بين الشرق والغرب ، دراسة وصفية وتحليلية للدولة الأموية ، القسم الأول ، الطبعة الأولى ١٤١٦ هـ / ١٩٩٥ م .
- ٣٠ - يعقوبى ، أحمد بن على (ت ٢٨٤ هـ / ٨٩٧ م) : تاريخ يعقوبى ، تقديم محمد صادق بحر العلوم ، منشورات المطبعة الحيدرية ، النجف سنة ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٤ م .

obeyikan.com

طرز تخطيط مساجد دهلى
قبل عصر المغول

إعداد الدكتور

أحمد رجب محمد على

أستاذ مساعد بقسم الآثار الإسلامية

كلية الآثار - جامعة القاهرة

obseikan.com

مقدمة

تعد دراسة العمائر الإسلامية بشرق العالم الإسلامي بصفة عامة، وبشبه القارة الهندية بصفة خاصة من المجالات الخصبة التي تحتاج إلى مزيد من الدراسات والأبحاث، إذ إن الإسلام قد دخل الهند منذ عصوره الأولى وبدء فتح الهند سنة ٩٢ هـ - ٧١١م على يد محمد بن القاسم^(١).

ولم يكن دخول محمد بن القاسم الهند وفتحها هو أول عهد هذه البلاد بالإسلام؛ إذ إن الإسلام قد دخل الهند قبل ذلك بكثير؛ على يد التجار حيث كانت هناك صلات قوية بين العرب وثغور الهند. وكان العديد من التجار يقدون إلى بلاد العرب والعكس مما كان له الأثر في اعتناق بعضهم للديانة الإسلامية^(٢). وقد شهدت بلاد الهند بعد فتح محمد بن القاسم العديد من الدول الإسلامية القوية والفاحين المسلمين الأشداء الذين عملوا على نشر الإسلام بين ربوع الهند وفتح المناطق التي لم يمتد سلطان المسلمين إليها.

(١) محمد بن القاسم هو ابن أخى الحاج بن يوسف الثقفي، أوفده الحاج إلى الهند على رأس جيش قسوى وكان عمره آنذاك سبع عشرة سنة. انظر: الإمام الحافظ أبو الفداء بن كثير دمشقي: البداية والنهاية في التاريخ الإسلامي، ج ٩ مطبعة السعادة - بدون تاريخ طبع ص ٧٨. وانظر: محمد عبد الحميد العبد: الإسلام والدول الإسلامية في الهند، الطبعة الأولى، مطبعة الرغائب، القاهرة ١٩٣٩ - ص ٤.

(٢) القاضي أظهر مباركوري الهندي: العرب والهند في عهد الرسالة، ترجمة: عزت عبد الجليل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٣ - ص ١٣، عبد الحميد العبادي: صور من التاريخ الإسلامي، الإسكندرية ١٩٤٨ - ص ١٤٧.

؛ ومن أشهر الدول الإسلامية التي حكمت الهند الدولة الغزنوية خصوصاً في عهد الفاتح الشهير السلطان محمود الغزنوي الذي فتح العديد من المدن التي لم يمتد سلطان المسلمين إليها من قبل ، فغزا أجماطيه و كالنجر في شمال الهند سنة ٣٩٥هـ - ١٠٠٤م^(١) .

وغزا كشمير سنة ٤٠٣هـ سنة ١٠١٢م واستولى على قلاع ميرت وجلمندوا ومترا بشمال الهند^(٢) كما قام السلطان محمود بفتح مدينة قنوج والتي كانت تشتمل على أكثر من عشرة آلاف بيت للأصنام في شمال شرق الهند وضمها إلى حظيرة الدولة الإسلامية^(٣) . وفي سنة ١٠٥٢م غزا محمود الغزنوي ولاية جوجرات وأصبحت منطقة البنجاب في شمال الهند بأكملها في أيدي المسلمين ، وبعد وفاة السلطان محمود تابع ابنه السلطان مسعود فتوحات والده شرقاً وغرباً^(٤) .

وبعد الدولة الغزنوية حكمت الهند دولة أخرى قوية هي الدولة الغورية والتي تنسب إلى مؤسسها الحسن بن الحسين الملقب بعلاء الدين الغوري ٥٤٧هـ - ١١٥٢م ، ومن أشهر حكامها السلطان محمد الغوري الذي وسع حدود الإمبراطورية الإسلامية في الهند وغزا ملتان في غرب الهند سنة ٥٧١هـ ، ١١٧٥م . وفتح لاهور (باكستان الحالية) سنة ٥٧٢هـ - ١١٧٦م . وتلا ذلك فتح العديد من المدن في شمال وغرب الهند^(٥) .

(١) د. عبد المنعم النمر : تاريخ الإسلام في الهند ، الطبعة الثالثة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م - ص ٧٤ .

(2) Mahmud Habib: Sultan Mahmud of Ghazain, New delhi 1967, p. 37

(٣) الشيخ أبو صر العتيبي: تاريخ العتيبي المسمى بالفتح الوهبي ، الهند ، حيدر آباد ١٣٤٨هـ ، ص ٣٧٩ .

(٤) محمد قاسم فرشته : تاريخ شاهان مغل ، مخطوط مؤرخ سنة ٩٩٨هـ محفوظ بقسم المخطوطات مكتبة أزداد عليكره ، الهند ، تحت رقم ٣٣/٣٤٣ تاريخ فارس صفحة ٤٤ ، ٤٥ .

(٥) المؤرخ الهندي عبد الحمى الحسنى الندوى (م ١٢٤١هـ): تاريخ الهند في العهد الإسلامي ، طبعة حيدر آباد ١٩٧٢م ، ص ١٦٦ ، ص ١٦٧ . وانظر .

وبعد الغوريين حكمت الهند دولة تعد من أقوى الدول الإسلامية التي حكمت الهند وهي الدولة المملوكية التي تنسب إلى مؤسسها السلطان قطب الدين أيبك والذي حكم الهند ابتداء من سنة ٦٠٢هـ (١٢٠٦م) وكان قبل ذلك نائباً للسلطنة في عهد آخر السلاطين الغوريين وهو السلطان محمود بن غياث الدين^(١) وبعد الدولة المملوكية حكمت الهند الدولة الخلاجية والتي تنسب إلى مؤسسها جلال الدين فيروز الخلاجي سنة ٦٨٩هـ ، والذي واصل فتوحاته هو وخلفاؤه لإتمام نشر الإسلام في ربوع الهند^(٢) .

ومن أشهر الدول الإسلامية التي حكمت الهند دولة بني طغلق (الطغلقيين) وتنسب هذه الدولة إلى مؤسسها « غياث الدين طغلق شاه » سنة ٧٢١هـ ، سنة ١٣٢١م ، ومن أشهر حكامها محمد شاه طغلق الذي غزا الملتان ودخل دهلي واستولى عليها^(٣) . وفي سنة ٧٥٥هـ غزا تيمور لنك بلاد الهند ودخل دهلي غير أنه لم يمكث في دهلي سوى خمسة عشر يوماً بعدها تركها ورحل عن أرض الهند^(٤) .

وبعد رحيل تيمور لنك عادت الهند إلى حكم بني طغلق ثم تلا دولة بني طغلق دولة السادات الأشراف وهم ينسبون إلى أشراف قريش المكرمين^(٥) . وبعد أسرة الأشراف حكمت الهند دولة بني لودي والتي تنسب إلى مؤسس هذه الأسرة « بهلول اللودي » وهو من أصل أفغاني حكم الهند وأسس بها دولة سنة ٨٥٥هـ^(٦) وبعد أسرة بني لودي حكمت الهند دولة المغول والتي استمرت حتى سنة ١٨٥٧م حين بدء الاحتلال الإنجليزي للهند .

(١) د. عبد المنعم النمر : المرجع السابق ، ص ١٠٤ .

(٢) عبد الحى الحسينى الندوى : المرجع السابق ، ص ١٨٦ .

(3) Futuhs - salatin (Shah Namah hindo of islam, volume three, translation and commantory-Agha Mahdi Husain, center of advanced study, department of history alighr muslim university (1977, p.650).

(٤) شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد الله الدمشقي المعروف باسم ابن عرب شاه : عجائب المقدور في أخبار تيمور ، المعروف باسم تاريخ تيمور ، نسخة مخطوطة مؤرخة لسنة ١٨٤٨م محفوظة بقسم المخطوطات / مكتبة آزاد عليكرة ، الهند تحت رقم ٣٣٥/١٥ تاريخ عرب ص ١٣٢ ، ١٣٣ .

(٥) عبد الحى الحسينى الندوى : المرجع السابق ، ص ٢٠٠ .

(٦) عبد الحكيم خان لودى : حياة لودى ، مخطوط محفوظ بقسم المخطوطات ، مكتبة آزاد عليكرة ، الهند تحت رقم ٤٧/١٩٤ تاريخ فارس ورقة ٧ .

دهلى

دهلى عاصمة الهند الحالية اسمها القديم دهلى ، وتنطق بالإنجليزية (دهلى) وباللغة الأوردية (دلى) أما نيودهلى فهى حى من أحياء المدينة تتركز فيه الوزارات والهيئات والمؤسسات الحكومية والسفارات فى العصر الحديث .

ودهلى القديمة تضم سبع مدن هى عواصم ومراكز حكم الدول الإسلامية التى حكمت الهند على مر عصورها المختلفة . هذه المدن هى بىرثورا^(١) ومدينة سبرى^(٢) ومدينة طغلق آباد^(٣) ومدينة بناه^(٤) ومدينة فيروز آباد^(٥) ومدينة بورانا^(٦) ومدينة شاه جهان آباد^(٧) هذه العواصم السبعة تضمهم الآن حدود مدينة دهلى (دهلى) الحالية وهى تذكرنا فى ذلك بمدينة القاهرة الحالية والتى تضم هى الأخرى عددًا من العواصم هى : الفسطاط والعسكر والقطائع وقلعة الجبل والقاهرة القديمة . (انظر خريطة لدهلى وأهم مناطقها شكل ١) .

وقد خلفت هذه الدول الإسلامية التى حكمت الهند واتخذت من منطقة دهلى مقرًا ومركزًا لها تراثًا معماريًا ضخماً من مساجد ومدارس وأضرحة وقصور وقلاع .. وتعد المساجد من أهم العمائر التى خلفتها تلك الدول حيث تميزت المساجد التى ترجع إلى تلك الفترة (قبل العصر المغولى) بتعدد طرزها .

(١) مدينة « بىرثورا » هى عاصمة الدولة المملوكية فى الهند .

(٢) مدينة سبرى كانت أيضاً من عواصم المماليك فى الهند .

(٣) مدينة « طغلق آباد » هى عاصمة الدولة الطغلقية فى الهند .

(٤) مدينة جهان بناه كانت عاصمة الدولة الخلقية فى الهند .

(٥) مدينة فيروز آباد هى من عواصم الخلقية فى الهند .

(٦) مدينة بورانا تنسب إلى السلطان شرشاه الأفغانى الذى حكم الهند بعد انتصاره على الإمبراطور المغولى

همايون شاه وطرده .

(٧) مدينة شاه جهان آباد تنسب إلى الإمبراطور المغولى « شاه جهان » منشى تاج محل الشهير .

وبصفة عامة يمكننا أن نقسم مساجد دهلي قبل عصر المغول من حيث تخطيطها إلى خمسة طرز هي :

- ١ - مساجد تتكون من صحن وأربع ظلات .
- ٢ - مساجد تتكون من صحن وثلاث ظلات .
- ٣ - مساجد تتكون من صحن وظلتين .
- ٤ - مساجد متعددة الصحن .
- ٥ - مساجد تتكون من مربع يغطيه قبة . (بلا صحن)

وسنقوم الآن بدراسة هذه الطرز مع ملاحظة أن الدراسة قد اعتمدت في الدرجة الأولى على الدراسة الميدانية في مواقع المساجد وتصويرها فوتوغرافياً وعمل تخطيطات للمساجد التي لم يوجد لها مخططات في المراجع ، فضلاً عن الاستعانة بما توافر من مراجع .

الطرز الأول : مساجد من صحن وأربع ظلات

ويعتد هذا الطراز من أكثر طرز تخطيط المساجد شيوعاً في دهلي قبل عصر المغول إذ وصلنا ثلاثة مساجد تتبع هذا الطراز وهي :

- مسجد قوة الإسلام (قطب منار) .
- مسجد بيجمبوري .
- مسجد كالي ...

وفيما يلي تفصيل لعناصر تخطيط هذه المساجد :

(أ) مسجد قوة الإسلام :

ويعرف هذا المسجد أيضاً باسم مسجد « قطب منار » لاشتماله على مئذنة قطب منار الشهيرة ، ويوجد هذا المسجد بالجهة الجنوبية الغربية من دهلي بمنطقة (بيرثورا) ، والتي كانت عاصمة الدولة المملوكية في الهند - انظر خريطة دهلي وموقع بيرثورا (شكل رقم ١) .

ويرجع تاريخ إنشاء هذا المسجد إلى عصر السلطان المملوكى « قطب الدين أيبك »^(١) مؤسس دولة المماليك فى الهند وقد بدأ السلطان أيبك فى تأسيس هذا المسجد ليكون مسجداً جامعاً فى سنة ٥٨٩هـ - ١١٩٢م ، وكان الفراغ من بنائه سنة ٥٩٤هـ ، ١١٩٧م وقد عرف هذا المسجد أولاً باسم المسجد الجامع فى دهلى ، ثم عرف بعد ذلك باسم مسجد قوة الإسلام ، ويعرف الآن باسم مسجد « قطب منار »^(٢) .

تخطيط المسجد

المسجد الأصلى الذى شيده السلطان قطب الدين أيبك يمثل جزءاً صغيراً من مساحة المسجد الحالية حيث أضيف إلى المسجد مساحات أخرى من بعده . إلا أن المسجد الأصلى باقٍ حتى الآن بمعظم عناصره التخطيطية .

وتخطيط المسجد الأصلى كان عبارة عن مستطيل يمتد من الشرق إلى الغرب طوله ٧٠ متراً وعرضه ٤٥ متراً يتكون من صحن أوسط مكشوف تحيط به أربع ظلال ، وفيما يلى تفصيل لذلك :

الصحن

مستطيل الشكل أبعاده من الشرق إلى الغرب ٤٠ متراً ومن الشمال إلى الجنوب ٢٨ متراً مبلط ببلاطات من الحجر الأحمر ، ويوجد به الآن عدد من التوابيت الحجرية ترجع إلى عصور مختلفة وتطل عليه الظلال من جهاته الأربع يعقود مدببة .

(١) يستطيع من يدرس تاريخ الدولة المملوكية فى الهند ومؤسستها قطب الدين أيبك أن يكتشف بسرعة التشابه الشديد بينها وبين الدولة المملوكية فى مصر فمؤسس الدولة المملوكية فى الهند هو قطب الدين أيبك ومؤسس الدولة المملوكية فى مصر هو عز الدين أيبك أى تشابه فى الاسم وكل منهما كان مملوكاً لآخر سلاطين الدولة التى سبقته ، قطب الدين كان مملوكاً لشهاب الدين الغورى وعز الدين كان مملوكاً للصالح نجم الدين وكل منهما جاء إلى الحكم بطريقة سليمة بعد وفاة سلاطينهم وضعف الأحوال فى البلاد .

(2) Sir page (j. A): A Gide to the qutb Dilhi Jodhpur, India, 1986, P. 11 & Archaeological survey of India: Delhi and its neighbourhood, delhi 1001, p 52.

ظلة القبلة

توجد ظلة القبلة بالجهة الغربية من الصحن وتطل على صحن المسجد ببائكة من سبعة عقود أكبرها وأكثرها اتساعاً وارتفاعاً العقد الأوسط . وظله القبلة عبارة عن مساحة مستطيلة أبعادها من الشمال إلى الجنوب ٢٨ متراً ومن الشرق إلى الغرب ١٥ متر تتكون من ثلاث بلاطات موازية لجدار المحراب ويعلو بلاطة المحراب خمس قباب أكبرها القبة الوسطى (قبة المحراب) ، وقد سقط جدار القبلة بالمسجد الأصلي غير أن أطلاله تدل على أنه كان يشتمل على خمسة محاريب محراب أمام كل مربعة يعلوها قبة شأنه في ذلك شأن ما تلاه من مساجد قريبة منه في التاريخ مثل مسجد باراجومباد في دهلي . ومن الجدير بالذكر أن ظلة القبلة قد بنيت بأعمدة جلبت من معابد هندوسية وبوذية قديمة لازالت تحمل بعض المناظر والرسوم والنقوش الخاصة بهذه الديانات بعد تشويهها^(١) .

الظلة الشرقية

تتكون هذه الظلة من بلاطتين لهما سقف حجري مسطح ، ويعلو هذه الظلة ثلاث قباب قبة في الوسط وقبتان في طرفي الظلة .. وقد بنيت بوائك هذه الظلة بأعمدة ذات طراز هندوسى خصوصاً الأعمدة ذات التيجان المتعامدة كل تاج يتكون من أربع أذرع كل ذراع مشكل على هيئة شكل آدمى يداه ورجلاه على هيئة كوابيل تحمل عتب السقف .

(١) أعمدة هذا المسجد جمعها قطب الدين أيبك من معابد هندوسية وبوذية هدمها وبنى بأنقاضها المسجد تعبيراً عن انتصاره على هذه الديانات الوثنية وأعدائه الهندوس وذلك بعد طمس رموز هذه الديانات أو تشويهها إلا أن بعضها مازال يحتفظ بما يدل على هذه العناصر ، ولعل ذلك يذكرنا بما فعله ملوك الأسبان حين حولوا المساجد إلى كنائس على الرغم من اشتغالها على كتابات قرآنية مع الاحتفاظ بها ، وبما فعله الناصر محمد بن قلاوون حين جعل على مدرسته بالنحاسين مدخل أحد كنائس عكا ظفر به بعد حروبه مع الصليبيين في عكا وطردهم منها .

الظلتان الشمالية والجنوبية

كل ظلة من هاتين الظلتين تتكون من بلاطة واحدة من صفيين من الأعمدة صف يطل على الصحن وصف ملاصق للجدار (أكتاف)، ولا تحمل هذه الأعمدة عقوداً، وإنما يرتكز عليها السقف الحجري مباشرة .

المنارة

توجد منارة المسجد والمعروفة باسم « قطب منار » والتي تعد من أشهر المآذن في العالم منفصلة عن المسجد على بعد حوالي ٣٥ متراً إلى الجنوب الشرقي من المسجد . ولعل ذلك راجع إلى كبر حجم كتلة المئذنة فهي مئذنة من خمسة طوابق كل طابق أقل ارتفاعاً وقطراً من الطابق الموجود أسفله لتنتهي من أعلى بقية مضلعة . وقد زخرفت هذه المنارة بأشكال تضييعات وأشربة كتابية تلتف حول المئذنة من الآيات القرآنية .

وقد أضيف إلى المسجد زيادات كبيرة من عهد السلطان التمش خليفة قطب الدين أيبك ، وفي عهد السلطان علاء الدين الخلجي من سلاطين الدولة الخليجية في الهند ، هذه الزيادات غيرت من شكل الجامع فأصبح يشتمل على عدة صحنون وأصبح تخطيطه معقداً لا يندرج تحت طراز الصحن والأربع ظلات ؛ ولذا نكتفي في هذا الطراز بدراسة المسجد الأصلي في عهد قطب الدين أيبك والذي كان يشتمل على صحن وأربع ظلات ، وسنقوم بدراسة المسجد في عهد السلطان التمش وزيادة السلطان علاء الدين الخلجي مع طراز المساجد المتعددة الصحنون حيث أصبح يندرج تحت هذا الطراز بعد تلك الزيادات التي طرأت عليه . (انظر المسقط الأفقي شكل رقم ٢ ومنظور شكل رقم ٣) .

(ب) مسجد بيجمبوري

يوجد مسجد بيجمبوري في قرية « بيجمبور »^(١) في حي (مهر والى) بدلهلى ، ومنشئ هذا المسجد هو الأمير « خان جهان جنان شاه » كبير الوزراء في عهد الملك فيروز شاه طغلق . ويرجع تاريخ إنشائه إلى سنة ٧٤٦هـ ، سنة ١٣٤٥م^(٢) .

تخطيط المسجد

مسجد بيجمبوري عبارة عن مستطيل قريب من المربع أبعاده (٩٤ × ٩٠ متراً) ، يتكون من صحن أوسط مكشوف سماوى أبعاده (١٨٨٧٥) متراً يحيط به أربع ظلات أكبرها ظلة القبلة ، وتتكون من ثلاث بلاطات موازية لجدار المحراب . أما باقى الظلات فكل ظلة تتكون من بلاطة واحدة ، وفيما يلى تفصيل لذلك :

ظلة القبلة

هذه الظلة توجد في الجهة الغربية من الصحن ، وهى مستطيلة أبعادها ٩٠ متراً من الشمال إلى الجنوب و ٢٠ متراً من الشرق إلى الغرب تتكون من ثلاث بلاطات تتوسط الظلة مربعة كبيرة بامتداد البلاطات الثلاثة قطرها حوالى ٢٠ متراً يعلوها قبة ضخمة وعلى يمين ويسار هذه المربعة تتساوى عدد المربعات حيث تقسم هذه المربعة ظلة القبة إلى قسمين متساويين على يمينها ويسارها كل قسم يتكون من ٣ بلاطات موازية لجدار المحراب و ٨ بلاطات عمودية عليه . وفي نهاية كل بلاطة عمودية يوجد محراب ذو مسقط على شكل شبه منحرف بينما يوجد المحراب الرئيسى للمسجد في الجزء الغربى لمربعة القبة (المربعة الوسطى) وهو محراب ذو مسقط على شكل شبه منحرف .

(١) بيجمبور كلمة هندية تتكون من مقطعين بيجم تعنى السيدة المحترمة وبور بمعنى أرض فهى أرض السيدة المحترمة المصونة .

(2) Archaeological survey of India: Op. Cit, P. 71.

وخان جهان أبوه « كاتو » كان حاكماً هندوسياً اعتنق الإسلام أيام محمد بن طغلق الذى ألحقه ببلاطه هو وولده الذى استمر وزيراً لفيروز شاه طغلق مدة عشرين عاماً . انظر (أهارانى) .

Abha Rani: Tughluq Architecture of Delhi, Delhi 1991, p. 31.

ومن الجدير بالذكر أن ظلّة القبلة تطل على صحن المسجد بكتلة بارزة في الوسط تمثل واجهة المربعة الوسطى وعلى يمينها ويسارها منارة صغيرة وعلى كل جانب من جانبي كتلة المربعة الوسطى تطل ظلّة القبلة على صحن المسجد بسبعة عقود مدببة تمثل واجهة سبع بلاطات طولية . أما البلاطة الثامنة (الطرفية) من بلاطات كل قسم من قسمي ظلّة القبلة فتفتح على الظلّات الجانبية وليس على صحن المسجد .

الظلتان الجانبيتان

تشابه الظلتان الجانبيتان (الشمالية والجنوبية) فكل منهما تتكون من بلاطة واحدة تقطعها دركاة مدخل ، وعلى يمين ويسار دركاة المدخل توجد سبع مربعات كل مربعة تطل على الصحن بعقد مدبب .

الظلّة الشرقية

وهذه الظلّة أيضاً تتكون من بلاطة واحدة تقسمها دركاة المدخل الشرقي إلى قسمين متساويين ، كل قسم يطل على الصحن بسبعة عقود مدببة محمولة على أعمدة حجرية مربعة .

المداخل

الظاهرة الملفتة للنظر في تخطيط هذا المسجد (شكل ٤) هي توزيع المداخل حيث يشتمل هذا المسجد على ثلاثة مداخل محورية في منتصف الظلّات الشمالية والجنوبية والشرقية . هذه المداخل الثلاثة ذات كتل بارزة عن الواجهات وأكثرها بروزاً كتلة المدخل الرئيسي (الشرقي) . وهذه المداخل الثلاثة تؤدي إلى دركاوات مربعة يعلو كل دركاة قبة . وهذه المداخل بدركاواتها تحدث مع قبة المحراب بظلّة القبلة توازناً في التخطيط وتمثالاً ، فالقبة في الجهة الغربية يقابلها كتلة المدخل الشرقي والتي جعلها المعمار أكبر من المدخلين الجانبيين حتى تتوازن مع ضخامة القبة . أما المداخل الجانبيان فتمثالان تماماً ، وهذه الكتل الأربعة في منتصف الظلّات الأربعة (المداخل الثلاثة مع قبة المحراب) تجعل التخطيط يتمتع بتمائل الكتل والتوازن . (شكل ٤) .

مسجد كالى بمنطقة بوابة تركمان بدھلى

يوجد هذا المسجد بمنطقة بوابة تركمان (أحد بوابات مدينة شاه جهان آباد) بدھلى ، ومنشئ هذا المسجد هو الأمير خان جهان جنان شاه سنة ٧٨٩هـ سنة ١٣٨٧ م . قبل وفاته بعام واحد .

تخطيط المسجد

يتكون هذا المسجد من مساحة مستطيلة أبعادها ٤٣×٣٧ متر . تنقسم إلى صحن أوسط مكشوف يحيط به أربع ظلات أكبرها ظلة القبلة . وللمسجد مدخل واحد في منتصف الضلع الشرقي يتقدمه عدد كبير من الدرج حيث إن المسجد موجود على ربوة مرتفعة عما حولها ، وفي زوايا المسجد الأربع يوجد أربعة أبراج ثلاثة أرباع دائرة لتدعيم المسجد .

ظلة القبلة

هذه الظلة أكبر الظلات . وتتكون من ثلاث بلاطات موازية لجدار المحراب وسبع بلاطات عمودية عليه تكوّن ٢١ مربعة كل مربعة تغطيها قبة وخلف جدار المحراب يوجد دهليز (ممر) عرض ٥ أمتار يفصل بين جدران المحراب وبين الجدار الغربى للمسجد وهذا الممر يعتبر من الظواهر النادرة في مساجد الهند إذ إنه من المتعارف عليه أن المحراب يكون في الجدار الغربى للمسجد . ولعل وجود الدهليز هنا كان للحفاظ على جدار المحراب حيث إن المسجد كما سبق القول على ربوة عالية ولذا حرص المعمار على ألا يجعل جدار المحراب في نهاية هذه الربوة حتى لا تتعرض أطرافها للانهيار أو الهبوط فترك هذه المساحة تأمينًا لجدار المحراب وجعل عليه جدارًا آخر وأمن الجدار الخارجى للمسجد من جميع الجهات بأبراج ضخمة مصممة تحمى المسجد وتدعمه . (انظر شكل ٥) .

والظاهرة الثانية الملفتة للنظر هنا هي تغطية ظلة القبلة بقباب ضحلة على مثلثات كروية وعدم تميز مربعة المحراب بل على العكس قام المعمار بتمييز قباب الزوايا فجعلها أكبر وأوسع . ولعل ذلك راجع أيضًا إلى أن قباب الزوايا تعتبر أيضًا كدعائم تدعم

المسجد ، ومحراب المسجد مستطيل ذو تجويف ضحل ، وذلك راجع لقلعة سمك جدار المحراب حتى لا يمثل ثقلاً على طرف هذه الربوة . وللمسجد منبر مبني من ثلاث درجات حجرية صغيرة .

الظلال الشمالية والجنوبية والشرقية

وهذه الظلال الثلاث متشابهة كل ظلة تتكون من بلاطة واحدة ، وتطل الظلة الشرقية على صحن المسجد ببائكة من خمسة عقود مديبة محمولة على أعمدة أسطوانية من الحجر . أما الظلال الشمالية والجنوبية فكل ظلة تطل على الصحن ببائكة من أربعة عقود أى أقل بعقد واحد من الظلة الشرقية ، ويوجد مدخل المسجد الوحيد في منتصف الظلة الشرقية للمسجد (انظر المسقط الأفقى « شكل ٥ ») .

الطرز الثانى : مساجد تتكون من صحن وثلاث ظلال

وقد وصلنا من هذا الطراز مسجداً ضخماً هو المسجد الجامع بقلعة فيروز شاه طغلق، والذي يوجد داخل أسوار مدينة فيروز شاه طغلق^(١) ليكون المسجد الجامع لقلعته (مدينته) الجديدة ، وكان ذلك سنة ٧٥٩هـ / ١٣٦٠م .

تخطيط المسجد

فى حقيقة الأمر لم يتبق من هذا المسجد سوى أسواره الخارجية وكتلة المدخل وبعض الأساسات والأطلال التى يمكن أن تدلنا على تخطيط هذا المسجد ، حيث كان عبارة عن مساحة مربعة تقريباً طول ضلعها حوالى ٤٠ متراً يتكون من صحن وثلاث

(١) فيروز شاه طغلق هو ثالث حكام دولة بنى طغلق بالهند تولى الحكم فيها بين عام ١٣١٥ ، ١٣٨١م ، بعد وفاة ابن عمه محمد طغلق وعمل على إصلاح نظام الدولة واهتم بالإصلاحات والإنشاءات الداخلية خصوصاً فى دهلي وظل كذلك حتى وفاته سنة ٧٩٠هـ - ١٣٨١م ، ومما يذكر عن هذا الملك من باب وفاته لابن عمه طغلق شاه والذي كان مشهوراً بظلمه وعنفه أن جمع كل من ظلمهم واسترضاهم ووصلهم ثم جعلهم يكتبون إقرارات بأنهم ساءحوا ابن عمه طغلق شاه وفتح مقبرته ووضعها فيها ظاناً أن ذلك يحو عنه ذنوب ظلمهم انظر :

ظلات أكبرها ظللة القبلة ثم ظلتان في الجهتين الشمالية والجنوبية . أما الجهة الشرقية فلا يوجد بها ظللة وإنما تظل على خارج القلعة بسور (درايزين) ضيق حيث إن المسجد أرضيته مرتفعة جداً عن أرضية ما حوله ويظل من جهته الشرقية على خارج القلعة ، ومن ثم يمكن أن تستخدم هذه الجهة من الصحن (الشرقية) للدفاع عن القلعة إذا ما هوجمت من تلك الجهة . وفيما يلي تفصيل لعمارة المسجد :

الصحن

الصحن مستطيل يمتد من الشمال إلى الجنوب ٣٠ متراً ومن الشرق إلى الغرب ٢٥ متراً مبلط ببلاطات من الحجر الأحمر ، ويتوسط الصحن عميل ناحية الشرق ميضأة (حوض للوضوء) مستدير قطره أربعة أمتار ، وتظل الظلات على الصحن من الجهات الغربية والشمالية والجنوبية . أما الجهة الشرقية فتظل على خارج القلعة وأرضية الصحن مرتفعة عن أرضية القلعة بحوالي ٧ أمتار ومرتفعة عن أرضية خارج القلعة بحوالي عشرين متراً .

ظللة القبلة

ظللة القبلة في هذا المسجد على شكل مستطيل أبعاده من الشمال إلى الجنوب ٤٠ متراً ، ومن الشرق إلى الغرب ١٥ متراً استطعت أن أتبين بعد مسح أطلالها أنها كانت تتكون من ثلاث بلاطات موازية لجدار المحراب و ١٣ بلاطة عمودية على جدار المحراب بالجدار الغربي ، منها (جدار المحراب) يوجد ١٣ محراباً في النهاية الغربية لكل بلاطة من البلاطات الطولية المحاريب الخمسة ، الوسطى أكبر عمقاً وارتفاعاً من باقى المحاريب ، ولم يتبق من ظللة القبلة سوى جدار المحراب (الجدار الغربي) وبه المحاريب وأمام المحراب الرئيسى الأوسط كان يوجد قبة تعلو المربعة التى تتقدم هذا المحراب (انظر المسقط الأفقى لبقايا المسجد ومحاوله لإكمال مخطط المسجد الأصيلى من عمل الباحث شكل رقم ٦) .

الظللة الشمالية

هذه الظلة تتكون من بلاطة واحدة ولم يتبق من هذه الظلة سوى الجدار الشمالى وبه عدد من الدخلات بداخلها نوافذ ، ونستطيع أن نتبين عن طريق هذه الدخلات

وبعض قواعد الدعامات أن هذه الظلة كانت تتكون من بلاطة واحدة مقسمة إلى سبع مربعات بعدد الدخلات الموجودة في الجدار بواقع دخلة بما نافذة في الجهة الشمالية من كل مربعة ، وتشغل المربعة الثانية من هذه الظلة من جهة ظلة القبلة دركاة المدخل الوحيد للمسجد وهذه الدركاة لا زالت باقية حتى الآن وهى دركاة مربعة طول ضلعها ٤ أمتار تغطيها قبة تبرز عن سمت الواجهة . ويتقدم المدخل سلم ذو ثلاثة أطراف يصعد منه إلى داخل هذه الدركاة والتي فتح بها ثلاثة مداخل معقودة من ثلاث جهات ، وهذا السلم يتكون من عشر درجات حيث إن المسجد كما سبق القول على ربوة مرتفعة ومعلق من الجهة الشمالية على دعائم وأسفل المسجد من هذه الناحية توجد مخازن وقاعات انظر شكل (٦) .

الظلة الجنوبية

وهذه الظلة تتكون من بلاطة واحدة تنقسم إلى ست مربعات كل مربعة تطل على خارج المسجد بنافذة مستطيلة معقودة وهذه الظلة هى الأخرى مندرسة ولم يتبق منها سوى الجدار الجنوبي منها ، والذي يتكون من عدد من الدخلات بداخلها نوافذ بواقع دخلة معقودة لكل مربعة من مربعات هذه الظلة . (انظر شكل ٦) .

وأخيراً فهذا المسجد يعد هو المسجد الوحيد الذى وصلنا فى دهلى قبل عصر المغول يتكون من صحن وثلاث ظلات ، ولعل الذى تحكم فى ذلك وفى عدم وجود ظلة رابعة كما سبق القول هو أن هذه الجهة تطل على خارج القلعة ووجود ظلة فى هذه الجهة يقلل من متانتها ويعرقل جهود الدفاع إذا ما هوجمت القلعة من هذه الجهة .

الطرز الثالث : مساجد من صحن وظلتين

وقد وصلنا من هذا الطراز فى دهلى مسجداً كبيراً وهو مسجد باراجومباد^(١) بمنطقة (حديثه لودى) بدهى ومنشئ هذا المسجد غير معروف ولكن تاريخ إنشائه مسجل داخل المسجد وهو سنة ٩٠٠هـ (١٤٩٤م) وهى فترة حكم إسكندر

(١) باراجومباد كلمة هندية (أوردية) تتكون من مقطعين بارا بمعنى ١١ وجومباد بمعنى تربة (مقبرة) فهى تعنى المقابر الإحدى عشرة .

لـودى (١٤٨٩ : ١٥١٧م) والذي توجد مقبرته بالقرب من المسجد على هذا الأساس ، وأيضاً وجود هذا المسجد في منطقة مليئة بالآثار التي ترجع إلى فترة حكم بنى لودى وخلفائه ، وهى المنطقة المعروفة حالياً باسم « لودى جاردن » بناء على كل ذلك وعلى التاريخ المثبت على المسجد .

ظلة القبلة مستطيلة الشكل امتدادها من الشمال إلى الجنوب ٢٨ متراً ، ومن الشرق إلى الغرب ٧ أمتار مكونة من بلاطة واحدة مقسمة إلى خمس مربعات يغطى الثلاثة الوسطى منها قباب والاثنان الطرفيتان يغطيهما سقف حجري مسطح ، وتطل هذه الظلة على صحن المسجد بخمس فتحات معقودة بعقود مدبية محمولة على دعائم حجرية ومناطق انتقال هذه القباب مثلثة نشأت من وجود عقود حاملة لهذه القباب ، وقد زخرفت بكتابات قرآنية ، وبالجبهة الغربية من كل مربعة يوجد محراب ذو مسقط مستطيل . شكل (٧) .

الظلة الشرقية

وهذه الظلة بنفس حجم ظلة القبلة وتنقسم أيضاً إلى خمس مربعات تغطى المربعة الوسطى قبة والمربعتان على جانبيها يغطى كلاً منهما سقف حجري مسطح ، وتطل كل مربعة على الفناء بفتحة معقودة بعقد مدبب تقابل المربعة نظيرتها بظلة القبلة .

وأخيراً فالملاحظ في تخطيط هذا المسجد التماثل بين ظلة القبلة والظلة المقابلة في المساحة وعدد البلاطات وعدد الفتحات المطلة على الصحن ، وذلك باستثناء الدرج المؤدى إلى الصحن والذي كان له الأثر في تخطيط المسجد وعدم تماثل التخطيط والتوازن على جانبي الصحن (شكل ٧) .

الطراز الرابع : المساجد المتعددة الصحن

وقد وصلنا من هذا الطراز في دهلى قبل عصر المغول ثلاثة مساجد هى :
- مسجد قوة الإسلام (قطب منار) بعد زيادة السلطان التمش وزيادة السلطان علاء الدين الخلقى .

- مسجد خير كى .

- مسجد كالان بجى نظام الدين بدھلى .

(أ) مسجد قوة الإسلام بعد زيادة التمش وعلاء الدين :

كان المسجد الأول الذى بناه قطب الدين أيك - كما سبق القول - يشتمل تخطيطه على صحن أوسط وأربع ظلات . وبعد وفاة السلطان قطب الدين أيك خلفه السلطان التمش^(١) الذى أحس بأن المسجد قد ضاق على المصلين فأمر بتوسعته من الجانبين ومن الجهة الشرقية فأضيف إلى المسجد من جهة الشمال وأيضاً من جهة الجنوب فناء مستطيل الشكل أبعاده ٥٠ متر من الشرق إلى الغرب و٢٥ متر من الشمال إلى الجنوب ومدت ظللة القبلة فى المسجد الأصيلى لتشمل الجزء الغربى من الفناءين المضافين^(٢) . وقد أضيف إلى الجهة الشمالية من الفناء الشمالى وإلى الجهة الجنوبية من الفناء الجنوبى وإلى الجهة الشرقية من الفناءين والمسجد الأصيلى ظلات من ثلاث بلاطات فى كل جهة .

وقد نتج عن هذه الزيادة أن أصبح مسجد قوة الإسلام يشتمل على ثلاثة صحنون هى:

- صحن المسجد الأصيلى
- صحن فى الزيادة الشمالية .
- صحن فى الزيادة الجنوبية .

هذا بالإضافة إلى ممر يصل بين الصحنين المضافين إلى المسجد ويمتد بالجهة الشرقية من المسجد الأصيلى برض ٧ أمتار وطول الضلع الشرقى من المسجد .

(١) السلطان التمش هو شمس الدين التمش كان مملوكاً لقطب الدين فأعتقه وعينه صاحباً لعسكره وبعد وفاة قطب الدين أيك ٦٠٧هـ اعتلى العرش وقضى على منافسيه ، وكان سلطاناً عادلاً اشتهر بالعدل ومن سنه فى ذلك أنه استن سنة لدفع المظالم وأخذ الحق للمظلوم حيث كان أهل الهند يلبسون الثياب البيضاء عند الصلاة فى يوم الجمعة (المسجد الجامع) فأمر بأن يلبس كل مظلوم الثياب المصبوغة حتى إذا ما رآه أحد أمرائه علم أنه مظلوم فنظر مظلمته . أنظر : عبد الحى الحسى الندوى : المرجع السابق ، ص ١٨٩ .

نقاط الاختلاف بين زيادة التمش والمسجد الأصلي

ومن خلال زيارتي لهذا المسجد ودراسته أستطيع أن أوجز أهم نقاط الاختلاف بين المسجد الأصلي والزيادة التي أضافها السلطان التمش في النقاط الآتية :

أصبح المسجد متعدد الصحن .

عدم وجود قباب فوق الظلال التي أضافها التمش باستثناء امتداد ظل القبلة الذي وجد فيه ثلاثة قباب في كل جانب من جانبي الظلة الأصلية .

عدم استخدام أعمدة من معابد قديمة وإنما استخدام أعمدة صنعت خصيصاً للمسجد .

جعل السلطان التمش للزيادة ثلاثة مداخل محورية .

أضاف السلطان التمش بركة كبيرة في وسط كل فناء من الفنائين الجانبين للوضوء .

أنظر المسقط الأفقى شكل (٢) والمنظور شكل (٣) .

زيادة السلطان علاء الدين الخلجي

والسلطان علاء الدين الخلجي من أشهر سلاطين الدولة الخليجية وفي عهده قام بتوسعة المسجد توسعة لم يسبق لها مثيل ، وتشمل هذه التوسعة توسعة المسجد من جهة الشمال وإضافة مساحة إليه قدر مساحته ثم توسعة المسجد من جهة الشرق وأضاف إليه قدر نصف مساحته أى أن المسجد أصبح في عهد علاء الدين الخلجي ثلاثة أضعاف مساحته في عهد السلطان التمش أنظر المسقط الأفقى شكل ٢ والمنظور شكل (٣) .

وقد مدت ظل القبلة بالضلع الغربي من الزيادة الشمالية للمسجد وبنفس أسلوب المسجد المعماري في عهد التمش وغطيت هذه الظلة بعدد من القباب عددها تسع قباب ذات قطاع مخروطي الشكل كما أضيفت ظللة بالجهة الشمالية من

هذه الزيادة طولها ١٢٠ متر من الشرق إلى الغرب وعرضها ١٢ متر من الشمال إلى الجنوب مقسمة إلى ثلاث بلاطات ، كما أضيفت ظلة في الجهة الشرقية من الزيادة الشرقية للمسجد امتدادها من الشمال إلى الجنوب ٢٥٠ متر ومن الشرق إلى الغرب ١٢ متر .

وقد نتج عن هذه الزيادة أن أصبح للمسجد أربعة أفنية الثلاثة الموجودة من عهد التمش وفناء آخر من فناءين متعامدين إلى الشرق والشمال من مسجد السلطان التمش (أنظر شكل ٢ ، شكل ٣) .

وقد أضاف السلطان علاء الدين الخلجي إلى المسجد منارة ضخمة لم يتبقى منها الآن سوى قاعدتها ويبلغ قطر هذه المنارة ٥٤ متر وارتفاع قاعدتها ٤٠ متر وهي في ذلك تعد من أضخم بل أضخم منارات العالم الإسلامي على الإطلاق وتوجد هذه المنارة في وسط الجزء الشمالي من فناء الزيادة التي أضافها علاء الدين الخلجي (شكل ٢ ، ٣) .

كما أضاف السلطان علاء الدين بوابة ضخمة بجوار منارة السلطان قطب الدين أيك .

(ب) مسجد خيركى :^(١)

ظلة القبلة

يوجد مسجد خيركى في شمال دهلي في قرية معروفة بنفس اسم المسجد ، ويرجع هذا المسجد إلى عصر دولة بني طغلق ، وينسب إلى الأمير خان جهان جنان شاه (شأنه في ذلك شأن مسجد «بيجمبوري» ومسجد «كالي») ، ويرجع تاريخ إنشاء هذا المسجد إلى سنة ٧٥٣هـ / سنة ١٣٢٥ م .

(١) خيركى كلمة هندية معناها النوافذ ولعل السبب في تسمية هذا المسجد بهذا الاسم هو اشتماله على عدد ضخم من النوافذ ثم سميت القرية على اسم المسجد .

تخطيط المسجد

يتكون المسجد من مساحة مربعة طول ضلعها حوالي ٥٠ مترًا بأركانها الأربعة أبراج يقل قطرها كلما اتجهنا إلى أعلى ، وتشتمل مساحة المسجد على أربعة صحنون متساوية في المساحة كل صحن مربع طول ضلعه عشرة أمتار ، وهذه الصحنون الأربعة تتوسط المسجد بحيث يبتعد كل صحن عن جدار المسجد المقابل له بحوالي عشرة أمتار ويتعد كل صحن عن الصحن الآخر أيضًا بحوالي عشرة أمتار .

ومساحة المسجد حول هذه الصحنون الأربعة (المناور الأربعة) مقسمة إلى مربعات مغطاة بقباب ضحلة قائمة على عقود مدببة .

وللمسجد ثلاثة مداخل محورية بارزة مدخل في منتصف كل ضلع من الأضلاع الشمالي والجنوبي والشرقي . أما منتصف الضلع الغربي فيه بروز يشبه كتلة المداخل الثلاثة يقابل تجويف المحراب الرئيسي .

ونستطيع أن نجمل الظواهر الملفتة للنظر في تخطيط هذا المسجد في النقاط الآتية :

١ - تعدد الصحنون حيث إن هذا التخطيط ذا الصحنون الأربعة المتساوية لم يظهر قبل هذا المسجد في الهند ، والملفت للنظر في ذلك أن هذا النوع من التخطيط قد انتشر في بلاد المغرب ، وهو ما يدفعنا إلى التساؤل : هل هناك علاقة بين تخطيط المساجد المتعددة الصحنون في دهلي وتخطيط المساجد المغربية ، وهل الطرق التجارية وانتقال التجار يمكن أن يكون سببًا في نقل هذه التقاليد المعمارية من المغرب إلى الهند أو العكس ؟ وإذا كان الحال كذلك ، فلماذا لم ينتشر هذا النوع من التخطيط في البقاع والدول الواقعة بين الهند والمغرب وعبر كل هذه البلاد دونما تأثير فيها ليؤثر مباشرة فيما يليها ... كل هذه التساؤلات وبعد المسافة بين البلدين وعدم وجود تأثير تدريجي على الدول المحصورة بينهما والتي كانت تربطها علاقة أقوى من علاقة الهند بالمغرب مثل مصر وعدم تشابه المناخ بين بلاد المغرب ودهلي ، فدهلي شديدة الحرارة والمغرب بلاد معتدلة الحرارة ... كل هذه الأسباب مع عدم وجود وثائق تفيد انتقال معماريين أو عمال من الهند إلى المغرب أو العكس تجعلنا لا نقطع بوجود تأثير متبادل بين البلدين .

وفي اعتقادي أن السبب في ظهور هذا الطراز من المساجد هو :

- الرغبة في توزيع الإضاءة في سطح المسجد .

- الرغبة في تحقيق التماثل في أجمل صورة .

ويؤكد ذلك أن المعماري بلغ من حرصه على التماثل أن شكل البروز خلف المحراب بشكل يشبه كتلات المداخل الثلاثة الموجودة على المحاور الثلاثة الأخرى من محاور المسجد .

١ - التماثل الشديد .

٢ - تغطية جميع سطح المسجد بقباب ضحلة .

٣ - المسجد معلق يتكون من طابقين شأنه في ذلك شأن مسجد قلعة فيروز شاه طغلق .

٤ - كثرة النوافذ (خيركى) للإضاءة والتهوية . ونستطيع القول أن النوافذ الكثيرة مع الصحون الأربعة قد جعلت المسجد لا يحتاج إلى إنارة في النهار ولا إلى تهوية في فصل الصيف القاطظ ، والذي يتعدى الخمسين درجة مئوية في فصل الصيف في شهرى إبريل ومايو . (انظر المسقط الأفقى شكل (٨)) .

(جم) مسجد كالان بجى نظام الدين بدھلى :

يوجد هذا المسجد بمنطقة نظام بدھلى بالقرب من ضريح الشيخ نظام الدين ^(١) ، ومنشئ هذا المسجد هو نفس منشئ المسجد السابق (مسجد خيركى) وهو الأمير جهان جنان شاه رئيس الوزراء في عهد فيروز شاه طغلق ، ويرجع تاريخ إنشاء هذا

(١) الشيخ نظام الدين من كبار رجال الصوفية في بلاد الهند ولد في مدينة بدوان سنة ١٢٣٦م ، وفقد أباه وهو في سن الخامسة من عمره ثم جاء إلى دھلى مع والدته حيث رافق الشيخ الصوفى المعروف فريد شاكر جانج الذى اتخذه كمساعد له ثم توفى فريد شاكر وبدأ نجم الشيخ نظام الدين يلمع وقصده المريدون من جميع الأنحاء وتوفى سنة ١٣٢٤م . انظر : سيد دانيال نظامى سجادة تشين : دركاة حضرة خواجة نظام الدين أوليا أنديا ١٩٩٠ نمبر ٣ .

المسجد إلى نفس تاريخ إنشاء مسجد خير كى ، وقد جرى على المسجد تجديد في عهد ابنه الأمير « جنان شاه مقبول » سنة ٧٧ هـ سنة ١٣٧٠ م ، وسجل هذا التجديد في لوحة أعلى المدخل الرئيسى (الشرقى) قرأها أثناء دراسى للمسجد .

تخطيط المسجد

تخطيط مسجد كالان يكاد يكون نسخة من تخطيط مسجد خير كى حيث يتشابه معه في وجود الصحن الأربعة ، والمداخل الثلاثة المحورية البارزة ، وكتلة بروز المحراب التى تشبه كتلة المداخل ووجود الأبراج في زوايا المسجد ، والتغطية بقباب ضحلة على عقود مدببة .

ويختلف مسجد كالان عن مسجد خير كى في نقاط طفيفة وهى :

ظللة القبلة في مسجد كالان أكبر من باقى الظللات حيث تشتمل على ثلاث بلاطات بعكس باقى الظللات التى تتكون من بلاطة واحدة .

تفصل بين الصحن الأربعة بلاطة واحدة وليس ثلاث بلاطات كما هو الحال في مسجد خير كى . كتلة المحراب أقل بروزاً من كتلات المداخل الثلاثة في مسجد الآن بينما نجدها مائلة للمداخل تماماً في مسجد خير كى .

(انظر شكل ٩) وقارن بينه وبين شكل (٨) .

الطراز الخامس : مساجد تتكون من مربع يغطيه قبة

وفي هذا الطراز يتكون المسجد من مساحة مربعة تغطيها قبة ، ويتبع هذا النظام مسجد « خيزر خان » بمنطقة نظام الدين يدهلى إلى الغرب من ضريح الشيخ نظام الدين وعلى بعد حوالى عشرة أمتار فقط إلى الغرب من مقامه .

ومنشئ هذا المسجد هو الأمير خيزر خان بن السلطان علاء الدين الخلجى ، ويرجع تاريخ إنشاء هذا المسجد إلى سنة ٧٢١ هـ وسنة ١٣٢١ م . وقد سجل تاريخ إنشاء هذا المسجد ومنشئه على رقبة قبة المسجد من الداخل .

تخطيط المسجد

تخطيط المسجد بسيط للغاية حيث يتكون من مربع طول ضلعه عشرون متراً تغطيه قبة كبيرة قائمة على حنايا ركنية وبالجبهة الغربية من جدار المسجد يوجد المحراب ، وهو محراب له مسقط مستطيل قليل العمق عليه كتابات قرآنية وعلى يسار المحراب يوجد منبر رخامى من ثلاث درجات ، وبالجدار الشمالى للمسجد توجد ثلاث دخلات إحداها وهى الشرقية فتح بما نافذة معقودة ، وكذلك الحال بالنسبة للجدار الجنوبى الذى يشبه الجدار الشمالى تماماً فى الدخلات والنوافذ - وبالجدار الغربى توجد دخلتين على يمين ويسار المحراب سدتا الآن وتستخدمتا ككتبتين .

وللمسجد مدخل واحد بمنتصف الضلع الشرقى للمسجد على محور المحراب وهو مدخل ذو حجر غائر موجود داخل دخله معقودة بعقد مذهب ومن الجدير بالذكر أن طراز المسجد القبة لم ينتشر بعد ذلك بدھلى وإنما انتشر فى البنغال (شمال شرق الهند) بنجلاديش الحالية كما فى مسجد شامكاتى، وأخيراً وبعد هذا العرض لمساجد دهلى قبل عصر المغول نستطيع أن نتبين أن هذه المجموعة من المساجد التى أنشئت فى دهلى فى عهد الدول الإسلامية التى سبقت حكم الدولة المغولية قد اشتملت على معظم الطرز المتعارف عليها فى تخطيط المساجد وهو ما يعكس لنا مدى تقدم فن العمارة وتخطيط المساجد فى تلك الدول ذات التاريخ والحضارة والآثار الخالدة التى لم تأخذ حقها فى الشهرة مثل آثار الشرق الأوسط أو آثار الهند فى عصر المغول ولذا كان هذا البحث الذى حاولت أن أبرز فيه طرز تخطيط هذه المساجد والذى اعتمدت فيه على الدراسة الميدانية بالإضافة إلى ما توافر من مراجع ومصادر لعلماء هنود أو أجانب وقمت بعمل مساقط أفقية للمساجد التى لم يتوافر لى الحصول على مساقط لها من المراجع من الطبيعة مباشرة كما قمت بعمل إعادة بناء وإكمال لتخطيط المسجد الذى اندثرت أجزاء منه وهو مسجد فيروز شاه تعلق فى محاولة لإكمال طرز المساجد فى دهلى قبل عصر المغول وحصرها وبيان مميزاتها .

مراجع البحث

أولاً : المخطوطات

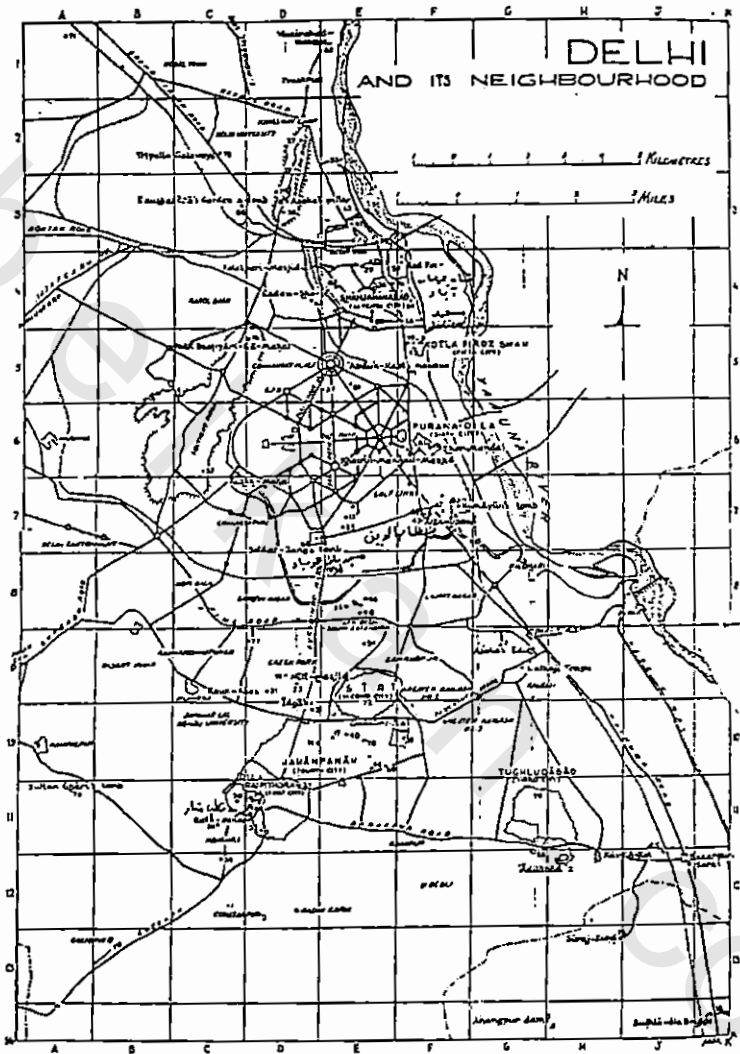
- ١ - ابن عرب شاه (شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد الله الدمشقي) : عجائب المقدور في أخبار تيمور المعروف باسم تاريخ تيمور ، نسخة مخطوطة مؤرخة سنة ١٨٤٨م محفوظة بقسم المخطوطات، مكتبة أزداد - عليكرة الهند تحت رقم ٣٣٥/١٥ تاريخ عرب .
- ٢ - فرشته (محمد قاسم) : تاريخ شاهاني مغل ، مخطوط مؤرخ سنة ٩٩٨هـ - محفوظ بقسم المخطوطات مكتبة أزداد - عليكرة - الهند - تحت رقم ٣٣/٣٤٣ تاريخ فارس .
- ٣ - لودي (عبد الحكيم خان) حياة لودي ، مخطوط محفوظ بقسم المخطوطات ، مكتبة أزداد - عليكرة - الهند - تحت رقم ٤٧/١٩٤ تاريخ فارس .

ثانياً : المصادر والمراجع العربية والفارسية المطبوعة

- ١ - ابن كثير (الإمام الحافظ أبو الفداء) : البداية والنهاية في التاريخ الإسلامي - الجزء التاسع - مطبعة السعادة ، بدون تاريخ طبع .
- ٢ - سيد دانيال (نظامي سجادة تشين): دركاة حضرة خواجه نظام الدين أوليا ، إنديا ، ١٩٩٠م نمر ٣ .
- ٣ - العبد (عبد المجيد) : الإسلام والدولة الإسلامية في الهند ، الطبعة الأولى ، مطبعة الرغائب ، القاهرة ١٩٣٩م .
- ٤ - العتيبي (الشيخ أبو نصر) : تاريخ العتيبي المسمى بالفتح الوهبي - الهند ، حيدر آباد ١٣٤٨هـ .
- ٥ - السندي (المؤرخ الهندي عبد الحى الحسنى م ١٣٤١هـ) : تاريخ الهند في العهد الإسلامي ، طبعة حيدر آباد ١٩٧٢م .
- ٦ - النمر (د. عبد المنعم) : تاريخ الإسلام في الهند ، الطبعة الثالثة الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م .
- ٧ - مباركيوري (القاضي أطهر) : العرب والهند في عهد الرسالة ترجمة عزت عبد الجليل ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٣ .

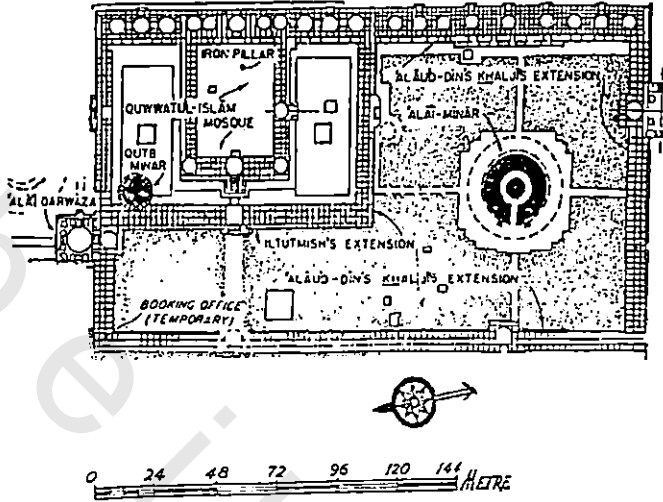
المراجع الأجنبية

- 1 - Archaeological survey of India: Delhi and its neighbourhood, Delhi 1990.
- 2 - Briggs (John): History of the rise of the Mohamedan power of India, Calcuta 1910 .
- 3 - Desai: Mosques of India, Delhi 1990.
- 4 - Elliot (H. M): The history of India as told by its own historians, vol 1 India, calcuta 1871.
- 5 - Futuhs - Salatin (Shah namah 1 hind of islam volume three translation and commantory Agha mahdi husain, center of advanced study aligarh muslim university 1977.
- 6 - Habib (mahmod): Sultan mahmod of Ghazin new Delhi 1967 .
- 7 - Nath ®: History of sultanate architecture, new Delhi 1985 .
- 8 - Page (J-A): A Gide to the Qutb Delhi jodhpur, India 1986.
- 9 - Rani (or Abha): tughluq architecture of Delhi, Delhi 1991.
- 10 - Wahsen (Vol): Islamisches indien , Berlein 1972.



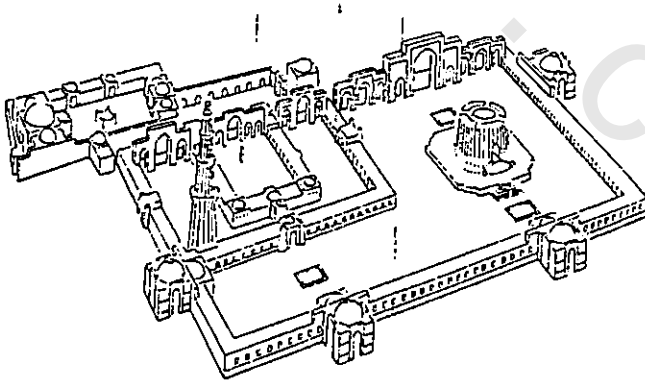
شكل (١) خريطة لمدينة دهلي (دهلي) وضواحيها وأهم مناطقها الأثرية نقلاً عن مصلحة الآثار الهندية - وزارة الثقافة والتراث الهندي .

Archaeological survey of India: Delhi and its neighbourhood,
Delhi 1990 pL XXVIII.



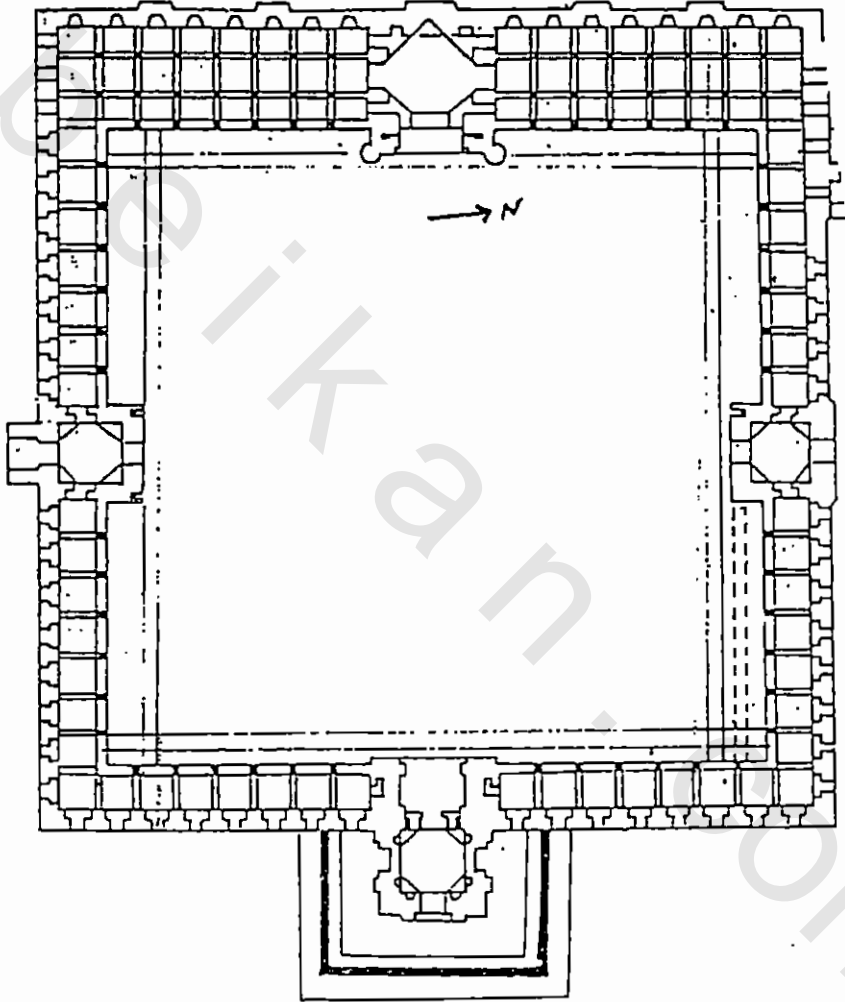
شكل (٢) مسقط أفقى لمسجد قوة الإسلام (قطب منار) بدهلى وزياداته عن مصلحة الآثار الهندية .

Archaeological survey of India: Ibid, P. 16.



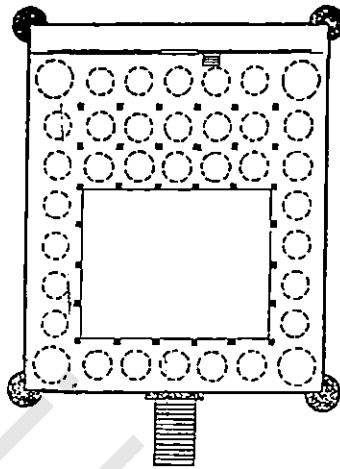
شكل (٣) منظور لمسجد قوة الإسلام وملحقاته وزياداته (عن دوش) .

Whoshsen oosh: Islamisches Indien , Berlein 1972, p. 14.



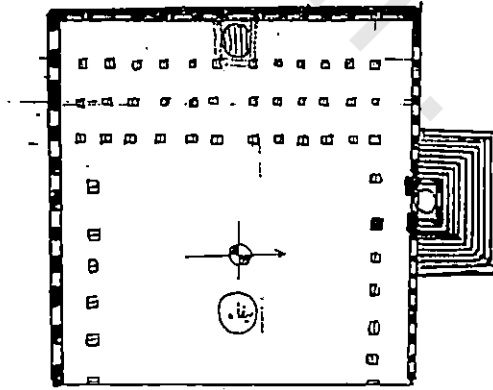
شكل (٤) مسقط أفقي لمسجد (بيجمبوری) بدھلی (عن أماران) .

Abha Rani : Tughluq Architecture of delhi, delhi 1991, Fig 4.



شكل (٥) مسقط أفقى لمسجد « كالى » بمنطقة بوابة تركمان بدھلى « عن ناٹ » .

Nath ©: History of sultanate Architecture, new Delhi 1985 , Fig 24.

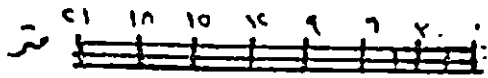
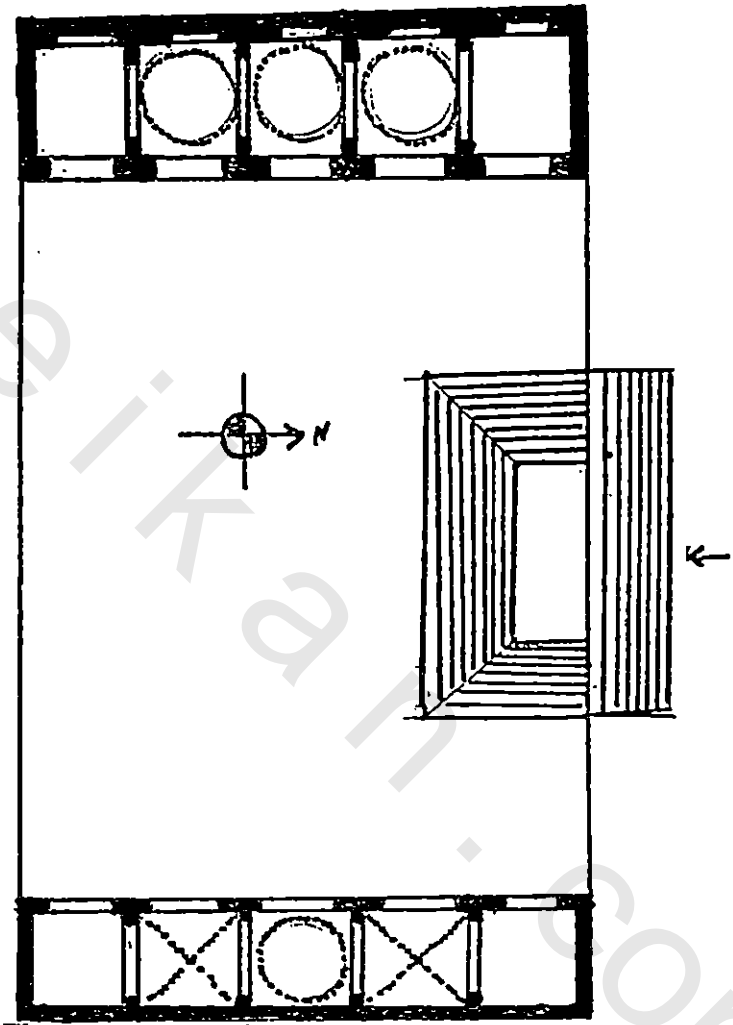


■ اجزاء باقية حتى الآن
■ اجزاء منسورة

١٠ ٢٠ ٣٠ ٤٠ ٥٠ ٦٠ ٧٠ ٨٠ ٩٠ ١٠٠

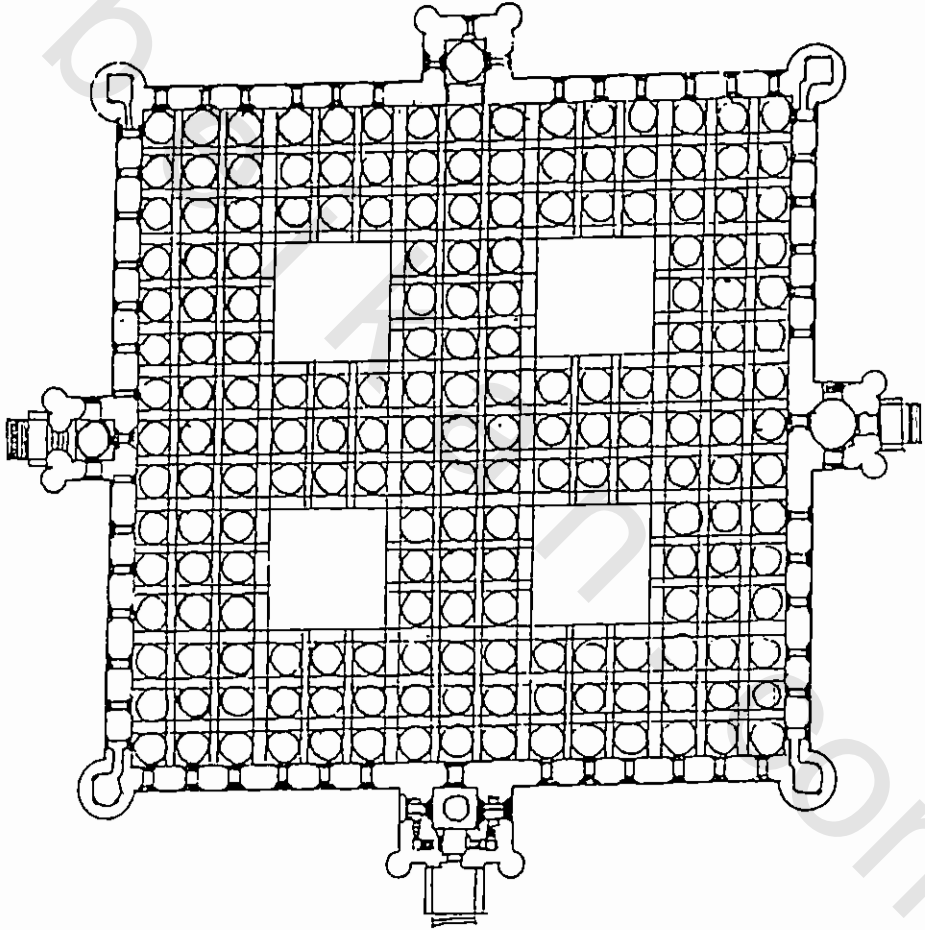
شكل (٦) مسقط أفقى للمسجد الجامع بقلعة فيروز شاه طغلق روعى فيه تكملة المسجد (من عمل

المؤلف) .

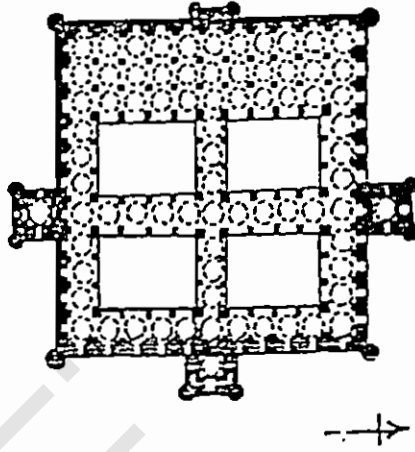


مقياس الرسم ١ : ٢٠٠

شكل (٧) مسقط أفقي لمسجد « باراجومباد » بدهلي . « من عمل المؤلف » .

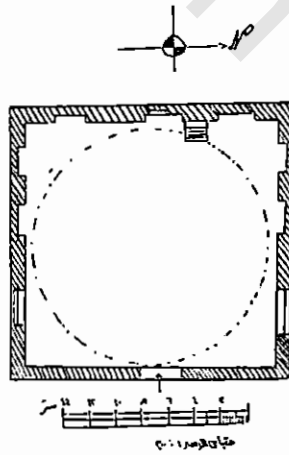


شکل (۸) مسقط أفقی لمسجد « خیر کی » بدھلی « عن أجماران » .



شكل (٩) مسقط أفقى لمسجد « كالان » بمنطقة نظام الدين بدھلى (عن ناٹ) .

Nath: Op. Cit, Fig 35, P. 69 .



شكل (١٠) مسقط أفقى لمسجد « خيزر خان » بحى نظام الدين بدھلى (من عمل المؤلف) .

oboeikan.com

**بنو زهْر ودورهم فى ازدهار الطب فى الأندلس
فى القرنين الخامس والسادس للهجرة / الحادى عشر والثانى عشر للميلاد**

إعداد الدكتور

حسن خضيرى أحمد

أستاذ التاريخ الإسلامى المساعد

كلية الآداب بقنا

جامعة جنوب الوادى

obseikan.com

بنو زهر ودورهم في ازدهار الطب في الأندلس في القرنين الخامس والسادس للهجرة / الحادي عشر والثاني عشر للميلاد

بنو زهر :

يتصل نسب بني زهر بإياد بن نزار بن معد بن عدنان^(١) ، وزهر هو الجد الأعلى للفرع الأندلسي من قبيلة إياد ومنه تفرع أبناء زهر ، قدم زهر بن إياد إلى الأندلس في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي ، واستقر في مدينة شاطبة^(٢) شرق الأندلس^(٣) .

* أتاحت لي فرصة الحصول على مهمة علمية من جامعة بتسبرج (Pitt. U.) بالولايات المتحدة الأمريكية في الفترة من ٥ أكتوبر ٢٠٠٠ إلى ٥ أبريل ٢٠٠١ ، زرت خلالها العديد من المكتبات والمراكز البحثية ، واطلعت على المصادر والدراسات التي أمدتني بمادة وفيرة استفدت منها في إعداد هذه الدراسة .

(١) يذكر الهمداني نقلاً عن محمد بن السائب الكلبى ، أنه سمع عبد الله بن عباس عندما سأله رجل عن ولد نزار بن معد ، فقال : « هم أربعة : مضر وربيعة وإياد وأغار » ، وكانت منازل إياد بين وعلان وحذار جنوب صنعاء ، ثم انتقلوا إلى حمأة ، يقول الشاعر :

ماذا أؤمل بعد آل محرق تركوا منازلهم وبعد إياد

ثم رحل بعضهم إلى العراق . (الهمداني ، أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب) « المتوفى في النصف الأول من القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي » : صفة جزيرة العرب ، تحقيق محمد بن علي الأكوخ ، بيروت ١٩٨٣ ، ص ٨٣ ، ص ٢٨٦ ، ص ٣٣١ ، ص ٣٣٢ ، الإكليل ، ج ١٠ ، تحقيق محب الدين الخطيب ، القاهرة ١٣٦٨ هـ ، ص ١٩٠ ، أما المسعودي فيذكر في أخبار ولد نزار بن معد بن عدنان أن ربيعة ومضر ، هما الصريحان من ولد إسماعيل بن إبراهيم ، وإياد وأغار مع تنازع النسب فيهما من اليمن ، يقول الكميّ بن زيد الأسدي :

إياد حين تنسب من معد وإن رغمت أنوف الراغمينا

وكانوا في الذؤابة من نزار وأهل لوائها مترزينا

(المسعودي ، أبو الحسن علي بن الحسين (ت ٣٤٦ هـ / ٩٥٦ م) : التنبيه والإشراف ، دار الصاوي للنشر ، القاهرة (د. ت) ، ص ١٥٩ .

(٢) شاطبة : مدينة في شرق الأندلس متقنة حصينة ، وهي كريمة البقعة ، كثيرة الثمار طيبة الهواء ، وهي حاضرة أهلة بالسكان ، بها جامع ومساجد وفنادق وأسواق .

(الحميري ، محمد بن عبد المنعم (ت ٨٦٦ هـ / ١٤٦١ م) : كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار ،

تحقيق الدكتور إحسان عباس ، بيروت ١٩٨٠ ، ص ٣٣٧ .

(٣) السّمّري ، أحمد بن محمد السّمّري التلمساني (ت ١٠٤١ هـ / ١٦٣١ م) : نفع الطيب من غصن

الأندلس الرطيب ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، دار صادر بيروت ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م ، ج ٣ ،

على أن هذه الأسرة اشتهرت بنبوغ أفرادها في الفقه ، والعلم والأدب ، فكان منهم الفقهاء والأطباء والشعراء والوزراء ، يصفهم ابن خَلِّكان^(١) بقوله : « .. كلهم علماء رؤساء حكماء ، ووزراء ، نالوا المراتب العليا ، وتقدموا عند الملوك ، ونفذت أوامرهم » ، وقد تميز من هذه الأسرة ستة أطباء تعاقبوا في التربع على عرش الطب في القرنين الخامس والسادس للهجرة / العاشر والحادي عشر للميلاد^(٢) ، ويتعذر الاهتداء إلى أية أسرة عربية أخرى نبيغ فيها هذا العدد المتلاحق من مشاهير الأطباء ، الذين حملوا مشعل العلم على مدى قرنين من الزمان ونيف ، في عهد الظلام الدامس للعصور الوسطى^(٣) .

أما مروان بن زهر ، فتضمن علينا المصادر ، ولا نعرف الكثير عنه ، بينما ابنه محمد ابن مروان بن زهر ، فيقول ابن دحية^(٤) : « كان عالماً بالرأى ، حافظاً للأدب ، فقيهاً حاذقاً بالفتوى ، مقدماً في الشورى ، متفنناً في الفنون ، جمع الرواية والدراية » ، وحدث عنه جماعة من علماء الأندلس ، ووصفوه بالدين والفضل والجود والبذل^(٥) .

لما اشتهر أمر الفقيه محمد بن مروان ، وطار ذكره في بلاد الأندلس ، بعث المعتضد ابن عباد (ت ٤٦٤هـ / ١٠٧١م) في طلبه^(٦) ، فقد جعل المعتضد لنفسه بلاطاً في

- (١) ابن خَلِّكان ، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد (ت ٦٨١هـ / ١٢٨٢م) ؛ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت (د. ت) ، ج ٤ ، ص ٤٣٤ .
 (٢) ابن أبي أصيبعة ، موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم (ت ٦٦٧هـ / ١٢٧٠م) : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، تحقيق د. نزار رضا ، بيروت ١٩٦٥ ، ص ٥٢٧ - ٥٢٩ .
 وراجع :

- Colin Gabriel. Avenzoar: Sa vie et ses auvres - Paris: Ernest Leroux, 1911, pp. 28-30.

(3) Chejne, Anwar G. Muslim Spain. Its History and culture Minneapolis, The University of Minnesota Press 1974 pp. 102-103.

- (٤) ابن دحية ، الحافظ أبو الخطاب عمر بن حسن بن دحية الكلبي (ت ٦٣٣هـ / ١٢٣٥م) : المطرب من أشعار أهل المغرب ، تحقيق إبراهيم الإياري وآخرون ، القاهرة ١٩٥٤ ، ص ٢٠٣ .
 (٥) ابن خَلِّكان : وفيات الأعيان ، ج ٤ ، ص ٤٣٧ ، ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٥١٧ .
 (٦) المراكشي ، عبد الواحد بن علي (ت : ٦٤٧هـ / ١٢٤٩م) : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق الأستاذ محمد سعيد العريان ، لجنة إحياء التراث ، القاهرة ١٩٦٣ ، ص ١٥٧ .

إشبيلية^(١) وأحاط نفسه بمشاهير الشعراء والأدباء والعلماء ، وكان هو نفسه شاعراً^(٢) ، أنزل الملك العبادى الفقيه محمد بن مروان متراً كريماً ، وأغدق عليه الأرزاق ، وجعله من خاصته ، وما لبث أن أوغر الحاسدون صدر المعتضد من الفقيه ابن زهر ، فغضب عليه ، يقول المقرئ^(٣) : « فضاعت الدولة العبادية عن مكانه ، وأخرج عن بلده ، واستصفت أمواله ، فلحق بشرق الأندلس ، وأقام فيه بقية عمره » .

توفى الفقيه محمد بن زهر فى طلبيرة^(٤) سنة ٤٢٢هـ / ١٠٣٠م^(٥) ، وبوفاة هذا الفقيه تبدأ صفحة جديدة من اهتمامات أفراد الأسرة فى دراسة الطب ونبوغهم وتميزهم فيه ، ولا بأس من أن نعرض لمشاهير هؤلاء الأطباء ، نظراً لأهميتهم فى الدراسة :

ابن زهر الطبيب الأول

هو الوزير أبو مروان عبد الملك بن محمد ، وهو أول طبيب فى الأسرة الزهرية^(٦) ، درس الفقه والحديث على والده ، وعلى غيره من علماء الأندلس ، ثم مال إلى التفتن

(١) حسين مؤنس (الدكتور) : معالم تاريخ المغرب والأندلس ، القاهرة ١٩٨٠ ، ص ٣٦١ .
 (٢) إشبيلية : مدينة بالأندلس حليلة بينها وبين قرطبة مسيرة ثمانية أيام ، ومن الأميال ممانون ميلاً ، يقال الذى بناها بوليش القيصر ، وهى مدينة قديمة ، كبيرة عامرة لها أسوار حصينة ، وسوقها عامرة ، وخلقها كثير وأهلها مياسير . (البكرى ، أبو عبد الله بن عبد العزيز المرسى « ت ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م ») : كتاب المسالك والممالك ، تحقيق أدريان فان ليوفن وأندريه فيرى ، الدار العربية للكتاب ، تونس ١٩٩٢ ، ج ٢ ص ٩٠٤ - ٩٠٥ ، الحميرى : الروض المعطار ، ص ٥٨ - ٥٩ .
 (٣) المقرئ : نفح الطيب ، ج ٣ ، ص ٤٣٢ .

(٤) طلبيرة Talavera مدينة بالأندلس ، وهى أقصى ثغور المسلمين ، وباب من الأبواب التى يدخل منها على أرض النصرارى ، وهى قديمة أزلية ، على نهر تاجة ، وهى مبنية على جبل عظيم وقلعتها أرفع القلاع حصناً ، وهى بلد واسع المساحة ، كثير المنافع به أسواق وديار حسنة ، وبينها وبين طليظلة سبعون ميلاً . (الإدريسى ، أبو عبد الله محمد بن عبد العزيز « ت ٥٤٨هـ / ١١٥٤م) : نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ١٩٩٤ ج ٢ ص ٥٥١ - ٥٥٣ ، مؤلف مجهول: كتاب الاستبصار فى عجائب الأمصار ، لكاتب مراكشى من كتاب القرن السادس الهجرى ، نشر وتحقيق د. سعد زغلول عبد الحميد ، الإسكندرية ١٩٥٨ ، ص ١٣٨ .

(٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان . ج ٤ ، ص ٤٣٧ .

(٦) المقرئ : نفح الطيب ، ج ٣ ، ص ٤٣٢ .

في أنواع التعاليم من الطب^(١) ، رحل إلى المشرق لأداء فريضة الحج ، ثم لدراسة الطب في المشرق ، « والرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعلم^(٢) » ، عرج في رحلته على القيروان ، التي كانت حاضرة ثقافية مزدهرة في ذلك الوقت ، ثم رحل منها إلى مصر حيث استكمل دراسة وممارسة الطب على يد مشاهير الأطباء المصريين^(٣) ، والمعروف أن مصر ، كانت قد وصلت إلى ذروة النشاط الفكري والعلمي في القرن الخامس الهجري ، الحادي عشر الميلادي ، ويبدو أنه مكث في مصر حيناً من الدهر ، يقول صاعد الأندلسي^(٤) : « .. وتطرب هناك زمناً طويلاً .. » وساعده نبوغه وتميزه في الطب أن يتولى رئاسة الطب في مصر^(٥) ، وطار ذكره في الآفاق ، ثم ما لبث أن يمّم وجهه صوب بغداد ، ونال فيها شهرة كبيرة في الطب ، مما حدا به أن يتولى رئاسة الطب في بغداد^(٦) ، ويبدو أنه أثناء إقامته في بغداد ، اطلع على مؤلفات أبي علي الحسين بن سينا (٣٧٠ - ٤٢٨ هـ / ٩٨٠ - ١٠٣٦ م)^(٧) ، وأخصها كتاب القانون في الطب ، حيث إن أبا مروان كان معاصراً لابن سينا .

(١) صاعد الأندلسي ، القاضي أبو القاسم صاعد بن أحمد بن صاعد الأندلسي (ت ٤٦٢ هـ / ١٠٧٠ م) :

طبقات الأمم ، تحقيق الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٦٥ ، ص ١٠٦ .

(٢) ابن خلدون ، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م) : مقدمة ابن خلدون ، دار ابن

خلدون ، الإسكندرية (د. ت) ، ص ٣٩٩ .

(٣) ابن زهر ، أبو مروان عبد الملك بن أبي العلا زهر (ت ٥٥٧ هـ / ١١٦١ م) : كتاب التيسير في المداواة

والتدبير ، تحقيق الدكتور ميشيل الحوري ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، دمشق ١٩٨٣ ، ص

٢٢٧ ، ابن الأبار ، أبو عبد الله محمد عبد الله بن أبي بكر (ت ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م) ، التكملة لكتاب

الفللة ، تحقيق السيد عزت العطار الحسيني ، مطبعة السعادة بمصر ١٣٧٥ هـ / ١٩٥٥ م) ج ١ ، ص

٦٠٦-٦٠٧ . وراجع :

- Sami khalaf Hamarneh, «Medical education and practice, in Medieval Islam» in The History of Medical Education, ed. C.D O'Malley (Berkeley: University of California Press, 1970), pp. 39-71.

(٤) صاعد الأندلسي : طبقات الأمم ، ص ١٠٦ ، ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٥١٧ .

(٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٤ ، ص ٤٣٦ .

(٦) نفس المصدر ، ج ٤ ، ص ٤٣٦ .

(٧) ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ، ص ٣٤٦ وراجع :

عول أبو مروان على العودة إلى الأندلس ، وقصد مدينة دانية^(١) ، ورحب به أميرها مجاهد العامري (٤٠٠-٤٣٦هـ / ١٠١٠-١٠٤٥م)^(٢) ، وقربه إليه ، وأجزل له العطاء ، وأكرمه إكراماً كثيراً ، واشتهر في دانية بصناعة الطب ، ومن بلاط هذا الأمير طار ذكره في أنحاء الأندلس والمغرب ، وظل في دانية متمتعاً بالجاه العريض والثروة الطائلة^(٣) .

وما لبثت رياح التغيير أن هبت على دانية ، فقد توفي أميرها مجاهد العامري سنة ٤٣٦هـ / ١٠٤٥م ، وقرر أبو مروان أن يرحل منها إلى أشبيلية ، وظل بها إلى أن توفي في سنة ٤٧٠هـ / ١٠٧٨م ، وخلف أموالاً جزيلة ، وكان غني أشبيلية ، محط أنظارها في الرباع والضياع^(٤) ، وعلى الرغم من الشهرة الواسعة التي نالها ابن زهر في الطب ، إلا أن المصادر لم تذكر له مؤلفاً واحداً في الطب ، ربما ما كتبه في الطب نسب لابنه الطبيب أبي العلا فيما بعد .

أبو العلا زهر

وأما عن حياة أبي العلا زهر بن عبد الملك ، فنحن لا نعرف الكثير عن بدايات حياته ، وترجح الباحثة كارمن بينا^(٥) Carmen Pena : « أنه ربما ولد في دانية سنة ٤٥٢هـ / ١٠٦٠م » تلقى أبو العلا أولى مراحل تعليمه في أسرته ، ومن خلال أسرته بدأ أول جسور المعرفة ، ثم رحل إلى قرطبة التي كانت تمثل إحدى منارات الثقافة

(١) دانية : مدينة بشرق الأندلس على البحر عامرة ، حسنة لها ريف عامر ، وعليها سور حصين ، وسورها من ناحية الشرق في داخل البحر قد بين مهندسة وحكمة ، والسفن وارده عليها وصادرة عنها ، ومنها كان يخرج الأسطول إلى الغزو ، وبها ينشأ أكثره ، لأنها دار إنشائه .

(الإدريسى : نزهة المشتاق ، ج ٢ ، ص ٥٧ ، الحميري : الروض المعطار ، ص ٣٩٥)

(٢) عبد الواحد المراكشي : المعجب ، ص ١٢٧ ، وراجع: أحمد مختار العبادي (الدكتور): دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ، الإسكندرية ١٩٦٧ ، ص ٩١ - ٩٢ .

(٣) صاعد الأندلسي : طبقات الأمم ، ص ١٠٦ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٤ ، ص ٤٣٧ .

(٤) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٥١٧ .

(5) Pena, Carmen, «Corpus medicorum arabico - hispanorum» Awraq 4 (1981): 79-111, p. 88.

في أوائل العصر الذهبي للثقافة العربية ، وفي الجامع الكبير في قرطبة افتتح دراسته بعلوم القرآن الكريم والحديث والفقه ، والأدب العربي^(١) ، هذه العلوم التي كانت تمثل الركيزة الأساسية في ثقافته وتبحر في هذه العلوم حتى ، « اخترع فصلاً لم يكن في الحساب ، وشرع نبلا قصرت عنه نتائج أولى الألباب»^(٢) ، يصفه الذهبي^(٣) بقوله : «العلامة الأوحده زز الطيب الشاعر ، له النظم الفائقة ، وفيه كرم وسؤدد» .

أما ابن خلكان^(٤) فيبدي حماساً في وصفه فيقول : « .. كان وزير ذلك الدهر وعظيمه ، وفيلسوف ذلك العصر وحكيمه » . على أن أبا العلا وطن نفسه على دراسة الطب ، الذي كان مفتوناً به منذ نعومة أظفاره ، يقول ابن الأبار^(٥) : « .. ومال إلى علم الطب الذي أخذه عن أبيه ، فجهر فيه وأنسى من قبله إحاطة به ، وحنقاً لمعانيه » ، وأخذ يمارس الطب عملياً ونظرياً ، فتخرج على يديه عدة تلاميذ ، حتى غداً علماً في تشخيص الأمراض^(٦) ، « وله علاجات مختارة تدل على مهارته في صناعة الطب ، واطلاعه على دقائقها ، وكانت له نوادر في مداواته المرضي ، ومعرفته لأحوالهم»^(٧) ، وبلغت شهرته المعتمد بن عباد (٤٦٤ - ٤٨٤هـ / ١٠٧١ -

(١) ابن الأبار : التكملة لكتاب الصلة، جـ ١ ، ص ٣٣٤ ، ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٥١٧ .

(٢) المقرئ : نفع الطيب ، جـ ٣ ، ص ٤٣٢ .

(٣) الذهبي ، الإمام شمس الدين محمد بن أحمد (ت ٧٤٨هـ / ١٣٧٤م) : سير أعلام النبلاء ، تحقيق

شعيب الأرنؤوط ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م ، جـ ١٩ ، ترجمة رقم ٣٤٥ ،

وراجع : ابن بسام ، أبو الحسن على الشنتريني (ت ٥٤٢هـ / ١١٤٦م) : الذخيرة في محاسن أهل

الجزيرة ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، الدار العربية للكتاب ، تونس ١٩٧٩ ، القسم الثاني ، المجلد

الأول ، ص ٢١٨ - ٢٢١ .

(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ ٤ ، ص ٤٣٦ ، ابن دحية : المطرب ، ص ٢٠٣ .

(٥) ابن الأبار : التكملة لكتاب الصلة ، ص ٣٣٤ ، ابن خلدون : العبر وديوان المتبدأ والخبر ، جـ ٤ ،

ص ٦٤ - ٦٥ .

(٦) الذهبي : سير أعلام النبلاء ، جـ ١٩ ، ترجمة رقم ٣٤٥ ، المقرئ : نفع الطيب ، جـ ٣ ،

ص ٤٣٢ .

(٧) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٥١٧ وراجع :

(١١) (١٠٩١م) أمير إشبيلية ، فاستدعاه المعتمد إليه ، وألحقه ببلاطه الذى كان يحفل بفحول الشعراء والأدباء والمفكرين ، وجعله طبيبه الخاص ، وبالغ فى إكرامه ، ورد عليه ضيعة كانت لجدّه محمد بن مروان سبق أن صادرها والد المعتمد^(٢) .

على أية حال ، ظل أبو العلا فى بلاط إشبيلية ، حتى غزاها المرابطون ، وأسروا أميرها المعتمد بن عباد سنة ٤٨٤هـ / ١٠٩١م^(٣) ، ونقلوه إلى منفاه فى أغمات^(٤) ، عول أبو العلا بعد ذلك على الالتحاق ببلاط أمير المسلمين يوسف بن تاشفين (٤٨٠-٥٠٠هـ / ١٠٧٨ - ١١٠٦م)^(٥) فى مراکش ، يقول المراكشى^(٦) : « فانقطع إلى أمير المسلمين من الجزيرة من أهل كل علم فحولوه ، حتى أشبهت حضرته حضرة بنى العباس فى صدر دولتهم » .. فقربه الأمير المرابطى إليه ، وأغدق عليه من النعم والأموال الشئ الكثير^(٧) ، وولاه منصب الوزارة حتى « صار وزير ذلك الدهر

(١) ابن خاقان ، أبو نصر الفتح بن محمد القيسى الأشبيلى (ت ٥٣٥هـ/١١٣٤م) : قلائد العقيان فى محاسن الأعيان ، تحقيق محمد العنابى ، تونس ١٩٦٦ ، ص ٢٢ ، ابن الأبار : الحلة السرياء ، تحقيق الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٦٣ ، ج ٢ ، ص ٦١ - ٦٢ ، المراكشى : المعجب ، ص ١٥٨ .

(٢) المقرئ : نفع الطيب ، ج ٣ ، ٤٣٢ .

(٣) المراكشى : المعجب ، ص ١٥٨ ، ص ٢٠٥-٢٠٧ .

(٤) أغمات : مدينة بأرض المغرب ، بقرب وادى درعة ، وأغمات مدينتان إحداهما تسمى أغمات وريكة ، والأخرى أغمات إيلان ، وبينهما نحو ثمانية أميال ، وبأغمات قبر الملك الشاعر المعتمد بن عباد ، جلبه إلينا يوسف بن تاشفين ، فلم يزل بها حتى مات سنة ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م . وقبره هناك معروف . (البكرى : المسالك والممالك ، ج ٢ ، ص ٤٤٢ - ٤٤٣ ، الحميرى : الروض المعطار ، ص ٤٦) .

(٥) ابن أبى زرع ، أبو الحسن على بن عبد الله (ت ٧٢٦هـ/١٣٢٥م) ؛ الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، تحقيق محمد الهاشمى الفيلالى ، الرباط ١٣٥٥هـ / ١٩٣٦م ، ص ١٥٦ ، ابن عذارى المراكشى ، أبو عبد الله محمد بن محمد (كان حياً سنة ٧١٢هـ / ١٣١٢م) : البيان الغرب فى أخبار المغرب ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، بيروت ١٩٨٠ ، ج ٤ ، ص ٤٥ ، وقارن المراكشى حيث يقول إنه توفى فى سنة ٤٩٣هـ ، وأجمع أكثر المؤرخين على أن وفاته كانت سنة ٥٠٠هـ / ١١٠٦م (المعجب ، ص ٢٣٤) ، وراجع : حسن أحمد محمود (الدكتور) قيام دولة المرابطين القاهرة ١٩٥٧ ، ص ٣٢١ ، ص ٤٤٥ .

(٦) المراكشى : المعجب ، ص ٢٢٧ .

(٧) ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٥١٧ .

وعظيمه^(١)»، « وحل من السلطان محلاً لم يكن لأحد من أهل الأندلس في وقته ، وكانت إليه رئاسة بلده ، ومشاركة ولاته في التدابير^(٢) » ، وفي ظل هذا المناخ قدم أبو العلا أبداع ماجادات به قريحته في الأدوية المفردة والمركبة ، حتى برز في الطب إلى غاية عجز الطب عن مرامها ، وشاع ذكره في الأندلس وغيرها من البلاد^(٣) ، « حتى أن أهل المغرب ليفاخرون به وبأهل بيته في ذلك^(٤) .

وعلى الرغم من الظروف القاسية التي كان يمر بها المعتمد بن عباد في منفاه ، إلا أن أبا العلا ظل وفياً له ، ولم ينس فضله عليه ، يذكر المراكشي أن المعتمد كتب إلى أبي العلا راغباً في علاج زوجته اعتماد الرميكية^(٥) ، فكتب إليه أبو العلا مؤدياً حقه ، ومجيباً عن رسالته ، ومسعفاً له في طلبته^(٦) .

ويروى لنا ابن أبي أصيبعة أن رجلاً من التجار جلب من العراق إلى الأندلس نسخة من كتاب القانون في الطب لأبي علي بن سينا ، وأهداها لأبي العلا تقريباً إليه ، « ولم يكن هذا الكتاب وقع إليه قبل ذلك ، فلما تأمله ذمه وأطرحه ، ولم يدخله خزانة كتبه^(٧) » ، ويبدو أن أبا العلا كان قد اطلع على هذا الكتاب من قبل ، وربما جلبه والده معه من بغداد ، ويدعم ما ذهبنا إليه أن من بين مؤلفات أبي العلا ، « مقالة في الرد على أبي علي بن سينا » الأمر الذي يشير أنه اطلع على هذا السفر العظيم .

ويبدو أن أبا العلا كان يتمتع بنفوذ كبير طوال حكم يوسف بن تاشفين وابنه علي (٥٠٠ - ٥٣٧هـ / ١١٠٦ - ١١٤٢م^(٨)) ، باستثناء فترة قصيرة قبيل وفاة أبي العلا ،

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٤ ، ص ٤٣٦ .

(٢) ابن دحية : المطرب ، ص ٢٠٣ - ٢٠٤ ، ابن الأبار : التكملة ، ج ١ ، ص ٣٣٤ - ٣٣٥ .

(٣) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٥١٨ ، الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ترجمة رقم (٣٤٥) .

(٤) ابن الأبار : التكملة لكتاب الصلة ، ج ١ ، ص ٣٣٤ .

(٥) اعتماد الرميكية : جاريته الحظية عنده الغالية عليه ، وهي أم الربيع وتعرف بالسيدة الكبرى ، وتلقب

بالرميكية نسبة لمولاهم رميك بن حجاج ، وكان ابن عباد مفرط الميل إليها ، حتى تلقب بالمعتمد

لينتظم اسمه حروف اسمها . (ابن الأبار : الحلة السرياء ، ج ٢ ، ص ٦٢) .

(٦) المراكشي : المعجب ، ص ٢١٨ .

(٧) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٥١٨ .

(٨) حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ، ص ٤٣٧ .

حيث حدثت جفوة بينه وبين الأمير المرابطي على بن يوسف ، بسبب وشاية دسها له بعض الحاسدين من أمثال أبي الحسن سفيان (ت ٥٣٧هـ / ١١٤٢م) طبيب على بن يوسف الخاص ، الذي كانت بينه وبين ابن زهر منافسة شديدة^(١) ، وكذلك الفتح بن خاقان (ت ٥٣٥هـ / ١١٣٤م) أحد رجال الحاشية المقربين ، والقاضي أبي القاسم ابن منظور ، وبالفعل نجح هؤلاء في أن يرصدوا كلامًا بذئيًا ، قاله أبو العلا في حق الأمير ، يقول ابن أبي أصيبعة^(٢) : « .. ولولا بذاء اللسان وعجلة إنسان ، وأى الرجال تكمل خصاله ، وتتناسب أوصاله » ، مما حدا بالأمير أن يتخذ كافة الإجراءات الرادعة ضد أبي العلا وأسرته ، ومن بينها إيداع ابنه عبد الملك في سجن مراكش^(٣) .

توفي أبو العلا في قرطبة سنة ٥٢٥هـ / ١١٣٠م ، ودفن بإشبيلية خارج باب الفتح^(٤) .

مؤلفات أبي العلا وفكره الطبي :

ترك لنا أبو العلا إنتاجًا غزيرًا من المؤلفات الطبية ، بلغت أربعة عشر مؤلفًا ، حفظ لنا ابن أبي أصيبعة ثمانية منها :

١ - كتاب الخواص ، وهذا الكتاب مرتب على حروف المعجم في خواص الحيوانات ومنتجاتها ، ومنه استقى ابن البيطار (ت ٦٤٦هـ / ١٢٤٨م) خواص لحوم

(١) ابن زهر : كتاب التيسير ، ص ٣٩٩ ، وراجع أيضًا :

- Abd Al - Malik Faraj, Relation medicales hispano - maghrebines au XII, Siecle, These pour le doctoraten medecine (Paris: Les Edition Vega 1935) pp. 15 - 16 .

(٢) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنبياء ، ص ٥١٨ ، الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ترجمة رقم (٣٤٥) .

(٣) ابن زهر : كتاب التيسير ، ص ٢٣٣ .

(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٤ ، ص ٤٣٦ ، ابن الأبار : التكملة ، ج ١ ، ص ٣٣٥ ، الذهبي :

سير أعلام النبلاء ، ج ١٩ (ترجمة ٣٤٥) ، ابن دحية : المطرب ، ص ٢٠٤ - ٢٠٥ ، المراكشي :

المعجب ، ص ١٤٣ .

الحيوانات في كتاب الجامع لمفردات الأدوية والأغذية^(١) ، ويوجد هذا الكتاب مخطوطاً في مكتبة باريس^(٢) .

٢ - كتاب الأدوية المفردة^(٣) .

٣ - كتاب الإيضاح بشواهد الافتضاح في الرد على ابن رضوان^(٤) ، فيما رده على حنين بن إسحاق في كتاب المدخل إلى الطب^(٥) .

٤ - كتاب حل شكوك الرازي على كتب جالينوس^(٦) .

٥ - مقالة في الرد على أبي علي بن سينا ، الفها لابنه أبي مروان^(٧) .

٦ - كتاب النكت الطبية كتب بها إلى ابنه أبي مروان^(٨) .

٧ - مقالة في بسطه لرسالة يعقوب بن إسحاق الكندي في تركيب الأدوية^(٩) .

٨ - كتاب المخرجات ، أمر بجمعها على بن يوسف بن تاشفين بعد وفاة أبي العلاء ،

فجمعت بمراكش ، وبسائر بلاد العدو والأندلس سنة ٥٢٦هـ / ١١٣٢م^(١٠) ،

ويوجد هذا الكتاب مخطوطاً في مكتبة الاسكوريال رقم ٨٤٤^(١١) .

(١) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٥١٩ ، عصام الحمصي : الموسوعة الطبية الموجزة ، دار الرشيد للطباعة والنشر ، دمشق سوريا (د. ت) ، ج ١ ، ص ١٢١٥ .

(2) Cristina Alvarez Millan, « El Kitab al-Jawass de Abu Al-Ala Zuhr: materials para su estudio », Aslepio 46 (1994): 151 - 174 .

(٣) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٥١٩ .

(٤) هو أبو الحسن علي بن رضوان بن علي بن جعفر - ولد في مصر ونشأ بها ، وبها تعلم الطب ، وكان من أشهر الأطباء ، وكبير أطباء الحاكم بأمر الله ، وله مسائل ومباحث دقيقة ، وكتب بخطه كثيراً جداً من كتب الطب ، ولا سيما في كتب جالينوس وشروحها وجوامعها . (الففطى ، جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف (٦٤٦هـ / ١٢٤٨م) : كتاب أخبار العلماء بأخبار الحكماء ، مطبعة السعادة ، القاهرة ١٣٢٦هـ ، ص ٢٨٨ ، ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٥٦١ - ٥٦٥ .

(٥) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٥١٩ .

(٦) نفس المصدر ، ص ٥١٩ ، وراجع : الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ترجمة رقم (٣٤٥) .

(٧) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٥١٩ .

(٨) نفس المصدر ، ص ٥١٩ .

(٩) نفس المصدر ، ص ٥١٩ .

(١٠) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٥١٩ .

٩ - كتاب التذكرة ، كتبه لابنه أبي مروان ، وهو مجموعة من الملاحظات التي سجلها أبو العلاء أثناء إقامته في مراکش ، عرض فيها للأدواء الغالبة في مراکش والأدوية المناسبة لها ، وكان هذا الكتاب قد ترجم من اللغة العبرية إلى اللاتينية عن طريق (جان دو كابو) ، وتوجد منه نسخة في مكتبة كلية الطب بباريس ، ثم توالى التراجم بعد ذلك من سنة ١٢٨٨م وحتى سنة ١٤٥٥^(١) ، وقام جابريل كولان (Gabriel Colin) بنشر هذا الكتاب إلى اللغة العربية في باريس سنة ١٩١١م ، ثم أعاد نشره بعد ترجمته إلى اللغة الفرنسية^(٢) .

١٠ - جامع أسرار الطب .

١١ - كتاب نبح النجاح .

١٢ - مسهلات في تدبير الفصول .

١٣ - الوصية .

١٤ - كتاب الطرر^(٣) .

على أن من بين مؤلفات أبي العلاء المتاحة لنا كتاب التذكرة وكتاب الجربات ، وهذان الكتابان مختلفان كل منهما عن الآخر ، ويبدو أنهما كتبا في ظروف مختلفة ، هذا فضلاً عن الفكر الطبي لمؤلفهما ، مما ألقى بظلال من الشك في نسبتها إلى أبي العلاء ، وعلى الرغم من ذكر ابن أبي أصيبعة لكتاب التذكرة من بين مؤلفات أبي مروان بن أبي العلاء ، إلا أن جابريل كولان يعضده فريق من الباحثين^(٤) ، يرون نسبة

(1) Colin, Avenzoar, p. 51 .

(٢) ترجمة كولان إلى الفرنسية بعنوان : «Tedkira d' Abu Al-Ala»

- Publiée et traduite pour la premiere fois (Paris: Ernest Leroux 1911).

(٣) ابن الأبار : التكملة ، ج ١ ، ص ٣٣٤ .

(٤) كولان : مقدمة كتاب التذكرة لأبي العلاء زهر ، ص ٣ - ٤ .

- Alvarez Millan, Qantara 16 (1995) p. 178, Kuhne Brabant, «hacia una revision de la bibliografia de Abu I-Ala» Zuhr (m. 1130/1) Awraq 13 (1992): 581 - 585.

هذا الكتاب إلى أبي العلا مستندين في ذلك على نسخ المخطوط الموجودة في مكتبة باريس ومكتبة الاسكوريال ، وعلى الجانب الآخر يرى الأستاذ محمد العربي الخطابي^(١) نسبة كتاب التذكرة إلى أبي مروان بن أبي العلا استناداً على مخطوطتي الرباط ، ويؤكد بالأدلة أن مخطوطتي الرباط أكثر حفظاً وأقل أخطاءً عن مخطوطتي باريس والاسكوريال ، هذا فضلاً عن أن عنوان المخطوط يؤكد أن ابن زهر هو مؤلف هذا المخطوط وليس والده ، حيث يشير ابن زهر في صدر هذا المخطوط أنه كتبه لابنه أبي بكر الحفيد ، ويرجح الخطابي أن ابن زهر ربما كتب هذا الكتاب قبيل نهاية حياته في إشبيلية ، عندما لم تكن صحته تقوى على السفر إلى مراكش ، فكتبه لابنه الحفيد الذي كان دائم السفر إلى إشبيلية للانتفاع من علم والده .

أما كتاب المجربات ، فهو مؤلف موجز ، ويبدو أن أبا العلا لم يخطط لكتابة هذا الكتاب ، وربما أملاه عليه والده ، وثمة ملاحظة نلاحظها عند مراجعة كتابي التذكرة والمجربات ، مدى التشابه في مكونات المواد المستخدمة في علاج الأمراض مثل : (وفقاح البابونج وزهر الورد والمصطكا والقرنفل وبذر الكتان)^(٢) ، وهذه المواد ذكرها أبو مروان بن زهر في كتابه التيسير ، مما يشير إلى تأثره بوالده أبي العلا^(٣) ، ومما لا شك فيه أن أبا العلا هو المدرسة التي تلقى فيها ابنه أبو مروان أولى معارفه في الطب ، وعلى يديه برع في هذا الفن ، ودائماً يذكر ابن زهر أن أباه هو معلمه الأول ، الذي أشرف عليه ، وصقل معارفه في الطب نظرياً وعملياً . ومن هنا نجد تأثير ابن زهر بأبيه ، ولا غرو أن كتاب السيرة والناسخين ، حتى بعض المؤرخين الطبيين المحدثين ، وهم بعضهم والتبس عليه الأمر في نسبة مؤلف إلى واحد منهما نتيجة التشابه الكبير من التأثير والتأثر .

(١) محمد العربي الخطابي : الطب والأطباء في الأندلس الإسلامية ، بيروت ، دار الغرب الإسلامي ١٩٨٨ ، ج ١ ، ص ٢٨٩ - ٣٠٣ ، وراجع : ص ١٩ ، ص ٣٦ - ٣٨ ، أبو العلا زهر : كتاب التذكرة .

(٢) أبو العلا زهر : كتاب التذكرة ، ص ١٥ ، ص ١٧ - ١٨ ، ص ٦٤ .

(٣) ابن زهر : كتاب التيسير ، ص ١٨٨ - ١٨٩ .

ابن زهر الوزير

هو أبو مروان عبد الملك بن أبي العلاء زهر ، المولود في إشبيلية ، والمتوفى فيها سنة ٥٥٧هـ / ١١٦١م^(١) ، ولا خلاف بين المؤرخين في سنة وفاته ، بيد أن التاريخ الحقيقى لمولده ، لا يزال مجهولا ، ويرجح كولان^(٢) ، تاريخا تقريبا لمولده خلال السنوات (٤٨٤ - ٤٨٧هـ / ١٠٩١ - ١٠٩٤م) . درس أبو مروان العلوم الإسلامية والأدب العربي في أعظم مدارس الأندلس ، ودرس الطب على يد والده أبي العلاء ، وكان جيد الاستقصاء في الأدوية المفردة والمركبة ، ذاع ذكره في الأندلس وفي غيرها من البلاد^(٣) ، حتى اعتبره ابن رشد^(٤) ، بأنه : « أكبر الأطباء بعد جالينوس » ، ويقول عنه ابن أبي أصيبعة^(٥) : « لم يكن في زمانه من يماثله في مزاوله أعمال صناعة الطب » ، أما ابن خلدون ، فيعده أشهر أطباء أهل الأندلس^(٦) ، ويذكر أن ابن زهر هذا أعظم من ابن سينا ، ولا يعدله سوى الرازى في المشرق^(٧) ، وأوجزت كارمن بينا^(٨) كل ما قيل في ابن زهر ، فقالت : « إنه كان أعظم طبيب في العالمين الإسلامى والمسيحى » ، ولا غرو فقد كان ابن زهر جديرا بهذا التفوق ، لأنه قصر همه على الطب دون سواه ، فلم يكن مهتما بالأدب أو السياسة مثل والده أبي العلاء ، أو ابنه الحفيد ، وإنما انقطع

(١) ابن زهر : كتاب الأغذية ، نشر جارسيا سانشو ، مدريد ١٩٩٢ ، ص ١٢ - ١٣ كتاب التيسير ، مقدمة المحقق (ح) .

(2) Colin, Avenzoar, p. 25, Carmen Pena, al. Awraq 4 (981). P. 89.

(٣) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٥١٩ .

(٤) ابن رشد ، أبو الوليد محمد بن أحمد (ت ٥٩٥هـ / ١١٩٨م) : كتاب الكليات في الطب ، تحقيق خ . م . فورنيس ، ك. الباريت دى موراليس ، نشر مدرسة الدراسات العربية في غرناطة ، المجلس الأعلى للبحوث العلمية ، مدريد ١٩٨٧ ، ص ٤١٩ .

(٥) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٥١٩ .

(٦) ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ، ص ٣٤٦ .

(٧) ابن زهر : كتاب التيسير ، مقدمة المحقق ، (ط) .

(8) Carmen Pena, al - Awraq, p. 89.

إلى الطب دون غيره من العلوم^(١) ، وتجرد من قيود التقليد الذي تمسك بها سواه من أطباء عصره ، حتى أهلته شهرته هذه إلى الاستئثار بالكنية (ابن زهر) ، فإذا قيل ابن زهر دون إتباع هذه الكنية بأى اسم آخر ، أو بأية كنية أخرى ، كان المقصود أبا مروان عبد الملك بن أبي العلا زهر^(٢) .

على أية حال ، خلف ابن زهر أباه في خدمة المرابطين ، وكان الطبيب الخاص لعلی بن يوسف تاشفين ، بيد أن علی بن يوسف ما لبث أن قلب لابن زهر ظهر الجفن ، وأودعه سنة ٥٣٥هـ / ١١٤٠م في سجن مراکش ، لأسباب غامضة نجعلها ، ولم تفصح عنها المصادر^(٣) ، ويبدو أن لها علاقة من جراء ما حدث لوالده من نكبة على يد هذا الأمير .

على أن رياح التغيير ما لبثت أن هبت على المغرب والأندلس بسقوط دولة المرابطين وقيام دولة الموحدین في سنة ٥٤٢هـ / ١١٤٧م^(٤) ، وفي ظل هذه الدولة الجديدة ، أطلق سراح ابن زهر ، وأصبح وزيرا مقربا من الخليفة الموحدى أبي محمد عبد المؤمن بن علی (٥٢٤-٥٥٨هـ / ١١٣٠-١١٦٢م)^(٥) ، ويذكر أن عبد المؤمن كان مؤثرا لأهل العلم ، محبا لهم ، محسنا إليهم ، يستدعيهم من البلاد إلى الكمون عنده والحوار بحضرتة ، ويجرى عليهم الأرزاق الواسعة ، ويظهر التنويه بهم والإعظام لهم^(٦) ، يصفه ابن أبي دینار بقوله^(٧) : « وكان رحمه الله فقيها فصيحا ، عالما بالجدل والأصول ،

(1) Henry Amin Azar, Ibn Zuhr (Avenzoar): diss., Ph. D, The Faculty of the University of North Caroline at Chapel Hill 1998. P. 90.

(٢) ابن زهر : كتاب التيسير ، مقدمة المحقق .

(3) Henry Amin Azar, Op. cit., P. 90.

(٤) المراكشي : المعجب : ص ٢٧٢ وراجع حاشية رقم (١) نفس الصفحة .

(٥) نفس المصدر ، ص ٢٦٥ ، ابن أبي دينار ، أبو عبد الله محمد أبو القاسم الرعيبي (ت ١١١٠هـ / ١٦٩٨م) المؤنس في أخبار إفريقية وتونس ، بيروت ١٩٩٣ ، ص ١٣٧ .

(٦) المراكشي : المعجب ، ص ٢٦٩ .

(٧) ابن أبي دينار : المؤنس ، ص ١٤٠ ، السلاوى ، أبو العباس أحمد بن خالد الناصرى (ت ١٣١٥هـ /

١٨٩٧م) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، الدار البيضاء ١٩٥٤ ، ج ٢ ، ص ١٤٥ .

حافظا لحديث النبي ﷺ ، مشاركا في علوم كثيرة: الدينية والدنيوية ، وعلم النجوم واللغة والأدب والتاريخ وعلم القراءات .

عول عبد المؤمن بن علي أن يصطفى ابن زهر لنفسه ، وجعل اعتماده عليه في الطب ، وأناله من الإنعام والعطاء فوق أمنيته ، وكان مكينا عنده ، عالى القدر، متميزا على كثير من أبناء زمانه^(١) ، وألف له أبو مروان بن زهر «الترياق السبعيني^(٢)» .. ، واختصره عشاريا ، واختصره سباعيا^(٣) ، ولم تقتصر شهرة ابن زهر على مغرب الدولة الإسلامية ، بل تجاوزتها إلى أوروبا النصرانية ، فذاع صيته في فرنسا وإيطاليا ، ولاسيما بعد أن انتقلت إليها الترجمات العبرية واللاتينية لكتابه «التيسير في المداواة والتدبير» ، هذا الكتاب الذى يعتبر من أهم الكتب العربية في الطب قاطبة ، لما له من تأثير عظيم على طب العصور التالية ، فقد كان يدرس في جامعات أوروبا حتى نهاية القرن السابع عشر^(٤) .

توفى ابن زهر في سنة ٥٥٧هـ / ١١٦١م ، ودفن بأشبيلية خارج باب الفتح بجوار قبر أبيه^(٥) .

(١) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٥٢٠ .

(٢) الترياق : قال الفيروز أبادى : الترياق بالكسر ، دواء مركب اخترعه ماغنيس وتممه أندرو ماخس بزيادة لحوم الأفاعى فيه ، وهو نافع من لدغ الهوام ، وهو باليونانية تريا نافع من الأدوية المشروبة (القاموس المحيط) ، الترياق ما يمنع امتصاص السم في المعدة والأمعاء (المعجم الوجيز ، القاهرة ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠٢ م) .

(٣) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٥٢٠ .

(٤) ابن زهر : كتاب التيسير ، مقدمة المحقق وراجع : جرجى زيدان : تاريخ التمدن الإسلامى ، دار الهلال ، القاهرة (د.ت) ج٣ ، ص ٢٠٣ .

- Pena Carmen and Amador Dias, Anatomy of Liver, Spleen and Abdomen in The Kitab Al. Taysir (WWW. Islamest. Com/ isc/ Zuhr/ htm).

(٥) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٥٢١ . وراجع : Henry Azar: Ibn Zuhr, p. 94 .

مؤلفات ابن زهر وفكره الطبي

وطن ابن زهر نفسه لدراسة الطب ، وترك لنا أعمالا موسوعية ، تشير إلى طول باعه وعبقريته الفذة في هذا الميدان ، بفضل قياساته الطبية وتجربته الشخصية ، ومنهجه التجريبي ذكر لنا منها ابن أبي أصيبعة^(١) ، سبعة كتب هي :

١ - كتاب التيسير في المداواة والتدبير ، ألف ابن زهر هذا السفر العظيم بناء على طلب صديقه ورفيقه الفيلسوف القاضي ابن رشد (٥٢٠ - ٥٩٥ هـ / ١١٢٦ - ١١٩٨ م) لجعله تفصيلا لكتابه الكليات في الطب ، الذي وصف فيه بصورة عامة ما كان معروفا عن الأمراض في زمانه^(٢) ، ونظرا لأنه لم يتطرق إلى التفاصيل في المعالجة كطبيب ممتحن ، فإنه طلب إلى صديقه ابن زهر أن يجعل كتابه مشتملا على اختبارات ومشاهداته في علمي الأمراض والمداواة ، يتجلى ذلك من قول ابن رشد^(٣) ، في آخر كتابه الكليات : « .. فهذا القول في معالجة أصناف الأمراض بأوجز ما أمكننا وأبينه .. فمن وقع له هذا الكتاب دون هذا الجزء ، فأوفق الكنانيش^(٤) ، الكتاب الملقب بالتيسير ، الذي ألفه في زماننا هذا أبو مروان بن زهر ، وهذا الكتاب سألته أنا إياه وانتسخته ، فكان ذلك سبيلا إلى خروجه ، وهو كما قلنا كتاب الأقاويل الجزئية التي قيلت فيها شديدة المطابقة للأقاويل الكلية ، إلا أنه شرح هنالك مع العلاج ، العلامات وإعطاء الأسباب .. » .

(١) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٥٢١ .

(٢) ابن زهر : كتاب التيسير ، مقدمة المحقق ، وكذلك :

- Colin, Avenzoar, P. 54, Henry Azar, Ibn Zuhr, P. 94 Islamic culture and the Medical Arts. Htm.

(٣) ابن رشد : كتاب الكليات في الطب ، ص ٤٩١ .

(٤) الكنانيش : نسبة إلى كنانش أو كنانشة بضم الكاف وتشديد النون فيهما وتجمعان على كنانيش ، ومعناها في الأصل مجموعة مذكرات ، وبالتخصيص مجموعة مذكرات وفوائد طبية ، وقد توسع في معنى الكنانش فأطلق قديما على كل كتاب علمي أو طبي أو لغوي ، يكون البحث فيه على وجه التفصيل . (راجع : ابن زهر : كتاب التيسير ، ص ٥ ، حاشية رقم ٣) .

وكتاب التيسير مرتب على الترتيب التقليدي ، أى بذكر أمراض الأعضاء من الرأس إلى القدم ، ويتألف من سفرين ، يبدأ ابن زهر بأولهما ، وهو أطول السفرين بفصل قصير في حفظ الصحة ، ثم يأخذ بذكر الأمراض وعلاجها ، مبتدئا بعلل الرأس، ومنتهايا بذكر أمراض الصدر والحجاب الحاجز . أما السفر الثاني فيبذره بالكلام في البطن الأسفل ، ويختتمه بالكلام على الحميات والبحارين والأمراض الوبائية^(١) ، وأردف ابن زهر كتابه هذا بملحق أسماه « الجامع » نزولا على رغبة الأمير المرابطى إبراهيم بن يوسف بن تاشفين - صاحب إشبيلية - وأشار إلى ذلك في مقدمة كتاب التيسير فقال^(٢) : « .. ولقد دخل في خلال وضعي له من كان كالموكل علىّ فيه ، فلم يرضه مني ذلك » ، وقال : « إن الانتفاع به لمن لم يحذق شيئا من أعمال الطب بعير ، وإنه ليس على ما أمر به ، ولا على غرض ما يريد ، فذيلته بجزء منحنط الرتبة سميته بالجامع ألقته مضطرا ، وخرجت فيه عن الطريقة المثلى كارها ، ووضعته بحيث لا يخفى على المريض ، ولا على من حول المريض » .

ويبدو أن ابن زهر لم يؤلف كتاب التيسير إلا بعد أن نضج علمه ، واكتملت اختباراتاه وتعددت مشاهداته وتجاربه ، ولا نعرف تاريخا محددا لتأليفه لهذا الكتاب ، يذكر ابن الأبار أنه ألفه بعد تأليف كتاب الاقتصاد ، الذى انتهى من تأليفه سنة ٥١٥هـ / ١١٢١م^(٣) ، ويرجح المستشرق الفرنسى كولان ، أنه ربما ألفه فيما بين عامي ٥١٥هـ / ١١٢١ ، ٥٥٨هـ / ١١٦٢م^(٤) ، بينما يرى الدكتور ميشيل

(١) راجع : ابن زاهر : كتاب التيسير وراجع :

- Pena Carmen, Awraq 4 (1981) :pp. 109 - 111, Henry Azar, Medicine in Muslim Spain: «The Legacy of Avenzoar of Seville», Carolina Seminar on Comparative Islamic Studies (October 17, 2000) (Ibn Zuhr htm/).

(٢) ابن زهر : كتاب التيسير ، ص ٥ - ٦ .

(٣) ابن الأبار : التكملة لكتاب الصلة ، ج٢ ، ص ٢١٨ . وراجع :

- Kuhne Barabant, Rosa. El - Kitab al - Iqtisad de Avenzoar Doctoral Thesis. Madrid: Facultad de Filosofia Y letras, 1971. pp. 3 - 5.

(٤) كولان : مقدمة كتاب التذكرة لأبي العلا زهر ، ص ٣ - ٤ .

الخورى^(١) ، « أنه ربما أنجز تأليف هذا الكتاب في أواسط القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي » ، والمعروف أن ابن زهر سجن في مراكش سنة ٥٣٥هـ / ١١٤٠م ، مما يجعلنا نرجح أن تأليفه لهذا الكتاب كان فيما بين عامي ٥١٥هـ / ١١٢١م ، ٥٣٥هـ / ١١٤٠م ، أى قبيل إيداعه في السجن . يدعم ما ذهبنا إليه ما ذكره ابن زهر في مقدمة كتاب التيسير ، أنه ألف الجامع وألحقه بكتاب التيسير بناء على رغبة الأمير المرابطي إبراهيم بن يوسف بن تاشفين سنة ٥١٥هـ / ١١٢١م ، وذلك التاريخ هو الأقرب إلى الواقع التاريخي .

على أن هذا الكتاب يوجد مخطوطا في العديد من دور الكتب الأوروبية^(٢) ، كما توجد تراجم قديمة عربية لهذا الكتاب ، هذا فضلا عن تراجم باللغتين العبرية واللاتينية^(٣) ، ونظرا لأهمية هذا الكتاب ، قامت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، بنشر هذا الكتاب في دمشق سنة ١٩٨٣م تحقيق الدكتور ميشيل الخورى .

٢ - كتاب الأغذية ألفه لأبي محمد عبد المؤمن بن علي^(٤) .

٣ - كتاب الزينة^(٥) .

٤ - تذكرة في أمر الدواء المسهل ، كتبها إلى ولده أبي بكر الحفيد^(٦) .

(١) ميشيل الخورى (الدكتور) : مقدمة كتاب التيسير ، (ك) .

(٢) يوجد كتاب التيسير مخطوطا في المكتبة الوطنية في باريس (مخطوطة شرقية رقم ٢٩٦٠) ، انتهى من كتابتها في برشلونة ٥٦١هـ / ١١٦٥م ، وتوجد نسخة ثانية في مكتبة البودليان في أكسفورد (مخطوطة هونتيتون رقم ٢٥٥) ، ولا نعرف مكان النسخ ولا تاريخه . أما النسخة الثالثة ، فتوجد في المكتبة المريشية اللورنزية في فيرنزي بإيطاليا رقم ٢١٥ ، وأخيرا كانت توجد نسخة أخرى في المكتبة العبدلية بتونس تحت رقم ٧/٢٨٦٧ . وللأسف مفقودة . وراجع :

- Colin, Avenzoar, p. 76, Pena Carmen and Amador Diesm, Anatomy of Liver, (WWW. Islamest. Com/ isc/ Zuhr/ htm).

(3) Henry Azar, Inn Zuhr, p. 97.

(٤) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٥١٩ ، وراجع : ابن زهر : كتاب التيسير ، ص ٤٨٤ .

(٥) ابن زهر : كتاب التيسير ، ص ٥ - ٦ ، ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٥١٩ .

(٦) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٥١٩ .

٥ - مقالة فى علل الكلى ، وهذا الكتاب مفقود^(١) .

٦ - رسالة فى عللى البرص والبهق ، كتب بما إلى بعض الأطباء بأشبيلية^(٢) ، وهى مفقودة^(٣) .

٧ - تذكرة ، كتب بما لابنه أبى بكر الحفيد ، يذكره فيها بعلاج الأمراض^(٤) .

ومما يجدر ذكره أن هناك كتباً أخرى لأبى مروان بن زهر لم يذكرها ابن أبى أصيبعة وهى : كتاب الاقتصاد فى إصلاح الأنفس والأجساد ، الذى ألفه للأمير المرابطى إبراهيم بن يوسف بن تاشفين فى سنة ٥١٥هـ / ١١٢١م^(٥) ، وكتاب الجامع فى الأشربة والمعاجين^(٦) ، وكتاب القانون الذى ألفه لأبى محمد عبد المؤمن بن على^(٧) ، وكتاب مختصر حيلة البرء لجالينوس^(٨) ، ورسالة فى تفضيل العسل على السكر^(٩) .

ويجمع المؤرخون على أن كتاب التيسير من أروع مؤلفات ابن زهر وأشهرها ، وتحذو حذو المؤرخين الموسوعات العربية والأجنبية ، والمعجمات الطبية الكبرى التى تثبت أسماء أعلام الطب ، بالإضافة إلى ما تحويه من مصطلحات التشريح ، وأسماء

(١) ابن أبى أصيبعة: عيون الأنباء، ص ٥١٩. وراجع: Pena Carmen, Awraq 4 (1981), p. 81.

(٢) ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٥١٩ .

(3) Pena Carmen and Amador Dias, Anatomy of Liver, (Zuhr, htm).

(٤) ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٥١٩ .

(٥) ابن زهر : بكتاب التيسير ، ص ٣٨٥ . وراجع :

- Kuhne, Rosa, El- Kitab al Iqtisad de Avenzoar , p. 17.

(٦) ملحق كتاب التيسير وراجع : ابن زهر : كتاب اتيسير ، ص ٦ .

(٧) محمد العربى الخطاى : الطب والأطباء فى الأندلس ، جـ ١ ، ص ٣٠٤ - ٣٠٩ .

(8) Bena Carmen, Anatomy of Liver, (Zuhr, htm).

(9) Ibid, (Zuhr. Htm).

الأمراض وأساليب العلاج^(١). كما يعد في مرتبة أعظم الكتب العربية التي عرفت في تاريخ الطب ، ولا يقل شأنه عن كتب الحاوي للرازي ، وكتاب القانون لابن سينا^(٢). ولعل ذلك من شأنه أن يجعل ابن زهر في مرتبة هذين العالمين اللذين تربعا على عرش الطب في مشرق الدولة العربية الإسلامية ، ولا غرو في ذلك ، فقد ذكر لنا ابن سعيد المغربي أن كتاب التيسير مشهور بأيدي الناس بالمغرب ، وقد سار أيضا في المشرق لنبله^(٣).

على أن مؤلفات ابن زهر في الاقتصاد والزينة والأغذية والتيسير ، تظهر ثلاث مراحل من التطور الفكري لصاحبها ، كل مرحلة منها موازية للبيئة السياسية والثقافية والاقتصادية ، التي عاشها ابن زهر خلال سني حياته ، وانعكست على فكره وثقافته ، فهو يبدو في كتاب الاقتصاد كواحد من النبلاء في ظل حكم المرابطين ، ويعرض للاستقرار النفسي والوجداني ومقاومته للمرض ، ويتفرد كطبيب بارز في إلقاء الضوء على العلاقة النفسية بالأمراض العضوية ، ونكاد لا نجد إشارة إلى أبيه أبي العلاء كمرجع من مراجعه في هذا الكتاب ، بيد أنه أولى العوامل الاجتماعية والاقتصادية أهمية بالغة ، عندما جعل العقل البشري البؤرة التي يمكن من خلالها السيطرة على المرض من منطلقات متعددة ، مما يدعو إلى القول أنه كان مبدعاً ، وعمله هذا عملاً

(١) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٥١٩ ، ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ، ص ٣٤٦ ، المقرئ : نفع الطبيب ، ج ٢ ، ص ٧٧٨ ، وراجع : جرجي زيدان : تاريخ التمدن الإسلامي ، ج ٣ ، ص ٢٠٣ ، ميشيل الخوري : مقدمة كتاب التيسير ، عصام الحمصي : الموسوعة الطبية الموجزة ، وكذلك :

- Colin Avenzoar. P. 76, Kuhne Rosa. El- Kitab al - Iqtisad, pp. 15 - 18, Henry Azar, Ibn Zuhr, pp. 130 - 131, Enc., of Islam, art (Ibn Zuhr), National Library of Medicine. Islamic culture and the Medical Arts. Htm.

(٢) ميشيل الخوري : مقدمة كتاب التيسير .

(٣) المقرئ : نفع الطبيب ، ج ٢ ، ص ٧٧٨ ، نقلاً عن ابن سعيد في الرسالة التي ذيل بها رسالة ابن حزم في فضل علماء الأندلس .

إبداعياً^(١). أما كتاب الزينة فيمثل مرحلة مبكرة من حياة ابن زهر لم تكن نضجت تجاربه واكتملت ثقافته بعد ، حتى إنه ليخجل عند ذكره لهذا الكتاب يقول ابن زهر^(٢) : « كنت اقتصرت في كتابي في الزينة .. ، وأنا فتى حين وضعته ، فتكلمت في ذلك الكتاب في أعراض منحطة ، حتى إنني لأخجل من ألفاظ صرفتها ، حين تكلمت في تعليل روائح مذمومة » ، بينما نجد ابن زهر في كتاب التغذية ، تأثر كثيراً بسجنه في مراکش ، وتجاربه في منفاه فهو يخاطب الرجل المغربي البسيط من سكان الصحراء المغربية ، ويبدو واضحاً التحول من خلال كتابه هذا ، ومن خلال الوصفات الطبية^(٣) ، بيد أن هذا الكتاب يزودنا بمعلومات وفيرة عن نظام الغذاء الصحي من خلال عرضه .. للأطعمة والمشروبات ، وطريقة الطهي الصحية ، وكذلك أنواع لحوم الحيوانات ، وأنواع النباتات والطريقة المثلى في استخدامها^(٤) ، مما يدل على أن ابن زهر أصبح طبيباً لامعاً^(٥) .

أما كتاب التيسير فيمثل مرحلة متقدمة من مؤلفات ابن زهر الموسوعية ، حيث يتسم بالعمق والنضج ، يحمل تعليقات ابن زهر في صورة نثر عربي منظوم تفوح منه رائحة العربي على خلاف كتابي الاقتصاد والزينة^(٦) ، وذلك حين يسترسل مع ذكرياته وتجاربه ، أو حين يقدم وصفة عامة لطبيب يتخيل أنه مائل بين يديه يتجلى ذلك من قوله^(٧) : « .. فإن من الله عليك وعلى عليلك على يدك ، فتحلل الورم وارتدع منه ما ارتدع ، فتعلم أن الذي منحك عظيم » ، والمطالع لكتاب التيسير يشعر من خلاله بتفكير الرجل المؤمن الذي يستعمل العقل ، ويعتمد على التجربة ، ويخضع في كل

(١) ابن زهر : كتاب التيسير ، ص ٥-٦ . وراجع .

Kuhne Rosa, El - Kitab al Iqtisad, PP. 3-5 .

(٢) ابن زهر : كتاب التيسير ، ص ٥-٦ . وراجع .

(3) Henry Azar, Ibn Zuhr, , PP. 150-153 .

(٤) ابن زهر : كتاب الأغذية ، ص ٢٢-٣٠ .

(٥) جارسيا سانشو : مقدمة كتاب الأغذية .

(6) Henry Azar, Ibn Zuhr, , P. 154 .

(٧) ابن زهر : كتاب التيسير ، ص ٢٦٦ .

أعماله إلى معطيات الواقع ، ولكن ذلك لا يمنعه من الاستسلام لإرادة الله في لحظة يعجز فيها العقل البشري ، وتتقاصر إمكانياته^(١) ، كما نهج ابن زهر أسلوباً جديداً في الحكمة القياسية مستخدماً التمحيص للوصول إلى أحسن النتائج بقوله : « وما ذكرته في الصحة شهدت التجربة لي به ، فأنا آخذ من ذى قبل في علاج دفع أسباب الأمراض ، بما يسهل تركيبه وتخف مؤونته ، ويكون في أكثر المواضع موجوداً بحول الله^(٢) » ، ولعل أبا مروان توصل بفضل قياساته الطبية وتجربته الشخصية إلى الكشف عن أمراض جديدة ، لم تدرس قبله ، فقد اهتم بالأمراض الرئوية ، وتمكن من تشريح القصبة الهوائية ، وتضلع في أمراض الجهاز الهضمي ، واستعمل أنبوبة مجوفة من القصدير لتغذية المصابين بعسر البلع^(٣) ، واكتشف طفيلية الجرب وسماها صؤابة الجرب ، كما بسط طرق العلاج القديمة ، واعتبر أن الطبيعة قوة داخلية تدبر شؤون الجهاز البشري^(٤) ، وكان ابن زهر إذا عالج مريضه نسي نفسه وتعايش مع مريضه ، وهذا هو سر عبقريته ، وإذا عرضت عليه حالة شائكة ، حاول أن يعيشها من ذكرياته وتجاربه ، ومنطقه ، ولهذا كان نسيج وحده وفريد عصره^(٥) ، استطاع أن يطور شعباً ثلاث حاول توحيدها وهي : الصيدلة والجراحة والطب العام^(٦) ، وثمة ملاحظة نلاحظها في فكر ابن زهر ، وهي إظهار مدى الاستقلال الفكري تجاه التراث الإغريقي والروماني الذي مثله أبقراط وجالينوس ، وعلى الرغم من احترام ابن زهر لجالينوس ، إلا أنه كان يشرّح الموتى غير مقتنع بتشريح جالينوس للحيوانات^(٧) ، كما يعتبر ابن زهر أول من حاول الربط بين مرض معين وإصابة محددة في الجسم ، وذلك واضح في دراسته

(١) ميشيل الخوري : مقدمة كتاب التيسير .

(٢) ابن زهر : كتاب التيسير ، ص ١٦-١٧ .

(3) Pena Carmen and Amador Dias, Anatomy of Liver. htm.

(4) Henry Azar, OP. cit., P. 143 .

(٥) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ص ٥١٩ .

(٦) حوليان ريبيرا : التربية الإسلامية في الأندلس ، ترجمة الدكتور الطاهر أحمد مكي ، دار المعارف ،

القاهرة (د. ت) ، ص ٨٦ .

(7) Pena Carmen Amador, Anatomy of Liver (WWW. Islamest. com/isc/Zuhr/ htm).

لرطوبة غشاء القلب وأورام الصدر^(١) ، ولعل أهم سمة من سمات فكر ابن زهر في مؤلفه هذا ، أنه جمع بين طب اليونان والفُرس والهنود والكلدان والعرب ، وأضاف بفكره وتجاربه إلى ذلك كثيراً ، بفضل ما أحدثه من آراء جديدة ، خالف فيها بشجاعة جالينوس وابن سينا والرازي في تدبير الأمراض^(٢) ، ويبدو تأثر ابن زهر بوالده أبي العلا وجمده عبد الملك واضحاً ، فقد تعلم كثيراً من خبرات والده وتجاربه ، مما جعله أكثر استعداداً للتمييز والتفوق في هذا الميدان ، وأن يصل في هذه المرحلة إلى مستوى المعرفة التي تؤهله أن يذكر قاعدته أو قانونه الخاص عن طريق الملاحظة الشخصية والتجربة^(٣) ، مما حدا بأحد الباحثين^(٤) ، إلى القول : « أن ابن زهر أعظم الأطباء منذ جالينوس ، ولعل مؤلفاته الطبية ، العديدة والمتنوعة ، تقيم الدليل على أنه أكثر الأطباء شهرة وتأثيراً في أوروبا العصور الوسطى » ، فقد كان كتابه التيسير المرجع الرئيسي الذي تقوم عليه الدراسة في مدارس الطب الأسبانية في العهود الأخيرة من حياة الإسلام في الأندلس^(٥) .

على أننا إذا كنا تطرقنا في الحديث عن ابن زهر ، تبقى لنا نقطة جديرة بالمناقشة ، وهي تفنيد المزاعم القائلة^(٦) بيهودية هذا الطبيب العربي الأندلسي ، وأصحاب هذه المزاعم لا يملكون دليلاً مادياً قاطعاً في إثبات زعمهم هذا ، وإنما اعتمدوا على بعض الآراء التي ردها بعض مؤرخي اليهود منذ مطلع القرن السابع عشر الميلادي ، والتي تجاهلت عن قصد مصادر التاريخ الإسلامي في نسب هذه العائلة ، وفق استراتيجية

(1) Henry Azar, Op. cit, PP. 16 - 17 .

(٢) ابن زهر : كتاب التيسير ، ص ١٧٩ ، ٢٢٥ ، ص ٢٧١ ، ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٥١٩ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٥ ، ٦ ، ٧ ، ١١ ، ١٢ ، ١٨٦ ، ١٨٧ .

(4) Henry Azar, Op. Cit, p. 18 .

(٥) خوليان ريبيرا : التربية الإسلامية في الأندلس ، ص ٦٨ .

(6) Michaelis Casiri, Bibliotheca Arabico - Hispano Escorialensis (Madrid: Antonio Perez de soto 1770) P. 132, Barthelemi d'Herbelot, BibLiotheque Orientale (The Hague: J.Neaulme & V.Van Daalen, 1778), V.3,P.621, Esmond R. Long, A History of PathoLogy (New York: Dover Puplications, 1965), P.26.

صممها مدرسة الاستشراق الغربية وتقاسم مؤرخوها الأدوار ، فالشواهد التاريخية التي تضمنتها المصادر العربية من سير وتراجم وطبقات وأنساب ، والتي سبق أن عرضنا لها في هذه الدراسة تؤكد نسب ابن زهر العربي هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى تضلع بنو زهر في العلوم الإسلامية ، حتى غدت سمة بارزة تأثرت بها مؤلفاتهم ، « فهم أهل بيت كلهم علماء رؤساء حكماء ووزراء ، مع سمو النسب »^(١) ، والمطالع لمؤلفات ابن زهر ، يحس من خلالها بتفكير الرجل المؤمن الذي لا ينقطع عن ذكر الله جل جلاله ، وتدعيم معطياته بما تعيه حافظته من الآيات القرآنية الكريمة ، والأحاديث النبوية الشريفة ، مما يؤكد سلامة معتقده ، وإذا كانت بعض مؤلفات ابن زهر ، وجدت منها نسخ باللغة العبرية ، فنفس الشيء وجدت بعض النسخ باللغة اللاتينية ، وهذا ليس أمراً غريباً ، فقد ازدهرت حركة الترجمة في الأندلس في هذه الفترة ازدهاراً عظيماً^(٢) ، وهذا ليس دليلاً على الطعن في نسبه العربي ، ووصفه بأنه كان يهودياً ، مما حدا بفريق من الباحثين المنصفين^(٣) التصدى لهذه المزاعم ووصفها « بأنها أسطورة افتراء وزيغ ، تبتعد عن المسار العلمي ، ويرفضها الواقع التاريخي » .

الوزير أبو بكر بن زهر

هو أبو بكر محمد بن عبد الملك بن زهر ، ويعرف بالحفيد ، ولد في سنة ٥٠٧هـ / ١١١٣م في إشبيلية^(٤) ، افتتح دراسته بدراسة العلوم الدينية ، ثم درس اللغة العربية والأدب العربي ، ووطن نفسه على دراسة الشعر ، حتى صار ديدنه وميدانه^(٥) ، يقول

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ٤ ص ٤٣٤ .

(٢) خوليان ريبيرا : التربية الإسلامية في الأندلس ، ص ٧١٤ - ١٨٥ .

(3) Moritz Steinschneider, Die hebraeischen Übersetzungen des Mittelalters und die juden als Dolmetscher (Graz: Akademische Druck - U. verlang sanstalt 1956), P.748, Colin, Avenzoar, PP. 34 - 35, Henry Azar, Ibn Zuhr, PP. 9 - 10 .

(٤) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٥٣١ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ٤ ، ص ٤٣٤ .

(٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ٤ ، ص ٤٣٤ ، المقرئ : نفع الطبيب ، جـ٣ ، ص ٤٣٤ .

عنه ابن دحية^(١) : « كان شيخنا أبو بكر بمكان من اللغة مكين ، ومورد من الطب عذب معين ، كان يحفظ شعر ذى الرمة ، وهو ثلث لغة العرب ، مع الإشراف على جميع أقوال أهل الطب ، والمترة العليا عند أصحاب المغرب ، .. صحبته زمانًا طويلًا ، واستفدت منه أدبًا جليلاً » .

أما المراكشي^(٢) . الذى التقى بأبي بكر بن زهر فى مراكش سنة ٥٩٥هـ / ١١٩٨م يصفه بقوله : « الوزير الأجل أبو بكر محمد بن الوزير أبى مروان .. له شعر كثير أجاد فى أكثره ، وأما الموشحات^(٣) خاصة ، فهو الإمام المقدم فيها ، وطريقته هى الغاية القصوى التى يجرى كل من بعده إليها ، وهو آخر المجيدين فى صناعتها » .

وأما فى مجال الطب يقول ابن أبى أصيبعة^(٤) : « أخذ صناعة الطب عن أبيه ، وباشر أعمالها ، وكان صائب الرأى ، حسن المعالجة ، جيد التدبير ، .. ولم يكن فى زمانه أعلم منه بصناعة الطب ، وذكره قد شاع واشتهر فى أقطار الأندلس ، وغيرها من البلاد » . ومما يدل على تضلع أبى بكر فى الطب ، يذكر أن والده أبى مروان ، كتب نسخة دواء مسهل للخليفة عبد المؤمن بن على ، فلما رأى أبى بكر هذا الدواء ، نصح الخليفة أن يبدل هذا الدواء بدواء آخر ، بيد أن الخليفة ، لم يوافق على قول

(١) ابن دحية : المطرب ، ص ٢٠٦ ، وراجع : المراكشى : المعجب ، ص ١٤٢ .

(٢) المراكشى : المعجب ، ص ١٤٢ ، ص ١٤٦ ، ابن خلدون : المقدمة ، ص ٤٣٦ - ٤٣٨ .

(٣) يذكر ابن خلدون أن أهل الأندلس ، لما كثر الشعر فى قطرهم ، وتمذبت مناحيه وفنونه ، وبلغ التعميق فيه الغاية ، استحدث المتأخرون منهم فنًا منه سموه بالموشح ينظمونه أسماطًا أسماطًا ، وأغصانًا أغصانًا ، وأكثر ما تنتهى عندهم إلى سبعة أبيات ، ويشتمل كل بيت على أغصان ، عددها بحسب الأغراض والمذاهب ، استنظره الناس جملة الخاصة والكافة لسهولة تناوله وقرب طريقته (ابن خلدون : المقدمة / ص ٤٣٦ - ٤٤٠) ، ويقول هل : « تعتبر العذوبة الخالصة فى جمال الكلمات وتنسيقها إحدى مميزات العرب البارزة » (ى . هل : الحضارة العربية ، ترجمة الدكتور إبراهيم أحمد العدوى ، دار الهلال ، العدد ٣٤٢ ، يونيو ١٩٧٩ ، ص ١٣٢ - ١٣٣) ، وراجع أيضًا : فوزى سعيد عيسى : ابن زهر الحفيد وشاح الأندلس منشأة المعارف ، الإسكندرية ، (١٩٨٣) .

(٤) ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٥٢١ - ٥٢٢ .

أبي بكر ، فقال أبو مروان بن زهر للخليفة : يا أمير المؤمنين ما قاله ابني هو الصواب ، وبالفعل كان دواء أبي بكر أكثر نفعاً وأعظم فائدة^(١) .

سار أبو بكر على سنن آبائه ، حيث تقلد الوزارة للخليفة الموحدى عبد المؤمن بن على (٥٢٤ - ٥٥٨ هـ / ١١٢٠ - ١١٦٣ م) ، ثم لابنه الخليفة أبو يعقوب المنصور (٥٨٠ - ٥٩٥ هـ / ١١٨٤ - ١١٩٩ م)^(٢) ، وكان الخليفة أبو يعقوب على درجة عالية من الثقافة ، ويروى عنه أنه كان له مشاركة في علم الأدب ، واتساع في حفظ اللغة ، وتبحر في علم النحو ، وهذا فضلاً عن العلوم الرياضية والطب والفلسفة^(٣) ، ولم يزل يجمع الكتب من أقطار الأندلس والمغرب ، ويبحث عن العلماء ، إلى أن اجتمع له ما لم يجتمع لملك قبله من ملوك المغرب^(٤) ، وكان مجلسه مجلس الفضلاء والأدباء ، وأرباب المعارف والفنون^(٥) ، وفي ظل هذا المناخ العلمى ، تألق نجم أبي بكر بن زهر ، وطار ذكره بين أهل الشرق والغرب ، حتى صار أحد أعيان وزراء الدولة الموحدية ، ونال حظوة عند الخليفة المنصور ، وأصبح طبيبه الخاص ، وألف له الترياق الخمسيني^(٦) .

على أن الشهرة التي أحرزها أبو بكر بن زهر في مجال الطب والشعر ، جعلت بعض الحاسدين والناقمين يتربصون به الدوائر ، وفي هذا الصدد يروى لنا ابن أبي أصيبعة ، أن رجلاً من أعيان إشبيلية ، كان يعادى الحفيد أبا بكر بن زهر ، ويحسده ، ويضمهر له الشر ، وعمل محضراً بعث به إلى الخليفة ، اتهم فيه ابن زهر ، بالاشتغال بعلم المنطق ، وأن خزانة كتبه تحوى شيئاً كثيراً من كتبه^(٧) ، ويبدو أن

(١) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٥٢٢ .

(٢) المراكشى : المعجب ، ص ٣٠٨ ، ٣١٦ ، مؤلف مجهول : اللؤلؤ الموشية ، ص ١٣٢ - ١٣٣ ، السلاوى ، الاستقصا ، ج ٢ ، ص ٢٠٥ .

(٣) المراكشى : المعجب ، ص ٣١٠ ، السلاوى ، الاستقصا ، ج ٢ ، ص ٢٠١ .

(٤) نفس المصدر ، ص ٣١١ .

(٥) السلاوى ، الاستقصا ، ج ٢ ، ص ٢٠١ .

(٦) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٥٢٢ .

(٧) نفس المصدر .

الفلسفة لم تكن يوماً ما موضوع الرضى من عامة الناس فى الأندلس مثل بقية فروع المعرفة الأخرى ، حيث كان أصحابها يرمون بالزندقة ، وهذا الخوف جعل من المستحيل أن تأخذ دراسة الفلسفة طريقها إلى المدارس مثل بقية العلوم^(١) ، بيد أن الخليفة لم يعر هذا الأمر اهتماماً ، وقال فى مجلسه^(٢) : « والله لو أن جميع أهل الأندلس وقفوا أمامى وشهدوا على ابن زهر ، لم أقبل قولهم ، لما أعرفه فى ابن زهر من متانة دينه وعقله » . ولعل هذه الواقعة تكشف عن مدى ثقة الخليفة المنصور فى ابن زهر ، الذى كان حافظاً للقرآن الكريم ، ملازماً للأمر الشرعية^(٣) ، كما يذكر أنه كان حافظاً لصحيح البخارى بأسانيد^(٤) ، الأمر الذى ينفى عنه أى اتهام عند الخليفة .

على أن هذه المؤامرة ، وإن كانت باءت بالفشل ، وأجهضت فى مهدها ، فإن ذلك لم يثن من عزيمة المتآمرين فى تدبير مؤامرة أخرى ، تكون نتيحتها محسوبة بدقة ، واضطلع بتنفيذها أبو زيد عبد الرحمن بن يوجان - وزير المنصور الموحدى - «الذى كان يعادى أبا بكر بن زهر ويحسده ، لما يرى من عظيم حاله وعلو منزلته وعلمه»^(٥) ، ونجح ابن يوجان فى أن يستقطب أحد معاونى ابن زهر إلى جانبه ، وأن يدس له السم فى طعام ، أكل منه ابن زهر ، توفى على أثره فى أواخر سنة ٥٩٥هـ / ١٩٩٨م^(٦) .

لم يقتصر التفوق فى الطب على رجال بنى زهر فحسب ، بل نبغ جماعة من النساء من بنى زهر اشتهرن بصناعة الطب ، نذكر منهن أخت أبى بكر بن زهر وابنتها ،

(١) خوليان ريبيرا : التربية الإسلامية فى الأندلس ، ص ٨٦ - ٨٧ .

(٢) ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٥٢٢ .

(٣) ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٥٢١ .

(٤) ابن أبى زرع : الأنيس المطرب يروض القرطاس ، ١٨٠ .

(٥) ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٥٢٤ .

(٦) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٤ ص ٤٣٥ ، وراجع المراكشى : المعجب ص ١٤٢ ، المقرئ :

نفع الطيب ج ٣ ص ٤٣٤ .

« فقد كانتا عالمتين بالطب والمداواة ، ولهما خبرة جيدة وحذق بمداواة النساء ، وكانتا تدخلان على نساء المنصور الموحدى وأهله ، ولا يقبل المنصور سواهما^(١) .

مؤلفات أبي بكر بن زهر وفكره الطبى

على أن أبا بكر بن زهر وإن كان قد أحرز تقدماً كبيراً في الطب ، ونال شهرة واسعة في الأوساط الطبية ، فإن ذلك كله لا يقاس إطلاقاً ، بما أحرزه والده وجده في هذا الميدان^(٢) ، وعن مؤلفات أبي بكر يذكر ابن أبي أصيبعة ، أنه ألف الترياق الخمسين للخليفة الموحدى أبي يعقوب المنصور^(٣) ، ويقول ابن خلكان^(٤) : « ومن المنسوب إليه في كتاب جالينوس الحكيم المسمى «حيلة البرء لجالينوس» وقال فيه :

حيلة البرء صنفت لعليل يترجى الحياة أو لعليله
فإذا جاءت المنية قالت حيلة البرء ليس في البرء حيلة»

وتشكك الباحثة كارمن بينا^(٥) في نسبة هذا الكتاب لأبي بكر بن زهر ، وترى أنه من مؤلفات والده ، ولحسن الحظ عثر على كتاب آخر لأبي بكر يحمل عنوان الأغذية ، بيد أنه بمطابقته بكتاب الأغذية الذى ألفه والده ، تبين الاختلاف في المحتوى ، مما يرجح نسبته إلى أبي بكر^(٦) .

(١) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٥٢٤ ، جرحى زيدان : تاريخ التمدن الإسلامى ، ج ٣ ص ٢٠٤ .

Chejneh, Muslim Spain. P. 245.

(2) Henry Azar, Ibn Zuhr, P. 99.

(٣) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٥٢٢ .

(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٤ ، ص ٤٣٥ .

(5) Carmen Pena, Anatomy of Liver, (Zuhr. Htm).

(6) Carmen Pena, et al - Awraq 5 (1981) : 84.

وتشير الباحثة كارمن بينا أن هذا المخطوط موجود في مكتبة جامعة لندن تحت رقم ٢٥٣٩ مخطوطات عربية ويحمل اسم أبي بكر الحفيد ، وهو مختلف تماماً عن كتاب والده .

ومما لا شك فيه أن أبا بكر كان طبيب بلاط من الطراز الأول ، وصاحب مدرسة في الطب ، تعلم على يديه الكثير من طلابها ، ليس في الأندلس أو المغرب فحسب ، بل جاءه الطلاب من بلدان أوروبا^(١) ، يقول ابن أبي أصيبعة^(٢) : « وكان من أجل تلامذة الحفيد أبي بكر بن زهر في صناعة الطب والآخذين عنه: أبو جعفر بن الغزال » ، ويبدو أن دراسة الطب كانت تتم بفحص الطبيب للمريض ، ثم تحديد المرض ومعرفته ، ثم يدعو الطالب لكي يفحصه أيضًا ، وخلال تبادل الملاحظات بين الأستاذ والطالب ، تتم عملية الإعداد ، وفي النهاية يكتب الطبيب العلاج . ويرى أحد الباحثين^(٣) ، أن نقص الوسائل المتاحة للدراسة العملية للطب في الأندلس يفسر لنا ، ربما ظاهرة حرص بعض الأسر على أن تتوارث مهنة الطب، وأن يتخصص أفرادها فيه، لأن قلة فحسب هى التى يتاح لها ما يتاح لابن الطبيب نفسه من التدريب الجيد والدراسة العملية المتواصلة ، ولعل هذا ينطبق على أسرة بنى زهر ، وكان الأطباء من بنى زهر يدرسون علم النبات ، والأحياء والعلوم الطبيعية الأخرى ، إذ كان عليهم أن يقوموا في الوقت نفسه بعمل الصيدلى ، وأن يعدوا الدواء من الأعشاب والعقاقير ، وانعكس ذلك على مؤلفاتهم^(٤) .

ونحن بصدد الحديث عن فكر أبي بكر الطبى تجدر الإشارة ، أن هذا الفكر تأثر تأثرًا كبيرًا بالشعر ، فقد كان أبو بكر يقرض الشعر ومن المجيدين فيه^(٥) ، وأمر أن يكتب على قبره هذه الأبيات^(٦) :

تأمل بفضلك يا واقفا	ولاحظ مكانًا دفعنا إليه
تراب الضريح على صفحتي	كأنى لم أمش يومًا عليه
أداوى الأنعام حذار المنون	فها أنذا قد صرت رهنا إليه

(١) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٥٢١ - ٥٢٢ وراجع :

Chejne Muslim Spain. P. 86.

(٢) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٥٢٤ .

(٣) خوليان ريبيرا : التربية الإسلامية في الأندلس ، ص ٨٤ .

(٤) نفس المرجع ، ص ٨٥ .

(٥) راجع: المراكشى المعجب، ص ١٤٢ - ١٤٥ ، ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٥٢٤ - ٥٢٧ .

(٦) المقرئ : نفع الطيب ، ج ٣ ص ٤٣٤ .

ويبدو في هذه الأبيات الإشارة إلى عمله بالطب ومعالجته للناس ، و يروى عنه بعض الأشعار الجيدة نذكر منها على سبيل المثال قوله عندما غلب عليه الشيب^(١) :

إني نظرت إلى المرأة إذ جليت فأنكرت مقلتاي كل ما رأتا
رأيت فيها شيخاً لست أعرفه وكنت أعهده من قبل ذاك فتى
فقلت: أين الذى بالأمس كان هنا متى ترحل عن هذا المكان متى ؟
فاستضحكت ثم قالت وهى معجبة: إن الذى أنكرته مقلتك أتى

ومن نافلة القول أن نشير إلى أن عصر الدولة الموحدية ، يعد من أسمى عصور المغرب والأندلس في مضمار النشاط الثقافى والتعليمى ، حتى غدت قصور الخلفاء تغص بالشعراء والأدباء والعلماء شأنها شأن قصور الفاطميين في مصر والعباسيين في بغداد .

نهاية العائلة الطبية :

خلف أبو بكر الحفيد ابناً له يدعى أبا محمد عبد الله ، ولد عبد الله في إشبيلية سنة ٥٧٧هـ / ١١٨١ - ١١٨٢م^(٢) ، تلقى أولى مراحل تعليمه في إشبيلية ، حيث درس العلوم الإسلامية ، واللغة العربية وآدابها ، ثم تعلم الطب على يد والده ، ووطن نفسه على تعلم دقائقها ، قال ابن أبي أصيبعة^(٣) : « وكان كثير الاعتناء بصناعة الطب ، والتحقق لمعانيتها ، واشتغل على والده ، ووقفه على كثير من أسرار هذه الصناعة وعملها ، وقرأ كتاب النبات لأبي حنيفة الدينورى على أبيه ، وأتقن معرفته » .

عمل أبو محمد عبد الله ابن الحفيد في خدمة الخليفة الموحدى الناصر محمد بن المنصور (٥٩٥ - ٦١٠هـ / ١١٩٩ - ١٢١٣م)^(٤) ، وما لبث أن توفى مسموماً في

(١) المراكشى : المعجب ، ص ١٤٥ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٤ ، ص ٤٣٥ ، ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٥٢٤ .

(٢) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٥٢٩ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٥٢٩ .

(٤) المراكشى : المعجب : ص ٣٨٦ - ٤٠٣ ، ابن أبي دينار : المونس ، ص ١٤٥ - ١٤٦ ، السلاوى :

الاستقصا ، ج ٢ ص ٢١٤ ، ص ٢٢٥ .

سنة ٦٠٢هـ / ١٢٠٥م ، وهو في سن الخامسة والعشرين من عمره ، ودفن عند آباءه في إشبيلية خارج باب الفتح^(١) ، وترك ولدين ، أحدهما يسمى أبا مروان عبد الملك ، والآخر أبا العلا محمد ، وتضمن علينا المصادر في إمطة اللثام حول تاريخ ميلادهما ووفاتهما الذي لا يزال مجهولاً ، ويذكر صاحب عيون الأنباء أن أبا العلا محمد مال إلى الطب ، وبرع في صناعته ، وكان له نظر جيد في كتب جالينوس ، واستقر في إشبيلية^(٢) .

ومهما يكن من أمر بوفاة الخليفة الناصر محمد الموحدى سنة ٦١٠هـ / ١٢١٣م ، ينتهى عهد الازدهار في خلافة الموحدين ، وتبدأ مرحلة جديدة من عهود خلفائه ، ضعفت فيها قبضة الدولة في إحكام السيطرة على أراضيها ، حيث كثرت الفتن ، وانتزى السادات منهم بنواحي الأندلس كل في عمله ، واضطربت الأحوال ، وكثرت المحن وغلت الأسعار ، وكثر الخوف ، وأخذت دولة الموحدين في الإدبار ، وما لبثت أن سقطت سنة ٦٦٧هـ / ١٢٦٨م^(٣) ، وكان من الطبيعي أن تتأثر مهنة الطب في الأندلس بهذه الاضطرابات السياسية والاقتصادية . يقول ابن خلدون^(٤) : « كأنها نقصت لوقوف العمران وتناقصه ، وهى من الصنائع التى لا يستدعيها إلا الحضارة » .

وهكذا أنجبت هذه العائلة ستة أطباء ، توارثوا الطب طوال قرنين من الزمان ونيف ، وأرسوا قاعدة قوية ، ووضعوا الأساس لحضارة عريقة . فالأهمية الحقيقية لنبوغ بسنى زهر يكمن أثرها في تطور الطب في المستقبل ، وبفضل هؤلاء وجدت القواعد الحالية لعلوم الطب ، وأثروا بمؤلفاتهم العديدة المكتبة الطبية ، ووصلوا إلى العقل الأوروبي وأثروا فيه .

* * *

(١) ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٥٢٩ .

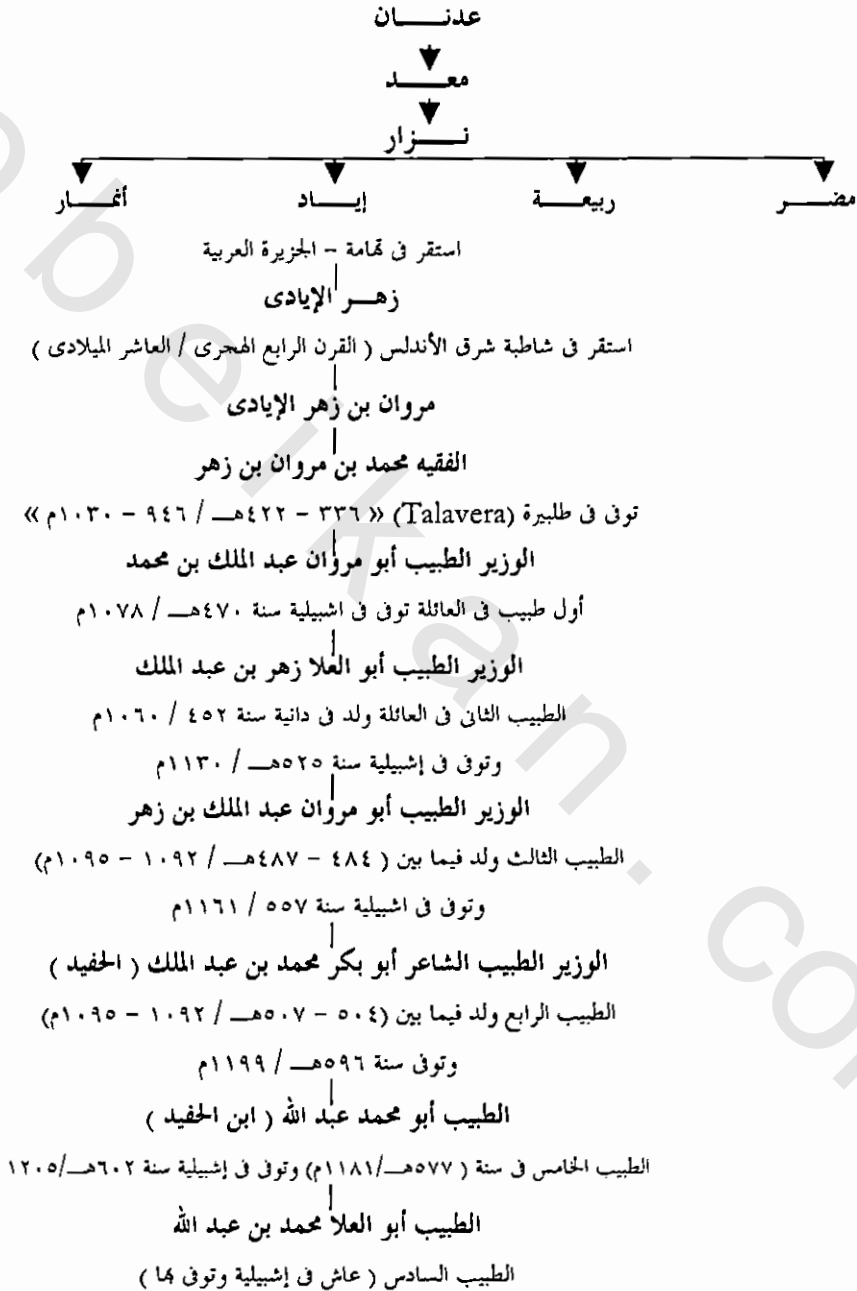
(٢) نفس المصدر ، ص ٥٣٠ .

(٣) المراكشى : المعجب ، ص ٤٠٩ - ٤١٩ ، السلاوى : الاستقصا ، ج ٢ ، ص ٢٦٤ .

(٤) مؤلف مجهول : الحلل المشوية ، ص ١٥٣ ، ابن أبى زرع : المؤنس ، ص ١٤٦ - ١٤٧ .

شجرة نسب قبيلة بنو زهر العربية

ملحق رقم (١)



ملحق رقم (٢)

أشهر الأطباء في الأندلس

في القرنين : الخامس والسادس للهجرة / الحادي عشر والثاني عشر للميلاد

- الزهراوى (ت ٤٠٤هـ / ١٠١٣م)
- أبو مروان بن زهر (ت ٤٧١هـ / ١٠٧٨م)
- أبو العلا زهر (ت ٥٢٦هـ / ١١٣٠م)
- ابن زهر الوزير (ت ٥٥٧هـ / ١١٦١م)
- أبو بكر الحفيد بن زهر (ت ٥٩٥هـ / ١١٩٨م)
- ابن رشد (ت ٥٩٥هـ / ١١٩٨م)

قائمة المصادر والمراجع

أولاً : المصادر العربية

- ابن الأبار ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر (ت ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م) .
- التكملة لكتاب الصلة ، تحقيق السيد عزت العطار الحسيني ، مطبعة السعادة بمصر . ١٣٧٥هـ / ١٩٥٥م .
- الحلة السيرة ، تحقيق الدكتور / حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٦٣ ، ج ٢ .
- الإدريسي ، أبو عبد الله محمد بن عبد العزيز (ت ٥٤٨هـ / ١١٥٤م) : نزهة المشتاق في اختراق الأفاق ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ١٩٩٤ ، ٢ جزء .
- ابن أبي أصيبعة ، موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم (ت ٦٦٧هـ / ١٢٧٠م) : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، تحقيق د. نزار رضا ، بيروت ١٩٦٥ .
- ابن بسام ، أبو الحسن علي الشنتري (ت ٥٤٢هـ / ١١٤٦م) : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، الدار العربية للكتاب ، تونس ١٩٧٩ ، القسم الثاني ، المجلد الأول .
- البكري ، أبو عبد الله بن عبد العزيز المرسى (ت ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م) : كتاب المسالك والممالك تحقيق أدريان فان ليوفن وأندريه فيرى ، الدار العربية للكتاب ، تونس ١٩٩٢ .
- الحميري ، محمد بن عبد المنعم (ت ٨٦٦هـ / ١٤٦١م) : كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، بيروت ١٩٨٠ .
- ابن خاقان ، أبو نصر الفتح بن محمد القيسي الأشبيلي (ت ٥٣٥هـ / ١١٣٤م) قلائد العقيان في محاسن الأعيان ، تحقيق محمد العنابي ، تونس ١٩٦٦ .
- ابن خلدون ، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م) .
- مقدمة ابن خلدون ، الإسكندرية (د . ت) .
- العبر وديوان المبتدأ والخبر ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ١٩٨١ .
- ابن خلكان ، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد (ت ٦٨١هـ / ١٢٨٢م) : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت (د . ت) .
- ابن دحية ، الحافظ أبو الخطاب عمر بن حسن بن دحية الكلبي (ت ٦٣٣هـ / ١٢٣٥م) المطرب من أشعار أهل المغرب ، تحقيق إبراهيم الإيباري وآخرين ، القاهرة ١٩٥٤ .

- د. حسن خضيري أحمد ————— ١٠٩
- ابن أبي دينار ، أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم الدعيني (ت ١١١٠هـ / ١٦٩٨م) : المؤنس في أخبار إفريقية وتونس ، بيروت ١٩٩٣ .
- الذهبي ، الإمام شمس الدين محمد بن أحمد (ت ٧٤٨هـ / ١٣٧٤م) : سير أعلام النبلاء ، تحقيق شعيب الأرنؤوط ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م ، ج ١٩ .
- ابن رشد ، أبو الوليد محمد بن أحمد (ت ٥٩٥هـ / ١١٩٨م) : كتاب الكليات في الطب ، تحقيق خ. م فوريناس ك . البارث دي موراليس ، نشر مدرسة الدراسات العربية في غرناطة ، المجلس الأعلى للبحوث العلمية ، مدريد ١٩٨٧ .
- ابن أبي زرع ، أبو الحسن علي بن عبد الله (ت ٧٢٦هـ / ١٣٢٥م) : الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، تحقيق محمد الهاشمي الفيلاي ، الرباط ١٣٥٥هـ / ١٩٣٦م .
- ابن زهر ، أبو مروان عبد الملك بن أبي العلا زهر (ت ٥٥٧هـ / ١١٦١م) : كتاب التيسير في المداواة والتدبير ، تحقيق الدكتور ميشيل الخوري ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، دمشق ١٩٨٣م .
- ابن زهر : كتاب الأغذية ، نشر جارسيا سانشو ، مدريد ١٩٩٢ .
- السلأوي ، أبو العباس أحمد بن خالد الناصري (ت ١٣١٥هـ / ١٨٩٧م) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، الدار البيضاء ١٩٥٤ ، ٢ جزء .
- صاعد الأندلسي ، القاضي أبو القاسم صاعد بن أحمد بن صاعد الأندلسي (ت ٤٦٢هـ / ١٠٧٠م) : طبقات الأمم ، تحقيق الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٦٥ .
- ابن عذاري المراكشي ، أبو عبد الله محمد بن محمد (كان حيًا سنة ٧١٢هـ / ١٣١٢م) : البيان المغرب في أخبار المغرب ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، بيروت ١٩٨٠ ، ج ٤ .
- أبو العلا زهر بن عبد الملك (ت ٥٢٥هـ / ١١٣٠م) : كتاب التذكرة ، نشره جابريل كولان ، باريس ١٩١١ .
- الفيروز أبادي ، مجد الدين (ت ٨١٧هـ / ١٤١٤م) : القاموس المحيط ، القاهرة (د. ت) .
- القفطسي ، جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف (ت ٦٤٦هـ / ١٢٤٨م) : كتاب أخبار العلماء بأخبار الحكماء ، مطبعة السعادة ، القاهرة ١٣٢٦هـ .
- المراكشي ، عبد الواحد بن علي (ت ٦٤٧هـ / ١٢٤٩م) : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق الأستاذ محمد سعيد العريان ، لجنة إحياء التراث ، القاهرة ١٩٦٣ .

١١٠ ————— بنو زهر ودورهم في ازدهار الطب في الأندلس

- المسعودي ، أبو الحسن علي بن الحسين (ت ٣٤٦هـ / ٩٥٦م) : التنبيه والإشراف ، دار الصاوي للنشر ، القاهرة (د. ت) .

- المقرئ ، أحمد بن محمد المقرئ التلمساني (ت ١٠٤١هـ / ١٦٣١م) : نفع الطبيب من غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، دار صادر بيروت ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨ ، ج١ ، ج٣ .

- مؤلف مجهول : الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية ، لمؤلف أندلسي من أهل القرن الثامن الهجري ، تحقيق الدكتور سهيل زكار والأستاذ عبد القادر زمامة ، الدار البيضاء ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩ .

- مؤلف مجهول : كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار ، لكتاب مراكشي من كتاب القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي ، نشر وتحقيق الدكتور سعد زغلول عبد الحميد ، الإسكندرية ١٩٥٨م .

- الهمداني / أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب (المتوفى في النصف الأول من القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي) :

- صفة جزيرة العرب ، تحقيق محمد بن علي الأكوخ ، بيروت ١٩٨٧ .

- الإكليل ج١ ، تحقيق محب الدين الخطيب ، القاهرة ١٣٨٦هـ .

ثانياً : المراجع العربية الحديثة

- أحمد مختار العبادي (الدكتور) : دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ، الإسكندرية ١٩٧٢م .

- جرجي زيدان : تاريخ التمدن الإسلامي ، دار الهلال ، القاهرة (د. ت) ، ج٣ .

- حسن أحمد محمود (الدكتور) ، قيام دولة المرابطين ، القاهرة ١٩٥٧ .

- حسين مؤنس (الدكتور) : معالم تاريخ المغرب والأندلس ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٠ .

- نخوليان ريبيرا : التربية الإسلامية في الأندلس ، ترجمة الدكتور الطاهر أحمد مكى ، دار المعارف ، القاهرة (د. ت) .

- عصام الحمصي : الموسوعة الطبية الموجزة ، دار الرشيد للطباعة والنشر ، دمشق (د. ت) .

- فوزي سعيد عيسى : ابن زهر الحفيد وشاح الأندلس ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ١٩٨٣ .

- محمد العربي الخطابي (الدكتور) : الطب والأطباء في الأندلس الإسلامية ، بيروت ، دار الغرب الإسلامي ١٩٨٨ ، ج١ .

- المعجم الوجيز : القاهرة ١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م .

- ميشيل الخوري (الدكتور) : مقدمة كتاب التيسير لابن زهر ، دمشق ١٩٨٣ .

- ي . هل : الحضارة العربية ، ترجمة الدكتور إبراهيم أحمد العدوي ، دار الهلال : العدد ٣٤٢ ، يونيو ١٩٧٩ .

- Abd Almalik Faraj. Relations medicales hispano - maqhrébines au XII 'Siecle, These pour le doctorat en medecine (Paris: les Editions Vega, 1935).
- Alvarez Millan, Cristina. Actualization del Corpus médico - Literario de Los Banu Zuhr. "Al-Qantara 16 (1995) : 173 - 180 .
- " El kitab al - jawass de Abu l'Ala Zuhr : materiales para su estudios, Asepio 46 (1994): 151 - 174 .
- Barthelemi d' Herbelot, Bibliotheque orientale, The Hague: j. Neaulme & N. Van Daalen 1778), V. 3.
- Chejne, Anwar G. Muslim Spain. Its History and Culture. Minneapolis: The university of Minnesota press. 1974.
- Colin, Gabriel. Avenzoar: Sa vie et ses auvres. Paris: Ernest Leroux, 1911.
- Encyclopeadia of Islam .
- Esmond R. long, A History of pathology (New York: Dover Publications, 1965) .
- Henry Amin Azar. Ibn Zuhr (Avenzoar) Supreme in the Science of Medicine Since Galen: diss., Ph. D, The Faculty of the University of North caraline at Chapel Hill. 1998.
- Medicine in Muslim Spain: The legacy of Avenzoar of Seville, Carolina seminar on comparative Islamic studies (October 17. 2000) Ubn Zuhr. Htm.
- Islamic Culture and the Medical Arts. Htm.
- Kuhne Brabant, Rosa. El-Kitab Al - Iqtisad de Avenzoar Doctorat Thesis - Madrid 1971.
- Hecia una revision de la bibliografia de Abu I. "Ala Zuhr" Al - Qantara 13 (1992): 581 - 585.

- Michaelis Casiri. Bibliotheca Arabico - Hispano Escorialensis (Madrid: Antornio de soto 1770) .
- Moritz Stenschneider. Die hebraeischen uberset Zun gen des Mittelalters und die juden als Dolmetscher (Graz: Akademische Druck - U. verlang sanstalt, 1965).
- National Library of Medicine (htm).
- Péna Carmen and Amador Dias. Anatomy of liver, spleen and Abdomen in the kitab Al- Taysir.
(www. Islamest.com/sc/zuhr/htm)
- Péna Carmen. "Corpus medicum arabico - hispanorum" Awràq 4 (1981).
- Sami Khalaf Hamarneh. "Medical education and practice in Medieval Islam" in the History of Medical Education, ed. C.D. O'Malley (Berkeley: University of California press, 1970).
- WWW. Khayma.com (sina.htm).

روسيا الكيفية

د. وفاء بنت عبد الله المزروع

oboeikan.com

روسيا الكيفية

المقدمة :

لم يعرف الروس بهذا الاسم حتى وقت طويل من تاريخهم ، ولا يمكن أن نتبع بداياتهم بالتفصيل بسبب نقص البيانات التاريخية ، فلم يتعلم الشعب الروسى فن الكتابة حتى القرن التاسع الميلادى ، لذلك لم يترك أية سجلات مكتوبة عن حياته ، ولهذا لم يكن أمام المؤرخين إلا الاعتماد على مصادر أخرى للحصول على معلومات عنهم مثل : الاكتشافات الأثرية لمدافنهم ، وبقايا منازلهم ولوازمهم العائلية ، والمعلومات والتفسيرات عن حياتهم بواسطة الكتاب المعاصرين اليونانيين واللاتينيين والبيزنطيين والعرب ، إلا أن تلك المعلومات وجدت غير كاملة ومتناقضة .

يبدأ التاريخ المبكر للشعب الروسى منذ بداية العهد المسيحى حيث كان أسلاف الشعب الروسى يعيشون فى المناطق التى أصبحت : بولندا الشرقية وأوكرانيا الغربية وروسيا البيضاء ، وكانوا لا يزالون شعباً بدائياً يتحدثون اللغة السلافية ، والتى اتخذ أصحابها طريقهم إلى الهجرة البطيئة والمستمرة . لكننا لا نستطيع أن نعرف تاريخهم بدقة ، غير أنه مع حلول القرن السادس انفصلوا وانقسموا إلى ثلاث مجموعات تركت تأثيرات مختلفة للمناطق التى مروا بها ، واستقروا فيها وانقسموا إلى ثلاث مجموعات : الغربية والجنوبية والشرقية .

١ - هاجر السلاف الغربيون إلى أنهار الألب والأودر والفيستولا ، وتأثروا بالحضارة الغربية (الأوروبية) ، واعتنقوا الكاثوليكية ، واستخدموا الحروف اللاتينية .

٢ - أما السلاف الجنوبيون ، فقد اتجهوا عبر جبال الكارثيان إلى البلقان ، وأصبحوا تحت تأثير الحضارة البيزنطية ، واعتنقوا المذهب الأرثوذكسى ، واستخدموا حروفه .

٣ - أما السلاف الشرقيون (أسلاف الروسيين) وهم موضع الدراسة ، فقد اتجهوا شرقاً إلى بحيرة بيبوسى وبحيرة المين ونهر الدينير والأوكار والفالوج ، وتأثروا بالحضارة البيزنطية وأصبح بينهم وبين السلاف الجنوبيين مميزات متشابهة واعتنقوا المذهب الأرثوذكسى فيما بعد .

إن لفظ روسيا لم يوجد فى لغة من اللغات للدلالة على البلاد المعروفة الآن بهذا الاسم إلا إبان القرن التاسع الميلادى ، واستخدم هذا اللفظ عن أحوال هذه البلاد قبل هذا التاريخ من باب التجاوز .

كما أن معظم أهل روسيا يرجعون إلى السلاف الشرقيين ، وطوال العصور الوسطى ظل سكان السهول والبرارى الروسية فى عيشة بعيدة عن الأفكار والمثل والظواهر الحضارية التى شكلت الشعوب اللاتينية والتيوتوية . ثم إن الحركات الكبرى التى هزت غرب أوروبا لم تكن روسيا فى قليل أو كثير ، ولم يمس أولئك الروس شىء من حركة إحياء العلوم القديمة ، كما لم تسهم حركة الإصلاح البروتستانى بشىء أيضاً ، فعاشوا بعيدين عن الحضارة اللاتينية والدراسات التى عكفت عليها أوروبا العصور الوسطى ، كما برئ تاريخهم من برلمانات أو جماعات ، كما أنهم نجوا من الحروب الدينية التى ملأت أوروبا .

والخلاصة : أن روسيا ظلت فى عزلة دون أن تؤثر أو تتأثر بتجربة مما مر من تجارب أوروبا .

هذا وقد قسمت هذه الدراسة إلى : مقدمة وخمسة مباحث ، تناول الجزء الأول أصل الروس ، وتناول الجزء الثانى طوبوغرافية بلاد الروس ، ثم انتقلت إلى الجزء الثالث

وهو عن استقرارهم وبداية تكوينهم . أما الجزء الرابع فتناول تنمية القوة في كييف . أما الجزء الخامس فكان عن روسيا الكييفية وعلاقة الروس بالبيزنطيين .

أصل الروس :

بدأ فجر التاريخ الروسى فى الظهور حول شواطئ البحر الأسود؛ حيث توطنت مجموعة من الجاليات اليونانية القديمة وخلقت حركة تجارية واسعة ، وكان لها نشاط زاهر أحدث أعظم حضارة للقبائل الساكنة قبل أولئك اليونانيين حول شواطئ البحر الأسود فى العصور القديمة ، على أن هذه الحضارة التى أبنعت ثمانية قرون من ٤٠٠ ق. م إلى ٤٠٠م ودلت آثارها المختلفة على مبلغ ذوقها الرفيع لم تلبث أن غدت أثاراً بعد عين بسبب ما غلب عليها من غزوات البرابرة ، والحقيقة، أن ما كان متوقفاً حدوثه من اتصال الروس بأداب اليونانيين الأقدمين وفنوفهم لم يكن يحدث حتى تلاشى فجأة ولم يتجدد بعد ذلك أبداً .

ويتضح من ذلك: أن الروس فى العصر الحاضر لا يدينون إلى هذه الجاليات اليونانية القديمة بشئ سوى ما تبقى من آثار هذه الجاليات فى المتاحف . إن العوامل التى يرجع إليها الفضل فى أول نوع من الحكومة بين الروس لم تكن يونانية بل كانت إسكندناوية ، وهذه لم تأت من طريق سواحل البحر البلطى والبحر الأسود ، ففى ثنايا هذه الأعمار ومنحنياهما ولاسيما نهر نيفا ودينير أنشأ السكندناويون محطات تجارية لأنفسهم منذ القرن الأول الميلادى فيما يبدو ، واستقرت حول هذه المحطات جموع عظيمة فى القرن الثامن الميلادى ، وأخذت هذه الجماعات الروسية عندئذ تتاجر مع السكندناويين فى منتجات الغابات من الفراء وعسل النحل وصمغ العسل ، ثم تطورت هذه إلى مدن ذات حكومات مستقلة ومتاجر ضخمة ، ولما تعرضت له متاجر هذه المدن من عادية القبائل التركية والخزرية والمجرية كذلك ، وما تعثرت به المدن نفسها من منازعات داخلية قامت فئات من شجعان الشماليين السويديين بتوفير الأمن وجمع الضرائب وحماية القوافل . من هذه الفئات يبدأ تاريخ روسيا وأهمها فئة الزعيم روريك Rurik

الذين سماهم جرأنهم الأصليون في فنلندا قبل رحيلهم جنوباً باسم: روسى Rusty، وهي تسمية لصنقت بهم وصارت علماً جغرافياً على جميع البلاد التي حلوا بها منذ سنة ٨٦٣ وتلك عدا تسميتهم باسم الفرائنجيين Vargues ومعناها الأسلاف في لغات الشماليين، ذلك أن جميع الأنهار والبحيرات الممتدة من البحر البلطى والبحر الأسود لم تلبث أن غدت في قبضة أولئك الشجعان الشماليين بعد أن ثبتوا أنفسهم في نوفجورود^(١) Novgorod وكييف Kiev وأسسوا تجارة واسعة من الرقيق، وظلوا يغامرون بأنفسهم أقصى مغامرة في جرة منقطعة النظير، فأغاروا على القسطنطينية، وحاولوا فتح بلغاريا وتجروا على الإمبراطور البيزنطى في عاصمته القسطنطينية ونالوا بحد السيف هذه العاصمة المتعالية أنواعاً وألواناً من الامتيازات التجارية .

والواقع أن الشماليين تعلموا الكثير من مبادئ الحياة السياسية بعد احتكاكهم بالبيزنطيين .

ومحمىء روريك وإخوته سنة ٨٦٢م وصل هؤلاء الأمراء إلى بلاد الصقالية (السلاف) وأخذوا في سياستها وتدير شؤونها، فبنى أكبرهم روريك مدينة في سهل منبسط أطلقوا عليها لادوجا Ladoge وجعلها عاصمة البلاد، وسكن الثانى مدينة بيلو أوزيرو Beloozero، والثالث اختار مدينة إيزبورسك Izborsk. ومن ذلك الحين صارت أرض الصقالية (السلاف الشرقيين) تدعى بلاد الروس نسبة إلى عائلة الأمراء، وابتدأ تاريخ المملكة الروسية من سنة ٨٦٣ م، وبعد سنتين مات الأميران فاستلم روريك زمام الحكم بلا معارض، واختار مدينة نوفجورود عاصمة لبلاده، ومنها تسلل الأمراء والملوك الروس .

وقد شعر الصقالية نوعاً من الراحة تحت سلطة الأمير روريك، وقلت الفتن والمقاومة فيما بينهم، وانتشرت قواهم وصاروا يؤلفون إمارة قوية يخشاها الجيران ولا يقوون على محاربتها أو قهرها^(٢) .

(1) Edward Acton: The Present and the Past, Russia 1987- London- P. 17.

(2) Oblonsky, Companion to Russian Studiesan Introduction to Russia History. P. 16

ولقد استمدت روسيا كيانها الاجتماعي والسياسي من امتزاج جموع متعددة من المستوطنين ، ومن أوائل هؤلاء الصقالية الذين سكنوا مناطق السهوب ، ويرجع هؤلاء لغويا إلى الشعوب الإيرانية . أما اجتماعياً فهم أقرب في العادات إلى الشعوب المغولية ، ظهروا في الأقسام الجنوبية الروسية منذ القرن السابع ق. م . وكانت لهم علاقات تجارية مع المستعمرات اليونانية في تلك الجهات ، وأشار إليهم هيرودوت في القرن الخامس ق. م بأنهم منتشرون في مناطق الدانوب والدينير والدون^(١) .

ويذكر المؤرخ بيتر Baynes بأن الرومان أطلقوا على السلاف (السكلاف) وكانوا يتجولون مع قبائل مشابهة لهم في جهات الدانوب الشمالية في أواسط القرن السادس^(٢) . هذا بالنسبة إلى المصادر غير العربية . أما أول إشارة لهم في المصادر العربية أى الروس ، فقد جاءت على لسان اليعقوبي عند حديثه عن الأندلس ووصف مدن هذا الإقليم : (وغربي المدينة - التي يقال لها الجزيرة - مدينة يقال لها أشبيلية ... دخلها الجوس الذين يقال لهم الروس سنة ٢٢٩ هـ فسبوا ونهبوا وحرقوا وقتلوا)^(٣) .

أما المسعودي فيذكر : (وقد كان الثلثاء وردوا إلى الأندلس مراكب من البحر فيها ألوف من الناس أغارت على سواحلهم وزعم أهل الأندلس أنهم ناس من الجوس تطرأ إليهم في هذا البحر كل مائتين من السنين وأرى والله أعلم أن هذه الأمة هي الروس إذ كان لا يقطع هذه البحار غيرهم)^(٤) .

وكذلك ابن حوقل في معرض حديثه عن مراكب الروس والترك والصقالية^(٥) ويتضح من ذلك أنه يقصد بالروس هنا النورمان أو أهل الشمال ، الذين ذكرتهم المصادر العربية باسم الجوس أو الأردمانيين الذين شنوا العديد من الإغارات على

(1) G. Vernadsky, History of Russia- Yala- 1145. P.P. 21-22.

(2) N. Baynes And. H. Moss, Byzantium, An Introduction to East Roman Civilization. Oxford. 1961. P. 398.

(٣) المسعودي : كتاب البلدان ، إبريل ، ١٩٧٦ م ، ص ٣٥٤ .

(٤) المسعودي : مروج الذهب ، بيروت ، ١٩٨٧ ، ط ١ ، ص ١٦٣ .

(٥) ابن حوقل : المسالك والممالك ، لندن ، ١٩٧٢ م ، ص ١٦٣ .

الأندلس في عام ٢٢٩ هـ / ٢٣٠ هـ / ٢٤٥ هـ^(١) ، والذين كان يطلق عليهم في العصور الوسطى الفيكنج Viking الذين سكنوا شبه جزيرة اسكندناوة والبحر البلطي^(٢) .

وعرف البيروني الكثير عن البحر البلطي وعن سكان الشمال وشرق أوروبا وخاصة هؤلاء النورمان الاسكندنافيين الذين يدعونهم باسم الروس أو الورك أي: (الفارنجيين) Vargues ، كما جاء في كتابات المؤرخ الروسي فطور^(٣) .

ويبدو أن المؤرخين العرب خلطوا بين أجناس الفيكنج ، ولم يفرقوا بين الدانيين الذين هاجموا بلاد الأندلس وبين السويديين الذين ارتحلوا إلى البلاد الروس واتحدوا مع السلاف .

ويذكر البيروني : (وأما في مغرب المعمورة ... البحر المحيط ويسميه اليونانيون أوقيانوس يمتد نحو الشمال بمحاذاة أرض الصقالية ويخرج منه خليج عظيم) أي بحر البلطي (في شمال الصقالية ... ويعرفونه ببحر ورنك وهم أمة على ساحله)^(٤) .

وكلمة الورك أو الفارنجيين تعني عضو اتحاد التجار ، وهي مشتقة من الكلمة الاسكندنافية فار Var أي العهد أو العقد - وتشير كلمة الورك إلى مغامرة النورمان الذين ارتبطوا بعهد أو تضامن ، كما تعني الأحلاف في لغة الشماليين؛ وعلى هذا فإن إشارات السيعقوبي أو المسعودي وابن حوقل قد أرجعت الروس إلى النورمان وأهل الشمال إلى الفيكنج . أما إشارة البيروني فقد حددت انتماء الروس على فرع واحد من

(١) المقري : نفع الطيب ، ط ٣ ، ١٩٣٦م ، ص ١٢٠ ، ابن عذارى البيان ، ط ٢ ، ١٩٥٠م ، بيروت ، ص ١٢٩ - ١٣٢ ، ابن القوطية : افتتاح الأندلس ، تحقيق إبراهيم الإيباري ، ١٩٨٢م ، القاهرة ، ص ٧٨ - ٨١ .

(٢) فشر : أوروبا العصور الوسطى ، ط ١ ، ترجمة محمد مصطفى ريان والسيد الباز العريبي ، ١٩٦٨م ، القاهرة ، ص ١١٥ .

(٣) البيروني : كتاب الفهم لأوئل صناعة التنجيم ، نشر : رمزي رايت ، اسكفور ، ص ١٢١ - ١٣٣ .

(٤) ليلي عبد الجواد : تاريخ الروس ، القاهرة ، ١٩٩٠م ، دار الثقافة العربية ، ص ٢ .

فروع النورمان أو الفيكنج وهو الفرع الإسكندنافي أو السويدي بصفة خاصة ، وقد سكن هؤلاء البحر البلطي أو بحر ورنك كما يطلق عليه البيروني^(١) .

ويرجع الباحثون الغربيون أصل الروس إلى أهل الشمال (النورمان) Northman ، وقد استند هؤلاء على ما جاء أولاً : في التاريخ المسمى The Russian Primary Chronicie الذى كتب في القرن ١٢ وحدد (٨٥٢ - ١١١٠ م) ، والذى يعتبر الروس شعباً نورمانيا . وقد استند إلى ما جاء في حوليات برتيناني Annales Bertiniani في عام ٨٣٩ م أنهم وصلوا في هذا العام إلى الإمبراطور البيزنطي ثيوفيل يحملون هدايا ثمينة وخطابا للإمبراطور ، وأن الإمبراطور استقبل الرسل في إنجلهيم (Ingelhim) وعندما سئل هؤلاء عن جنسيتهم ذكروا أنهم من الروس Rhos وأن ملكهم يحمل لقب خاقان Chacanus ، وتحرى الإمبراطور عن هؤلاء الروس ، ودل البحث في شخصيتهم على أنهم من أهل السويد Suedois . ويتضح من هذا الأصل الإسكندنافي للروس أنهم من السويديين كما ذكرنا سابقاً^(٢) .

إن الفانيين (Finnois) والفنلنديين أطلقوا على العناصر الشمالية التي تغلغت بلادهم وخاصة الورنك اسم ريوتسى Ruotsi ، ومن ثم فهو في الروسية (روسى) ، وأصل كلمتى ريوتسى وروسى كلمة اسكندنافية تعنى الجندفون أو هى لفظ فنى يعنى النواتية أو البحارة ، وقد التصقت بهم هذه التسمية وصارت علما جغرافيا على جميع البلاد التي حلوا بها منذ عام ٨٦٢^(٣) .

(١) البيروني : المراجع السابقة ، ص ١٢١ .

(2) Obolensky, Byzantin Commonwealth Eastern Europe 500- 1453. London. 1971. P.P. 181. I Cam. Med. His V. 4. Part. I. 1964. P.P. 96-504.

Flornsky: Russia, V.I. New York- 1953- P.P. 15- 16.

Mawer: The Vikings. P. 327. I Rambaud: Histaire de La Russie.

(3) Minorsky (ed) Hudud al Alam- London- 1937. P. 432. Pares: A History of Russia- London- 1962. P. 54.

إن عددا كبيرا من أسماء أمراء الروس كانت أسماء اسكندنافية مثل : روريك Rurik - Hroereek وأيجور Igor - Ingvar وغيرها^(١) .

وهناك رأى آخر أورده ابن خرداذبه في أصل الروس ، فعندما تحدث عن التجار الروس ذكر : (إنهم جنس من الصقالية) ، وعند حديثه عن مسلك هؤلاء التجار ذكر أيضا : (إنهم يسيرون في تنيسى نهر الصقالية)^(٢) .

وعلى هذا فقد أرجع ابن خرداذبه أصل الروس إلى الصقالية أو السلاف ، ويتفق مع رأى الباحثين الروس الذين يرجعون أصل الروس إلى قبيلة سلافية كانت تسمى بالروس Ros أو Rus وكانت هذه القبيلة تعيش في منطقة السهوب ، وكانت مدينة رودون Roden هى مركز هذه القبيلة وسرعان ما تعرض سلاف السهوب لهجمات من جانب كل من القوط والهون والأفار الذين اجتاحوا البحر الأسود ، ونتيجة لهذه الهجمات اتحدت قبائل السهوب السلافية وكونت تحالفا قريبا كبيرا بزعامة قبيلة الروس هذه وأخذ هذا التحالف اسم هذه القبيلة أى اسم (الروس) وذلك في القرنين: السادس والسابع الميلاديين . كما اتخذ هذا التحالف من مدينة رودون Roden والأراضى التى تجاور نهر الروس أى إقليم الدنيبر الأوسط مركزا له ، ثم ما لبث هذا التجمع القبلى أن نقل مكانه إلى مدينة كييف مركز البلويتز Polianes شعب السهل جيران الروس الشماليين ، وسرعان ما تحول هذا التجمع إلى دولة إقطاعية تحمل اسم الروس^(٣) .

وإذا كان ابن خرداذبه قد اعتبر الروس من جنس الصقالية ، واتفق معه الدارسون السوفيت ، فإن المقدسى يفصل تماما ما بين الروس والصقالية إذ يذكر : (ويتأخم بلدهم (أى الروس) بلد الصقالية فيغيرون عليهم ويأكلون أموالهم ويبيوتهم)^(٤) .

(1) Rambaud, Histoire de la Russie. P. 39.

(٢) ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، إبريل ، ١٨٨٩ ، ص ١٥٤ .

(٣) ليلى عبد الجواد ، تاريخ الروس ، ص ١١ .

(٤) المقدسى : كتاب البدء والتاريخ ، ط ٤ ، ص ٦٦ .

أما ريباكوف Rybakov يذكر أن هذا الفصل لا يعنى تعارض مكان الصقالية ووصفهم بالنسبة للروس ، ولكن هذا فقط على الصعيد الجغرافى ، وفى الفترة التى كان الروس يستعدون فيها لإقامة دولة لهم ولم يكونوا قد اتحدوا مع السلاف الشرقيين^(١) .

وفى القرن الرابع المجرى/ العاشر الميلادى وبعد أن قامت دولة الروس يذكر ابن حوقل : أن الروس اسم المملكة والناحية لا للناس والقبيل ، ونستنتج من ذلك أن الروس أصبحوا معنى سياسيا .

ويبدو من ذلك كله أن للمصادر العربية آراء مختلفة حول أصل الروس ، فمنهم من يرى أنهم من النورمان أو أهل الشمال بصفة خاصة الاسكندنافيين ، ومنهم من اعتبرهم من الصقالية ، وليس هذا الأمر بغريب فقد حار الغرب بدوره فى تحديد أصلهم ، ويرجح أنهم من الفرع الشرقى من الفيكينج (أى السويدىين) الذين سرعان ما امتزجوا بالسلاف الشرقيين وقبلوا أن يطلق عليهم اسم الروس الذى سرعان ما أصبح علما عليهم .

طبوغرافية بلاد الروس :

إن هجرة السلاف الشرقيين جاءت بهم إلى المنطقة المعروفة الآن بالسهل الروسى ، ويمتد هذا السهل من أوروبا الشرقية إلى سيبيريا الوسطى ، ومن المحيط المتجمد إلى جنوب جبال الكارپثيان Carpathian والبحر الأسود القوقاز وبحر قزوين Caspian وجبال آسيا الوسطى . وتعتبر سلسلة جبال الأورال هى التى تشكل شطرا شماليا جنوبيا ويصل ارتفاعها فوق ١٢٠٠ قدم . أما الطرق المائية للسهل الروسى والتى يبلغ طولها حوالى ٧٥٠٠٠ ميل تساعد على التغلب على عوائق امتدادها العظيم ، وتعتبر الأنهار متعددة وطويلة وصالحة للملاحة .

ويمكن الوصول إليها من واحد إلى آخر بواسطة الأنهار والبحيرات معا ليصبح النقل البحرى ممكنا تقريبا من أى اتجاه . ويعتبر نهر الدينير والفولجا رابطين لأعظم خطين

(1) Rybakov, Early Centuries. P.P. 9- 17.

مائيين في روسيا ، ويمر خط البحر البلطيقى إلى البحر الأسود من خلال بحيرات عظيمة، ومن هذه البحيرات يمكن الوصول إلى بحر البلطيق والبحر الأبيض^(١) .

أما الإقامة على السهل الروسى فحينما اقترب السلاف الشرقيون من السهل الروسى في القرنين السادس والعاشر اختاروا أن يستقروا في أراضي الإستيبس التي يسهل الوصول إليها جغرافيا والمرغوب فيها اقتصاديا بالنسبة للغزاة . وكان مجيء الفارزار Farther إيدأنا بالحروب فقد بدأوا في تأسيس حكمهم في المناطق المملوءة بمياه نهر الفلجا والدون . إن هؤلاء الذين حاولوا الدخول إلى المنطقة عبر الساحل الشمالى للبحر الأسود وجدوا مستوطنات ومستعمرات تجارية ورومانية في طريقهم ، وفي أراضي الغابة الشمالية كانت القبائل الأصلية^(٢) أقل عددا وأكثر ضعفا من قبائل الإستيبس ، ونتيجة لذلك كان السلاف قادرين على تمكين أنفسهم من مناطق البلطيق التي سكنتها قبائل اللتوانية والتتبية والليفية ، وكانوا قادرين على المطالبة بتوسيع مناطقهم ولكنهم استطاعوا تحقيق ذلك ببطء . وقبل نهاية القرن التاسع كانوا قد شغلوا أجزاء صغيرة مما يسمى الآن بروسيا الأوروبية ، وقد وصلت المستوطنات الرئيسية لهم شمالا إلى بحيرة لادوجا وجنوبا إلى الدينير Dinieper الأوسط والدينستر Dinester وشرقا إلى نهر أوكا Oka .

استقرارهم وبداية تكوينهم :

قبل القرن التاسع كانت حياتهم قوامها العشيرة التي تعيش في بيوت خشبية وتحترق الأرض بواسطة المحارث البدائية التي تجرها الخيول والثيران واعتمدوا على تربية المواشى والصيد في الأنهار ، فكانت حياتهم الاقتصادية ضعيفة تعتمد على البحث عن أراضي ومستوطنات جديدة ، وكانوا كثيرى التنقل بسبب تهديد القبائل الأقوى لهم . أما معتقداتهم الدينية فقد انعكست عليها المعتقدات الدينية للسلاف الشرقيين على مستوى إنجازهم الحضارى ، وكان العالم يمثل لهم وجود حياة غامضة مليئة بالأرواح الطيبة

(1) Sidney, op. cit. P. 36.

(2) Obplenky, companion To Russian Studies an Introduction to Russian Histoty. P.P. 246.

والخبثثة ، ولقد تعددت آلهتهم ومن أمثلتها : بيرون Perun إله الرعد واستريوج Stribog إله الرياح وغيرهم .

ولم يكن لديهم كهنة قائمون بالخدمات الدينية ولكن كانوا يلجئون إلى السحرة لاسترضاء الأرواح الشريرة . وبُنى تنظيمهم السياسى على العشيرة كما ذكر ، وكانت العشيرة تحت قيادة أكبرهم سنا وهى التى تسن لهم القوانين ، وتمثل مصدر العدالة ، وكانت القبائل تعيش بصورة مفككة إلا فى حالة الحرب واجتياح الأعداء المفاجئ . ومع مرور الوقت بدأت العشيرة تفقد أهميتها^(١) وبدأت المدن تدريجيا بالظهور ، وقد دعم نمو المدن والأحياء الاقتصادى لمدن أوروبا الغربية والشمالية والامتداد الناتج للتجارة بين أوروبا وآسيا الذى نمت فيه أعظم المدن السلافية مثل : كييف Kiev وشيرنيجوف Chernigov على طول نهر الرود . وقد رجت هذه المدن الأخرى من التجارة النامية التى تمثلت فى السلع المهمة مثل : العسل والشمع والعييد التى نقلها التجار وغيرهم إلى القسطنطينية المركز التجارى الرئيسى للإمبراطورية البيزنطية والعربية، وهناك تبادل شحنات الحرير والعطور والتوابل والرماح والسيوف والمعادن النفيسة .

ولقد كان لنمو المدن أثر اقتصادى واجتماعى وسياسى فى حياة السلاف الشرقيين، وقد كان فى كل مدينة مجلس عام يتكون من الذكور ، ومن وقت لآخر يعين لهذا المجلس الأمير الذى يتعهد هو ورجاله بواجب حماية المدينة . أما المغامرون من الرجال فكانوا هم القادرين على التقدم ماديا ، وغالبا ما كان هؤلاء المغامرون يتعاونون مع الأمير . ومع مرور الأيام بدأت تختفى تدريجيا الطبقة المؤسسة للثروة لتظهر الطبقات الوسطى بوضوح .

تنمية القوة فى كييف وازدهارها :

كانت بدايتها القرن العاشر ، وكان الروس المؤسسون فى كييف على درجة من القوة يكفى لأن يستخدموها كقلعة لحماية تجارتهم الموجودة على الدنيبر Dnieper

(1) Sidney, Op. Cit. P. 7.

ومن الأخطار الممتدة في طريقهم إلى القسطنطينية^(١) أثناء المائة سنة التالية . وأثبت الأمراء الكييفيون قدرتهم على تقوية مراكزهم وتوسيع سلطتهم على القبائل والمدن الموجودة على طول نهر الرود بالإضافة إلى ضم مناطق جديدة للدولة المسيطرة عليه . ولم يكن تقدمهم سريعا ولا سهلا بل عانوا فيه الشيء الكثير ، واستطاعوا بإصرارهم على العلاقات التجارية مع الدولة البيزنطية^(٢) .

وعندما استولى سفاييتوسلاف Sviatoslav بن إيكور (إيجور) ٩٤٥ - ٩٦٤ م على الحكم بدأ عهد دولة كييف التوسعي ، إذ وجد المدينة قوية سياسيا واقتصاديا وعسكريا تكفى لتحرير محاولة امتداده للعالم الموجود تحت حكمه ، وقد اتجه أولا إلى الشرق بغزو الخرز Khazars^(٣) وضم أراضيهم الموجودة على الفولجا Volga والدون don تنفيذًا لأوامر الإمبراطور البيزنطي فاتجه بقواته إلى الغرب ضد البلغار Bulgar الموجودين على الدانوب Danube ، وهناك ضم أكثر من إقليم للدولة الكييفية .

ولقد أخذ البيزنطيون يتوجسون خيفة من توسع نفوذ دولة كييف في جهات البلقان الشمالية ، لذلك حاض الإمبراطور حنا زيمسكس John Zimiscees معركة ضد سفاييتوسلاف أجبره على الانسحاب من بلغاريا سنة ٩٧١ م ، كما اشتبك الأخير عند رجوعه إلى كييف في معركة مع قبائل البشناق Pecheneg ، التي أخذت تنهال على

(١) شكل الخرز حاجزا اقتصاديا بين تجار الشمال في الأجزاء الشمالية الروسية والمناطق البلقانية - ولم يكن بمقدور الشماليين القيام بحركة عسكرية عامة ضد الخرز لقتالهم عدديا . لذا وجهوا الدعوة لأبناء جنسهم من الشماليين سنة ٨٥٦ م فاستجاب الزعيم رويك لهذه الدعوة ، وكان هذا حكما على الأقسام الجنوبية من جواتلاند وفريزلاند ، وقاد جموعه نحو الجهات الروسية ، فأنشأ نوفوجورود وجعلها مقرا لإمارته سنة ٨٦٠ م وتولى الحكم بعد وفاته أوليج Oleg بصفته وليا على إيجور . ويعتبر أوليج المؤسس الحقيقي لدولة كييف ، إذ تمكن من الاستيلاء على تلك المدينة سنة ٨٧٨ م التي كانت يحكمها السويديون القدماء ، والتي أصبحت منذ ذلك الوقت عاصمة لأسرة رويك الحاكمة . وأدى توسع دولة كييف جنوبا إلى الاصطدام مع البيزنطيين .

(2) B. Grkov, Kievrus. Moscow. 1959. p. 382.

(3) Vasilliev, Historyog the Byzantine Empire. Vol. I. Madison. 1964. 310

الجهات الروسية في آسيا ، والتي أسفرت عن مصرع الأمير سفايوتوسلاف ، وهذا ما نراه في العلاقات الروسية البيزنطية^(١) .

وهكذا أصبحت مدينة كييف الروسية دولة لها كيانها تحت حكم سلالة ريوريك^(٢) ، وذلك لهيمنتها على مجموعة من المستوطنات الكبرى التي حكمتها حكما شاملا ، نشرت العدل بين ربوعها ، وأمنت شر جيرانها ، وتوسعت في علاقاتها التجارية مع الدولة البيزنطية مما أدى إلى نمو ثروتها ورسوخ واستقرار كيانها السياسي .

روسيا الكييفية :

رغم أن مناطق السهل الروسي كانت معبرا ومقرا للكثير من الشعوب والقبائل قبل مجيء السلاف الشرقيين ، إلا أنه لم ينجح أحد في تكوين نظام حكم دائم ومستقر كما فعل الروس ولكن بعد التغلب على كثير من الصعوبات والعراقيل التي اعترضتهم .

أما عن بداية تأسيس دولتهم فلا يمكن استعراض الأحداث التي مرت بهم أثناء فترة ارتباطهم بالفارنجيين ، وذلك بسبب نقص المصادر الموثوقة فيذكر أن الفارنجيين الوثائقين من قوتهم الفائقة بدءوا في تجميع الضريبة من السلاف الشرقيين في منتصف القرن التاسع ، وأدى ذلك إلى ثورة السلاف الذين قاموا بدورهم وطردوهم إلى اسكندنافيا ، ولكن هذه الفوضى لم تلبث أن تحولت إلى محاولات من السلاف لعود الفارنجيين مرة أخرى لحكمهم وتنظيم أمورهم واستقرار دولتهم التي بدأت بمجيء الإخوة الثلاثة الفارنجيين: ريوريك Rurik - سينوز Sineus وتروفو Truvor الذين استجابوا للنداء وجاءوا مع أتباعهم المسلحين ، وقد نصب ريوريك نفسه أميرا على نوفوجورد Vovgorod وسينوز أميرا على بيلوزيرو Beloozero وتروفو أميرا على إيزوبورسك . وفي خلال عامين مات كل من سينوز وتروفو تاركين ريوريك حاكما على مناطقهم بينما اهتم ريوريك بولايته الكبرى ، ونصب أتباعه من السلاف والفارنجيين على الولايات الأخرى فحرصوا على الاهتمام بولاياتهم وقاموا بإقامة

(1) Cam, Med. His. V. T. IV. P. 207.

(2) B. Qrekov, Kiev Rus. P. 365.

اتصالات تجارية ممتدة من الجوار . وبوفاة ريبوريك عام ٨٧٩م اعترف بابنه إيجور كوريث له ولكنه كان طفلا صغيرا فنصب قريبا له يدعى أولج Oleg . ولقد أثبت أولج أنه أكثر طموحا وقوة من ريبوريك في توسيع وتقوية ولايته ، فقد استولى على كييف وأسس هناك حكما مركزيا على المدن الأخرى التي أخضعها والتي تشمل المراكز التجارية المهمة مثل : سمولنسك ونوفوجورد .

والواقع أن أولج يعد من أشهر الحكام الذين أغاروا على عاصمة الإمبراطورية البيزنطية وهو الذى أجبرهم على دفع الجزية للروس عام ٩١١م^(١) .

علاقة الروس بالبيزنطيين :

الواقع أن العلاقة بين الروس والبيزنطيين قامت على صراع دائم ، فأول إغارة قام بها الروس على الإمبراطورية البيزنطية كانت عام ٨٦٠م على القسطنطينية . والواقع أن الهجوم الروسى لم يستهدف الغزو من أجل السلب والنهب والغنائم ؛ لذلك عادت القوات الروسية بعد أن حققت أهدافها فيما رمت إليه .

ثم تجدد الصراع مرة أخرى في عهد الإمبراطور لى يو السادس من ٨٧٠ - ٨٨٦م ، واقتحم الروس بقيادة أميرهم أولج Oleg المياه البيزنطية ووصلوا حتى أسوار العاصمة عام ٨٩٧م ونجح الروس في إنزال بعض الخسائر ببعض المواقع البيزنطية وانتهى الأمر إلى التفاوض بعقد اتفاق بين الطرفين ، وتجدد هذا الاتفاق مرة أخرى عام ٩١١م في عهد الإمبراطور قسطنطين السابع الإمبراطور البيزنطى ونصت بنود هذا الاتفاق على منح تسهيلات وامتيازات بحرية في الأرض البيزنطية واستمر السلام قائما بين الطرفين لمدة ثلاثين عاما انتعشت خلالها التجارة بينهم ، واستمر البيزنطيون في سياستهم التي ترمى إلى كسب الروس إلى جانبهم .

وفي عام ٩٤١م تعكر صفو السلام بين الطرفين ؛ فقد قام الأمير الروسى إيجور بحملة فجائية على العاصمة البيزنطية ودخلت السفن الروسية مضيق البسفور ورسّت القوات الروسية على الشاطئ الأسيوى للبسفور في إقليم Bithynia ونهبوا وسلبوا

(1) Sidney: op. cit., p. 11-12. B, Grekov, Kiev Rus. P. 366.

وعادوا بالغنائم ، في الوقت الذي كانت القوات البيزنطية تحارب في المشرق ، فاستدارت القوات برئاسة حناكور أو كس John Cur Cuas وهزمت الروس شر هزيمة في إقليم بثنيه وحاولت القوات الروسية الفرار عن طريق البحر ، ولكن القائد البحري قاد حملة بحرية عليهم وهم يعدون العدة للانسحاب ونجح في تدمير معظم سفنهم ، ثم عاود الروس الإغارة على الأراضي البيزنطية في خريف عام ٩٤٤م واستعدوا استعدادا ضخما هذه المرة وتحالفوا مع البشناق لضرب الإمبراطورية البيزنطية ، وحدود نهر الدانوب بدلا من الشاطئ الآسيوي ليكونوا على مقربة من البشناق ، ولكن الإمبراطورية لم تكن على استعداد لملاقاة الروس والبشناق لاشتغالها بحروبها في الشرق . فعقدت معاهدة تجارية كانت لصالح الروس . ثم ساد السلام بينهم وتوطدت^(١) أركان الصداقة ، عندما زارت الإمبراطورية أولجا أرملة إيجورد - الوصية على العرش الروسي - القسطنطينية عام ٩٥٧م حيث تم استقبالها استقبالا حارا ، وعمدها بطريق الإمبراطورية عام ٩٥٦م - ٩٧٠م وسميت باسم هيلينا . والبعض يرى أنها اعتنقت المسيحية قبل ذلك بعدة سنوات .. والواقع أن هذا الحدث فتح عصرا جديدا في العلاقات بينهم وفتحت الكنيسة البيزنطية الأرثوذكسية أرضا صالحة للقيام بعملها التبشيري في روسيا^(٢) .

ونتيجة لهزيمة البلغار على أيدي الروس زاد طمعهم في الممتلكات البيزنطية . ففي عام ٩٧٠م تقدم الأمير الروسي سفيا توسلاف إلى الحدود البيزنطية ودخل تراقية وأخذ يلتمس طريقه إلى العاصمة البيزنطية ، الأمر الذي أثار الذعر في القسطنطينية ، ولم يعد

(١) محمود عمران : الإمبراطورية البيزنطية وحضارتها ، ط ١ ، ٢٠٠٢م ، بيروت ، ص ١٨٩ - ١٩١ .

Rambaud, A, Empire Grecau Dixieme Constanantin Por Genete. Paris 1870. p.p. 380- 381.

Cam. Med. IV. P. 207.

(2) Schiumberger, G, UN Empete Ur byzantin Siecle Niecphore. Paris. 1980- 563.

أمام زمسيكس سوى الحرب فاستدعى قواده الكبار وتقابل الجيش البيزنطى مع القوات الروسية فتظاهر البيزنطيون بالانسحاب ، الأمر الذى أطمع الروس فى ملاحقتهم وكانوا قد أعدوا لهم الكمائن فى الأماكن التى تراجعوا منها وسدوا المنافذ التى يمكن للقوات الروسية استخدامها ونجح سفياتوسلاف فى هذه المرحلة فى ضم المجر والبشناق إلى جانبه ، فضلاً عن أمراء البلغار ، واغتر الأمير الروسى بما تحت يديه من قوات وتقدم خلف القوات البيزنطية حتى دخل منطقة الكمائن ، وفى الوقت المناسب ضربت القوات البيزنطية ضربتها وانتصرت انتصارا ساحقا على الروس وحلفائهم بالقرب من مدينة أدرنة واضطرت القوات الروسية إلى الانسحاب إلى بلغاريا .

وانشغلت الإمبراطورية البيزنطية ولكنها لم تحمل الجانب الروسى، ففى عام ٩٧٢م أعد يوحنا زمسيكس جيشا قويا ، كما أبحرت البحرية البيزنطية من نهر الدانوب ، وفى بريلاف نشبت معركة بين الجانبين انتهت بانتصار القوات البيزنطية انتصارا ساحقا وهلك عدد كبير من القوات الروسية وكانت كارثة من أعظم الكوارث التى حلت بالروس فى هذه المرحلة من الزمن، ووقع العديد من الأسرى فى أيدى القوات البيزنطية، وبعد هذه الأحداث فر الأمير الروسى إلى مدينة سيلستريا Silistria على نهر الدانوب فقتبعه يوحنا وانضم إليه الأسطول البيزنطى القادم من الدانوب غربا وهلك الروس فى هذا الحصار ، وانتهى الأمر بأن عرض الأمير الروسى الصلح على يوحنا فقبله^(١) .

فى هذه المعاهدة عرض عليه أن يسلم سيلسترا ، ويجلو عن بلغاريا ، وأن يعيد الأسرى ، مقابل أن يسمح له بالعودة إلى بلاده مع من تبقى معه فى الجيش الروسى، وألا تتعرض لعساكره السفن التى تحمل النيران الإغريقية ولما لم يكن لديه من القمح ما يكفى لمؤونة جيشه ، طلب إلى الإمبراطور أن يمده بالقمح اللازم لجنده ، ثم طلب آخر الأمر أن يعتبر البيزنطيون ، الروس من بين الأمم الصديقة للإمبراطورية ، وأن يسمح لهم بالقدوم إلى القسطنطينية لبيع ما لديهم من السلع ، وتعهد الروس أيضا ألا يغيروا

(1) Schlum berger: LE popce. I. P. 52.

على أطراف الأرض التابعة لمدينة خرسون Cherson في شبه جزيرة القرم ، والتي تعتبر آخر ما للإمبراطورية من ممتلكات على الشاطئ الشمالي للبحر الأسود ، وتعهد الروس أيضا أن يبذلوا المساعدة للبيزنطيين في رد كل عدو أجنبي ، وأعلن زمسكيس قبوله لما تقدم به سفياتو سلاف من مقترحات وأنقذ الصلح . وتم إرسال القمح إلى من تبقى من الجند الروس وحلفائهم وعدتهم اثنان وعشرون ألف مقاتل ، وتجدد أيضا ما كان للروس من امتيازات تجارية ، ثم جرى اللقاء بين سفياتو سلاف وزمسكيس وتلا هذا الاجتماع توقيع المعاهدة بين الروس والبيزنطيين .

وبعد أن تم عقد المعاهدة ، اتخذ سفياتو سلاف طريقه في نهر الدانوب حتى وصل إلى الشلالات وحيث احتشد البشناق متربصين له^(١)، إذ إن أهل بريسلاف أرسلوا إلى البشناق يخطرونهم أن سفيا توسلاف حصل من البلغار على غنائم وفيرة ، وليس في صحبته إلا جماعة قليلة العدد ، فأعد البشناق له كميناً هو رجاله وعند الشلالات قرب مصب النهر أخذت القوات تنفذ من عند الروس وحلت بهم جماعة شديدة وتحتم على سفياتو سلاف أن يمضى الشتاء في هذا الموضع (جزيرة Bielo Berejje) وعند حلول فصل الربيع أزمع المسير غير أنه تعرض له أمير البشناق ويدعى كوريه Kouria فاغتال سفياتو سلاف واحتز رأسه . وترتب على هذا الانتصار الكبير نتائج مهمة :

١ - تتمثل في أن الإمبراطورية تخلصت من عدو خطير ، ظهرت قوته باستيلائه على مملكة الخرز ، وإخضاع البلغار .

٢ - أن بلغاريا أضحت تحت السيادة البيزنطية ، فعلى الرغم من أن زمسكيس في أثناء قتاله ضد سفياتو سلاف ، وعندما أطلق سراح بوريس الملك البلغاري وأسرتة من أسر الروس أعلن أنه مُض للانتقام للبلغاريين لما تعرضوا له من أذى الروس وقسوتهم ، فإنه لم تتوفر عنده النوايا الخالصة لإعادة نظام الحكم القديم .

(1) Ostogorowski: op. cit. p. 261.

وبعد موته بدد أبنائه بواسطة الصراعات الأخوية قواهم حتى ظهر من هو جدير بحمل المسؤولية ، وكان فلاديمير Valdimir - ٩٧٨ - ١٠١٥ م قد واجه مهامًا صعبة لإعادة بناء دولته في ظل نظام جديد ، واستطاع أن يحقق كثيرا من الإنجازات ، وأن يعيد البناء مرة أخرى على أساس اقتصادى قوى عمل له في السنوات الماضية^(١) .

ولقد أعقبت وفاة فلاديمير حروب أهلية أسفرت عن انتصار ابنه أيروسلاف ١٠١٩ - ١٠٥٤ ، وقد اهتم بتشريع القوانين وتقوية الكنيسة الأرثوذكسية ، واعتمد في سياسته الدينية على الزعيم الروحي الروسى هيلاريون مؤسس الحركة الديرية الروسية المسماة بالديرية الكيفية Monawtery of The Caves^(٢) .

وتعتبر سنوات حكم هذا الزعيم هى السنوات المشرقة الروسية أو ما يسمى بالانتعاش الحضارى ، فقد استطاع أن يصل بروسيا الكيفية إلى أعلى درجات التقدم واستمرار الخطط التى بدأها فى السنوات الأولى من حكمه ، وقام بتشجيع وتوطيد العلاقات الاقتصادية الروسية مع كل البلاد الآسيوية والأوروبية حيث أصبحت كيف مكانا لتلاقى التجار البيزنطيين والعرب والألمان والبولنديين والمجريين والاسكندنافيين ، وأصبحت أيضا مركزا للتنميات الحضارية الروسية ، وقد قام ببناء المدارس والمكتبات وشجع الفنانين والمتعلمين والموهوبين ، ودفع الناس إلى الاتجاه إلى المساعى السلمية ، وبالرغم من أن روسيا الكيفية كانت مرتبطة اقتصاديا وحضاريا بالإمبراطورية البيزنطية إلا أنها اتجهت إلى إقامة روابط عائلية مع الأجزاء الأخرى من العالم أيضا حيث كان أيروسلاف نفسه مرتبطا بملوك إنجلترا وفرنسا والنرويج وبولندا عن طريق المصاهرة .

وفى عهده جمعت فى روسيا أول مجموعة من القوانين كانت مماثلة للقوانين البيزنطية لكن محتواها كان أفضل ، ومن بين الحقوق والأعراف عند كل من السلاف والإسكندنافيين والألمان أخذ الروس بعض النظم السياسية فى التجارة والاقتصاد .

(١) السيد البار العربى : الدولة البيزنطية ، ص ٥٣٣ - Ostogorowski. P. 262

(2) Vernadsky op. cit. p. 40.

وتعتبر السنوات ١٠٥٤ - ١٣٣٣ من سنوات الاثنيار السياسى أو ما يعرف بالسنوات المظلمة، فعندما مات أيروسلاف ١٠٥٤م بدأ يختفى بريق السنوات المشرقة، وأملاً في منع النزاع ترك لكل من ورثته الستة إدارة جزء واحد من هذه المملكة ، وأمر أبناءه الخمسة بطاعة الأكبر الذى سوف يحكم كأمر عظيم لكيف ، ويعتبر بذلك أنه أسهم في تأسيس نظام جديد أدى إلى نتائج سلبية وإلى ضعف محقق لكيف ، لأن هذه الخطة لكى تنجح كانت تتطلب درجة أعلى من الوحدة السياسية والترابط الحضارى أكثر من الذى حققته روسيا الكيفية . وقد كانت قوة الأمير العظيم لكيف هى العامل الأساسى لربط العالم بالعائلة الحاكمة ليؤكدوا طموحهم فى السلطة والاستقلال ويشكلوا مجموعات مجاهدة ضد الأمير العظيم ، أو يجابهوا مع المنافسين الآخرين والمجرمين وآل كومنين قيام بيزنطة .

ثم تولى حكم كيف عام ١١١٣م أمير عظيم قوى نجح فى إخماد القوى وهو فلاديمير مونوماخ Valadimir Mon makh حفيد أيروسلاف ، وقد بذل جهداً كبيراً ليصل إلى اتفاق سلمى مع الأمراء المنافسين ، وبالرغم من أنه فشل فى إيجاد تنظيم عملى بينهم إلا أنه نجح فى صد البدو الموجودين على الحدود الروسية ، وأعطى الفرصة لكيف لتستعيد بعض رخائها السابق ، ولكنه لم يكن قادراً على تحويل قوة الهدم إلى قوى بناء . وبعد انتهاء عصر مونوماخ بدأت كيف تفقد قوتها كمركز للقوة السياسية والمدنية وبدأت مدن أخرى فى الظهور ، واكتسبت مدينة نوفوجورد Novgorod تفوقها شمالاً وجاليسيا Galicia تفوقها غرباً Suzdal وفلاديمير Valadimir شمال شرق ، وضعفت كيف بعد ظهور هذه المدن بصورة كبيرة . وفى عام ١١٦٩م حدث أن اتحدت القوات واجتاحوا المدينة ، وفى خلال ثلاثة أيام دمروها ونقلوا كنوزها وآثارها الحضارية^(١) .

وهكذا ضعفت كيف ، وتضافرت عدة عوامل على القضاء عليها ، فالبدو العاملون فى شمال البحر الأسود قد منعوا التجارة مع الإمبراطورية البيزنطية ، وهذا مؤشر خطير على اقتصاد كيف ، وأسهموا فى تدمير المدينة وضعفها .

(1) Sidney: op. cit. p.

وفي تلك الأثناء كانت الدولة البيزنطية تعاني من ضعف اقتصادى وسياسى مما أدى إلى انعدام الدعم الاقتصادى لكييف ، وأصبحت روسيا فريسة سهلة لكل مغير من القبائل المجاورة ، وقد كان العديد منها رابضاً على الحدود :

١ - الكومانيون البدو الذين أزعجوا الولايات فى منطقة لاستيس .

٢ - اللتوانيون الذين جاءوا من المنطقة البلطيقية وبحثوا عن مستوطنة فى الولايات الروسية الشمالية .

٣ - السويدون الذين بحثوا عن كسب التحكم فى نيفا Neva ، وقطعوا التجارة فى نوفوجورد .

٤ - الهنغاريون فى الجنوب الغربى الذين جاءوا وواصلوا هجومهم ناحية الشرق .

٥ - التتار الذين اجتاحتوا روسيا من منطقة القوقاز وجاءوا من الجنوب الشرقى^(١) .

وتنتج عن اجتياح هذه القبائل القاطنة على الحدود سقوط وانهايار كييف . وخلاصة القول : أنه لم يكن فى تاريخ دولة كييف ما يستدعى الانتباه سوى تنافس الأمراء وحروبهم الأهلية المدمرة وتحالفهم مع الهنغارين والبولنديين والكومان ضد بعضهم البعض من ١٠٥٤ - ١٢٤٠ م .

وليس عجباً أن تظل الحال على هذا المنوال فى روسيا فى العصور الوسطى ما دام حكامها من سلالة ريوريك يعتقدون أن الإمارة فى الدوقيات الروسية على اختلاف مدائنها إرث لا يتجزأ بل يتوزع بين أبناء الأسرة الحاكمة^(٢) ، استناداً على قاعدة السن بحيث يكون الأكبر سناً هو الأعظم جاهاً والأوسع سلطاناً مما جعل كل توزيع جديد بحالاً لترقيات فى الأقدمية بحسب السن ، فضلاً عن وجود ضغائن وأحقاد واختلافات لا نهاية لها بينهم .

(1) Sidney: op. cit. p. 17. 190.

Bayhes and Miss: Byzantium (oxford) 1063. p.

(2) Vernadsky: op. cit. p. 40.

ومن هنا يتضح كيف كان من المستحيل أن تقوم بين دوقيات نهر الدينير دولة ثابتة الأركان ، برغم مجيء أوروسلاف إلى عرش الدوقية وهو الذى عرف باسم القانونى . ولكن أعقبت وفاته ١٠٥٤م مرحلة طحنت روسيا فيها بحروب متواصلة بين أبناء الأسرة الحاكمة. وفي أثناء تلك الحروب انتهك أحد الأبناء حرمة كييف سنة ١١٦٩م ونهبها وخربها وهى المدينة الهامة ذات الكنائس الأربعةمائة ، وتجراً ونقل الدوقية من كييف الواقعة على نهر الدينير إلى مدينة اختارها لنفسه ، وهذا الابن هو أندريه سوزدال الذى أسس مدينة فلاديمير والى غدت ثانية العواصم الروسية^(١) .

وبسقوط كييف تختم المرحلة الأولى من تاريخ روسيا ، وهى مرحلة أتم الفارانجيون السويديون أثناءها الكثير من الأعمال الهامة .

التحول الدينى فى روسيا :

لقد كان انتشار المسيحية فى روسيا عملية تدريجية تبدأ بالطبقات العليا وتنتشر ببطء إلى الطبقات الأقل تمدنا ولكن هذا لا يعنى القضاء على الوثنية إذ استمرت العبادة السرية للألهة الوثنية القديمة لعدة قرون عديدة . ولقد وجدت العناصر الوثنية طريقها حتى فى طقوس الإيمان الجديد ، ولكن تدريجيا بنيت بيوت العبادة وأسست الأديرة ودرج رجال الدين ، وبدأ الروس ينظرون إلى الكنيسة كمركزهم الروحى . وبعد ذلك انتشرت المسيحية فى كل مكان وعرفت البلد باسم روسيا المقدسة .

وفى الواقع ، إن تحول مملكة كييف الروسية إلى المسيحية لا يحدد فقط بداية عصر جديد فى تقدم روسيا ، بل يشير أيضا إلى انتصار باهر لبيزنطة واتساع مجال التأثير البيزنطى إلى مدى لم يكن متوقعا ، وخضعت أكبر أمم السلاف ووضعت نفسها تحت القيادة الروحية بالقسطنطينية ، وأدارها من البداية مطارنة بيزنطيين أرسلتهم بيزنطة لهذا الغرض ، ولفترة طويلة ظل التقدم الحضارى لروسيا يسير تحت الحماية البيزنطية . وفى عهد فلاديمير ربطت علاقة هامة بين بيزنطة والأمير الروسى الذى ارتبط

(١) فشر : تاريخ ، ١ ، ص ٤٠٨ - ٤٠٩ . Cam. Med- His, VII- p. 600 - 602 .

اسمه بدخول المسيحية ، ذلك أنه عندما تمرد باردائيس فوكاس Bradas Fkacas ضد الإمبراطور بازل الثاني Basil II وهجم مع أتباعه في إقليم آسيا الصغرى على العاصمة عندما هجم البلغاري في نفس الوقت على أراضي الإمبراطورية من ناحية الشمال أرسل بازل الثاني يطلب العون من الأمير الروسي .

وعقد الاتفاق بين الاثنين تعهد فيه فلاديمير أن يرسل ٦٠٠٠ جندي روسي لخدمة بازل الثاني ، كما وعد الأمير الروسي أن يعتنق هو وشعبه الديانة المسيحية على شريطة أن يزوج الأمير الروسي من شقيقة بازل الثاني وهي الأميرة Anne . وقد أرسل الأمير الجند الذي وعد بإرسالهم ، وتمكن بازل بمعاونتهم من أن يخدم حركة تمرد فوكاس ، غير أن بازل لم يف بوعده الخاص بالأميرة . فهاجم فلاديمير مدينة خرسان (Cherson) في شبه جزيرة القرم Crimean واستولى عليها انتقاماً من الإمبراطور ، وهنا اضطر بازل الثاني إلى أن يفى بوعده واعتنق فلاديمير المسيحية وتزوج من آن Anne ويحدد تاريخ المسيحية رسمياً في روسيا بعام ٩٨٩م . وبعد ذلك صارت العلاقات بين الجانبين علاقات حسنة^(١) .

ويعتبر دخول المسيحية إلى روسيا تحولاً جديداً في حياتهم ، ويعتبر هذا الدين المسيحي المدعم بواسطة الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية المقدسة الذي عرف باسم الأرثوذكس الشرقية أو الأرثوذكس اليونانية^(٢) .

ظهرت هذه الكنيسة نتيجة للعديد من الانشقاقات التي دمرت الوحدة الأصلية للكنيسة المسيحية ، وبسبب هذه الانشقاقات تطور مركزان دينيان رئيسيان وهما : روما والقسطنطينية ، وبالرغم من أن الانفصال النهائي لم يحدث حتى عام ١٤٠٥م إلا أنه قد ظهر مركزان دينيان مميزان في القرن التاسع وهما: الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ومركزها في روما ، وكنيسة الأرثوذكس الشرقية ومركزها في القسطنطينية .

(١) محمود سعيد عمران : الإمبراطورية البيزنطية وحضارتها ، ص ٢١١ .

(2) Schiumberger: L, Epopel. P. 759. Sidney: op. cit. p. 11 – 12.

إن الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية المتطورة تحت التأثير البيزنطي اكتسبت خصائص مميزة كانت تتسم بالتأثير اليوناني أكثر من الروماني ، وحكمت بواسطة الأباطرة البيزنطيين ، وأثناء القرن العاشر كان العديد من الطبقات العليا الروسية متأثرين بالحضارة البيزنطية ، ومال الأمراء الحاكمون إلى الإيمان ببيزنطة .

وفي عام ١٩٨٨م استقبل فلاديمير في الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية ، وبعد ذلك بعامين أعلن المسيحية كديانة رسمية لبلاده وأمر كل الخاضعين له بأن يتنصروا. وبعد ذلك بدأ بتنظيم الكنيسة في روسيا فجعل مركزها الرئيسي في كييف وعرف رئيسها بالمطران ، وأصبح تابعا لبطريرك القسطنطينية ، وكان المطران المعين واحدا من اليونانيين ، وكان الكهنة والأساقفة في البداية من اليونان أو البلغار وقد اتبعت كنيسة الأرثوذكس عامة اللغة الدارجة للمناطق التي توغلت فيها ، لكن لغة الكنيسة السلافونية التي تطورت في بلغاريا كانت مرتبطة بشدة باللغة المتحدث بها في روسيا ، لذلك كانت تستخدم كلغة دينية . وحروف اللغة السلافونية المؤسسة على حروف اللغة اليونانية تطورت في الجزء الأخير من القرن التاسع بواسطة سيريك لكي يستطيعوا أن يترجموا الأدب الديني إلى اللغة الدارجة عن السلافة الشرقيين والغربيين ، وهكذا يسهل تحولهم الديني .

لقد ترجم ميتودوريوس أخو سيريل الإنجيل إلى اللغة السلافونية ، وهذه الترجمات كانت أولا أدبا مكتوباً متاحاً للروس ، وأصبحت نموذجا لأدبهم الديني فيما بعد ، ولقد استخدم أدبهم الديني اللغة السلافونية حتى القرن الثامن^(١) .

(1) Sidney: op. cit. pp. 12- 13.

الختامة

١ - اختلاف المؤرخين ، واختلاف المصادر حول أصل الروس ، فمنهم من يرى أنهم من النورمان أو أهل الشمال بصفة خاصة من الاسكندنافيين ، ومنهم من اعتبرهم جنساً من الصقالية (السلاف) .

٢ - إن هجرة السلاف الشرقيين إلى المنطقة المعروفة بالسهل الروسى أدى إلى انتشارهم في هذا السهل من أوروبا الشرقية إلى سيبيريا الوسطى ، ومن المحيط المتجمد جنوباً إلى جبال الكارثيان والبحر الأسود والقوقاز وبحر قزوين وجبال آسيا الوسطى .

٣ - تعتبر كثرة الأنهار وتعددتها وطولها هى السبيل الوحيد والتي أدت إلى سهولة الغارات والتنقل البحرى ، ويعتبر نهرا الدينير والفولجا رابطين لأعظم خطين مائين في روسيا .

٤ - قبل القرن التاسع الميلادى كانت حياة الروس قوامها العشيرة التى تعيش في بيوت خشبية وتعتمد على تربية المواشى والصيد في الأنهار ، وكثرة التنقل . أما حياتهم الدينية فليس لديهم كهنة قائمون بالخدمات الدينية بل كانوا يلجئون إلى السحر ، وكان العالم يمثل لهم حياة غامضة مليئة بالأرواح الشريرة . أما حياتهم السياسية كان قوامها العشيرة ، ثم بدأت المدن في الظهور تدريجياً ومن أعظم المدن السلافية : كييف، شيرنيجوف ونوفوجورد .

٥ - تنمية القوة في مدينة كييف كانت في القرن العاشر ، وبدأت باستيلاء سغايوسلاف بن إيجور ٩٤٥ - ٩٦٤ م على الحكم ونمت هذه الدولة وأصبح لها كيان تحت حكم سلالة ريوريك .

٦ - روسيا الكييفية وبداية تنظيم الولايات واستقرارها كان بمجىء الإخوة الثلاثة من أسرة ريوريك الذين حرصوا على الاهتمام بولاياتهم ، وقاموا بإقامة اتصالات تجارية ممتدة من الجوار .

٧ - مواصلة أوج المسيرة ، وإثباته أنه أكثر طموحاً وقوة في توسيع وتقوية ولايته .

٨ - علاقة الروس بالبيزنطيين .

تراوحت تلك العلاقة بين الروس والبيزنطيين بين صراع وسلم . ففي البداية قامت على صراع دائم وإغارات مستمرة بدأت منذ عام ٨٦٠م على القسطنطينية . والواقع أن ذلك كان من أجل السلب والنهب والغنائم ، ثم دخلت مرة أخرى فعقدت بينهم معاهدة تجارية ٩٥٧م دعمت بزيادة امبراطور أولجا ، ثم عادت للحرب والغزو مرة أخرى ، ثم وقعت معاهدة صلح نتج عنها توطيد العلاقات بين الطرفين ١٠١٩ - ١٠٥٤ م .

٩ - التحول الديني في روسيا : الانتشار للديانة المسيحية في روسيا كان تدريجياً وبدأ بالطبقات العليا ، ولكن هذا لا يعنى القضاء على الوثنية ، إنما استمرت العبادة السرية للآلهة الوثنية القديمة لعدة قرون ، ثم تدريجياً بنيت بيوت العبادة ، وأسست الأديرة ، ودرّب رجال الدين وبدأ الروس على الكنيسة كمركزهم الروحي ، وانتشرت المسيحية في كل مكان ، وعرفت البلاد باسم روسيا المقدسة .

١٠ - يعتبر دخول المسيحية على روسيا تحولاً جديداً في حياتهم ، ويعتبر هذا الدين المسيحي المدعم بواسطة الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية المقدسة الذي عرف باسم الأرثوذكس الشرقية .

١١ - إن الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية المتطورة تحت التأثير البيزنطي اكتسبت خصائص مميزة ، وكانت تتسم بالتأثير اليوناني أكثر من الروماني .

قائمة المصادر والمراجع

- ١ - ابن حوقل : (أبو القاسم بن حوقل النصيبى ت أواخر القرن الرابع الهجرى ، العاشر الميلادى) ، المسالك والممالك ، ليدن ، ١٨٧٢ م .
- ٢ - ابن خرداذبة : (أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله ت حوالى ٣٠٠هـ - ٩١٢ م) ، المسالك والممالك ، إبريل ، ١٨٨٩ م .
- ٣ - ابن عدارى : (من كتاب القرن السابع عشر الهجرى) ، البيان المغرب ، ١٩٥٠ م ، بيروت ، ط ٢ .
- ٤ - ابن القوطية : (أبو بكر محمد بن عمر ت ٣٦٧هـ) ، تاريخ افتتاح الأندلس ، تحقيق إبراهيم الإبيارى ، ١٩٨٢ م ، بيروت .
- ٥ - السبيرونى : (محمد بن أحمد ت ٤٣٠هـ - ١٠٣٨ م) ، كتاب التفهيم لأوائل صناعة التنجيم ، نشر رمزى رايت ، اكسفورد ، ١٩٣٣ م .
- ٦ - خليل بيدس : العقد التنظيم فى أصل الروسيين واعتناقهم الإيمان القويم ، بيروت ، ١٨٩٧ م .
- ٧ - السيد البازر العرينى : الدولة البيزنطية ، دار النهضة العربية ، بيروت / ١٩٨٢ م .
- ٨ - فشر : تاريخ أوروبا العصور الوسطى ، ترجمة محمد مصطفى زيادة والسيد الباز العرينى ، ١٩٦٨ م ، القاهرة .
- ٩ - ليلى عبد الجواد : تاريخ الروس ، دار الثقافة العربية ، ١٩٩٠ م ، القاهرة .
- ١٠ - محمد محمد أمين : تاريخ أوروبا العصور الوسطى ، دار النهضة العربية .
- ١١ - محمود سعيد عمران : الإمبراطورية البيزنطية وحضارتها ، ط ٢ ، ٢٠٠٢ م ، بيروت .
- ١٢ - المسعودى : (أبو الحسن على بن الحسن ت ٣٤٦هـ - ٩٥٧ م) ، كتاب البلدان ، ليدن ، إبريل ، ١٩٧٦ م .
- ١٣ - المسعودى : مروج الذهب ، بيروت ، ١٩٨٧ م .
- ١٤ - المقدسى : شمس الدين أبو عبد الله محمد ت ٣٨٨هـ - ٩٩٨ م ، البدء والتاريخ ، ط ٤ ، باريس ، ١٩٠٧ م .
- ١٥ - المقرئ : أحمد بن محمد المقرئ التلمسانى ت ١٠٤١هـ ، نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب ، تحقيق محمد محبى الدين ، ط ٣ ، دار الكتاب العربى ، بيروت .
- ١٦ - الموسوعة العربية العالمية ، ط ٢١ ، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع .

قائمة المراجع الأجنبية

- 1- Baynes and H. moss: Byzantium an Introduction to East Roman Civilization' Oxtord. 1961.
- 2- Cam- Med- His. Part. I. 1964.
- 3- Chronique de Nestir (ed) Leger- Paris- 1884.
- 4- Durant. W.; The age Of Faith. 325- 1300- New York- 1950.
- 5- Edward acton: The Present and The Past, Russia- 1987- London.
- 6- Florinsky: Russia. V. 1. Newyork- 1953.
- 7- Francis Carr: Ivan The Terrible- 1981- New York.
- 8- Fennel Yohn: The Crisis Of Medieval Russia- 1200- 1304- London- Longman.
- 9- Grekov: Kiev Rus. Moscow- 1959.
- 10- Kluchevsky. (V): A history Of Russia Tr. C. Y. Itogarth- 1911- 1931.
- 11- Mawer: The Viking- Cambridge- 1930.
- 12- Minor skyu (ed): Hudud al- Alam- London- 1037.
- 13- Rybakov: Early Centuries of Russian History H. From The Russian by John Weir- Moscow- 1965.
- 14- Pares: A History Of Russia Methuen London. 1962.
- 15- Pirenne: A History Of Eyrope From The Invosions To The Xvi Century New York, 1955.
- 16- Rambaud: Histoire de La Russia Depuis Les Origines Insqua- Lan 1877- Paris.
- 17- Robert Auty and Dimitri Obolensky: Companion To Russian Studies an Introduction To Russian History, Cambridge.
- 18- Sidney Harcave: Russia A History. London- 1954.
- 19- Vasilliev, A. History Of Byzantin Empire. V I. (Madison) 1964.
- 20- Vernadsky. G. A History Of Russia Yala- 1954.
- 21- Oblonsky: Companion To Russian Studiesan Introduction To Russian History.

oboeikan.com

نظرة الرحالة العرب إلى الغرب
في القرن التاسع عشر

إعداد
د. عاصم جاد الله أبو جبلة
جامعة مؤتة - قسم التاريخ
الأردن

obseikan.com

نظرة الرحالة العرب إلى الغرب في القرن التاسع عشر

النظرة إلى نظام الحكم :

إن رحلة العرب إلى أوروبا في القرن التاسع عشر ، كانت للتعلم أو العلاج ، أو لعقد الاتفاقيات التجارية ، أو للقيام بالمهام الرسمية التي كلفتهم بها دولهم ، أو للإقامة كممثلين دبلوماسيين^(١) . وكان أول هؤلاء الرحالة الذين رحلوا إلى أوروبا وبخاصة إلى فرنسا رفاعه الطهطاوى من مصر الذى ذهب فى رحلة (بعثة تعليمية) إلى باريس عام ١٨٢٦ م .

ولقد لفت انتباهه كما لفت انتباه وإعجاب غيره من رحالة القرن التاسع عشر «نظام الحكم فى أوروبا» فلاحظ رفاعه الطهطاوى أن الحكم هناك للقانون ، وأن الدستور هو سيد الجميع ، وهو الذى ينظم علاقة الدولة بالمواطنين ، والمواطنين بعضهم ببعض ، وحول هذا الموضوع قال الطهطاوى :

(١) أبو لغد ، إبراهيم ، انفتاح العرب على الغرب ، مراجعة محمود السمرة ، مجلة العربى ، العدد ٦٩ ،
آب ١٩٦٤ ، ص ١٣٦ ، انظر فهيم حسين ، أدب الرحلات ، المجلس الوطنى للثقافة والفنون
والآداب ، الكويت / ١٩٨٩ ، ص ٢٠٠ .

« إن ملك فرنسا ليس مطلق التصرف ، وإن السياسة الفرنسية هي قانون مقيد، بحيث إن الحاكم هو الملك بشرط أن يعمل بما هو مذكور في القوانين التي يرضى بها أهل الدواوين .. والكتاب المذكور الذي فيه هذا القانون يسمى الشرطة (المشروطة) ومعناها في اللغة اللاتينية ورقة ، ثم تسومح فيها فأطلقت على السجل المكتوب فيه الأحكام المقيدة فلنذكره لك ، وإن كان غالب ما فيه ليس في كتاب الله وليس في سنة رسوله ﷺ ؛ لتعرف كيف حكمت عقولهم بأن العدل والإنصاف من أسباب تعمير الممالك وراحة العباد ، وكيف انقاد الحكام والرعايا لذلك حتى عمرت بلادهم ، وكثرت معارفهم ، وتراكم غناهم ، وارتاحت قلوبهم ، فلا تسمع فيه من يشكو ظلماً أبداً والعدل أساس العمران »^(١) .

وفسر الطهطاوى المادة الأولى من القانون الفرنسى ، والتي تنص على أن « سائر الفرنسيين مستوون قدام الشريعة » فقال : معناه: أن سائر من يوجد في بلاد فرنسا من رفيع ووضيع لا يختلفون في إجراء الأحكام المذكورة في القانون حتى إن الدعوة الشرعية تقام على الملك وينفذ عليه الحكم كغيره ، فانظر إلى هذه المادة الأولى فإنها لها تسلط عظيم على إقامة العدل وإسعاف المظلوم وإرضاء خاطر الفقير بأنه العظيم نظراً إلى إجراء الأحكام ، ولقد كادت هذه القضية أن تكون من جوامع الكلم عند الفرنسيين وهي من الأدلة الواضحة على وصول العدل عندهم إلى درجة عالية وتقدمهم في الآداب الحاضرة .

ويضيف الطهطاوى : « وما يسمونه الحرية ويرغبون فيه هو عين ما يطلق عليه عندنا العدل والإنصاف ، وذلك لأن معنى الحكم بالحرية هو إقامة التساوى في الأحكام والقوانين بحيث لا يجوز الحاكم على إنسان ، بل القوانين هي المحكمة والمعتبرة فهذه البلاد حرية » .

(١) الطهطاوى ، رفاة ، تخلص الإبريز ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، ط ١ ، القاهرة ، ١٩٥٨ ،

وأوضح الطهطاوى كذلك ، أن « الفرنساوية مستوون في الأحكام على اختلافهم في العظم والمنصب والشرف والعناء ، وقد ضمنت الشريعة لكل إنسان التمتع بحريته الشخصية » .

ومع ذلك فإن رفاة رافع الطهطاوى وعلى الرغم من إعجابه بالعدل والحرية والإنصاف في بلاد باريس إلا أنه يعتبر أنه « إذا وجد العدل في قطر من الأقطار فهو نسبي إضافي لا عدل كلي حقيقي ، فإنه لا وجود له الآن في بلدة من البلدان فإنه كالإيمان الكامل والحلال الصرف »^(١) .

وهناك أحمد فارس الشدياق في كتابه « كشف المخبا عن فنون أوروبا » الذى زار بلاد الإنجليز ووصف حرية الناس هناك مقارنة مع البلاد العربية إذ قال : « ومن العجيب أن الإنجليز قد يبلغ أحدهم السبعين ولا يحظه الشيب لا في رأسه ولا في عارضه .. والظاهر أن أعظم أسباب الشيب هو الهم والإصر والخوف من ظلم الولاة وذوى السيادة كما هو في بلادنا وكذا في كل بلاد يقل فيها الأمن والسلامة فإن أحد الإنجليز إذا كان يملك مثلا مليون ليرة لم يخش من ملكه أو من أمير أن ينافسا عليه بذلك، بل يعتقد أن غناه أو غنى أمثاله موجب لغنى دولته فيتباهى به ما شاء ولا يخشى أن يتناول عليه في حقوقه أحد ممن هو أعلى منه ، فإن الجميع في الحقوق متساوون »^(٢) .

ويرجع خير الدين التونسي في كتابه « أقوم المسالك » أساس التقدم الأوروبى إلى أن « أساس جميع ذلك حسن الإمارة المتولد منه الأمن المتولد منه الأمل ، المتولد منه إتقان العمل المشاهد في الممالك الأورباوية بالعيان وليس بعده بيان »^(٣) ، هذا فضلا

(١) الطهطاوى ، رفاة ، تخلص الإبريز ، وزارة الثقافة والإرشاد القومى ، ط ١ ، القاهرة ، ١٩٥٨ ، ص ١١٦ ، ١١٣ ، ١١٢ .

(٢) الشدياق ، أحمد فارس ، كشف المخبا عن فنون أوروبا ، مطبعة الدولة التونسية ، ١٢٨٣هـ ، ص ١٠٧ .

(٣) التونسي ، خير الدين ، أقوم المسالك إلى معرفة أحوال الممالك ، مطبعة الدولة بمحاضرة تونس المحمية ، ١٢٨٤هـ ، ص ٥ .

عن أن تقدم الإفرنج في المعارف نتج عن التنظيمات المؤسسة على العدل والحرية»^(١)، ويقول كذلك: « وإنما بلغوا تلك الغايات والتقدم في العلوم والصناعات بالتنظيمات المؤسسة على العدل السياسي»^(٢).

وجعل خير الدين التونسي الحرية « منشأ سعة نطاق العرفان والتمدن بالممالك الأورباوية » وقال: « إن لفظ الحرية يطلق في عرفهم بإزاء معنيين أحدهما يسمى الحرية الشخصية: وهو إطلاق تصرف الإنسان في ذاته وكسبه مع أمنه على نفسه، وعرضه، وماله، ومساواته لأبناء جنسه لدى الحكم، بحيث إن الإنسان لا يخشى هضمه في ذاته ولا في سائر حقوقه، ولا يحكم عليه بشيء لا تقتضيه قوانين البلاد المستقرة لدى المجالس. وبالجملة، فالقوانين تقيد الرعاة كما تقيد الرعية، والحرية بهذا المعنى موجودة في جميع الدول الأورباوية إلا في الدولة الباباوية والدولة المسكوبية لأنهما مستبدتان وهما وإن كانتا ذواتي أحكام مقرررة إلا أنها غير كافية لحفظ حقوق الأمة لأن نفوذها موقوف على إرادة الملك ..

والمعنى الثاني: الحرية السياسية وهي تطلب من الرعايا التداخل في السياسات الملكية والمباحثة فيه هو الأصلح للمملكة .. ولما كان إعطاء الحرية لسائر الأهالي مظنة لتشيت الآراء وحصول المخرج عدل عنه إلى كون الأهالي ينتخبون طائفة من أهل المروءة والمعرفة تسمى عند الأورباويين بمجلس نواب العامة .. كما أشار خير الدين التونسي إلى حرية التعبير في طرح الآراء فقال: « وبقي وراء ذلك للعامة شيء آخر يسمى حرية المطبعة (الكتابة) وهو أن لا يُمنع أحد منهم أن يكتب ما يظهر له من المصالح في الكتب والجرنالات التي تطلع عليها العامة أو يعرض ذلك على الدولة والمجالس ولو تضمن الاعتراض على سيرتها»^(٣).

(١) التونسي، خير الدين، أقوم المسالك إلى معرفة أحوال الممالك، مطبعة الدولة بمحاضرة تونس الحمية،

١٢٨٤ هـ، ص ٨.

(٢) المصدر نفسه، ص ٩.

(٣) المصدر نفسه، ص ٧٤ - ٧٥.

ويرى خير الدين التونسي « أن البلدان التي ارتقت إلى أعلى درجات العمران هي التي تأسست بما عروق الحرية والكونستيتوشيون المرادف للتنظيمات السياسية فاجتنب أهلها ثمارها بصرف المهم إلى مصالح دنياهم ، ومن ثمرات الحرية تمام القدرة على الإدارة المتجربة فإن الناس إذا فقدوا الأمان على أموالهم يضطرون إلى إخفائها فتعذر عليهم تحريكها وبالجمل ، فالحرية إذا فقدت من المملكة تنعدم منها الراحة والغنى ويستولى على أهلها الفقر والغلاء ويضعف إدراكهم وهمتهم كما يشهد بذلك العقل والتجربة »^(١) .

وأوضح خير الدين التونسي أسباب اتخاذ الممالك الأوروبية للقوانين والأنظمة التي تحكم سلوك الراعي والرعية إذ قال : « اعلم أن الأمم الأوروبية لما ثبت عندهم بالتجارب إطلاق أيدي الملوك ورجال دولهم بالتصرف في سياسة المملكة دون قيد مجلبة للظلم الناشئ عنه خراب الممالك حسبما تحققوا ذلك بالاطلاع على أسباب التقدم والتأخر في الأمم الماضية جزموا بلزوم مشاركة أهل الحل والعقد مع جعل المسؤولية في إدارة المملكة على الوزراء المباشرين وبلزوم تأسيس القوانين المتنوعة عندهم إلى نوعين : أحدهما : قوانين الحقوق المرعية بين الدولة والرعية والثاني : قوانين حقوق الأهالي فيما بينهم »^(٢) .

وتناول محمد بيرم الخامس التونسي هذا الموضوع كذلك فقال : « وأن تكون الإدارة على قانون معلوم موافق لعادات الأمة وما يقتضيها حالها ، وأن يستوى الشريف والمشروف في الحقوق الشخصية ، وأن لا يمتاز قسم من الناس بالأشياء الضرورية كالعلوم والأراضى والتجارة وغيرها ... وقال : « فسارعوا (ملوك أوروبا) إلى منح الأهالي بالقوانين والحرية منة منهم وما حصل في إحدى الممالك من إجراء القوانين على أى وجه من الوجوه المتقدمة إلا أخذت في الترقى والثروة لانكشاف الظلم المؤذن بالخراب فتحسنت أحوالها وعمرت أرضها وكثرت صنائعها وانتشرت فيها المعارف وزادت إتقاننا واختراعنا ، وامتدت تلك المملكة بسطوتها على من

(١) التونسي ، خير الدين ، أقوم المسالك إلى معرفة أحوال الممالك ، مطبعة الدولة بمحاضرة تونس الحميمة،

١٢٨٤هـ ، ص ٧٧ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٨٢ .

لم يجارها فيما هي عليه ، وسرى العمل على ذلك النحو في جميع ممالك أوروبا .. بحيث يصح أن يقال إن جميع أوروبا كأنها مملكة واحدة على نمط واحد وغاية الاختلاف بينها إنما هو بزيادة الثروة والقوة والحضارة . أما أصول هذه الأشياء فهي موجودة في الجميع»^(١) .

كما تناول محمد بيرم التونسي الحياة السياسية في أوروبا بالتفصيل فقال : «وخلاصة الكلام على جميع قسم أوروبا هو أن يقال: إن جميع الممالك - إلا ما استثنى - كلها ممالك قانونية يعنى أن إدارتها منضبطة في السياسات بأمر محدودة مكتوبة يعلمها الخاص والعام ولا يجوز للمتصرف تجاوزها، والمباشر لإجرائها هم الوزراء بإذن رئيس الدولة على اختلاف لقبه من إمبراطور أو ملك أو رئيس جمهورية، وعدد هؤلاء الوزراء يختلف بحسب كبر الممالك وصغرها ، ثم يحتسب على الوزراء مجلسان أحدهما: مجلس الأعيان من الأمة واختيار أعضائه بيد صاحب المملكة أو بواسطة وراثته تتوارثها بعض العائلات وقد تنتخب الأهالي بعض الأعضاء من بعض المملكة . والثاني : مجلس النواب أى نواب الأمة ينتخبهم الأهالي لمدة معلومة بغاية الحرية في الاختيار على شروط في المنتخب والمنتخب تؤول إلى صفات تثبت حق الغيرة على الوطن ومعرفة مصالحه والأهلية لنصحه ، وبمجموع المجلسين يصح أن يسمى مجلس الأمة أو المملكة ، فإذا رأى هذا المجلس فسادا في تصرف أحد الوزراء أو مجموعهم وأصر المعارض على رأيه لزمه الاستعفاء لأنه يتصرف على خلاف إرادة الأمة . وهنا يكون لصاحب المملكة الحق في قبول اعتراض المجلس وإبدال المعارض عليه ، أو يأذن الأمة بانتخاب مجلس آخر بعد حله للأول ، فإن وقع انتخاب الأمة على إناس موافقين للمعارض عليه بقى الأمر على ما هو عليه ، وإن انتخبوا أهل المجلس الأول أنفسهم أو غيرهم ممن يوافقهم في الرأي لم يبق لصاحب المملكة حينئذ إلا إبدال الوزراء المعارض عليهم وتوظيف غيرهم ممن يوافق رأى الأمة هذا زيادة عما لهذا المجلس من حفظ القوانين ومراعاة مصالح المملكة في المال والسياسة والأحكام

(١) بيرم التونسي ، محمد الخامس ، صفوة الاعتبار بمسودع الأمصار والأقطار ، ٥ ج في ١ ، القاهرة ،

وعقاب المذنبين من المتوظفين ولو من الوزراء ، غير أن مباشرة العمل ليست بيده وإنما هي لمن تعود إليه من وزير أو مجلس حكم أو صاحب المملكة فهذا هو أصل إدارتهم السياسية»^(١) .

أما أحمد زكى في كتابه السفر إلى المؤتمر ١٨٩٣ فقد وصف طريقة حرية التعبير في (لورنדה : لندن) إذ قال عن مواطنيها : إن كل واحد منهم تزين له نفسه الكلام يقف في أى مكان ، ثم يتكلم بما يريد ويجتمع الناس حوله أو لا يجتمعون ويكون رجال الشرطة بجانبهم غير مباليين بتجمعهم مهما كانت أقوال الخطيب موجهة ضد الدولة أو بالحث على إحراق دور الأغنياء وسلب المخازن الكبيرة ، وما أشبه ذلك فإن حرية المقال في هذه البلاد وصلت إلى ما هو فوق منتهاها»^(٢) .

وهكذا يتبين أن الرحالة العرب في القرن التاسع عشر قد اهتموا اهتماما بالغا بتفاصيل الحياة السياسية في أوروبا من حيث الانتخاب الحر لممثلي الشعوب ، وسيادة القانون ، والعدل ، والحرية ببعديها : السياسى ، والشخصى ، وتأكيدهم الواضح على أن سر التقدم الأوروبي هو ما يتيح العدل السياسى لتلك الشعوب من مرونة تساعدهم في الرقى والتقدم في الصناعات والفنون .

النظرة إلى التقدم :

من أوائل الرحالة العرب الذين تناولوا هذا الموضوع ولاحظوه في أوروبا ودونوا ملاحظاتهم حوله ، وبصورة تفصيلية ، رفاعة رافع الطهطاوى ، في كتابه « تخلص الإبريز » إثر رحلته إلى باريس منذ عام ١٨٢٦ م . فلقد آمن رفاعة بالحقائق العلمية وبأنها أساس التقدم الحضارى والسعادة الدنيوية^(٣) . وكان المثل الأعلى في رأيه أن

(١) بيرم التونسي ، محمد الخامس ، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار ، ٥ ج في ١ ، القاهرة ،

١٣١١هـ ، ج ١ ، ص ٥٨ .

(٢) زكى ، أحمد ، السفر إلى المؤتمر ، المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق ، ط ١ ، ١٣١١هـ ، ص ١١٢ .

(٣) سبابا يارد ، نازك ، الرحالون العرب وحضارة الغرب في النهضة العربية الحديثة ، مؤسسة نوفل ،

ط ١ ، بيروت ، ١٩٧٩ ، ص ١٤٧ .

يأخذ المسلم العلوم الأوروبية ليطور دنياه وأن يحتفظ بإسلامه الذى يهديه إلى الطريق المستقيم والنجاة^(١) .

وصف رفاة الطهطاوى التقدم فى باريز ، مبينا أسباب ذلك وأن الأصل فى ذلك تطور الناس أنفسهم إذ قال : « اعلم أن الباريزيين يختصون من بين كثير من النصرارى بذكاء العقل ودقة الفهم وغوص ذهنهم فى العويصات ... وليسوا أسراء التقليد أصلا بل يحبون دائما معرفة أصل الشىء والاستدلال عليه حتى إن عامتهم أيضا يعرفون القراءة والكتابة ويدخلون مع غيرهم فى الأمور العميقة ، كل إنسان على قدر حاله فليست العوام بهذه البلاد من قبيل الأنعام كعوام أكثر البلاد المتبريرة ، وسائر العلوم والفنون والصنائع مدونة فى الكتب حتى إن الصنائع الدنيئة ، فيحتاج الصنائعى بالضرورة إلى معرفة القراءة والكتابة لإتقان صنعته وكل صاحب فن من الفنون يجب أن يتدع فى فنه شيئا لم يسبق به أو يكمل ما ابتدعه غيره^(٢) .

وأضاف رفاة قوله : والبلاد الإفرنجية مشحونة بأنواع المعارف والآداب التى لا ينكر إنسان أنما تجلب الأنس وتزين العمران ، وقد تقرر أن الملة الفرنساوية ممتازة بين الأمم الإفرنجية بكثرة تعلقها بالفنون والمعارف ، فهى أعظم أدبا وعمرانا والنادر أولى فى العمارات عادة من القرى ومن الضياع والمدن العظمى أولى من سائر ما عداها من مدن المملكة . فحينئذ لا عجب إن قيل إن باريز التى هى قاعدة ملك الفرنسيين من أعظم بلاد الإفرنج بناء وعمارة^(٣) .

ولفت نظر الطهطاوى فى باريز طرقاتها المبلطة بالحجر التى لا تتشرب المياه ، بل تسير مياهها إلى المجارى ثم إلى البالوعات^(٤) . وذكر أن مطايا هذه المدينة كغيرها من

(١) سابا يارد ، نازك ، الرحالون العرب وحضارة الغرب فى النهضة العربية الحديثة ، مؤسسة نوفل ،

ط ١ ، بيروت ، ١٩٧٩ ، ص ١٤٩ .

(٢) الطهطاوى ، تخلص الإبريز ، ص ٧٦ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ١١٩ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٦٥ - ٦٦ .

بلاد فرنسا العربات ، إلا أنه يكثر فيها ذلك ويتنوع ولا تزال تسمع بما قرقة العربات ليلا ونهارا بغير انقطاع^(١) .

ويذكر الطهطاوى أن الذى « يظهر لمن تأمل فى أحوال العلوم والفنون الأدبية والصناعة فى هذا العصر (عصره) بمدينة باريس ، أن المعارف البشرية قد انتشرت وبلغت أوجها بهذه المدينة ، وأنه لا يوجد من حكماء الفرنج من يضاهاى حكماء باريس بل ولا فى الحكماء المتقدمين كما هو الظاهر »^(٢) .

وأشار إلى تقدم الزراعة فيها بالإضافة للفنون والعلوم والصناعات فقال : وما من بيت من البيوت الوافرة إلا وبه بستان عظيم الأشجار والخضروات وغيرها ، وأغلب النباتات الغريبة توجد بهذه البلدة فإنهم يعتنون بتطبيع النباتات كالحوانات الغريبة ببلادهم مثل شجر النخيل^(٣) .

وأعطى الطهطاوى وصفا تاما لعمل البريد والتقدم فى خدمة المواطنين الباريسيين فى هذا المجال فقط : « وأما البريد المسمى عند الفرنسيين البُسطة فإنه من أهم المصالح النافعة فى التجارات وغيرها يسهل فيه أخبار الغير بواسطة المكاتبات التى تذهب عاجلا ويأتى ردها فى أسرع ما يكون وتديرها بكيفيتها التى هى عليها من أعظم ما يمكن ، فإن المكاتيب التى تبعث فى البلد أو العمالة تصل إلى صاحبها من غير شك لأن سائر نمرة البيوت مكتوب عليها بالرقم عدده المسمى نمرة فيها يمتاز البيت عما عداه ، والمكتوب الذى تبعثه لإنسان تضعه فى محل المكاتيب الموضوعة فى كل حارة فيأتى الساعى ويأخذه فيصل المكتوب إلى الحارة الأخرى ويأتى رده فى يومه ، ثم إن الفرنسيين يحترمون أمور المراسلات غاية الإمكان فلا يمكن لإنسان أن يفتح مكتوبا معنونا باسم آخر ولو كان متهما بشيء »^(٤) .

(١) الطهطاوى ، تخلص الإبريز ، ص ٧٥ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٨٩ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٦٧ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ١٨١ .

ومما لفت نظر الطهطاوى من مظاهر التقدم استخدام وسائل الإعلام بمفهومنا الحديث للترويج عن سلعة من السلع أو لأعمال تجارية بصورة عامة . فيذكر أن «من الأمور النافعة في التجارات الجرنالات ، فيكتبون فيها كثيرا من البضاعة النافعة أو الجيدة الصنعة ويمدحونها ليروجوا السلع وليعلموا الناس بها ، وصاحب البضاعة يدفع لهم شيئا نظير ذلك»^(١) .

ويشير الطهطاوى إلى أن من أسباب رغد عيش وتقدم باريس في فنونها وصنائعها يرجع إلى أن أهل باريس يمتازون بالنشاط الدائم وعدم التكاسل وقال : « اعلم أن المركوز في أذهان هؤلاء الطوائف محبة المكسب والشغف به وصرف الهمة إليه بالكلية ومدح الهمة والحركة وذم الكسل والتواني ، حتى إن كلمة التويخ المستعملة عندهم على ألسنتهم في الذم هي لفظة الكسل والتنبلة » . كما لفت انتباهه وجود نظام الصيرفة الذى يسهل الأعمال التجارية ، وذلك بقوله : « ثم إن أعظم التجارات وأشهرها في باريس معاملات الصيارفة ، والصيارفة قسمان : صيارفة المملكة أو الميرى وصيارفة باريس»^(٢) .

وينتقد الطهطاوى كسب أهل باريس بأنه قائم على الربا وهنا يقول : « ولولا أن كسبهم مشوب في الغالب بالربا لكانوا أطيب الأمم كسبا»^(٣) .

وذكر الطهطاوى أن « من جملة أسباب غناء فرنساوية ، أنهم يعرفون التوفير وتدبير المصاريف حتى إنهم دونوه وجعلوه علما متفرعا من تدبير الأمور الملكية ، ولهم فيه حيل عظيمة على تحصيل الغنى ، فمن ذلك عدم تعلقهم بالأشياء المقتضية للمصاريف»^(٤) .

(١) الطهطاوى ، تخلص الإبريز ، ص ١٨٢ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٧٨ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٨٢ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ١٨٤ .

وفي عام ١٨٦٠ قام أبو جمال محمد الطاهر الفاسي المغربي برحلة إلى الديار الإنجليزية فزار لندن ووصف التقدم فيها عن أهلها : « والحاصل أنهم أتعبوا أنفسهم أولا في إدراك المسائل النظرية ، وكابدوا على تحصيلها حتى صارت عندهم ضروريات ، ولالوا يستنبطون بعقولهم أشياء كثيرة ، كما أحدثوا الباور وغيره»^(١).

ووصف الفاسي مدينة (لندريز) فقال : « وهذه المدينة من المدائن العظام ما رأيت أعظم منها ولا أحظى حتى تكرر على أسماعنا أن طولها ستة أيام ، وعرضها كذلك ، وبها سلطنة الإنجليزي ، وغالب بنائها بالحجر المنحوت ويطنون الحيطان من داخل بالخشب ويجعلون عليه كاغيدا - مموها ، ويفرشون الأرض ببسط وزرابي جيدة .. » كما أعطى وصفا عاما للعمران بقوله « والديار بهذه المدينة كلها متشابهة إلا ما قل وتميز بالأعداد على أبوابها .. والعادة أنهم لا يحمون البساتين بالحيطان ، وإنما يحدقونها بقصب من حديد واقف ، وبرأسه شيء شبيه بالحربة »^(٢).

ويرى الفاسي أن كل شيء في بلاد الإنجليز عجيب فيقول شعرا :

الله أخطر مدتي فتأخرت حتى رأيت في ذا البلاد عجائبا^(٣)

ومن الأشياء والصناعات التي وصفها في كتاب رحلته وصفه لـ : الفبارك (المصانع) مصانع السلاح ، وفيركة معدة لنشر الخشب ، والأساليب الحديثة عندهم في الزراعة ، ثم حديثه عن البنك : « وهو معدود من دار السكة عندهم » ، كما وصف دار صنعة الزجاج من كؤوس وغيرها ، كما وصف حسب تعبيره « محل السلك » (التلغراف) المعد لورود الأخبار وتوجيهها^(٤).

(١) الفاسي ، أبو الجمال محمد الطاهر ، الرحلة الإبريزية إلى الديار الإنجليزية ، (١٢٨٦هـ / ١٨٦٠م) تحقيق الأستاذ محمد الفاسي رئيس جامعة محمد الخامس ، مطبعة جامعة محمد الخامس ، فاس ،

١٩٦٧ ، ص ٢٨ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٠ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٣٧ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٢٨ - ٣٦ .

كما وصف التقدم العسكري ، خصوصا الصناعة العسكرية من حيث « أسلحة البنادق ، والمدافع والعربات »^(١) .

ويوضح اندهاشه بهذا التقدم بقوله : « والحاصل أنهم - دمرهم الله - يستعملون أشياء تدهش سيما من رآها ربما اختل مزاجه من أجل ذلك ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، كيف تحيلوا على إصلاح دنياهم حتى أدركوا منها مناهم ، واستعملوا لذلك قوانين وضوابط وفي كل ما يقرهم منها غوابط »^(٢) .

وهكذا فإنه قد اهتم بصورة خاصة بمظاهر المدنية الحديثة في لندن وأبدى استغرابه من الأشياء التي رآها لأنها كانت بعيدة كل البعد عن مألوفه ، ولكنه يتفهمها ويصفها بكل وضوح ودقة مثلما وصف ميزان الطقس (بارومتر) والتنبؤ بالطقس بناء على ذلك .

ولكن الفاسي يفسر تقدم الإنجليز استنادا إلى استخدامهم العقل وبعدهم عن الإيمان فقال : « العقل على قسمين : ظلماني ونوراني ، فالظلماني به يدركون هذه الأشياء الظلمانية ، ويزيدهم ذلك توغلا في كفرهم ، والنوراني به يدرك المؤمن المسائل المعنوية كالإيمان بالله وملائكته ورسله وكل ما يقرب من رضى الله ، ومن هذا الباب وصفهم الله في غير ما آية بعدم العقل وبعدم التفكير وبعدم الفقه »^(٣) .

وهو يقف من الإنجليز وقوقم العسكرية موقفا واضحا فلم يكن مسرورا لقوقم وتدريبهم الذى رأى فيه تميزا عن الجيش في بلاد المغرب ، فبعد أن وصف عسكر المدينة (لندن) الذى أحدث أيام الملكة فكتوريا ومشاهدته للاستعراض الذى قاموا به أمام الملكة ، وقال : والله يهلك القوم الكافرين ، وينصرنا عليهم ، آمين .

(١) الفاسي ، أبو الجمال محمد الظاهر ، الرحلة الإبريزية إلى الديار الإنجليزية ، (١٢٨٦هـ / ١٨٦٠م) تحقيق الأستاذ محمد الفاسي رئيس جامعة محمد الخامس ، مطبعة جامعة محمد الخامس ، فاس ،

١٩٦٧ ، ص ٢٥ - ٢٨ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٩ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٢٨ .

وقال : «هذا العسكر أباده الله»^(١) وفي مقام آخر قال الفاسي : «اللهم احص القوم الكافرين عددا وشتتهم بددا ولا تبق منهم أحدا ، آمين»^(٢) .

وقال : « قال بعض العلماء : إن النصرى حرموا جنة الأخرى ، فأعطاهم الله جنة الدنيا بستانا متصلا من البحر المحيط بالأندلس إلى خليج قسطنطينة »^(٣) .

ولقد أعجب أحمد فارس الشدياق بما رآه من تقدم في أوروبا ، من حيث التمدن والبراعة والتفنن والتفكر في المصالح المدنية والأسباب المعاشية وانتشار المعارف العمومية وإتقان الصنائع وتعميم الفوائد والمنافع ، وهو يقول: إنه دائم التفكير في خلو بلادنا عما عندهم من تقدم^(٤) .

ورأى الشدياق أن من أسباب التقدم في أوروبا أنه « إذا نبغ أحدهم مثلا في فن أو صنعة لم يجد من يتصدى لتجهيله ، وتخطئته حتى يوقفه عن تقدمه ويطنفى جذوة قريحته، بل بالحرى يجد من ينشطه ويسر له أسباب العلم ، فأما في بلادنا ما ينبغ أحد في شيء يبادره حاسدوه بقولهم : « هو مُدَّع ، هو حمار ، هو متطفل »^(٥) .

ووصف خير الدين التونسي ، التقدم والتمدن في أوروبا بقوله : « وإنما بلغوا تلك الغايات والتقدم في العلوم والصناعات بالتنظيمات المؤسسة على العدل السياسى، وتسهيل طرق الثروة واستخراج كنوز الأرض بعلم الزراعة والتجارة »^(٦) وأضاف أن هذا التقدم لم يحصل إلا بتعاطى المعارف وأنواع الصناعات الراجعة إلى الأصول

(١) الفاسي ، أبو الجمال محمد الظاهر ، الرحلة الإبريزية إلى الديار الإنجليزية ، (١٢٨٦هـ / ١٨٦٠م) تحقيق الأستاذ محمد الفاسي رئيس جامعة محمد الخامس ، مطبعة جامعة محمد الخامس ، فاس ، ١٩٦٧ ، ص ١٦ - ١٧ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٣١ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٣٤ .

(٤) الشدياق ، أحمد فارس ، الوساطة في معرفة أحوال مالطة ، مؤسسة ناصر للثقافة ، ط ١ ، دار الوحدة ، ١٩٧٨ ، ص ١٣ ، وكشف المخبا ، ص ٣ .

(٥) الشدياق ، كشف المخبا ، ص ١٤٩ .

(٦) التونسي ، أقوم المسالك ، ص ٩ .

الأربعة : الفلاحة والتجارة والأعمال البدنية والفكرية ، وبهذه الأصول قوام السعادة الدنيوية المرغوبة للهمة الإنسانية وكمال الحرية المؤسسة على العدل وحسن النظام ونظام الجماعة حتى يكون المحترف مثلاً آمناً من اغتصاب شيء من نتائج حرفته أو تعطيله في بعض أحوال خدمته . ولا شك أن العدوان على الأموال يقطع الآمال، ويقدر انقطاع الآمال تنقطع الأعمال إلى أن يعم الاختلال المفضى إلى الاضمحلال»^(١) .

وذكر خير الدين التونسي أن من أسباب التقدم « تسهيل المواصلة بالطرق الحديدية ، وتعاضد الجمعيات المتجرية والإقبال على تعلم الحرف والصنائع ، فبالطرق تُستجلب نتائج البلدان القاصية قبل فوات إبان الانتفاع بها .. وبالجمعيات تتسع دوائر رؤوس الأموال فتأتي الأرباح على قدرها ، وتتداول على المال الأيدي المحسنة لتنميته ، ويتعلم الحرف تكتسب الأموال الذريعة عن غير رأس مال»^(٢) . ويشير خير الدين التونسي إلى أن من أسباب تقدمهم كذلك « العناية بمن اخترع شيئاً لم يسبق إليه أو أجاد في عمل مفيد»^(٣) .

وتناول محمد بيرم الخامس التونسي في كتاب « صفوة الاعتبار » موضوع التقدم، أو كما يسميه (التمدن) في أوروبا ، فقال : « وهاته القارة الآن رمقها السعد بالحال .. فيها تمدن منذ خمسمائة سنة على خلاف المعهود سابقاً ، وامتد فيها تدريجياً إلى أن بلغت في هذا العصر إلى الدرجة القصوى من التهذيب والتمدن والمعارف الدنيوية حتى صار لأهلها الوجاهة والنفوذ على جميع أقسام الأرض»^(٤) .

ووصف محمد بيرم تقدم الصنائع في إيطاليا في العقد السابع من القرن التاسع عشر فقال : « وأما بقية الصنائع فلهم كفاية في كل الصنائع الضرورية والتحسينية ، لكنهم ليس لهم معامل كثيرة التي هي من أعظم أسباب الثروة والترقي ، وإن كانوا لازالوا

(١) التونسي ، أقوم المسالك ، ص ٧٦ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٧٦ - ٧٧ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٨٠ .

(٤) بيرم التونسي ، صفوة الاعتبار ، ج ١ ، ص ٤١ .

بمجتهدين في ترقياها إلى بلوغها لمثل درجة الأمم البالغة للنهية في المعارف ، والتمدن ، والحاصلون عليه الآن هو أن لهم معامل للسلاح بأنواعه ومعامل لإنشاء السفن والبواخر المدرعة . ومعامل للتحليلات الكيماوية وللأعطار وللشمع المتخذ من الشحم لدباغة الجلود ، ولصناعة الورق ، وغزل القطن ، ونسج الجوخ والشاشية وأنواع المنسوجات الحريرية ، ومنه النوع الفاخر المسمى بالأمرير أو القطيفة ، ومعامل للطراز ، كما أنه يصنع بالأيدى أيضا ، ولهم معامل للزجاج والفخار والعقيق والزهور الصناعية وآلات المرايا المكبرة ، وآلات الموسيقى وخصوصا أوتار بلدنا بل لها صيت كبير في جميع الجهات ، وفي نابلي وميلانو معامل متقنة للكراريس أى عجلات الركوب ، كما أن في إيطاليا إتقانا لصناعة الأحذية وسائر الأنعلة وخياطة الملابس وهم فائقون في صناعة تحت المرمر ونفسه ، وكذلك صناعة المرجان والصياغة والكهربان»^(١) .

وأعطى محمد بيرم وصفا شاملا للطرق المرصوفة في إيطاليا وأكد على اهتمام بلدانها بالنظافة والتنوير واتساع الطرقات ، وحول الطرق المرصوفة قال : « اعلم أن إيطاليا تكاد أن لا تجد بين بلدين فيها طريقا غير صناعية بل كلها متصلة ببعضها بالطرق المحصبة المتقنة الصناعية غير أن الطرق في البرية لا تنظف ، وأن لها قيمين لإصلاح ما يفسد منها كأن يكون على كل ثلاثة أميال قيم له مركز يأوى إليه وفيه من آلات الإصلاح ما فيه الكفاية » أما النظافة في بلدان إيطاليا : فقال : « ولا تجد مزبلة في البلد لأن خدمة التنظيف يرفعون الأزبال الملقاة من الدور في آخر الليل ومن طرح الأوساخ من داره في غير الأوقات المعينة عوقب على ذلك بالعقوبة المالية بحيث نجد سائر الطرق نظيفة ، وفي الليل منورة بالبخار الغازي والفوانيس نظيفة ... ويضيف : وغاية ما هناك هو الفرق بين البلدان في شدة النظافة ، والتنوير واتساع الطرقات فقط »^(٢) .

(١) بيرم التونسي ، صفوة الاعتبار ، ج ٣ ، ص ٥٤ .

(٢) المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٥٥ - ٥٦ .

ولفت نظر محمد بيرم ما تأخذه الدولة من السكان في إيطاليا كضرائب وما يترتب على ذلك من تقدم وتحسين البلد ، فقال : « كما أن من الأحوال المتفق عليها أن يكون قسم مما تدفعه الأهالي إلى دولتهم يصرّف في تحسين المملكة ورونقها وإصلاحها كمد الجسور والطرق الحديدية وتنظيف الطرق زيادة على إنشائها ، وكذلك يؤول لتوسيع التجارة والمعارف والفلاحة وغير ذلك مما يعود على المملكة بالتحسين والتحصين »^(١) .

وفي حوالي عام ١٨٨٩ ، زار أوروبا محمود عمر الباجورى (من مصر) ، ابتداء رحلته بإيطاليا ، ثم فرنسا ، ثم إنجلترا ، ثم استوكهولم ، وألمانيا ، ثم العودة إلى مصر . وفي رحلته الشاملة هذه لأهم بلدان أوروبا آنذاك وصف التقدم والحياة وصفا شاملا ، حتى إنه كان كثيرا ما يعطى جداول بالأرقام حول بعض مظاهر التقدم في تلك البلدان . ووصف مدينة تريسته في إيطاليا فقال : « وفيها مدارس عديدة للملاحة والتجارة وغيرها ، وكتبخانة وانتفخانة ... وفيها التياترو ، والبورصة ، ومحل إنشاء السفن والمستشفى ، والقناة الجالبة لمياه الشرب والأرصفة التي على البحر ، كل ذلك في غاية الحسن والمتانة »^(٢) .

وعند حديث الباجورى عن (سراى ميرمار) في مدينة تريسته ، قال : « والحيطان في غاية الإتقان مع جمال النقش وحسن الشكل بما حوى من الرسم العجيب والوضع البديع والألوان الجميلة التي تأخذ بالأبصار » كما أعجب بمديقة السراى هذا أيما إعجاب فقال : « وبالجملّة ، فهي حديقة لم يسمح الدهر بمثلها »^(٣) .

ثم انتقل الباجورى إلى الحديث عن مدينة ميلانو فوصف تقدم صناعاتها ، وبخاصة الحرير ويذكر أن فيها « نور الغاز والنور الكهربائى ، حتى إن محطة سكة الحديد على اتساعها وارتفاع قبتها منورة بفانوس واحد كهربائى ، بحيث يتمكن الإنسان من القراءة على نوره في الخط الرفيع »^(٤) .

(١) بيرم التونسى ، صفوة الاعتبار ، ج ٣ ، ص ٥٩ .

(٢) الباجورى ، محمد عمر ، الدرر البهية في الرحلة الأورباوية ، ١٨٩١م ، ص ١١ - ١٢ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٣ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ١٩ .

والتفت الباجورى إلى المسارح (المراعى) « وترتيب الغيطان » فى مدينة فينيسيا ، وأرجع التقدم فى هذا المجال إلى انتشار الأمن هناك فقال : « كنا نرى فى طريقنا هذا البقر والغنم والمعز والخيل والجاموس الأسود الذى لا يوجد إلا فى بلاد إيطاليا دون غيرها من أوروبا فى المسارح بدون من يحفظها وذلك لعموم الأمن عندهم ، إنما يجعل الإنسان على حدود غيطه حاجزا من الخشب أو الأشجار الصغيرة المشتبكة بالصناعة يمنع خروج الدواب منها ، فعند الصباح يأتى بما صاحبها إلى ذلك الغيط ويقفل عليها بابه ، ويتركها ترعى ، ويذهب لشغل آخر ، ثم يعود إليها آخر النهار ليأخذها إلى بيته »^(١) .

وقد تعجب من طرق سكة الحديد النافذة عبر الأنفاق فى الجبال فى أوربا^(٢) . فقال : « حين يمر بك الوابور فى سرداب تحت صخور الجبال التى لا يمسكها إلا الله تعالى فى ظلام حالك لولا ما فى الوابور من النور ماذا يكون حالك وإلى أى شىء تتجه أفكارك ، نعم ذلك شىء يحير الألباب ويدهش العقول ويطير النوم من العيون ، ولا ينفع إذ ذاك إلا التسليم لقضاء الملك الحكيم فهو كما يقال داخله مفقود وخارجه مولود ، فهناك لا تسمع إلا دويا هائلا وفرقة مزعجة ، من سرعة الوابور ، مع طبقات الهواء المخزون فسبحان المنجى من المهالك التى هى أمثال ذلك »^(٣) .

وعندما تحدث الباجورى عن مدينة لوسرن السويسرية أعجب بالبيوت الريفية المقامة على بعض الأنهار هناك ، ويصفها « بالبيوت الخلوية »^(٤) .

ثم انتقل الباجورى إلى الحديث عن باريس التى كان قد وصلها فى أول آب ١٨٨٩ ، فذكر ساحاتها وكنائسها ، ومستشفياتها ومدارسها ، وأفاض فى الحديث عن مكتبتها وموجوداتها من الكتب ، فيذكر أنها تشمل على ٩٠٠ ألف مجلد طبع ، و ٨٠ ألف مجلد خط آنذاك ، ويطلق عليها اسم « الكتبخانة »^(٥) .

(١) الباجورى ، محمد عمر ، الدرر البهية فى الرحلة الأورباوية ، ١٨٩١م ، ص ١٧ - ١٨ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٠ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٢٠ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٢٢ .

(٥) المصدر نفسه ، ص ٢٥ .

وقال عن باريس : « باريز هي أول مدن فرنسا تمدنا وتجارة وعلما وصناعة لاسيما الأشياء التي تلزم للنساء والأطفال » ... كما عقد فصلا عن « الانتظام والترتيب في محلات التجارة » في باريس . وقال : « وكل شيء قد يكتب عليه ثمنه فلا يحتاج إلى نزاع في المساومة ، وهكذا في كل محل مشهور يكون بهذه الصفة المستحسنة ، وكل بضاعة يشتريها الإنسان يمكن توصيلها إلى محله بواسطة عربات محل التجارة المعدة لذلك بدون مقابل ، غير أنه يلزم الإنسان أن يكتب على بضاعته اسمه ونمرة محله ويتركها لهم ، فانظر إلى هذا الاستعداد الغريب والترتيب العجيب والانتظام الكامل ، وفي هذه زيادة عن الترتيب الأمانة بحيث إن أهلها لا يكونون محترسين من الناس الأجانب ، مع كثرتهم ، وقوة ازدحامهم مع بعضهم البعض والتصاقهم بالبضائع »^(١) .

وقد أعجب الباجورى ببناء كتيبخانة باريس وبوابتها التي تعجب من صنعها كذلك فقال : « أما بناء الكتيبخانة ففي غاية الصلابة والمتانة والانتظام وحسن الوضع ، وأبوابها من الداخل في غاية الغرابة بحيث إن الإنسان إذا فتح الباب وتركه ينغلق وحده بقوة في أول الأمر إلى أن يقرب من تمام الغلق يرجع القهقري قليلا ، ثم ينغلق بكل هدوء وسكون وذلك بواسطة مكنة في أعلاه جعلت لذلك فإنه لو ترك الباب ينغلق بدون الآلة المذكورة لحصل للبناء أضرار كثيرة مع طول الزمن من قوة الباب وعظم جرمه ، فسبحان الهادى المدير الحكيم »^(٢) .

وذكر الباجورى بعض مظاهر التقدم الأخرى في باريس مثل « اللوكاندات » وما تشتمل عليه من حسن التنظيم ، والترتيب والنظافة^(٣) ، وكذلك الوابور الكهربائي ومركز التلفون ، الذى وصفه بأنه « يخدم أربعة آلاف فرع لمدينة باريز والحال أن المتولى لتوصيل هذه الفروع أربع نساء ، فتكون كل واحدة توصل ألف فرع ، فانظر إلى تلك المهارة والإتقان والتقدم ، وكنا نراهم حال تأدية العمل في غاية

(١) الباجورى ، محمد عمر ، الدرر البهية في الرحلة الأورباوية ، ١٨٩١م ، ص ٢٥ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٣٣ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٣٤ - ٣٥ .

الهدوء والسكينة مع نشاط تام ، فجل من خلق الإنسان وعلمه ما لم يكن يعلم»^(١) .
كما تكلم عن الآلات الميكانيكية بشئ أنواعها وأغراضها^(٢) .

ويرجع الباجورى سبب هذا التقدم عند أهل باريس إلى أن : « أوقاتم مرتبة في العمل للمعاش وفي الأكل والشرب والتزه والاستراحة والنوم ، تراهم لا يضيعون أوقاتم سدى ولا تذهب أعمالهم أدراج الرياح ، وأساس ذلك التربية وسرعة حركة التجارة ، والصناعة بالتفتات الحكام وتيقظهم لذلك فترى هذا رأى العين ، إذا سكنت على شارع من الشوارع العامة ذهاب الناس والعربات والبضائع من كل الجهات على الدوام في ليل أو نهار حتى الساعة الأخيرة التي من شأنها نوم جميع الناس فيها لها ناس يعملون فالحركة مستمرة والناس مجدون في أعمالهم»^(٣) .

ثم انتقل الباجورى إلى إنجلترا فوصف مدينة (لندرة) وتقدم العلوم فيها وبخاصة في مدرستها الجامعة ، ومدارسها الأخرى وجمعياتها ، ومستشفياتها (وفريقاتها) أى صناعاتها الخاصة بالسكر وبناء السفن والأنسجة وصب الفولاذ والصباغة ، ونسيج الصوف ، والقطن ، والدباغة ، ومعامل الزجاج وغيرها^(٤) .

ومن مظاهر التقدم الأخرى التي أشار إليها الباجورى : البنك الإنجليزي ، وما يقدمه من خدمات مصرفية لأهل (لندرة) وغيرها هذا فضلا عن الحديث عن التمدن والتجارة في مدينة (لندرة) فقال : « متجر مدينة لندرة وحده يساوى خمس تجارة المملكة الإنجليزية كلها وبها جملة من البورصات المهمة ومينائها أعظم ميناء في العالم وكذا أرصفتها التي عددها ٧ ، الصادر منها سنويا يساوى ٢٠٠ مليون جنيه ، ويدخل مينائها في السنة نحو ١٢ ألف سفينة»^(٥) .

(١) الباجورى ، محمد عمر ، الدرر البهية في الرحلة الأورباوية ، ١٨٩١م ، ص ٤٢ - ٤٣ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٤١ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٣٥ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٥٣ .

(٥) المصدر نفسه ، ص ٥٣ .

وقال الباجورى: إن أول سكة حديد في أوروبا عموما قد أنشئت كانت في إنجلترا، ثم ذكر تسلسل البلدان التي استخدمت السكة الحديدية في بلادها كما يلي : «افتتحت أول سكة حديد في إنجلترا سنة ١٨٢٥م ، وفي بلاد النمسا وفرنسا ١٨٢٨ ، وفي ألمانيا وبلجيكا ١٨٣٥ ، وفي بلاد روسيا ١٨٣٨ ، وفي إيطاليا ١٨٣٩ ، وفي بلاد أسبانيا ١٨٤٨ ، ثم ذكر بلاده مصر سنة ١٨٥٦ » ، ثم يعلق على هذا بقوله : «فلو نظرت إلى هذا وجدته دليلا واضحا على تقدم الأمة الإنجليزية خصوصا صناعة الآلات الميكانيكية»^(١) .

ثم انتقل الباجورى من إنجلترا إلى هولندا فوصف التجارة والصناعة في مدينة روتردام وكذلك مدينة ليدن ، ثم أمستردام ، ثم بعض المدن الألمانية التي زارها كذلك مثل كولونيا ، ثم مدينة هامبورغ التي قال عنها وهي أعظم مدن ألمانيا عموما كتبها ٢٠٠ ألف مجلد ، وبها مدارس عليا ووسطى وابتدائية ، لكل الفنون من بحرية وتجارية وغيرها ، وتكلم عنها كميناء تجارى فقال لها : « أعظم ميناء أوروبا البحرية التجارية بعد لندرة ، وليفربول من بريتانيا ، وتجارها رواج زائد لها علاقة مع كل المدن المهمة في الأقسام القريبة والبعيدة في البواخر البحرية »^(٢) .

وفي رحلة لأحمد زكى (من مصر) بعنوان : (السفر إلى المؤتمر) ١٨٩٣ ، وصف التقدم في إيطاليا بقوله : « وبرعوا في الفنون الظريفة ولا بدع إذا قلت في هذا المقام إن كل طلياني لا بد أن يخلق نابغا بالطبع في الرسم والتصوير والنقش ، والنحت والتعمير أو التجميل والتحرير أو الموسيقى والأغانى ، ونظم القريض والمعاني ، فقد زرت معرض الصور المعروف بالرواق ورأيت فيه آثارا صناعية جلييلة وبقايا فنية جميلة أو فوق جميلة مما لا تكاد تضاهيه مجموعة الدنيا القديمة والجديدة حتى لقد مللت من كثرة التأمل والمشاهدة وتعبت من الاستمرار في التسيار مع تيار هذا المعرض »^(٣) .

(١) الباجورى ، محمد عمر ، الدرر البهية في الرحلة الأورباوية ، ١٨٩١م ، ص ٥٩ - ٦٠ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٦٠ .

(٣) زكى ، أحمد ، السفر إلى المؤتمر ، ص ٣٠ .

وأشار أحمد زكى إلى مظاهر التقدم الأخرى : « مثل العربات والسكة الحديدية والبوستة والتلغراف والبواخروالبوليس ، وما أشبه ذلك من التنظيمات من أنهم يضعون أسماء الشوارع على رقع مربعة من الرخام كى لا يتطرق إليها البلاء بسرعة »^(١) .. كما وصف نظام مكتبة بيزا فى إيطاليا وأعجب بهذا النظام فقال : « ثم زرت المدرسة الجامعية ومكتبتها العظيمة ورأيت فيها من النظام ما يوجب الإعجاب بما .. مثال ذلك أن الكتاب الذى يستعار منها يوضع مكانه قطعة من الخشب بمقدار حجمه وعلى شكل الكتاب وتكتب عليها نمرة وعنوانه إلى أن يرد الكتاب إلى محله ، وفى ذلك فائدتان : أولهما - حفظ نظام الكتب وعدم ميلها على بعضها بسبب الخلو بينها مما يضيع استقامتها واعتدالها . وثانيها - التنبيه على أن هذا المكان يشغله كتاب مستعار الآن مع حفظ عنوانه ونمرته لإعلام من يريد أن يجيل ناظره على الكتاب فقط، ورأيت فيها أيضا صناديق من الخشب على شكل الكتب توضع فيها المجلات الدورية ، وأخرى لحفظ الكراريس والأجزاء التى تظهر فى أوقات معينة من كتاب واسع كبير حتى لا يتولاها التلف والضياع ، ومتى تمت الكراسات والأجزاء جلدوها مع بعضها وأودعوها فى المحل اللائق بها »^(٢) .

ووصف أحمد زكى كذلك مدينة (لوندرة) أى لندن فى رحلته ، فقال : « حتى إذا وصل المحطة (القطار) زادت الدهشة مما يراه فيها من الاتساع وكثرة الأرصفة ، وجسامة المباني وتعدد صنوف المخلوقات وتناهى صفوف العربات مما يضيع اللب ويذهب بالرشاد ، ثم متى دخل فى شوارعها وسار فى طرقاتها ومسالكها بهت وبلغ الاضطراب منه منتهاه »^(٣) .

ويرى أحمد زكى أن من جملة أسباب التقدم فى بريطانيا كثرة الشركات والجمعيات المنضبطة وأوضح ذلك بقوله : ولكنى أقول إن الشركات والجمعيات ،

(١) زكى ، أحمد ، السفر إلى المؤتمر ، ص ٢٦ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٣٥ - ٣٦ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٨٤ .

وما بينها من المزاحمة الممدوحة ، والمناظر المحموده هي روح هذه الحركة وأس هذا الارتقاء فمهما نظر الإنسان إلى أى عمل من الأعمال رآه في يد شركة من الشركات، وليس للحكومة دخل في شىء ما سوى المراقبة العالية التى تجعل الجمهور فى أمان من اغتيال هذه الشركات وفيما عدا ذلك فإن الأمة قائمة بنفسها مكدة فى طلب المكاسب والمعالي بما يفيدها ، ويرفع شأن دولتها ، من غير أن تتنازل وتمد يدها لإمداد الحكومة ماديا ، أو معوتتها معنويا ، حتى إن الإنسان ليتساءل بعد ما يراه من تنوع الشركات وتناولها كل شأن من شؤون العقليات أو المحسوسات ، كيف أن مثل البوستة والتلغراف والكمرك والدخولية والبوليس والجيش ليس فى يد الشركات، نعم، فقد كانت البوستة والتلغراف خاضعين لهذا القانون العام فى هذه البلاد ، ولقد كان فتح الهند كما لا يخفى وإضافتها للدولة الإنجليزية على يد شركات تجارية»^(١) .

ووصف أحمد زكى بلاد بريطانيا بأنها « بلاد التعاضد على الأعمال والتباعد عن الخمول والإهمال ، ومعرفة ثمرات الاجتهاد والاتحاد والاعتدال على إثماء المال»^(٢) .

ويرى أن تقدم الأمة البريطانية يرجع إلى نشاط أفرادها ، فقال : « وذلك لأن أفراد الأمة البريطانية يرون أنهم لم يخلقوا إلا للعمل والاكتساب ، ولقد بلغت حجة الاستقلال فيهم مبلغا لا يكاد يتصوره العقل حتى إن بعض البنات فى العائلات الكبيرة تذهب للرسم والتصوير أو التطريز والتديج أو التعليم والتدريس لتكتسب بنفسها ، ولا تكون كلا على عواتق أهلها مع ما هم فيه من الثروة والرفاهية ، ومنهن من يؤثرن التغرب فى بلاد الهند وأستراليا وكندا بصفة وصائف أولى من البقاء فى منازلهن خاليات من العمل منغمسات فى البطالة والكسل ، وذلك شأن الشباب أيضا ... وهم يعتبرون الفقر عيبا بخلاف سائر الأمم ، ولذلك يشتغلون كلهم مثل النحل ولو كان الرجل منهم ابن غنى يملك القناطير المنقطرة ، فلا بد له من التكبس بعرق جبينه»^(٣) .

(١) زكى ، أحمد ، السفر إلى المؤتمر ، ص ٨٤ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٨٤ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٨٥ .

وفي الكتاب المرسوم بـ « الدنيا في باريس » لأحمد زكي ، يرى ويؤكد على «عظم المدينة» في أوروبا و « جلاله الحضارة » فيها ، ويرى أن هذا التقدم يجب أن يحرك في العرب تنشيط الإحساس والشعور بمواكبة التقدم ، ليكون من ورائه عظم الأعمال^(١) .

وهكذا يتبين أن الرحالة العرب قد تنبهوا إلى فهم أسس التقدم الصناعي ، والمعرفى العلمى فى أوروبا خلال القرن التاسع عشر ، من حيث سيادة القانون والعدل السياسى والاجتماعى ، هذا فضلا عن مثابرة الفرد الأوروبى وسعيه المتواصل لتحقيق الرقى فى كل مجال من مجالات الحياة وصولا إلى دولة المؤسسات التى تحفظ الأمن والرخاء والرفاهية لجميع أفراد المجتمع وبدون استثناء .

النظرة إلى الحياة الاجتماعية :

من الظواهر العامة التى ميزت كتابات الرحالة العرب فى القرن التاسع عشر عن البلاد الأوروبية ، توسعهم فى الحديث عن مكونات المجتمعات الغربية من حيث الطبقات فيها ، والدين والعادات الاجتماعية فى اللباس ، والأكل ، كما لفت انتباههم بصورة خاصة المرأة الأوروبية ، ووضعها فى المجتمع ، وهذا منتظر ، لانفتاح المرأة على المجتمع هناك ، ومشاركتها الفاعلة فيه ، وفى مختلف نشاطاته الثقافية والاقتصادية بصورة تختلف كلياً عن المرأة فى المشرق آنذاك .

وصف رفاعة الطهطاوى مجتمع باريس بأنه ثلاث طبقات كما يفهم من خلال العمران فيها ، فيقول : « وقد جرت عادتهم بتقسيم البيوت إلى ثلاث مراتب ، المرتبة الأولى : بيت عادى ، والثانية : بيت لأحد من الكبار ، والثالثة : بيوت الملك وأقاربه ودواوين المشورة ونحوها . فالأول : يسمى بيتا ، والثانى : يسمى دارا ، والثالث : يسمى قصرا أو سراية »^(٢) .

(١) زكى ، أحمد ، الدنيا فى باريس ، ١٩٠٠م ، ص ٢٧٢ .

(٢) الطهطاوى ، تخلص الإبريز ، ص ١٢٢ - ١٢٣ .

وعن طبائع «الفرنساوية» يقول الطهطاوى : «ومن طبائع فرنساوية التطلع والتطلع بسائر الأشياء الجديدة ، وحب التغيير والتبديل في سائر الأمور خصوصا في أمر اللبس فإنه لا قرار له أبدا عندهم ولم تقف لهم إلى الآن عادة في التزبي . ومن طباعهم الطيشان والتلون فيتنقل الإنسان منهم من الفرح إلى الحزن وبالعكس ، ومن الجدل إلى الهزل وبالعكس ، حتى إن الإنسان قد يرتكب في يوم واحد جملة من أمور متضادة ، وهذا كله في الأمور غير المهمة ، وأما في الأمور المهمة فأراؤهم في السياسات لا تتغير كل واحد يدوم على مذهبه ورأيه ويؤيده مدة عمره ، ومع كثرة ميلهم إلى أوطانهم يحبون الأسفار ، فقد يمكثون السنين العديدة والمدة المديدة طوافين بين المشرق والمغرب ، حتى إنهم قد يلقون أنفسهم في المهالك لمصلحة تعود على أوطانهم»^(١) .

ويضيف الطهطاوى «ومن الركوز في طباعهم حب الريا والسمة لا الكبر والحقمد.. طباعهم الغالبة وفاء العهد ، وعدم الغدر ، وقلة الخيانة .. ومن طباعهم الغالبة الصدق .. ويعتنون كثيرا بالمروءة الإنسانية ، ومن خصالهم أيضا صرف المال في حظوظ النفس والشهوات الشيطانية واللهو واللعب ، فإنهم مسرفون غاية السرف ، ثم إن الرجال عندهم عبيد النساء ، وتحت أمرهم سواء كنّ حَمَّالات أم لا»^(٢) .

وعند حديثه عن أمور الأسرة ، والأولاد وتربيتهم في باريس يشير الطهطاوى إلى أن «أولادهم دائما متأهلون للتعلم والتحصيل ، ولهم تربية عظيمة ، وهذا في الفرنسيين على الإطلاق والعادة أنهم لا يُرْجون أولادهم قبل تمام تعلمهم وهذا يكون غالبا في عشرين إلى خمس وعشرين سنة فقل منهم من كان في سن العشرين ولم يبلغ درجة التدريس أو تعلم صنعة التي يريد تعلمها ، غير أنه قد يمكث مدة طويلة ليتمكن من العلوم والفنون غاية التمكن وهذا السن في الغالب يظهر به براعة الإنسان وحسن طالعه»^(٣) .

أما الدين في باريس فكان له نصيب من الحديث عند رفاة الطهطاوى إذ قال : «إن أكثر أهل هذه المدينة إنما له من دين النصرانية الاسم فقط، حيث لا يتبع

(١) الطهطاوى ، تخلص الإبريز ، ص ٧٧ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٧٨ - ٧٩ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٩٢ .

دينه ولا غيره له عليه ، بل هو من الفرق المحسنة والمقبحة بالعقل ، أو فرقة من الإباحيين الذين يقولون إن كل عمل يأذن فيه العقل صواب . ويضيف في هذا الأمر قوله : «إن كثيرا من الفرنسيات خصوصا سكان باريس ليسوا نصارى إلا بالاسم فقط لا يعتقدون اعتقادات دينهم ، ولا يتعبدون بعبادات النصرانية ، بل هم في أعمالهم لا يتبعون إلا أهواءهم ، تشغلهم أمور الدنيا على ذكر الآخرة ، تراهم ما دامت حياتهم لا يهتمون إلا باكتساب الأموال بأى وجه كان ، وإذا حضرهم الموت ماتوا كالبهائم ، ولكن فيهم من يقيم على دين آباءه يؤمن بالله ، وهم طائفة لا تحصى من الرجال والنساء من العوام والخواص»^(١) .

أما من عادات أهل باريس في الأكل فيذكر الطهطاوى ذلك . ويقول : « وعادة الفرنسيات الأكل في طباق كالتباق العجمية أو الصينية لا في آنية النحاس أبدا ، ويضعون على السفرة دائما قدام كل إنسان شوكة وسكينا وملعقة ، والشوكة والملعقة من الفضة ، ويرون أن من النظافة أو الشلينة أن لا يمس الإنسان الشئ بيده ، وكل إنسان له طبق قدامه ، بل وكل طعام له طبق .. وبالجملة فأداب سفرتهم ، وترتيبها عظيم جدا ، وابتداء المائدة عندهم الشورية ، واختتامها الحلويات والفاكهة ، والغالب في الشراب عندهم النبيذ على الأكل بدل الماء ، وفي الغالب خصوصا لكبار الناس ، يشرب من النبيذ قدر لا يسكر به أبدا»^(٢) .

ووصف الطهطاوى طريقة الأكل ، إذ قال : « فلا يأكل الإنسان بيده أصلا ، ولا بشوكة غيره ، أو سكينته أو يشرب من قدهه أبدا ، يزعمون أن هذا أنظف وأسلم عافية»^(٣) .

أما طعامهم ، فلم يعجب الطهطاوى إذ قال : « فطعامهم على الإطلاق عديم اللذة ، ولا حلاوة صادقة في فواكه هذه المدينة إلا في الخوخ»^(٤) .

(١) الطهطاوى ، تخلص الإبريز ، ص ٣٢ - ١٨٦ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٢٨ - ١٢٩ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٥١ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ١٣٠ .

وكان للمرأة نصيب من كلام ووصف الطهطاوى لأهل باريس ، فيذكر أن «عادة نساء هذه البلاد كشف الوجه والرأس ، والنحر ، وما تحته والقفا وما تحته ، واليدين إلى قرب المنكبين»^(١) . ويضيف كذلك قوله : « ونساء الفرنساوية بارعات الجمال واللطافة ، حسان المسيرة ، والملاطفة ، يترجن دائما بالزينة ويختلطن مع الرجال في المتزهات ، وربما حدث التعارف بينهن وبين بعض الرجال في تلك المحال ، سواء الأحرار وغيرهن خصوصا يوم الأحد الذى هو عيد النصرى ، ويوم بطالتهم ويوم الاثنين في البارات والمراقص .. ومما قيل : إن باريس جنة النساء .. وذلك أن النساء بما منعمات سواء بمالهن أم بجمالهن ، وأما الرجال فإنهم بين هؤلاء وهؤلاء ، عبيد النساء، فإن الإنسان يحرم نفسه ويتره عشيقته»^(٢) .

وحول عمل المرأة ، فإن رفاة الطهطاوى يصف نساء « باريز » بقوله : « فهن كالرجال في جميع الأمور»^(٣) .

ومن الأمور التي انتقد فيها رفاة الطهطاوى المرأة في باريس والمجتمع الفرنسى ما نصه « ومن خصائلهم الرديئة قلة عفاف كثير من نسائهم .. وعدم غيرة رجالهم فيما يكون عند الإسلام من الغيرة .. وبالجملة فهذه المدينة (باريس) كباقي مدن فرنسا ، وبلاد الإفرنج العظيمة مشحونة بكثير من الفواحش والبدع والضلالات ، وإن كانت مدينة باريس من أحكم سائر بلاد الدنيا ، وديار العلوم البرانية»^(٤) .

أما أحمد فارس الشدياق فقد وصف المجتمع الأوروبى فى كتب رحلاته الموسومة بـ « الواسطة فى معرفة أحوال مالطة » و « الساق على الساق فى ما هو الفاريق » و « كشف المحببا عن فنون أوروبا » . واللافت للنظر أنه انتقد المجتمع الأوروبى انتقادا شديدا مركزا على مساوئه أكثر من غيره من الرحالة العرب الذين زاروا أوروبا آنذاك وسجلوا ملاحظاتهم عن المجتمع الأوروبى .

(١) الطهطاوى ، تخلص الإبريز ، ص ٥٣ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٨٣ - ٨٣ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٢٥ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٨١ .

وحول الزواج في المجتمع الإنجليزي ، قال الشدياق منتقدا الغاية التي تدفعهم إلى ذلك : « أليس من العار على الرجال في هذه الأرض أرض العلوم والصنائع والتمدن والتحضر أنهم لا يتزوجون عن حب بل عن طمع في زيادة المال ، فإن من كان دخله مثلا مائة دينار في كل يوم يريد أن يتزوج من دخلها مائة دينار أيضا تماما ، ولو كان تسعة وتسعين لم يصح ولذلك فكثيرا ما ترى شابا جميلا قد تزوج نصف شوهاء ، وهيهات ، فإن الرجال هنا أكثرهم مصاييف أى لا يتزوجون إلا إذا دخلوا في حيز الكهول ، فيقضون شبابهم في السفاح. ومن حد الثلاثين إلى الأربعين في البحث عنم عندها جدة وغنى، وتبقى الجميلة الفقيرة كاسدة وما عليهم من الإضافة من عار»^(١).

وأبرز الشدياق بعض مساوئ مجتمع لندن ، قال : « ألا ترى إلى هؤلاء ، الألوف من البنات اللاتي يجرين في أسواق لندن ، وجميع المدن العامرة ، بأخلاق من الثياب ، كيف يتهاقن على الرائح والغادى رجاء أن ينلن ما يتقوتن به ويتجملن به من الثياب ، ولاسيما هؤلاء النواشئ اللاتي لم يبلغن بعد من العمر خمس عشرة سنة ، فهذا لعمري الاحتجان بعينه فكيف يعييون علينا هذه في بلادنا ، وهى مستعملة عندنا على وجه الخلال ، وعندهم بالحرام ، فلو كن مكفيات المونة لما فعلن ذلك لأن البنت في هذا الحد من السن لا تكرر إلى الرجل ، ولا تضيع إلى البغال ، ولاسيما في البلاد الباردة ، ولسلم من كيدهن ، وتمافتهن خشعا إلى المال إناس كثيرون جلب عليهم شرهم إليهن مضار كثيرة ، وما عدا ذلك فإن هؤلاء البنات الحسان لو كانت الدولة وأهل الكنيسة يعنون بتجهيزهن بما يقدرون على الزواج الشرعى بعد تربيتهن وتهديبهن ، لكن يلدن الأولاد الصباح فيزيّن المملكة بأثمار أرحامهن»^(٢).

وعند كلام الشدياق عن عادات أهل مالطة في الزواج والأوروبيين عموما قال : « فهو أن يعاشر الرجل المرأة قبل أن يتزوجها مدة طويلة وربما أقام على ذلك ثلاث

(١) الشدياق ، أحمد فارس ، الساق على الساق في ما هو الفاريق ، قدم له وعلق عليه ، الشيخ

نسيب وهيبة الخازن ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت (د.ت) ، ص ٥٩٢ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٥٩٣ .

سنين فأكثر .. ولا يخفى أن النساء في بلاد الإفرنج هن اللواتي يمهرن الرجال ، فالأغنياء من المالمطين يعطون الزوج نحو مائتي ليرة ، والذين هم من الوسط ، يؤثثون له منزله من فرش وكراس وموائد وآلات الطبخ ، وينقدونه شيئا من الدراهم ، والفلاحون يعطونه دجاجا وبيضا ونحو ذلك، وعلى الزوج أن يهادى حمها بأحذية ، ويضيف : « وأهل مالطة أشد الخلق تهافتا على الزواج فإن الرجل منهم ليتزوج وكسبه في اليوم قرشان ، وهما لا يشبعانه خبزاً وإداما ، وإنما يثق بأن زوجته تساعد على الشغل وتكسب مثله .

ويصف الشدياق أخلاق المرأة المالمطية والإنجليزية فيقول : « وآفة نسائهم حسن الخلق دون حسن الخلق ، فإن المرأة تجرى وراء من به صباحة دون مبالاة بالعواقب فلا يهتمها كون الرجل فقيراً أو جاهلاً أو شريراً ، غير أن النساء هنا لا يجترمن أزواجهن ، فكثيراً ما تعارض المرأة زوجها وتخطئه وتسفهه بحضرة الناس ، وكلهن إذا تكلمن يرفعن أصواتهن إلى حد يبقى عنده الغريب مبهوراً ، ويرجع كل هذا في أنهن تخلقن بأخلاق نساء الإنجليز »^(١) .

ووصف الشدياق سلوك المرأة في مالطة عندما تكون حاملاً ، إذ قال : « ومتى كانت إحدى نساء مالطة حاملاً مشت الخيلاء ، ورفعت بطنها ليراها كل من مرّ بها ، ومتى أبصرت ذا شوهة ، رسمت الصليب على بطنها تعوداً من سريان الشوهة إلى الجنين ، وإذا شمت في الطريق رائحة طبيخ وتوخت عليه بعثت تستهدى منه » . وحول حلى النساء في مالطة يقول : « أما حلى النساء فالذهب غالباً للأغنياء والفضة للفقراء »^(٢) .

وعقد الشدياق فصلاً في كتابه الواسطة عن عادات المالمطين وأحوالهم وأخلاقهم وأطوارهم وحول لباس نساء أهل مالطة قال : « عادة أهل مالطة المتشيعين في اللباس

(١) الشدياق ، الواسطة ، ص ٦٠ - ٦١ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٥٤ - ٥٥ .

كعادة الإفرنج إلا أن نساءهم يلبسن وشاحا من الحرير الأسود وعلى رؤوسهن غطاء منه أيضا من دون برنيطة . أما النساء فإن من كان لها حذاء لا تلبسه إلا إذا جاءت المدينة وهي معجبة به حتى إذا خرجت منها تأبطته»^(١) .

وتكلم الشدياق عن « الموضة » وأثرها في المجتمعات الأوروبية آنذاك وبخاصة في الأرياء فيقول : « فأما تغيير الزى عندهم فإنه يقضى بمصاريف حديثة غير ضرورية ، ومنشأ هذا التغيير يكون في باريس ، فتطبع صورته على أوراق وترسل إلى جميع البلاد، وهذا دأب الناس من أنهم إذا رغبوا عن رذيلة أقبلوا على غيرها»^(٢) .

ولقد استغرب الشدياق بعض عادات أهل مالطة والإفرنج في الأكل ، في كونهم يطبخون الدم ، يأكلون المخنوق ، فقال : « وعامة المالطين يطبخون الدم ويستبقون على أكله ، وكنا إذا أردنا أن نذبح دجاجة أخذ الذابح دمها وهو لنا من الشاكرين ، وهم وجميع الإفرنج يأكلون السلاحف البحرية وحيوانات أخرى مما نتقزز نحن منه وقد بلغنى أن من المالطين من إذا فجع بشيء فجأة أكل فأرا أو ضفدعا لإزالة الدهشة، وأهل مالطة مثل غيرهم من الإفرنج في كونهم يأكلون المخنوق ، وزادوا عليهم في أكلهم الميتة من الدجاج ونحوها»^(٣) .

ووصف الشدياق أهل مالطة عندما يكونون ضيوفا على غيرهم ، إذ قال : « وإذا دعوت أحدا منهم إلى مأدبة لم يكن منه خلال التهامه ما بين يديه إلا الثناء على نفسه بأنه قليل الأكل ، وعلى ذلك قولي :

لنأتم إذا زرئهم في بيوتهم كرام إذا زاروك ما أمكن اللّحس
ولو وسعت أفواههم غير ما بها لكان لكل بين أنيابه فاس

وكلهم يأكلون الثوم والبصل نيئا فلاتزال رائحة أفواههم منتشرة»^(٤) .

(١) الشدياق ، الوساطة ، ص ٥٣ ، وانظر : فهيم ، أدب الرحلات ، ص ٢٠٠ .

(٢) الشدياق ، الوساطة ، ص ٥٥ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٥٧ - ٥٨ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٥٨ .

انتقد الشدياق أهل القرى في كل من مالطة ، ولندن ، لبعض عاداتهم الغربية في نظره ولجلههم ، فقال عن رجال مالطة : « أما أهل القرى فإن الرجال منهم يثقبون أذانهم ويتقرطون بأقراط من الذهب ويرخون سوائف مجمدة من أفوادهم .. وهاتان صفتان من صفات الإناث ، ويلبسون طرايش مختلفة الألوان مسدلة على أكاتفهم ، ويمشون حفاة ، وجميع الأعيان في مالطة من دون أردية أدبارهم ، خلافا لعادة الإفرنج »^(١) .

أما وصف الشدياق لمجتمع الفلاحين في بلاد الإنجليز بالجهل وبعدهم عن العلم فكان ذلك ما نصه : « ومن أين يأتيهم العلم وهم ملازمون للكد والتربح ، وليس عندهم مدارس ، وقد كنت أظن أنهم جميعا يحسنون القراءة والكتابة ، فإذا هم لا يحسنون السنطق بلغتهم ، فيأني أقرأ في الكتاب شيئا وأسمعه منهم مخالفا لحقيقة استعماله، وناهيك أن أكثرهم لا يعرف اسم بلادنا ولا جنسنا ، وقد قيل لأحدهم مرة أن الملك أمر بتسفير خيل في سفن لحرب العدو ، فقال : « إني أعجب كيف يقاتل الناس في البحر على الخيل . وكأني بهم لجهلهم يحسبون أن سكان الأرض بأسرهم دوغم ، أو يظنون أن الرجال في غير البلاد يبيعون نساءهم أو يأكلونهم أكلا ، أو أنهم يتقوتون بالجذور والبقول »^(٢) .

وذكر الشدياق أن مجتمع لندن من الناس لا يتزاورون ، وأن الجار لا يكاد يعرف جاره ، فقال : « ومن طبعهم أنهم لا يتزاورون ولا يسهر بعضهم عند بعض ، وكيف يسهرون وهم إنما يرقدون في التاسعة ويقومون صباحا في الرابعة ، كل ذلك حتى يأكلوا الفقع ، ويشربوا الفقع أو ربما أقام الرجل سنين ولا يعرف جاره وكذا أهل المدن »^(٣) .

وأنتكر الشدياق على المجتمع الإنجليزى بعض الأمور منها : « ومن منكر عاداتهم التي لا يمكن أن يحولوا عنها مع علمهم بأن جميع سكان أوروبا قد خالفوهم فيها

(١) الشدياق ، الواسطة ، ص ٥٣ - ٥٤ .

(٢) الشدياق ، الساق ، ص ٥٩٦ .

(٣) الشدياق ، كشف المخبا ، ص ١١٩ - ١٣٠ .

حلقهم لحاهم وشواربهم حتى إن عساكرهم لم تتحلّ بما .. فليت شعري كيف يرى وجه الجندي مخفوفاً منتوفاً كوجه المرأة ثم ليت شعري أى حُسن للشباب من الشوارب ، وأى حلية وفضل وكمال للشيخ أكثر من اللحية ؟

لعمري أن الشيخ بلا لحية وشوارب ، كالقرد أشبه بالقرد منه بالإنسان ، وأن الشاب بلا شوارب أشبه بالأنثى أو الخنثى منه بالرجل ، فإنها من علامات الرجولية ومما خلقه الله من المحاسن الطبيعية»^(١) .

وأنكر الشدياق على الإنجليز تربية أولادهم من حيث احترام الأولاد لوالديهم ، واحترام الشيخوخة في تلك البلاد . فقال : « ومن طبعهم أن لا يحترموا الشيخوخة من حيث هي شيخوخة ، ولا يهاب الأولاد والديهم كما يهابون عندنا ، ولا يحن الوالدون أيضاً على أولادهم كما عندنا ، ولذلك يقع كثيراً أن الأب يقتل أباه والولد يقتل والده وأمه ، وقد يحدث عندهم مضاجعة الأب ابنته ، ولكن لم يبلغني أن ولداً ضاجع أمه »^(٢) . وفي هذا إشارة واضحة إلى تفكك الأسرة وانحرافها كما يشير الشدياق .

وأشار الشدياق إلى بعض مظاهر الفساد والانحراف الأخرى في الأسرة الإنجليزية فقال : « وفي المدن الجامعة قد تتواطأ الأم وابنتها أو الأخت وأختها على الفحش والفساد » . ويضيف قوله : « فأما ما يحدث في بلاد الإنجليز من تسميم الأزواج أزواجهن والوالدين أولادهم وقتلهم ، وبالعكس ، ومن الانتحار ، وهو قتل الإنسان نفسه ، فأمر يهول وشرحه يطول »^(٣) .

ووصف الشدياق دور اللهو ، والغناء في كل مكان في لندن ، وباريس ، فقال : « فأما مواضع الرقص في لندن ، تفتتح كل ليلة ، وفي باريس ثلاث مرات في الجمعة لا غير ، وفي أكثر شوارع لندن تسمع الغناء من جوارٍ حسان ، وآلات الطرب ليلاً ونهاراً من دون غرامة ولا كلفة وليس كذلك في باريس إلا ما ندر ... أما غناؤهم

(١) الشدياق ، كشف المخبا ، ص ١٢٠ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٢٠ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٢٠ - ١٣٨ .

فلا يمكن لذي ذوق أن يطرب به ، وقد سمعت أغاني الفرنسيات وسائر الإفرنج فوجدت كثيرا منها ما يشجى لأن فيها ترجيعا ومدا ، فأما أغاني الإنجليز غير التي يتلقونها من الصلبيين والفرنساويين في الملاهي فكلها نبر ودرج «^(١) .

أما محمد بيرم الخامس التونسي في كتابه « صفوة الاعتبار » فقد وصف كذلك جانبا آخر من حياة المرأة الأوروبية وبخاصة في إيطاليا من حيث عملها ونشاطها وانخراطها في الحياة الاجتماعية، وانتقد سلوك المرأة الإيطالية فقال ما نصه : « والنسوة يخرجن مكشوفات الوجوه ويتعاطين من الأشغال مثل الرجال ، إلا الأشغال الشاقة ، والتعاليم للعلوم العالية ويصاحبن الأجانب عن قربتهن مثل الرجال ويقول : إن لكل شيء سببا فرؤية الذات والوجه مكشوف ، ثم المكالمة ، ثم المداعبة ، ثم الرقص في حالة شرب الخمر والطرب ثم المخاصرة كلها أسباب تدعو إلى الاتفاق طبعاً إلى ما وراءها بلا شك وإثبات ذلك بالوجود أقوى دليل حتى صار من عوائدهم أن البكارة هي التي لم تتزوج صاحبها من غير نظر إلى حقيقتها الأصلية . وهو يعلق على هذه بقوله :

« فكل بلاد حافظت على ذلك (حجاب المرأة وعدم خروجها) قلت فيها الفاحشة حتى كادت أن لا تقع ، وكل بلاد تساهلت في خروج النساء مكشوفات الوجوه بالبراقع الصفيقة وغط النظر عن مكالمة النسوة للرجال ، والمزاحمة في الأسواق، والجوامع فشئت فيها الفاحشة ، واتخذ رجالها هجيراً مسارتم التكلم بوقائعهم مع النساء سواء كانت بلدة إسلامية أم إفريقية »^(٢) .

وتعرض محمد بيرم الخامس التونسي إلى قضية الحياء عند المرأة في المجتمع الإيطالي، فقال : « وليس من عاداتهم الحياء مثل ما هو عندنا فترى البنت تخاطب زوجها وتفاكهه أمام والديها ، بل وتفعل مثل ذلك مع خطيبها ، وترقص مع الرجال أمامهم، هذا في البنات ، فكيف بالبنين ، وعندهم أن الغناء ليس بمعيب من النساء

(١) الشدياق ، كشف المحبا ، ص ١١٩ ، وانظر : بيرم التونسي ، صفوة الاعتبار ، ج ٤ ، ص ٥٦ .

(٢) بيرم التونسي ، صفوة الاعتبار ، ج ٣ ، ص ٤٦ - ٤٧ .

فترى أكبر الأعيان يحتفل في داره بدعوة عامة وتصير بنته أو زوجته أو إحدى النسوة الأعيان المدعوات تغني في ذلك الملأ وترقص مع الرجال على أشكال شتى من معانقة ومخاصرة وغيرها ، ولا تأثيم من ذلك بل يرونه إكراما بحيث إن المسلم الغيور يتفطر مما يرى»^(١) .

ووصف محمد بيرم سكان إيطاليا ونشاطهم اليومي بصورة عامة، فقال: « وسكان إيطاليا هم بيض أقوىاء مدغم أكثر أهلها مهذبون » ، وأما ذوو الترف والأحكام فإنهم يطلبون السهر ويفيقون من نومهم مؤخرا ولا يبتدون الأشغال إلا قبل الزوال بساعة أو ساعتين أو عند الزوال ، وكثيرا ما يدعون الأحياء بعضهم للبعض للسمر والرقص في منازلهم وتارة يستدعونهم للعشاء مع ذلك وتارة يقتصرون على تقديم فواكه ، وحلويات ، وخمور»^(٢) .

ووصف محمد بيرم كذلك ملابس أهل إيطاليا فقال : « ثم أهل البلد على قسمين.. الأول : الأعيان والوافدون وكلاهما لباسهم مثل لباس الأوروبوين . والثاني: بقية الأهالي ومثلهم بقية سكان البوادي والقرى في الجزيرة يلبسون جلود الغنم ، بصوفها . فالصوف مما يلي البدن ، والجلد من أعلى ، وهيئة اللبس هي صدرية ، ومنتان ، وسراويل نحو السراويل التونسية لكن يجعلون على الساق ألبسة مربوطة ، والسعال خشنة ذات مسامير كبيرة ، وعلى رؤوسهم عرارق من الصوف أو فلانس من الصوف المنسوج طوال مدلاة على أكتافهم ، والنسوة يلبسن قريبا من نسوة أوروبا لكن على شكل غير نضر ، وفي أرجل أغلبهن قباقيب من خشب»^(٣) .

أما الأكل في إيطاليا فذكر محمد بيرم التونسي ذلك فقال : « والأكل رخيص هناك » ولفت انتباهه هناك وبخاصة في المطاعم أن هناك « بطاقة بشكل لطيف مكتوب بها ألوان الطعام الحاضر لتلك الأكلة حتى تأخذ مما تشتهي » . ثم قال : « كل صحن حوله ملعقة وشوكة وسكين . وبعد الفراغ من كل لون يبذل

(١) بيرم التونسي ، صفوة الاعتبار ، ج ٣ ، ص ٤٧ .

(٢) المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٤٦ .

(٣) بيرم التونسي ، صفوة الاعتبار ، ج ٣ ، ص ٤ - ٥ .

الصحن والسكين والملقعة بغيرها نظيفة ... وفي وسط المائدة أوان بالزهور بحيث إنه في غاية المنظر الحسن والنظافة ... وطعامهم له أنواع شتى أحسنها أنواع المشوى ... ولهم كتب مؤلفة في تركيب الأكل والطبخ»^(١) .

أما محمد عمر الباجورى الذى طاف أوروبا في عام ١٨٨٩ فقد أعطى صورة مشرقة للحياة الاجتماعية في أوروبا ، القائمة على الاستقرار والأمن لعموم الناس مما يساعدهم على التقدم والحفاظ على ممتلكاتهم وأعطى الباجورى مثالا على ذلك القرى التى هى خارج مدينة فينيسيا بإيطاليا فقال : « وكنا نرى القرية الصغيرة وسط المزارع مؤلفة من نحو ١٠ أحياء فسألنا أهل تلك البلاد : أفلا يكون صغر القرية سببا لسطو اللصوص عليها فقيل لنا إنه لا يوجد فى القرى لصوص بل ذلك يكون فى المدن لسرقة النقدية والمصاغ مثلا ، وعلى الغالب لا يتبعون إلا الغريب ، وأما الحيوان فلا يُسرق فكان هذا القول فيه لنا فائدتان .. الأولى : أننا عرفنا إنه لا يوجد سطو فى القرى الثانية : أننا أخذنا حذرنا فى المدن من اللصوص حيث إننا أغراب ظاهرون لكل الناس»^(٢) .

ووصف الباجورى « نساء باريز » كغيره من الرحالة ، فقال : « نساء باريز خصوصا وأوروبا عموما فى المعارف كالرجال فيشاركنهم فى علوم كثيرة كالجغرافيا والتاريخ والهندسة والحساب والكتابة والقراءة والفلسفة إلى غير ذلك .. وأما فى الأعمال فيزدن على الرجال فترى الواحدة منهن ترأس محلا (كما يرأس الرجل) كقهوة أو حمام أو لوكاندة أو محل تجارة وتدبر أمره على أحسن ما يكون ، وتفرد المرأة بتدبير المنزل وترتيبه ، وتربية الأولاد تربية تناسب حال الزمان والمكان وتعمل بيدها ما لا يعمله الرجل كخياطة وطرارة وتنتلا وركامو وغير ذلك»^(٣) .

(١) بيم التونسي ، صفوة الاعتبار ، ج ٣ ، ص ٥ ، ٥٩ .

(٢) الباجورى ، الدرر البهية ، ص ١٧ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٣٢ ، ٣٤ ، ٣٥ .

وقال الباجوري : « كل ما ذكرناه في نساء باريز ، ورجالها يعتبر عاما في نساء أهل أوروبا بأجمعهم ، بحيث لا يتميز فيهم ناس عن آخرين فكان مناديا جمعهم ونادى عليهم بالاتحاد والمساواة في معرفة الآداب العمومية والقراءة والكتابة والدأب في الأعمال والجهد في تحصيل المعاش بدون فتور ولا كسل ، وأن لا يقتصر واحد منهم على معرفة صناعة واحدة بل لا بد له من صناعات بحيث لو عجز عن صناعة لسبب ما يمكنه أن يستعمل الأخرى في معيشته ... ومن طباعهم الولوع برؤية الأشياء والبحث عن أسبابها واعتبار قيمة العلوم والفنون لما علموا أن التقدم والسعادة لا يكونان إلا بمما مع لطف المعاشرة ولين الجانب وحسن المعاملة ورعاية الحقوق ونسبذ الجور ، وإبعاد الشر وعدم الكذب ، وخلف الوعد ، والخيانة في المعاملات .. غالبا هذه أوصاف أهل أوروبا نساء ورجالا »^(١) .

أما ملابس النساء فقال الباجوري : « وأما ملابسهن فهي مقبولة مناسبة لأحوال بلادهن من البرد مع كونها لا تخلو من الزينة والزخرفة والإتقان وحسن الشكل » .

كما وصف الجمال عندهن بقوله : « وأما في الجمال فعلى الغالب لهن فيه درجة مناسبة ومن لم تكن جميلة بمخلقتها تصنعن جمالا فلا تخرج من بيتها إلا أن بعد تعمل في نفسها عملا بقدر إمكانها تظن أنها بعد ذلك تعجب الرجال حتى لو كانت عجوزا ، ولن يصلح العطار ما أفسد الدهر »^(٢) .

وأشار الباجوري إلى جملة من عادتهن ، وطبائعهن ، ودرجة عفتهم ، فقال : «ومن عادتهن كشف الوجه ، والرقبة ، والكفين ، فيتمكن الإنسان بذلك من معرفة الجميلة من غيرها ، وأما طبائعهن ففيها رقة ولطف وبشاشة لا سيما للغريب ، متى عرفته الواحدة لا تكاد تنساه ، ولا تفارقه وتعمل له من المساعدة كل ما قدرت عليه... وأما عفتهم فتناسب خلطة النساء بالرجال في الخارج والداخل ورقة طباعهن مع وجود الميل الغريزي والشهوى الطبيعية في الجنسين عند اجتماعهما فكثيرا ما يعشق الرجل امرأة ، ويهجر زوجته من أجلها فقد ثبت في الإحصائيات التي

(١) الباجوري ، الدرر البهية ، ص ٣٦ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٣٢ .

عملت عندهم أن عدد النساء المهجورات من أزواجهن خمسة وتسعون بالمئة ، وعدد الزناة واحد وسبعون بالمئة ، فلا شك أن مثل هذه الأحوال مما يوجب الفساد بكثرة خصوصاً وعندهم الزواج نوعان : زواج شرعى ، وزواج مدنى . أما الأول : فهو ما حصل رسمياً في الكنيسة أو الحكومة بعلم الناس ، وأما الثانى : فهو باتفاق الرجل مع امرأة خالية من الأزواج على أنما تعيش معه ولا تذهب إلى غيره ، وأما درجتهم عند الرجال فهى فى المترلة الأولى والدرجة القصوى ، فلهن من الاعتبار ما لا يساويهن فيه الرجال ، فترى الواحد إذا قابل امرأة مع زوجها أو أبيها ، لا بد أن يسلم عليها أولاً ثم على الرجال ثانياً ، وإن فعل غير ذلك عدوه غير متمدن»^(١) .

أما الأكل فقد وصفه الباجورى كغيره من الرحالة ، فركز أساساً على « أن الأكل عندهم لا يكون بالأيدى مباشرة بل بواسطة الشوكة والسكين والملعقة ، ولذا تراهم لا يغسلون أيديهم من الأكل»^(٢) .

وتعرض الباجورى إلى وصف أخلاق أهل مدينة (استوقهولم) ومملكة السويد فأشاد بهم أيما إشادة فقال : « أخلاق أهل مملكة السويد عموماً ومدينة استوقهولم خصوصاً فى غاية الاعتدال ، ومعرفة مقادير الناس وإعطاء كل ما يليق به من التشريف والاعتبار والإكرام ، وعندهم الغرباء فى مترلة عالية ، ودرجة رفيعة ، وأهمية كبرى فتراهم يعطفون عليهم عطف الأهل على أهليهم من حسن المعاشرة ، ويوافقونهم كل الموافقة حتى يكاد الإنسان ينسى أهله بما يراه منهم من جميل الشيم وحسن العادات ، ولهم مروءة واهتمام بهم كما يهتمون بأنفسهم ، ومن أخلاقهم العالية ، وأوصافهم المقبولة الأمانة التى لا يساويهم فيها أحد تقريباً ، بل هى عندهم فى رتبة لا تضاهى ، ومكانة لا تسامى»^(٣) .

(١) الباجورى ، الدرر البهية ، ص ٣٢ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٣٤ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٧٤ .

أما على بن سالم الورداني التونسي الذي زار إسبانيا في أيلول من عام ١٨٨٧ م ، فوصف كرم ويخل أهالي إسبانيا إذ قال : « إن أهالي جنوب إسبانيا كغرناطة وبلنسية وغيرها إذا دخل عليهم الضيف وهم يأكلون يعرضونه إلى الطعام كعادات العرب بخلاف سكان شمال إسبانيا فإنهم عاملون بقول الشاعر :

قومٌ إذا أكلوا أخفوا كلامهم واستوثقوا برتاج الباب والدار^(١) .

كما وصف على الورداني التونسي مجتمع مدينة مدريد وصفا طيبا منتقدا سلوك بعض شرائحه الفقيرة إذ قال : أما أهاليها فعلى غاية من اللطف والبشاشة مع الأجانب إلا أن الفقراء فيها كثيرون جدا وإذا وجدوا أجنبيا أحاطوا به وربما منعه من المرور ، وحالتهم سيئة جدا ومن الغريب أن الأوروبيين يعيرون علينا لوجود السُّؤال في بلادنا والشحاذون عندهم أشد نكبة ، وأبرد قلبا مما هم عليه عندنا^(٢) .

وأبدي على بن سالم الورداني التونسي استغرابه من سلوك النساء العاملات في البيوت بعد إتمامهن أعمالهن في إسبانيا إذ قال : « إن النساء المستخدمات بعد إتمام أشغالهن يخرجن من البيوت فيقفن عند أبوابها يستعرضن بأنفسهن للمارين . فإذا راودهن القاصد اتفقن معه وذهبن به إلى حيث الهوى والموبقات وأكثر ما تكون هذه الحالة أمام دور الأغنياء والأكابر ولا حرج عليهن في ذلك مطلقا^(٣) .

وتناول أحمد زكي في كتاب رحلته الموسوم بـ (السفر إلى المؤتمر) ١٨٩٣ م جملة من هذه المواضيع فقد وصف متناقضات عادات المجتمع الإنجليزي في (لوندرة) (أى لندن) فقال: « وفي يوم الأحد يكثر السكر والسرقة أيضا لأن الإنجليز لا يعرفون الوسط فإن بلادهم بلاد التناقض جمعت الأطراف ، فإما التناهي في الغنى وإما التناهي في الفقر ، وإما التناهي في الفضيلة والمعارف ، وإما التناهي في الرذيلة والفجور، وإما

(١) على بن سالم الورداني التونسي، الرحلة الأندلسية (١٩ سبتمبر ١٨٨٧ م) تحقيق ودراسة عبد الحكيم القفصي، مجلة أوراق عدد ٥ - ٦، مدريد، ١٩٨٢ - ١٩٨٣ (ص ١١٥ - ١٣٠)، ص ١٢٨ .

(٢) المصدر نفسه، ص ١٢٠ .

(٣) المصدر نفسه، ص ١٢٨ - ١٢٩ .

التناهي في العمل وإما التناهي في الكسل ، إلى غير ذلك من الأطراف حتى إن المدينة إما أن تكون غاصة بالجماهير أو تكون خلوا من العالم بالمرّة (في يوم الأحد) وهكذا»^(١) .

وعلق أحمد زكى على الملابس الأوروبية ، ويرى عدم ملاءمتها لنا في بلاد الشرق ، هذا فضلا عن المساوي التي تترتب على اتخاذ هذه الملابس في بلادنا مثل «إماتة كثير من صنائعنا وصناعتنا ، وإحياء صناعات الإفرنج السريعة العطب ، ومساعدة التجارة الأجنبية على استتراف ما بقى لنا من قليل الثروة»^(٢) .

أما المرأة في باريس فلأحمد زكى فيها رأى آخر ، فقال : «أرسلوا إلينا مثلا تناقلته الأفسواه وهو (إن ما تريده المرأة يريد الله) لذلك كان لها عندهم الكلمة النافذة والأمر المطاع فلا يقدم الرجل منهم على أمر لا ترضاه زوجته ، ومتى أقدمت هي على عمل أو تعلقت به مشيئتها وجب عليه الرضى به والإقرار بوجوبه ، وأن لا مندوحة عنه وهم يبالغون في إكرام المرأة والتأدب في حقها (ولو ظاهرا) بما يفوق الوصف ، وفي تثقيف عقلها بجميع أنواع العلوم والمعارف (حتى لا يقدم إليها إلا فحول الرجال) ، ولذلك نبغ منهن الكاتبات والمحركات والشاعرات والخطيبات والمصورات والمشخصات والمحاميات والطبيبات والمخترعات في كل أمر ذى بال أو غير ذى بال»^(٣) .

ويعطى أحمد زكى رأيه في حرية المرأة في باريس فيقول : « إن من أهل المذهب القائل بعدم إطلاق الحرية للنساء إلى هذه الدرجة التي تجاوزت الاعتدال إلى التطرف في الإفراط ، فإن المرأة بعد كل تعليم وتهذيب أراها ضعيفة ميالة أكثر من الرجل لداعى الشهوات ، والتفانى في الملاذ ، فالواجب أن تكون الحرية لمن كالملاح في

(١) زكى ، السفر إلى المؤتمر ، ص ١١٢ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٤٥ - ٤٦ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٦١ .

الطعام، فإن التعليم ليس بقادر أن يترع منهن هذه الأميال ، وإن نزع منهن الخرافات التي ييشنها في عقول الأطفال^(١) .

كما تكلم عن خيانة المرأة الأوروبية لزوجها في كل من : ألمانيا ، وبلجيكا ، وإنجلترا ، والنمسا ، والدنمارك ، وإيطاليا ، وفرنسا ، وإسبانيا ، واليونان ، وقال : «فإذا سلمنا بما استنتجه الأستاذ الألماني كستتر (الذى نشر دراسته تلك عن الخيانة الزوجية) رأينا أن في التحجب وفيما يقرب منه فائدة عظيمة في صيانة الأعراض»^(٢) .

الخلاصة :

إن نظرة الرحالة العرب إلى الغرب في القرن التاسع عشر ، أظهرت أن هؤلاء الرحالة قد سبروا أغوار جميع مجالات الحياة في أوروبا من النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

ففى الجوانب السياسية : أكد هؤلاء الرحالة على بعض أسباب التقدم فى أوروبا بعامة يرجع إلى سيادة القانون الذى يضبط سلوك الحاكم والمحكوم ، هذا فضلا عن حرية التعبير ، والحريات الشخصية ، القائمة كلها على العدل والإنصاف . وفى الجوانب الاقتصادية وتقدمها : ركز هؤلاء الرحالة على أن تقدم العلوم النظرية والعلمية، كان وراءها العقل الأوروبي المنفتح، والمدقق فى كل شىء ، الذى لم يكن أسير التقليد، بل حاول معرفة أصل الشىء والاستدلال عليه ، ولذلك وصفوا كل ما شاهدوه من مظاهر التقدم الصناعى والعلمى فى أوروبا وبخاصة التركيز على أحدث المخترعات ، ووسائل الرفاهية التى توافرها تلك المخترعات وتشجيع القائمين عليها ، وتيسير سبل الوصول إلى نتائج فرضياتهم وأفكارهم الجديدة .

وبين الرحالة العرب أن من الأسباب الأساسية للتقدم فى أوروبا عموما حسن النظام والتنظيم، وسيادة الأمن ، والشركات والجمعيات التى شكلت هناك ما يعرف

(١) زكى ، السفر إلى المؤتمر ، ص ٦٥ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٦٥ - ٦٦ .

بدولة المؤسسات . أما في نظرهم إلى الحياة الاجتماعية : فقد وصف الرحالة العرب المجتمعات الغربية من خلال إعطاء صورتين أساسيتين حولها ، الأولى : إيجابية ، والثانية : سلبية .

ومن النواحي الإيجابية التي سجلوها عن المجتمعات الغربية ، الصدق والأمانة وتنظيم الوقت ، والعمل الدؤوب على مدار الساعة ، وأعطوا صفات إيجابية للمرأة الأوروبية منها : مساهمتها كالرجال في مباشرة أعمالها ونشاطها ، وقد لمسوا آثار ذلك بصورة عملية في كل مجالات الحياة والتقدم في أوروبا ، وبخاصة أنها على قدر كبير من الثقافة والتعليم ، وتحصيل الفنون ، هذا فضلا عن الحديث عن الاستقرار في المجتمع واحترام الناس بعضهم البعض وعدم التدخل في شؤون الغير ، والأمن على الممتلكات واحترام المواعيد .

أما النواحي السلبية التي سجلوها عن المجتمعات الغربية فكانت ترتبط بشكل أساسي بالفكر العربي الإسلامي ، والعادات الموروثة عندهم ، فنظروا إلى الغرب من حيث عاداته وطبائعه وأخلاقه ، على أنها لا تصلح للمجتمعات العربية ، ورأوا أن فيها خطرا كبيرا وعظيما على تركيب وتكوين المجتمع العربي وأخلاقه وعاداته .

ولقد وصفوا مساوئ المجتمعات الغربية من حيث : تفكك الأسرة ، وعدم التدبير ، وانتشار الفساد الأخلاقي والفاحشة بين نساء أوروبا ، ويرجع هؤلاء الرحالة أسباب ذلك إلى أنها تتصل بسفور المرأة واختلاطها بشكل كبير بمجتمع الرجال هناك ، نتيجة للحرية الزائدة في نظرهم التي منحت لنساء أوروبا .

وانتقد الرحالة العرب طعام الأوروبيين لأنهم يأكلون الميتة والحيوانات المخنوقة .. هذا فضلا عن انتقادهم لما يحدث هناك من الانتحار ، والقتل في داخل الأسرة الواحدة ، مظهرين التفكك الأسرى بصورة واضحة ، كما انتقدوا عدم معرفة الجيران بعضهم البعض ، ووصفوا المجتمع القروي البعيد عن المدينة بالجهل وعدم المعرفة بما يحيط بهم وبالمعالم ، لكونهم غير متعلمين ، هذا فضلا عن وصفهم الأوروبيين بأنهم يحبون الرياء ، وارتفاع الصيت ، وعدم استقرار المزاج .

وهكذا فقد لوحظ أن الرحالة العرب إلى الغرب لم يلاحظوا أى نقص عندهم تجاه هذه الحضارة المتفوقة ، لأنهم نظروا إليها على أساس أن هذا التقدم وهذا التفوق لم يكن بسبب ميزات خاصة موجودة في أهل أوروبا وحدهم بل نتيجة للجد والرغبة في التقدم ، وأكدوا على أن البلاد العربية قادرة على اللحاق بهذا الرقى ، بنفس الطريقة ، مع توفير الوسائل الضرورية الأساسية .. لذلك فإنهم آمنوا بنفع هذه الحضارة الغربية للبلاد العربية ، فحثوا بنى جنسهم على الأخذ بها ، ولكنهم نبهوهم إلى أن هناك مساوئ في الغرب عليهم تركها جانباً ، والابتعاد عنها ، لخطورها على المجتمع العربى الإسلامى وبنيتة الخاصة التى ينفرد بها عن غيره من أمم الأرض .

* * *

الهوامش

- (١) أبو لغد ، إبراهيم ، انفتاح العرب على الغرب ، مراجعة محمود السمرة ، مجلة العربية ، العدد ٦٩ ، آب ١٩٦٤ ، ص ١٣٦ ، انظر فهيم حسين ، أدب الرحلات ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ١٩٨٩ ، ص ٢٠٠ .
- (٢) الطهطاوى ، رفاعة ، تخلص الإبريزن وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، ط ١ ، القاهرة ، ١٩٥٨ م ص ٣ . ٩٩ .
- (٣) المصدر نفسه ، ص ١١٦ ، ١١٣ ، ١١٢ .

المصادر والمراجع

- ١ - الباجوري ، محمد عمر
الدرر البهية في الرحلة الأورباوية ، ١٨٩١ م .
- ٢ - بريم التونسي ، محمد الخامس
صفوة الاعتيار بمستودع الأمصار والأقطار ، ٥ . ج في ١ ، القاهرة ، ١٣١١ هـ .
- ٣ - التونسي ، خير الدين
أقوم المسالك إلى معرفة أحوال الممالك ، مطبعة الدولة ، بحاضرة تونس المحمية ، ١٢٨٤ هـ .
- ٤ - زكي ، أحمد
السفر إلى المؤتمر ، المطبعة الكبرى الأميرية ، بولاق ، ط ١ ، ١٣١١ هـ .
- ٥ - المؤلف نفسه
الذنيا في باريس ، ١٩٠٠ م .
- ٦ - سابا يارد ، نازك
الرحالون العرب وحضارة الغرب في النهضة العربية الحديثة، مؤسسة نوفل ، ط١ ، بيروت، ١٩٧٩ .
- ٧ - الشدياق ، أحمد فارس
الواسطة إلى معرفة أحوال مالطة ، مؤسسة ناصر للثقافة ، دار الوحدة ، ط١٢ ، ١٩٧٨ .
- ٨ - المؤلف نفسه
كشف المخيا عن فنون أوروبا ، مطبعة الدولة التونسية ، ١٢٨٣ هـ .
- ٩ - المؤلف نفسه
الساق على الساق في ما هو الفاريق ، قدم له وعلق عليه: الشيخ نسيب وهيبه الخازن ، منشورات مكتبة الحياة ، بيروت (د.ت) .
- ١٠ - الطهطاوي ، رفاعة
تخليص الإبريز في تلخيص باريز ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، القاهرة ، طبعة ١ ، ١٩٥٨ .

١١ - الفاسي ، أبو جمال محمد الظاهر

الرحلة الإبريزية إلى الديار الإنجليزية (١٢٨٦هـ / ١٨٦٠م) تحقيق : الأستاذ محمد الفاسي ،
رئيس جامعة محمد الخامس ، مطبعة جامعة محمد الخامس ، فاس ، ١٩٦٧م .

١٢ - فهميم ، حسين

أدب الرحلات ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، ١٩٨٩م .

١٣ - أبو لغد ، إبراهيم

انفتاح العرب على الغرب ، مراجعة: محمود السمرة ، مجلة العربي ، العدد ٦٩ آب ١٩٦٤ (ص
١٣٢-١٣٨) .

١٤ - الورداني ، علي بن سالم الورداني التونسي

الرحلة الأندلسية (١٩ سبتمبر ١٨٨٧م) تحقيق ودراسة : عبد الحكيم القفصي ، مجلة أوراق ،
عدد ٥ - ٦ مدريد (١٩٨٢ - ١٩٨٣) ، ص ١١٥ - ١٣٠ .

نشأة قطر وتطورها
حتى عام ١٨٦٨

الدكتور
يوسف إبراهيم العبد الله
قسم التاريخ - جامعة قطر

obseikan.com

نشأة قطر وتطورها

حتى عام ١٨٦٨

في البداية ينبغي الإشارة إلى أن تاريخ قطر منذ مطلع العصر الحديث ، وحتى أواسط القرن التاسع عشر ، قبل انفراد آل ثاني بالسلطة فيها و بروزها كإمارة مستقلة، كان جزءا من تاريخ منطقة الأحساء ، أو المنطقة الشرقية من شبه الجزيرة العربية، ومن ثم خضعت قطر لكل ما خضعت له هذه المنطقة من تطورات وأحداث، ويترتب على ذلك أن قطر - بل وبقية إمارات الخليج العربي - لم يكن لها تاريخ مستقل كوحدة سياسية خاصة ، وإنما كانت ، رغم تميزها الجغرافي ، داخلة ضمن إقليم الأحساء ، الذي كان يشكل الجزء الأكبر من إقليم ممتد على الساحل الغربي للخليج العربي ، يمتد من البصرة شمالا حتى عُمان جنوبا ، كما يطلق على هذا الإقليم اسم « بلاد البحرين» لفترة طويلة من الزمن مع بداية الفتح الإسلامي^(١) .

وربما لعدم وجود فاصل جغرافي واضح يفصل جزيرة قطر عن شبه الجزيرة العربية، فإنها مع جزر البحرين وساحل الأحساء ، كانت قطر تشكل جزءا متكاملًا من الكيان السياسي القائم حولها لفترات كثيرة ، وعموما ظلت المنطقة كلها تتبع مقر الخلافة الإسلامية ، سواء في الحجاز أم في الشام أم في بغداد ، إلى أن تمكن القرامطة من

(١) راجع ياقوت الحموي : معجم البلدان ، المجلد الثاني ، ط (١) القاهرة ١٩٠٦ ، ص ٧٢ .

تخريب عاصمتها « هجر » عندما استولوا عليها ، وبنوا مدينة « الأحساء » التي جعلوها عاصمة جديدة للمنطقة . ومن مدينة الأحساء اتخذ الإقليم اسمه فيما بعد .

وقد تتابع على حكم الأحساء كل من العيونيين وآل زامل الجبيري وآل مغاسم ، إلى أن جاء البرتغاليون فاحتلوها حوالي عام ١٥١٧ ، وظلوا يسيطرون عليها حتى جاء الأتراك العثمانيون وطردوهم منها في أواسط القرن السادس عشر ، ومنذ سيطر العثمانيون على المنطقة ، ارتبطت الأحساء مع شقيقتها القطيف بتاريخ سياسي واحد ، ثم انفصلت عنها جزيرة « أوال » التي استقلت باسم « البحرين »^(١) .

والمعروف أنه عندما وصل الأتراك العثمانيون إلى البصرة على الخليج العربي في موجة زحفهم لضم العالم العربي منذ أوائل القرن السادس عشر ، لم يستطيعوا أن يؤسسوا لهم قاعدة بحرية قوية في البصرة ، ويسيطروا من خلالها سيطرتهم على الخليج ، حيث لم تكن ملائمة لذلك آنذاك ، كما أنهم ووجهوا بالعصبيات القبلية البدوية ومشاكلها ، فضلا عن مواجهتهم للدولة الصفوية في إيران ، التي كانت تؤكد وجودها وطموحها في المنطقة ، ولذلك يجمع المؤرخون على أن الخليج العربي لم يشهد سيطرة عثمانية فعالة حتى الثلث الأخير من القرن التاسع عشر .

ومع ذلك استطاع العثمانيون غزو الأحساء والاستيلاء عليها خلال العقد الأخير من القرن السادس ، وعينوا عليها « فاتح باشا » أول وال عليها بعد إخضاع عشيرة « أجود بن زامل الجبيري » ، وبالرغم من ذلك فإن سلطة الأتراك في المنطقة كانت ضعيفة ، ثم ما لبثت أن انهارت نحو عام ١٦٧٠ على يد قبيلة آل حميد من بني خالد ، التي ظلت تناضل الأتراك نضالا مريرا طوال ثمانين عاما تقريبا ، تداول حكم الأحساء خلالها أربعة من الباشوات العثمانيين ، كان آخرهم « عمر باشا » الذي استسلم له « براك بن عرير » من آل حميد من بني خالد^(٢) .

(١) في سنة ٣١٧هـ / ٩٢٩م بنى أبو طاهر (من القرامطة) مدينة بجانب هجر سماها « الأحساء » وهي التي نمت وأصبحت قاعدة للبلاد . راجع محمد عرابي نخلة : تاريخ الأحساء السياسي ١٨١٨ - ١٩١٣ ، دار السلاسل بالكويت ١٩٨٠ ، ص ٢٥ - ٢٦ .

(٢) السيد رجب حراز : الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب ١٨٤٠ - ١٩٠٩ ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ١٩٧٠ ، ص ١٢٨ - ١٢٩ ؛ وأحمد أبو حاكم : تاريخ شرق شبه الجزيرة العربية في العصور الحديثة ، القاهرة ١٩٦٨ ، ص ٤٨ .

وهكذا انهار سلطان الأتراك في شرق شبه الجزيرة العربية منذ عام ١٦٧٠ ، لينفرد بنو خالد بحكم المنطقة ، حيث استطاعوا تأسيس سلطة قوية في إقليم الأحساء ، امتدت من حدود ولاية البصرة شمالا ، وضمت مناطق الكويت والأحساء وقطر والبحرين ، وبالرغم من ذلك فضل حكام بنى خالد إعلان ولائهم للدولة العثمانية من خلال محافظتهم على علاقة طيبة بولاية البصرة العثمانيين . وقد استمر هذا الوضع حتى أواخر القرن الثامن عشر ، عندما نجحت الدولة السعودية الأولى ، التي أسسها محمد ابن سعود ، مستندا إلى مبادئ الدعوة السلفية (الوهابية) ، في ضم الأحساء والقضاء على سلطة بنى خالد منذ عام ١٧٩٣ ، في الوقت الذي كانت الدولة العثمانية غارقة في مشاكلها في أوروبا والبلقان .

وبدا واضحا أن انصراف الدولة العثمانية عن الخليج أتاح الفرصة لحكومة الهند البريطانية ، لتبسط نفوذها على المنطقة ، في ظل غياب أية قوة محلية أو عربية مؤثرة ، باستثناء قوة القواسم الذين تصدت لهم السلطات البريطانية بقوة وحزم ، لذلك عندما فكرت الدولة العثمانية ، في أن تحوّل وجودها الاسمي في الخليج إلى وجود فعلى ، عسكري وسياسى ، منذ عام ١٨٦٩ ، وجدت أن بريطانيا قد سبقتها وثبتت أقدامها في الخليج وعلى سواحلها من خلال القوة العسكرية ، وبالمعاهدات التي قيدت بها شيوخ المنطقة تحت اسم إقرار السلم العام أو الهدنة البحرية ... إلخ ، كما أنها حصّنت وجودها باتفاقيات مقاومة « القرصنة » وتجارة الرقيق وتجارة السلاح وغير ذلك من الذرائع التي أياحت بها لنفسها التدخل في المنطقة وفرض هيمنتها عليها .

ويتفق المؤرخون على أنه لم تكن هناك إدارة عثمانية حقيقية للدولة العثمانية خارج ولاية البصرة ، حتى لقد أصبح الوجود العثماني على الساحل الغربي للخليج مجرد وجود اسمى لا تأثير له ، كما أن سيادة الدولة العثمانية الاسمية لم تتعد الكويت ، التي كانت تكتفى بمجرد رفع الراية العثمانية على قصر شيخها دونما سلطة حقيقية للدولة ، في الوقت الذي أصبح فيه الساحل الجنوبي للخليج العربي منطقة نفوذ بريطانية صرفة . أما البحرين فلم يمانع شيوخها من الارتباط بالدولة العثمانية كذريعة لمواجهة الأطماع

الإنجليزية أو الفارسية ، وعندما رفعوا راية الدولة أنزلها الإنجليز . أما قطر فلم تكن قد برزت ككيان سياسى مستقل مثلما حدث بعد ذلك عام ١٨٦٨ .

* * *

وقد خضعت شبه جزيرة قطر بطبيعة الحال لحكم بنى خالد حتى أواخر القرن الثامن عشر ، قبل أن يقضى السعوديون على سلطتهم ، ولم يكن بنو خالد يمارسون سلطة مباشرة على قطر وقبائلها ، وإنما كانوا يعتمدون على أصهارهم من أسرة «آل مُسلم» التى كانت تتخذ الحويلة مركزا لها آنذ ، فقد عهد إليهم أمير الأحساء بجمع الخراج السنوى من أهالى قطر لإرساله إلى الأحساء ، مما اقتضى قيامهم بتصريف شؤون قطر ، فاكسبوا بذلك نفوذا على الأهالى لفترة من الزمن^(١) . وإن لم يكن هذا النفوذ شاملا ، فالمعروف أن الشيوخ المحليين فى المناطق التى تخضع لسلطة بنى خالد كانوا يمارسون نوعا من الاستقلال الذاتى فى أعقاب وفاة سليمان بن محمد زعيم بنى خالد عام ١٧٥٢ .

ومنذ أواسط القرن الثامن عشر بدأ حكم بنى خالد للمنطقة يضعف ، وبدا عجزهم واضحا فى التصدى للقوة السعودية المكتسحة للمنطقة ، التى شهدت فى نفس الفترة تقريبا انتقال آل خليفة ، أحد فروع تجمع العتوب ، بعد ابتعادهم عن هذا التجمع القبلى، وهجرتهم للإقامة فى الزبارة على ساحل قطر الغربى منذ عام ١٧٦٦ .

وكانت قبائل العتوب والمعاضيد وغيرها من التجمعات القبلية قد هاجرت من أواسط شبه الجزيرة العربية ومن قلب نجد بين أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر بسبب القحط الشديد ، وبسبب تفشى الصراعات القبلية ، واتجهت نحو الساحل الغربى للخليج ، سعيا وراء الرزق الذى قد يأتى به الساحل ، فاستقر العتوب

(١) راجع : محمد شريف الشيبانى : إمارة قطر العربية ، دار الثقافة ، بيروت ١٩٦١ - ١٩٦٢ ، ص ٣٩

وإن كان كيبلى يرى أنه ليس ثمة ما يؤيد احتمال أن يكون بنو خالد شيوخ الأحساء قد مارسوا نوعا من السيطرة على آل مُسلم حتى منتصف القرن الثامن عشر ، راجع جون كيبلى : بريطانيا والخليج

١٧٩٥ - ١٨٧٠ ، ترجمة محمد أمين عبد الله ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٧٩ ، ص ٤٧ .

بفروعهم الثلاثة المعروفة (آل خليفة يقودهم الشيخ خليفة بن محمد ، وآل صباح يقودهم الشيخ سليمان بن أحمد ، ثم آل الجلاهمة يقودهم الشيخ جابر بن عتبة)^(١) في ساحل قطر عند الزبارة في ظل رعاية آل مُسَلَّم وضيافتهم ، وإذا كانوا قد وفدوا إلى الزبارة في أواخر القرن السابع عشر ، ثم هاجروا إلى الكويت عن طريق البحر حوالي عام ١٧١٦ ، فمعنى ذلك أنهم قضوا في الزبارة نحو نيف وعشرين عاما تقريبا . ويبدو أن القبائل الثلاث قد اختلفوا مع آل مُسَلَّم ، الذين أوجسوا منهم خيفة ، فضيقوا عليهم ، بل قد اشتبك الفريقان في معركة عند رأس التنورة انتصر فيها العتوب ، لكنهم اضطروا إلى أن يضربوا بسفنهم في الخليج حتى تجمعوا عند ساحل الكويت ليستقروا فيها نحو خمسين عاما (١٧١٦ - ١٧٦٦) .

وقد ازدهرت الكويت بفضل نشاط أهلها التجارى وبلغت درجة عالية من الرخاء، مما قاد في النهاية إلى اختلاف آل خليفة مع حلفائهم وإيثارهم المحجرة عن الكويت فاتجهوا بسفنهم نحو البحرين ولكنهم مُنعوا من التزول ، فاستأنفوا السير إلى الزبارة ونزلوا بها عام ١٧٦٦ ، وكانوا على خيرة بالمكان منذ هجرتهم الأولى إليه ، كما كانوا يدركون أهميته لموقعه التجارى ولقربه من مغاصات اللؤلؤ الغنية . وعند وصول آل خليفة إلى المنطقة لم يلقوا أية معارضة ، كما لم يحدث أى صدام بينهم وبين أهالى قطر لكثرة ترددهم على المنطقة ، ونجح شيخهم محمد بن خليفة في أن يجمع الناس حوله وذلك بإقراضهم المال مقابل شراء محصول اللؤلؤ ، كما اتجه إلى الإصهار إلى آل ابن على من قبائل قطر لتزاد روابط المودة معهم .. ولم ينظر آل مُسَلَّم إلى نجاح

(١) ذكرها فرانسيس واردن في ملاحظاته عن عرب العتوب في البحرين عام ١٨١٩ ، ولكن عباس الخصوصى ذكر أنه ليس بين زعماء آل صباح أحد بهذا الاسم وأن واردن اختلط عليه اسم «سليمان ابن محمد آل حميد» أمير بني خالد ، الذى كانت الكويت ضمن مناطق نفوذهم ، وأن أول زعيم برز من آل صباح هو الشيخ صباح بن جابر أول حاكم للكويت من العتوب ، راجع الخصوصى : دراسات في تاريخ الخليج العربى ، ج١ ، الكويت ، ص ١٠٢ - ١٠٣ ؛ وراجع كذلك : فائق طهوب : تاريخ البحرين السياسى ١٧٨٣ - ١٨٧٠ ، ذات السلاسل بالكويت ١٩٨٣ ، ص ٤٠ ؛ وكذلك يوسف القناعى : صفحات من تاريخ الكويت ، القاهرة ١٩٤٦ ، ص ٨ .

آل خليفة وتفوقهم التجارى بعين الرضا ، ورغم اعتراف آل خليفة بسلطة آل مُسلم باعتبارهم نوابا عن بنى خالد كما كانوا يدفعون نصيبهم من الخراج شأن القبائل القطرية ، إلا أن الشيخ محمد بن خليفة جعل يحصن نفسه فى الزبارة ، ويحصن المدينة ، التى بنى فيها قلعة « المرير » عام ١٧٦٨ ، استعدادا لحماية الزبارة إذا ما هاجمها آل مسلم .

وعندما نمت ثروة آل خليفة وقوى مركزهم ، خاصة وأن الزبارة شهدت ازدهارا تجاريا كبيرا بفضل نشاطهم وبسبب هجرة تجار البصرة الأثرياء إليها فرارا من احتلال الفرس لبلدهم (١٧٧٥ - ١٧٧٩) وكذلك ازدهار نشاط الغوص وتجارة اللؤلؤ ، وبسبب ذلك كله ونتيجة إحساس آل خليفة بالغنى والقوة بدأوا يتوقفون عن دفع حصتهم من الخراج ، وتحصنوا بقلعتهم التى اتخذوها فيما بعد نقطة الوثوب على البحرين^(١) .

ومن الملاحظ أن إقامة آل خليفة فى قطر لم تعد ميناء الزبارة . أما بقية شبه الجزيرة فكانت تقطنها مجموعات قبلية بعضها حضرى أهمها المعاضيد ، الذين تنتمى إليهم أسرة آل ثانى ، والبوعيين والسودان وآل بن على والقييسات والخليفات والبوكوارة والسلطة والمناعة والمهاندة ، فضلا عن الهولة ، والبعض الآخر بدوى مثل المناصير وبنى مرّة والهواجر والكعبان وبعض من النعيم وغيرهم .. وكانت معظم هذه القبائل تمارس نوعا من الحكم الخاص بها .. ويتركز معظمها فى البدع والوكرة والحويلة والفويرط وخور حسان^(٢) .

(١) جمال زكريا قاسم : الخليج العربى ، دراسة لتاريخ الإمارات العربية فى عصر التوسع الأوروبى الأول ، دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٨٥ ، ص ٤١٧ - ٤١٨ ؛ وحول إقامة محمد بن خليفة الكبير فى الزبارة راجع راشد بن فاضل البنعللى : مجموعة الفضائل فى فن النسب وتاريخ القبائل ، تحقيق حسن ابن محمد آل ثانى ، الدوحة ٢٠٠١ ، ص ٤٢ - ٤٤ .

(٢) شركة الزيت العربية الأمريكية ، عُمان والساحل الجنوبى للخليج الفارسى ، القاهرة ١٩٥٢ ، ص ٢٧٥ - ٢٨١ ؛ وكذلك جمال زكريا : المرجع السابق ، ص ٤١١ ؛ وكذلك :

لقد كانت عيون آل خليفة تتطلع إلى البحرين ، خاصة بعد أن تحولوا من مجتمع بدوى إلى مجتمع شبه رأسمالى ، وبات يشكل خطرا على حكام البحرين من الفرس ، الذين أثارهم ازدهار الزبارة ونشاط آل خليفة ، حتى لقد حاول حاكم البحرين «نصر آل مذكور» احتلال الزبارة بين عامى ١٧٧٧ ، ١٧٨١ لكنه فشل ، وبدا واضحا أن خصومه من آل خليفة صاروا أقوى وأهم باتوا يتطلعون إلى التوسع فى البحرين بعد أن رأوا أن الزبارة رغم ازدهارها ونموها لم تعد تكفى طموحهم الكبير ، كما أن توسعهم فى بر قطر سيقودهم إلى الصدام مع قبائل قطر وآل مُسلم وبني خالد بطبيعة الحال .. المهم أن سوء العلاقات بين آل خليفة وحكام البحرين ومحاولات هؤلاء إخضاع الزبارة، قد دفع بالفريقين إلى صراع حاسم^(١) .

واستطاع آل خليفة حشد معاونين لهم من عتوب آل صباح والجلahme ، وكذلك الحصول على معونة القبائل القطرية وعلى رأسها آل مُسلم من الحويلة وآل بن على من الفويرط والسودان وآل سليط من الدوحة ، والبوعيين من الوكرة والقبيسات من خور حسان والمناعة من أبو الظلوف والسادة من داخل قطر ، حسب رواية «لوريمر»، ليشارك هؤلاء جميعا برجالهم وسلاحهم فى فتح البحرين والقضاء على الحامية الفارسية فى المنامة بعد حصارها^(٢) .

وهكذا استطاع آل خليفة بمعونة حلفائهم السابقين والجدد الاستيلاء على جزر البحرين فى يوليو ١٧٨٣ ليستقروا فيها بشكل أساسى وليتخذوها مقرا لحكمهم ، محققين بذلك أحلامهم ، ومستقلين بهذه الجزر ، مبتعدين عن أخطار أى توسع سعودى محتمل يأتى من البر . وقد أثر الشيخ أحمد بن خليفة الذى قاد العملية والذى لُقِبَ « بالفاتح » أن يقضى سنواته التالية بين مملكاته فى الزبارة ، تاركا حكم

(١) فائق طهوب : المرجع السابق ، ص ٤٦ - ٤٧ .

(٢) لوريمر : دليل الخليج ، ترجمة الديوان الأميرى بدولة قطر ، الجزء الثالث ، الدوحة ١٩٧٥ ،

البحرين لولديه ، حتى انتقل مقر الأسرة جميعا إلى البحرين فثانيا بعد وفاة الفاتح عام ١٧٩٤^(١) .

وتحولت البحرين منذ ذلك التاريخ إلى إمارة عربية يحكمها فرع العتوب من آل خليفة، وكان أول شيخ منهم يحكم البحرين هو الشيخ أحمد بن محمد آل خليفة (١٧٨٣ - ١٧٩٤) كما أصبحت البحرين - لا الزبارة - هي مقر الأسرة الحاكمة . ولما كان فرع العتوب من آل صباح قد انفردوا بحكم الكويت ، فإن الفرع الآخر من الجلاهمة الذين كانوا يأملون في أن مشاركتهم في فتح البحرين ستعود عليهم بفوائد تتيح لهم بناء سلطة مستقرة ، لكنهم لم يكافأوا بما يليق بجهودهم ، بل لقد بدأوا يحسون أن بقية أهل البحرين سيئون معاملتهم ، لذلك اتجهوا بأشرعتهم ، تحت قيادة رحمة بن جابر ، صوب جزيرة خرج وبوشهر ، ثم ما يلبثوا أن عادوا إلى شبه جزيرة قطر ، حيث استقروا في خور حسان ، وسرعان ما بدأ رحمة في الانتقام من حلفاء الأمس ، ومنذ عام ١٨٠٩ بدأت عملياته البحرية واعتداءاته ضد سفن العتوب الآخرين وكذلك الإيرانيين ، وكانت هذه العمليات ، على ما في بعضها من طابع «القرصنة» ، تتخفى دائما تحت ستار الحرب المشروعة ، وإن ظل مسلكه تجاه السفن والراعايا البريطانيين يتسم بالحذر والدهاء .

وينبغي التأكيد على أن سلطة رحمة بن جابر لم تتعد خور حسان ، بل إنها لم تمتد إلى الزبارة التي كانت تقع إلى جوار مقره مباشرة ، ورغم أنه أثبت لنفسه مكانة ودورا واستطاع بواسطته إقامة علاقة وثيقة مع السعوديين حتى عاونهم في إخضاع قطر لسيادتهم ، كما عاون مبعوثهم في حكم المنطقة حتى الزبارة^(٢) .

* * *

(١) راشد بن فاضل البنعلی : مجموع الفضائل ، ص ٤٨ - ٤٩ حول إمارة الشيخ أحمد بن محمد آل خليفة وفتح البحرين ؛ وراجع عبد العزيز المنصور : التطور السياسي لقطر ١٨٦٨ - ١٩١٦ ، ذات السلاسل بالكويت ، ط (٢) ١٩٨٠ ، ص ٣٤ - ٣٥ ؛ وكذلك صلاح العقاد : التيارات السياسية في الخليج ، دار الفكر العربي ، القاهرة ١٩٩١ ، ص ٥٢ - ٥٥ ؛ وجمال زكريا : المرجع السابق ، ص ٤٢٠ - ٤٢١ .

(٢) راجع لوريمر : دليل الخليج ، الجزء الثالث ، ص ١٢٠٠ .

كان ظهور الدعوة السلفية في نجد على يد الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، واقتناع الأمير محمد بن سعود أمير الدرعية بها منذ عام ١٧٤٥ ، وتحالف الشيخ مع الأمير ، قد أدى إلى قيام الدولة السعودية الأولى ، التي استطاعت بعد معارك طاحنة أن تثبت دعائمها في نجد ، وأن تواجه تحديا خطيرا من قوة بني خالد في الأحساء ، الذين قادهم « عريعر بن دجين » هم وغيرهم من قبائل الأحساء ، وزحف بهم إلى الدرعية عاصمة السعوديين عام ١٧٥٨ ، لكنه فشل في هذا الهجوم ، ليظل بنو خالد يناصبون الدولة السعودية العداء خلال الفترة التالية ، حتى سير السعوديون جيوشهم إلى الأحساء التي سقطت في أيديهم عام ١٧٩٣ بعد معارك عنيفة ، ثم اتخذوها قاعدة تنطلق منها جحافلهم نحو عُمان والبريمي وقطر والبحرين ، وبقية بلدان الخليج العربي^(١) ، حتى قضوا على حكم بني خالد في المنطقة بأسرها .

وفيما يتعلق بقطر فقد بدأت علاقة السعوديين بها منذ عام ١٧٨٨ عندما أعد سليمان بن عفيصان أمير الخرج حملة عبر بها الأحساء للإغارة على قطر ، وهناك فاجأ رجالا من قبيلة آل بورميح فهزمهم ثم انسحب إلى نجد . وبين عامي ١٧٩٣ - ١٧٩٤ تولى إبراهيم بن عفيصان قيادة حملة لبسط سيادة السعوديين على قطر ، ووصلت جيوشه إلى الحويلة على الساحل الشمالي الشرقي لقطر وإن لم تستقر فيها^(٢) . وفي عام ١٧٩٨ شن إبراهيم هجوما كبيرا على الزبارة ، وعهد إلى رجاله بمهمة عزل المدينة عبر البر ومحاصرتها تمهيدا للاستيلاء عليها دون قتال ، ولكن الحصار فشل ، مما اضطره إلى الهجوم على قلعتها التي سقطت في يده بعد خسائر فادحة في الأرواح ، ثم شرعت القوات السعودية في احتلال مدن قطر الأخرى مثل الحويلة والفريحية واليوسفية والرويضية ، وقد استعان السعوديون بسفن الأهالي ضد سفن العتوب ، الذين أدركوا مدى قوة السعوديين ، فاضطروا إلى مغادرة الزبارة ، التي باتت خاوية ، واستطاع السعوديون بعد ذلك بسط سيطرتهم على شبه جزيرة قطر .

(١) محمد عرابي نخلة : تاريخ الأحساء السياسي ، ص ٣١ - ٣٢ .

(٢) شركة الزيت العربية - الأمريكية ، ص ٢٨٥ - ٢٨٦ .

وقد خضعت البحرين كذلك لحكم السعوديين ، حتى استطاع الأمير سعود ابن عبد العزيز أن يؤلف ولاية تضم كلا من القطيف وقطر والبحرين ، وأن يجعل من الأخيرة مقراً لها . بعد أن عهد إلى عبد الله بن عفيصان بحكمها^(١) ، وقد دخلت المنطقة طواعية في المذهب السلفي كما هو معروف ، وكانت أموال الزكاة أو الخراج يجمع من قطر والأحساء لترسل إلى مقر الولاية في البحرين ليتم إرسالها إلى عاصمة الدولة السعودية . ومضى آل خليفة يصرفون شؤون إدارة الولاية في ظل السيادة السعودية .

غير أن النفوذ السعودي على الولاية المثلثة لم يستمر طويلاً ، فلم يلبث سوى أعوام قليلة ، فقد شكلت الدولة السعودية خطراً على سيادة الدولة العثمانية في شبه الجزيرة العربية ، خاصة بعد أن ضمت الجيوش السعودية الحجاز ، لذلك لجأ السلطان العثماني إلى واليه في مصر « محمد علي باشا » الذي أرسل عدة حملات خلال الفترة (١٨١٢ - ١٨١٨) استطاعت أن تقوّض سلطة الدولة السعودية وأن تدمر عاصمتها الدرعية ، وأن تتقدم قوات محمد علي لتنتهي نفوذها على الأحساء والخليج بشكل عام، وخلال نفس الفترة تقريباً تعرّض السعوديون لمتاعب جاءت من حدودهم الغربية تمثلت في هجمات قام بها سلطان مسقط ، الذي شن حملة بحرية على قطر وطرده الحاميات السعودية من الزبارة وخور حسان ، بل وأحرق الزبارة ودمرها تماماً ، فضلاً عن مهاجمة السلطان جزر البحرين واحتلالها فترة من الزمن^(٢) .

وكانت النتيجة هي إجلاء الحاميات السعودية عن قطر والبحرين ، حيث تم أسر الحاكم السعودي لولاية « القطيف - قطر - البحرين » وعادت البحرين إلى سيطرة آل خليفة ، بل أكثر من هذا فإن طبيعة تلك التطورات جعلتهم يتولون تسيير الأمور في المناطق الثلاثة كما استمروا يجمعون الزكاة التي كانت تُحصّل من قبل لصالح السعوديين^(٣) .

(١) لوريمر : دليل الخليج ، الجزء الثالث ، ص ١٢٠٠ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٢٠١ ؛ وكذلك شركة الزيت العربية الأمريكية ، ص ٢٨٦ .

(٣) كتاب العهد : قطر وثروتها النفطية ، الدوحة ١٩٨٤ ، ص ٤٨ .

ويلاحظ أنه قبل انتهاء النفوذ السعودي من المنطقة ، كان السعوديون قد بسطوا حمايتهم على رحمة بن جابر ، الذى صارت تربطه بهم علاقات وثيقة ، حتى لقد ذكر « لوريمر » أنه صار يحكم بالاشترار مع مبعوثهم حتى مدينة الزبارة ولم يكف رحمة عن توجيه هجماته على سفن أعدائه فى الخليج من قاعدته التى اتخذها فى خور حسان^(١) ، غير أن سقوط حلفائه جعله يتخبط فى قتال يائس ضد سفن العتوب ، حتى لقد اضطر إلى نقل مقره من قطر إلى الدمام على ساحل الأحساء ، ثم ما لبث أن انقلب على السعوديين ، الذين أسخطهم ذلك فدمروا عام ١٨١٦ قلعة كان قد شيدها بالدمام وإن تمكن بجهد خارق من إنقاذ أسرته وممتلكاته وإعادةهما إلى خور حسان ، ثم لم يلبث أن رحل إلى بوشهر ، ليعود مرة أخرى إلى الدمام عام ١٨١٩ ، ولم يعد يلعب دورا فى تاريخ قطر ، وعموما لم تنته المتاعب التى أثارها رحمة ضد آل خليفة إلا بعد أن لقى حتفه فى إحدى المعارك البحرية عام ١٨٢٨^(٢) .

* * *

وحتى حدوث التطورات السابقة لم تكن بريطانيا قد اتصلت بقطر اتصالا مباشرا ، أو أدخلتها فى دائرة اهتمامها ، باستثناء يقظتها وتصديها لنشاط رحمة بن جابر . وعموما صارت علاقة بريطانيا ، فيما بعد ، بقطر تشكل فصلا هاما من فصول تطور قطر السياسى ، يمتد من الربع الأول من القرن التاسع عشر وحتى استقلالها عام ١٩٧١ . والواقع أن صلة بريطانيا بقطر تمثل حلقة من حلقات نفوذها فى الخليج العربى ككل ، ذلك النفوذ الذى بدأ مع تأسيس شركة الهند الشرقية البريطانية ، ثم ضم الشركة إلى التاج البريطانى وتأسيس حكومة الهند البريطانية ، التى نشطت لإخضاع الخليج لسيطرة بريطانيا ، التى بررت ذلك بالقضاء على « القرصنة » وعلى تجارتي السلاح والرقيق ، أو باسم تأمين الملاحة وتحقيق السلام العام فى البحر . وقد

(١) حول نشاطات رحمة بن جابر البحرية ورصد السلطات البريطانية لها ، راجع لوريمر : دليل الخليج ،

الجزء الثالث ، ص ١١٩٩ ؛ وكذلك شركة الزيت ، ص ٢٨٦ .

(٢) لوريمر : المصدر السابق ، ص ١٢٠٢ - ١٢٠٣ .

لجأت بريطانيا لتنفيذ سياستها عبر مرحلة طويلة ، وبأساليب مختلفة ، نتج عنها فرض الاتفاقيات والمعاهدات أو التعهدات التي يلتزم فيها الحكام بتنفيذ السياسة البريطانية التي تملئها القوة وحدها . وقد بدأت هذه التعهدات منذ عام ١٨٢٠ ، وانتهت بمعاهدة الحماية البريطانية على قطر عام ١٩١٦ ، ومرورا باتفاقيات الهدنة البحرية ، المؤقتة والدائمة ، ثم الاتفاقيات الانفرادية أو المانعة ، التي طالمت كل إمارات الخليج العربي . وقد نجحت بريطانيا من خلال التهديد باستعمال القوة ، واستعمالها أحيانا ، في أن تجعل من نفسها حكما و جلادا في كل الصراعات المحلية والإقليمية في المنطقة ، وخلقت بذلك مشكلات حدودية لاتزال المنطقة تعاني من آثارها حتى وقتنا هذا .

وفيما يتعلق بشبه جزيرة قطر فيلاحظ أن علاقة قبائلها وشيوخها ببريطانيا تأخرت نسبيا عن غيرها من الكيانات السياسية والقبلية في الخليج ، فلم يحدث ذلك إلا مع بداية العشرينيات من القرن التاسع عشر ، فليس ثمة معلومات موثقة عن اتصال الإنجليز بساحل قطر قبل عام ١٨٢١ . فبعد إقرار بريطانيا لمعاهدات السلام العامة (السلم البحري) عام ١٨٢٠ ، كانت السلطات البريطانية في الخليج وعلى رأسها المقيم السياسي البريطاني (مقره في بوشهر) تعتقد أن امتداد السواحل القطرية يدخل في إطار تلك المعاهدات .

ونتيجة للمتاعب والقلق الذي سببه نشاط رحمة بن جابر ضد سفن آل خليفة ، وانحيازه إلى حاكم فارس في محاولة غزو البحرين - التي لم يقدر لها أن تتم - ثم رفضه طلب المقيم السياسي لأن يكون طرفا في معاهدات السلام العامة عام ١٨٢٠ ، ونتيجة حدوث بعض أعمال « القرصنة » على ساحل قطر ، أرسلت شركة الهند الشرقية البريطانية المدمرة « فستال » عام ١٨٢١ لتطلق مدافعها على طول ساحل المنطقة لإرهاب الشيوخ والأهالي وإثبات قوة بريطانيا . وكان من نصيب « البدع » أن قصفت بالمدافع لإرهاب القبال القطرية ، مما نتج عنه تدمير المدينة وهجرة المئات من سكانها إلى الجزر الممتدة بين قطر والساحل العُماني . وكان هذا القصف البريطاني لسواحل قطر أول « اتصال » لبريطانيا بالمنطقة ! .

وبعد ذلك بنحو عامين قام المقيم السياسي البريطاني في الخليج « ماكلويد » في يناير ١٨٢٣ بأول زيارة له للدوحة ، خلال قيامه بجولته على طول ساحل الخليج العربي ، ووجد أن كبار رجال البوعيين يتمتعون بنفوذ كبير في الدوحة ، كما كان يعتقد بتبعية المنطق للبحرين ، وبالتالي فإنها تخضع لمعاهدة السلم العامة التي وقّعها شيوخ البحرين مع بلاده في فبراير ١٨٢٠ ، لكنه أبدى ملاحظة هامة مؤداها أنه وجد السفن التجارية للأهالي في الميناء لا ترفع الأعلام المنصوص عليها في المعاهدة أو تحمل التراخيص المتعلقة بذلك ، مما يعني أن القطريين لا يعرفون شيئا عن هذه المعاهدة^(١) ، وقد يفهم من ذلك أن الأهالي لم يكونوا خاضعين لسلطة آل خليفة في البحرين ، الذين دخلوا في المعاهدة ، ولذلك أمر المقيم البريطاني بحصر جميع السفن ومنحها التراخيص اللازمة ، وبأن ترفع أعلام المعاهدة ، كما أمر بإجراء مسح شامل لسواحل قطر ومياها الشرقية ، وقد نفذت هذه الأوامر بالفعل .

ومنذ زيارة المقيم لقطر عام ١٨٢٣ وحتى انسحاب الجيوش المصرية من الأحساء والجزيرة بموجب معاهدة لندن عام ١٨٤٠ لم تبد السلطات البريطانية اهتماما كبيرا بتطور الأحداث في شبه جزيرة قطر ، ومن ثم لم يكن لها علاقة واضحة بالمنطقة ، وكل ما ورد بتقارير البريطانيين هو ما لاحظوه من وجود سلطة لشيخ البحرين على المنطقة الساحلية من قطر ، ومع ذلك لم تكن سلطة وحيدة ، أو أنها لم تجدد من ينازعها وينافسها^(٢) .

* * *

ويلاحظ أنه خلال فترة انحسار النفوذ السعودي عن المنطقة وتقدم قوات محمد علي ، أنه قد نتج عن ذلك تطور هام تمثل في بدء ظهور نفوذ القبائل المحلية القطرية فبرزت قوة قبيلة البوعيين ، بدا هذا واضحا عندما قتل شيخهم رجلا من البحرين في الدوحة عام ١٨٢٨ ، فأمر شيخ البحرين (عبد الله بن أحمد) بالقبض عليه وسجنه ،

(١) لوريمر : دليل الخليج ، الجزء الثالث ، ص ١٢٠٤ - ١٢٠٥ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٢٠٦ .

لكن قبيلته رفضت أن تسلمه وتمردت ، عندئذ أمر شيخ البحرين بتدمير حصن البوعيين بالدوحة ونقلهم منها إلى الرويس والفويرط^(١) .

ونتيجة لاستئناف السعوديين لنشاطهم منذ بداية الثلاثينيات من القرن التاسع عشر، وخشية شيخ البحرين من تحركهم ، رأى أن ينتقل مع ولديه (مبارك وناصر) ليقم على ساحل قطر لمراقبة هذه التحركات ، حيث لم تكن علاقته بالسعوديين طيبة آنذاك، وأراد الشيخ أن يمارس نفوذه على أهالي الحويلة ، لكن هؤلاء تمردوا ضده عام ١٨٣٥ ، ولم ينته تمردهم إلا بعد توسط سلطان مسقط ، كما شهدت نفس الفترة خلافات حادة بين شيخ البحرين وبين قبيلتي آل بن علي وشيخها عيسى بن طريف ، الذي اضطر إلى الانسحاب بجزء كبير من قبيلته إلى أبو ظبي ، وفعلت أعداد كبيرة من قبيلة البوعيين نفس الشيء ، وقد حاول عيسى بن طريف ، الذي اضطر إلى الانسحاب بجزء كبير من قبيلته إلى أبو ظبي، وفعلت أعداد كبيرة من قبيلة البدعيين نفس الشيء ، وقد حاول عيسى بن طريف اتخاذ أبو ظبي قاعدة لعملياته ضد آل خليفة ولكن السلطات البريطانية حالت دون ذلك .. وثبت من التطورات السابقة أن القبائل القطرية رفضت الخضوع لسلطة آل خليفة^(٢) .

غير أن الخلافات والمتاعب السابقة كانت أقل بكثير من الصراعات العائلية التي كان الشيخ عبد الله بن أحمد يعاني منها في البحرين ، الأمر الذي جعله يفكر في تركها واتخاذ مقر هادئ له في خور حسان على الساحل القطري ، ورغم أنه اتخذ الترتيبات فعلا لهذا الأمر ، إلا أنه لم ينفذه إلا بعد فترة طويلة^(٣) ، وعموما ساهمت الصراعات بين القبائل القطرية وآل خليفة ، ثم بين آل خليفة وبعضهم البعض ، في بلورة القوى

(١) سالدانا ، ج. ج. : تاريخ البحرين السياسي ١٧٥٣ - ١٩٠٤ ، دراسة وترجمة فتوح الخترش ، ذات السلاسل بالكويت ٢٩٩٢ ، ص ٣١ .

(٢) جمال زكريا قاسم : الخليج العربي ، دراسة لتاريخ الإمارات العربية ١٨٤٠ - ١٩١٤ ، جامعة عين شمس ، القاهرة ١٩٦٦ ، ص ٤٢٩ - ٤٣٠ ؛ وكذلك لوريمر : دليل الخليج ، الجزء الثالث ، ص ١٢٠٦ - ١٢٠٧ .

(٣) لوريمر : المرجع السابق ، ص ١٢٠٧ .

الخليجية القطرية ، مما نتج عنه التطورات التي أبرزت شبه جزيرة قطر كوحدة سياسية بعيدة عن أية سلطة لآل خليفة وبرزها كإمارة مستقلة فيما بعد .

وعندما لاحظت السلطات البريطانية في الخليج تزايد عمليات الاعتداء على السفن في الخليج بين عامي ١٨٣٥ و ١٨٣٦ والتي يقوم بها المهاجرون من ساحل عُمان إلى الساحل القطري ، حيث استقر جزء منهم في خور العديد هربا من دفع غرامات فرضت عليهم من قِبَل الإنجليز نتيجة عمليات سابقة ، اتهمت السلطات البريطانية أهالي قطر بأنهم يتعاطفون معهم ولا يردعونهم ، لذلك أرسلت قوة بحرية إلى ساحل قطر لتذكير الأهالي بمسئولياتهم تجاه هذه الأعمال ، ونجحت القوة في فرض تعهدات على شيوخ الدوحة والوكرة والعديد ، بالاستيلاء على قوارب « القراصنة » أو دفع الغرامات ، وفي سبتمبر ١٨٣٦ قدمت السلطات البريطانية إنذارا شخصيا لشيخ الدوحة ، الذي كانت تظن أن له علاقة بأحد زعماء القراصنة ، بأن يمتنع عن إيوائه فيما بعد .. ثم قررت إدخال قطر منذ ذلك العام ضمن اتفاقيات الهدنة البحرية التي أبرمت قبل عام .. ومع هذا لم تكف العمليات العدائية في البحر تماما ، حتى إن السلطات البريطانية أُلقت بالمسؤولية على شيخ الدوحة ، وقصفت المدينة بأحد مدافعها عام ١٨٤١ وطالبت الشيخ بالتعويضات^(١) .

وهكذا شهدت فترة العشرينيات والثلاثينيات من القرن التاسع عشر في شبه جزيرة قطر اضطرابات ومتاعب بدأت بمحاولة عتوب البحرين ملء الفراغ الناتج عن سقوط الدولة السعودية الأولى ، وصراع رحمة بن جابر المتواصل معهم ، واتخاذهم من ساحل قطر قاعدة لعملياتهم ، ثم محاولات شيوخ البحرين فرض سيطرتهم على القبائل القطرية وما نتج عن ذلك من تحديات وحركات تمرد قامت بها هذه القبائل ، وتزايد الاعتداءات البحرية التي قام بها اللاجئون من ساحل عُمان إلى ساحل قطر وتصدى الإنجليز لذلك .

(١) يذكر كتاب العهد : قطر وثروتها النفطية ، ص ٤٩ « أن زعامة البدع كانت إذ ذاك لسلمين وعلى ابني ناصر من قبيلة السودان » ؛ وراجع لوريمر : المصدر السابق ، ص ١٢١٠ - ١٢١٢ .

وقد انشغل شيوخ البحرين بالتصدي لتهديدات السعوديين ، بعد أن تطلع هؤلاء لبسط سيادتهم على البحرين مرة أخرى ، خاصة وقد نجح الأمير تركي آل سعود في توطيد سلطته في الأحساء وشرع يطالب آل خليفة بدفع الزكاة منذ عام ١٨٣١ ، وإن كان انشغال السعوديين بتجدد الصراع مع القوات المصرية في نجد قد عطل ذلك إلى حين ، حيث نجحت القوات المصرية في الإطاحة بالأمير فيصل الذي كان قد استرد عرش والده (١٨٣٤ - ١٨٣٨) غير أن فيصل تمكن من الوصول إلى الحكم مرة أخرى عام ١٨٤٣ ، واستمراره فيه بعد توطيد دعائم الدولة السعودية الثانية ونجاحها في تأمين سيطرتها على الجزيرة العربية والخليج العربي خلال السنوات التي أعقبت انسحاب القوات المصرية ، إذ حقق فيصل نجاحا كبيرا في استعادة جميع الممتلكات التي فقدتها السعوديون ، كما أخضع الأحساء ، ونجح في كسر شوكة القبائل المتنازعة كالمناصير وآل مرة والعجمان ...

* * *

وقد حملت الأربعينيات والخمسينيات في طياتها تطورات مهمة وخطيرة في شبه جزيرة قطر كان أبرزها انعكاس أحداث ووقائع الحرب الأهلية في البحرين على شبه الجزيرة التي اتخذت ميدانا لذلك الصراع ، ومعاهدة الدولة السعودية بسط نفوذها على كل من البحرين وقطر ، واصطدامها بسلطة آل خليفة في البحرين ، ودخول أبو ظبي حلبة هذا الصراع ، والأهم من ذلك كله ، وما نتج عنه ، من نمو قوة القبائل المحلية القطرية ، وظهور أسرة آل ثاني ، لتلعب بعد ذلك دورا مصيريا في شبه جزيرة قطر ، حيث استطاعت توفير الزعامة المحلية المطلوبة ، لتخلص قطر وقبائلها من أية سيطرة فرضت عليها .

وفيما يتعلق بالحرب الأهلية في البحرين (١٨٤٠ - ١٨٤٣) ، فقد نازع الشيخ محمد بن خليفة جده (أو عم أبيه) الشيخ عبد الله بن أحمد السلطة في أعقاب انسحاب القوات المصرية من الأحساء عام ١٨٤٠ ، واضطر محمد بن خليفة أن يهاجر إلى قطر وأن يتودد إلى أهلها ، ليستطيع تشكيل معارضة قوية وقوة حربية يغزو بها البحرين ، في الوقت الذي كان الشيخ عبد الله يلقي معارضة أبنائه الذين توردوا على

سلطته ، مما أدى إلى اضطراب الأوضاع في البحرين ، ورغم تسوية الأزمة بين الشيخين المتنافسين لفترة قصيرة ، عاد بعدها محمد بن خليفة إلى البحرين ، بينما أقام الشيخ عبد الله في خور حسان بقطر ، إلا أن الصراع لم يلبث أن تجدد عام ١٨٤٢ ، وانتقل إلى شبه جزيرة قطر^(١) .

ولا شك أن الحرب الأهلية في البحرين قد أمدت القوى المحلية في قطر بدم جديد حين استعان أحد طرفي الصراع وهو الشيخ محمد بن خليفة بها ، ففي غمرة استعداده لغزو البحرين للتخلص من شيخها المسن ، بدأت تظهر بعض القوى المحلية القطرية لتلعب دورها ، فبدأ يظهر الشيخ محمد بن ثاني الذي كان يقيم في الفويرط ، حيث طلب محمد بن خليفة مساعدته في البداية عام ١٨٤٢ لكنه لم يستجب - ولعلها كانت أول مرة يبرز فيها اسم محمد بن ثاني - فطلب محمد بن خليفة مساعدة أهل قطر الشرقيين المقيمين في الدوحة والخور ، الذين تعاطفوا معه ، عندئذ وافق محمد ابن ثاني والمعاويد على مساعدته ، كما لقي محمد بن خليفة دعماً ومساعدة من عيسى بن طريف وآل بن علي الذين كانوا قد عادوا إلى الدوحة ، فضلاً عن معاونة نفر من الجلامه وشيخهم بشير بن رحمة بن جابر . وهكذا حشد محمد بن خليفة من قبائل قطر قوة كبيرة اتخذت من الفويرط قاعدة للانطلاق نحو البحرين ، وفي إبريل ١٨٤٣ استطاع احتلالها ، بينما خرج الشيخ عبد الله بن أحمد ليقيم بعائلته في الدمام. ويبدو واضحاً أن القوى القطرية المحلية قد شعرت بقوتها الذاتية وقدرتها خلال تجربتها في هذا الصراع ، وبدورها في إيصال محمد بن خليفة إلى مركز السلطة في البحرين^(٢) .

وتتجدد لدور عيسى بن طريف شيخ آل بن علي في معاونة محمد بن خليفة ، صار رجله المهم في قطر ، وحدث أن ضجر أولاد الشيخ عبد الله بن أحمد من العيش في الدمام فطلبوا من عيسى بن طريف أن يتوسط لهم لدى الشيخ محمد بن خليفة ليعودوا

(١) لوريمر : دليل الخليج ، الجزء الثالث ، ص ١٣١٠ - ١٣١٥ .

(٢) عبد العزيز المنصور : التطور السياسي لقطر ١٨٦٨ - ١٩١٦ ، ص ٣٨ .

إلى البحرين وأن ترد إليهم أملاكهم ، فأسخط قبول عيسى هذه الوساطة شيخ البحرين محمد بن خليفة ، وتفاقم الخلاف بينهما في الوقت الذي كان خصوم الشيخ محمد بن خليفة من العتوب الساخطين عليه يتجمعون في جزيرة قيس لاتخاذ موقف ضده ، فلحق بهم عيسى بن طريف ورجاله يساندهم حشد من المناصر والمواجر وأبناء الشيخ عبد الله ، وكانت كراهية عيسى لمسلك محمد بن خليفة وصلفه قد فاقت كراهيته للحاكم السابق عبد الله بن أحمد ، واستعد الحلفاء بقواقم ثم اشتبكوا مع قوات حاكم البحرين في معركة برية عام ١٨٤٧ قرب الفويرط في موقع يسمى «أم سوية» كان النصر فيها في البداية حليف عيسى وحلفائه ، ولكنه لم يدم ، إذ لم يلبث أن سقط عيسى قتيلًا ودارت الدائرة على جموعه وحلفائه الذين لقوا هزيمة منكرة ، اضطرت معها قبيلة آل بن علي أن ترحل عن قطر ، كما تبخرت آمال شيخ البحرين السابق في العودة إلى سلطته^(١) .

ونتيجة لذلك ركز أبناء الشيخ عبد الله بن أحمد جهودهم على طلب معونة الأمير فيصل بن تركي آل سعود . الذي كان في حالة عداوة مع الشيخ محمد بن خليفة ، منذ استطاع أسطول البحرين محاصرة ساحل الأحساء في العام السابق (١٨٤٦) وجرت تسوية بين الجانبين عام ١٨٤٧ تعهد فيها الأمير فيصل بعدم معاونة شيخ البحرين السابق ، كما تعهد محمد بن خليفة بأن يدفع زكاة سنوية للسعوديين مقدارها ٨٤ ألف روبية ، غير أنه لم تلبث أن ظهرت بوادر الخلاف بين الجانبين مرة أخرى عام ١٨٥٠ في ظل استمرار مشكلة حاكم البحرين السابق وأبنائه وتهديدهم للبحرين .

ولم يلبث الأمير فيصل بن تركي أن تقدم بقواته في عام ١٨٥٠ نحو قطر في جولة يتفقد فيها أقاليم حكمه ، وعندما وصل قرب الدوحة ، هرع إليه الأهالي وكذلك أهالي الوكرة والفويرط ليعلنوا عن عدم ولائهم لشيخ البحرين ، ويرحبون بارتباطهم

(١) حول دور عيسى بن طريف في قطر وعلاقته بال خليفة في البحرين راجع :

- Zahlan, R. S., The Creation of Qatar, pp. 36- 40.

وعبد العزيز المنصور ، التطور السياسي لقطر ، ص ٣٩ ؛ لوريمر : دليل الخليج ، الجزء

الثالث ، ص ١٣٢٠ - ١٣٢٨ .

بالدولة السعودية ، وبات واضحا أن تسوية عام ١٨٤٧ قد تم تجاهلها ، وعموما تصدت لقوة الأمير فيصل قوة من البحرين يقودها الشيخ علي بن خليفة ، كان يعاونها في البداية قوة قطرية يقودها جاسم بن محمد آل ثاني ، في مكان يُسمى « المسمير » غير أن فيصل آثر الانسحاب بقواته مؤقتا ، فخشيت القوة القطرية أن يعود فيصل بحملة قوية لا يستطيعون لها ردا في ظل غياب الرجال في موسم الغوص ، وبينما رجع الجيش البحريني إلى بلاده ، اقترح محمد بن ثاني مصالحة الأمير فيصل ، فاتهمه الشيخ علي بالخيانة ، لكن محمد بن ثاني اتصل بالأمير فيصل وأجرى معه تفاهما وصلحا لحقن دماء قبائله مبتعدا بذلك عن آل خليفة .

وقد عزم فيصل على أن يؤدب آل خليفة فطلب من الشيخ محمد بن ثاني الذي أصبح زعيما للقبائل القطرية ، وصار هو ومعظم المعاضيد من قبيلته يقيمون في الدوحة، أن يستعد بسفن مجهزة بالمؤن والمياه ، كما كتب إلى بشر بن رحمة شيخ الجلاهمة أن يتقدم بجماعته إلى « البدع » فعلم أهل البحرين بهذه الاستعدادات ، واستعدوا للقاء خصومهم المتحالفين الذين توجهوا إلى البحرين ليتلقوا هزيمة في معركة سميت « نهاية معركة المسمير » التي انتصر فيها آل خليفة .

ونتيجة لإحساس آل خليفة بأن القوة القطرية التي يقودها محمد بن ثاني وابنه جاسم تولت حركة التمرد والعصيان متعاونة مع الأمير فيصل ، جهز آل خليفة جيشا لتأديبهم ، وطلبوا أن يعاونهم الشيخ سعيد بن طحنون حاكم أبو ظبي ، الذي استجاب وتوجه بجيشه مع جيش البحرين وحاصروا الدوحة من البحر ، ومنعوا أية سفينة من الوصول إليها فأصبح القطريون يعتمدون في مؤنهم على ما يأتيهم من الأحساء ، وطالت المناوشات ولم يجرؤ المحاصرون على اقتحام الدوحة لمرابطة جيش سعودى مساند بها . ولم تنته المسألة إلا بالصلح الذي قبل فيه السعوديون خراجا سنويا من حاكم البحرين قدره أربعة آلاف ريال فرنسي مقابل بسط نفوذه على قطر^(١) .

(١) محمد شريف الشيباني: إمارة قطر العربية، ص ٦٥-٦٨؛ وعبد العزيز المنصور، المرجع السابق ص ٤٠؛ وراجع كذلك محمود مجت سنان : تاريخ قطر العام ، ط(١) بغداد ١٩٦٦ ، ص ٧٠ - ٧١ .

ورغم ذلك ظل التوتر قائما ، ففي عام ١٨٥٩ بدأ الحاكم السعودي للأحساء - بمعاونة الشيخ محمد بن عبد الله بنجل الحاكم السابق للبحرين - يستعد لمحاولة جديدة لغزو البحرين وتولية الشيخ محمد بن عبد الله حكمها ، وكانت الحججة الظاهرة هي أن شيخ البحرين قد حرّض بعض القبائل القطرية على مهاجمة رعايا الأمير السعودي ، غير أن تدخل الأسطول الإنجليزي أوقف المحاولة تماما ، وأعقب ذلك توقيع السلطات البريطانية اتفاقية مع الشيخ محمد بن خليفة في مايو ١٨٦١ ، اعترفت فيها بصحة وسريان الاتفاقيات والمعاهدات التي عقدها أسلافه مع الحكومة البريطانية ، كما تعهد فيها بالامتناع عن الحرب « والقرصنة » وتجارة الرقيق في مقابل حماية الحكومة البريطانية للبحرين ضد أي اعتداءات^(١) .

وفي تقرير للمقيم السياسي البريطاني « بيللي » عام ١٨٦٦ ورد أن ولاء شيخ البحرين للسعوديين كان مقصودا منه المحافظة على أملاكه في قطر ، وأنه يعتبر نفسه مستقلا فيما يتعلق بجزر البحرين . أما الخراج الذي يدفعه للسعوديين كل عام وقدره أربعة آلاف ريال ، فيدفعها لحساب ممتلكاته في قطر والهدف منها تأمين ممتلكاته القطرية من أي هجوم عليها من قبل القبائل العربية من ناحية البر . وورد بالتقرير أيضا أنه خلال الفترة بين سنتي ١٨٥٢ و ١٨٦٦ يبدو أنه كان للسعوديين وكيل في الدوحة ، وأن من المحتمل أن هذا الوكيل كان شيخا من شيوخ قطر^(٢) .

* * *

لاحظنا خلال الصفحات السابقة أن القبائل المحلية القطرية لم تكن تقبل الخضوع لسلطة حكام البحرين ، غير أن خلافاتها وتفككها هو الذي سهل على آل خليفة بسط نوع من النفوذ عليها ، عادة ما كان يواجه دائما بأحداث تمرد واضطرابات ، ومنذ الأربعينيات من القرن التاسع عشر بدأت شخصية محمد بن ثاني ثم ولده قاسم لتوفر

(١) سالدانها، ج. ج. : تاريخ البحرين السياسي، ص ٦٠ ؛ وكذلك لوريمر : دليل الخليج ، الجزء الثالث، ص ١٣٣٩ - ١٣٤٣ .

(٢) راجع لوريمر : المصدر السابق ، ص ١٢١٤ ؛ وأيضا ص ١٣٤٦ - ١٣٤٧ .

تدرجياً الزعامة المطلوبة لحفز القبائل القطرية للسعى نحو الاستقلال وحكم نفسها في شبه جزيرتها .

وينتمي آل ثاني إلى المعاضيد وهم فرع من قبيلة الوهبة الذين يعودون إلى تميم ، وقد هاجروا من شبه الجزيرة العربية في أواخر القرن السابع عشر ، وفي بعض الروايات أنهم وصلوا إلى شبه جزيرة قطر في أوائل القرن الثامن عشر ، وأن هجرتهم ترجع إلى صراعات قبلية تفتشت في قلب الجزيرة العربية الذي كان يمر بسنوات قحط شديد ، حولته إلى بيئة طاردة ، دفعت بموجبات هجرات نحو الساحل ، وقد هاجرت أسرة آل ثاني من بلدة « أشيقر » حيث حطت رحالها في واحة « جبرين » في جنوب شرق شبه جزيرة قطر ، ثم غادروها ليقيموا في « اسكاك » ، ثم « الرويس » فالزبارة ، إلى أن استقروا في الدوحة ، بعد مصرع شيخ آل بن علي (عيسى بن طريف) .

ويجمع المؤرخون على أن آل ثاني نجحوا في زعامة القبائل القطرية نتيجة مكانتهم الاجتماعية والاقتصادية ، مع أنهم لم يكونوا أكبر القبائل عدداً ، وأن جدهم الأكبر «ثاني» الذي ولد في الزبارة وأصبح من تجار اللؤلؤ المشهورين قد نجح في تكوين ثروة كبيرة وأحرز مكانة اجتماعية مرموقة ، جعلته يأتلف القبائل القطرية ، خاصة وأن أسرته عرفت بالتحضر والتطور الذي اشتهر به المعاضيد ولا بد أن « ثاني » قد ظفر لنفسه وللمعاضيد ببعض السلطة في المنطقة المجاورة للبدع^(١) ، وقد أوصلت هذه المكانة ابنه « محمد بن ثاني » الذي كان قد ولد في الفويرط ، وخلفه في زعامة آل ثاني والمعاضيد ، لكي يبرز اسمه في قيادة بعض القبائل القطرية التي عاونت محمد بن خليفة في انتزاع السلطة في البحرين (١٨٤٢ - ١٨٤٣) وليبرز نفوذه ومكانته بين القبائل القطرية بشكل أكبر في أعقاب مقتل عيسى بن طريف وتشتت آل بن علي ، ثم ها هو يكشف عن مهارة سياسية عام ١٨٥٠ عندما فاوض أمير فيصل بن تركي لينجو

(١) شركة الزيت العربية - الأمريكية ، ص ٢٩٣ ؛ وكذلك الشيباني : المرجع السابق ، ص ٢٩ - ٣٠ ؛

والدباغ : المرجع السابق ، ص ١٧٥ - ١٧٦ ؛ وكذلك سنان : المرجع السابق ، ص ٨٦ - ٨٩ ؛

وراجع إبراهيم جبار الله التميمي : المعاضيد وقطر ، الكويت ١٩٩٩ ، ص ١٤٤ - ١٤٥ .

بالقبائل القطرية من هزيمة مؤكدة ، ويتحالف مع السعوديين ، بل ويصبح وكيلاً لهم في قطر ، يأخذ على عاتقه جمع الزكاة والخراج من القبائل القطرية حتى وفاة الأمير فيصل (١٨٦٥) ، ثم ها هو يتولى زعامة القبائل القطرية في التصدي للانتقام آل خليفة ، وليحظى بمكانة مرموقة باعتباره شيخاً للبدع ، وإن كان بسطة غير كاملة ، يجد منها نفوذ آل خليفة ، الذين كان يمثل القبائل القطرية أمامهم .

وعندما زار الرحالة « بلجريف » قطر في يناير ١٨٦٣ ذكر أنه التقى بمحمد ابن ثاني « حاكم البدع ، الذي يعترف به الجميع رئيساً للمنطقة كلها ، مع أنه لا يملك سلطة كبيرة على القرى الأخرى التي يقوم سكانها بتدبير أمورهم مع رؤسائهم المحليين » وقد وصفه بأنه « داهية عجوز وبدين إلى حد ما ، يشتهر بالحكمة وبساطة السلوك الذي يدل على خفة ظله ، وإن كان عنيداً عند المساومة ، وهو رجل عملي في المقام الأول ، استطاع عن طريق الدراسة أن يحوز معرفة أدبية وشعرية ، وقدرا من المعرفة بالطب .. كما أنه رجل متدين جدا يؤم الناس في الصلاة في المسجد الكبير في معظم الأحوال .. » . وقد زار بلجريف كذلك ولده وولى عهده قاسم ، ووصفه بأنه « شخصية مندفعة أكثر من والده ، وأن قصره يشبه القلعة ... » . وانتقل الرحالة بعد ذلك إلى زيارة الدوحة التي وصفها بأنها « قرية شمال مدينة البدع ، وتقع في نصف حجمها ، ورئيسها ليس إلا جاييا لحساب محمد بن ثاني .. »^(١) .

وعموماً استمرت حالة العداء والاستعداد بين القبائل القطرية وآل خليفة الذين اعتقدوا أن سلطتهم على قطر قد استمدوها بالشراء من السعوديين ، وأن القطريين ممثلين في آل ثاني أصبحوا في جانب السعوديين ، وقد عين آل خليفة ممثلاً لهم على قطر هو (أحمد بن محمد آل خليفة) الذي حاول أن يتقرب من القطريين فأصهر إلى زعيمهم محمد بن ثاني ، ومع ذلك فإن شراسة طباعه جعلته يعامل القطريين بالاستهانة والغلظة حتى كرهوه .

(١) وليم جيفور بالجرير ، وسط الجزيرة العربية وشرقها ، ترجمة صبرى محمد حسن ، الجزء الثاني ،

وفي عام ١٨٦٦ اعتدى رجاله على قافلة للنعيم كانت في سوق الوكرة تتجهز لرحلة الغوص واستولوا على أمتعتها ، وعندما قاومت سجن ممثل آل خليفة رئيسهم (على بن ثامر) فاهتاج النعيم وطلبوا إلى قاسم بن محمد آل ثاني ، الذي كان يقيم بالدوحة آنئذ ، أن يتدخل لكف الأذى عنهم ، فما كان منه إلا أن قاد القطريين وحاصر ممثل آل خليفة بقلعة الوكرة ، لكنه استطاع الهروب ليليل إلى البحرين ، واستطاع الثائرون إطلاق سراح السجين ، وتوالت بعد ذلك الأحداث التي زادت من حالة العداء ، والتي بدأ القطريون خلالها يستعدون لإنهاء أية سلطة لآل خليفة على بلادهم .. وفي الوقت الذي كاد فيه أن ينتهي نفوذ السعوديين في أعقاب وفاة الأمير فيصل بن تركي .

أعقب ما سبق أن كتب قاسم بن محمد رسالة إلى الشيخ محمد بن خليفة يشرح له فيها الموقف وسوء تصرف عامله الهارب وعدم كفاءته في تصريف الأمور في قطر ، وأشار عليه بعزله ، وطلب بصراحة ووضوح منح قطر استقلالاً شبه ذاتي في إدارة شؤونها ، وإلا فإنهم سيخلعون طاعته ويطلبون المساعدة من أي حاكم يعاونهم في الحصول على استقلالهم إن لم تتحقق مطالبهم ، وفي رواية أخرى أنه قد يلتجئون إلى طلب الحماية من السعوديين^(١) .

وبطبيعة الحال لم تكن التطورات السابقة في صالح آل خليفة أو تتفق مع رغبتهم الانفراد بقطر ، لذلك دعا آل خليفة زعماء النعيم إلى زيارة البحرين ، وأكرموا وفادتهم ، حتى ينقلوا ذلك لجماعتهم في قطر ، لتهدأ النفوس ، في الوقت الذي خططوا فيه للتخلص من قاسم بن محمد آل ثاني ، لذا أرسلوا إليه رسالة ودية لدعوته لأن يستأنف زيارته المعتادة للبحرين ، وعبروا فيها عن استيائهم من سوء تصرف عاملهم مع النعيم في الوكرة ، وحثوه على الجيء « للتشاور وتجديد الصلحة وإزالة الشبهة .. » ، وتقدم قاسم بجرأة ، وما كاد يصل إلى المنامة حتى ألقى به في السجن !

(1) Zahlan, R. S., The Creation of Qatar, p. 41.

وكانت هذه الواقعة بداية لسلسلة من المعارك البرية والبحرية ، دارت بين شيوخ البحرين ، وبين القبائل القطرية ، التي تولى قيادتها محمد بن ثاني وابنه قاسم .. ويلاحظ المؤرخون أن شخصية قاسم بدأت تبرز على نحو كبير باعتباره زعيما وطنيا خلال هذه المعارك ، وكان الرجل بالفعل تتوفر فيه عناصر الزعامة من الذكاء والجرأة وحسن السياسة ، واستطاع أن يعبر عن شعور القبائل القطرية ورغبتها في التخلص من أي نفوذ أو سلطة عليها من خارج شبه الجزيرة القطرية .

وقد استعد آل خليفة في البحرين بقوة بحرية هائلة استهدفت شن حملة على قطر ، وقد عاونهم حاكم أبو ظبي بقوة كبيرة ، وبدأ الهجوم على الوكرة والدوحة في أكتوبر ١٨٦٧ ، حيث دخلت القوات المتحاربة الدوحة وحربوها وشرّدوا أهلها . كما هبوا ما تبقى في المدينة بعد رحيل الكثير من سكانها تاركين بيوتهم وأموالهم « وتفرقوا شذرا وخربت تلك البلدة وكانت هي قصبة قطر » كما يقول « النبهاني » . أما رواية « لوريمر » فتذكر أن « مدينتي الدوحة والوكرة كانتا في نهاية عام ١٨٦٧ قد أزيلتا تماما من الوجود » .

غير أن القطريين لم يلبثوا أن جمعوا صفوفهم ، واستعدوا بعد انتهاء موسم الغوص ، للانتقام وإطلاق سراح زعيمهم قاسم بن محمد ، وبالفعل بدأوا هجوما كبيرا على البحرين في يونيو ١٨٦٨ ، حيث التقى جيشهم بجيش آل خليفة في معركة « أحمر وجه البحر منها » كما يقول النبهاني ، في موقع من جزر البحرين اسمه « دامسة » ولم يستطع القطريون التقدم ، بل إنهم آثروا التقهقر إلى قطر في خطة لاستدراج أسطول آل خليفة للانقضاض عليهم وقطع سبل العودة إلى سفنهم ، وبالفعل نجحت خطة القطريين بعد أن باغتوا خصومهم بهجوم كبير قبل أن يستقروا في المدينة ، ونجحوا في أسر الشيخ إبراهيم بن عيسى آل خليفة وكذلك الشيخ حمود بن سلمان آل خليفة ، حيث ساوموا آل خليفة بما لإطلاق سراح قاسم بن محمد آل ثاني .

ولما كان آل خليفة قد تعهدوا لبريطانيا عام ١٨٦١ بالحفاظ على السلام في البحر ، لذلك فإن هجومهم البحري على قطر ، وبمساعدة أبو ظبي ، اعتبر في نظر السلطات البريطانية في الخليج خرقا للمعاهدة وتحديا لهيبة ونفوذ بريطانيا ، لذلك طلب المقيم

السياسى « لويس بيللى » قوة من حكومة الهند مع تفويض كامل باتخاذ الإجراءات الكفيلة بردع حاكمى البحرين وأبو ظى ، وتقرر فرض عقوبة مالية على شيخ أبو ظى تعويضا عن الخسائر التى لحقت بقطر والاعتذار عن عمله هذا والتعهد بمسلك أفضل فى المستقبل .. أما البحرين فقد كان موقف المقيم منها أكثر تشددا ، باعتبارها مصدر هذه المشاكل ، ولما كان الشيخ محمد بن خليفة قد فرَّ خارج البحرين على إثر التحرك البريطانى ، فقد وقع « بيللى » مع شقيقه الشيخ على بن خليفة تعهدا بدفع غرامة كبيرة وأن يحافظ على السلم فى البحر ، كما تقرر أن يتولى السلطة فى البحرين ، بدلا من أخيه الذى لم يعد أهلا للحكم ، وتعهد الشيخ على كذلك بتسليمه إلى السلطات البريطانية ، كما تقرر تسليم السفن الحربية التى يملكها آل خليفة للقائد البريطانى الذى تولى إحراقها ، وكذلك جرى تدمير قلعة أبو ماهر فى المحرق ، ووزع الجزء الذى تم جمعه من الغرامة على المتضررين من أهالى قطر ممن أصابهم العدوان .

وتقدم بيللى بسفن الأسطول البريطانى إلى سواحل قطر فوصل إلى الوكرة فى أوائل سبتمبر ١٨٦٨ ، واجتمع هناك بكبار شيوخ قطر وعلى رأسهم الشيخ محمد بن ثانى ، وأظهر استياءه من حملتهم التى شنوها على جزر البحرين ، وذكر أن حكومة بلاده تستفهم حجتهم فى أنهم لم تكن سوى حملة انتقامية ، وأنها تعتبر ذلك سببا يهدى الاضطراب ، ثم وقع بيللى معاهدة مع الشيخ محمد بن ثانى فى ١٢ سبتمبر ١٨٦٨ ، نصت على أن يقيم محمد بن ثانى فى سلام فى الدوحة (التى كان قد غادرها إلى داخل شبه الجزيرة القطرية خلال المعارك) وأن لا يقوم بأى أعمال عدوانية فى البحر ، وأن يحتكم إلى المقيم فى أى نزاع ، وأن يقوم بتسليم محمد بن ثانى خليفة للسلطات البريطانية إذا وقع فى يده ، وأن يكون على علاقة طيبة مع الشيخ على بن خليفة ، وإذا ما اختلفا بأى شأن يتعلق بدفع الأموال أو غيرها ، فإنه لا بد أن يحتكم إلى المقيم السياسى البريطانى بهذا الشأن^(١) .

(١) راجع نص المعاهدة بكتاب وثائق التاريخ القطرى ، (٢) من الوثائق (البريطانية والعثمانية ١٨٦٨ - ١٩٤٩) تقديم أحمد العنان ، الدوحة ١٩٧٩ ، ص ١٠ - ١١ ، وتعليقات المنصور ، المرجع السابق ، ص ٤١ ؛ وجمال زكريا ، المرجع السابق ، ص ١٥٨ .

وهكذا أذخلت معاهدة ١٢ سبتمبر ١٨٦٨ قطر ضمن سلسلة اتفاقيات السلام العام والمهدنة البحرية التي وقعتها إمارات الخليج العربي مع الحكومة البريطانية ، مما يعنى اعتبارها مشيخة أو إمارة مستقلة ، غير خاضعة لأية سلطة من جانب جيرانها ، كما وقّعها محمد بن ثاني باعتباره « شيخا لقطر » ، لذلك اعتبر المؤرخون أن قطر منذ هذه الفترة ظهرت ككيان سياسى مستقل ، كإحدى إمارات الخليج العربى ، وأن ذلك سجل تاريخيا بداية حكم أسرة آل ثاني باعتبارهم حكاما على قطر ، وبداية مرحلة تاريخية جديدة .

* * *

أم الرشرش بين حقائق التاريخ والأطماع الصهيونية
(فبراير ١٨٤١ - مارس ١٩٤٩)

دكتور

فطين أحمد فريد على

كلية التربية - قسم التاريخ

جامعة قناة السويس

obseikan.com

أم الرشرش بين حقائق التاريخ والأطماع الصهيونية (فبراير ١٨٤١ - مارس ١٩٤٩)

مقدمة

إن التاريخ يدل على أن رفح أو شجرتين في ضواحيها هي أول حد مصر الشرقي من جهة البحر المتوسط ، وإبلة المعروفة الآن بالعقبة كانت تعتبر تارة في الحجاز وتارة في مصر ، ولكنها كانت في أغلب الأحيان تابعة لمصر . أما اللجنة التي نذبت لتعيين الحدود سنة ١٩٠٦ فقد أبقّت على رفح الحد بين مصر وسوريا ، ولكنها ألحقت إبلة بالحجاز وجعلت رأس وادي طابا قرب جزيرة فرعون الحد بين الحجاز وسيناء^(١) . وبذلك أصبحت قرية « أم الرشرش » تقع داخل الحدود المصرية ، وعلى ساحل خليج العقبة من جهة سيناء .

فرمان ١٣ فبراير ١٨٤١

تعود قضية الحدود بين مصر وفلسطين ، أو على الأصح بين الولايات التركية في فلسطين والأراضي المصرية في سيناء أو الحد الشرقي لمصر ، إلى عهد فتوحات محمد علي باشا في سوريا حين أجبر بعد انتصاره الكبير في معركة نزيب أو نصيبين عام ١٨٣٩ على الجيوش العثمانية وأصبح على أبواب القسطنطينية - على التراجع إلى حدود مصر التي تقررت في معاهدة لندن ١٨٤٠ وأبلغت إلى محمد علي بفرمان

(١) نوم بك شقير ، « تاريخ سيناء القديم والحديث وجغرافيتها » ، دار الجليل ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٩١ ، ص ٢١ .

١٣ فبراير ١٨٤١ حيث ثبته السلطان العثماني محمود الثاني على ولاية مصر بالحدود المرسومة على الخريطة التي أرسلت إليه^(١) .

لقد حدد فرمان ١٣ فبراير ١٨٤١ ، الحدود بين مصر والإمبراطورية العثمانية بخط يبدأ من رفح على ساحل البحر الأبيض المتوسط ويمر مستقيماً إلى ميناء العقبة على خليج العقبة ثم إلى ميناء الوجه على الساحل الشرقي لخليج العقبة . وقد ضمنته الدول الكبرى : بريطانيا ، النمسا ، المجر وبوهيميا ، بروسيا وروسيا^(٢) .

ومعنى هذا أن فرمان ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ أعطى لمصر : الوجه ، ضبه ، المويلح ، والعقبة التي تتمكن من تأمين طريق الحج البري بين مصر والحجاز . وقد توقف هذا الطريق بعد شق قناة السويس سنة ١٨٦٩ . ولم يعثر حتى الآن على الخريطين الخاصتين بهذا فرمان . فقد احترقت النسخة التي كانت تحتفظ بها مصر . وإن اختلف الحد السابق في الخريطة الموجودة في استنبول عما جاء ذكره فهي مزيفة وليست الأصلية . إلا أن فرمانات التالية لذلك تؤكد خط الحدود الذي سبقت الإشارة إليه . وقد ظل الساحل الشرقي لخليج العقبة حتى ميناء الوجه ضمن مصر حتى سنة ١٨٩٢ حين نشأت أزمة سيناء مع الإمبراطورية العثمانية^(٣) .

أهمية المنطقة لبريطانيا

وكان لموقع سيناء والمناطق الواقعة على طرفها أهمية دولية لوقوعها على طريق الهند حتى قبل شق قناة السويس والاحتلال البريطاني لمصر . ومنذ حملة نابليون بونابرت ، تحققت لبريطانيا أهمية هذه المنطقة بالنسبة لإمبراطوريتها الشرقية . فسعت بشق

(١) جريدة المؤيد ، القاهرة في ٢٤ أبريل ١٨٩٢ .

(٢) أمسين سامي باشا ، «تقويم النيل وعصر محمد علي باشا» ، الجزء الثاني ، ص ٥١٠ - انظر كذلك كريم ثابت ، «محمد علي» ، ص ص ٣١١-٣١٤ ، محمد فريد ، « تاريخ الدولة العلية العثمانية » ، دار الجيل ، بيروت ص ص ٣٤٦ - ٢٤٧ .

(٣) فيليب بن يوسف جلاد ، «قاموس الإدارة والقضاء» ، ٦م ، ص ٥٦٠ ، انظر كذلك دكتور محمد محمود الديب ، « حدود فلسطين دراسة تحليلية لوثائق الانتداب » ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ١٩٧٩ ، ص ١١٣ ، محمد فريد ، « تاريخ الدولة العلية العثمانية » ، دار الجيل

الوسائل لإبعاد أى نفوذ آخر عن تلك المنطقة بحجة حماية الطريق الذى تسلكه لمصالحها إلى الهند ، وهذا ما دفعها إلى مساندة الدولة العثمانية حين أحست بخطر جديد لمصالحها فى الشرق مع ظهور قوة محمد على باشا^(١) .

أصبحت قضية الإشراف البريطانى على تلك المنطقة أمراً حيويًا . ووجدت بعض الدوائر البريطانية أن ذلك يرتبط بالإشراف على فلسطين نظرًا لأهمية موقعها بالنسبة للمنطقة ، ورأت الحل فى إيجاد خطة لإبعاد فلسطين من دائرة نفوذ كل من الدولة العثمانية ومحمد على باشا باستيطان اليهود فى فلسطين . وللاهتمام البريطانى بفكرة هذا الاستيطان تقليد طويل انبعث فى القرن التاسع عشر من دوافع دينية بدراسة الكتاب المقدس وما تلاها من إرساليات وبعثات إلى الأرض المقدسة ، كما وجد تعبيرًا له فى الأدب الإنجليزى^(٢) . أضيف له منذ منتصف القرن التاسع عشر عنصر من الإمبريالية البريطانية دفع بريطانيا إلى أن تتبنى الفكرة الصهيونية حتى قبل أن تتبناها أية منظمة صهيونية ، فدعمت مشاريع مونتفيورى ، اليهودى البريطانى ، فى مفاوضاته الأولى مع إبراهيم باشا من أجل استيطان زراعى فى فلسطين^(٣) . ثم فى اتخاذها دور حماية اليهود فى الإمبراطورية العثمانية - فى فلسطين بالذات - تمامًا كما تدعى فرنسا حماية الكنيسة الكاثوليكية وروسيا الكنيسة الأرثوذكسية ، وكان ذلك الهدف الرئيسى وراء إنشاء قنصليتها فى القدس . وفى تعليمات لورد بالمستون إلى الممثلين فى الشرق ١٨٣٩ لتشجيع هذه الحماية وجهوده لإقناع السلطات العثمانية أن الاستيطان اليهودى فى فلسطين إنما هو لفائدكم ؛ لأنه يحول بين محمد على وبين سيادته على سوريا ومصر معًا ، إذ من موقع القوة هذا يمكنه التقدم نحو طرق داخلية من ممتلكات الدولة العثمانية الآسيوية . ومع تأزم المسألة السورية أرسل بالمستون تعليماته إلى

(١) بحرية قاسمية ، « قضية الحدود بين مصر وفلسطين قبل الحرب العالمية الأولى » ، شئون فلسطينية ، نوفمبر ١٩٧١ ، رقم «٥» ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ١٩٧١ ، ص ١٦٣ .

(2) Palestine, The Organ of the British - Palestine Committee, Jan 26, 1917, P. 2.

(٣) أبلى ليفى أبو عسل ، « يقظة العالم اليهودى » ، القاهرة ١٩٣٤ ، ص ص ١٤٦ - ١٥١ .

سفيره في الآستانة ١١ أغسطس ١٨٤٠ - يوم نزول القوات البريطانية بيروت - أنه لو عاد اليهود « إلى فلسطين » بموافقة السلطان سيكون ذلك كبحاً لأي مشاريع خطيرة في المستقبل من محمد علي باشا أو خلفائه^(١). ولذلك ، ليس من الغريب بعد عودة فلسطين إلى السلطان أن يشير قريب بالمرستون : لورد شافتسبري في مذكرة سبتمبر ١٨٤٠ إلى أن توطين اليهود بضمنان من الدول الأربع هو جزء من تسوية القضية السورية يحمل السلم والازدهار لكل البلاد التي تقع بين الفرات والبحر المتوسط . وأجمعت مشاريع بريطانية أخرى على أن التوطين اليهودي ضروري من أجل تحكّم بريطانيا في الشرق وكحل عملي للمسألة الشرقية ، أهمها ما اقترحه الكولونيل تشرشل في الستينيات بأن سوريا « ومن ضمنها فلسطين » هي جغرافياً وتاريخياً ضرورة محتمة لمصر وكلاهما يجب أن يرتبطا ببريطانيا^(٢).

صندوق الاكتشاف الفلسطيني

ويلعب صندوق الاكتشاف الفلسطيني الذي أنشئ عام ١٨٦٥ دوراً كبيراً في تأكيد هذه الصلة العملية خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر . ومع أنه انطلق من فكرة دينية بمهدف دراسة كل ما يتعلق بالأراضي المقدسة ، إلا أن حقول نشاطاته قد تعدت المسألة الدينية العلمية ، فاجتماعات جمعية الصندوق غالباً ما كانت تشير إلى فكرة « عودة اليهود » ، كما أن أعماله قد شجعت بطريقة غير مباشرة عملية الاستيطان اليهودي بتقدم صورة مفصلة عن فلسطين ، ثم إن معظم الذين قاموا بالبعثات والاكتشافات وتولوا عمليات الحفر والمسح ووضع الخرائط كانوا من سلاح الهندسة الملكية^(٣).

(1) F.O. 7/8/392 .

(٢) خيرية قاسمية « قضية الحدود بين مصر وفلسطين » ، ص ١٦٤ .

(٣) خيرية قاسمية ، « قضية الحدود بين مصر وفلسطين » ، ص ١٦٤ . بدأ الصندوق ينشر دورية منذ

بعد افتتاح قناة السويس ١٨٦٩ ، ازدادت أهمية المنطقة التي تقع شرقي القناة^(١) ، وشهدت السبعينيات فترة نشطة من الاهتمام بفلسطين لما تولى دزرائيلي رئاسة الوزارة البريطانية . ورغم أنه لم يحقق شيئاً له علاقة بفلسطين حين قام بتسيير سياسة أوروبا حيال المسألة الشرقية في مؤتمر برلين ، إلا أنه شجع ودعم جهود بريطاني آخر من الذين شاركوه عطفه على اليهود ، والدور الذي يمكن أن تلعبه بريطانيا في سياسة الشرق عن طريقهم . كان لورنس أوليفنت (١٨٢٨ - ١٨٨٨) صحفياً وعضو برلمان قام برحلات إلى الشرق بعد توقيع معاهدة برلين حين دخلت المسألة الشرقية مرحلة جديدة ، ورأى أن مشكلة الشرق ستتركز في المستقبل في تلك المنطقة التي تحرس طريق البحر الأبيض المتوسط نحو المحيط الهندي بسبب خطر تهديد روسيا بالتقدم نحو البحر الأحمر عن طريق العقبة مما يخول لها الإشراف السياسي على كل الشرق ، فوضع مشروعاً يضمن حل المشكلة وينمي موارد الإمبراطورية العثمانية بإنشاء شركة لاستيطان المناطق الغنية وغير المأهولة في الدولة العثمانية ، وأوصلته استنتاجاته ونتائج تحرياته إلى أن مكان الاستيطان هو الجانب الشرقي للأردن في النهاية العلوية للبحر الميت « أرض جلعاد » التي أثبتت تحريات صندوق الاكتشافات الفلسطيني أنه يتمتع بإمكانات كبيرة وأن الشعب الذي سيدعى لاستيطان هذا المكان هو الشعب اليهودي من أوروبا الشرقية . وفي دعوته التي بناها على عوامل دينية عاطفية تكمن أمور سياسية واستراتيجية ، فقد دعم مشروعه كل من لورد بيكونسفيلد « دزرائيلي » وسالسبوري ، وكتب سنة ١٨٨٠ أن الأحداث السياسية في الشرق قد أخذت تتجه نحو فلسطين وخاصة ولايات شرقي الأردن بسبب توسطها الجغرافي بين الأماكن المقدسة قرب الحدود الروسية من الجانب الآسيوي وبين البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر .. وبين سوريا ومصر .. ولها قيمة استراتيجية وسياسية . ومن الواضح أن اليوم ليس ببعيد حين سيتحقق تهديد المصالح البريطانية بالخطر ؛ بسبب أننا فوتنا فرصة

(٤) أيلي ليفي أبو عسل ، « يقظة العالم اليهودي » ، ص ص ١٤٦ - ١٥١ .

الاهتمام بالأشياء التي يمكن أن تحدث في المستقبل . لكن مفاوضات أوليفنت الدبلوماسية فشلت في الآستانة ورفضت السلطات إدخال عنصر جديد في المسألة الشرقية بفتح ولاياتها الآسيوية ، وخاصة هذا البلد المقدس، للهجرة اليهودية الجماعية. وربما كانت المرامي البعيدة وراء تلك المخططات هي التي دفعت السلطات العثمانية إلى وضع قيود أمام هجرة يهودية جماعية ، وأجأت السلطان عبد الحميد إلى فصل سنحوق القدس عن ولاية دمشق وإحاقه بالآستانة مباشرة^(١) .

زاد تعقيد الموقف نتيجة احتلال بريطانيا لمصر عام ١٨٨٢ . فقد أعطاهما ذلك اهتماماً أكثر بفلسطين ، وزاد قلقها في الحصول على دولة صديقة على جانبي الطريق نحو الهند ، هذا القلق هو الذي أدى إلى اهتمام متعاطف مع الهجرة اليهودية في أوروبا الشرقية إلى فلسطين في أوائل الثمانينيات وتشجيع جمعيات أحياء صهيون وتدخل الممثلين الدبلوماسيين البريطانيين بالآستانة بالاشتراك مع ممثلي فرنسا والولايات المتحدة لتخفيف قيود الدولة العثمانية على الهجرة . وربما كانت العقبات التي وضعتها السلطات العثمانية في وجه الاستيطان اليهودي في فلسطين هي التي أدت بالسلطات البريطانية في مصر إلى العطف على مشروع فردى لاستيطان يهودي في منطقة تشرف عليها بريطانيا قرب فلسطين . ويرتبط هذا المشروع باسم بول فريدمان^(٢) .

مسألة فرمان ١٨٩٢ وتطوراتها

كان السبب في تأخر صدور فرمان تولية عباس الثاني أن الباب العالي كان يريد تحوير الحد الفاصل بين سيناء والعقبة وسلخ الأخيرة عن الحدود المصرية . وقد دارت المفاوضات في هذا الشأن بين الحكومة المصرية والباب العالي بواسطة مختار

(1) F. O. 882/17. Syrian political situation since 1800.

(1) F. O. 78/5479. (Immigration of Jelils into Palestine 1891-1905), see also.

أحمد فؤاد متولى ، « مشكلة طابا بين الماضي والحاضر من واقع كتابات المسئولين عن الأحداث » ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٨٩ ، ص ٣٨ - ٣٩ .

باشا ، وبعد موافقة السير بارنج على طلب تركيا ، تقرر نهائيًا في يوم ١٦ فبراير ١٨٩٢ أن تتخلى مصر عن العقبة للدولة العلية ، ورفع هذا القرار للصدارة العظمى . وكان الخديو يرمى بهذا التساهل إلى استمالة الباب العالي وإظهار تقربه للدولة^(١) .

وبعد ذلك ، وردت برقية من الآستانة في يوم ٢٤ فبراير ١٨٩٢ بأن أحمد باشا أيوب - مشير السراى الهمايونية - سيقوم إلى القاهرة حاملاً فرمان التولية^(٢) .

مضى بعد ذلك أكثر من شهر ، ولما لم يصل المندوب حتى أواخر مارس ، بحث الخديو مع النظار في إرسال خطاب استعجال إلى الباب العالي مشرب بروح الود والتفاهم ، فأرسل بعد الاتفاق على صيغته . وفي الساعة الثانية بعد ظهر ٥ أبريل ١٨٩٢ ، وصل إلى محطة العاصمة حامل فرمان أحمد أيوب باشا . وقد كان من المنتظر قراءة فرمان كالعادة ، ولكن كانت ثمة عقبات لم تذلل بعد ، وذلك أن الباب العالي كان يريد الاستيلاء على الطور أيضًا بعد التسليم له في العقبة . وقد ورد ذلك في فرمان الذى لم يطلع عليه سفير إنجلترا في الآستانة .

فأرسل اللورد سالسبورى رئيس الوزراء الإنجليزى إلى السير أفلين بارنج « لورد كرومر » بالمعارضة فى تلاوة فرمان قبل الاطلاع عليه وحتى تصدر إرادة سلطانية بترك إدارة الطور لمصر . وقد اجتمع قنصلا فرنسا وروسيا مع الجناب الخديو . وتحدثا معه فى مسألة الطور . ثم اجتمع تيجران باشا « الإنجليزى الجنسية » ناظر الخارجية

(١) أحمد شفيق باشا ، « مذكراتى فى نصف قرن » ، الجزء الثانى ، سلسلة تاريخ المصريين رقم ٨٤ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٥ ، ص ٩ - ١٠ .

(٢) فيليب بن يوسف جلاد ، « قاموس الإدارة والقضاء » م ٦ ، الإسكندرية ١٨٩٩م ، نص فرمان ص ٧٥٧ - ٧٥٨ ، انظر كذلك ، أحمد فؤاد متولى ، « مشكلة طابا بين الماضى والحاضر » ، ص ٤١ - ٤٢ .

لقد صدر هذا فرمان فى ٧ جمادى الآخرة ١٣٠٩هـ الموافق ٩ يناير ١٨٩٢م . وأرخ فى ٢٧ شعبان ١٣٠٩هـ الموافق ٢٦ مارس ١٨٩٢م .

٢٢٦ _____ أم الرشرش بين حقائق التاريخ والأطماع الصهيونية
المصرية بالغازى مختار باشا وتداولاً ملياً فى الموضوع . ورفعت نتيجة المباحثات إلى
السلطان^(١) .

أحست الدولة العثمانية بحرج موقفها أمام الدول الكبرى الضامنة لفرمان ١٣
فبراير ١٨٤١م الخاص بمحمد على باشا ، ووجدت أن الموقف يندى بعواقب وخيمة ،
فبدأت تتراجع بعد المراوغة^(٢) .

وكانت فرنسا وروسيا توافقان على ترك الطور لتركيا على أن يسمح لمصر نظير
ذلك بتقوية جيشها إلى حد يكفى لصون حدودها . ولكن إنجلترا كانت تعارض
فى هذه النظرية . ثم شاء القدر أن يحل المشكلة لصالح مصر وأن تبقى الطور فى
يدها^(٣) .

فريدمان والاستيطان الصهيونى

والشئ العجيب أن أزمة سنة ١٨٩٢ بين مصر والإمبراطورية العثمانية ارتبطت
بمحاولة مبكرة للصهيونية سعياً للاستيطان على الساحل الشرقى لخليج العقبة على
مقربة من فلسطين . فقد حضر يهودى ألماني يدعى فريدمان سنة ١٨٩٠ إلى مصر
واستأذن فى السفر لزيارة الساحل الشرقى لخليج العقبة ، وأجابه الخديو والاستعمار
البريطانى إلى طلبه ، ثم عاد إلى ألمانيا ليجمع اليهود للاستيطان فى الأراضى المصرية
الواقعة فى شرق خليج العقبة وما حولها . وحضر مع عشرين من اليهود الألمان
والروس ، واشتروا أرضاً جهة المويلح وما حولها مع العلم بأن قوانين الدولة العثمانية
كانت تمنع بيع الأراضى فى شبه الجزيرة العربية . وقد أساء فريدمان وجماعته معاملة
الأهالى هناك . وأثار ذلك العمل غيظ السلطان العثمانى فاتخذ إجراءات :

١ - طرد فريدمان وجماعته الصهيونية خارج الإمبراطورية العثمانية .

(١) أحمد شفيق باشا ، « مذكراتى فى نصف قرن » ، ص ص ١٠ - ١٢ ، انظر أيضاً فيليب بن يوسف
جلاد ، « قاموس الإدارة والقضاء » ، م ٦ ، ص ٧٥٩ .

(٢) جريدة المقطم ، العدد ٥١٩٥ بتاريخ الثلاثاء ٢ مايو ١٩٠٦م الموافق ٩ ربيع الأول ١٣٢٤هـ .

(٣) أحمد شفيق باشا « مذكراتى فى نصف قرن » الجزء الثانى ، ص ص ١٢ - ١٣ .

٢ - إدخال تعديلات على حدود مصر بعد موت الخديو توفيق في ٧ يناير ١٨٩٢ . ولذلك حرم فرمان تولية الخديو عباس الثاني الصادر في ١٧ يناير ١٨٩٢ مصر ليس فقط من إدارة المراكز التي كانت ممنوحة لها شرق خليج العقبة ، وإنما أيضاً من قسم من أرضها ، وهو شبه جزيرة سيناء . ولذلك ، ثارت ثائرة مصر والاستعمار البريطاني لأن هذا العمل كان معناه العدوان على تسوية ١٨٤٠ - ١٨٤١ التي ضمنتها الدول الكبرى في مؤتمر لندن عام ١٨٤٠ وفرمان ١٣ فبراير ١٨٤١^(١) .

وبذلك ، اقتربت الدولة العثمانية بصورة خطيرة من قناة السويس ؛ الأمر الذي يهدد شريان الحياة للإمبراطورية البريطانية . كما أن اللورد كرومر خاف أن تتمكن الدولة العثمانية بهذا الاقتراب من إثارة المشاكل السياسية في مصر . ولذلك استقر الرأي على إبعادها قدر الإمكان عن مصر وعن قناة السويس^(٢) . ومن ثم اتخذ اللورد كرومر المعتمد البريطاني في مصر موقفاً صلباً في هذا الخصوص ، وأوعز بعدم تلاوة فرمان حتى يأتي تعديل من القسطنطينية يعيد لمصر شبه جزيرة سيناء التي حاولت أن تسليخها منها الدولة العثمانية وتضمها إلى ولاية الحجاز . وبالفعل تقرر إعادة شبه جزيرة سيناء لمصر في برقية أرسلها جواد باشا الصدر الأعظم إلى الخديو عباس الثاني يوم ٨ أبريل ١٨٩٢ جاء فيها : « أما من جهة شبه جزيرة سيناء فهي باقية على حالتها ، وتكون إدارتها بمعرفة الخديوية المصرية التي كانت مداراة بها في عهد جدكم إسماعيل باشا ووالدكم محمد توفيق باشا . أما الأراضي التي تقع بين العقبة والوجه فقد ضمت إلى ولاية الحجاز نظراً لأنها لم تعد في طريق المحمل المصري الشريف »^(٣) .

(١) محمد محمود الديب « حدود فلسطين - دراسة تحليلية لوثائق الانتداب » ، ص ص ١١٣ - ١١٤ ،

انظر كذلك : أحمد فؤاد متولى ، « مشكلة طابا بين الماضي والحاضر » ، ص ص ٣٨ - ٣٩ .

(٢) Mariolile, j. (Cromer in Egypt), Elek looks, London 1970, P.264, see also, باشا ، « مسألة العقبة » ، ص ٩ .

(٣) فيليب بن يوسف جلاد ، « قاموس الإدارة والقضاء » ، م ٦ ، ص ٧٥٩ ، انظر كذلك : خيرية

قاسمية ، « قضية الحدود بين مصر وفلسطين قبل الحرب العالمية الأولى » ، مجلة شئون فلسطينية ،

عدد ٥ نوفمبر ١٩٧١ ، ص ١٦٦ .

وأصبحت تلك البرقية مكملة لفرمان تولية الخديو عباس الثاني ، وقد نشرها اللورد كرومر على العالم . وحتى لا يحدث أى لبس بخصوص تلك البرقية المكملة لفرمان التولية ، أرسل اللورد كرومر بمذكرة فى ١٣ أبريل ١٨٩٢ إلى وزير الخارجية المصرى تيجران باشا جاء فيها : « إن برقية الصدر الأعظم التى تفضلتم باطلاعى عليها تجعل من الواضح أن شبه جزيرة سيناء - وهى الأراضى المحددة من الشرق بخط يسير فى اتجاه جنوبي شرقى من نقطة قريبة من شرق العريش إلى رأس خليج العقبة - سوف تظل تحت الإدارة المصرية ، وأن قلعة العقبة الواقعة شرق هذا الخط سوف تبقى قسمًا من ولاية الحجاز »^(١) .

ونشرت كل هذه الوقائق فى جريدة الوقائع المصرية بتاريخ ١٤ أبريل ١٨٩٢ . وأحيطت دول العالم التى كانت ضامنة لاتفاقية لندن ١٨٤٠ وفرمان ١٨٤١ ، فرنسا وروسيا وإنجلترا والنمسا وروسيا ، بكل هذه الإجراءات وكذلك الباب العالى . وردت هذه الدول بالموافقة ، أما السلطان فلم يعترض على شىء^(٢) .

وهكذا نجد أن الأراضى التى تقع غرب العقبة وضمنها قرية « أم الرشرش » هى أراضٍ مصرية تكون إدارتها بمعرفة الخديوية المصرية ، وأصبح معروفًا أن الحد الفاصل بين سيناء والأملاك العثمانية هو « خط يمتد من نقطة شرقى العريش بمسافة ٢٨ ميلاً هى رفح يتجه جنوبًا بشرق حتى ينتهى إلى قلعة العقبة على خليج العقبة ، فما وقع غربى هذا الخط تكون إدارته منوطة بالخديوية المصرية »^(٣) .

(١) محمد محمود الديب « حدود فلسطين - دراسة تحليلية لوثائق الانتداب » ، ص ١١٥ ، انظر كذلك: فيليب بن يوسف جلاد ، « قاموس الإدارة والقضاء » ، م ٦ ص ٧٦٠ ، نعوم بك شقير ، المرجع السابق ص ص ٥٨٨ - ٥٨٩ .

(٢) محمد محمود الديب « حدود فلسطين - دراسة تحليلية لوثائق الانتداب » ، ص ١١٦ .

(٣) جريدة المقطم ، العدد ٥١٩٦ بتاريخ ٣ مايو ١٩٠٦ ، الموافق ٨ ربيع الأول ١٣٢٤هـ .

واعتبر مشروع فريدمان السبب المباشر لنشوب نزاع الحدود بين مصر وتركيا عام ١٨٩٢ ، فقد أثار هذا المشروع الشكوك في ذهن السلطان بأن اليهود المتوطنين خارج حدود السلطنة سوف يستخدمون هذا المكان كنقطة انطلاق نحو فلسطين وإنشاء دولة يهودية - وأراد السلطان أن ينتهز الظروف لحسم مسألة الحدود الفاصلة بين الأراضي المصرية وسائر ولايات السلطنة العثمانية، لأنه منذ فرمان ١٨٤١ لم يجر تحديداً قاطعاً، واتجه الرأي في الآستانة على عدم ترك شئ لمصر خارج حدودها الأصلية « خشية أن تكون هذه الجهات يوماً ما محلاً لنفوذ غير وطني ولا إسلامي فيه .. ولا سيما وأن خليج العقبة من المهدات إلى بلاد فلسطين»^(١) .

ومن الجدير بالذكر أن إنجلترا والدول المتحالفة معها التي وقعت على معاهدة لندن في ١٥ يوليو سنة ١٨٤٠م ، والضامنة لتنفيذ فرمان السلطان الصادر إلى محمد على في ١٣ فبراير سنة ١٨٤١م بخصوص حكم مصر ، لم تتدخل في شئون مصر عندما رفض محمد على تحديد الحدود المصرية الشرقية كما جاء في فرمان ١٣ فبراير ١٨٤١ ، وجعل حد مصر الشرقي من رفح حتى جنوب قلعة الوجه . أما في عهد عباس حلمي «عباس الثاني» فإن إنجلترا تدخلت عندما أراد الباب العالي سلخ جزء من سيناء ، وحرضت بعض الدول الكبرى كفرنسا وروسيا ، خوفاً على قناة السويس وعلى مصر التي تحتلها بالطبع^(٢) .

أحسّت الدولة العثمانية بأن ذراعيها قد لويتا ، عندما ضغطت عليها إنجلترا لتصحیح الوضع بالنسبة لفرمان تولية العرش الذي صدر إلى عباس حلمي باشا ، فأصدرت برقية الصدر الأعظم التي صححت الوضع بالنسبة لشبه جزيرة سيناء . وهذا الوضع يعتبر وضعاً مهيناً بالنسبة لدولة الخلافة الإسلامية وبالنسبة للسلطان العثماني

(١) جريدة المؤيد ، عدد يوم ٢٤ أبريل ١٨٩٢ ، انظر كذلك : جريدة المقطم ، عدد يوم ٦ أبريل

١٨٩٢ ، أحمد فؤاد متولى ، « مشكلة طابا بين الماضي والحاضر من واقع كتابات المسئولين عن

الأحداث » ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٨٩ ، ص ص ٣٨ - ٣٩ .

(٢) أحمد فؤاد متولى ، « مشكلة طابا بين الماضي والحاضر » ، ص ٦٧ .

خليفة المسلمين .. مما جعل الأوضاع في هذه المنطقة الحدودية تنذر بالخطر ، لوجود ثلاث قوى فيها هي^(١) :

١ - مصر صاحبة الحق في أراضيها .

٢ - إنجلترا ، دولة الاستعمار صاحبة القوة والبطش .

٣ - الدولة العثمانية ، دولة الخلافة الإسلامية ، وصاحبة السيادة على ولاياتها .

فمصر تريد حقها كاملاً في سيطرتها على كامل أراضيها دون انتقاص من حدودها التاريخية والطبيعية .

وإنجلترا تريد تأمين الحدود الشرقية لمصر تأميناً كاملاً ، تحسباً للأخطار المرتقبة في المستقبل على قناة السويس ، شريان الحياة للإمبراطورية البريطانية . وتود أن تقيم الاستحكامات المنيعة في منطقة طابا وما حولها ضمناً وأماناً .

والدولة العثمانية تريد أن تسترجع هيبتها التي ضاعت منذ عهد محمد علي باشا ، وسيطرتها الفعلية على مقدرات الأمور في مصر لترسم سياستها كما ترى هي لا كما يرى المصريون . تريد تبعية فعلية لا اسمية . تريد تقوية قبضتها من آن لآخر على مصر . لذلك فهي ترى أن مطالبة مصر أو إنجلترا برسم خط الحدود الشرقية لمصر يعتبر تعدياً على سيادتها ، من دولة تابعة لها وهي مصر التي تشغل جزءاً من إمبراطورية يحكمها خليفة المسلمين ، أو من دولة استعمارية محتلة كإنجلترا التي تحتل إحدى الولايات الهامة للدولة العثمانية . ولا يمكن رسم خط الحدود والحالة هذه ، لأن الإمبراطورية كل يتبع السلطان العثماني ولا يمكن أن يتجزأ أبداً . ولا يشغل مساحة الإمبراطورية إلا دولة واحدة حاكمة ومسيطرة هي الدولة العثمانية وسلطان واحد هو السلطان العثماني ، وما الخديو إلا وال تابع ، ينبغي أن تسير تصرفاته وأعماله في فلك الحكم العثماني ، وتحت سيطرة السلطان وتوجيهاته وأوامره . فمع من ترسم الحدود على حد قول الصدر الأعظم مراراً^(٢) ؟

(١) المصدر السابق ، ص ص ٨٦ - ٩٦ .

(٢) أحمد فؤاد متولى ، « مشكلة طابا بين الماضي والحاضر » ، ص ص ٦٨ - ٩٦ .

ويتضح من فرمان اعتلاء العرش الذى صدر لعباس حلمى باشا ، أن الدولة العثمانية كانت تريد الاقتراب من قناة السويس بأى شكل من الأشكال كى تتمكن من نقل معادها العسكرية إلى المناطق البعيدة . وتود إحكام السيطرة على الأراضى البعيدة التابعة لها فى منطقة البحر الأحمر والخليج^(١) . كما تهدف إلى تأمين الأماكن المقدسة فى القدس وفى الحجاز . وكانت تريد أيضاً إبعاد مصر وإنجلترا عن العقبة حيث تخطط لمد خط السكك الحديدية من معان إلى العقبة بعد أن وصل خط الحجاز من إستنبول حتى المدينة المنورة^(٢) .

ونستطيع هنا أن نستخلص نتيجة هامة من جراء أزمة فرمان تولية العرش لعباس حلمى باشا ، وهى أن هذا الحدث « فتح أعين الدبلوماسية المصرية والدبلوماسية البريطانية على ضرورة مراقبة تحركات الدولة العثمانية عند حدود مصر الشرقية »^(٣) .

حادث المرشش

هدأت الأوضاع على الحدود ، ونامت المسألة نوعاً طبيعياً ، إلى أن عين الكولونيل براملى BRAMLY الإنجليزى مفتشاً على شبه جزيرة سيناء سنة ١٩٠٥^(٤) . وشرع المستر براملى فى الإصلاح الإدارى ، وكان ضمن هذا الإصلاح تنظيم البوليس الأهلى وتقسيمته إلى هجانة ومشاة وإقامة سد فى بطن وادى العريش قرب نخل لرى الأراضى المجاورة لها . فأشاعت بعض الجرائد المحلية المعادية للاحتلال خيراً مؤداه أن الإنجليز أرسلوا رجالهم إلى سيناء ليينوا القلاع على حدودها وفى النفس شىء ، فبعث والى

(١) أورخان محمد على « السلطان عبد الحميد الثانى » الكويت ١٩٩١ ، ص ٢٦٦ .

(٢) السلطان عبد الحميد الثانى « مذكراتى السياسية ١٨٩١ - ١٩٠٨ » ، مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٧٧ ، ص ص ١٠٥ - ١٠٦ .

(٣) أحمد أمين عامر « أزمة طابا وانعكاساتها على الدبلوماسية المصرية » ، مجلة السياسة .

(٤) أحمد فؤاد متولى « مشكلة طابا بين الماضى والحاضر » ، ص ٧١ .

سوريا برسالة برقية بهذا المعنى إلى السلطان العثماني فطلب من مصر رجوع العساكر الإنجليزية عن الحدود فأجابته مصر بكذب هذه الإشاعة^(١) .

ثم بلغ مصر أن السلطان أمر بإنشاء نقطة عسكرية عند عين القصيمة وأخرى عند مشاش الكنتلا في وادي الجرافى وكلا المحليين داخل في حد سيناء . وكان السلطان قد أنشأ قائممقامية جديدة سنة ١٨٩٩ في بئر سبع . فأخذت مصر ترقب حركاته على الحدود بعين ساهرة^(٢) .

وفى يناير ١٩٠٦ أصدرت الحكومة المصرية أوامرها إلى المستر براملى مفتش شبه جزيرة سيناء ، بوضع خفر من البوليس في نقب العقبة لمراقبة الحدود ، فذهب المستر براملى ببعض رجال البوليس إلى رأس النقب . ولما لم يجد فيه الماء الكافى نزل إلى المرشش « أم رشرش » في سفتح النقب على الجانب الغربى من رأس خليج العقبة^(٣) .

ولما علم البكباشى صدقى أفندى قائد العقبة بالخبر ، توجه إلى براملى بعد أن وصل إليه رسولان من قبله يطلبان السماح لبراملى بمقابلته . وقد أفاد براملى بصورة قاطعة بأنه جاء لإقامة معسكر للجنود في المنطقة المذكورة ، طبقاً للأوامر التى تلقاها من سردار مصر « حاكم مصر العام » . وذكر أن المناطق الممتدة من خليج العقبة حتى البحر الأبيض تابعة لمصر ، وهى المرشش وأم البيان وغديان ونقب العكفى وكونتلة الجرافى والقسيمة وعجروود وخان يونس^(٤) .

وكان براملى بك قائماً في خيمته في المرشش ، وجنود حرس الحدود «الجندرمه» الذين في معيته في خيمة أخرى ضربت على حدة. فتقابل معه رشدى باشا وقال له: إن المنطقة التى يقيم فيها منطقة تابعة لإدارة الحكومة السنينة مباشرة . ولن يسمح

(١) نعوم بك شقى « تاريخ سيناء القديم والحديث وجغرافيتها » ، ص ٥٨٩ .

(٢) نعوم بك شقى ، المصدر السابق ، ص ٥٨٩ .

(٣) نعوم بك شقى « تاريخ سيناء القديم والحديث وجغرافيتها » ، ص ٥٨٩ .

(٤) رشدى باشا « مسألة العقبة » ، ص ٢٥٥ . وكان رشدى باشا يشغل منصب قومندان العقبة التركى

أى محافظ العقبة أو الحاكم العسكرى للعقبة .

له بإنشاء مركز الحراسة الذى أرادته . ونصحه رشدى باشا بأن ينهى المشكلة فى مصر^(١) .

وهكذا بدأت المشكلة بهذه الصورة . وقد طلبت الدولة العلية العثمانية ضم معظم بلاد التيه إلى سوريا وذلك برسم خط من العريش إلى السويس ومن هذه إلى نقب العقبة بحيث يكون شرق هذا الخط لها والباقى لمصر . ولما رفضت مصر النظر فى هذا الطلب عادت الدولة العثمانية فطلبت قسمة جزيرة سيناء قسمين بخط مستقيم من العريش إلى رأس محمد وجعل القسم الغربى لمصر والشرقى للدولة العثمانية فأبت مصر النظر فى هذا الطلب أيضاً وأصرت على الخط الذى يخوله فرمان تولية عباس حلمى باشا^(٢) وبرقية الصدر الأعظم جواد باشا من رفح إلى العقبة^(٣) .

أزمة خليج العقبة - طابا سنة ١٩٠٦

تأزمت الأمور مرة ثانية بين الإمبراطورية العثمانية ومصر على الحدود المصرية فى شتاء سنة ١٩٠٦ . ويرجع ذلك إلى رغبة الدولة العلية العثمانية فى الاستيلاء على خليج العقبة وتحويله إلى بحر مغلق فى أيدي الدولة العثمانية . وإبعاد مصر عن مداخله وساحله الغربى . وكذلك رغبة من الدولة العثمانية فى مد فرع من خط سكة حديد الحجاز الذى كان مزماً مده آنذاك من معان إلى العقبة ، وبالتالي زحزحة الحد السياسى المصرى غرباً مما يضيع على القوات المصرية أو قوات الاحتلال البريطانى اتخاذ سيناء كقاعدة لتهديد هذا الخط^(٤) .

وتسيجة لهذا احتلت الدولة العثمانية طابا ، ونقب العقبة ، والقطار وهى ضمن الأراضى المصرية الأمر الذى فجر أزمة طابا سنة ١٩٠٦ . وبرر الغازى أحمد مختار

(١) المصدر السابق ، ص ص ٢٠ - ٢١ .

(٢) نعم بك شقير « تاريخ سيناء القدم والحديث وجغرافيتها » ، ص ٥٩٤ .

(٣) جريدة المقطم ، العدد ٥١٢٩ بتاريخ الثلاثاء ١٣ فبراير سنة ١٩٠٦ الموافق ١٩ من ذى الحجة سنة

١٣٢٣هـ .

(٤) محمد محمود الديب ، « حدود فلسطين » ، ص ١١٦ .

باشا «المعتمد من الدولة العثمانية في مصر» احتلال تركيا لطابا في مذكرة مطولة بعث بها إلى بطرس غالى باشا ناظر الخارجية المصرية بالآتى : « موقع طابا المختلف عليه والداخل في شبه الجزيرة إن كانت إدارته لمصر فإن مرور فرع خط السكة الحديد الحجازية من العقبة يجعل منه ميناء بالخليج وأن سواحل الميناء لا تكون في يد إدارتين . ومع أن الملكية للدولة فإن كل ما هناك هو عبارة عن ساحة جبلية صخرية لا تنفع بشيء ، وإن ترك إدارتها للدولة لن يضر ذلك مصر في شيء »^(١) .

ورفضت مصر ومعها إنجلترا هذا العمل وتلك الإجراءات . وأن اللورد كرومر الذى اتخذنا موقفاً صلباً بخصوص حدود مصر الشرقية وقت أزمة القرم لم يتهاون مرة ثانية في هذا الموضوع . فلو قبلت مصر تلك الادعاءات التركية لتنازلت عن حقوق مصرية تاريخية مقررة على الساحل الغربى لخليج العقبة . ولو رضيت إنجلترا بالادعاءات التركية لأصبحت الدولة العثمانية في مركز اقتراب تستطيع أن تهدد منه ، بصورة خطيرة ، قناة السويس شريان حياة الإمبراطورية البريطانية^(٢) .

وبينما الأحداث توالى تطورها في منطقة الحدود الشرقية ، قدم القومسيير التركى في مصر أحمد مختار باشا تقريراً مطولاً لوزير الخارجية المصرية بطرس غالى باشا عن المشكلة برمتها في ١١ أبريل سنة ١٩٠٦ م . وهذا التقرير يحمل بين طياته ، وجهة النظر التركية التى أرسلت من إستنبول بناء على المعلومات الواردة من أحمد مختار باشا ومن قومندان العقبة رشدى باشا ، وتتلخص فى الآتى^(٣) :

- إن حد مصر هو من العريش إلى السويس . وكل الأراضى الواقعة فى شرقه هى لولاية الحجاز وسوريا . ولم يكن فى الأمر معاهدة دولية بخصوص ذلك .

(١) أحمد شفيق ، «مذكراتى فى نصف القرن» ، الجزء الثانى ، القسم الثانى ، القاهرة ١٩٣٦ ، ص ٨٢ .

(٢) محمد محمود الديب ، « حدود فلسطين » ، ص ١١٧ .

(٣) أحمد فؤاد متولى « مشكلة طابا بين الماضى والحاضر » ، ص ص ١٣٢ - ١٤٣ ، تقرير المعتمد

التركى أحمد مختار باشا المقدم للحكومة المصرية ، انظر كذلك : إبراهيم أمين غالى ، « سيناء المصرية

عبر التاريخ » ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٦ ، ص ص ٢٣٩ - ٢٤٠ .

- إن شبه جزيرة سيناء تركت لمصر بصفة أمانة تسترد عند اللزوم وحين الوقت لاستردادها .

- إن خليج العقبة وشبه جزيرة سيناء خارج المنطقة التي حددها فرمان ١٣ فبراير ١٨٤١ م . وإن برقية ٨ أبريل ١٨٩٢ تشير فقط إلى القسم الغربي من شبه جزيرة سيناء الواقع إلى الغرب من الخط الممتد من العريش إلى السويس .

- إن تفسير هذه البرقية هو وفقاً لرغبة الحكومة التركية . وإن العقبة هي عاصمة متصرفية العقبة .

- للدولة العثمانية الحق في إرسال عساكر شاهانية كل يوم حتى السويس .

- طابا وغيرها من المراكز التي احتلتها القوات التركية تقع ضمن أراضي الدولة العثمانية . وإن كان هناك عدوان فهو عدوان مصر عليها^(١) .

- بالرغم من أن الملكية للدولة العثمانية ، فإن الموقع المتنازع عليه عبارة عن مساحة جبلية صخرية ، لا تنفع بشيء وترك إدارتها للدولة العثمانية لا يضر مصر بشيء .

- حق الكلام هو لسمو الخديو وحده ، وليس لبريطانيا .

وهكذا كشف الباب العالي كل أوراقه بتقديمه المذكرة إلى وزارة الخارجية المصرية . فاتضح أن المطامع التركية تتعدى بكثير موقع طابا . وترمى إلى الاعتراف للسلطان بحق استرداد جزء من سيناء أو شبه الجزيرة بأسرها إذا ما ترائى له ذلك^(٢) .

ورأت إنجلترا أنها احتلت مصر وشبه جزيرة سيناء تابعة لها ، ولا بد وأن تظل كذلك طالما بقيت إنجلترا في مصر . ولا بد وأن تكون حدود مصر مستقرة كما كانت وغير متنازع عليها كما كان الحال قبل الاحتلال البريطاني لمصر^(٣) وإن إنجلترا لن تعرض حد مصر الشرقي ، وأمن قناة السويس وأمن مصر للتحكيم الدولي . وأنها تفضل حل النزاع بطريق المفاوضات وإنما بشرط أن تجلو القوات التركية أولاً عن المراكز المصرية التي احتلتها في شبه جزيرة سيناء ، وأن السلطان التركي ليس حراً في

(1) Parliamentary Debates, vol – 156, May 7, 1906, pp. 917-919.

(٢) إبراهيم أمين غالي « سيناء المصرية عبر التاريخ » ، ص ٤٢٠ .

(3) Parliamentary Debates, vol. 156, May 7, 1906, p. 919.

٢٣٦ ————— أم الرشرش بين حقائق التاريخ والأطماع الصهيونية
تفسير فرمان سنة ١٨٩٢ والبرقية المكملة له حسب هواه^(١) . وأن القبول بمطالب
السلطان والسكوت عليها معناها تهديد الملاحه في قناة السويس ، وحرية مصر ،
ومستقبل الأسرة الخديوية في مصر .

ولما اطلع الخديو عباس حلمي على تقرير المعتمد التركي أحمد مختار ، تباحث مع
رئيس الوزراء مصطفى فهمي باشا ووزير الخارجية بطرس غالي باشا فيما جاء فيه،
وبعد تباحث رئيس الوزراء ووزير الخارجية مع اللورد كرومر ، قدما للخديو تقريراً
منه بوجوب حفظ حقوق مصر في سيناء^(٢) .

وفي اليوم التالي ١٤ أبريل ١٩٠٦ بعث الخديو عباس برسالة سرية للصدارة
العظمى يفتح على ما ورد في التقرير ويقول : لا يمكن قبول ما جاء في التقرير لأنه
يتجاوز حقوق مصر ، التي تتلخص في أن الحدود المصرية في شبه جزيرة سيناء تنتهي
في العقبة ، ويدخل في هذا التحديد موقع طابا كما ورد في برقية الصدر الأعظم جواد
باشا في ٨ أبريل ١٨٩٢ والتي تعتبر أساساً للمفاوضات^(٣) .

وعلى أثر وصول هذه الرسالة للآستانة ، جاء الرد في ٢٣ أبريل سنة ١٩٠٦ بما
يفيد أنه صرح لإدارة المصرية بإنشاء نقاط حراسة عسكرية على طريق الحج بين العقبة
والوجه . وبما أن هذه الأماكن لم تدخل في خريطة التحديد المصرية المرفقة بالفرمان
الصادر لمحمد علي باشا ، فقد وجد من الضرورة إعادة هذه المناطق لولاية الحجاز .
أما شبه جزيرة سيناء فتبقى على ما كانت عليه أيام محمد علي باشا وإسماعيل باشا
ومحمد توفيق باشا^(٤) .

(1) Parliamentary Debates, vol. 155, April 2, 1906, p. 169.

(٢) أحمد فؤاد متولى « مشكلة طابا بين الماضي والحاضر » ص ص ١٤٢ - ١٤٣ .

(٣) أحمد شفيق باشا « مذكراتي في نصف قرن » ، الجزء الثاني ، القسم الثاني ، ص ص ٨٣ - ٨٤ ،
انظر كذلك ، إبراهيم أمين غالي ، « سيناء المصرية عبر التاريخ » ، ص ص ٢٤١ - ٢٤٢ ، انظر :
نص رسالة الخديو عباس إلى الصدر الأعظم بتاريخ ١٤ أبريل ١٩٠٦ والتي تحدد وجهة نظر
الحكومة المصرية بشأن حدود مصر الفاصلة بينها وبين الأملاك العثمانية « نص الرسالة باللغة
الإنجليزية » .

(٤) أحمد شفيق باشا « مذكراتي في نصف قرن » ، الجزء الثاني ، القسم الثاني ، ص ٨٤ .

ثم وردت رسالة خاصة من الباب العالي إلى الخديو عباس حلمي باشا تطلب منه الاطلاع على فرمان الصادر لمحمد علي باشا والخريطة المرفقة التي توضح حدود مصر، لكى لا يكون هناك أدنى شك أو تردد أو تدخل أجنبى والمقصود به تدخل بريطانيا في المشكلة^(١).

وتقرر سفر أحمد شفيق باشا إلى إستنبول لحل مشكلة طابا حيث سافر يوم ١١ أبريل سنة ١٩٠٦ ومع ملف بصور جميع المكاتبات والوثائق المتعلقة بمسألة طابا . وقد وعد الصدر الأعظم أن الدولة العثمانية تجرى اللازم لإنهاء الأزمة . أما موقف السفير الإنجليزي ، فإنه يعكس وجهة نظر حكومته في ضرورة إخلاء طابا أولاً من الجنود العثمانيين ثم البدء في ذلك في التفاوض لتخطيط الحدود . وعاد أحمد شفيق إلى مصر في ٢٨ يونيو ١٩٠٦ صفر اليدين دون أن يصل إلى حل لمشكلة طابا^(٢) .

حادث رفح

أرسلت الدولة العثمانية نفراً من الجنود لاحتلال رفح بعد أن احتلوا طابا . فأزالوا عمودى الحدود من مكائهما تحت السدرة في ١٢ أبريل سنة ١٩٠٦ بعد أن تقرر سفر أحمد شفيق باشا إلى إستنبول لحل المشكلة . واقتلعوا عمد التلغراف المصرى بين بئر رفح وطريق بئر الرفيح في ٢٨ أبريل ، وجعلوا مكائهما عمداً تركية . ونصبوا خيامهم في حد مصر بين السدرة وطريق رفيح^(٣) .

ويذكر رشدى باشا أن إنجلترا استغلت هذا الحادث استغلالاً جيداً ، حيث استخدمته في تقوية موقف مصر من مشكلة العقبة^(٤) . ورفض الخديو عباس حلمي باشا بإيعاز من اللورد كرومر مطالب الدولة العثمانية الخاصة بالحدود والسابق ذكرها ، وأرسل رده إلى السلطان وجاء فيه : « إن الأساس الصالح للحدود هو برقية ٨ أبريل ١٨٩٢ . وإنه إذا ما كانت هناك بعض البقاع المعينة مشكوك في وضعها فيمكن أن يسمح المهندسون خط الحدود بين رفح والعقبة . وبدلاً من أن ينتهى هذا

(١) أحمد شفيق باشا ، المصدر السابق ، ص ص ٨٤ - ٨٥ .

(٢) أحمد فؤاد متولى « مشكلة طابا بين الماضى والحاضر » ، ص ص ١٦٥ - ١٦٦ .

(٣) نعم بك شقير ، المصدر السابق ، ص ٥٦٤ .

(٤) رشدى باشا « مسألة العقبة » ، ص ٧٨ .

الخط عند قلعة العقبة يمكن أن يسير إلى نقطة على ساحل الخليج تبعد ما لا يقل عن ثلاثة أميال إلى غرب القلعة . وختم برقيته بأن طابا على اقتراحه تقع ضمن الأراضي المصرية، وبالتالي يجب أن تنسحب منها قوات الدولة العثمانية فوراً حتى يتسنى بدء المفاوضات مع الدولة العلية»^(١) . وبذلك نجد أن أم الرشرش تقع داخل الحدود المصرية .

واعترض السلطان العثماني على ذلك وقال : إن برقية ٨ أبريل ١٨٩٢ المكملة لفرمان تولية الخديو عباس حلمي الثاني تشير فقط إلى القسم الغربي من شبه جزيرة سيناء^(٢) .

زاد حادث رفع من غضب الإنجليز ، فقرروا وضع حد لمشكلة الحدود ، وذلك باستعمال التهديد حيث أرسلوا إنذاراً بواسطة السفير البريطاني في إتنبول نيقولاس أوكونور إلى وزير الخارجية التركي توفيق باشا يوم ٣ مايو ١٩٠٦ للجلاء عن طابا وتحديد خط الحدود بين رفح حتى رأس خليج العقبة على أن يتم قبول ذلك خلال عشرة أيام وتهديد بعواقب الامتناع عن التنفيذ^(٣) .

كانت أول ردود الفعل التركية للإنذار البريطاني أن أرسل السلطان العثماني عبد الحميد الثاني «نجيب باشا» كمبعوث خاص له صباح يوم ٥ مايو سنة ١٩٠٦ إلى السفير البريطاني في إستانبول نيكولاس أوكونور برسالة يجدد فيها تأكيداته باحترام برقية ٨ أبريل ١٨٩٢، وبأنه لا يدعى أى شىء غرب خليج العقبة . وقد رد السير أوكونور على ذلك بأنه على السلطان أولاً وضع هذه التأكيدات موضع التنفيذ بالجلاء عن طابا وتعيين الحدود بين سيناء وولاية الحجاز^(٤) .

(١) محمد محمود الديب « حدود فلسطين » ، ص ١٢٧ - ١٢٨ .

(2) F.O, No. 372, Sir Telilfik to Sir N. Oconor, 17 may 1906.

(3) F.O, No. 163, Sir N. Oconor to Sir Eduard Grey, May 3. 1906.

(4) Oconor to Grey, May 5, 1906 (Tel. No. 38) corres. No. 138.

ورفعت بريطانيا كل المحاولات العثمانية التي تهدف إلى إصدار بريطانيا تصريحًا بسيادة السلطان على مصر^(١). وقد رأت إستنبول بعد ذلك أن تغير من أسلوبها السياسي؛ فقامت بمحاولة يائسة لإبعاد البريطانيين تمامًا عن ميدان الصراع على اعتبار أن المسألة تخص مصر والدولة العثمانية وحدهما. وعلى هذا الأساس أرسل الصدر الأعظم برقية إلى الخديو في ٧ مايو ١٩٠٦ يطلب منه التفاهم مع مختار باشا بصورة مباشرة بشأن مسألة الحدود. وكان مما جاء في هذه البرقية «أن وضع إنجلترا في مصر يعتمد كما هو معروف على الاحتلال العسكري في البلاد، وأن تدخلها في تلك المسألة لا يصح فهي من اختصاصك وحدك. وحيث إن السلطان قد أسند إدارة الأراضي المصرية إليكم، فهو يرجوكم ألا تمكنوا أية قوة أجنبية من التدخل^(٢)».

وقد بعث الخديو - بناء على نصيحة كرومر - بالرد على برقية الصدر الأعظم، بأنه ليس لديه ما يضيفه إلى آرائه السابقة في الرد على هذا الموضوع^(٣).

وقبل أن تنتضى الأيام العشرة للإنذار جاء رد الصدر الأعظم توفيق باشا بعد ثمانية أيام أى في ١١ مايو سنة ١٩٠٦، يؤكد على سعادته تلقي الرسالة. وينفى الشبهات التي تحوم حول قيام الجنود العثمانيين بشغل طابا. ويقرر إعادتهم إلى أماكنهم الأولى. ويبدى موافقته على بحث الموضوع من جانب المسئولين المصريين والعثمانيين^(٤).

ويبدو من هذا الرد أن الدولة العثمانية بدأت تحسب للأمر حسابها، وأخذت تتوقع رد فعل عنيف إذا هي ترددت أو رفضت ما يطلب منها. وأصبحت تعلق تأزم الموقف على تصلب رشدى باشا وتصرفاته على الحدود^(٥).

(1) Corres. No 199, coromer to grey, may 10, 1906 (Tel. No. 104)

(2) Corres. No 179, O conor to grey, may 9, 1906 (Tel. No. 96)

(3) Corres. No 181, cromer to grey, mg 9, 1906 (Tel. No. 147)

(٤) رشدى باشا، المرجع السابق، ص ٨٣.

(٥) رشدى باشا «مسألة العقبة»، ص ٦٥.

كما اشتد غضب بعض الصحف اليومية في مصر في تلك الآونة من الباب العالي الذى يدعى أن جزءاً من سيناء لا يتبع مصر ويود سلخه منها عن طريق الفرمانات المتوالية التى يحدد فيها حدود مصر الشرقية . وقد اتضح ذلك بنوع خاص في جريدة المقطم التى أخذت تؤكد علىصرية سيناء بكاملها^(١) .

ارتأت الحكومة البريطانية أن ترسل مذكرة أخرى في ١٢ مايو سنة ١٩٠٦م قبل يوم واحد من انتهاء مهلة مذكرة التهديد والوعيد الأولى المؤرخة في ٣ مايو سنة ١٩٠٦ . فقام أوكونور بمخاطبة الصدر الأعظم توفيق باشا بمذكرة تؤكد على خط الحدود الذى يبدأ من رفح شمالاً إلى العقبة جنوباً . وتنبه إلى عدم استعمال تعبيرات غامضة في المباحثات في المستقبل كما حدث من قبل في مشكلة طابا عند بداية ظهورها^(٢) .

ولكن السلطان العثماني أقر بعد ذلك بالحقوق المصرية المشروعة . واعترفت الحكومة العلية في رسالة بعث بها الصدر الأعظم توفيق باشا إلى سفير إنجلترا باستنبول سير نيقولاس أوكونور ١٩٠٦ بأنه لم يخطر قط ببال الحكومة الشاهانية الخروج عن مضمون البرقية المرسله من المرحوم جواد باشا إلى سمو الخديو في ٨ أبريل ١٨٩٢ وإن إخلاء طابا قد تقرر وخرجت العساكر التركية من طابا ، وعاد عساكر رفح إلى حدهم ، وأقام قائمقام بئر سبع عمودين من خرائب رفح ونصبهما تحت السدرة مكان العمودين الأولين علامة على الحدود المصرية الفلسطينية^(٣) . ويتضح من هذه المذكرة أن الحكومة البريطانية أصبحت على علم تام بانسحاب الجنود العثمانيين من طابا . ولذلك طالبت في هذه المذكرة بتطبيق البند الثاني من مذكرة التهديد الأولى التى أرسلت بتاريخ ٣ مايو ١٩٠٦ . وهو تحديد خط الحدود من رفح شمالاً إلى العقبة جنوباً . وقد استقر الرأى على أن الضباط أركان حرب الموجودين الآن في العقبة

(١) المقطم ، العدد ٥٢٠١ ، الصادر في يوم الخميس ١٠ مايو سنة ١٩٠٦ ، الموافق ١٦ ربيع الأول ١٣٢٤هـ .

(٢) رشدى باشا ، المصدر السابق ، ص ص ٩٤ - ٩٥ .

(3) F. O; No. 372, Sir Tewfik to Sir N. Oconor, 14 May 1906.

انظر كذلك : نعوم بك شقير ، المرجع السابق ، ص ص ٦٠٢ - ٦٠٣ .

والموظفين الذين ينتدبون من قبل سمو الخديو يملكون معاً على الأمانة اللازمة ليحروا التحريات الفنية على مقتضى القواعد الطبوغرافية ويعينوا على خريطة - النقطة الطبيعية التي يكون بها ضمان الحال الحاضرة وبقاء القدم على قدمه في شبه جزيرة سيناء على القاعدة التي وضعها جواد باشا في برقيته السالفة الذكر . وأن يرسموا خطأً للحدود يتدئ من رفح بقرب العريش ويتجه جنوباً بشرق على خط مستقيم تقريباً إلى نقطة على خليج العقبة تبعد على الأقل ٣ أميال من العقبة^(١) .

وتكونت اللجنة المصرية التي اشتركت مع نظيرتها التركية لتعيين خط الحدود برئاسة الأميرالاي أوين مدير المخابرات ، اللواء إبراهيم فتحى ، ونعوم شقير سكرتيراً لها بمقتضى أمر صادر من الخديو في ٢٢ مارس ١٩٠٦ . وصحب اللجنة كل من كيلنج Keeling ، وويد Wade وهما مهندسان إنجليزيان في قلم المساحة المصرية من أجل رسم خريطة فنية للحدود من العقبة إلى رفح . وقد سمح للجنة بإدخال تغييرات طفيفة على مسار الحد وفقاً للظروف الطبيعية وتمشياً مع الأحوال البشرية . وتصدر الإشارة هنا أن الظروف الطبوغرافية والبشرية قد تسمح أحياناً بحدوث انحرافات في مسار الحد لخلق حد سياسى مناسب . ويكون الانحراف في حدود ١ كيلومتر (٠,٦٢ ميل) وأحياناً ينص على أن الانحراف لا بد وأن يكون متساوى المساحة على الجانبين^(٢) .

تحرك أعضاء اللجنة المصرية من مصر يوم الخميس ٢٤ مايو ١٩٠٦ . قاصدين العقبة بطريق البحر ، فوصلوا جزيرة فرعون مساء السبت ٢٦ مايو من نفس العام . وفي صباح اليوم التالى ذهبت اللجنة إلى العقبة . وكان لا بد للجنة المصرية قبل ترك العقبة من تعيين نقطة على خليج العقبة تكون مبدأ الخط الذى تسير عليه . فاتفقت على أن يكون مبدؤه المرشش التي تبعد ٣ ٣/٤ ميل من قلعة العقبة . وخطت موقع رفح تخميناً من الخرائط التي بأيديها . ورسمت بين المكانين خطأً تقريبياً اتخذته دليلاً لها

(1) Parliamentary Debates, Vol. 157, May 14, 1906, pp. 98 - 99 .

(2) East, G. And J.R.V. Prescott, «our fragmented word».

لتعيين جهة السير على الحدود . فجعلت أول محطة لها المفرق عند رأس النقب ، فوصلته عصر يوم ٤ يونيو ١٩٠٦ . وقد استخدمت اللجنة المصرية مائة جمل ، يخفرها اثنا عشر من هجانة خفر السواحل^(١) .

وفي اليوم التالي لحق مندوبا اللجنة التركية : « الأميرالاي أحمد مظفر بك ، والبكباشى محمد فهمى بك » باللجنة المصرية . وفي ٧ يونيو سنة ١٩٠٦ سار المهندسان فى المقدمة على الخط المستقيم التخمينى يعينان مواقع الجبال والأمكنة البارزة على جانب الخط بالأرصاد الفلكية ، ويرسمان خريطة الطريق . ومازال الجمع سائراً حتى وصل إلى رفح فى ٢٨ يونيو سنة ١٩٠٦ . وكان فى انتظارهما هناك المستر هيس أحد موظفى قلم المساحة . فرسموا خريطة للحدود عبارة عن خط مستقيم من رفح إلى المرشش والبلاد على جانبيه على نحو خمسة أميال من كل جانب^(٢) . ويتميز خط الحدود الذى رسمته اللجنة المصرية بأنه يقترب جداً من المستقيم ، وينطبق على طبيعة البلاد وتقسيم القبائل أكثر من أى خط سواه^(٣) .

اللجنة التركية وتحديد المبدئى لخط الحدود

ضمت اللجنة التركية طبقاً للإرادة السلطانية السامية كلاً من الأميرالاي أركان حرب أحمد مظفر بك ، والبكباشى أركان حرب محمد فهمى بك ، وصحب اللجنة كل من الصاغ أركان حرب محمد أسعد بك ياور رشدى باشا ، وضابط تركى برتبة ملازم وبعض العساكر ، وسليم بك أسعد سكرتيراً^(٤) .

وفى ١٥ يونيو ١٩٠٦ ، أبلغ قومندان الجيش الخامس الهمايونى ، رشدى باشا بنص البرقية العاجلة التى وصلت إليه من القيادة العامة للجيش العثمانى ، والتى اشتملت

(١) أحمد فؤاد متولى « مشكلة طابا بين الماضى والحاضر » ، ص ٢٢٥ .

(٢) نعموم بك شقير ، المصدر السابق ، ص ص ٦٠٧ - ٦٠٨ .

(٣) نعموم بك شقير ، المصدر السابق ، ص ٦٠٨ .

(٤) نعموم بك شقير ، المصدر السابق ، ص ص ٦٠٥ - ٦٠٧ .

على عدم تخطى الأوامر السابقة الخاصة برسم خط الحدود . ويتوه بأن الخط الفاصل سينتهى عند نقطة في منطقة المرشش تبعد ثلاثة أميال أو ثلاثة أميال وربع من الميل من العقبة ، كما ذكر وفد المباحثات التركي . ويهيب السردار بلجنة المباحثات التركية إلى عدم إفساح المجال لإثارة أية مشاكل^(١) .

وعرضت اللجنة التركية خطأ قامت برسمه سمته : الخط الإدارى الفاصل ، يبدأ من رأس طابا على خليج العقبة ويمتد على رؤوس التلال المطلة على العقبة إلى المفرق . ثم سار بطريق غزة المشهور إلى أن وصل جبل الأحيقبة فانحرف شمالاً بغرب إلى بئر عجرود فضمها إليه . ثم عاد إلى طريق غزة حتى وصل قرب عين القصيمة فانحرف نحو ٥ كيلومترات غرباً عنها فضمها إليه . ومر فوق جبل المويلح إلى الروافعة في وادى العريش . ويمشى في الوادى إلى المقضبة . ثم سار شمالاً بشرق إلى الحد بين قبائل السواركة والترايين فمشى عليه إلى رفح فمر بعامودى الحدود إلى أن وصل إلى البحر المتوسط عند تل خرائب عند ميناء رفح على البحر الأبيض المتوسط . وبذلك أدخلت اللجنة التركية في هذا الخط كثيراً من مناطق قبائل اللحيوات والتيهاها العزازمة والترايين التابعين لسيناء^(٢) .

رأى اللجنة المصرية فيما وصلت إليه اللجنة التركية

وكانت حجتها في ذلك أن قائممقامية بئر السبع بعد تأسيسها سنة ١٨٩٩ ، وقائمقامية غزة من قبلها ضربتا عليها الضرائب . وأن اتفاق ١٤ مايو ١٩٠٦ يقضى عليهم بترك القدم على قدمه . وفندت اللجنة المصرية هذه الحجة تفصيلاً وبينت بالأدلة الناصعة والمحجرات الرسمية وشهادة مشايخ الحدود أنفسهم الذين رافقوا اللجنة من العقبة إلى رفح ، أن المناطق التي سلخها حد اللجنة التركية من مصر وضمها إلى فلسطين « الدولة العثمانية » كانت منذ القدم تابعة لسيناء ولم يدفع أهلها قط ضرائب للدولة العثمانية . إلا أنه قد تبين أن قبائل القديرات التيهاها والصبيحون العزازمة

(١) رشدى باشا ، المصدر السابق ، ص ص ١٠٤ - ١٠٥ .

(٢) نعوم بك شقير « تاريخ سيناء وجغرافيتها » ، ص ص ٦٠٩ - ٦١٠ .

الداخليين في مصر بناء على خط الحد الذي رسمته اللجنة المصرية كانت قائممقامية بشر السبع بعد تأسيسها سنة ١٨٩٩ ضربت عليهم بعض الضرائب ظلماً واعتداءً ، ولكن قائممقامية غزة من قبلها لم تضرب عليهم ضرائب^(١) .

وقد استغرقت هذه المناقشات بين اللجنتين عدة جلسات استمرت من ٨ - ٢٢ يوليو سنة ١٩٠٦ ، فأصرت اللجنة التركية على رأيها ولم تشأ تعديل خطها فرفع كل فريق حججه وآراءه مفصلة إلى حكومته^(٢) .

اتفاق الحدود

وفي يوم ١٣ سبتمبر سنة ١٩٠٦ جاء لكل فريق تلغراف من حكومته يخبره بما تم عليه القرار بين سفير الدولة البريطانية ومجلس الوكلاء « الوزراء » في الآستانة ، ومفاد الإرادة السلطانية بهذا الشأن وهو^(٣) :

١ - أن الحكومة العثمانية أقرت على أن النقب من رأس طابا الشرقي إلى نقطة قرب المفرق يكون للعقبة . وأما المفرق نفسه وآبار ماين عين قديس وعين القديرات وعين القصيمة تكون لجزيرة سيناء . ويكون خط الحدود من المفرق إلى رفح خطأ يقرب من المستقيم ، كما اقترحت اللجنة المصرية .

٢ - أن تقام أعمدة على خط الحدود للدلالة عليه ، وذلك بحضور مندوبي الفريقين .

٣ - أن القبائل القاطنة على جانبي الخط يكون لها حق الانتفاع بالمياه كما جرت العادة . وكذلك العساكر الشاهانية وأفراد الأهالي والجنדרمة « البوليس العسكرى » ، ينتفعون من المياه التي بقيت غربي الخط الفاصل .

٤ - أن يبقى الأهالي والعربان على ما كانوا عليه قبلاً من حيث ملكية الأراضي والمياه ، كما هو متعارف بينهما .

(١) نعوم بك شقير « تاريخ سيناء وجغرافيتها » ، ص ٦١٠ .

(٢) المصدر السابق ، نفس المكان .

(٣) أحمد فؤاد متولى « مشكلة طابا بين الماضي والحاضر » ، ص ص ٢٤٢ - ٢٤٣ ، انظر كذلك : نص

اتفاقية الحدود باللغة الإنجليزية ، ص ص ٤٠٠ - ٤٠٤ .

عقد أعضاء اللجنتين عدة جلسات ، وعينوا خط الحدود بموجب هذه القواعد الأربع على الخريطة . فكان خطأ يقرب جدًا من المستقيم ولكنه واقع كله غربى الخط المستقيم إلا نقطة واحدة فيه أى موضع عمودى رفح ، فإنها وحدها على الخط المستقيم . فرفع كل فريق هذا الخط وصورة الاتفاق إلى حكومته . وفى أول أكتوبر ١٩٠٦ جاء لكل فريق التصريح من حكومته بتوقيع الاتفاق والخريطة ، فاجتمع الفريقان فى خيمة المندوبين المصريين بعد ظهر ذلك اليوم . ورسما الخط المتفق عليه منقطاً بالخير الأسود الهندى على نسختين من خريطة الحدود^(١) .

ومن الملاحظ على اتفاق الحدود ، أنه نص على تعيين حدود شبه جزيرة سيناء الشرقية على أنه « خط فاصل إدارى » ، وذلك لأنه كان يفصل بين ولايتين من ولايات الدولة العثمانية . ففى ذلك الوقت لا يمكن اعتبار مصر دولة مستقلة حتى تصبح حدودها مع الولايات العثمانية الواقعة إلى الشرق منها حدودًا سياسية فهى دولة تابعة . وبقيام الحرب العالمية الأولى أعلنت بريطانيا الحماية على مصر ، وانقضاء تبعيتها للدولة العلية ، وبالتالي إنهاء سيادة الدولة العثمانية وكل حقوقها على مصر^(٢) . وبهزيمة الدولة العلية فى الحرب العالمية الأولى ، وقعت اتفاقية سيفر ثم لوزان التى عدلتها . وبمقتضاها تنازلت تركيا رسمياً عن كل حقوقها فى مصر . فقد نصت المادة ١٧ من معاهدة لوزان ١٩٢٣م على أن تنازل تركيا عن حقوقها فى مصر والسودان ويسرى ذلك ابتداء من نوفمبر ١٩١٤م^(٣) . وبناء على ذلك أصبحت حدود مصر الشرقية حدودًا دولية ، تفصل بين مصر المشمولة بالحماية البريطانية التى انتهت اسمياً فى ٢٨ فبراير ١٩٢٢م وبين فلسطين الخاضعة للانتداب البريطانى^(٤) .

(١) نعوم بك شقير ، المرجع السابق ، ص ٦١٠ .

(٢) أحمد فؤاد متولى « مشكلة طابا بين الماضى والحاضر » ، ص ص ٢٥٧ - ٢٥٨ .

(٣) الكتاب الأبيض « القضية المصرية ١٨٨٢ - ١٩٥٤ » ، وزارة الخارجية المصرية ، المطبعة الأميرية

بالقاهرة ١٩٥٥ ، ص ٢١٦ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٢٩ ، ص ص ٢١٢ - ٢١٥ .

وفي هذا المقام لا يفوتنا أن نثبت هنا أنه قد تم تبادل المذكرات بين وزارة الخارجية المصرية ووزارة الخارجية البريطانية عقب إعلان تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢م، تطلب فيها بريطانيا من مصر الاعتراف بوضع بريطانيا الخاص بفلسطين، وتؤكد فيها أن حدودها مع فلسطين قائمة ومشهورة ومعروفة منذ سنة ١٩٠٦ وليس فيها لبس أو غموض، وليست موضع خلاف، وبإمكان جمعية الأمم أي: عصبة الأمم تعيين هذه الحدود بما لديها من خرائط لا تقبل الجدل^(١).

ولم تنزع أية دولة منذ ذلك التاريخ وحتى الآن في السيادة المصرية على سيناء، ابتداءً من رفح إلى رأس خليج العقبة. ثم جاءت اتفاقية الهدنة لتصف هذا الخط بأنه «خط الحدود المصرية»، مما يفيد اعتراف إسرائيل بهذه الصفة في نص المادة ٦ من اتفاقية الهدنة المصرية الإسرائيلية في ٢٤ فبراير ١٩٤٩^(٢).

ومن الملاحظ على النص العربي والإنجليزي المترجمين عن الأصل التركي، أنهما أقحما كلمة نقطة Point على صياغة المادة الأولى دون أن تكون موجودة في الأصل التركي فقد ورد في الترجمتين أن «الخط الفاصل يبدأ من نقطة رأس طابا»^(٣). كما أن الأصل التركي للاتفاقية المكتوب من صورتين والخريطة المرفقة المرسومة من صورتين والموضح بيانها بالتركية، هما اللذان وقعا من أعضاء اللجنتين. أما الترجمة الإنجليزية والعربية للأصل التركي، فلم توقع على الإطلاق^(٤).

ويجب ألا يغيب عنا ونحن نتناول موضوع ترسيم الحدود عام ١٩٠٦ أن نذكر أن قومندان العقبة رشدي باشا رغم تحيزه لجانب موطنه تركيا ومحاولته مخالفة الحقيقة في

(١) أحمد شفيق باشا «حوليات مصر السياسية»، الحولية السياسية الأولى، ص ص ٣٨ - ٣٩، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٣٦.

(٢) وثائق وزارة الدفاع المصرية، «اتفاقية الهدنة العامة المصرية - الإسرائيلية»، هيئة الأمم المتحدة - رودس - اليونان، ٢٤ فبراير سنة ١٩٤٩، القاهرة، مطبعة الحرية والبحرية الفرعية ١٩٤٩، ص ٦.

(٣) أحمد فؤاد متولى «مشكلة طابا بين الماضي والحاضر»، ص ٢٥٨.

(٤) المصدر السابق، ص ٢٤٤.

كثير مما ذكره في كتابه إلا أنه اعترف في برقية أرسلها إلى قيادة الجيش العثماني بتاريخ ١٦ يونية سنة ١٩٠٦ بأن خط الحدود يبدأ من رفح وينتهي على بعد ثلاثة أميال من خليج العقبة ، نتيجة لسريان مفعول حكم برقية الصدر الأعظم جواد باشا السابق ذكره^(١) .

كما أبلغ قومندان الجيش الخامس الهمايوني رشدي باشا يوم ١٥ يونية سنة ١٩٠٦ بنص برقية عاجلة وصلت إليه من القيادة العامة للجيش العثماني ، يشير فيها سردار الجيش العثماني إلى ضرورة عدم تخطي الأوامر الخاصة برسم خط الحدود . كما ينوه بأن الخط الفاصل سينتهي عند نقطة في منطقة المرشش تبعد ثلاثة أميال أو ثلاثة أميال وربع من الميل من العقبة ، كما ذكر وفد المباحثات التركي . ويهيب السردار بلجنة المباحثات التركية إلى عدم إفساح المجال لإثارة أى مشاكل ، مع الاحتفاظ بالتعليمات والأوامر المبلغة إليها في نفس الوقت^(٢) .

كما نوضح أن اتفاقية الحدود عام ١٩٠٦ نصت في المادة السادسة على أن جميع القبائل القاطنة في كلاً الجانبين لها حق الانتفاع بالمياه حسب سابق عاداتهم أى أن القديم يبقى على قدمه فيما يتعلق بذلك وتعطى التأمينات اللازمة بهذا الشأن إلى العربان والعشائر . كما نصت المادة الثامنة على أن يبقى أهالي وعربان الجهتين على ما كانت عليه قبلاً من حيث ملكية المياه والحقول والأراضي في الجهتين كما هو متعارف بينهم^(٣) .

لقد انتهت مشكلة تعيين الحدود الشرقية لمصر بصفة نهائية بين الحكومتين: المصرية والعثمانية في أكتوبر سنة ١٩٠٦ ، بالاتفاق على أن تمتد حدود مصر الشرقية من رفح، على البحر الأبيض المتوسط ، إلى نقطة تقع غرب ميناء العقبة بثلاثة أميال . وبقيت

(١) أحمد فؤاد متولى « مشكلة طابا بين الماضى والحاضر » ، ص ص ٢٣٠ - ٢٣١ .

(٢) دكتور أحمد فؤاد متولى ، المصدر السابق ، انظر : نص برقية القيادة العامة للجيش العثماني يوم ١٥ يونيه ١٩٠٦ إلى قومندان الجيش الخامس الهمايوني رشدي باشا مترجمة إلى العربية نقلاً عن رشدي باشا ، « مسألة العقبة » ، ص ص ١٠٤ - ١٠٥ .

(٣) أحمد فؤاد متولى ، المصدر السابق ، ص ص ٢٤٤ - ٢٤٨ ، نقلاً عن أرشيف متحف طوبقابي سراي بإستنبول ، رقم ٥٢٢٧ ، الوقائع المصرية ، العدد ١٢٧ السنة ٧٦ بتاريخ ١٠ نوفمبر ١٩٠٦ .

طابا في أملاك مصر .. أما العقبة فظلت في أملاك تركيا . على أنه يلاحظ أن هذه الحدود كانت حدوداً إدارية بحتة ، إذ ظلت السيادة العثمانية - من حيث أحكام القانون الدولي - ثابتة على جميع البلاد التي تضم خليج العقبة . فاستمر هذا الخليج محتفظاً بوصف الخليج الوطني ، واستمرت مضايقه ، في تيران وصنافر ، مضايق وطنية كذلك^(١) .

وتوالت الأحداث الدولية بعد ذلك . فقامت الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ ، وفي خلالها انحاز الشريف حسين : أمير مكة ، إلى جانب بريطانيا ، وأعلن الثورة على الدولة العثمانية ، ونجح الثوار في الاستيلاء على العقبة في صيف عام ١٩١٧ . ومنذ ذلك التاريخ صار ميناء العقبة - بصفة مؤقتة - جزءاً من أرض الحجاز التي أصبح يحكمها الملك حسين . وعندما ثار عليه «الوهابيون» فر الملك إلى العقبة عام ١٩٢٤ ، وحاول «الوهابيون» بزعامه الملك عبد العزيز آل فيصل آل سعود أن يحتلوا العقبة ، ولكن تدخل البريطانيين منعه من ذلك . وقامت المفاوضات بين الملك عبد العزيز آل سعود والبريطانيين ، وانتهت بعقد معاهدة جدة سنة ١٩٢٧ . وتضمنت هذه المعاهدة نصاً يقضى بأن تبقى العقبة في إقليم إمارة شرق الأردن . وكان الوضع الدولي للمنطقة كلها قد تبدل بما عقدته الدول المتحالفة من معاهدات فيما بينها - في خلال الحرب العالمية الأولى وعقبها مباشرة - لتصفية الإمبراطورية العثمانية ، وتوزيع أقاليمها أسلاباً فيما بين بريطانيا وفرنسا^(٢) .

وكان لهذه الأحداث جميعاً آثارها في النطاق الدولي ، وبالأخص في موضعنا الهام وهو خليج العقبة . فقد ظهر هذا الخليج - لأول مرة في تاريخه - بمظهر مخالف لمظهره الأول . ذلك أنه لم يعد يصدق عليه وصف الخليج الوطني ، لأن شواطئه صارت تضمها دول ثلاث ، هي : المملكة العربية السعودية ، المملكة المصرية ، وإمارة شرق الأردن . ولكنه من المهم أن نقرر أنه ظل محتفظاً بطابعه التاريخي البحت . ذلك أن مياهه تحولت من مياه وطنية خالصة لدولة واحدة - هي الدولة العثمانية المسلمة - إلى

(١) حامد سلطان ، «مشكلة خليج العقبة» ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ١٩٦٧ ،

ص ١١ .

(٢) حامد سلطان ، الصمندر السابق ، ص ١٢ - ١٣ .

مياه تاريخية تخضع للسيادة المشتركة للدول الثلاث الإسلامية التي ورثت ما كان للدولة العثمانية من حقوق دولية في هذه المنطقة ، وهي مصر ، والسعودية ، والأردن . وهذه السيادة المشتركة الثابتة للدول الثلاث سيادة كاملة لا يرد عليها حق المرور البرى للسفن الأجنبية . ومن الأمور الجوهرية أن نقرر أيضاً أن خليج العقبة ظل منذ أقدم العصور بعيداً عن استعمال الملاحة الدولية . ذلك أن الملاحة فيه كانت مقصورة على رعايا الدولة العثمانية . وعندما ورثت مصر والسعودية والأردن - ما كان للدولة العثمانية من حقوق دولية على مياهه ظلت الملاحة في الخليج مقصورة على رعاياها . وإذا كانت السفن البريطانية قد مارست الملاحة في الخليج عقب الحرب العالمية الأولى ، فقد كان ذلك للوصول إلى ميناء العقبة - في شرق الأردن - بوصف أن الأردن كانت تحت الانتداب البريطاني ، وتوجد بها بعض القوات العسكرية البريطانية التي كانت السفن البريطانية تقوم بتموينها عن طريق خليج العقبة وميناء العقبة . ولم يصل إلى علمنا أنه قد مارست الملاحة في خليج العقبة سفن أخرى تابعة لأية دولة أجنبية ، مما يقطع بأن خليج العقبة طوال هذه الفترة ، لم يكن طريقاً تستعمله الملاحة الدولية^(١) .

حدود فلسطين الشرقية

وفي ٣١ أكتوبر ١٩١٧ احتلت القوات البريطانية بقيادة الجنرال اللنبي بئر السبع ، وفي أول نوفمبر احتلت غزة وتبعها يافا ، وسار اللنبي بعد ذلك إلى القدس التي سلمها إليه رئيس البلدية بعد انسحاب الأتراك منها في ٩ ديسمبر ١٩١٧ . وفي ١٩ سبتمبر ١٩١٨ استأنف الجنرال اللنبي الهجوم على القوات التركية في باقى فلسطين حيث تقدم بصورة سريعة وفي خلال أسبوع سقطت الأجزاء الشمالية من فلسطين ودخلت القوات البريطانية حيفا وعكا والناصره وطبرية وبيسان وصفد . وبذلك انتهى الحكم التركي لفلسطين^(٢) .

(١) حامد سلطان ، « مشكلة خليج العقبة » ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ١٩٦٧ ، ص ١٣ - ١٤ .

(٢) وزارة الدفاع الوطني - الجيش اللبناني ، الأركان العامة - الشعبة الخامسة ، القضية الفلسطينية والخطر الصهيوني ، بيروت الطبعة الأولى ١٩٧٣ ، ص ص ٤٥ - ٤٧ .

وقبل أن يجف مداد مراسلات حسين - مكماهون دخلت وزارة الخارجية البريطانية في مفاوضات مع الحكومة الفرنسية لاقتسام مناطق النفوذ في الولايات العربية الخاضعة للحكم التركي ضاربة عرض الحائط بالالتزامات والوعود التي قطعتها حول الاعتراف بالاستقلال العربي في تلك المناطق^(١).

تمخضت هذه المباحثات عن اتفاقية سايكس - بيكو المعروفة والتي حصلت بموجبها فرنسا على أجزاء كبيرة من سوريا وجنوب الأناضول وعلى منطقة الموصل في العراق ولونت هذه المناطق على خارطة الاتفاق باللون الأزرق . أما حصّة بريطانيا فشملت الأراضي الواقعة من أقصى جنوب سوريا إلى العراق شاملة بغداد والبصرة والمناطق الواقعة بين الخليج العربي والأراضي الممنوحة لفرنسا ، كما شملت مينائي عكا وحيفا ولونت جميعها باللون الأحمر . أما بالنسبة لفلسطين فقد لونت باللون البني إذ اتفق على إقامة نظام دولي خاص بها^(٢).

وعلى الرغم من أن اتفاقية سايكس - بيكو كانت مؤامرة ضد الوحدة العربية والتقدم العربي بالدرجة الأولى فإن القسم المتعلق منها بفلسطين ، وضع معظمه تحت إدارة دولية ، كان موضع معارضة من قبل قوى أخرى أيضاً . ذلك أن هجوم الأتراك على قناة السويس برهن في مطلع الحرب بشكل قاطع أن خط الدفاع الأول عن ذلك الممر الحيوي هو فلسطين لا سيناء ، وبالتالي فقد رأى لقيف من السياسيين والعسكريين البريطانيين أن الاكتفاء بتحجيد فلسطين ووضعها تحت إدارة دولية ربما عرض أمن السويس للخطر خصوصاً وأن دولة قوية طامعة هي فرنسا تصبح عندئذ بمثابة جارة لمصر . أما القوة الأخرى التي كانت تعارض إقامة إدارة دولية في فلسطين فكانت الحركة الصهيونية العالمية التي رأت في الحرب واحتمال تفكك الإمبراطورية العثمانية فرصة تاريخية للحصول على فلسطين بموجب اتفاقات دولية وعن طريق

(١) عبد الوهاب الكيالي « تاريخ فلسطين الحديث » ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ١٩٧٠ ، ص ٩٢ .

(٢) وثائق جامعة الدول العربية « الوثائق الرئيسية لقضية فلسطين » ، صادرة عن الأمانة العامة للجامعة العربية ، القاهرة ١٩٥٧ ، نص اتفاقية سايكس - بيكو .

الرعاية الاستعمارية الغربية أى عن طريق التحالف مع أشد الدول الاستعمارية طمعًا بفلسطين أى من خلال الانضواء تحت علم الإمبراطورية البريطانية^(١).

غادر آخر جندي بريطاني شرق الأردن يوم ٤ ديسمبر ١٩١٩ ، وبذلك أخلت إنجلترا المنطقة (ب) على حسب اتفاقية سايس - بيكو لإتاحة الفرصة لنشأة الدولة العربية المتفق عليها بين بريطانيا وفرنسا . وبالفعل قامت الدولة العربية في دمشق تحت حكم فيصل بن الشريف حسين ، إلا أن فرنسا أسقطتها في ٢٥ يوليو ١٩٢٠ . وقد أصدرت إنجلترا على منع فرنسا من تخطى حدود اتفاقية سايكس - بيكو جنوبًا . وقرر الإنجليز سواء جاء فيصل إلى المنطقة (ب) أم لم يكن هناك حكام عرب ، أم نشأ هناك شبح دولة عربية « فإن هذه المنطقة (شرق الأردن) يجب أن تكون مجالاً لنفوذهم وحدهم فقط » . ونقلت تلك الرغبة لفرنسا^(٢).

وهكذا قسمت هذه المنطقة إلى ما وصف بالعراق ، وفلسطين وإمارة شرق الأردن، التي وضعت جميعها تحت الانتداب البريطاني ، وسوريا ولبنان اللتين وضعتا تحت الانتداب الفرنسي ، والحجاز التي قام الملك عبد العزيز آل عبد الرحمن آل فيصل آل سعود بتوحيدها مع غيرها من مناطق شبه الجزيرة العربية في شكل مملكة متحدة هي : المملكة العربية السعودية . أما مصر فقد ألزمت بريطانيا بإعلان انتهاء الحماية عليها ، وصارت دولة مستقلة بذاتها^(٣).

وتسلم هربرت صموئيل عمله كمندوب سامي لإنجلترا في فلسطين يوم ٢٩ يوليو ١٩٢٠ . أى بعد إخلاء إنجلترا لشرق الأردن ، وسقوط دولة فيصل في دمشق ، وسيطرة فرنسا هناك .

وفي الحال قام في نفس اليوم بإرسال برقية لوزارة الخارجية البريطانية يقول فيها : « إن سكان حوران يطالبون باحتلال إنجلترا لمنطقتهم . وحوران هذه كانت عبارة

(١) وزارة الدفاع الوطني - الجيش اللبناني ، الأركان العامة - الشعبة الخامسة ، القضية الفلسطينية والخطر الصهيوني ، بيروت ١٩٧٣ ، ص ٨٥ .

(٢) د. محمد محمود الديب « حدود فلسطين » ، ص ٨٥ .

(٣) حامد سلطان «مشكلة خليج العقبة» ، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة ١٩٦٧ ، ص ١٦ .

عن سنحق من ولاية سوريا يقع إلى الشرق من نهر الأردن بين البحر الميت ودمشق . ونصح حكومته البريطانية بأن تغتنم تلك الفرصة للحصول على حدود سياسية شرقية صحيحة لفلسطين»^(١) . ويكشف هذا عن الجهود التي بذلتها الصهيونية في رسم الحد السياسي الشرقي لفلسطين مستغلة في ذلك عميلها الأول .

وجرت مناقشات بخصوص الحد السياسي الشرقي لفلسطين بعد ذلك مباشرة في وزارة الخارجية البريطانية . وعقدت لجنة فلسطين التي تشكلت في وزارة الخارجية البريطانية أول اجتماع لها في ١٠ أغسطس ١٩٢٠ برئاسة السير جون تल्ली John Tilley . وناقشت في اجتماعها الثالث الذي عقد في ١٧ أغسطس ١٩٢٠ مسألة حدود فلسطين وميزوبوتاميا . وقررت زيادة المناقشة في اجتماعات قادمة حول كيف وأين تثبت حدود كل من فلسطين وميزوبوتاميا . وناقشت اللجنة الحد الشرقي لفلسطين جنوب نقطة الاتصال مع المنطقة الفرنسية (سوريا) في اجتماعها الخامس يوم ٢٤ أغسطس ١٩٢٠^(٢) .

وقال الميجور جنرال ثويتس Thwaites ممثل وزارة الحرب ، أن هيئته (العسكرية) مقنعة بخطط منزهاجن Meinertzhagen كحد لفلسطين . أما كليتون Clayton فقد أشار إلى أن خط منزهاجن Meinertzhagen Line لأية دولة تنشأ مستقبلاً في شرق الخط سوف يحرم فلسطين من مخرج على خليج العقبة . وقررت اللجنة أن تبحث خط منزهاجن بعد ذلك بأسبوع عندما يكون هو نفسه حاضراً^(٣) .

وفي الاجتماع الثامن للجنة فلسطين الذي عقد في ٣١ أغسطس ١٩٢٠ دعا السير تल्ली الكولونيل منزهاجن لأن يشرح الخط الذي يحمل اسمه ، وهل هو رسمه بناء على طلب من مؤتمر الصلح . وأجاب الكولونيل منزهاجن بأنه لم يرسمه بناء على طلب من مؤتمر الصلح ولكنه شرح رأيه في هذا الخصوص لمؤتمر الصلح . وذهب إلى القاهرة

(١) حامد سلطان «مشكلة خليج العقبة» ، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة ١٩٦٧، ص ١٦ .

(2) Foreign Office Registry No. E. 12296/65, November 7, 1922.

(3) Foreign Office, op cit, p. 14.

ورسم حدود فلسطين بناء على أسس واعتبارات اقتصادية محضة وذلك بالتشاور مع الجنرال بولز Bols^(١).

وإلى الجنوب من البحر الميت قال الكولونيل منرزهاجن : أن قراره برسم حدود فلسطين قد تأثر برغبة الدكتور وايزمان في أن يكون لفلسطين ميناء عند العقبة . وأن العقبة لن تكون بذات قيمة لأى أحد على الأقل لمدة ٥٠ عاماً ، ولو أدخلت ضمن فلسطين . ولو دخل هذا الميناء ضمن فلسطين فبالفعل ستمنع أية دولة تنشأ شرق الأردن من منفذ على خليج العقبة . « وجاء في هامش - مذكرة الجنرال هيوبرت ينج - مذكرة وزارة الخارجية البريطانية بخصوص هذا الرأي أن اللجنة قبلت خط منرزهاجن على أن يكون الحد الشرقي لفلسطين جنوب البحر الميت لكنها لم تتخذ قراراً بذلك »^(٢).

ويكشف هذا عن أن الصهيونية هي التي لعبت الدور الأكبر في وضع الأساس للحدود السياسية لفلسطين . وأتابت الصهيونية عملاءها في كل موقع وأى مكان ملحين في تحقيق مطالبها بخصوص الحدود السياسية لفلسطين ومؤثرين بذلك على كل المسؤولين الذين أنيط بهم هذا العمل . كما أن هذا يدحض خداع الإنجليز بأنهم لم يقصدوا بوطن قومي لليهود في فلسطين إنشاء دولة سياسية . فضلاً عن أنه يكشف عن النية الخبيثة التي بيبتها الصهيونية بخصوص فلسطين وتحويلها إلى دولة لهم مستقبلاً وإلا لما بذل الصهاينة كل هذه الجهود بخصوص حدودها السياسية^(٣).

وفي أغسطس ١٩٢٢ أرسلت وزارة المستعمرات البريطانية إلى مندوبها السامي في فلسطين خطاباً تسأل عن الحدود الفاصلة بين شرق الأردن وفلسطين^(٤) . ورد هربرت صموئيل بكتاب بخط اليد وبرقية مخبراً حكومة إنجلترا بأن نقطة البدء في الحد

(1) Foreign Office, op cit, p.p. 15-16.

(2) Foreign Office, op cit, p. 17.

(3) Foreign Office, op cit, p.p. 17-18.

(4) From Colonial Office, E, 8709/582/65, No. 43548/82, dated 1st Sept. 1922.

تقع على خليج العقبة على بعد ٢ ميل إلى الغرب من مدينة العقبة . وقرر في رسالته أن نقطة البدء هذه تتفق مع نقطة الحدود القديمة التي كانت تفصل بين تركيا من جهة ومصر من جهة أخرى ، وبذلك يكون لفلسطين ٤ أميال على ساحل خليج العقبة^(١) .

ثم طلبت وزارة المستعمرات البريطانية من مندوبها السامي في فلسطين تحديداً جغرافياً دقيقاً للحدود^(٢) . ورد المندوب السامي برقية رقم ٣١٥ بتاريخ ٣٠ أغسطس ١٩٢٢ محدداً بكل وضوح هذا الحد الفاصل . وأصبحت تلك البرقية هي الوثيقة الأساسية المحددة للحد الفاصل بين شرق الأردن وفلسطين . وجاء فيها : « إذا لم تعتقدوا بأن سلطات الحجاز ترضى بأن تكون العقبة بداية الحد فإن حد شرق الأردن مع فلسطين يبدأ من نقطة على ساحل البحر الأحمر تقع على بعد ٢ ميل غرب العقبة ، وبعد ذلك شمالاً في وسط وادي عربة »^(٣) . ويدل هذا على أن الحد السياسي بين شرق الأردن وفلسطين باعتراف المندوب السامي هربرت صموئيل اليهودي الصهيوني يبدأ من نقطة على ساحل البحر الأحمر تقع على بعد ٢ ميل غرب العقبة .

كما أن وزارة الخارجية الأمريكية سألت إنجلترا عن مسار الحد السياسي بين شرق الأردن وفلسطين بالضبط ، فقررت الثانية بأنه هو الذي سبقت الإشارة إليه . أن يبدأ من نقطة على ساحل البحر الأحمر تقع على بعد ٢ ميل غرب العقبة ، وبعد ذلك يسير شمالاً في وسط وادي عربة متتبعاً خطاً يمر وسط البحر الميت ووسط نهر الأردن حتى التقاء نهر الأردن باليرموك مع السماح لشرق الأردن بأن يأخذ اللسان ثم في وسط نهر اليرموك^(٤) .

(1) Telegram from the high Commissioner of Palestine to the secretary of state for the colonies, No. 309, 27th August 1922.

(2) Telegram from the secretary of state for the colonies to the high Commissioner of Palestine, No. 280, 28th August 1922.

(3) Telegram from the high Commissioner of Palestine to the secretary of state for the colonies, No. 315, 30th August 1922.

(4) Foreign Office Registry No. E. 12296/582/65, November 7, 1922.

ويختلف الحد في هذا القطاع عن حد اتفاقية سايكس - بيكو ، حيث ضم إلى فلسطين : صحراء النقب ، النصف الغربي من البحر الميت ، نصف نهر الأردن ، أوصل فلسطين إلى خليج العقبة وأصبح لها ساحل عليه طوله أربعة أميال . أى أن الحد في هذا القطاع طرأت عليه تغيرات لصالح فلسطين ويتفق هذا القطاع من الحد مع وضع الظواهر الطبيعية في المنطقة فهو يسير في وسط وادى عربية ، وفي وسط البحر الميت ، وفي وسط نهر الأردن ، وفي وسط نهر اليرموك . ويرجع ذلك إلى أن إنجلترا كانت تسيطر على كل من فلسطين وشرق الأردن ، ولذلك جعلت الحد السياسي بينهما متوازناً إلى أبعد حد ممكن . وتجدر الإشارة هنا إلى أن شرق الأردن لم يكن داخلاً ضمن وعد بلفور الخاص بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين لأن ذلك الوعد اقتصر على فلسطين الحقيقية التي تقع غرب الخط الذي سبقت الإشارة إليه^(١) ، وهذا ينفي أى مزاعم للصهيانية بخصوص انتزاع مناطق من شرق الأردن وتغيير موضع الحد هناك .

وأدى تعديل الحد بهذه الصورة عما حددته اتفاقية سايكس - بيكو إلى نتائج هامة تلخص في حصول فلسطين على نصف نهر الأردن ، كما حصلت على النصف الغربي من البحر الميت ، كما وصلت فلسطين إلى ساحل خليج العقبة على عكس ما كان في اتفاقية سايكس - بيكو . وتمشى هذا مع مذكرة المنظمة الصهيونية التي قدمتها لمؤتمر الصلح سنة ١٩١٩ حيث جاء فيها : « أن التنمية الكثيفة للزراعة تستوجب أن يكون لفلسطين حرية الوصول إلى البحر الأحمر ، وفرصة تنمية الموانئ الجيدة على خليج العقبة . وترى إسرائيل أن جبهتها على خليج العقبة ضيقة والنية مبيتة لتوسيعها »^(٢) .

(1) Department of state, division of Publications, series C, No. 55, Palestine No. 1, «Mandate for Palestine», Prepared in the division of Near Eastern Affairs, U.S.A., May, 1926.

(٢) عادل حامد الجادر ، « سياسة توزيع امتيازات المشاريع الكبيرة في فلسطين أيام الانتداب » ، مجلة شئون فلسطين ، عدد (٥٥) ، مارس ١٩٧٦ ، ص ١٩١ .

وأضيفت صحراء النقب التي تبلغ مساحتها ١٢٢١٥ كيلو متراً مربعاً وكان هذا مكسباً عظيماً ، ويتمشى تماماً مع رغبة الصهاينة حيث جاء في مذكرتهم السابقة « يجب أن تراعى لجنة الحدود أنه من الملائم جداً ، لمصلحة الإدارة الاقتصادية ، أن تكون مساحة فلسطين على أكبر اتساع ممكن لتستطيع مع الوقت أن تحتوى أعداداً كثيرة من السكان الميسورين . يستطيعون أن يتحملوا أعباء الحكومة العصرية الحديثة ، بأسهل مما تتحملها بلاد صغيرة محدودة السكان بالضرورة^(١) . وبذلك نجد أن توصيل الوطن القومي لليهود في فلسطين إلى خليج العقبة ، وضم النقب إليه يحقق الفصل والعزل بين العالم العربي في آسيا وأفريقيا^(٢) .

وصدر صك الانتداب على فلسطين في ٢٤ يوليو ١٩٢٢ بعد أن كانت إنجلترا بتوجيه من الصهيونية - قد وضعت الأساس للحدود السياسية لفلسطين . وجاء في المادة ٢٥ من مواد الصك : « إن الانتداب على المنطقة الواقعة بين الأردن والحد الشرقي لفلسطين كما يتم تحديده » . ومعنى هذا أن تحديد الحد الشرقي لفلسطين ترك للتفاوض عليه^(٣) .

وقام المندوب السامي البريطاني في ١ سبتمبر سنة ١٩٢٢ بتعيين الحدود الإدارية Administrative Boundaries بين غربي فلسطين وشرقيها على حد التعبير الصهيوني وجرى رسمها على الشكل التالي : تبدأ من نقطة اتصال اليرموك بالأردن فتسير جنوباً في منتصف مجرى نهر الأردن والبحر الميت ووادي العربية حيث ينتهي في ساحل خليج العقبة على بعد ميلين غربي مدينة العقبة^(٤) .

(١) محمد السيد غلاب « الجغرافية التاريخية لإقليم النقب » ، الجمعية الجغرافية المصرية ، الموسم الثقافي سنة ١٩٥٦ ، ص ٧٩ .

(٢) د. محمد محمود الديب « حدود فلسطين - دراسة تحليلية لوثائق الانتداب » ، ص ٩٧ .

(٣) أسعد رزوق « إسرائيل الكبرى » ، سلسلة كتب فلسطينية - منظمة التحرير الفلسطينية ، مركز الأبحاث ، بيروت ١٩٦٨ ، ص ص ٤٥٠ - ٤٥٢ .

(٤) عادل محمود رياض « الفكر الإسرائيلي وحدود الدولة » ، جامعة الدول العربية ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ١٩٧٧ ، ص ٧٠ .

ورفعت الحكومة البريطانية في ١٦ سبتمبر سنة ١٩٢٢، المذكرة التفسيرية للمادة ٢٥ المتعلقة بالحدود، لمجلس عصبة الأمم وتمت الموافقة عليها في ٢٣ سبتمبر ١٩٢٢^(١). وهذا ما دفع الصهاينة إلى السخط على صك الانتداب لأنه استبعد شرق الأردن من منطقة الوطن القومي لليهود. وبهذه الصورة دخلت المنطقة المثلثة الشكل التي تقع إلى الغرب من وادي عربة، وهي التي كانت جزءاً من ولاية سوريا، ووعدت إنجلترا الدولة العربية بما (وعود مكماهون للشريف حسين)، ضمن الوطن القومي لليهود في فلسطين^(٢). وكان هربرت صموئيل هو المسئول الأول عن حصول فلسطين على أربعة أميال من ساحل خليج العقبة كواجهة بحرية لها هناك فيما بعد.

وفلسطين بهذا الوصف تقع بين خطي عرض: ٢٩ ٣٠ و ٣٣ ١٥ وخطي طول: ٣٤ ١٥ و ٣٥ ٤٠. ومما يجدر ذكره أن هذه هي المرة الثانية في تاريخ فلسطين التي تصل فيها حدود فلسطين الجنوبية خليج العقبة. ومرد ذلك هو حرص بريطانيا على قطع بلاد الشام والعراق وعرب المشرق عن مصر وعرب المغرب، مما يجعل من دولة (إسرائيل) عائقاً جغرافياً مانعاً للنهضة في هذه المنطقة. وقد كانت المرة السابقة أيام مملكة الفرنجة في القدس (٤٩٢ - ٥٨٣هـ / ١٠٩٩ - ١١٨٧م)^(٣).

أم الرشراش في مشروع التقسيم وحرب فلسطين

صدر القرار رقم ١٨١ للأمم المتحدة بتاريخ ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧، بتقسيم فلسطين إلى دولة عربية وأخرى يهودية ومنطقة مدولة. وأصبحت قرية أم الرشراش حسب هذا التقسيم خارج الدولة اليهودية^(٤).

(١) عادل محمود رياض «الفكر الإسرائيلي وحدود الدولة»، جامعة الدول العربية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة ١٩٧٧، ص ٨٨.

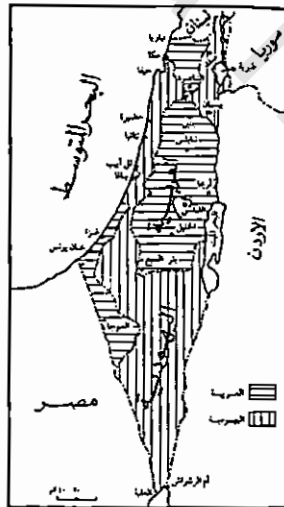
(٢) Foreign Office, op cit, p. 46.

(٣) أنيس صايغ وآخرون، الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني، المجلد الأول، الطبعة الأولى ١٩٩٠، مطبعة ميلانو ستامبا (فارجليانو - إيطاليا)، ص ١٠.

(٤) المصدر السابق، ص ١٠ - ١١، انظر: الخريطة المرفقة رقم (١) فلسطين حسب مشروع تقسيم ١٩٤٧.



التقسيمات الإدارية في فلسطين في عهد الانتداب (١٩١٨ - ١٩٤٨)



فلسطين حسب مشروع تقسيم ١٩٤٧

وظل الوضع القانوني لخليج العقبة خاضعاً للسيادة المشتركة لمصر والسعودية والأردن ، إلى أن قامت حرب فلسطين في ١٥ مايو ١٩٤٨ . فقد حدث عقب الهدنة بين مصر وإسرائيل التي انعقدت في رودس في ٢٤ فبراير ١٩٤٩ ، وقبل عقد الهدنة بين الأردن وإسرائيل ، أن تحركت بعض القوات الإسرائيلية في ١٠ مارس ١٩٤٩ ، واحتلت « أم رشرش » على خليج العقبة . وقد تم هذا العمل العسكري على الرغم من وقف جميع التحركات العسكرية التي تضمنتها أحكام الهدنة التي فرضها مجلس الأمن على المتقاتلين^(١) .

المعارك العسكرية لاحتلال أم الرشرش

بانتهاء معركة رامات هاكوفيتش يوم ٧ يناير ١٩٤٩ بانتصار القوات العراقية طويت صفحة القتال في الجبهات الثلاث العراقية والسورية واللبنانية ، وبدأت بعض الحكومات العربية تتفاوض مع نائب الوسيط الدولي الدكتور رالف بانس لعقد هدنة دائمة مع إسرائيل ، على حين راح بن جوريون يرسم الخطط لاحتلال مزيد من الأراضي في جبهة الأردن^(٢) .

الهدنة الرابعة (٧ يناير - ٦ مارس ١٩٤٩)

غربت شمس السابع من يناير ١٩٤٩ على القوات الإسرائيلية وقد بلغ بها الإنهاك نتيجة الجهد الكبير الذي بذلته على امتداد سبعة عشر يوماً من القتال المستمر . وبقدر ما أزعج الأركان العامة ما كانت عليه قواتها في المسرح من إرهاق وانتشار واسع وعمق ضحل ، راع الحكومة الإسرائيلية ما وصلت إليه سمعتها بين الدول ، وإن أثار إعجاب البعض ما حققته قواتها المسلحة من إنجازات في المسرح^(٣) .

ولهذا قبلت إسرائيل هذه الهدنة الرابعة ، حتى تتفرغ للمعركة السياسية والإعلامية التي تعزز بها المكاسب ، وتفرض الأمر الواقع كحل وحيد للمشكلة ، ثم تطمس قضية

(١) حامد سلطان « مشكلة خليج العقبة » ، ص ١٤ .

(٢) حسن البدرى « الحرب في أرض السلام » ، دار الوطن العربي ، بيروت ١٩٧٦ ، ص ٤٥٧ .

(٣) وثائق وزارة الدفاع المصرية ، دار المحفوظات العسكرية ، وثائق حرب فلسطين ، غير منشورة ، ملف

الهدنة رقم (٦٦٥) ، ص ٣٥ .

اللاجئين وتغسل يدها من دمائهم ، وتحول مشاعر الأسي على مصيرهم نحو العرب ، على زعم أنهم المسئولون عن تركهم الديار ، فيكون خليقاً بهم أن يستوعبهم ويخلعوا عليهم جنسيتهم ، ويملاؤوا بهم الفراغ الذي خلفته هجرة اليهود من البلاد العربية التي أجزقهم على الرحيل^(١) .

أوجبت هذه المعركة السياسية الإعلامية المستهدفة أن تحول إسرائيل سائر أنشطتها إلى أروقة المنظمات الدولية ، وصفحات الجرائد الأجنبية ، وموجات الأثير وشاشات السينما ، فحفلت هذه الفترة بحملة إعلامية ضخمة ، لا تقل في حجمها عن الحملة العسكرية التي سبقتها ، وقد تزيد عنها خطورة بالنسبة لنتائجها^(٢) .

وبينما حكومة إسرائيل والمنظمة الصهيونية تمضيان قدماً في تنفيذ هذا المخطط الجديد ، بدأت في ١٣ يناير ١٩٤٩ بجزيرة رودس وتحت إشراف نائب الوسيط الدولي مفاوضات الهدنة بين مصر وإسرائيل في نطاق قرارى مجلس الأمن رقم ٦١ ورقم ٦٢ الصادرين في ٤ ، ١٦ نوفمبر ١٩٤٨^(٣) .

وبعد شد وجذب ، وتعنت ولين ، تم يوم ٢٤ فبراير ١٩٤٩ توقيع الاتفاق على المشروع الذى تقدم به رالف بانس للهدنة بين مصر وإسرائيل . وبناء على المادة الثالثة من هذا الاتفاق ، والملحق (١) المرفق به ، انتهى حصار الفالوجا ، ووصلت طلائع قواتها الباسلة يوم ٢٦ فبراير إلى غزة ، بكل أسلحتها ومعداتها ، حيث استقبلتها الجماهير العربية بحماسة بالغة^(٤) .

الإعداد لاحتلال أم الرشرش

وفى يوم ٢٨ فبراير ١٩٤٩ وصل وفد الأردن إلى رودس ، وفى نفس اليوم نعى إلى علم بن جوربون قرب عودة القوات العراقية إلى ديارها فامتلاً صدره بالرغبة فى التهام

(١) وثائق وزارة الدفاع المصرية ، دار المحفوظات العسكرية ، وثائق حرب فلسطين ، غير منشورة ، ملف

الهدنة رقم (٦٦٥) ، ص ٣٧ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٤٥ .

(٣) المصدر السابق ، ص - ص ٤٦ - ٤٧ .

(٤) لواء أحمد فؤاد صادق « مذكراته » ، غير منشورة ، ص ١٥ . (اللواء أحمد فؤاد صادق كان يشغل

منصب قائد القوات المصرية بفلسطين) .

شريحة أخرى من الضفة الغربية ، ولهذا أسرع يضع الخطط مع يادين للاستيلاء على الثلث العربي الخصيب حتى ضفة نهر الأردن^(١) .

كانت القوات الأردنية تحتل مساحة شاسعة من النقب الفلسطيني . وهي عبارة عن مثلث طول ضلعه الشرقي في وادي عربة مائة كيلومتر ، وطول ضلعه المقابل على الحدود المصرية مائة كيلومتر كذلك . وطول قاعدته أى المسافة ما بين وادي عربة والحدود المصرية في سيناء تزيد على ٦٠ كيلومتر . وملتقى الضلعين في أم الرشراش وهي المركز أو الميناء على خليج العقبة . وتبعد عن ميناء العقبة الأردني حوالي خمسة أميال^(٢) .

وحيثما سافر الوفد الأردني لرودس ، حمل الخرائط التي تشير إلى مواقع القوات الأردنية في النقب ، وعلل الوفد نفسه بالأمال ظاناً أن حدود الهدنة ستكون بحسب ما يبرزه من خرائط . ونسيت عمان أن أيلة (إيلات) أو العقبة الفلسطينية التي تسمى (أم الرشراش) تعتبر في نظر اليهود مكملة لأحلامهم التي حققها لهم الإنجليز في لندن وعمان . ولم تدر حكومة عمان بما كان يجري على مسرح فلسطين لأنها تركت الأمر للفريق جلوب يتصرف فيه كما يشاء وبحسب الأوامر التي يتلقاها من لندن^(٣) .

كانت القوات الأردنية في النقب تتراوح بين ٨٠٠ جندي وألف جندي انتشروا في مراكز حربية هامة تسد كل الطرق التي يمكن للعدو أن يسلكها ، إذا فكر في احتلال أم الرشراش . وكانت تلك القوة مزودة بمدركات ثقيلة وخفيفة ، وبمخضيرة من فرقة التدمير . ولم يطمئن جلوب باشا لوجود تلك القوة بدون قائد إنجليزي ، فأرسل الكابتن (برومج) ، ليكون مسئولاً عن العمليات الحربية في تلك المنطقة^(٤) .

(١) حسن البدرى « الحرب في أرض السلام » ، ص ٤٦٠ ، انظر كذلك : عبد الله التل « مذكرات عبد الله التل - كارثة فلسطين » ، دار القلم ، القاهرة ١٩٥٩ ، ص ص ٤٦٩ - ٤٧٣ . (تشكيل الوفد الأردني من القائمقام أحمد صدقي الجندي رئيساً للوفد ، القائد محمد المعاينة عضو ، وكيل القائد راضى الهنداوى عضواً ، رئيس على أبو نوار عضواً ، ملازم فتحى ياسين سكرتيراً ، وكيل الخارجية رياض المفلح وقاضى عبد الله نصير ، مستشاران قضائيان .

(٢) عبد الله التل « مذكراته - كارثة فلسطين » ، ص ٤٧٥ .

(٣) المصدر السابق ، نفس المكان .

(٤) عبد الله التل « مذكراته - كارثة فلسطين » ، ص ص ٤٧٥ - ٤٧٦ . (ومن المعروف أن جلوب باشا سلم قيادة الجنوب للضابط الذى أشرف على تسليم اللد والرملة) .

ويذكر عبد الله التل : « وبدأت الحركات الحربية في جنوب فلسطين في ٢٥ فبراير ١٩٤٩، واتخذت شكل دوريات كاشفة في أغلب الأحيان . وقد بدأ اليهود بإرسال دورياتهم الخفيفة وأغلبها من سيارات الجيب إلى الجنوب لكشف المسالك المؤدية إلى العقبة عبر الصحراء . ومن جهتنا كان الجيش العربي قد كشف جميع الممرات والطرق التي يمكن اجتيازها بالسيارات بما في ذلك المنطقة الواقعة ما بين وادي عربة وصحراء سيناء وهي الجهة التي بدأ اليهود بكشفها . وعندما كشف قائد القوات الأردنية (العربي) وتأكد من الطرق التي ستمكن اليهود من الوصول للخليج وزع قواته على تلك الطرق والمسالك وأخفاها في كمائن ومواقع حربية قوية لدرجة أنه أصبح من المستحيل مرور قوات يهودية دون الاشتباك مع الجيش العربي . وقد بثت الألغام الأرضية وحفرت الخنادق ونسفت الطرق في أماكن عديدة لتزيد في متاعب القوات المهاجمة . وحينما وصلت طلائع القوات اليهودية لمراكز الجيش العربي في ٤ مارس ١٩٤٩ اشتبك معها وكان نصيب السيارة الأولى التي وقعت في الكمين أن تطايرت أجزاؤها في الفضاء وهلك جميع ركبها اليهود . ثم عادت الدورية من حيث أتت»^(١) .

وبينما كان الوفد الأردني في رودس ينتظر أوامر عمان لتوقيع اتفاقية الهدنة ، بعثت الحكومة البريطانية برقية إلى الدكتور باناش تخبره فيها بأن القوات البريطانية المرابطة في العقبة لن تتدخل في حوادث جنوب النقب ولن تطلق النار إلا إذا هوجمت من قبل اليهود . وقد أرسلت صورة من البرقية إلى السلطات اليهودية ، وبديهي أن إرسالها لليهود هو إيعاز لهم بالزحف على أم الرشرش لتحقيق أهدافهم كاملة . وقد أكدت برقية حكومة لندن إلى بنش ما أذاعته الصحف العبرية في ذلك الحين عن وصول أوامر وزير الحربية البريطانية (شنويل) اليهودي إلى قائد القوات البريطانية في العقبة والتي تتلخص فيما يلي : « لا يجوز الاشتباك مع اليهود بأي حال من الأحوال ، لا يجوز دخول الحدود الفلسطينية ، إذا هوجمت العقبة من قبل اليهود فعليكم الدفاع عنها على ألا تطاردوا المهاجمين داخل الحدود الفلسطينية»^(٢) .

(١) عبد الله التل « مذكراته - كارثة فلسطين » ، ص ٤٧٦ .

(٢) عبد الله التل « مذكراته - كارثة فلسطين » ، ص ٤٧٦ - ٤٧٧ ، انظر كذلك : محمد فيصل

عبد المنعم ، أسرار ١٩٤٨ ، دار المننا للطباعة ، القاهرة ١٩٦٨ ، ص ٦٥٦ .

كما أن هيكتور ماكنيل قد صرح في مجلس العموم البريطاني مساء ١١ مارس ١٩٤٩ : « بأنه ليس من المتوقع أن يطلب من القوات البريطانية القيام بأية إجراءات إلا في حالة وقوع خطر يهددها وهو الأمر الذي يرجى أن لا يقع أبدًا »^(١) .

ويذكر عبد الله التل : « هكذا كانت أوامر لندن الحقيقية ، أما ما كان يشاع عن أن القوات البريطانية كانت مرابطة في العقبة لحمايتها والدفاع عن الأردن ضد هجوم اليهود . فقد كان مصدره حكومة عمان التي لم تفكر يوماً ما فيما كان يجري في العقبة أو في أي مكان آخر لأن أغلب وزرائها من الجهلة الذين لا يعرفون أين يقع النقب »^(٢) .

كثرت دوريات الاستطلاع اليهودية وأصبح الاشتباك بين قوات الجيش العربي واليهود متوقفاً في كل لحظة ، وساعدت طائرات الاستطلاع اليهودية القوات البرية الزاحفة . وكان قائد القوات الأردنية على اتصال بقيادة الجيش في عمان لتلقى الأوامر ، وقد جاءته أخيراً البرقية التالية من الجنرال جلوب تأمره بسحب جميع القوات الأردنية إلى العقبة^(٣) . وقد نصت برقية جلوب على : اسحبوا قواتكم من المراكز التالية فوراً . أولاً : جبل الردادى . ثانياً : وادى الحياتى . ثالثاً : رأس النقب . رابعاً : أم الرشراش . تتجمع القوات في العقبة بالمواقع التي يعينها لكم الجيش البريطاني . تنقل الأسلحة والذخائر بقدر الإمكان وتلف التجهيزات الثقيلة^(٤) .

هذه أوامر الجنرال جلوب وقد نفذها الكابتن « بروموج » فسحب جميع القوات من مراكزها قبل أن ترى اليهود بأعينها ، وكانت صدمة عنيفة للجنود الأبرياء أن تأتيهم الأوامر بترك ميناء « أم الرشراش » الحصين وهم لا يعلمون السر في ذلك^(٥) .

(١) عبد الله التل « مذكراته - كارثة فلسطين » ، ص ٤٧٧ .

(٢) عبد الله التل ، المصدر السابق ، ص ٤٧٧ .

(٣) عبد الله التل ، المصدر السابق ، ص ٤٧٧ - ٤٧٨ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٤٧٨ . (وبرقية الجنرال جلوب برقم ٨١١/٢/١٧/٣ بتاريخ ١٩٤٩/٣/٦) .

الردادى : جبل يشرف على سهول العقبة ووادى عربة ، الحياتى : واد يقع على خط مواصلات اليهود الذين زحفوا من بحر السبع إلى الخليج . رأس النقب : تل عال يشرف على أم الرشراش وميناء العقبة .

(٥) المصدر السابق ، نفس المكان .

العملية « شن تاف شن »

حشد بيجال يادين كافة القوات المتيسرة لشن الهجوم على المثلث العربي واحتلاله حتى نهر الأردن . وأصبح الأمر معداً للتنفيذ لولا أن ساورت بن جوريون الهواجس خشية أن يتسبب هذا العدوان الجديد في إثارة مشاكل محلية دولية تعرض مكاسب إسرائيل للانكماش . ولهذا فضل أن يستخدم شن تاف شن للتهديد عسكرياً والمزايدة دبلوماسياً بدلاً من التورط فيها بالقتال الفعلي^(١) .

وأصدر بن جوريون أوامره إلى يادين بأن يبذل جهده حتى تتسرب الخطة لتصل إلى الملك عبد الله ليجعله أكثر ميلاً إلى تقبل وجهة نظر إسرائيل في المفاوضات الدائرة برودس . ولم يستغرق نبأ الهجوم وقتاً طويلاً ليبلغ أذن الملك عبد الله الذي راح جلوب يحذره مغبة التورط فيه ويذكره بأنه لم يعد للقوات العربية المجتمعة في فلسطين ما يساوى ربع ما لدى الأركان العامة الإسرائيلية منها ، ناهيك عن الفرق الكبير بين النوعين من حيث الكفاءة القتالية^(٢) .

ولم يكن الملك عبد الله في حاجة إلى تكرار النذير أو التذكير به ، ولكن بن جوريون لم يكن قد ملاً جوفه بعد من تراب فلسطين بالقدر الذى يشبعه ، ولهذا تحول بكل ثقة نحو الجنوب ليمد حدود إسرائيل حتى البحر الأحمر ، ويأخذ ما يستطيع برغم من لا يستطيع^(٣) .

العملية « عوفداه »

مدت الأركان العامة الإسرائيلية قبضتها جنوب شرق النقب حتى عين حصب بالعملية «لوط» ، مثلما مدتاً غرباً حتى العوجة بالعملية « حوريب » . إلا أن أنظارها

(١) وثائق وزارة الدفاع المصرية ، دار المحفوظات المركزية العسكرية للقوات المسلحة ، ووثائق حرب

١٩٤٨ ، ملف رقم (٦٨٨) ملف العملية « شن تاف شن » وهي تعنى السن بالسن .

(٢) وثائق وزارة الدفاع المصرية ، دار المحفوظات المركزية العسكرية للقوات المسلحة ، ووثائق حرب

١٩٤٨ ، غير منشورة ، ملف رقم (٦٨٨) المصدر السابق .

(٣) حسن البدرى « الحرب في أرض السلام » ، ص ٤٦١ .

ظلت تتطلع إلى المثلث الحيوى الذى تمتد أضلاعه المتساوية فوق وادى عرابة من جهة، وحدود مصر من الجهة المقابلة ، وتقع قمته على رأس خليج العقبة فى الجنوب^(١) .
وقد درت الأركان العامة أن الفاصل الزمنى بين توقيع مصر على هدنة رودس وتوقيع الأردن عليها يكفى ويزيد لدق إسفين بين جيشيهما واحتلال المثلث ثم بمجاهتهما والعالم أجمع بالأمر الواقع^(٢) .

وخلال ما بقى من أيام شهر فبراير ١٩٤٩ ، والأيام الأولى من مارس نشط الاستطلاع الإسرائيلى الذى أظهر أن الطريق إلى قمة الخليج وعر لكنه ممكن .
ومثلما اعتمدت خطة « يوعاب » على مطار روحاما لزيادة سرعة اندفاع القوات الإسرائيلىة نحو هدفها النهائى فى عمليات أكتوبر ١٩٤٨ ، اعتمدت أيضاً على مطار إبراهيم الواقع على مسافة ٥٠ كيلومتراً شمال أم الرشرش لنقل الأسلحة والمعدات قريباً من قمة خليج العقبة للانقضاض على شاطئه بقفزة واحدة . وتم تخصيص لواء النقب واللواء جولانى وبعض عناصر من اللواء الثامن مدرع لتنفيذ القفزة حتى شمال العقبة ، على حين وقع على اللواء إسكندرونى مهمة تنفيذ القفزة الشمالية منها حتى جنوب البحر الميت^(٣) .

وفى ٤ مارس ١٩٤٩، تحركت القوات الإسرائيلىة المؤلفة من لواء النقب المدرع ولواء جولانى وثلاث مجموعات من قوات البالماخ التى يقودها إيجال آلون من بئر السبع إلى خليج العقبة^(٤) .

(١) وثائق وزارة الدفاع المصرية ، دار المحفوظات المركزية العسكرية ، وثائق حرب ١٩٤٨ ، ملف رقم (٦٧١) ، ملف العملية (عوفدها) . انظر كذلك عبد الله التل ، « مذكراته - كارثة فلسطين » ، ص ٤٨٠ - ٤٨١ ، لوط هو ابن أختى سيدنا إبراهيم الخليل ، والمعروف أنه كان يسكن جنوب البحر الميت حول سدوم ، وعمورة . والعملية حوريب سميت على اسم أحد جبال سيناء ويعرف اليوم بجبل الجلال . وقد عرفت هذه العملية أيضاً باسم العين لأن أهدافها الثلاثة تبدأ بحرف العين وهى العسلوج والعريش وغزة التى تنطق باللسان العبرى (عزة) . والعملية عوفدها تعنى الأمر الواقع أو حقيقة واقعة .

(٢) المصدر السابق .

(٣) حسن البدرى « الحرب فى أرض السلام » ص ٤٦٢ - ٤٦٣ .

(٤) (يوعاب هو الاسم الحركى لإسحق دوفنو قائد معركة نجبا التى سقط فيها قتيلاً) .

(٤) نجيب الأحمد « فلسطين تاريخاً ونضالاً » ، ص ٥٥٥ .

وبعد توقيع مصر اتفاقية الهدنة في ٢٤ فبراير ١٩٤٩ ، سارعت الولايات المتحدة الأمريكية بتقديم مشروع قرار إلى مجلس الأمن في ٤ مارس ١٩٤٩ بقبول إسرائيل عضواً في الأمم المتحدة باعتبارها دولة محبة للسلام رغبة في تنفيذ ميثاق الأمم المتحدة^(١) .

وفي اليوم التالي مباشرة بدأت إسرائيل في تحريك قواتها جنوباً لاحتلال مناطق حيوية في النقب ، ضاربة عرض الحائط بقرارات مجلس الأمن التي تحول دون أى تحرك عسكري للحصول على مكاسب إقليمية . ولما كانت هناك قوات أردنية متمركزة في بعض النقاط المسيطرة في النقب وعلى امتداد وادي عربة إلى خليج العقبة ، فقد تقدمت الحكومة الأردنية بمذكرة احتجاج على التحركات الإسرائيلية المخالفة لقرارات مجلس الأمن ، إلى الدكتور رالف بانس والذي كان يقوم بدور الوسيط للأمم المتحدة . وقد أبرق بنتيجة تحقيقه إلى رئيس مجلس الأمن وورد فيه أن القوات الإسرائيلية بدأت منذ ٧ مارس في تحركها جنوباً لاحتلال منطقة العقبة ، كما أشار إلى تواجد دوريات أردنية تجوب المنطقة وأوضح أن ما قامت به إسرائيل كان مخالفاً لأحكام الهدنة^(٢) .

وكان على لواء النقب بعد تدعيمه بدبابات اللواء الثامن أن يندفع بأقصى سرعة نحو الجنوب بمحاذاة الحدود المصرية صباح ٦ مارس لينجز المهام التالية^(٣) :

- ١ - احتلال مطار إبراهيم وتجهيزه للعمل .
- ٢ - قفل محور التقدم إلى المطار من اتجاه غرنديل .
- ٣ - احتلال المرتفعات المشرفة على طابا وأم الرشرش .

(١) محمود رياض « مذكراته ، الجزء الثاني ، دار المستقبل العربي ، الطبعة الأولى ١٩٨٦ ، ص ٢٢ ، انظر: نجيب الأحمد « فلسطين تاريخاً ونضالاً » ، دار الجليل للنشر ، الطبعة الأولى ١٩٨٥ ، ص ٥٣٩ . يوضح نجيب الأحمد أن مجلس الأمن الدولي وافق يوم ٥ مارس ١٩٤٩ على الاعتراف بدولة إسرائيل وقبولها عضواً في هيئة الأمم المتحدة ورفع قراره إلى هيئة الأمم المتحدة .

(٢) محمود رياض « مذكراته » الجزء الثاني ، ص ٢٢ .

(٣) وثائق وزارة الدفاع المصرية ، دار المحفوظات المركزية العسكرية ، غير منشورة ، ملف رقم (٧١٠) ، خاص بمعارك لواء النقب ولواء جولاني واللواء الثامن المدرع الإسرائيلي ، ص ٤٥٠ .

بينما كان على اللواء جولاني أن يتجه بعد تدعيمه بالمدرعات أيضاً نحو الجنوب على أن يبدأ السير في توقيت لاحق للواء النقب ، فيقطع وادي عرابة لينجز المهام التالية^(١) :

١ - احتلال عين وبيه وراديان .

٢ - دفع الداوريات على طول امتداد وادي عرابة حتى ٢٠ كيلومتراً من خليج العقبة .

٣ - الاحتفاظ بكتيبة ميكانيكية كاحتياط عام لتوجيه الضربات المضادة .

أما سلاح الطيران فقد كلف بتنفيذ مهام النقل الجوي إلى مطار إبراهيم ، وإجراء الاستطلاع الجوي لصالح لواءى النقب والجولاني ، علاوة على وضع سرب مقاتلات في حالة الاستعداد الكامل ، وتقديم المعاونة الجوية المباشرة للقوات المهاجمة بمجرد طلبها^(٢) .

ومع أشعة الشمس التي بزغت صباح ٥ مارس ١٩٤٩ تحركت مقدمة لواء النقب برأ نحو مطار إبراهيم مارة بعبدات ومختشى رامون . وفي نفس الوقت بدأ تحرك مقدمة اللواء جولاني من كرنب . أما اللواء إسكندروني فقد باشر التقدم من بئر سبع نحو عين جدي ماراً برأس زويرة وأم البرج ، على حين خرجت بعض الزوارق من سدوم مساء ٦ مارس لتقوم بعملية برمائية صغيرة تعاون بها عناصر إسكندروني المتقدمة برأ في احتلال جنوب البحر الميت عند عين جدي^(٣) .

وفي مواجهة هذه التحركات الإسرائيلية كانت عناصر الفيلق الأردني تحتل النقب الجنوبي إلى الجنوب من بئر سبع ، وتتمركز فوق بعض الهيئات الحاكمة على امتداد وادي عرابة والحدود المصرية لقفل الطريق إلى قمة خليج العقبة^(٤) .

(١) المصدر السابق ، ص ٤٥١ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٤٦٠ - ٤٦١ .

(٣) وثائق وزارة الدفاع المصرية ، دار المحفوظات المركزية العسكرية ، غير منشورة ، ملف رقم (٧١٠) ، المصدر السابق .

(٤) عبد الله التل « مذكراته - كارثة فلسطين » ، ص ٤٧٨ .

وبعد أن تأكدت الأركان العامة الإسرائيلية أن القوات البريطانية المتمركزة حول مدينة العقبة لن تعترض طريق قواتها وهي تندفع على قمة الخليج^(١) بناء على التدخل الأمريكي ، وأن مجلس الأمن لن يتحرك أيضاً بسبب الدور الأمريكي^(٢) ، وأن عناصر الفيلق الأردني سوف تحذر الاصطدام بها ، أصدر يعقوب دورى الأمر إلى إيغال آلون أن يبدأ العملية « عوفداه »^(٣) .

وحسب يتجنب يعقوب دورى إثارة أى مشاكل سياسية أو عسكرية فقد أوصى قواته أن تتجنب الاحتكاك بأى قوات مصرية أو أردنية تصادفها على الطريق . وقبل أن يجل مساء ٦ مارس كانت عناصر اللواء النقب قد أتمت تجهيز مطار إبراهيم لتهبط عليه الطائرات . وسرعان ما استقبل طائرتى كوماندو حوالى الساعة ١٨٠٠ بعد إنارة ممر الهبوط . ثم راحت الطائرات تتوالى حتى فجر ٨ مارس لتنقل الأفراد والأسلحة والمعدات حسب الخطة الموضوعية^(٤) .

كان اليهود يعرفون تماماً نوايا بريطانيا ورغبتها فى تسليم النقب جميعه لإسرائيل ، كما كشفت طائراتهم انسحاب القوات الأردنية بسرعة من جنوب النقب وأم رشرش وتحاشى الاشتباك مع اليهود ، لذلك أسرعت القوات الإسرائيلية بالزحف مارّة بنفس المراكز والمسالك التى أخلاها الجيش العربى الأردني^(٥) .

ثم تحركت عناصر جولاني من عين حصب صباح يوم ٧ مارس فوصلت طلائعها عين ويبة قبل هبوط الظلام مباشرة ، وبعد أن أمضت الليل فيها استأنفت التحرك جنوباً حتى وصلت يوم ٨ مارس إلى سفوح جبال قطورة الذى يبعد نحو ٦٠ كيلو متراً من قمة الخليج^(٦) . وفى نهاية يوم ٨ مارس ١٩٤٩ وصلت القوات الإسرائيلية نقطة تبعد ٣٠ كيلومتراً عن الخليج^(٧) .

(١) عبد الله التل « مذكراته - كارثة فلسطين » ، ص ٤٧٨ .

(٢) محمود رياض « مذكراته » ، الجزء الثانى ، ص ٢٢ .

(٣) حسن البدرى « الحرب فى أرض السلام » ، ص ٤٦٤ .

(٤) المصدر السابق ، ص ص ٤٦٤ - ٤٦٥ .

(٥) عبد الله التل « مذكراته - كارثة فلسطين » ، ص ص ٤٧٨ - ٤٧٩ .

(٦) حسن البدرى « الحرب فى أرض السلام » ص ٤٦٥ .

(٧) عبد الله التل ، « مذكراته » ، ص ٤٧٩ .

وعندما علمت القيادة الأردنية بذلك أصدرت تعليماتها إلى عناصرها بالنقب أن تترك مواقعها لتفادى الاصطدام بمفرزتي النقب والجولاني ، وبهذا لم يقع قتال يذكر ليقوم دليلاً على خرق إسرائيل الهدنة^(١) .

إلا أنه ذرأاً للرماد في العيون أرسلت الحكومة الأردنية في ١٠ مارس ١٩٤٩ احتجاجاً لوسيط الأمم المتحدة على ما ترتكبه القوات الإسرائيلية في النقب من أعمال عدائية . وكان هذا الاحتجاج مكشوفاً بالدرجة التي جعلت الدكتور رالف بانس يهمله تماماً ولا يتخذ أية إجراءات فعالة لردع القوات المعتدية ، مكتفياً بسؤال حكومة الأردن .. « إذا كانت صادقة في احتجاجها ، فلماذا لم توقف هذا الزحف أو تشتبك معه »^(٢) .

كما أنكرت الحكومة الإسرائيلية أى نشاط لقواتها في النقب ، ثم عادت - بمجرد أن وصلت طلائع لواءى النقب والجولان إلى شاطئ الخليج عند أم الرشرش في الساعة ١٥٠٠ يوم ١٠ مارس - تعلن على الملأ أنها احتلت كل النقب وضمته إلى رقعة الدولة باعتباره جزءاً من القسم الإسرائيلي في قرار التقسيم . وفي نفس الوقت أرسل آلون إشارة برقية إلى الأركان العامة يشرها « بأن جنوده قد وصلت إلى نهاية الخريطة »^(٣) .

وفي ١١ مارس تقدمت مصر بواسطة محمود رياض باحتجاج رسمي إلى الجنرال رايلي الأمريكي الجنسية وكبير مراقبي الهدنة للمخالفات العديدة التي ارتكبتها إسرائيل باعتدائها واحتلال أم رشرش . وطالبت مصر أثناء مناقشة العدوان الإسرائيلي في لجنة

(١) حسن البدرى « الحرب في أرض السلام » ، ص ٤٦٥ .

(٢) عبد الله التل « مذكراته - كارثة فلسطين » ، ص ٤٧٩ .

(٣) عبد الله التل « مذكراته - كارثة فلسطين » ، ص ص ٤٨٠ - ٤٨٢ ، انظر كذلك : حسن

البدرى ، « الحرب في أرض السلام » ، ص ص ٤٦٥ - ٤٦٦ ، انظر: نجيب الأحمد « فلسطين تاريخاً

ونضالاً » ، دار الجليل للنشر ، الطبعة الأولى ١٩٨٥ ، ص ص ٥٥٥ - ٥٥٦ . ذكر نجيب الأحمد

أن القوات الإسرائيلية دخلت أم الرشراش يوم ١١ مارس ١٩٤٩ ورفع عليها العلم الإسرائيلي .

الهدنة بإدانة إسرائيل وعودة قواتها إلى مواقعها فاضطر الجنرال رايلي أمام أحكام اتفاقية الهدنة المصرية الإسرائيلية الصريحة أن يدين فقط الطريقة التي اتبعتها إسرائيل في احتلال أم رشرش ولكنه لم يدعها لاحتلالها ولم يطالبها بالانسحاب منها^(١).

ثم اجتمعت اللجنة العليا للهدنة برئاسة الجنرال رايلي ومثل مصر القائمقام اسماعيل شرين ومثل إسرائيل موسى ديان في محاولة جديدة لانسحاب إسرائيل من أم رشرش ، إلا أن الجنرال رايلي أفهم إسماعيل شرين بعدم جدوى المحاولة لأن حكومة الولايات المتحدة لن تمارس أى ضغط على إسرائيل في هذا الاتجاه^(٢).

وكان أمام إسرائيل للوصول إلى أم رشرش طريقان رئيسيان ، أولهما الاتجاه جنوباً عن طريق وادى عرابة بجوار الحدود الأردنية والممر بالقرب من ميناء العقبة مما يعرضها للاحتكاك بالقوات الموجودة في ميناء العقبة ، والثاني عبور الحدود المصرية جنوب سيناء لبضعة كيلومترات ثم العودة إلى الأراضي الفلسطينية باتباع الطريق الموجود شمال طابا للوصول إلى أم رشرش ، ولم يكن لمصر أية قوات في هذه المنطقة . واختارت إسرائيل الطريق الثاني لاحتلال أم رشرش لما فيه من عنصر المفاجأة ، فجاءت إدانتها على أساس انتهاكها للحدود المصرية ومخالفتها لنص ما جاء في الاتفاقية بعدم السماح لأى قوات عسكرية باستخدام هذا الطريق الواقع في سيناء والذي يصل إلى أم رشرش^(٣) . وهو نص اقترحت إسرائيل في رودس ولم يجد الوفد المصرى سبباً قوياً يجعله يرفض أو يعترض عليه ، وبعد احتلال إسرائيل أم رشرش واحتلالها استفسر محمود رياض من رئيس الوفد الإسرائيلي موسى ديان أثناء اجتماعات لجنة الهدنة عن سبب إصرارهم على وضع هذا النص في اتفاقية الهدنة مع

(١) مقابلة مع محمود رياض بمنزله بالزمالك يوم ١٥ ديسمبر ١٩٩١ .

(٢) أوراق محمود رياض الخاصة، غير منشورة، محاضر اجتماعات لجنة الهدنة خلال شهر مارس ١٩٤٩ .

(٣) اتفاقية الهدنة العامة المصرية - الإسرائيلية ، هيئة الأمم المتحدة رودس - اليونان ، ٢٤ فبراير سنة

١٩٤٩ ، القاهرة ، مطبعة الحربية والبحرية الفرعية ١٩٤٩ ، ص ٣ - ١٤ ، وزارة الإرشاد

القومي « ملف وثائق فلسطين - مجموعة الوثائق الفلسطينية » ، الجزء الأول ، انظر كذلك : اتفاقية

الهدنة العامة المصرية - الإسرائيلية ، ١٩٤٩/٢/٢٤ ، ص ١٠٠٣ - ١٠١٦ .

عدم وجود أية أهمية عسكرية لهذا الطريق بالنسبة للجيش المصري . وكان رده مفاجأة لمحمود رياض ، فقد ذكر أنهم يقصدون بهذا النص القوات البريطانية الموجودة في القناة لأنه قد يحدث في المنطقة ما يدفع بريطانيا إلى محاولة إيجاد اتصال برى بين قواتها الموجودة في قناة السويس وقواتها الموجودة في ميناء العقبة ، وهو ما يتفق فعلاً مع رواية توفيق أبو الهدى عن محاولة بريطانيا منع إسرائيل من احتلال أم رشرش^(١) .

وقد أدرك إسماعيل شرين خطورة الموقف واستطاع إقناع حيدر باشا بضرورة تشكيل لجنة عسكرية وقانونية ، كان من بين أعضائها القائم مقام إسماعيل شرين والدكتور وحيد رأفت والبكباشى محمود رياض مندوبين عن القوات المسلحة . وتوجهت اللجنة بطائرة عسكرية إلى شرم الشيخ فشاهدت خليج العقبة وجزيرة تيران وصنافير واتضح لها أن إسرائيل بوصولها إلى خليج العقبة وجزيرة تيران أصبحت تهدد جنوب شبه جزيرة سيناء والممر المائى لقناة السويس ، كما تهدد منطقة البحر الأحمر كلها سواء السواحل المصرية أم السعودية^(٢) .

وفي يوم ١٣ مارس ١٩٤٩ ، أتم اللواء إسكندرونى مهمته باحتلال عين جدى^(٣) .

إن ما يزيد في فداحة المأساة ، أن نعلم أن القوات اليهودية التى وصلت إلى أم رشرش لم تزد على ٢٠٠ جندى جاءوا بسيارات الجيب واللوريات وبعدهد قليل من المدرعات الخفيفة .

وبديهى أن هذه القوة كان يمكن القضاء عليها في الصحراء لو سمح جلوب باشا لمفرزة واحدة أن تعمل بحرية في النقب ، وخاصة أن جنود الجيش العربى الأردنى قد عرفوا مسالك النقب وطرقاته وخبروها جيداً طوال السنين الماضية التى كان يجرى فيها هذا الجيش مناورات سنوية بما^(٤) .

(١) مقابلة مع محمود رياض بمقره بالزمالك يوم ١٥ ديسمبر ١٩٩١ .

(٢) محمود رياض « مذكراته » ، الجزء الثانى ، ص ٢٤ .

(٣) حسن البدرى « الحرب في أرض السلام » ، ص ٤٦٦ .

(٤) عبد الله التل « مذكراته » ص ٤٧٩ .

ويذكر عبد الله التل : « وهكذا خسرتنا منطقة تعتبر من أخطر المواقع الاستراتيجية في الشرق العربي ولأول مرة في تاريخ العرب والإسلام الطويل ينقسم العالم الإسلامي - العربي الذي يمتد من طنجة في الغرب إلى الصين في الشرق إلى قسمين نتيجة وصول اليهود إلى أم رشرش . وتزيد مساحة المنطقة التي سلمها جلوب باشا لليهود على ثلاثة آلاف كيلومتر وربع »^(١) .

وفي ١٥ مارس ١٩٤٩ قدمت السلطات الأردنية مذكرة أخرى تفصيلية إلى الأمم المتحدة في هذا الخصوص . وقد قام الدكتور (رالف بانش) بإجراء تحقيق في ادعاءات كل من الأردن وإسرائيل في خصوص تحرك القوات التابعة للطرفين ، وفي خصوص تحرك القوات الإسرائيلية نحو قرية (أم رشرش) واحتلالها ، وبعث بنتيجة ما أجراه في هذا الشأن من تحقيقات إلى رئيس مجلس الأمن في برقية بتاريخ ٢٢ مارس ١٩٤٩ . وقد جاء في نهاية هذه البرقية : « إنني متأكد تمام التأكيد أنه - ما عدا ما هو متعلق العقبة ذاتها - فإن المراكز التي أنشأتها في هذه المنطقة القوات الأردنية والقوات الإسرائيلية قد أنشئت كلها بعد الهدنة التي دخلت في التنفيذ في ١٨ يوليو ١٩٤٨ ، مع استثناء مراكز القوات الأردنية في (عين عبد) و (وكرنوب) ، وبذلك تكون هذه المراكز جميعها قد أقيمت خلافاً لأحكام الهدنة »^(٢) .

وعلى الرغم من أن هذه النتيجة الخطيرة التي وصل إليها التحقيق الذي أجراه الدكتور (رالف بانش) فإن الأمر وقف عند هذا الحد ، فبقيت القوات الإسرائيلية في (أم رشرش) . غير أن بقاءها فيها يعد من الوجهة القانونية الدولية ، ومن وجهة نظر الدول العربية - حتى ما كان منها متهادناً مع إسرائيل - أمراً غير مشروع ، لم تسلم به الدول العربية قط ، ولا يجوز الاحتجاج به عليها ، كما لا يجوز الاحتجاج به في مواجهة المملكة العربية السعودية - التي تشترك في السيادة على خليج العقبة - لأن هذه الدولة لم تعقد هدنة ما مع إسرائيل . يضاف إلى ذلك أن المراكز والخطوط التي

(١) عبد الله التل « مذكراته » ص ٤٧٩ .

(٢) حامد سلطان « مشكلة خليج العقبة » ، ص ١٤ .

تقررت في اتفاقيات الهدنة مع إسرائيل هي مراكز وخطوط عسكرية بحتة ، ولا يمكن - على أية صورة من الصور - اعتبارها حدودًا إقليمية من حيث القانون الدولي^(١) .

ولقد كان لاحتلال إسرائيل لقرية (أم رشرش) التي صارت تعرف الآن بميناء (إيلات) الإسرائيلي ، أثر بالغ لدى السلطات المصرية . فقد اتفقت هذه السلطات مع سلطات المملكة العربية السعودية على أن تقوم القوات المصرية باحتلال جزيرة (تيران) و(صنافير) وهما الجزيرتان اللتان تتحكمان في مداخل خليج العقبة . وعلى أثر هذا الاحتلال أقامت السلطات العسكرية المصرية في (رأس نصراني) مدافع ساحلية تسيطر تمامًا على الملاحة في مضيق (الانتربرايس)^(٢) .

وبعد أن تم ذلك رأت وزارة الخارجية المصرية أن تبعث يوم ٢٨ فبراير ١٩٥٠ بمذكرة إلى الحكومة البريطانية - بوصفها الدولة التي تمون قواتها في الأردن عن طريق ميناء العقبة - تعلمها بأنه « بالنظر للمحاولات التي ظهرت من جانب السلطات الإسرائيلية بالنسبة لجزيرتي تيران وصنافير بالبحر الأحمر ، بمدخل خليج العقبة ، أمرت الحكومة المصرية ، وذلك بالاتفاق التام مع حكومة المملكة العربية السعودية قواتها باحتلال الجزيرتين احتلالاً فعلياً . وهذا الاحتلال الآن أمر واقع . وقد جاء في هذه المذكرة : « ولما كان هذا الاحتلال لم توح به فكرة إعاقه المرور البرى على أى وجه في المجال البحرى الذى بين الجزيرتين المذكورتين وشاطئ سيناء المصرى ، فمن المسلم به أن هذا الممر ، وهو الوحيد الممكن سلوكه عملياً ، سيبقى حرًا كما كان بالمضى ، وذلك وفقاً للعرف الدولى ومبادئ القانون الدولى المقررة »^(٣) . وقد رأت الحكومة المصرية أن تبلغ السفارة الأمريكية بالقاهرة بمذكرة مماثلة فأخطرتها بذلك يوم ٢٨ فبراير سنة ١٩٥٠^(٤) .

(١) حامد سلطان « مشكلة خليج العقبة » ، ص ص ١٥ - ١٦ .

(٢) حامد سلطان « مشكلة خليج العقبة » ، ص ١٦ .

(٣) وثائق وزارة الخارجية المصرية ، مذكرة برقم ٣٦ بعث بها الدكتور وحيد رأفت مستشار الرأى لوزارة الخارجية بتاريخ ٢٣ يناير سنة ١٩٥٠ ، انظر كذلك وثائق الخارجية المصرية ، مذكرة من الخارجية المصرية إلى الحكومة البريطانية برقم ٥٥ بتاريخ ٢٨ فبراير ١٩٥٠ .

(٤) وثائق وزارة الخارجية المصرية ، مذكرة برقم ٤٢ بعث بها وكيل وزارة الخارجية المصرية إلى السفارة الأمريكية بالقاهرة يوم ٢٨ فبراير سنة ١٩٥٠ .

اتفاقية المثلث

وفي اجتماع (الشونة) وفي العاشرة والنصف صباح يوم ٢٦ مارس ١٩٤٩ اجتمعت الحكومة الأردنية وجلوب باشا بالملك عبد الله ، حيث كشف توفيق باشا أبو الهدى - رئيس الحكومة الأردنية - النقاب عن مأساة النقب الجنوبي بما في ذلك أم الرشرش ، فقال : كان وصول القوات البريطانية للعقبة بناء على طلبنا وبقصد منع اليهود من الوصول إلى الساحل حتى لا يمتنعوا اتصالنا بمصر ، ولكن ذهب أم الرشرش ولم يتدخل الإنجليز . وعندما سألنا السير ألك كركيريد عن السبب حاول أن يبين وقوع سوء فهم بما يتعلق بمجيء القوات للعقبة وأنها جاءت فقط لحماية العقبة . ولكني أفنعتته بوجهة نظري فأبرق إلى المستر بيفن فجاء الجواب مؤيداً صحة رأي الحكومة الأردنية وأن الحكومة البريطانية تعتذر لتقصيرها في تنفيذ العهد لسببين :

الأول : لأن أمريكا نصحتها بعدم الاشتباك مع اليهود .

والثاني : لأن أغلب دول الكومنولث البريطاني لم توافق على الاشتباك مع اليهود^(١) .

ثم أعلن توفيق باشا أبو الهدى ، ما قرره مجلس الوزراء الأردني تنفيذاً لرغبة جلالة الملك عبد الله وحرصاً على سلامة الجيش . وكان القرار ما يلي^(٢) :

١ - يدعى اليهود للشونة يوم الثلاثاء ٢٩ مارس ١٩٤٩ أى قبل آخر موعد لقبول الاتفاقية التي تم التباحث بشأنها بين الأردن وإسرائيل .

٢ - يستحسن أن يحضر مع الوفد اليهودي رئيس حكومتهم لأن رئيس الحكومة الأردنية سيحضر الاجتماع .

٣ - تنوى الحكومة الاتفاق مع الوفد اليهودي وتلبية جميع طلباته ، ولكنها ستسعى لتعديل بعض المواد .

٤ - يستدعى رئيس الوفد الأردني في رودس للاشتراك في المفاوضات وللإطلاع على كل ما يجرى ليسهل توقيع الهدنة في رودس .

(١) عبد الله التل « مذكراته » ، ص ص ٥٢٠ - ٥٢١ .

(٢) المصدر السابق ، ص ص ٥٢١ - ٥٢٢ .

٥ - يفاوض اليهود في هذه المرة كل من : فوزى باشا الملقى - وزير الدفاع ، فلاح باشا المدادحة - وزير العدلية ، حمد بك الفرحان - سكرتير الحكومة ، الميجر كوكر - رئيس فرع الحركات الحربية .

٦ - تكون الاتفاقية مع اليهود سرية ، وتدمج في هدنة رودس وتصدر كأنها تمت في مفاوضات الهدنة هناك ويحاط نائب الوسيط والمراقبون علماً بكل ما جرى .

وفي اجتماع الشونة يوم ٢٦ مارس ١٩٤٩ ، شرح الملك عبد الله موقف أمريكا وإنجلترا ، ووضح أنه لا يعتمد عليهما وعلى وعود أية أمة أجنبية . وكشف النقاب عن البرقية الواردة له من المستر بيغن حيث جاء فيها : « تنصح حكومة صاحب الجلالة البريطانية أن تتصلوا جلالتيكم بالمستر ترومان لاستطلاع رأيه في المشكلة^(١) . واستطرد الملك عبد الله قائلاً إنه رغم اعتقاده بعدم جدوى الاتصال بترومان فإنه قد بعث له برسالة خاصة يوم ٢٥ مارس ١٩٤٩ يرجوه فيها أن يتدخل في الأمر لإيقاف اليهود عن حدهم^(٢) .

وفي يوم ٢٩ مارس ١٩٤٩ ، أرسل الرئيس الأمريكي ترومان رده على رسالة الملك عبد الله ، حيث جاء فيها : « يشكر المستر ترومان لجلالتيكم اتصالكم به ، وينصح بقبول مطالب اليهود في هذه المرة . ويعد المستر ترومان لجلالتيكم أن يقف حائلاً دون طلبات يهودية في المستقبل ، أو أى توسع يهودى جديد على حساب القسم العربى الباقي من فلسطين^(٣) .

عاد من رودس يوم ٢٩ مارس ١٩٤٩ القائمقام أحمد صدقى الجندى رئيس الوفد الأردنى في مفاوضات رودس ومعه الرئيس على أبو نوار عضو الوفد ، لحضور الجلسة الختامية التى تعقدها الحكومة الأردنية مع اليهود في الشونة ، لوضع الصيغة النهائية لاتفاقية المثلث^(٤) .

(١) عبد الله التل « مذكراته » ، ص ٥٢٠ .

(٢) المصدر السابق ، نفس المكان .

(٣) المصدر السابق ، ص ٥٢٧ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٥٢٩ .

وفي مساء اليوم التالي ٣٠ مارس ١٩٤٩ ، وبناء على طلب الملك ، تحرك حرس الجيش مع الوفد اليهودي من القدس للشونة . وكان الوفد اليهودي مكوناً من نفس الأعضاء الذين اشتركوا في الجلسات السابقة بالإضافة إلى (روبين شيلوح) رئيس الوفد اليهودي في رودس الذي حضر للاشتراك في آخر جلسة كما فعل رئيس الوفد الأردني^(١) .

وبعد ترحيب الملك عبد الله بأعضاء الوفد الإسرائيلي ، أذن لتوفيق باشا أبو الهدى - رئيس الحكومة الأردنية - بالتحدث إلى الوفد رسمياً وباسم الحكومة الأردنية . وبدأ توفيق أبو الهدى موجهاً كلامه إلى إيتان والملك صامت لا يتكلم : « وتعلمون سيادتكم أن السياسة الأصلية التي سرنا عليها ، هي أن يقف الجيش العربي على حدود القسم العربي من فلسطين ولا يتعداه ولم يتعداه بالفعل ولو أن هذه السياسة لم تقل أو تنشر ، إلا أنها كانت بالفعل مرسومة . ولم يكن هناك ميل للحرب بالمرّة ، ولا نية أكيدة . ويمكنكم أن تقدروا صعوبة موقفنا في تنفيذ تلك السياسة المرسومة ، وفي الانجراف مع سياسة الدول العربية بحجارة لها وللتغطية فقط . والآن لن نتقيد بعد اليوم بنصائح خارجية حتى ولا بالسياسة العربية . ونرغب من كل قلوبنا أن نصل معكم إلى تسوية وصلاح دائم . وإذا توافرت لديكم حسن النية كما هي عندنا ، لا شك بأننا سننهي كل المشاكل بما تمليه المصالح المشتركة وحسن الحوار بين بلدينا . والمشكلة الحالية هي الهدنة الدائمة التي تطالبون فيها بتغيير الحدود وصعوبة ذلك علينا . وحكومة صاحب الجلالة ترى وجوب التقيد بمشروع التقسيم وفيه تقسيم المنطقة إلى :

(أ) منطقة داخلية حسب المشروع بدولتكم .

(ب) منطقة داخلية حسب المشروع لنا أي بالقسم العربي .

ثم استطرد توفيق باشا أبو الهدى قائلاً : « إن اتفاقية هذه الليلة ستدخل في اتفاقية رودس وكأنها جزء منها ، وهو ما جعلنا نستدعي صدقي بك الجندي ليشارك بنفسه في محادثات الليلة »^(٢) .

(١) عبد الله التل « مذكراته » ، ص ص ٥٢٩ - ٥٣٠ .

(٢) عبد الله التل ، المصدر السابق ، ص ص ٥٣١ - ٥٣٢ .

رد إيتان على توفيق باشا أبو الهدى قائلاً : « ... إن الصداقة يجب أن تكون على أساس متين لا تشوبه شائبة في المستقبل ومن الأسس التي ستجعل صداقة إسرائيل بالأردن قوية ، هي تسوية مشكلة المثلث بما يرضى إسرائيل ويؤمن سلامتها وطمأنينة شعبها ، إن طلبات إسرائيل في المثلث لا تقبل المساومة ، ولا يمكن التنازل عن شيء منها ، لأن الخبراء العسكريين أوصلوا بما كحد أدنى لتأمين سلامة الدولة اليهودية الفتية من تلك الناحية ، وتوصيتهم هذه تعتبر بنظر الحكومة أهم بكثير من قضية لاجئين وتعويضات وما شابه ذلك ، لأن سلامة إسرائيل هي ما يطالب بها الوفد اليهودي بالدرجة الأولى ، ومتى تأمنت هذه المطالب سيتم الاتفاق هذه الليلة »^(١) .

وعلى الفور بدأت المفاوضات بين الوفد الأردني والوفد اليهودي واستعمل فوزى باشا الملقى وزير الدفاع الأردني مقدرته ومؤهلاته الدبلوماسية الحارقة ، وعمل كل ما باستطاعته ليزحزح اليهود عن شبر واحد مما طلبوه ولكن دون جدوى . وعندما قاربت الساعة الرابعة صباحاً وقع الطرفان الاتفاقية التي لم تختلف عن مسودة الاتفاقية السابقة في شيء^(٢) . وزادت هذه الاتفاقية على سابقتها بالمادة التي جعلتها نهائية نافذة المفعول بمجرد توقيع الهدنة في رودس ، وقد وقع الاتفاقية والخراط كل من فوزى باشا الملقى وزير الدفاع الأردني وفلاح المدادحة وزير العدلية والقائم مقام صدقي الجندي رئيس وفد رودس والرئيس على أبو نوار عضو وفد رودس والميجر كوكر رئيس فرع الحركات الحربية الأردنية . وعاد صدقي الجندي إلى رودس حاملاً نسخة من الاتفاقية لإدماجها في معاهدة رودس^(٣) .

وحينما عاد رئيسا الوفدين الأردني واليهودي إلى رودس ، لم تستغرق المفاوضات أى وقت بعد أن حقق اليهود مطالبهم جميعاً . وقدم الوفدان نسخة اتفاقية الشونة إلى الجنرال رالى والدكتور بنش ، وعلى ضوءها قاما بتنظيم اتفاقية الهدنة التي وقع عليها

(١) عبد الله التل « مذكراته » ص ص ٥٢٢ - ٥٣٣ .

(٢) عبد الله التل ، المصدر السابق ، ص ص ٥١٥ - ٥١٦ . انظر : مسودة الاتفاقية ، ص ص ٥١٥ -

٥١٦ .

(٣) عبد الله التل ، المصدر السابق ، ص ص ٥٣٣ - ٥٣٥ .

الطرفان في الساعة السابعة والنصف من مساء الأحد ٣ أبريل ١٩٤٩^(١)، التي شملت جميع النقب بما في ذلك أم الرشرش التي احتلها اليهود في الهدنة، لا بل سلمت إليهم تسليمًا^(٢). لقد جعلت اتفاقية الهدنة في رودس حدود إسرائيل كما هو موضح في الخريطة المرفقة^(٣).

وهكذا سلم الوفد الأردني بحق اليهود في النقب الجنوبي حتى خليج العقبة. ولم يبق للأردن موضع قدم في جنوب فلسطين، ومع أن الوفد وصل إلى رودس حاملاً الخرائط التي تشير باحتلال الجيش العربي لتلك المنطقة الشاسعة. ويقع اللوم في هذا على الحكومة الأردنية وحدها^(٤).

إلا أن وثائق جامعة الدول العربية توضح صورة أخرى لما سبق أن قاله توفيق باشا أبو الهدى - رئيس وزراء الأردن.. ففي مؤتمر رؤساء الحكومات العربية الذي عقد في يناير سنة ١٩٥٥، روى توفيق باشا قصة احتلال إسرائيل لأم رشرش للتدليل على أن أحد أهداف قيام إسرائيل هو فصل مصر عن المشرق العربي، فذكر أنه عندما بدأت القوات اليهودية في تقدمها جنوباً في اتجاه خليج العقبة في مارس ١٩٤٩ لاحتلال أم رشرش جاءه الوزير المفوض البريطاني في عمان ليقول له بأن حكومته ترى بضرورة استمرار المواصلات البرية بين مصر والدول العربية وتقتراح إرسال كتيبة بريطانية إلى مدينة العقبة لتمنع اليهود من الوصول إلى خليج العقبة. وأوضح أن تواجد كتيبة بريطانية في ميناء العقبة كان يتطلب موافقة الحكومة الأردنية حسب الاتفاقية العسكرية بين البلدين، وأضاف أنه وافق فوراً على الاقتراح، وكانت الحكومة البريطانية ترغب في الاحتفاظ بخطوط مواصلاتها بين قواتها في قناة السويس، وقواعدها في الأردن والعراق والخليج. ووصلت الكتيبة فعلاً إلى ميناء العقبة الأردني على أن تتحرك في الوقت المناسب لوقف التقدم اليهودي، إلا أنها ظلت في ميناء

(٤) عبد الله التل، المصدر السابق، ص ٥٣٦.

(١) عبد الله التل «مذكراته» ص ٤٨٠.

(٢) المصدر السابق، ص ٥٣٦ - ٥٣٨، انظر الخريطة.

(٣) المصدر السابق، ص ٥٣٩.

العقبة دون أن تتحرك لتنفيذ المهمة المكلفة بها ، بينما استمرت القوات اليهودية في تقدمها إلى أن احتلت أم الرشرش . وذكر توفيق باشا في روايته هذه أنه استدعى القائد الإنجليزي واستفسر منه عن السبب في عدم التعرض للقوات اليهودية ، ووقف الزحف اليهودي ، فأجاب بأن التعليمات التي لديه هي عدم التعرض للقوات اليهودية إلا إذا اعتدت على الحدود الأردنية^(١) .

واستدعى توفيق باشا الوزير المفوض البريطاني مستنكراً الموقف البريطاني وذكره بجديثه وطلب منه تفسيراً لموقف الحكومة البريطانية . وفي اليوم التالي وصلته رسالة مستر بيفن وزير خارجية بريطانيا ، يبلغه فيها أن الحكومة الأمريكية ضغطت عليه لتغيير سياسته والسماح لإسرائيل باحتلال أم الرشرش ، وكان الرئيس ترومان رئيس الولايات المتحدة الأمريكية قد اعترف بإسرائيل فور إعلان قيامها وأطلق المقولة المشهورة بأن العرب ليس لهم صوت في انتخابات الرئاسة الأمريكية^(٢) .

ورواية توفيق أبو الهدى تشير إلى مدى التواطؤ الأمريكي اليهودي في التخطيط لقيام إسرائيل وعدوانها على الشعب الفلسطيني وتحقيق أهدافها للوصول إلى خليج العقبة ، وتشير أيضاً إلى مسئولية بريطانيا التي لم تكن في تلك الوقت بالذات بالدولة المستضعفة لتخضع للضغط الأمريكي بهذه البساطة^(٣) .

وبعد اغتيال الملك عبد الله وإعفاء ابنه الملك طلال وتولى الملك حسين الحكم حيث كان صغيراً ، طلب توفيق أبو الهدى عقد جلسة سرية لمجلس النواب الأردني حمل فيها الملك عبد الله كل النكبات وهاجمه واتهمه في أمور كثيرة وقال إن الملك فاروق والملك عبد الله كانا يتسابقان للسيطرة على أكبر جزء من فلسطين وإن الملك

(١) وثائق جامعة الدول العربية ، غير منشورة ، محضر جلسة مؤتمر رؤساء الحكومات العربية المنعقد بمقر الجامعة بالقاهرة في يناير ١٩٥٥ ، رواية توفيق باشا أبو الهدى - رئيس وزراء الأردن قصة احتلال إسرائيل لأم الرشرش .

(٢) وثائق جامعة الدول العربية ، غير منشورة ، محضر جلسة مؤتمر رؤساء الحكومات العربية المنعقد بمقر الجامعة بالقاهرة في يناير ١٩٥٥ ، رواية توفيق باشا أبو الهدى .

(٣) محمود رياض ، « مذكراته » ، الجزء الثاني ، دار المستقبل العربي ، الطبعة الأولى ١٩٨٦ ، ص ٢٢ .

عبد الله عين حاكمًا عسكريًا على اللد والرملة وهو نعيم عبد الهادي وأجبر جلوب باشا على إعطائه سرية من الجيش لحماية نعيم عبد الهادي لا لمقاتلة اليهود طمعًا في ضمها إلى ملكه وقال إنه هرب إلى بيروت لعدم توقيع اتفاقية رودس أو تصديقها لكنه أجبر على ذلك فيما بعد وقال إن الملك عبد الله هو الذي كان يتصل مع اليهود منذ عام ١٩٤٥ مع الياهو ساسون في باريس محاولاً ضم فلسطين مع الأردن تحت ملكه وإعطاء اليهود حكمًا ذاتيًا في مناطق اكتظاظهم ثم محاولاته الكثيرة لضم فلسطين أو أي جزء منها له وتحت ملكه وحمل الملك عبد الله كل شيء وقال عندي الوثائق الثبوتية^(١).

ولكن مجلس النواب الأردني قال له : هذا دفاع مرفوض لأن رئيس الوزراء هو المسئول عن التنفيذ ورد توفيق أبو الهدى قائلاً : إنه عارض وحدة الضفتين وقدم مذكرة خطية بذلك للملك عبد الله قال فيها إن قضية فلسطين قضية عربية إن لم تكن دولية ولا يستطيع الأردن تحملها وأن الوحدة هذه ستشكل خطراً على الأردن ، ثم قال : والآن أكرر ما قلته إذا رغبتم وأنتم نواب الأمة فسأعلن فصل هذه الوحدة^(٢).

استاءت العائلة الهاشمية من توفيق أبو الهدى بسبب هذا البيان وقال الكثيرون إنه انتهazy غدار . وفي الأول من يوليو ١٩٥٦ وجد أبو الهدى ميتاً في بيته في عمان ومربوطاً برقبتة بجبل في شباك الغرفة وصدر بيان رسمي أردني نعي فيه رئيس الوزراء توفيق أبو الهدى وقال البيان الرسمي إن المرحوم كان يعاني من مرض عصبي وقد وجد منتحرًا في بيته وهكذا انتهت حياته^(٣).

وقد ذكر الرئيس جمال عبد الناصر : « إن إسرائيل ضربت بقرارات الأمم المتحدة الصادرة سنة ١٩٤٧ ، ١٩٤٨ ، سنة ١٩٤٩ عرض الحائط » . وتساءل : ماذا فعلت إسرائيل بقرارات الهدنة التي فرضها مجلس الأمن ؟ إنها احتلت كل ما احتلته من

(١) نجيب الأحمد ، « فلسطين تاريخًا ونضالاً » ، دار الجليل للنشر ، عمان ، الأولى ١٩٨٥ ، ص ٦١٧ .

(٢) نجيب الأحمد ، « فلسطين تاريخًا ونضالاً » ، ص ٦١٧ .

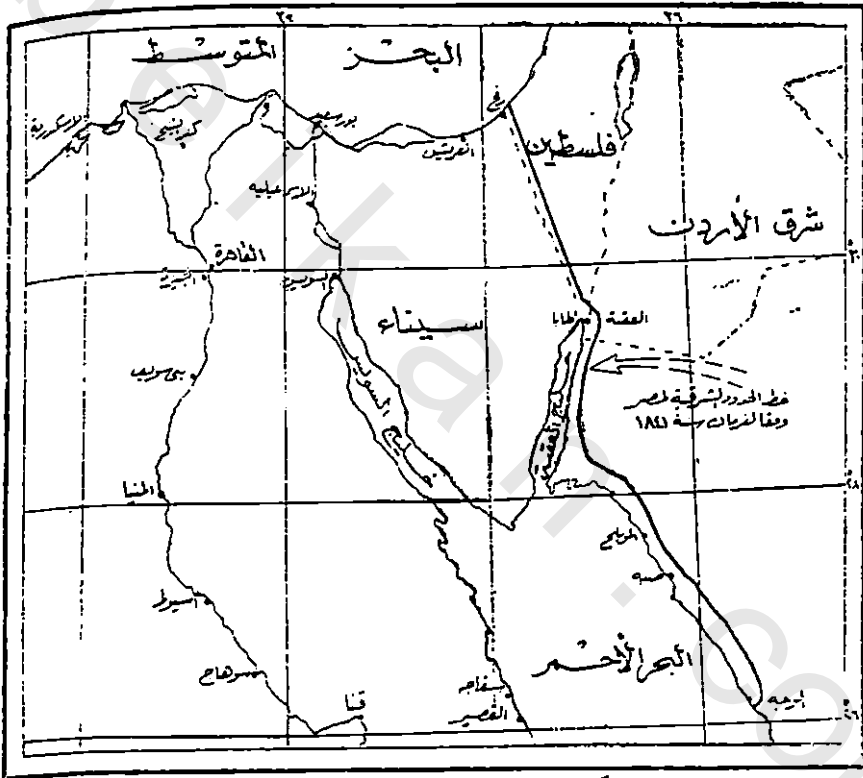
(٣) المصدر السابق ، ص ٦١٨ .

الأرض الفلسطينية بعد هذه القرارات ، وأبرز مثل على ذلك ميناء إيلات الذى بنته إسرائيل على موقع أم الرشرشش العربي . لقد احتلت هذه المنطقة بعد اتفاقيات الهدنة... جرى توقيع اتفاقيات الهدنة فى فبراير ١٩٤٩ . وفى مارس ، الشهر الذى يليه مباشرة ، احتلت إسرائيل هذا الموقع وداست بأقدامها على كل قرارات مجلس الأمن وعلى اتفاقيات الهدنة التى لم يكن الحبر الذى وقعت به قد جف بعد ^(١) .

والخلاصة : إنه على الرغم من صعوبة طرح قضية احتلال إسرائيل لقرية (أم رشرشش) المصرية العربية على بساط التحكيم الدولى العادل إلا أننا نطالب بذلك لتعود كما كانت دوماً ، جزءاً عزيزاً غالباً من أرض هذا الوطن ، ولتبقى فى نفوسنا جميعاً رمزاً نبيلاً للإصرار على نيل الحق وعدم التفريط فى التراب الوطنى مهما طال الزمان .

إن الوثائق التاريخية هى اللغة الموضوعية التى تحمل أمانة الحقائق ، لا تصبغها بلون ، ولا تحملها بفكر أو رؤية أو غرض ، وإنما تسوقها للقارئ وللتاريخ فى حياد وتجرد ، وليقف القاصى والدانى على دقائق هذه القضية ، ويتعرف على أبعادها . إننا نطالب بتقديم هذه القضية العادلة لمحكمة العدل الدولية كما حدث فى قضية طابا وكلنا ثقة فى حقنا الوطنى الأصيل فى عودة قرية (أم رشرشش) للسيادة الوطنية .

(١) مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام ، « وثائق عبد الناصر - خطاب ، أحاديث ، تصريحات ، الفترة يناير ١٩٦٧ ديسمبر ١٩٨٦ » ، حديث الرئيس جمال عبد الناصر إلى ممثلى أجهزة الإعلام العالمية والعربية فى المؤتمر الصحفى الذى عقد بالقاهرة يوم ٢٨ مايو ١٩٦٧ ، مطابع الأهرام التجارية ، القاهرة ١٩٧٣ ، ص ١٨٩ - ١٩٠ .



الحد الشرقي لمصر وفقاً لقرارات سنة ١٩٤١

الحد الشرقي لمصر وفقاً لقرارات سنة ١٩٤١

المصادر

أولاً : وثائق غير منشورة

- ١ - العربية
- وثائق وزارة الدفاع المصرية ، دار المحفوظات المركزية العسكرية ، وثائق حرب فلسطين - ملف الهدنة رقم (٦٦٥) .
- وثائق وزارة الدفاع المصرية ، دار المحفوظات المركزية العسكرية ، وثائق حرب ١٩٤٨ ، ملف رقم (٦٦٨) ، ملف العملية « شن تاف شن » .
- وثائق وزارة الدفاع المصرية ، دار المحفوظات المركزية العسكرية ، وثائق حرب ١٩٤٨ ، ملف رقم (٦٨٨) ، ملف العملية « شن تاف شن » .
- وثائق وزارة الدفاع المصرية ، دار المحفوظات المركزية العسكرية ، وثائق حرب ١٩٤٨ ، ملف رقم (٦٧١) ، ملف العملية « عوفداه » .
- وثائق وزارة الدفاع المصرية ، دار المحفوظات المركزية العسكرية ، ملف رقم (٧١٠) ، ملف معارك لواء النقب ولواء جولاني واللواء الثامن المدرع الإسرائيلي .
- وثائق وزارة الخارجية المصرية مذكرة رقم ٣٦ بعث بها الدكتور وحيد رأفت مستشار الرأي لوزارة الخارجية إلى السيد وزير الخارجية المصرى الدكتور محمد صلاح الدين بتاريخ ٢٣ يناير سنة ١٩٥٠ .
- وثائق وزارة الخارجية المصرية مذكرة من الخارجية المصرية إلى الحكومة البريطانية برقم (٥٥) بتاريخ ٢٨ فبراير سنة ١٩٥٠ .
- وثائق وزارة الخارجية المصرية مذكرة رقم (٤٢) بعث بها وكيل وزارة الخارجية المصرية إلى السفارة الأمريكية بالقاهرة يوم ٢٨ فبراير سنة ١٩٥٠ .
- وثائق جامعة الدول العربية ، محضر مجلس مؤتمر رؤساء الحكومات العربية المنعقد بمقر الجامعة العربية بالقاهرة فى يناير ١٩٥٥ ، رواية توفيق باشا أبو الهدى - رئيس وزراء الأردن - لاحتلال إسرائيل لأم الرشرش .

٢ - الأجنبية

- Foreign Office, Registry No. E. 12296/582/65, November 7-1922.
- Foreign Office, "Effects of deviation of river on boundaries", E. 2916/65/1927.
- Foreign Office, S.W.I. to Colonial Office, E. 2916/65/, 12th July, 1927.
- Foreign Office, "Memorandum on the exclusion of Palestine from the area assigned for Arab independence by McMahon - Hussein Correspondence of 1915 - 1916", No. 5539/21590. October 24, 1930. London.
- Telegram from the Secretary of States for the Colonies to the High commissioner for Palestine, No. 280, 28th August 1922.
- Telegram from the Secretary of States for the Colonies to the High commissioner for Palestine, No. 286, 30th August 1922.
- Department of State, Division of Publication, Series, C, No. 55, Palestine No. 1 "Mandate for Palastine", prepared in the Division of NEAR EASTERN Affairs. U.S.A., May 1926.

ثانياً : وثائق منشورة

١ - العربية

- وثائق وزارة الدفاع المصرية ، « اتفاقية الهدنة العامة المصرية - الإسرائيلية ، هيئة الأمم المتحدة - رودس - اليونان ، ٢٤ فبراير سنة ١٩٤٩ » ، القاهرة مطبعة الحربية والبحرية الفرعية ١٩٤٩ .
- وثائق وزارة الدفاع المصرية ، دار المحفوظات المركزية العسكرية ، وثائق حرب فلسطين - ملف الهدنة رقم (٦٦٥) .
- وثائق وزارة الخارجية المصرية ، القضية المصرية (١٨٨٢ - ١٩٥٤) ، المطبعة الأميرية بالقاهرة ، ١٩٥٥ .
- وزارة الدفاع الوطنى - الجيش اللبناني ، الأركان العامة ، الشعبة الخاصة ، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، « القضية الفلسطينية والخطر الصهيونى » ، بيروت ١٩٧٣ .
- جامعة الدول العربية ، الأمانة العامة ، إدارة فلسطين ، الشعبة السياسية « الوثائق الرئيسية فى قضية فلسطين » ، المجموعة الأولى ١٩١٥ - ١٩٤٦ ، القاهرة ١٩٥٧ .
- الحكومة المصرية ، « جريدة الوقائع المصرية » ، العدد ١٢٧ ، السنة ٧٦ ، بتاريخ ١٠ نوفمبر ١٩٠٦ .
- نص الاتفاقية المصرية التركية المتعلقة بالحد السياسى الشرقى المصرى التركى (الفلسطينى) .

- أنيس صايغ وآخرون ، الموسوعة الفلسطينية، الطبعة الأولى، مطبعة ميلانو ستامبا (فارجليانو- إيطاليا) .
- وزارة الإرشاد القومي ، « ملف وثائق فلسطين - مجموعة الوثائق الفلسطينية » ، الجزء الأول ، القاهرة
١٩٦٩ .

- مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام ، « وثائق عبد الناصر - خطاب ، أحاديث ،
تصريحات ، الفترة يناير ١٩٦٧ - ديسمبر ١٩٨٦ » ، حديث الرئيس جمال عبد الناصر إلى ممثلي
أجهزة الإعلام العالمية والعربية في المؤتمر الصحفي الذي عقد بالقاهرة يوم ٢٨ مايو ١٩٦٧ ، مطابع
الأهرام التجارية ، القاهرة ١٩٧٣ .

٢ - الأجنبية

- F.O. 882/17. Syrian political situation since 1800.
- F.O. 78/5479. Immigration of Jelils into Palastine, 1891 - 1905.
- United Nations Peacekeeping, 1946 - 1967, Documents and Commentary.
The - Middle East, Oxford University Press, London 1969.

ثالثاً : المذكرات الشخصية

١ - غير منشورة

- أحمد فؤاد صادق ، الأوراق الشخصية ومذكراته .
« أحمد فؤاد صادق : كان يشغل منصب قائد القوات المصرية بفلسطين بعد اللواء أحمد على المواوى ،
ثم شغل منصب رئيس أركان الجيش المصرى » .
- حسن البدرى ، الأوراق الخاصة ، وقد شغل اللواء أركان حرب حسن البدرى مناصب عسكرية كثيرة
منها : رئيس هيئة البحوث العسكرية بالقوات العسكرية المسلحة ، ومدير أكاديمية ناصر
العسكرية العليا .
- عبد الرحمن عزام ، الأوراق الشخصية ومذكراته .
« عبد الرحمن عزام : شغل منصب الأمين العام لجامعة الدول العربية » .
- محمود رياض ، ومذكراته الخاصة ومحاضر اجتماعات لجنة الهدنة .
« محمود رياض : شغل منصب وزير خارجية مصر خلال الفترة من عام ١٩٦٤ وحتى ١٩٧٢ ثم شغل
منصب أمين عام جامعة الدول العربية من عام ١٩٧٢ وحتى عام ١٩٧٩ » .

٢ - منشورة

- أحمد شفيق باشا ، « مذكراتي في نصف قرن » ، الجزء الأول ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٩٥ .
- أحمد شفيق باشا ، « مذكراتي في نصف قرن » ، الجزء الثاني ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٩٥ .
- أحمد شفيق باشا ، « حوليات مصر السياسية » ، عشرة أجزاء ، مطبعة مصر ، القاهرة ١٩٣٦ .
- رشدى باشا ، « مسألة العقبة » ، دار الكتب المصرية .
- عبد الحميد الثانى (السلطان) ، « مذكراتي السياسية ١٨٩١ - ١٩٠٨ » ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٧٧ .
- عبد الله التل ، « مذكراته - كارثة فلسطين » ، دار القلم ، القاهرة ١٩٥٩ .
- محمود رياض ، « مذكراته » ، الجزء الثانى ، دار المستقبل العربى ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٦ .
- نجيب الأحمد ، « فلسطين تاريخاً ونضالاً » ، دار الجيل للنشر ، الطبعة الأولى ١٩٨٥ .

رابعاً : المقابلات الشخصية

- أمين حامد هويدى ، مقابلات كثيرة معه ابتداء من ١١ أكتوبر ١٩٨٩ وحتى الآن بمنزله بالحى الثانى بمصر الجديدة. وأمين هويدى شغل مناصب كثيرة منها: وزير دولة لشئون مجلس الأمة ووزير حربية .
- زكريا محيى الدين ، مقابلات معه عام ١٩٦٨ ، ١٩٨٨ ، ١٩٩٠ ، ١٩٩٦ ، بمنزله بالعجوزة وقد شغل مناصب كثيرة منها : وزير الداخلية ورئيس وزراء ونائب الرئيس جمال عبد الناصر .
- عبد اللطيف البغدادي ، مقابلات معه عام ١٩٨٦ ، ١٩٨٧ ، ١٩٨٩ ، ١٩٩٠ ، ١٩٩١ ، ١٩٩٦ ، بمنزله بمدينة نصر . وقد شغل مناصب وزارية كثيرة ثم شغل منصب نائب الرئيس جمال عبد الناصر .
- كمال الدين حسين ، مقابلات كثيرة معه عام ١٩٨٦ ، ١٩٨٧ ، ١٩٩٠ ، ١٩٩٢ ، ١٩٩٦ ، بمنزله بالعجوزة وبنها . وقد شغل مناصب وزارية كثيرة ثم شغل منصب نائب الرئيس عبد الناصر .
- محمد صلاح الدين ، مقابلات معه بمنزله بالزمالك . وقد شغل منصب وزير خارجية مصر فى آخر وزارة وفدية .
- محمود رياض ، مقابلات معه كثيرة وشبه مستمرة خلال الفترة من يناير ١٩٨٨ وحتى فبراير ١٩٩٢ بمنزله بالزمالك . وقد شغل مناصب كثيرة منها : عضو الوفد المصرى فى مفاوضات رودس ثم سفير مصر فى دمشق وال مندوب الدائم لمصر فى الأمم المتحدة، ووزيراً للخارجية، ثم أميناً عاماً لجامعة الدول العربية .

خامساً : الدوريات

- جريدة المقطم العدد ٥١٩٥ بتاريخ الثلاثاء ٢ مايو ١٩٠٦م الموافق ٩ ربيع الأول ١٣٢٤هـ .
- جريدة المقطم العدد ٥١٩٦ بتاريخ الأربعاء ٣ مايو ١٩٠٦م الموافق ١٠ ربيع الأول ١٣٢٤هـ .
- جريدة المقطم عدد يوم ٦ أبريل ١٨٩٢ .
- جريدة المقطم العدد ٥١٢٩ بتاريخ الثلاثاء ١٣ فبراير سنة ١٩٠٦م الموافق ١٩ ذو الحجة ١٣٢٣هـ .
- جريدة المقطم العدد ٥٢٠١ الصادر في يوم الخميس ١٠ مايو سنة ١٩٠٦م الموافق ١٦ ربيع الأول ١٣٢٤هـ .
- جريدة المويد ، القاهرة ، عدد يوم ٢٤ أبريل ١٨٩٢ .
- مجلة شئون فلسطين ، رقم ٥ ، نوفمبر ١٩٧١ ، بحيرة قاسمية ، « قضية الحدود بين مصر وفلسطين قبل الحرب العالمية الأولى » ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ١٩٧١ .
- مجلة شئون فلسطين ، عدد ٥٥ ، مارس ١٩٧٦ ، عاد حامد الجادر ، « سياسة توزيع امتيازات المشاريع الكبيرة في فلسطين أيام الانتداب » .

سادساً : الكتب والمراجع**١ - العربية**

- إبراهيم أمين غالى ، « سيناء المصرية عبر التاريخ » ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٦ .
- أحمد أمين عامر ، « أزمة طابا وانعكاساتها على الدبلوماسية المصرية » ، مجلة السياسة .
- أحمد فؤاد متولى ، « مشكلة طابا بين الماضى والحاضر من واقع كتابات المسؤولين عن الأحداث » ، مكتبة النهضة المصرية القاهرة ١٩٨٩ .
- أسعد رزوق ، « إسرائيل الكبرى » ، سلسلة كتب فلسطين ، منظمة التحرير الفلسطينية ، مركز الأبحاث ، بيروت ١٩٦٨ .
- أمين سامى باشا ، « تقويم النيل وعصر محمد على باشا » ، الجزء الثانى ، القاهرة ١٩٢٨ .
- أورهان محمد على ، « السلطان عبد الحميد الثانى » ، الكويت ١٩٩١ .
- أبلى ليفى أبو عسل ، « يقظة العالم اليهودى » ، القاهرة ١٩٣٤ .
- حامد سلطان ، « مشكلة خليج العقبة » ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ١٩٦٧ .
- حسن البدرى ، « الحرب فى أرض السلام » ، دار الوطن العربى ، بيروت ١٩٧٦ .
- عادل محمود رياض ، « الفكر الإسرائيلى وحدود الدولة » ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ١٩٧٧ .

- عباس مصطفى عمار ، « المدخل الشرقي لمصر » ، الجمعية الجغرافية المصرية ، القاهرة ١٩٤٦ .
- عبد الوهاب الكيالي ، « تاريخ فلسطين الحديث » ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ١٩٧٠ .
- فيليب يوسف جلاذ ، « القاموس العام للإدارة والقضاء » ، ستة أجزاء ، الإسكندرية ١٨٩٩ - ١٩٠٢ .
- محمد السيد غلاب ، « الجغرافية التاريخية لإقليم النقب » ، المحاضرة العامة ، الجمعية الجغرافية المصرية ، الموسم الثقافي ، سنة ١٩٥٦ .
- محمد عبد الفتاح محسن ، « دراسة موجزة عن الحدود الشرقية لمصر » ، مصلحة المساحة العسكرية القاهرة ١٩٧٨ .
- محمد فريد ، « تاريخ الدولة العلية العثمانية » ، دار الجليل ، بيروت ، بدون تاريخ .
- محمد فيصل عبد المنعم ، « أسرار ١٩٤٨ » ، دار المنها للطباعة ، القاهرة ١٩٦٨ .
- محمد محمود الديب ، « حدود فلسطين دراسة تحليلية لوثائق الانتداب » ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ١٩٧٩ .
- محمود كامل خلة ، « فلسطين والانتداب البريطاني ١٩٢٢ - ١٩٣٩ » ، منظمة التحرير الفلسطينية ، مركز الأبحاث ، بيروت ١٩٧٤ .
- نعم بك شقير ، « تاريخ سيناء القديم والحديث وجغرافيتها » ، دار الجليل ، الطبعة الأولى ١٩٩١ .
- يونان لبيب رزق ، « أزمة العقبة المعروفة بمحادثة طابا ١٩٠٦ » ، المجلة التاريخية المصرية ، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، المجلد ١٣ ، ١٩٦٧ ، ص ص ٢٤٧ - ٣٠٥ .

٢ - الأجنبية

- Afaf Lutfi Al - sayyid «Egypt and Cromer», John Murry, London 1968.
- Mariolile, J. «Cromer in Egypt», Elek Looks, London 1970.

التهود الثقافي والإعلامي
لمدينة القدس وتراثها

الدكتور
خالد عزب

oboeikan.com

التهود الثقافي والإعلامي لمدينة القدس وتراثها

يدرس الطفل الإسرائيلي القدس وتراثها من وجهة النظر اليهودية ، وذلك في إطار تسيير الوجود اليهودي في فلسطين ، والذي نراه ملخصا في كتاب (ديفيد الصغير) بصورة تعكس كيف يغرز اليهود ما لديهم من معتقدات لأطفالهم . وفي هذا الكتاب تلخص قصته التاريخية فيما يلي : (في ذلك العام ، في أورشاليم (القدس) ، كان ديفيد صغيرا جدا ، عندما هدم الرومان وأحرقوا هيكل سليمان الرائع . وبناء على أوامر الإمبراطور تيتوس ، قام الرومان بالقتل والنهب . وقطع جنودهم بضربات سيوفهم القوية رؤوس الأطفال الصغار ، ولم يتركوا إلا بعض الحجارة المنضدة والتي نسميها حائط المبكى . وبما إن ديفيد يركض سريعا فقد أفلت من الجلادين الرومان وهو يقول: العام القادم في أورشاليم ..). تلك صورة مصغرة من غرز الثقافة الإسرائيلية في نفوس الأطفال .

ولكن هناك بعد آخر وهو إكساب الرؤية اليهودية لمدينة القدس طابعا علميا ، وهذا يبدو من خلال نشاط الجامعات والمؤسسات الإسرائيلية ، فبالرغم من تسليم الأثرين اليهود بفشلهم في العثور على حجر واحد من حجارة أية بناية تنسبها التوراة إلى النبي سليمان على الرغم من مرور عشرات السنوات من التنقيبات الأثرية المكثفة في العديد من المواقع بالقدس ، والتي ستبين الدراسة طبيعة بعضها . بالرغم من هذا كله فقد أظهرت المجلة الجغرافية الإسرائيلية في عدد خاص لها البعد العلمي لبناء هيكل

سليمان في موضع قبة الصخرة . وصدور هذا العدد من مجلة علمية معترف بها في الغرب يوحى بجدية وأصالة الادعاءات الإسرائيلية ، بل ويستخدم هذا العدد كمرجع للمقالات الصحفية والبرامج التليفزيونية .

ولذا ، بات علينا أن نكتشف صورة المجتمع الإسرائيلي من الداخل وموقفه من قضية إعادة بناء الهيكل ، وحقيقة هذا الهيكل . وهل يحق لليهود إعادة بنائه؟ وهل للهيكل موقع ثابت ومقدس في العقيدة اليهودية؟. حيث يرى الباحث أن الهيكل ليس له موضع ثابت مقدس في العقيدة اليهودية ، وتثبيته جاء كأسطورة بثها اليهود بعد السبي البابلي كنوع من مقاومة الذوبان في المجتمع الذي هاجروا إليه . خاصة مع وجود شكوك في قدسية القدس كمدينة لدى اليهود .

وتكتمل هذه الصورة مع المخططات الإسرائيلية للسيطرة على آثار القدس القديمة بل والاستيلاء على بعضها ، وهو ما سيوضحه البحث . وهذا كله يأتي في إطار تطويق القدس بقدس جديدة بحيث تذوب المدينة القديمة سكانا وتراثا في المدينة الجديدة ولتبتلعها ويصبح من الصعب فصل المدينتين ، بل والبحث عن وثائق المدينة الإسلامية لنفى ملكيتها كما حدث حين سرقت بعض وقفياتها .

ونسرى صورة أخرى من صور التهويد الثقافي والإعلامي حين تنشر اللوحات التي رسمها الرحالة الأوروبيون لمدينة القدس ، فنجد إحدى دور النشر حينما تنشر لوحات ديفيد روبرت الرحالة الإسكتلندي الشهير ، تصحبها بصور معاصرة لأرض فلسطين والقدس تبين الفارق بين الفضاء في القرن ١٩ والوضع بعد الاحتلال الإسرائيلي وكأنها رسالة موجهة تريد أن تقول منها: أن الأرض المقدسة لدى اليهود والمسيحيين أرض التوراة والعهد الجديد كانت فضاء يحتاج إلى من يعمره .

كل هذا يقدم صورة مختلفة عن رؤيتنا لقضية القدس بصفة خاصة وفلسطين بصفة عامة . لذا باتت المواجهة الإعلامية والثقافية حتمية ، بل يجب أن يكون ضمن بنود مفاوضات السلام بين العرب وإسرائيل مطالبات عربية خاصة بالمناهج الدراسية في

إسرائيل ، وكذلك مطالبات خاصة بإلغاء قانون العودة لليهود وطبيعة منح الجنسية الإسرائيلية ، هذا إن كانت إسرائيل تبحث عن سلام حقيقي مع العرب .

لقد فهم عبد الملك بن مروان أهمية القدس كمدينة مقدسة لدى المسلمين والمسيحيين . لذا كان تشييده مبنى قبة الصخرة بنقوشه التي تحمل آيات من القرآن خاصة بالديانة المسيحية رسالة إعلامية موجهة إلى مسيحي القدس المواليين للدولة البيزنطية ، والدولة البيزنطية هدفها إعلامهم بأنه في ظل الصراع الأموي البيزنطي فإن القدس مدينة إسلامية يحكمها المسلمون أحفاد العرب مؤسسى المدينة . لذا بات علينا أن نوجه رسائل مماثلة لليهود والمسيحيين البروتستانت الذين يساندون اليهود في ادعاءاتهم . ولكى تكون هذه الرسالة ذات مغزى علمي وإعلامي جيد سنطرح لها بعض المقترحات :

- يجب دراسة الدراسات الإسرائيلية ودراسات المعهد الأميركي للآثار بالقدس وتخصيص منح دراسية لذلك للأثريين الشبان ، خاصة الدراسات التي تتعلق بعصور ما قبل التاريخ التي يحورها اليهود اليوم لمصلحتهم . وكذلك يجب دراسة طبوغرافية مدينة القدس عبر العصور من خلال الآثار والوثائق التاريخية ، حيث إن ما أنجزه الباحثون العرب في هذا المضمار غير دقيق وغير كاف . مع تقدم دراسات وافية لتراث القدس منذ عصور ما قبل التاريخ حتى العصر الحديث .

- ضرورة تعزيز المواقع العربية والإسلامية الخاصة بالقدس على الإنترنت بهذه الدراسات .

- نوجه نداء لائتلاف الجامعات العربية بتخصيص الموسم الثقافي في الجامعات العربية هذا العام للقدس . وكذلك إعداد كتيب للتلاميذ في المدارس العربية عن القدس يكون ضمن مقررات مادة التاريخ .

- تكليف كل من منظمة المدن العربية ومنظمة العواصم والمدن الإسلامية لتنظيم مؤتمر عالمي في غزة أو إحدى مدن الضفة الغربية للقدس وتراثها المعماري كوسيلة إعلامية لبيان أهمية هذه المدينة للمسلمين .

التهويد هو عملية نزع الطابع الإسلامي والمسيحي عن القدس، وفرض الطابع الذي يسمى (يهوديا) عليها. وتهويد القدس جزء من عملية تهويد فلسطين ككل، ابتداء من تغيير اسمها إلى (ارتس إسرائيل)، مروراً بتزييف تاريخها، وانتهاءً بدم القرى العربية وإقامة المستوطنات ودعوة اليهود للاستيطان في فلسطين^(١).

وقد بدأت عملية التهويد منذ عام ١٩٤٨م وزادت حدتها واتسع نطاقها منذ يونية ١٩٦٧م. وقد ارتكزت السياسة الإسرائيلية على محاولة تغيير طابع المدينة السكاني والمعماري بشكل بنوي؛ فاستولت السلطات الإسرائيلية على معظم الأبنية الكبيرة في المدينة واتبعت أسلوب نسف المنشآت وإزالتها لتحل محلها أخرى يهودية، كما قامت بالاستيلاء على الأراضي التي يمتلكها عرب وطردهم وتوطين صهيانية بدلا منهم.

يعد التهويد الثقافي والإعلامي أحد المحاور الهامة في مخططات تهويد القدس، وبمس هذا التهويد تراث المدينة بدرجة كبيرة لأنه التعبير الحي عن هويتها. لذا بات التراث هاجسا يمس بصورة يومية المقولات اليهودية الدارجة حول المدينة، بل تحول مؤخرا إلى قلق دائم لدى اليهود. وهم يحاولون من آن لآخر الإجابة على التساؤلات المطروحة أمامهم حول تاريخ القدس وتراثها ومدى يهوديتها. وللتهويد الثقافي والإعلامي صور شتى، منها: التربوي، ومنها ما يمس مفاهيم ماهية القدس وحدودها، ومنها ما يتعلق بتزييف الحقائق التاريخية حول مدى قدسية القدس لدى اليهود ومنها ما يمس حقيقة الهيكل وهل له مكان ثابت مقدس يجب أن يبنى فيه؟

تعتبر التربية عاملا حيويا في بث الأفكار والمعتقدات لدى الشعوب. لذا كان اليهود حريصين على بث ما يؤيد ادعاءاتهم في القدس وفلسطين من خلال المناهج الدراسية وقصص الأطفال، ومن ذلك ما يروى في قصة (ديفيد الصغير) بصورة تغرس أصالة الوجود اليهودي حيث تروى القصة ما يلي: (في ذلك العام، في أورشليم - القدس - كان ديفيد صغيرا جدا، عندما هدم الرومان وأحرقوا هيكل سليمان الرائع.

(١) عبد الوهاب المسيري (دكتور) موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، ج٤، ص ١٢٧. دار

بناء على أوامر الإمبراطور تيتوس ، قام الرومان بالقتل والنهب . وقطع جنودهم^(١) بسيوفهم القوية رؤوس الأطفال الصغار ، ولم يتركوا إلا بعض الحجارة المنضدة والتي نسميها حائط المبكى) . (و. بما أن ديفيد الصغير يركض سريعا ، وهو كذلك يتمتع بالدهاء ، فقد أفلت من الجلادين الرومان . ابتداء اليهود الذين خرجوا أحياء بالانتشار في العالم ، وهذا المهرب في كل يسمى الدياسبورا) . (ها هم اليهود دون وطن ، لكن ديفيد الصغير يقول: العام القادم في أورشليم) . (وبعد الرومان جاء الغزاة البيزنطيون ، ثم الفرس ، ثم الصليبيون الذين هم فرنسيون وإنجليز وألمان ، وزعموا بأنهم هنا لتخليص قبر المسيح . كانوا يحملون صلبانا على صدورهم وعلى سيوفهم ، كانوا رهبانيين ، فقتلوا كثيرا من اليهود ، وليبرروا عملهم احتجوا بأنهم لم يميزوا بينهم وبين العرب . ولمدة طويلة جدا كان الاحتلال التركي ، وترك الباشاوات اليهود يقبلون حائط المبكى، كما بنوا سورا جميلا حول أورشليم ، ومازال ديفيد الصغير دون وطن ، لكنه يقول العام القادم في أورشليم) .

ولكن هناك بعد آخر وهو إكساب الرؤية اليهودية لمدينة القدس طابعا علميا ، وهذا يبدو من خلال نشاط الجامعات والمؤسسات الإسرائيلية ، فبالرغم من تسليم الأثرين اليهود بفشلهم في العثور على حجر واحد من أية بناية تنسبها التوراة إلى النبي سليمان على الرغم من مرور عشرات السنوات من التنقيبات الأثرية الإسرائيلية المكثفة في العديد من المواقع بالقدس ، إلا أنه لم يعثر على شيء ذى بال يؤكد يهودية المدينة ، وينسب اليهود حجراً عثر عليه بالقدس نقشت عليه أسماء الشهور بالحروف العبرية القديمة المشتقة من الأبجدية الفينيقية إلى عصر النبي سليمان، وحجراً آخر تدل نقوشه على نسبه للنبي حزقيا في قناة مياه خارج القدس^(٢) . وقد أدت نتائج الحفائر إلى جوار الحرم القدسي عن الكشف عن ثلاثة قصور أموية كانت مخصصة لإقامة الأمراء

(1) Xavier Antomarchi, Le Petit David, ou Israel Raconte Aux Enfants. Paris 1969, p. 4100.

- إبراهيم عبد الكريم ، قصة تأسيس إسرائيل كما تروى للناشئة اليهود ، ص ١٥١ ، مجلة شؤون عربية ، العدد ٧٦ ، ديسمبر ١٩٩٣ م .

(٢) عبد الحميد زايد (دكتور) القدس الخالدة ، ص ٨٤ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٤ م .

الأمويين الذين حكموا المدينة ، وهو ما مثل خيبة أمل كبيرة لدائرة الآثار الإسرائيلية التي تخضع لها المنطقة حالياً فضلاً عن خيبة الجامعة العبرية وجمعية كشف إسرائيل التي قامت بالحفائر . وكانت الجمعية السابق ذكرها دعمت برنامج بنيامين مازار الأستاذ في الجامعة العبرية والذي وضع مشروعاً للكشف عن الطبقات الدنيا من الهيكل في موضع الحرم القدسي الشريف وبالقرب منه ، وهو ما أدى إلى هدم العديد من الآثار الإسلامية في مناطق الحفر ، ولم يعثر اليهود على أى أثر يعتقد به يعود إلى عصر الهيكل المزعوم .

هكذا أتاحت لليهود وللباحثين عن الآثار وفقاً لما جاء في التوراة فرصة ذهبية للبحث عن مملكة إسرائيل في القدس من خلال التنقيبات الأثرية ، ولكن نتائج حفائرهم لم تؤد إلى شىء ذى بال . بالرغم من هذا فهم يعطون مشروع إعادة بناء الهيكل اليهودى بعداً علمياً ، فقد أصدرت الجمعية الجغرافية الإسرائيلية عدداً خاصاً من مجلتها العلمية سنة ١٩٩٦ عن إعادة بناء الهيكل تضمن مقابلة مع مهندس يهودى حول عمارة الهيكل ، وأبحاث عن الهيكل الأول والهيكل الثانى ، وكذلك النماذج المعاصرة التي وضعت لبناء الهيكل في موضع قبة الصخرة ، ودراسة أثرية مقارنة بين تصور هيكل هيرود وما هو موجود اليوم في الحرم القدسي وينسبه اليهود إلى عمارة هيكل هيرود مثل الأقصى القديم وهو سلسلة من عقود تمثل قبواً أسفل المسجد الأقصى فضلاً عن حائط البراق^(١) . وصدور هذا العدد من مجلة علمية معترف بها في الغرب يوحى بجديّة وأصالة الادعاءات الإسرائيلية ، بل ويستخدم هذا العدد كمرجع للمقالات الصحفية والبرامج التليفزيونية .

بل وامتد الأمر إلى إقامة معارض أثرية تضمنت بعض ما نتج عن حفريات القدس ، ونسب إلى اليهود بطريق لى ذراع النتائج العلمية ، وتسويق هذه المعارض سياحياً يصاحبها أدلة بلغات عديدة ، وهو نوع من الدعاية الإعلامية التي تأخذ صبغة علمية (صورة رقم ١) .

(1) Eretz, The Geographic Magazine from Israel, Special Issue, 46, May 1996.

استعان اليهود بعلم الآثار كوسيلة لتدعيم تصوراتهم حول القدس؛ فاكتشاف الماضي يوفر عاملاً حاسماً في بناء الهوية السياسية أو تأكيد الحاضر ، وهو ما يوفره علم الآثار لليهود . ولذا نراهم يحرصون على أن تكون جميع الرموز الوطنية الإسرائيلية مستمدة من عناصر ذات طبيعة تراثية ، مثل : شعار الدولة ، والأوسمة والنياشين ، وطوابع البريد والنقود .

على الجانب الآخر، مازال العرب مغيبين في مجال الدراسات الأثرية التي تتعلق بفلسطين خاصة في عصور ما قبل التاريخ التي يركز عليها اليهود حالياً لإثبات وجودهم في فلسطين بصفة عامة والقدس بصفة خاصة . بل إن التركيز على تراث المدينة الإسلامي لم يخرج عن الحرم القدسي ، ولذا بات من الملح الاهتمام بهذا المجال كجزء من الخطاب السياسي الإسلامي والعربي الخاص بالقدس ، فوضع خريطة طبوغرافية لتطور عمران القدس من عصور ما قبل التاريخ حتى العصر الحديث أمر حيوي ، خاصة إذا أردنا الحديث عن ملكيات الأوقاف الإسلامية في المدينة التي استولت عليها إسرائيل . ومع توافر الوقفيات الأيوبية والمملوكية والعثمانية^(١) التي توضح بالتفصيل الدقيق عمران المدينة في هذه العصور وملكيات الأراضي والمباني بها وبالمناطق المحيطة بها والتي أصبحت اليوم جزءاً لا يتجزأ من المدينة . إن هذا العمل لا شك سيكون مفيداً للباحثين وللسياسيين حين حديثهم عن المدينة كجزء من مقدسات وأملاك المسلمين التي لا يجوز التنازل عنها .

(١) توجد أعداد لا حصر لها من وقفيات المنشآت المعمارية في القدس تصف العمائر الدينية وبصفة خاصة الحرم القدسي الشريف وأوقافه ، وكذلك المنشآت الدينية الأخرى في القدس ، وما أوقف عليها من منشآت كالحمامات والوكالات والفنادق والخانات ، هذه الوقفيات متناثرة في القدس حيث يوجد جزء منها ضمن وثائق الحرم القدسي المملوكية في المتحف الإسلامي في القدس ، والبعض الآخر ضمن سجلات محكمة القدس الشرعية ، والبعض الآخر في القاهرة ضمن وثائق الوقف بوزارة الأوقاف المصرية . ومن أبرزها وثيقة وقف السلطان قايتباي التي تصف مدرسته بالقدس ، وهي محفوظة تحت رقم ٨٨٧ . والبعض الآخر في استانبول ضمن حجج الوقف العثمانية ، وقد نشر بعض الباحثين نماذج من هذه الوثائق ، ولكن إلى الآن لم تول المؤسسات البحثية العربية أو الإسلامية عنايتها نحو نشر أبحاث كافية عن هذه الوثائق .

تزخر القدس بتراث معمارى فريد يبدأ من الحرم القدسى حتى باقى آثار المدينة التى تتنوع ما بين :

١ - بيمارستانات^(١) ، ومن أشهرها البيمارستان الصلاحى الذى أقامه السلطان صلاح الدين الأيوبي فى سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٧م ، بعد فتحه للقدس ، وقد رحل عن القدس تاركا القاضى ابن شداد ، ليعتنى بعمارة البيمارستان ، وقد وقفه صلاح الدين على كافة أبناء القدس ليعالجوا فيه مجاناً ، ورتب فيه دروساً لتعليم الطب فيه ، وقد تعرض البيمارستان إلى زلزال فى القرن ٩هـ / ١٥م ، ولم يتبق من البناء الأصى للبيمارستان إلا جزء بسيط ، وهو يستخدم حالياً كبازار .

٢ - الخانات^(٢) والأسواق والوكالات ، أحصى منها فى القدس الدكتور كامل جميل العسلى ١٦ خاناً^(٣) ، وهو فر حصره يخلط بين الخانات القياسر وهى الأسواق المبنية والوكالات ، وهذا الخلط ناتج عن التداخل بين وظائف هذه المنشآت ، انتشرت هذه المنشآت بين أحياء المدينة وقد وقف ريعها على المنشآت الخيرية والدينية بالمدينة ، ومن أبرزها قيسارية السلطان التى أنشأها السلطان المملوكى برقوق سنة ٧٨٨هـ . وسوق القطانين الذى شيده الأمير المملوكى تنكز ، وهو يقع بالقرب من الحرم القدسى الشريف ، وخان الفحم ، وخان الخاصكية .

(١) بيمارستان ، لفظ فارسى مركب من بيمار أى مريض وستان بمعنى محل ، أى دار المرضى ، ويقال بيمرستان أو مارستان ، وهو مستشفى عام لمعالجة كافة الأمراض ، وقد عرفت هذه المنشآت منذ العصر الأموى .

محمد أمين (دكتور) وليلى إبراهيم ، المصطلحات المعمارية فى الوثائق المملوكية ، ص ٤٢ ، دار النشر بالجامعة الأميركية فى القاهرة ، ١٩٩٠م .

(٢) الخان ، فارسى معرب وهو الخانوت ، ويطلق على الدكان أيضاً ، ثم توسعوا فى استخدامه فى الوثائق فأطلقوه على الوكالة والفنادق ، والخانات مبانٍ خصصت لتزول التجار الواردين والبضائع المستوردة ، وكذلك الزوار ، ولذا جاء تصميمها المعمارى كما يلى : طابق أرضى يتكون من حواصل وحوانيت لعرض وتخزين السلع قد يلحق به مسجد ، وجوانب علوية لإقامة التجار وزائرى المدينة . محمد أمين ، مرجع سابق ، ص ٣٩ .

(٣) كامل جميل العسلى (دكتور) من آثارنا فى بيت المقدس ، ص ٣٩ - ٩٦ . عمان ١٩٨٣م .

٣ - الحمامات : ومنها حمام عين الشفا وحمام العين وحمام الباب الأسباط وحمام السلطان وحمام السيدة .. إلخ .

٤ - الأسبلة^(١) ، تنتشر الأسبلة في مدينة القدس ، ومن هذه الأسبلة سبيل السلطان قايتباي (صورة رقم ١) الذى يعد أشهر أسبلة القدس ، وهو يقع بالقرب من الحرم القدسى ، وقد سقف بقبة حجرية رائعة لفتت انتباه الرحالة الأجانب . ومن أسبلة القدس الأخرى : سبيل باب الناظر وسبيل باب الخليل وسبيل البديرى وسبيل باب خان الزيت ودرج الواد وسبيل باب حطة وسبيل السيدة مريم .

٥ - التكايا ، أشهرها تكية خاصكى سلطان ، التى شيدتها زوجة السلطان العثمانى سليمان القانونى خرم المشهورة بروكسلانا ، هذه التكية كانت مجمعا معماريا ضخما ملحقا به منشآت عديدة منها مدرسة وأماكن لإقامة الصوفية وزوار القدس ومطبخ لإطعام نزلاء التكية وفقراء القدس . ولهذه التكية وقفية باللغة التركية مترجمة إلى اللغة العربية ضمن سجلات محكمة القدس الشرعية^(٢) .

٦ - المساجد : كانت المساجد تنتشر فى القدس لأداء المسلمين بها الصلوات الخمس ، ومن أشهرها مسجد عمر بن الخطاب ، هذا المسجد أقيم فى الموضع الذى صلى فيه عمر بن الخطاب فى القدس ، بعد تسلمه المدينة ، وكان الخليفة عمر ابن الخطاب قد رفض الصلاة فى كنيسة القيامة حتى لا يقيم المسلمون مسجدا فى المكان الذى يصلى فيه خليفتهم ، احتراما من عمر لأماكن العبادة الخاصة بالديانات

(١) أسبلة جمع سبيل ، وهى من سبل الشئ أى جعله مباحا فى سبيل الله . والسبيل أصبح مصطلحا للوحدة المعمارية التى تعمل على توفير مياه الشرب للناس . والسبيل كمنشأة معمارية يتكون من صهريج لحزن المياه يعلوه حجرة لتسييل المياه للمارة فى الشوارع . وكان تخزين المياه يتم إما عن طريق الأمطار كما هو الحال فى سبيل قايتباي بالقدس أو عن طريق ميلاه الآبار كما فى بعض أسبلة القدس أو عن طريق الأنهار كما هو الحال فى أسبلة القاهرة . محمد أمين مرجع سابق ، ص ٦٢ .

(٢) هذه الوقفية مدونة فى السجل رقم ٢٧٠ من سجلات المحكمة الشرعية فى القدس من ١٨ : ١٩ وهى

الأخرى بالمدينة وإقرارا منه بحرية العبادة في المدينة المقدسة من المسيحيين والمسلمين على حد سواء .

لقد عنى المسلمون بهذا الجامع منذ إنشائه ، فقد جددوا بناءه في سنة ٥٨٩هـ / ١١٩٣م ، في العصر الأيوبي ، وأعادوا بناء مئذنته في سنة ٨٧٠هـ / ١٤٦٥م ، في العصر المملوكي وهي مئذنة مربعة الشكل جميلة التكوين . وهذا المسجد ذو رمزية سياسية عالية إذ إنه يمثل السياسة التي اتبعتها المسلمون في المدينة تجاه الديانات الأخرى ، إلى جانب رمزيته كمكان صلى فيه فاتحو القدس من المسلمين .

٧ - المدارس ، حرص أغنياء المسلمين وحكامهم على تشييد المدارس في القدس خاصة في الحرم القدسي والمنطقة المجاورة لها ، وهذه المدارس كانت تدرس فيها العلوم الشرعية والفلك والرياضيات والحديث الشريف وعلومه^(١) ، ومن أبرز هذه المدارس المدرسة الأشرفية التي شيدها السلطان قايتباي ، والمدرسة التنكزية التي شيدها الأمير تنكز الناصري (صورة رقم ٢) ، المدرسة الجاولية التي شيدها الأمير علم الدين سنجر الجاولي .

هذه المنشآت وغيرها كثير بالإضافة إلى كنائس الطوائف المسيحية وأديرتها التي تكتظ بها المدينة^(٢) ، ومنها كنيسة القيامة التي تضم قبر المسيح والكنائس المقامة على جوانب طريق الآلام . وللأقباط في القدس العديد من دور العبادة أبرزها دير السلطان ، وهو ملاصق لكنيسة القيامة من الناحية الجنوبية الشرقية ، وفيه كنيسة سانت : كنيسة الملاك ، وكنيسة الحيوانات الأربعة . دير مار أنطونيوس ، ويعرف بالدير الكبير وهو ملاصق لكنيسة القيامة من الناحية الشمالية الشرقية ، وفيه كنيسة القديس أنطونيوس ،

(١) على السيد على (دكتور) القدس في العصر المملوكي ، ص ١٦١ / ١٦٦ ، دار الفكر للدراسات ، القاهرة ١٩٨٦م .

(٢) عن هذه الكنائس والأديرة : انظر عارف العارف ، تاريخ القدس ، ص ٢٣٩ : ٢٤٢ ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٥١م . عبد الحميد زايد (دكتور) القدس الخالدة ، ص ٢٥٨ ، ٢٥٩ . الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٤م .

وكنيسة الملكة هيلانة . وبالرغم من أن الحج من الشعائر المهمة لدى الأقباط إلا أن الكنيسة القبطية أصدرت قرارا بتحريم أداء هذه الشعيرة طالما أن القدس تحت هيمنة الدولة الصهيونية .

إننا نستطيع من خلال وثائق القدس^(١) وآثارها المعمارية التي مازالت باقية إلى اليوم الإسلامية والمسيحية رسم صورة متكاملة للقدس في العصور المختلفة ، وتحديد ملكية أراضيها خاصة ما يقع في ملكية الأوقاف منها . وما يساعد على ذلك أن الوقفيات وسجلات محكمة القدس الشرعية تحدد حدود كل منشأة وأبعادها والطرق التي تقع عليها ومكوناتها والأراضي التي وقفت عليها إن كانت منشأة دينية أو خيرية أو منشأة اقتصادية تدر ريعا . إن هذه الخريطة الطبوغرافية التاريخية ستساعد بلا أدنى شك في استرداد الأراضي التي استولت عليها سلطات الاحتلال الإسرائيلي . سواء في القدس أو في باقي أراضي فلسطين المحتلة . لقد فهم اليهود أهمية وثائق القدس فقاموا في ١٨ نوفمبر ١٩٩١ م بالاستيلاء على بعضها من مبنى المحكمة الشرعية في المدينة .

إن التصور الإسرائيلي يطرح القدس وكأنها مدينة خالية من البشر والعمران ، إحدى دور النشر الغربية عكست هذا التصور حين نشرت كتاب ديفيد روبرت (الأرض المقدسة) وديفيد رحالة اسكتلندي رسم العديد من اللوحات لمصر وفلسطين بين عامي ١٨٣٨ و ١٨٣٩ ، وسجل مع هذه اللوحات انطباعاته عن الأماكن التي مر بها . وإلى هذا الحد فالأمر ليس فيه ما يثير أى تساؤل إلا أن دار النشر التي أعادت نشر اللوحات عام ١٩٩٠ م وتعليقاتها تمر دون أن يرفق بها سرد تاريخي للأب كرولى لا يمت لعلم الآثار بصلة قدر ما يمت بصلة قوية إلى الراجح من روايات وخرافات العصور الوسطى ، ففي وصفه لا وجود للعرب وإنما هناك التسمية الخطأ التي يتعمد بعض الأوروبيين استخدامها وهي (السرسيون) نسبة إلى السيدة سارة ، ولا يرد ذكرهم إلا في سياق أنهم سبب معاناة المدينة المقدسة - القدس - تلك التي لا ترتفع معاناتها إلا مع سيطرة الصليبيين عليها !

(١) عن وثائق القدس انظر على سبيل المثال : دكتور كامل جميل العسلى ، وثائق مقدسية ، ٤ مجلدات ،

ويستند وصف الأمكنة إلى مخيلة كروल्ली المستمدة من روايات التوراة على رغم من إثبات الدراسات الأثرية حديثا شكوكا واسعة حول صحة روايات التوراة حتى إن العديد من علماء الآثار الغربيين بدأوا يصرفون النظر عن اعتماد التوراة كمرجع للأبحاث الأثرية في فلسطين لتناقض ما جاء بها مع المكتشفات الأثرية الحديثة .

تصور لوحات ديفيد روبرت مشاهد من خارج المدن ، ولا تصور الحياة داخلها (صورة رقم ٣ ، ٤ ، ٥) ، وغالبا حين يصور البشر يصورهم في حالة استرخاء ، وتظهر بلوحاته الأرض حول القدس على سبيل المثال وكأنها صحراء جرداء خالية من العمران والبشر ، هنا تتقدم دار النشر لتقدم لعبة ذكية لخدمة مقولة الأرض الخالية التي روجت لها الصهيونية . بأن أرفقوا مع كل لوحة من لوحات ديفيد صورة فوتوغرافية حديثة للموقع نفسه . وبالمقارنة يظهر الفرق الشاسع بين موقع يكاد يكون صحراويا في ثلاثينيات القرن التاسع عشر وبين الموقع نفسه المحتشد بالعمران في أواخر القرن العشرين ، توحى هذه المقارنة بالأيدى البيضاء للصهيونية على القدس بصفة خاصة وفلسطين بصفة عامة .

الكتاب بهذا المعنى صورة أعيدت صياغتها لتلائم أغراض الحاضر الصهيوني كما يذكر الكاتب الفلسطيني محمد الأسعد ، ليس لأن شروحات كروल्ली تشير إلى (أرض إسرائيل) قبل قيام دولة بهذا الاسم فقط ، بل لأن المنحى كله يود أن يقول إن الأرض الخالية التي شاهدها روبرت لم تعد خالية .

وربما لهذا السبب عمد ناشرو الكتاب إلى تصديره بكلمة لعمدة القدس المحتلة تيدي كوليك ، وإلى وضع خرائط للأرض المقدسة تطابق بين الجغرافية الخيالية للتوراة والجغرافيا الطبيعية لفلسطين . هذا الكتاب يمثل واحدا من عشرات الكتب التي يتم بها تغذية الوجدان الثقافي الغربي ، وهو نموذج صافٍ لنظرة ثقافية غربية لا ترى في المشهد الثقافي العربي غير مسار التاريخ التوراتي .

الصورة هنا صورة قدس جديدة رأى اليهود أن تشيع في العالم سواء من خلال الكتاب الذي يقدم مسار رحلة الحج التاريخية إلى مسيحي العالم كما رأها رحالة في

القرن ١٩، وكما رأها دار النشر في القرن العشرين ، هذه الصورة هي للقدس عاصمة إسرائيل الأبدية ، التي سعى اليهود إلى تكريسها حتى أصبحنا نحن العرب نتقبل جانباً من هذه المقولات كحقيقة صادقة لا تقبل النقاش ، فالقول بوجود قدسين : شرقية وغربية ، أشبه بالهراء، إذ لا توجد سوى قدس واحدة ، هي المدينة القديمة وضواحيها، التي هي عاصمة فلسطين المحتلة ، فمناً شيوع هذا الخطأ السياسيون ووسائل الإعلام، إذ كانت القدس حتى عام ١٩١٧م ، ومنذ ذلك التاريخ بدأت الهوية العربية للقدس في التغير خلال فترة الانتداب البريطاني الذي منحه عصبة الأمم لبريطانيا في عام ١٩٢٢ على فلسطين ، وترتب على ذلك زيادة هجرة اليهود لفلسطين ، وبدأت ديموغرافية القدس في التغير ، وتضاعف عدد اليهود فيها في الفترة من ١٩١٧ إلى ١٩٤٨م ليقفز من ثلاثين ألفاً إلى حوالي مائة ألف بنهاية فترة الانتداب.

اغتصب اليهود القدس على مرحلتين في المرحلة الأولى عام ١٩٤٨م استولوا على القدس الجديدة وضموا إليها المدن العربية المحيطة بها ، كان يسكن هذه المدينة فلسطينيون عرب ويهود ، وقد سكنت الأغلبية من أهالي القدس العرب في خمس عشرة ضاحية سكنية في القدس الجديدة وامتلكت ثلاثة أرباع أراضيها ومبانيها ، وكانت المناطق العربية تفتقر إلى الحماية تماماً ؛ ولذا احتلت إسرائيل ثلاث عشرة ضاحية منها ، وبذا يكون من الخطأ أن نتصور أن اليهود في ١٩٤٨م استولوا على الجزء الغربي اليهودي من المدينة بينما فرض العرب سيادتهم على الجزء العربي .

عمل اليهود منذ أن استقرت أقدامهم في المدينة المقدسة على إقرار سياسة الأمر الواقع بما فنقلوا أجهزة دولتهم إليها ، وبالرغم من أن القدس تمثل من وجهة نظرهم «مدينة على الحدود في كل شيء ، تنقصها القاعدة الاقتصادية الواسعة ، كما تنقصها الوفرة في الأرض»^(١) . وقد أعلن بن جوريون في الكنيست يوم ١٤ يونيو ١٩٤٨م «أن مسألة إلحاق القدس بإسرائيل ليست موضع نقاش ، فما يناقش هو تحقيق هذا الهدف» أعلنت القدس عاصمة لإسرائيل في ٢٣ يناير ١٩٥٠م . وبعد هزيمة يونيو

(١) جاء ذلك في صحيفة (لاحاف) الإسرائيلية في عددها الصادر في ١٩/٦/١٩٦٦م .

١٩٦٧م ، صار الإعلام الإسرائيلي يتحدث عن تحرير القدس وليس احتلالها وضمها .
 صارت المدينة بالكامل تحت سيطرة اليهود ومنذ ذلك الحين بدأ تهويد المدينة يأخذ
 بعداً متكاملًا . وطرح هذا البعد من خلال مشروع القدس الكبرى ، والذي هدف
 إلى تطويق المدينة القديمة ذات الأغلبية العربية والمقدسات والآثار الإسلامية والمسيحية
 بنطاق لمدينة كبرى تذوب المدينة القديمة فيها ، وتعد حينئذ مجرد نقطة أو حى صغير
 داخلها . فقد تم إنشاء سبع عشرة مستوطنة إسرائيلية شمالى القدس وثمان مستوطنات
 جنوبها . ربطت بينها شبكة طرق سريعة تتخلل المدينة الكبرى . بما فى ذلك أوتستراد
 القدس . هذه الشبكة من الطرق ساهمت فى ربط المستوطنات الإسرائيلية وفى تطويق
 المدينة القديمة والقرى العربية حولها . على حين أنشئت جيوب استيطانية داخل القدس
 الشرقية بهدف تفرغها من سكانها العرب ومن طبيعتها العربية . وهو ما يعد تمزيقا
 للوحدة الديموغرافية للمدينة القديمة . لقد تم هذا على مراحل استهدفت المرحلة الأولى
 إحداث توازن ديموغرافى بين العرب واليهود . استغرقت هذه المرحلة السنوات من
 ١٩٦٧ إلى ١٩٧٧م ، وبدأت أولى الخطوات العملية لهذه المرحلة حين حصل تيدى
 كوليك عمدة القدس العمالى على موافقة جولدا مائير رئيسة وزراء إسرائيل حينذاك
 على برنامجه لتوطين ١٢٠ ألف يهودى فى مدينة القدس الشرقية فى مدى عشرين سنة .
 وعندما عاد الائتلاف العمالى إلى الحكم عام ١٩٩٢م أطلق - بالتوافق مع عملية
 أوسلو - مشروعا عمرانيا لبناء ثلاثين ألف وحدة سكنية لإيواء ١٢٠ ألف يهودى فى
 القدس الكبرى . ومنذ عام ١٩٩٣ تجاوز تعداد اليهود فى القدس الشرقية تعداد العرب
 من مسلمين ونصارى حيث بلغ تعداد اليهود بما ١٦٥ ألفا بينما بلغ تعداد سكانها
 العرب ١٦٠ ألفا . وإذا كان تعداد سكان القدس الغربية اليهود اليوم أعلى من سكان
 القدس الشرقية - ٢٣٠ ألفا مقابل ١٩٠ ألفا - فإن هذه المعادلة مرشحة للانقلاب
 فى الأعوام القليلة المقبلة . فابتداء من ٢٠٠٣م سيكون تعداد السكان اليهود فى القدس
 الشرقية أعلى منه فى القدس الغربية ، وأغلب هؤلاء فى القدس من اليهود الأرثوذكس
 المتعصبين .

هؤلاء يرون في القدس مدينة مقدسة بالنسبة لهم ، وواقع التراث اليهودى ينفى ذلك ، فمن المعروف أن أسفار موسى الخمسة لم يرد بها أى ذكر للقدس كمدينة مقدسة لدى اليهود ، ولم تذكر القدس سوى في أربعة أسفار: سفرى صموئيل الأول والثانى وسفرى الملوك الأول والثانى ، ومن الواضح أن استشهادات اليهود الحالية جاءت من سفرى صموئيل . وأكد علماء الديانة اليهودية بأن هذين السفرين من تأليف النبي صموئيل نفسه والذى يعتبر آخر قضاة بنى إسرائيل . ويوجد فى السفرين ما يناقض فكرة كتابة صموئيل للسفرين المنسوبين إليه ، ففي الإصحاح ٢٥ من سفر صموئيل الأول : (مات صموئيل فاجتمع جميع إسرائيل وندبوه ودفنوه فى بيته) والمعروف أن قصة بناء القدس ذكرت فى السفر الثانى . فإذا كان صموئيل قد مات قبل أن يكمل السفر الأول فالسؤال الآن: من أكمل السفر الأول وكتب الثانى بأكمله^(١) ؟

وإجابة السؤال هى : أن فى السفرين إضافات لاحقة أضيفت فيما بعد لخدمة الأغراض السياسية القومية لليهود ، خاصة أن كتبهم المقدسة لعنت القدس كمدينة فى مواضع عديدة .

كان اليهود قبائل من البدو الرحل وبالتالي لم يكن لديهم فكرة الاستقرار فى مكان محدد وتشديد حضارة خاصة بهم فيه . ولم يعرفوا الاستقرار إلا عند دخولهم مصر ،

(١) هناك تساؤلات حول أصالة النص العبرى للتوراة ، خاصة أن هذا النص تعرض لأعمال الحرب والإبادة بسبب الحروب الداخلية أولا والغزو الخارجى ثانيا . وحوالى أوائل القرن الأول الميلادى ، فكر اليهود فى جمع الموجود من الأسفار المقدسة سواء المحفوظ منها فى الصدور أم المدون ، وقامت منافسات بين المدارس الشرقية البابلية من ناحية والغربية من ناحية أخرى ، إلى جانب ما أظهرته مخطوطات وادى قمران المكتشفة عام ١٩٤٧ ق. م بجوار البحر الميت وغيرها من المخطوطات ، ثم نجد التوراة السامرية لا تتفق مع ما جاء فى الترجمة السبعينية التى ترجمت فى الإسكندرية إلا فى الثلث ، ويسرى الدكتور عبد الحميد زايد أن كتابا تطلب جمعه وتأليفه ألف عام لا بد أنه مر بأدوار كثيرة ، وهذا واضح من عدم وجود وحدة عضوية لأسفاره . جيمس بريشارد ، نصوص الشرق الأدنى القديمة المتعلقة بالعهد القديم ، ص ٢ ، ترجمة وتعليق دكتور عبد الحميد زايد ، الهيئة المصرية للآثار ١٩٨٧ م .

ولكن من الواضح أنهم احتفظوا بترابطهم القبلي في أثناء وجودهم في مصر ، وعند خروجهم منها لم يخرجوا بمفردهم بل خرج معهم من آمن من المصريين بدعوة موسى عليه السلام ، وخرجوا وهم محملون بالتأثيرات الحضارية المصرية . وأثبتت الاكتشافات الأثرية أن كتب اليهود تأثرت بشدة بالموروث القصصي والعقدي السابق لها سواء في مصر أم في العراق^(١) .

هنا يجب أن نتوقف عند فكرة الهيكل لدى اليهود وهوبيت الإله ومكان العبادة الأساسى لديهم ، فباعتراف اليهود البدو الرحل أنه لم يكن لديهم مكان عبادة مقدس ثابت منذ عصر موسى إلى عصر النبي سليمان عليه السلام . بل كانت لوحات

(١) يرى الدكتور فؤاد حسين في مؤلفه (التوراة الميروغليفية) : (إنه لا ينكر أن موسى عليه السلام جاءته صحف وأنزلت عليه توراة إلا أن هذه التوراة العبرية والتي هي بين أيدينا ويؤمن اليهود بها وغيرهم ليست هي توراتنا التي أنزلت على موسى وبسبب جوهرى صحيح هو أنها جاءت بالعبرية ، والعبرية لم يعرفها موسى ولم يعرفها الإسرائيليون ، فموسى كما تذكر المصادر ولد في مصر وعاش في مصر وتكلم المصرية وتلقنها قراءة وكتابة وهكذا شأن العبرانيين المقيمين في مصر .. ولو سلمنا أن موسى وسائر العبرانيين المقيمين في مصر لم يتكلموا المصرية فأنهم لم يتكلموا العبرية بل الأرامية . ونحن نفهم تحت لفظ العبرية لغة الشعب الإسرائيلي التي اقتبسها من الكنعانيين عندما تسللوا إلى أرض كنعان حوالي آخر القرن الثالث عشر ق. م وهذه التسمية لغة عبرية لا تجد لها أثرا في العهد القديم حيث ذكرت في سفر أشعيا (سفر كنعان) أى لغة كنعان أو كما جاء في سفر الملوك الثانى (يهوديت) أى اليهودية كما أطلق على اللغة العبرية في المؤلفات المتأخرة اسم (لشون هقودش) أى اللسان المقدس . أما اللغة الكنعانية فهي الأم التي تفرعت عنها العبرية والموآبية الفينيقية ، قد حفظت لنا بعض خصائصها في هذه المجموعة من المفردات التي وجدت في طريقها إلى اللغة المصرية القديمة .. وقد أخذ الإسرائيليون هذه اللغة الكنعانية الأصل بعد اختلاطهم بالكنعانيين أيام يشوع بن نون ، ومن خلفه أعني بعد وفاة موسى ، وهؤلاء الإسرائيليون هم الذين أغنوا اللهجة العبرية بهذه المفردات المصرية القديمة . من هنا نرى أن ظهور اللغة العبرية كان لاحقا جدا لا لموت موسى فحسب ، بل لدخول من خرجوا معه من مصر إلى أرض كنعان ، فصحف موسى وتوراته لم تدون بالعبرية بل بالمصرية القديمة .

دكتور فؤاد حسنين ، التوراة الميروغليفية ، ص ٥٧ وما بعدها . دار الكتاب العربي ، القاهرة

الوصايا العشر توضع في تابوت كان يعرف باسم تابوت العهد^(١) ، هذا التابوت خصصت له خيمة عرفت بخيمة الاجتماع ، ترحل مع اليهود أينما رحلوا . فأين القداسة هنا لأي بيت أسس في القدس كما يرى اليهود . بل جاء تأسيس الهيكل ليكون المكان المفضل لوضع تابوت العهد وليكون بيتا لرب اليهود نتيجة لتأثر اليهود بالحياة الحضرية في مدينة القدس^(٢) . شيد سليمان الهيكل على قطعة أرض غير معلومة في القدس ، بل حينما شيد الهيكل الثاني لا يوجد دليل قاطع على تشييده في موضع الهيكل الأول . وتاريخ بناء الهيكل في القدس هو تاريخ تحول عبادة يسرائيل البدوية المستحولة إلى العبادة القربانية المركزية . وهنا يجب أن نلاحظ أن اليهود أثناء السبي البابلي صاغوا العديد من الثوابت التي يؤمنون بها اليوم كأرض الميعاد ، وقدسيتها مكان الهيكل في محاولة منهم لمقاومة الذوبان في أرض المنفى في العراق .

(١) تابوت العهد أو تابوت الشهاد يقابلها في العبرية (أرون هابريت يهوه) أو (تابوت يهوه صباءوت) جاء وصف هذا التابوت في سفر الخروج ، وهو صندوق مصنوع من خشب السنط طوله ذراعان ونصف ذراع ، أى ثلاثة أقدام وثلاثة أرباع القدم ، محلى بالذهب من الخارج والداخل ، يقف عليه ملكان (كروبان) ناشرين أجنحتهما رمزا للعرش الإلهي (شبخناه) بين الشعب المختار . وأصبح التابوت ذاته رمزا للعرش الإلهي . ويقال إن الإله قد أخبر موسى بأنه سيقابله بين الملاكين . ولم يكن يسمح لأحد بأن يمس التابوت باعتباره محرما (تابوت). وكان التابوت يتحوى على المن ، وعصا هارون ، ولوحى الشريعة أو العهد ، ثم وضع بجانبه كتاب التوراة ، ولكن المن والعصا كانا قد اختفيا مع حكم سليمان . ومن الواضح أن في هذا الوصف إسقاطا لقيم ونحليات مرحلة مركبة لاحقة على مرحلة التيه التي كانت تتسم بالبداءة والبساطة . كما أنه بتطور اليهودية جرى تفسير وجود التابوت تفسيراً أكثر عمقا من التفسير السابق . فقد أصبح التابوت شيئا مقدسا بناه موسى تنفيذا لأمر الرب (ليضع فيه اللوحين اللذين كتب عليهما الوصايا العشر) ليحمله أعضاء جماعة يسرائيل معهم في ترحالهم وقد حفظ سليمان التابوت في قدس الأقداس في الهيكل .

دكتور عبد الوهاب المسيرى ، الموسوعة ، ج ٤ ، ١٥٨ .

(٢) لقد تأثر اليهود في بناء هيكلهم بالأقوام التي جاورتهم وخاصة الكنعانيين منهم ، فالدكتور فيليب حنا يذكر في كتابه (تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين) الجزء الأول أن : زخارف الهيكل مستوحاة من النماذج الكنعانية المعاصرة ، هذا وكانت طقوس الهيكل وذبائحه تظهر الأساليب المتبعة عند الكنعانيين وحتى كلمة هيكل أصلها كنعاني . بينما يقول ويل ديورنت في كتابه قصة الحضارة : إن طراز الهيكل المعماري هو الطراز الذي أخذه الفينيقيون عن مصر وأضافوا إليه ما أخذوه عن الآشوريين والبابليين من ضروب الزخرفة .

بل إن الهيكل تعرض للإهمال وصار موضع ازدراء من اليهود في مراحل تاريخية لاحقة . تعرضت القدس للهدم مرات عديدة في التاريخ مما يجعل من الصعب تحديد موضع الهيكل اليهودي بما . بل طرأ تغيير على العهد القديم في خلال فترة السبي البابلي يجعلنا نشك في كثير من المسلمات اليهودية اليوم . أثبتها عالم الآثار الآكدي فريدريك ديليتش من خلال سلسلة من المؤلفات حول بابل والكتاب المقدس ، انتهى فيها إلى اعتماد العهد القديم إلى حد ما على العقائد البابلية .

تعد إعادة بناء الهيكل واحدة من أهم القضايا الخلافية بين اليهود الذين ينقسمون إلى صهيانية وغير صهيانية ، فغير الصهيانية يعارضون فكرة العودة وبالتالي إعادة بناء الهيكل . أما الصهيانية فقضية إعادة بناء الهيكل قضية محورية لديهم والمتطرفون من الصهيانية يولون هذه القضية أولوية شديدة ، بحيث جعلت المنظمات الصهيونية هدم الآثار الإسلامية الموجودة في هذا الموقع ، من أهم أهدافها .

وقد قامت عدة محاولات من جانب الجماعات الصهيونية تستهدف تفجير الأماكن المقدسة الإسلامية في القدس، أو حرقها ، بل ضبطت محاولة لإلقاء قنبلة عليها من الجو. وهناك منظمة يهودية تسمى (أمناء جبل الهيكل) التي يمولها المليونير الأمريكي (المسيحي الأصولي) تری رازنوفر ، جعلت بناء الهيكل الثالث هدفها الأساسي ، وقد أسست مدرستان تلموديتان عاليتان بالقرب من حائط المبكى لتدريب مئتي طالب على شعائر العبادة القربانية وهي الشعائر الخاصة بالهيكل . وإحدى هذه المدارس، معهد الهيكل (يشيفات هبايت) ، وظيفتها الأساسية محاولة التعجيل ببناء الهيكل . وقد بدأت هذه المدرسة في إعداد أدوات العبادة القربانية التي يبلغ عددها ١٠٣ ، مع العلم بأن الأدوات التي تم الانتهاء منها وضعت في متحف . وقد عقد في سنة ١٩٩٠م مؤتمر يضم اليهود الذين يعتقدون أنهم من نسل كهنة الهيكل . ويوجد في فندق الهيكل في القدس مجسم مصغر للهيكل . وينوون أن يبنوا مجسما آخر أكبر حجما يتكلف مليون دولار يتم جمعها حاليا من يهود العالم .

وقد قامت جماعة أمناء الهيكل بوضع حجر الأساس للهيكل الثالث في احتفال تحت إشراف رئيس الجماعة المدعو جرشوم سالمون . وقد حضر الاحتفال الذي جرى

في منتصف شهر أكتوبر عام ١٩٨٩ م ، كاهن يرتدى ملابس كهنوتية خاصة مصنوعة من الكتان المغزول باليد من ستة خيوط مجدولة تم إعدادها في معهد الهيكل . وقد استخدموا في الاحتفال بعض الأواني الشعائرية ، وبقوق الشوفار ، وأدوات موسيقية مثل الأوكورديون . أما حجر الأساس نفسه ، فحجمه متر مكعب ، وقد قام حفاران يهوديان من القدس بإعداده دون استخدام أية أدوات حديدية (كما تتطلب الشعائر) ، وقد حاولوا الوصول بالحجر إلى ساحة حائط البراق عند حائط المبكى ، ولكن الشرطة الإسرائيلية تصدت لهم فحمل الحجر إلى مخزن الحفارين وأودع فيه . وتوجه النية إلى زراعة حديقة حوله . ويساند جماعة أمناء جبل الهيكل بعض أعضاء المؤسسة الدينية في إسرائيل .

ورغم هذا الانقسام ، بشأن إعادة بناء الهيكل ، فإننا نجد أن بعض الأطروحات التي صنفت في الماضي باعتبارها دينية مهووسة ومتطرفة ، صارت مقبولة بل أصبحت جزءا من الخطاب السياسى الصهيونى ، أو ضمن برامج الأحزاب المعتدلة ، ولذا فليس من المستبعد أن نجد جميع الصهاينة (الأقلية المتدينة والأغلبية الملحدة) تؤيد كلها بعد قليل إعادة بناء الهيكل باعتباره أمرا أساسيا للعقيدة الصهيونية لا تكتمل بدونها^(١) . ويرى المسيحيون الأصوليون أن بناء الهيكل هو الشرط الأساسى للعودة الثانية للمسيح . وهم ينظرون إلى قيام إسرائيل عام ١٩٤٨ م تأكيدا لنبوءات التوراة حول نهاية العالم وإحلال مملكة جديدة مع الجيء الثانى للمسيح بعد عودة اليهود إلى الأرض المقدسة . وانتظرت المسيحية الصهيونية اكتمال خطة الرب بعد تأسيس إسرائيل ، وبالتالى كان انتصار إسرائيل فى حرب يونيو ١٩٦٧ م ، واحتلالها لبقية أرض فلسطين وبخاصة القدس ، إضافة إلى أراضٍ عربية أخرى ، تأكيدا على أن خطة الرب تكتمل وأن النبوءات التوراتية تتحقق وأن نهاية التاريخ أصبحت قريبة^(٢) .

(١) الدكتور عبد الوهاب المسيرى ، الموسوعة ، ج ٤ ، ص ١٦٩ .

(٢) مجدى شندى ، قبل أن تضيع القدس ، ص ٧٧ / ٩٠ . القاهرة ١٩٩٢ .

رضا هلال ، المسيح اليهودى ونهاية العالم ، المسيحية السياسية والأصولية فى أميركا ، ص ٨٣ : ١٦١

وأنتجت المنظمات الأصولية الأمريكية العديد من الأفلام والبرامج التي تروج لهذه الرؤية وأبرزها ما رعى إنتاجه القس والواعظ الأمريكي التلفزيوني مايك إيفانز ، ففي برنامج الاستعراضى (إسرائيل : مفتاح أمريكا للبقاء) الذى كان يبث فى ٥٠ محطة تلفزيونية عبر ٢٥ ولاية ، لمدة ساعة يوميا ، عام ١٩٨٣ ، تحدث إيفانز عن أن الرب أمره بوضوح برعاية إسرائيل ، ولذا قام بإنتاج هذا البرنامج الخاص بإسرائيل ، وقال : (إن إسرائيل تلعب دورا حاسما فى المصير الروحى والسياسى لأمريكا ، كما أن تحلى إسرائيل عن الضفة الغربية سوف يجرد الدمار على إسرائيل وعلى الولايات المتحدة من بعدها) ونشر إيفانز فى ديسمبر عام ١٩٨٣ ، إعلانا فى صفحة كاملة فى صحيفة (نيويورك تايمز) جاء فيه (إن بقاء إسرائيل حيوى لبقائنا ، وإن الإيمان بإسرائيل يعزز موقف الولايات المتحدة الأمريكية) . وأنتج فىلما عنوانه : (القدس عاصمة داود) ربط فيه بين أمريكا وعاصمتها واشنطن والقدس .

إن السبب الإسلامى الذى يحمل خطابا حضاريا نفتقده اليوم فى مخاطبة الآخرين للتعريف بقضيتنا ، بالرغم من إجدادة أجدادنا استخدام هذا الخطاب فى المدينة المقدسة القدس ، فقد نجح عبد الملك بن مروان فى ظل الصراع الدولى بينه وبين الدولة البيزنطية من خلال اهتمامه بالمقدسات الإسلامية فى القدس فى إيصال رسالة إعلامية وحضارية وتراثية إلى الدولة البيزنطية . ومازلنا إلى اليوم نستفيد من هذه الرسالة . ولكن لم ننجح فى استيعاب الدرس الخاص بها . جاءت هذه الرسالة ضمن مخطط عبد الملك لإعمار الحرم القدسى الشريف (صورة رقم ٦) .

تعد قبة الصخرة والحرم القدسى الشريف حولها أبرز العمائر التى تحمل مضامين حضارية . يعود تشييد القبة إلى العصر الأموى ، الذى شهد نزاعا حضاريا بين الدولة الأموية والدولة البيزنطية على السيطرة على العالم القديم . واتخذ هذا النزاع صورا متعددة . منها تعريب طراز أوراق البردى التى كانت تصنع فى مصر^(١) . وتعريب للنقود فى إطار سياسة رسمها عبد الملك بن مروان الهدف منها إرضاء الشعور الدينى

(١) سعيد مغاورى (دكتور) البرديات العربية فى مصر الإسلامية ، ص ١٣٥ ، ١٣٦ ، الهيئة العامة

والسياسى للمسلمين ، ورغبته فى إعادة حق ضرب النقود إلى الخلافة فى شخص الخليفة كمظهر من مظاهر الملك والسلطان بعد أن انتزع حق ضرب النقود كثير من الولاية والاثارين فكان الإصلاح النقدى سببا هاما فى القضاء على الفوضى السائدة تحقيقا للاستقرار السياسى ، فضلا عن أن النقد العربى الخالص يعبر عن سيادة الدولة وخروجها من تحت عباءة النفوذ الاقتصادى البيزنطى . لهذا اتجه عبد الملك إلى الاستقلال الاقتصادى بتعريب النقود ، فضلا عما يتيح هذا من توحيد النظام النقدى فى دولة تمتد عبر مساحات شاسعة من الأراضى^(١) .

اتجه عبد الملك بن مروان فى إطار هذا المخطط الشامل إلى العمارة التى ترمز إلى سيادة الدولة واتجاهها الفكرى ، ففى القدس تبنى مشروعا ذا طابع سياسى دينى حضارى ، يرتكز على الاهتمام بعمارة الحرم القدسى الشريف خاصة قبة الصخرة والمسجد الأقصى ، لارتباط هذا الحرم بالعقيدة الإسلامية فهو أول القبلتين ، وفيه صلى الرسول بالأنبياء وإليه كان إسراؤه ومنه كان معراجه^(٢) .

ولما كانت عمارة الحرم آنذاك بسيطة لا تتناسب مع ما حولها من كنائس ، خاصة كنيسة القيامة المقدسة لدى المسيحيين ، ومع ما قد تحذته عمارة الكنائس فى نفوس بعض المسلمين ، ورغبة عبد الملك فى إثبات الهوية الحضارية الجديدة للمدينة^(٣) ، تبنى مشروع عمارة قبة الصخرة والمسجد الأقصى .

ولفت الانتباه من هذا المشروع قبة الصخرة (صورة رقم ٧) ، أبرز آثار الحرم، فهى تعد أول عمل معمارى واع لعظمته بل متباه بما ، انتهى من بنائها عام ٧٢هـ / ٦٩٢ م . وهى ترى من مسافات بعيدة ، وهى مبنية فوق صخرة مقدسة ، حولها ممران يدوران حولها بمسقط مثنى ، شائخة فى الهواء فى مركز الحرم القدسى على كل من تلال القدس . وهذه القبة ذات التصميم الهندسى الذى يصل إلى حد الجمال والروعة

(١) رأفت النراوى (دكتور) قصة أول نقود عربية فى الإسلام ، ص ٥٨ : ٦٢ . مجلة القدس ، العدد ١٣٤ / ١٩٨٨ م .

(٢) الزركشى محمد بن عبد الله ، إعلام الساجد بأحكام المساجد ، ص ٢٧٥ : ٢٩٨ . تحقيق أبو الوفا المرغى ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، القاهرة ١٤٠٣هـ .

(٣) يوسف شوقى (دكتور) قبة الصخرة ، ص ١٦ ، وزارة الإعلام سلطنة عمان ١٩٨٧ م .

كانت مزخرفة بالفسيفساء على كل سطوحها داخلا وخارجا ، وكانت ومازالت تبهر الرأىن حتى إن كثيرا منهم لم يملكوا أنفسهم من إضفاء كل صفات الريق واللمعان عليها ، مهملين فى الوقت نفسه ، للأسف ، أن يخبروا ماذا كانت تلك اللوحات الفسيفسائية تمثل ، ولا نستطيع أن نحكم على موضوعات فسيفساء القبة حكما كليا لأن جزءا كبيرا من الفسيفساء الأموية قد فُقد ، ولكننا نملك بعض الشواهد على هذه الموضوعات من فسيفساء الرواق المئمن الداخلى ، يمكن عند ربطها بدقة عمارة القبة الانتهاء إلى الرمزية السياسية لها .

مخطط القبة ليس غريبا بالدرجة التى يبدو بها اليوم ، إذ يرى بعض المستشرقين وعلماء الآثار العرب أن تخطيط قبة الصخرة ذو أصل رومانى يعرف بمخطط ضريح الشهيد ، وهو عبارة عن الطواف حوله ، وظيفته إذن طقوسية طوافية . وهو لهذا السبب استعمل فى الفترة المسيحية المبكرة فى بلاد الشام، وفى مجال الأراضى البيزنطية، فى عمارة العديد من الكاتدرائيات المهمة ، ككاتدرائية بصرى فى حوران التى مازال بقاياها قائمة إلى اليوم ، وكنيسة القيامة فى القدس نفسها ، وهما الاثنان تعودان إلى فترة الحكم البيزنطى فى عهد جوستينيان (حكم ٥٢٧ - ٥٦٥) . ولكن قبة الصخرة أكثر هذه المخططات توازنا هندسيا ، وهى دون أى شك قد قصد بها التمايز والتنافس مع قبة قبر المسيح فى كنيسة القيامة التى تطل عليها من أعلى جبل مورياه^(١) . ويرى الدكتور فريد شافعى أن تخطيط قبة الصخرة لا يطابق أى تخطيط لنماذج العمائر البيزنطية فى منطقة بلاد الشام أو فى غيرها . بل هو تحويل واقتباس منها ليتفق مع الغرض الذى شيد من أجله البناء وهو أن يحيط بالصخرة ، وهى البقعة المباركة التى عرج منها محمد ﷺ إلى السماء حين أسرى به ربه من مكة المكرمة إليها . ولذا فقد روعى فى التخطيط أن يوفر غرض تعيين تلك البقعة ، ثم غرض الطواف حولها للتبرك بها . وهو أمر يختلف تماما عن الذى شيدت من أجله تلك العمائر الدينية البيزنطية

(١) ناصر الرباط (دكتور) نحو إعادة تقييم للثقافة الفنية الأموية ، ص ٩٩ : ١٠٠ ، مجلة أبواب ، ١٩ ،

ذات التخطيطات المشابهة . التي عادة ما توجه نحو الحنية ، ولا تتعدد فيها المداخل كما تعددت في قبة الصخرة ، ومهما يكن من أمر ، فإن تخطيطات تلك العمائر الدينية البيزنطية ليست ابتكارات بيزنطية أو سورية ، بل كانت في الأصل تخطيطات رومانية دينية سابقة ، أخذت بدورها من أصول إغريقية^(١) .

وتعد فسيفساء قبة الصخرة من الناحية الحرفية امتدادا للفسيفساء البيزنطية في بلاد الشام والدولة البيزنطية ، ولها العديد من الأمثلة في كنائس بلاد الشام والعاصمة القسطنطينية ، وأشهرها أيا صوفيا ، وكنائس سالونيك الإغريقية ، غير أن فسيفساء قبة الصخرة ذات مواضيع معقدة في أصولها وكيفية اختيارها ومعانيها ، فعلى خلاف النماذج البيزنطية التي تتشارك وإياها في التقنية ، تركز لوحات قبة الصخرة على المواضيع اللاتمثيلية ، وتحصرها بالكتابات القرآنية والتسجيلية وبالتوريق والزخارف النباتية ، بعض الأشكال الغامضة اليوم ، والتي ربما تكون تحويرا لتيجان ملوك ومستلزمات وظيفتهم من صولجانات ومجوهرات وما شابهها (صورة رقم ٨ ، ٩) .

إننا هنا أمام تساؤلات عديدة تطرح نفسها نحو هذا المبنى ورمزيته . إن التوجهات السياسية والإعلامية والعقيدة تبرز في الآيات القرآنية المختارة بدقة ، وفي تركيز وضع صور تيجان الملوك في الرواق حول القبة ومواجهتها . فالنص القرآني يحتوى على كل الآيات التي تتكلم عن المسيح في موقعه الإسلامي المختار كنبى مرسل^(٢) . والتيجان تبدو أشبه ما تكون بالتيجان الحقيقية للملوك المغلوبين ، التي كان أباطرة الرومان والبيزنطيين يضعونها في معابدهم وكنائسهم كعلامات نصر ورمز إيمان بأفضلية

(١) فريد شافعي (دكتور) العمارة العربية في مصر الإسلامية ، ص ٤٠ ، ٤١ ، ٧٧ ، ٧٨ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب . ١٩٩٤ م .

(٢) نشر أولج جرابار هذه النصوص كاملة في كتابه عن العمارة المبكرة في القدس ، وهي في مجملها نصوص تشير إلى التوحيد وإلى أن محمداً رسول الله وإلى أن إلهه لم يكن له ولد وتدعو النصرى إلى عبادة الله عبادة صادقة .

معتقدهم. وبالتالي يمكن هنا أن ننظر إلى هذين العنصرين الزخرفيين على أنهما بالنسبة لبناء قبة الصخرة وسيلتا دعاية لدينهم ولدولتهم المنتصرين ، خاصة إذا تذكرنا أن قبة الصخرة قد بنيت في القدس التي كان أغلب سكانها المسيحيين مازالوا يدينون بالولاء لإمبراطور القسطنطينية البيزنطى ، في وقت كانت الدولة الأموية فيه في خضم صراع مرير مع البيزنطيين في شمال بلاد الشام^(١) .

فالقبة مبنى معمارى ذو رمزية سياسية ينبىء في القدس عن رغبة الدولة الأموية في بث حضارة جديدة تعبر عن أتباع الدولة المقيمين في المدينة ، ويوجه رسالة إلى الآخرين عن مدى قوة الدولة ومضمون رسالتها . وظلت قبة الصخرة بلونها الذهبى ، رمزا لمدينة القدس ، يعلوها الهلال الذى يوازى اتجاه القبلة . وعندما استولى الصليبيون على القدس نزعوا الهلال من فوق قبة الصخرة ، وأقاموا مكانه صليبا من الذهب . وعندما استرجع صلاح الدين القدس مرة أخرى سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٧م . تسلى بعض المسلمون القبة واقتلعوا الصليب، وأعادوا الهلال إلى مكانه^(٢) . هذا شكل الموقع الذى شيدت عليه قبة الصخرة جانبا من الرمزية السياسية (صورة رقم ١٠) .

إن هذه الرسالة تحتم علينا تقديم بعض المقترحات لمقاومة التهويد الإعلامى والثقافى لمدينة القدس وتراثها منها :

- يجب دراسة الدراسات الإسرائيلية ودراسات المعهد الأمريكى للآثار فى القدس الخاصة بتاريخ وتراث القدس وفلسطين . وتخصيص منح للآثارىين الشبان لدراستها ، مع التركيز على عصور ما قبل التاريخ التى يحورها اليهود اليوم لمصلحتهم .
- يجب دراسة طبوغرافية القدس عبر العصور من خلال الآثار والوثائق التاريخية ، حيث إن ما أنجزه العرب فى هذا المجال غير دقيق وغير كاف . مع تقديم دراسات وافية لتراث القدس منذ عصور ما قبل التاريخ حتى العصر الحديث .
- ضرورة تعزيز المواقع العربية والإسلامية على الإنترنت بهذه الدراسات .

(١) المرجع السابق ، ص ١٠١ .

(٢) يوسف شوقى (دكتور) مرجع سابق ، ص ٦٤ .

- توجيه نداء إلى اتحاد الجامعات العربية لتخصيص الموسم الثقافي الحالي في الجامعات العربية للقدس . وكذلك إعداد كتيب للتلاميذ في المدارس العربية عن القدس يكون ضمن مقررات مادة التاريخ .
- تكليف كل من منظمة العواصم والمدن الإسلامية ، ومنظمة المدن العربية بإقامة مؤتمر عالمي في غزة أو إحدى مدن الضفة الغربية للقدس وتراثها المعماري كوسيلة لبيان أهمية هذه المدينة بالنسبة للعرب والمسلمين .
- يجب أن تتضمن بنود مفاوضات السلام مع إسرائيل بنودًا خاصة بالمناهج التعليمية في المدارس والجامعات الإسرائيلية .
- كما يجب أن تتضمن بنودًا خاصة بقانون العودة لليهود وطبيعة منح الجنسية الإسرائيلية .

* * *

oboeikan.com

موقف الجمهورية العربية المتحدة
من الأزمة اللبنانية ١٩٥٨

د. زكريا أحمد محمد سعد

أستاذ التاريخ الحديث
جامعة الأزهر

obseikan.com

موقف الجمهورية العربية المتحدة من الأزمة اللبنانية ١٩٥٨

تمهيد

تميزت العلاقات المصرية اللبنانية منذ استقلال لبنان عام ١٩٤٣ وحتى قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ في مصر بقوتها ومتانتها ، فقد ساندت مصر شعب لبنان في الحصول على استقلاله ، ودعمت التوجه العربي للسياسة اللبنانية .

ففي يونيه / حزيران ١٩٤٣ جاء إلى مصر بشارة الخورى رئيس الكتلة الدستورية والذي كان يأمل في الوصول لرئاسة الجمهورية بناء على دعوة مصطفى النحاس رئيس وزراء مصر للبحث والتشاور في التعاون العربي ، وقد أبدى بشارة الخورى استعداداه للتعاون العربي شرط استقلال لبنان ضمن حدوده المعترف بها ، كما أضاف "أنا نريد التعاون مع الدول العربية إلى أقصى حد على هذا الأساس ثم استدركت أن عدداً من المسيحيين لا يعتنق هذه الأيديولوجيا وقد يعاكسه لاعتقاده بضرورة حماية أجنبية لبلاده"^(١) .

وبالفعل خاض بشارة الخورى انتخابات عام ١٩٤٣ معتمداً على الاتجاه الذى يحاول التوفيق بين فكرة الكيان اللبناني وحركة التجمع العربي ، وحظى بتأييد المعتدلين من المسلمين والمسيحيين ، كما ساندته بريطانيا معنويا ، أما منافسه "إميل إده" فقد خاض انتخابات الرئاسة معتمداً على تأييد فرنسا والمتطرفين في فكرة "الوطنية اللبنانية"

(١) بشارة خليل الخورى : حقائق لبنانية ، الجزء الأول ، منشورات أوراق لبنانية ، بيروت ، د . ت .

ونجح بشارة الخوري في الفوز بالانتخابات وتشكيل وزارة وطنية برئاسة رياض الصلح^(١).

وعلى الرغم من نجاح حكومة الاستقلال في تأكيد التوجه العربي للسياسة اللبنانية إلا أن مسألة الطائفية داخل المجتمع اللبناني ظلت تهدد الفكرة العربية في لبنان. فمنذ عام ١٩٤٣ حتى عام ١٩٥١ كان رياض الصلح، بحكم مشاركته للشيخ بشارة الخوري في الحكم وبتأثيره الشخصي على الشارع الإسلامي، قد استطاع استيعاب المطالب الإسلامية وإقناع المسلمين بتفهم الأمر الواقع إرضاءً للمسيحيين وتطمينا لهم على أن الاستقلال والتعاون العربي لم يلحقاً أى ضرر بمصالحهم أو امتيازاتهم أو حقوقهم، ولكن بعد وفاة رياض الصلح (١٩٥١) واستقالة الشيخ بشارة الخوري (١٩٥٢) استيقظت الحزازات والمواقف الطائفية من جديد منطلقاً من مواقع اجتماعية وقومية^(٢).

والجدير بالذكر أن عام ١٩٥٢ شهد تفجر ثورة ٢٣ يوليو/ تموز على أرض مصر ليدفع دماء الحياة - وبحيوية كبرى من جديد - في قلوب المناضلين العرب الشرفاء من أبناء الأمة العربية على اتساع ساحة الوطن العربي شرقاً وغرباً وليؤجج نيران الثورة على الطغيان في نفوسهم، وليجى آمالهم في القدرة على تحقيق الحياة الكريمة لهم ولأسرهم على أرض الوطن، خاصة بعدما أعلنت ثورة مصر عن هويتها العربية في أوائل عام ١٩٥٣ بعد أن تحقق لها الاستقرار المنشود داخلياً^(٣).

وفي لبنان شهد عام ١٩٥٢ أيضاً اختيار مجلس النواب اللبناني كميل شمعون، أحد أعضائه رئيساً للجمهورية اللبنانية، بدلاً من الشيخ بشارة الخوري الذي آثر الاستقالة

(١) د. صلاح العقاد: تكوين لبنان الحديث، بحث في كتاب الأزمة اللبنانية، معهد البحوث والدراسات

العربية، القاهرة، ١٩٧٨، ص ١٩٩.

(٢) باسم الجسر: الصراعات اللبنانية والوفاق (١٩٢٠-١٩٧٥)، دار النهار للنشر، بيروت، ١٩٨١،

ص ص ١١٨-١١٩.

(٣) فحى الديب: عبد الناصر وتحرير المشرق العربي، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام،

القاهرة، ٢٠٠٠، ص ١٢.

والانسحاب ، عقب الإضراب العام الذي أعلنه الشعب اللبناني احتجاجاً على أساليب الحكم التي اتبعت في عهده ، وكان الرئيس الجديد من أقطاب الحزب الدستوري ومن العاملين في محيط السياسة العربية القومية^(١) .

ولقد أكد كميل شمعون في بداية عهده على هوية لبنان العربية حيث صرح "أن لبنان لن ينحرف قيد شعرة عن السياسة التي سار عليها منذ عام ١٩٤٣ ، تلك السياسة التي تجعله في طليعة الدول العربية اهتماماً بقضية العرب وسعيًا وراء توحيد الكلمة وجمع الشمل وتقوية الروابط"^(٢) .

ومن ناحية أخرى ، فمن الواضح أن الحكومة اللبنانية في تلك الفترة كانت حريصة على إقامة علاقات طيبة مع قادة ثورة يوليو في مصر ، ويؤكد ذلك ما تم من تعاون وتنسيق بين الحكومتين المصرية واللبنانية لمقاومة نشاط أنصار جماعة الإخوان المسلمين المنحلة ، كما أعرب الرئيس كميل شمعون للواء عبد الحميد غالب السفير المصري ببيروت عن استعداد بلاده للعمل على كل ما من شأنه توثيق الروابط بين مصر ولبنان^(٣) .

ولكن سرعان ما توترت العلاقات المصرية اللبنانية ، حيث أدت ضغوط السياسات المحلية والعربية بكميل شمعون إلى التخلي تدريجياً عن حياده وعن اندفاعاته العربية المؤقتة ، مما جعله يسفر عن ميوله الغربية ، وبالتالي يقحم بلاده في أتون الحرب الباردة بين الشرق والغرب وبين مختلف أنظمة الحكم العربية ، ففي أبريل/ نيسان ١٩٥٥

(١) أمين سعيد : الجمهورية العربية المتحدة ، الجزء الأول ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٩٥٩ ، ص ١٦٩ .

(٢) د . علي محمد الأغا : الاتجاهات السياسية في لبنان (١٩٢٠-١٩٨٢) ، ط ١ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٩١ ، ص ١٢٠ .

(٣) وثائق الخارجية المصرية ، أرشيف الدول ، محفظة رقم ٨ لبنان ، ملف ١/٧/٢٢٧ ج ٤ . من السفير المصري ببيروت إلى وكيل وزارة الخارجية ، سرى جداً ، بتاريخ ١٢/٢٢/١٩٥٤ .

زار شمعون تركيا ، وفي نهاية الزيارة صدر بيان أشار إلى علاقة الصداقة التقليدية بين لبنان وتركيا وذهب إلى أن تركيا تشكل خط الدفاع الأول عن البلدان العربية^(١) .

وهذا يعنى اتجاه لبنان في سياسته الخارجية إلى دائرة الأحلاف الغربية ومن بينها حلف بغداد . وجاءت الزيارة التي قام بها شمعون إلى تركيا لتؤكد هذا الاتجاه ، وعلى الرغم من عدم الإعلان الرسمي فقد أدت تلك السياسة المتبعة إلى انقسام داخلي في الآراء تجسد في ظهور تيارين متعارضين : الأول يؤيد الانضمام إلى الأحلاف ويجد أن سلامة لبنان لا بد وأن تعتمد على مساندة دولة أجنبية كبرى تقف وراء رئيس الجمهورية . والثاني : رفض سياسة الأحلاف ورأى في زيارته لتركيا تحدياً لمشاعر الرأي العام اللبناني والعربي نظراً لأن تركيا في ذلك الوقت كانت تحشد قواتها على الحدود مع سوريا^(٢) .

وأمام خطورة ما أقدمت عليه الحكومة اللبنانية على سياسة مصر العربية بزعامة جمال عبد الناصر ، بدأت القيادة المصرية التحرك السريع لمجابهة هذا الخطر ، وقد تركز التحرك المصرى بشكل خاص على دعم ومساندة كافة القوى الوطنية المعارضة لسياسة شمعون الموالية للغرب .

فمن داخل لبنان يرفع اللواء عبد الحميد غالب السفير المصرى ببيروت للمسئولين المصريين تقريراً هاماً حول الاتجاهات السياسية في لبنان ، فيؤكد على أن سياسة لبنان الخارجية ترتبط بأوضاعه الداخلية أكثر من ارتباط أية دولة أخرى. يمثل تلك الأوضاع، وينبغي لذلك أن لا تغيب هذه الحقيقة عن البال في تكييف علاقة مصر بلبنان في أى ظرف كان ، كما أشار إلى أن السياسات في لبنان تتفاعل مهما تباينت وسائلها تبعاً للاختلافات الطائفية والعوامل الاقتصادية ؛ فهي تلتقى عند هدف واحد هو المصلحة الشخصية للفرد أو الطائفة التي ينتمى إليها ، ولا تتغلب المصلحة الطائفية في معظم الأحوال على المصلحة الفردية إلا لدى المتطرفين في نزعاتهم الدينية .

(١) د . أحمد عبد الرحيم مصطفى : أزمة ١٩٥٨ والتدخل الأمريكى في لبنان ، بحث في كتاب الأزمة

اللبنانية ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٧٨ ، ص ٦٠٤ .

(٢) د . أحمد خليل محمودى : لبنان في جامعة الدول العربية ١٩٤٥ - ١٩٥٨ ، المركز العربى للأبحاث

والتوثيق ، بيروت ، ١٩٩٤ ، ص ٥٧ .

ويضيف السفير المصري أنه بينما ساعدت وحدة هدف الوطن المسيحي على تقسيم المسيحيين إلى مدارس "فرنسية" و "بريطانية" و "أمريكية" تلتقى جميعها عند غرض واحد فرقت المصالح الشخصية بين المسلمين وساعدت الأموال السعودية من جهة والعراقية من جهة أخرى على هذه التفرقة^(١) .

ومع أهمية ما ورد في تقرير السفير المصري ببيروت حول الاتجاهات السياسية في لبنان ، بالنسبة لواقعي السياسة المصرية ، إلا أنه يمكن القول بأن ما ورد بشأن تفرق المسلمين في لبنان وتأثير تغليب المصالح الشخصية على قوتهم ووحدة كلمتهم يمثل أهمية خاصة نظراً للدور المنتظر أن يلعبه المسلمون في لبنان في تأييد ومساندة تيار القومية العربية الذي تنزعه مصر .

ولذلك فعلى الرغم من أن نشاط السفير المصري ببيروت لتكوين جبهة داخلية قوية ضد سياسة شمعون شمل كافة القوى السياسية في لبنان ، إلا أنه حاول بشكل خاص بذل جهوده لتوحيد كلمة القوى الإسلامية رغم صعوبة المهمة ، فقد سعى للجمع بين الزعماء السنيين الذين يتناوبون تولى رئاسة الوزارة وهم سامي الصلح وعبد الله اليافي وحسين العويني وصائب سلام ، وكانت محادثاته مع كل منهم تجرى على انفراد وتدور حول القوة الهائلة التي تتسنى لهم مجتمعين غير أن المصالح الشخصية حالت دون ذلك^(٢) .

ولم يقتصر التحرك المصري على جهود السفارة المصرية ببيروت ، بل حرصت السياسة المصرية بقيادة عبد الناصر على فتح قنوات الاتصال بكافة الزعماء السياسيين اللبنانيين الذين من الممكن أن يلعبوا دوراً على الساحة اللبنانية في تأييد السياسة المصرية ومعارضة سياسة شمعون ، ويؤكد ذلك اللقاء الذي تم في أواخر عام ١٩٥٥ بين

(١) وثائق الخارجية المصرية : أرشيف الدول ، محفظة رقم ٨ لبنان ، ملف ١٧/٢٢٧ ج٤ . السفارة

المصرية ببيروت رقم ٢٨ سرى جداً بتاريخ ١٩٥٥/٣/٢٧ .

(٢) المصدر نفسه : نفس المحفظة والملف ، برقية رقم ٨٤ سرى جداً . من السفير المصري ببيروت إلى

وكيل وزارة الخارجية بتاريخ ١٩٥٥/٨/٢ .

عبد الناصر وحميد فرنجيه أحد السياسيين اللبنانيين ، ويذكر السفير المصري ببيروت أنه لم يلمس خلال السنة التي قضاها في بيروت إجماعاً على ضرورة تنحية شمعون مثل الإجماع الذي لمسه منذ عودة حميد فرنجيه من القاهرة بعد لقائه بالرئيس عبد الناصر ، كما يشير السفير المصري إلى أن فرنجيه لم تفتقر له همة منذ عودته من القاهرة في محاولة جمع الصفوف وتأليبها ضد شمعون ، وقد أصبح الكثيرون من خصوم فرنجيه السابقين من أشد أنصاره وخصوصاً بين الطوائف الإسلامية بعد أن نجح فرنجيه في إقناعهم بأمرين أساسيين :

الأول : اتباعه لسياسة عربية بعيدة عن الاتجاه الانعزالي الذي كان معروفاً عنه فيما مضى .

الثاني : إيمانه بضرورة التعاون الوثيق بين سوريا ولبنان ، يضاف إلى ذلك نتائج رحلته إلى القاهرة والعلاقة الشخصية التي نشأت بينه وبين الرئيس عبد الناصر والتي يستغلها فرنجيه للتدليل على ثقة الرئيس به^(١) .

ولعل ذلك يدل على حرص القيادة المصرية على ربط لبنان بفلك سياسة مصر العربية ، كما يوضح أن تأثير شخصية عبد الناصر ونفوذه لدى المعارضة اللبنانية بدأت منذ وقت مبكر ، ولا يمنع ذلك من القول بوجود سياسة المصالح الشخصية التي أشار إليها السفير المصري ببيروت في تقريره سالف الذكر ، وربما يكون تحول موقف حميد فرنجيه من تبني السياسة الانعزالية إلى تزعم السياسة العربية ما يؤيد ذلك .

وفي ظل هذه الأجواء يقع العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ ليدخل الصراع بين حركة التحرير العربي بقيادة مصر والاستعمار الغربي ومن يدور في فلكه في مرحلة أخطر وأصعب على طريق المواجهة بين الطرفين .

وبالطبع كانت الدول العربية في طليعة من تثار لكرامة مصر وحقها المغتصب ، ولكن يبدو أن بعض السلطات ، ومنها سلطات العراق ولبنان ، كانت تأمل ، رغم

(١) المصدر نفسه : نفس المخططة والملف ، برقية رقم ١٢١ سري جداً . من السفير المصري ببيروت إلى وكيل وزارة الخارجية بتاريخ ١٠/٢٠/١٩٥٥ .

التظاهر بالعكس ، بأن تنتهى المؤامرة على غير ما آلت إليه ، فيغيب عبد الناصر عن مسرح السياسة فى الشرق الأوسط . إرضاءً لأعدائه فى حلف بغداد ولبريطانيا الوصية على هذا الحلف^(١) .

وفى لبنان دعا الرئيس شمعون لعقد مؤتمر قمة عربى فى بيروت للبحث فى الخطوات التى يمكن اتخاذها لوقف العدوان ، ومع أن المؤتمر لم تسبقه أية خطوات تحضيرية لإنجاحه ، فقد أقر مشروعاً مؤيداً لمصر ، وأثناء هذا الاجتماع طرحت مسألة قطع العلاقات الدبلوماسية مع بريطانيا وفرنسا احتجاجاً على عدوانها على دولة عربية هى مصر ، فلقى الاقتراح تأييداً من المجتمعين . ثم إن رئيس الحكومة اللبنانية عبد الله اليافى ومعه الوزير صائب سلام طالباً رئيس الجمهورية اللبنانية بضرورة قطع العلاقات الدبلوماسية ، إلا أن الآخر لم يستجب لهذا الطلب رغم تهديد الوزيرين بالاستقالة ، بل طلب منهما التريث إلى أن ينتهى عقد المؤتمر العربى المذكور ومع ذلك فإنه لما انتهى المؤتمر رفض شمعون قطع العلاقات الدبلوماسية مع أى من الدولتين أسوة بباقى الدول العربية^(٢) .

ونتيجة لذلك ، قدم عبد الله اليافى وصائب سلام استقالتهما احتجاجاً على موقف شمعون من مسألة قطع العلاقات الدبلوماسية مع بريطانيا وفرنسا ، وهنا تبتدىء المعركة الداخلية الصاخبة فى لبنان بين مؤيدى سياسة الرئيس عبد الناصر وخصومها ، وبين مؤازرى حركة التحرر العربية ومناوئيه^(٣) .

والجدير بالذكر أن الرئيس عبد الناصر خرج من معركته مع الاستعمار بعد العدوان الثلاثى على مصر وقد ازدادت شعبيته وارتفعت نسبة مؤيديه فى لبنان والعالم العربى كله ، وأصبح بطلاً للقومية العربية .

(١) د . عباس أبو صالح: الأزمة اللبنانية عام ١٩٥٨ ، العربية للمنشورات ، بيروت ، ١٩٩٨ ، ص ص ٥٦-٥٧ .

(٢) جوزف مغيزل : لبنان والقضية العربية ، منشورات عويدات ، بيروت ، ١٩٥٩ ، ص ٤٨ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ٤٨ .

وفي تلك الفترة يكتب السفير المصري ببيروت تقريراً حول الموقف السياسي في لبنان وتداعياته على أهداف السياسة المصرية ، فيشير إلى اشتداد دعاية الدول الغربية في لبنان والمبالغ الهائلة التي صرفتها وما تزال تصرفها تلك الدول - بمساعدة العراق - في الأوجه المختلفة لتلك الدعاية ، ويقترح في مواجهة ذلك أن تنظم الدعاية المصرية من الناحية المالية بالتعاون مع المملكة العربية السعودية التي قبضت يدها من معونة الصحف المؤيدة للسياسة المصرية وأخذت تعتمد في لبنان إلى حد كبير على العناصر الإسلامية وليس من شك في أن لبنان ينقسم عند الامتحان الحقيقي أو اشتداد الأزمات إلى مسلم ومسيحي .

ويطالب السفير المصري في نهاية تقريره بإعادة النظر في سياسة مصر نحو لبنان بحيث تكون أكثر وضوحاً وتحديداً ، حيث انحصرت هذه السياسة في الفترة الماضية في منع لبنان من الانضمام إلى حلف بغداد^(١) .

ويبدو أن لبنان في تلك الفترة تحول إلى ساحة للحرب الدعائية بين التيار الموالي للغرب بزعامة شمعون والذي يسبح في فلكه وينعم بدعمه السخي من جهة والتيار القومي العربي والذي تنزعه وتسانده مصر من جهة أخرى .

ولما كانت الحرب الدعائية تعتمد بشكل كبير على الدعم المالي فقد طالب السفير المصري ببيروت بدعم أكبر من الناحية المالية في هذه المواجهة الشرسة مع الدعاية الغربية وإمكاناتها الكبيرة .

ومن الواضح أن المملكة العربية السعودية كانت تلعب دوراً هاماً فيما يتصل بالدعم المالي وذلك بالتنسيق مع مصر .

ولم يمض وقت طويل على العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ ، وما أحدثه من تداعيات في العالم العربي حتى أعلن رئيس الولايات المتحدة الأمريكية أمام الكونغرس في ٥ يناير / كانون ثان ١٩٥٧ اقتراحه الذي أطلق عليه اسم "مذهب أيزنهاور"

(١) وثائق الخارجية المصرية : أرشيف الدول ، محفظة رقم ١١ لبنان ، ملف ١/٢٢٧ ج١ . من السفير

المصري ببيروت إلى وكيل وزارة الخارجية رقم ٢٢٥ سرى جدا بتاريخ ١١/٢٤/١٩٥٦ .

أو مشروع أيزنهاور لملء الفراغ في الشرق الأوسط بعد رحيل قوى الاستعمار الغربي عن بلاد هذه المنطقة من العالم . ذلك أن الرئيس أيزنهاور بعد أن أدان بشدة في مشروعه مطامع الاتحاد السوفيتي في الشرق الأوسط طالب الكونجرس بأن يطلق يده من أجل "تقديم المساعدة الاقتصادية والعسكرية إلى أية بلد أو إلى أى مجموعة من البلاد تنتمى لهذه المنطقة وترغب في الحصول عليها والاستفادة منها . بما في ذلك المساعدة التي قد تضمن استخدام القوات المسلحة الأمريكية"^(١) .

وفي الوقت نفسه كان الرئيس عبد الناصر والملك سعود والرئيس شكري القوتلي يطلعون على الرأي العام الدولي والعربي بمبدأ الحياد الإيجابي ، وعندما أعلنت نظرية الفراغ وجهة مصر وسوريا أقصى الانتقادات إليها وأذاعتها الشاعر الشهير القائل "إذا كان ثمة من فراغ فالدول العربية هي التي تملأ هذا الفراغ" ، وهكذا ظهر مبدأ أيزنهاور ومبدأ الحياد الإيجابي كخصمين منذ ولادتهما ، غير أنه ما كان الرئيس أيزنهاور يعلن مبدأه حتى أسرع الدكتور شارل مالك وزير خارجية لبنان آنذاك ، فرحب به باسم لبنان ، ووضع بتصرفه هذا لبنان في فلك المعسكر الغربي ضد الشيوعية الدولية أو السوفيتية ، وبالتالي في موقف العداء للسياسة المصرية - السورية القائلة بالحياد التام بين المعسكرين"^(٢) .

ولم يكف الدكتور شارل مالك يعلن موقفه حتى انقسم الرأي العام اللبناني إلى فريقين ، فقد وافقت قطاعات واسعة من الطائفة المارونية والمنظمات السياسية اليمينية ، مثل الكتائب والحزب القومي السوري على المبدأ ، على حين تصدت له بقية القطاعات بما في ذلك أغلبية كبار الزعماء المنتفذين من مسلمين ومسيحيين وربما أغلبية الشعب"^(٣) .

(١) د . بطرس بطرس غالي : الجامعة العربية وتسوية المنازعات المحلية ، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة ، ١٩٧٧ ، ص ٦٧ .

(٢) جوزف مغيذل : مرجع سابق ، ص ٤٩ .

(٣) د . أحمد عبد الرحيم مصطفى: الولايات المتحدة والمشرق العربي ، سلسلة عالم المعرفة ، العدد الرابع، الكويت ، ١٩٧٨ ، ص ص ١٧٢-١٧٣ .

وبطبيعة الحال ، فقد ازدادت العلاقات المصرية اللبنانية توتراً نظراً لقبول لبنان لمبدأ أيزنهاور ، الذى عارضته مصر بل وبدأ لبنان فى مهاجمة مصر وسياستها فى المنطقة^(١) .

وقد أكد تقرير صحفى للسفارة المصرية ببيروت بتاريخ ١١ فبراير/شباط ١٩٥٧ ، على الهجوم الخطير الذى تتعرض له مصر فى الحملة الدعائية التى تقوم بها الصحف المعادية لها ، كما أشار التقرير إلى أن هذه الحملة الدعائية، شملت أيضاً مؤتمر الأحزاب الذى يناصر السياسة المصرية ، وكذلك بعض زعماء المعارضة وبشكل خاص صائب سلام وبشارة الخورى وعبد الله الحاج ، وأن جريدة النهار ذكرت فى عددها الصادر فى ١١ فبراير/شباط ١٩٥٧ . أن هناك تمويلاً من دولة تعادى لبنان لتفسد الأمن فيه ، وأن التمويل عرف أنه يبلغ مليوناً ونصف مليون من الليرات^(٢) .

ولا يخفى أن المقصود بهذا الاتهام هو مصر ، ولعل ذلك يلفت النظر إلى أن مسألة توجيه الاتهام للبنان إلى مصر قد مهدت له الصحف اللبنانية .

وعلى أية حال فقد أدى الموقف اللبناى من مبدأ أيزنهاور إلى تزايد دعم ومساندة مصر للمعارضة اللبنانية للتخلص من حكم كميل شمعون ، وقد ساعد على ذلك ولا شك أنه بعد وقوع العدوان الثلاثى على مصر ، ارتفعت شعبية الرئيس عبد الناصر ، وتزايدت نسبة مؤيدى المد القومى العربى فى لبنان والعالم العربى .

السياسة المصرية وتفاقم الأزمة اللبنانية :

منذ أن ابستدأ التفكير عام ١٩٥٧ ، فى تحديد موعد الانتخابات لاختيار أعضاء المجلس النيابى الجديد فى لبنان ، اتضح أن المعركة سوف تكون ضارية ، لأن الجبهتين المتصارعتين ، الموالية والمعارضة ، جعلتا من المعركة قضية حياة أو موت لهما .

(١) عبد الحميد محمد موافى : مصر جامعة الدول العربية ، دراسة فى دور الدولة الأكبر فى التنظيمات الإقليمية ١٩٤٥-١٩٧٠ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٣ ، ص ٢٠٩ .

(٢) وثائق الخارجية المصرية : أرشيف الدول ، محفظة رقم ١ لبنان ، ملف ٢/٨٦/٧٥٣ ج١ . سفارة مصر ببيروت رقم ٣٩ سرى جداً بتاريخ ١٢ فبراير ١٩٥٧ .

فمن جهة ، انتصبت جبهة يتزعمها رئيس الدولة نفسه والحكومة ، تمثل السياسة الغربية وما يكمن فيها من عدااء لمصر ، ومن جهة أخرى قامت المعارضة التي تنادى بإتباع سياسة الصداقة لمصر والحياد وعدم الانحياز تجاه المعسكرين الدوليين .

ولو أن التنافس انحصر حول القضايا السياسية العامة لكان الأمر طبيعياً ولجرت الأحداث جرياً معقولاً رغم احتدام المعركة إلا أن أهدافاً خاصة ظهرت وراء الصراع السياسى وأهم تلك الأهداف رغبة رئيس الجمهورية كميل شمعون في الاستمرار في الحكم ست سنوات جديدة خلافاً لنص الدستور اللبناني الصريح .

ولما كان لا بد لشمعون من تعديل الدستور في سبيل إقرار تجديد ولايته ، صمم على التدخل في الانتخابات لإيصال النواب الذين يضمنون له التعديل ، وإقصاء المرشحين الذين سيقفون بوجه هذه المحاولة^(١) .

وإزاء ذلك ، فقد دعا السفير المصرى ببيروت المسئولين المصريين منذ فترة مبكرة إلى الاستعداد للمعركة الانتخابية في لبنان ، موضحاً خطورتها على مستقبل السياسة الخارجية للبنان ، باعتبار أنها معركة المجلس النيابى والرئاسة في آن واحد ، وطالب السفير بضرورة وضع خطة عاجلة إزاء هذه الانتخابات على أن تنسق - إذا أمكن - مع سوريا والمملكة السعودية ليس من ناحية الاتجاهات والأشخاص فحسب بل من ناحية الأعباء المالية كذلك^(٢) .

وفي تقرير آخر ، ومع اقتراب موعد الانتخابات اللبنانية ، حذر السفير المصرى ببيروت من خطورة الدعاية الغربية والعراقية على المعركة الانتخابية إذ أنها تشتت في لبنان يوماً عن يوم ، وتعتمد على إغداق الأموال إغداقاً يقرب من الخيال ، ولم يقتصر الأمر على شراء صحف موجودة أو إصدار صحف جديدة أو توزيع النشرات وغيرها بكميات هائلة . بل عمدت كذلك إلى إنشاء وكالات جديدة للأبناء ،

(١) جوزف مغيزل : مرجع سابق ، ص ٥٠ .

(٢) وثائق الخارجية المصرية : أرشيف الدول ، محفظة رقم ١١ لبنان ، ملف ١/٧/٢٢٧ ج ١ . من السفير المصرى ببيروت إلى وكيل وزارة الخارجية رقم ٢٠٨ سرى جداً بتاريخ ١٢/١٠/١٩٥٦ .

كوكالة الصحافة اللبنانية التي بدأت في إصدار نشراتها باللغة الإنجليزية علاوة على اللغة العربية.

ويشير السفير إلى أمر هام وهو أن كافة المتصلين به من الزعماء المؤيدين للسياسة المصرية يجتمعون على أنه من المستحيل الاعتماد في المعركة الانتخابية القادمة على المبادئ وحدها ، ويرون ضرورة إقناع الملك سعود بتخصيص مبالغ كافية للدعاية في لبنان ، التي اتخذها الغرب وحلف بغداد مركزاً لدعايته في البلاد العربية ، وأضاف السفير أنه من بين الزعماء الذين تحدثوا معه في هذا الصدد عبد الله اليافي الذي أكد على أنه يخسر شهريا ١٧,٠٠٠ ليرة لبنانية نتيجة إقدامه على إصدار صحيفة السياسة مما أغرقه في دين لا قبل له به^(١) .

وهكذا مع اقتراب موعد الانتخابات النيابية اللبنانية ، تحولت الساحة اللبنانية إلى حلبة للصراع السياسي بين مؤيدي السياسة الغربية وبين مؤيدي القومية العربية وسياسة الحياض ، كما دخلت المعركة السياسية في مرحلة أكثر شراسة ومكاشفة عن ذي قبل ، ويبدو أن أكثر ما كان يؤرق المعارضة اللبنانية في هذه المواجهة . هو نقص الدعم المادي ، الذي بات يهدد قدرتهم على الاستمرار ، وخاصة في ظل الإمكانيات الضخمة للدعاية الغربية في لبنان .

ويلاحظ أن معركة القومية العربية بزعامة مصر ضد الاستعمار الغربي ، كانت تحمّل مصر أعباءً مالية فوق طاقتها سواء على الساحة اللبنانية أو الساحة العربية ، ومن ثم كان لا بد لمصر أن تنسق مع الدول المؤيدة لسياستها من أجل وضع سياسة موحدة لمعالجة المشكلات المتعلقة بالناحية المادية .

ومن ناحية أخرى ، فمن الواضح أن تزايد نفوذ السياسة المصرية داخل المعارضة اللبنانية ، وخاصة نشاط السفير المصري ببيروت ، كان يمثل مصدر قلق شديد للحكومة اللبنانية ، وذلك خوفاً من تدخلها في المعركة الانتخابية لإنجاح المعارضة اللبنانية .

(١) المصدر نفسه : محفظة رقم ٢ لبنان ، ملف ٢/٨١/٧٥٣ جـ ١ . برقية رقم ٤٢ سرى جداً ، من السفير المصري ببيروت إلى وكيل وزارة الخارجية بتاريخ ١٦/٢/١٩٥٧ .

ويؤكد ذلك ما ذكره الرئيس شمعون في لقائه مع السفير المصري ببيروت في ٢٠ فبراير/ شباط ١٩٥٧ ، حيث استفسر عما إذا كانت مصر مصممة على التدخل في معركة الانتخابات اللبنانية ، كما ألح للسفير المصري عن درايته التامة باتصالاته بجميع المعارضين له^(١) .

وإلى جانب ذلك ، بدأت الصحف اللبنانية الموالية لشمعون في شن الهجوم على السفير المصري ببيروت ، كما طالبه شارل مالك وزير خارجية لبنان في لقائه معه في ٢٤ أبريل/ نيسان ١٩٥٧ بأن يجد من اتصالاته برجال المعارضة ، بل وصل الأمر بأنه اقترح عليه الحصول على إجازة لمدة أسبوع أو أسبوعين يقضيها بأحد مصايف لبنان حتى يتعد خلالها ولو لمدة قصيرة عن اتصالاته بالمعارضة^(٢) .

وعلى أية حال ، فقد أجريت الانتخابات النيابية عام ١٩٥٧ في جو من التحدي المتبادل بين أقطاب المعارضة والحكومة ، ولكن كان بوسع الطرف الأخير تسخير بعض قوى الدولة ونفوذها وأجهزتها لخدمة المرشحين المواليين للعهد فضلاً عن تدخل الرئيس شمعون نفسه أحياناً من أجل إقناع بعض المرشحين للانسحاب لمصلحة المرشحين المواليين له^(٣) .

وقد أسفرت نتائج انتخابات عام ١٩٥٧ عن فوز الحكومة بأغلبية الثلثين وسقوط بعض زعماء المعارضة من أمثال "كمال جنبلاط" "عبد الله اليافي" و"صائب سلام" و"أحمد الأسعد" ، فثار اللبنانيون لذلك ، وقاموا بنسف الجسور وخطوط السكك الحديدية وأنابيب المياه ، وقاموا بإطلاق النار على مراكز الشرطة وعكف الدروز على التدريب والتسليح ، وتعددت الحوادث في المدن والمناطق اللبنانية المختلفة حتى نشوب الأزمة الحقيقية في مايو/ آيار ١٩٥٨^(٤) .

(١) المصدر نفسه : ملف ١/٨١/٧٥٣ برقية رقم ٤٦ سرى جداً ، من السفير المصري ببيروت إلى وكيل وزارة الخارجية .

(٢) المصدر نفسه : ملف ٢/٨١/٧٥٣ جـ ١ ، برقية رقم ٩ سرى جداً ، من السفير المصري ببيروت إلى وكيل وزارة الخارجية بتاريخ ١٩٥٧/٤/٢٦ .

(٣) د . عباس أبو صالح : مرجع سابق ، ص ٦٩ .

(٤) د . بدر الدين عباس الخصوصي : القضية اللبنانية في تاريخها الحديث والمعاصر ، ط ١ ، القاهرة ،

ولا شك في أن هزيمة المعارضة اللبنانية في الانتخابات النيابية ، مثلت خسارة كبيرة للسياسة المصرية في لبنان ، ومكسبا قويا للجهة الموالية للغرب بزعامة الرئيس شمعون ، ومع ذلك ظلت السياسة المصرية على دعمها ومساندتها للمعارضة اللبنانية استعداداً للرحلة التالية ، وهي معركة التجديد للرئاسة والتي كان يستعد لها الرئيس شمعون ، وقد شهدت تلك الفترة توتراً شديداً في العلاقات بين مصر ولبنان ، والذي ظهر في الحرب الإعلامية الشرسة التي كانت دائرة بين الطرفين .

وازدادت الأمور تعقيداً بعد ما جاء في خطاب الرئيس عبد الناصر في ٢٣ ديسمبر كانون أول ١٩٥٧ ، من اتهام صريح لبعض المتأمرين من أعوان الاستعمار ، الذين اتخذوا من بيروت مركزاً لتدبير مؤامرة ضد نظام الحكم في مصر ، وإن كانت الحكومة اللبنانية قد أعلنت عن عدم علمها بأمر هذه المؤامرة وأنها كانت تتمنى لو أحيطت علماً بما في حينها حتى تشارك الحكومة المصرية في تتبعها^(١) .

وعلى كل ، فمع أواخر عام ١٩٥٧ ، بدأ الرئيس عبد الناصر أكثر إصراراً عن أي وقت مضى على إسقاط نظام حكم الرئيس شمعون^(٢) .

وفي أوائل عام ١٩٥٨ ، أعلن عن قيام الوحدة بين مصر وسوريا ، وجاء رد الفعل داخل لبنان متبايناً تماماً ، فالرئيس شمعون أحس وقد استظل بمظللة القوة الأمريكية الضخمة بأنه بات في وضع أفضل بكثير يمكنه من مقاومة ضغوط القاهرة ودمشق ودعايتها ، لقد كان ينظر ولا شك بارتياح إلى الوحدة بين مصر وسوريا ، لكنه كان على بينة في ذلك الوقت على الأقل من أنه يستطيع الاعتماد على تأييد الولايات المتحدة إذا ما تعرض لبنان للهجوم^(٣) .

(١) وثائق الخارجية المصرية ، أرشيف الدول ، مخططة رقم ٢ لبنان ، ملف ١/٨١/٧٥٣ . برقية رقم ١٦٠ سرى جداً من القائم بالأعمال بالسفارة المصرية ببيروت إلى وكيل وزارة الخارجية بتاريخ ١٢/٢٧/١٩٥٧ .

(٢) مايلز كوبلاند : لعبة الأمم الأخلاقية في سياسة القوة الأمريكية ، ترجمة مروان خير ، ط ١ ، انترناشونال سنتر ، بيروت ، ١٩٧٠ ، ص ٢٥٩ .

(٣) اتنوفى ناتنج : ناصر ، ترجمة شاكر إبراهيم سعيد ، ط ١ ، دار مكتبة هلال ، بيروت ، ١٩٨٥ ، ص ٢٧١ .

وعلى التقيض من ذلك ، فقد قوبل قيام الوحدة المصرية السورية بموجة عارمة من التأييد في كافة الأوساط القومية العربية ، وهلل لها العروبيون في لبنان ، وكبروا واحتفوا بما أكبر احتفاء .

وفي شهر مارس/ آذار ١٩٥٨ ، أتى الرئيس عبد الناصر ، بعد أن انتخب رئيساً للجمهورية العربية المتحدة ، لزيارة الإقليم الشمالي (سوريا) وقد صحب قدومه وإقامته سلسلة من المهرجانات الصاخبة العاصفة تأييدا وولاء له . ولم يكن لبنان بأقل حماسا من جيرانه تجاه الرئيس عبد الناصر ، فهرعت الألوف المؤلفة من اللبنانيين إلى دمشق تحيي بطل العروبة كما أن رسومه ملأت المخازن والشوارع والطرق في العاصمة والمدن والقرى اللبنانية .

وهكذا فجرّ قيام الجمهورية العربية وقدم رئيسها إلى سوريا المعضلة الداخلية في لبنان تفجيراً مدوياً^(١) .

ففى الثامن والعشرين من مارس/ آذار ١٩٥٨ اجتاحت المظاهرات مدينة (صور) في جنوبي لبنان وجاوبتها مظاهرات أخرى في الأقاليم التي تسودها الطوائف المسلمة ، وذلك حينما حكم بالسجن على خمسة شبان اتهموا بأنهم داسوا العلم اللبناني بالأقدام ليضعوا بدلا منه علم الجمهورية العربية المتحدة ، وصرح وزير التربية والتعليم في الحكومة اللبنانية ، بأن جزءاً كبيراً من مسئولية هذه الأحداث يقع على عاتق كلية محلية يقوم بالتدريس بها عدد كبير من المصريين^(٢) .

ونظراً لخطورة الاضطرابات التي وقعت في مدينة (صور) وتزايد المواجهة بين أنصار التيار القومي العربى وخاصة في المدن التي يقطن أغلبها مسلمون وبين حكومة شمعون الموالية للغرب ، وضعت الإدارة العربية بوزارة خارجية الجمهورية العربية المتحدة مذكرة بهذا الشأن رأت فيها أن تحرك السياسة العربية يمكن أن ينتهج طريقين:

(١) جوزف مغيذل : مرجع سابق ، ص ٥٣ .

(٢) جورج كيرك : السياسة العربية المعاصرة ، ترجمة عبد الواحد الإمبابي محمد الخولى ، سلسلة كتب سياسية ، العدد رقم ٣٣٠ ، الدار القومية للطباعة والنشر ، د . ت ، ص ١٢٨ .

الأول : الضغط على الحكومة اللبنانية باستخدام العناصر الإسلامية عن طريق تبصيرها بحقيقة وضعها ودفعها إلى المطالبة بإجراء تعداد يتم وفقاً لنتيجته إعادة تنسيق جهاز الحكم في لبنان .

الثاني : إغراء المارونيين بالمكاسب التي تعود عليهم من السير في ركاب القافلة العربية وضرر انفصالحهم عنها .

وتختم الإدارة العربية مذكرتها بقولها : "وأياً ما تكون الحال فإن تأييد الجمهورية العربية المتحدة لمعارضى شمعون ومالك تأييداً مادياً وأديباً له ما يبرره من اتجاهات سياستنا الخارجية ، سيما وقد أخذ شمعون يتعاون تعاوناً سافراً مع أعداء الجمهورية العربية المتحدة في العراق والأردن والسعودية حتى باتت بيروت وكرماً للمؤامرات التي تحاك ضدها"^(١) .

ولعل ذلك يشير إلى أن احتدام الحرب العربية الباردة في تلك الفترة ، وخروج المملكة العربية السعودية من فلك مؤيدى سياسة الرئيس عبد الناصر ، قد زاد من إصرار الجمهورية العربية المتحدة على دعم ومساندة المعارضة اللبنانية ، للتخلص من حكم الرئيس شمعون ، وإيجاد نظام حكم في لبنان مؤيد لسياسة الجمهورية العربية المتحدة .

ولا شك أن الأوضاع السياسية في لبنان بعد أحداث مدينة (صور) ازدادت توتراً، وأصبحت لبنان معدة نفسياً لثورة عارمة ضد حكامه ، ولكنها ترقب الأحداث متحفزة ، حتى جاء اغتيال الصحفى المارونى نسيب المتنى فكان الشرارة التي أشعلت الثورة^(٢) .

ففى صباح ٨ مايو/ أيار ١٩٥٨ أطلق مجهول النار على نسيب المتنى صاحب الجريدة البيروتية العربية "التلغراف" ، وكان المتنى قد اشتد في نقده لشمعون وإدارته ،

(١) وثائق الخارجية المصرية : أرشيف الدول ، محفظة رقم ٣ لبنان ، ملف ٤/٨١/٧٥٣ جـ٤ . الإدارة

العربية بوزارة خارجية الجمهورية العربية المتحدة ، سرى جداً ، بتاريخ ١٥/٤/١٩٥٨ .

(٢) محمد فرج : ثورة يوليو ١٩٥٢ وأثرها في التطور السياسى العربى ، بدون ناشر ، ص ٥٨ .

ونادى بتعزيز العلاقات مع الجمهورية العربية المتحدة ، ولقد أدى مقتل المتنى إلى احتدام الموقف المتوتر في لبنان ، إذ أُلقت المعارضة تبعة مقتله على أعوان الحكومة ودعت إلى إضراب عام إلى أن يستقيل شمعون^(١) .

وجدير بالذكر أن الرئيس جمال عبد الناصر بعث ببرقية تعزية إلى أسرة نسيب المتنى أعرب فيها عن أسفه وألمه لمصرعه^(٢) . وكان أمراً ذا مغزى أن يرسل زعيم الحركة التحررية في العالم العربي ببرقية تعزية إلى أسرة نسيب المتنى أثناء وجوده في موسكو ، يعزيهم فيها ، ويؤكد لهم أن المصاب الذى ألمهم قد ألمه أيضا ، بل وآلم كل عربي حر يقدر البطولة الوطنية^(٣) .

ولعل اندلاع الثورة في لبنان بسبب مقتل الصحفي نسيب المتنى الماروني يقطع الطريق على الذين يحاولون أن يضعوا البعد الطائفي وراء الأحداث الدامية في لبنان وعلى رأسهم الرئيس شمعون .

ولقد عمت الاضطرابات مختلف المدن اللبنانية ، واجتاحت المظاهرات الشعبية مدن طرابلس وصيدا والشوف والعديد من الأحياء والمناطق حتى تصدى لها رجال الدرك اللبناني ، فدارت معارك دامية سقط خلالها العشرات من الضحايا ، وتشكلت لجان المقاومة الشعبية ، كما تشكلت قيادة الثورة وظهرت الإذاعات الموجهة وبدأت حملة لجمع التبرعات لشراء الأسلحة^(٤) .

وظلت الثورة تتطور ويطول أمدها يوما بعد يوم ، وحاولت القوى المحايدة تقريب وجهات النظر بين المعارضة والحكومة ، ولكن المعارضة أمام إصرار الحكومة على موقفها قررت رفض أية وساطة لا تحقق مطالبها لأن الحوادث الدامية التى وقعت

(١) د . أحمد عبد الرحيم مصطفى ، أزمة ١٩٥٨ والتدخل الأمريكى ، مرجع سابق ، ص ٦٠٥ .

(٢) الجمهورية : العدد ١٦٠٤ ، السنة الخامسة ، ١٢ مايو ١٩٥٨ .

(٣) محمد عبد المولى الزعبي : لبنان بين التحرير والاستعمار ، منشورات مطبعة الحياة ، دمشق ، ١٩٥٩ ، ص ص ٤١-٤٢ .

(٤) بدر الدين عباس : مرجع سابق ، ص ص ١٢٤-١٢٥ .

لم تعد تسمح بأنصاف الحلول ، وقد أدى ذلك إلى تجميد الوضع بالنسبة للوساطة ، ولكن ظلت الأعمال العسكرية مستمرة بين الفريقين ، وكان السبب الرئيسي الذى وصل بالموقف الداخلى إلى هذه الدرجة يرجع إلى أن المعارضة لا تقبل أى حل لا يقوم على تخلى رئيس الجمهورية عن منصبه ، والوسطاء يقبلون أن يتباحثوا فى أى شىء ما عدا البحث فى تخلى رئيس الجمهورية عن منصبه لأنه رئيس البلاد الشرعى وعلى المعارضة الرجوع إلى الشرعية^(١) .

الاتهام اللبناني ضد الجمهورية العربية المتحدة :

لم تستطع الحكومة اللبنانية السيطرة على الموقف الداخلى بسبب رفض اللواء فؤاد شهاب قائد الجيش اللبناني استخدام الجيش ضد المعارضين ، ولم يستطع شمعون عزل اللواء شهاب بسبب موقف كبار الضباط المؤيد له ، ومع زيادة حدة الاشتباكات وضعف موقف الرئيس شمعون أخبر سفراء كل من الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا فى بيروت فى ١٣ مايو/أيار ١٩٥٨ أن لبنان تتعرض لهجوم خارجى ، واتهم الجمهورية العربية المتحدة بتقديم الدعم لجبهة الاتحاد الوطنى من المال والسلاح عبر الحدود مع سوريا^(٢) .

وفى نفس الوقت عقد شارل مالك وزير خارجية لبنان مؤتمرا صحفيا وجه فيه الاتهام للجمهورية العربية المتحدة بالتدخل فى الشؤون الداخلية للبنان . حيث صرح بأن صحافة وإذاعة الجمهورية العربية المتحدة تروج لحملة مكثفة ضد لبنان وحكومتها، وأن الحوادث الأخيرة وقعت نتيجة الاتصالات مع الحركات السرية والتي بدأت منذ أعوام بهدف تخريب لبنان وتغيير سياستها المستقلة^(٣) .

(١) د . حمدى الطاهرى : سياحة الحكم فى لبنان ، المطبعة العالمية ، القاهرة ، د . ت ، ص ص ٢٣٨-٣٣٩ .

(٢) عبد الحميد موائى : مرجع سابق ، ص ٢١٠ .

(3) Agwani . M . S . : The lebanese Crisis, 1958A Documentary Study (Asia Publishing House London 1965) P59 .

وقد بعثت وزارة الخارجية اللبنانية في ١٤ مايو / آيار بمذكرة احتجاج إلى نظيرتها في الجمهورية العربية المتحدة ، تتهم فيها موظفي سفارتها في بيروت بالتأثير على بعض الفئات المناوئة للسلطات الشرعية للقيام بأعمال الشغب ، كما تتهم رعاياها في سوريا بمساعدة بعض اللبنانيين في القيام بتهريب الأسلحة وتدمير أعمال النسف والتخريب ، ولذا طالبت في مذكرتها بأن تصدر الجمهورية العربية المتحدة أوامرها بوقف جميع الأعمال التي قد تسيء إلى العلاقات الأخوية بين البلدين ، كما طالبت بوقف جميع الهجمات الصحفية والإعلامية الموجهة ضد السلطات الشرعية اللبنانية^(١) .

وقد رفضت وزارة الخارجية قبول هذه المذكرة واعتبرت ما جاء فيها هو محض افتراء وتجنُّ على الجمهورية العربية المتحدة^(٢) .

وجاء رد الرئيس جمال عبد الناصر على الاتهامات اللبنانية من خلال خطابه الذي ألقاه عقب عودته من موسكو في ١٦ مايو/ آيار ١٩٥٨ . فذكر "إن لبنان بلد عزيز علينا ، وإن شعب لبنان عزيز علينا ، وإننا لا نقبل بأي حال من الأحوال أن تسفك الدماء في لبنان ، وحينما حدث خلاف داخل لبنان قام حكامه يتهمون الجمهورية العربية المتحدة بأنها وراء هذا الخلاف ، قالوا هذا وأبلغوا الولايات المتحدة ، وقالوا إن الجمهورية العربية المتحدة هي التي تغذى الثورة في لبنان وتغذى الاضطراب في لبنان ، إنه افتراء وكذب . . إنهم بهذا يريدون أن يحولوا المشكلة الداخلية التي تقع بين أبناء الوطن الواحد إلى مشكلة خارجية ، وأنهم بهذا يختلقون الأعذار ليستغيثوا بدول أجنبية تحت اسم تدخل الجمهورية العربية المتحدة . إننا نحمل استقلال لبنان ، وإذا اعتدى أى فرد عليه ، وإذا اعتدت إسرائيل عليه فإننا سنقوم بالتعاون مع لبنان ومساندة لبنان ، إننا ننظر إلى هذه الافتراءات وننظر إلى هذه المؤامرات ونغض الطرف ولا نرد عليها ، وإذا اهتمنا حكام لبنان فإن شعب لبنان يعرف ما هي الأسباب التي دفعته إلى الثورة"^(٣) .

(١) د . بدر الدين عباس : مرجع سابق ، ص ص ١٢٧-١٢٨ .

(٢) الجمهورية ، العدد ١٦٠٧ ، السنة الخامسة ، ١٥ مايو ١٩٥٨ .

(٣) د . حمدى القاهرى : مرجع سابق ، ص ٣٥٩ ، Agwani : Op . Cit . P . 100 .

ويبدو أن الرئيس عبد الناصر أراد أن يركز في رده على أمرين :
الأول : أن الثورة في لبنان هي مشكلة داخلية بحتة .

الثاني : أن السبب الرئيسي وراء اتهام الجمهورية العربية المتحدة بالتدخل في شئون لبنان هو رغبة الرئيس شمعون في إيجاد المبرر لاستقدام قوات أجنبية لبلاده لحماية نظامه، وهو ما حدث بالفعل فيما بعد .

الشكوى اللبنانية في جامعة الدول العربية :

تقدمت لبنان بشكوى إلى جامعة الدول العربية في ٢٠ مايو/ أيار ١٩٥٨ ، وطالبت بعقد دورة استثنائية لمجلس الجامعة لبحث تدخل الجمهورية العربية المتحدة في شئون لبنان الداخلية ، ونظراً لرغبة لبنان في تصعيد الموقف إلى مستوى أوسع ، وتخوفاً من نفوذ الجمهورية العربية المتحدة في جامعة الدول العربية ، فقد لجأت إلى تقديم شكوى ضد الجمهورية العربية المتحدة إلى مجلس الأمن في اليوم التالي مباشرة ٢٢ مايو/ أيار وقبل أن تتمكن الجامعة من اتخاذ أية خطوات^(١) .

وقبل انعقاد مجلس الجامعة العربية لبحث الشكوى اللبنانية ضد الجمهورية العربية المتحدة ، سلمت الحكومة اللبنانية مذكرة للممثلين العرب ببيروت تتضمن وجهة نظرها حول تدخل الجمهورية العربية المتحدة في شئون لبنان ، وقد أكدت المذكرة على أن جميع عناصر الحوادث المؤسفة التي جرت وتجرى في لبنان ، إنما هي مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بإرادة السلطات القائمة في الجمهورية العربية المتحدة في الاعتداء على استقلال لبنان وسيادته^(٢) .

ويبدو أن لبنان كان يحاول الحصول على دعم عربي لموقفه أثناء عرض شكواه على الجامعة العربية ، وكان يأمل بشكل خاص الحصول على مساندة فعالة من كل من العراق والأردن ، وقد طلبت الحكومة اللبنانية من بريطانيا مساندتها في هذا الأمر^(٣) .

(١) عبد الحميد موافي : مرجع سابق ، ص ٢١١ .

(2) Agwani : Op . CiT . P85 .

(3) Burdett, Anitta (ed) : The Arab League "British Documentary Sources, 1943-1963, Vol . 9, 1958-1960 (Archive ed . 1955) . P . 14 .

وفي ٣١ مايو/ آيار ١٩٥٨ اجتمع مجلس الجامعة العربية في دورة اجتماعه غير العادي بمدينة بنغازي الليبية لبحث الشكوى اللبنانية ، حيث افتتح الجلسة الأولى عبد المجيد الكعبار رئيس الوزراء الليبي ، الذي رحب نيابة عن الملك إدريس بأعضاء الوفود وأعرب عن أمله بأن تحل الأزمات بين الدول العربية عن طريق العرب أنفسهم^(١) .

وفي اليوم التالي للمؤتمر ألقى بشير الأعور رئيس وفد لبنان كلمة استعرض فيها عناصر الإتهام اللبناني سواء فيما يتعلق بالتحريض عن طريق الحملات الدعائية أم التدخل الفعلي عن طريق عملاء الأجهزة الرسمية ، كما حذر من أن لبنان يرجو ألا يجد نفسه مضطرا إلى البحث عن سلامته وسلامة أوضاعه خارج نطاق جامعة الدول العربية .

وفي رده أكد السفير سيد فهمي رئيس وفد الجمهورية العربية المتحدة أن بلاده تحترم استقلال لبنان وتحترم كيانه وسيادته ، وترفض ما ادعته الحكومة اللبنانية بمذكرتها للأمانة العامة لجامعة الدول العربية ، أو ما ورد على لسان رئيس وفدها في المؤتمر من افتراءات لا تقوم على أساس .

وقد هاجم السفير سيد فهمي ما قامت به حكومة لبنان من تقديم شكوى إلى الجامعة العربية ثم قيامها عقب ذلك مباشرة بتقديم شكوى تفصيلية إلى مجلس الأمن ، واعتبر أن ذلك يجعل الجامعة العربية في موضع ثانوي لا ترضاه الدول العربية لها ، كما طالب بإعطاء وفد الجمهورية العربية المتحدة مهلة لدراسة الادعاءات والافتراءات اللبنانية وإعداد الرد عليها ودحضها .

وبالفعل ، تم الاتفاق على إعطاء وفد الجمهورية العربية المتحدة مهلة حتى يوم ٣ يونيو/ حزيران ، ثم دارت مناقشات في المجلس حول اقتراح بتأجيل شكوى لبنان إلى مجلس الأمن ، وقد تم الاتفاق على أن يقوم رئيس المجلس بإبلاغ رئيس الوزراء اللبناني برغبة المجلس في أن يتولى لبنان طلب التأجيل من رئيس مجلس الأمن^(٢) .

(1) Ibid, P . 19 .

(٢) وثائق الخارجية المصرية : أرشيف الدول ، محفظة رقم ٥ لبنان ، ملف ١٣٣٥ سرى جداً ، الأمانة العامة لجامعة الدول العربية ، الإدارة السياسية .

وفي ٣ يونيو/ حزيران عقد المؤتمر جلسته الثالثة ، وقد ألقى رئيس وفد الجمهورية العربية المتحدة بيانا تعرض فيه إلى :

- أن الأحداث الجارية في لبنان أحداث داخلية لا دخل للجمهورية العربية المتحدة فيها .

- تفنيد الادعاءات اللبنانية .

- اتهام الحكومة اللبنانية بأنها : جعلت من أرض لبنان مركزا للمؤامرات ضد الجمهورية العربية المتحدة ومسرحاً للقوميين السوريين وبأنها طردت رعايا الجمهورية العربية المتحدة وقامت تعذيبهم دون مبرر .

وردا على ذلك ، قام إدوارد حنين عضو الوفد اللبناني يدافع عن حكومته ، ثم عرض على المجلس بعض المستندات التي تدعم موقف الحكومة اللبنانية في شكاواها ومنها :

- شرائط مسجلة لإذاعة صوت العرب ، وبسماح المجلس لأحدها لم يتمكن من سماع صوت المذيع أو العبارات التي يقولها ... لماذا ؟

- منشورات من الأحزاب ، ولم يفسر صلة الجمهورية العربية المتحدة بهذه المنشورات .

- بعض الصور لأسلحة ذكر أنها ضبطت عند الحدود ، وليس في الصور ما يفيد بأن السلاح يتبع الجمهورية العربية المتحدة ، أو حتى نوع السلاح .

وعلى أية حال فقد بدأ أعضاء الوفود في المؤتمر يميلون إلى البحث عن قرار لتسوية النزاع^(١) .

(١) وثائق الخارجية المصرية : أرشيف الدول ، محفظة رقم ٥ لبنان ، ملف ١٣٣٥ سرى جداً ، الأمانة

العامة لجامعة الدول العربية ، الإدارة السياسية ، الإدارة العربية بوزارة خارجية الجمهورية العربية المتحدة ، سرى جداً . من وكيل الوزارة المساعد للشئون الشرقية إلى مستشار رئيس الجمهورية بتاريخ

وبالفعل ففي الجلسة الرابعة للمؤتمر التي عقدت في ٤ يونيو/ حزيران عرض رئيس وفد ليبيا مشروعاً تضمن إيقاف حملات الإذاعة والصحف ومنع تسرب الأسلحة ، وعلى الفور أبدى رئيس وفد الجمهورية العربية المتحدة اعتراضه الشديد لوزير خارجية ليبيا ، ورفض قبول هذا القرار ، وأصر على أن يعدل بند الإذاعة والصحافة بالنص على كل ما من شأنه أن يعكس صفو العلاقات بين الدول الأعضاء ، وحذف مسألة منع تسرب الأسلحة .

وقد تم قبول هذه التعديلات ، وتقديم مشروع جاءت أهم قراراته كما يلي :

أولاً : العمل على إيقاف كل ما من شأنه أن يعكس صفو العلاقات بين الدول الأعضاء بمختلف الوسائل .

ثانياً : أن تقوم حكومة جمهورية لبنان بسحب شكواها من مجلس الأمن .

ثالثاً : توجيه نداء إلى مختلف الفئات والأحزاب في لبنان لإيقاف الاضطرابات والقلق والعمل على تسوية الخلافات الداخلية بالطرق الدستورية السليمة .

رابعاً : إيفاد لجنة يعينها مجلس الجامعة العربية من بين أعضائه لتهدئة الخواطر وتحقيق ما قرره المجلس .

وفي نفس اليوم ، وفي الجلسة الخامسة للمؤتمر طلب رئيس وفد لبنان الرجوع إلى حكومته ، كما طلب ذلك أيضاً رئيس وفد الجمهورية العربية المتحدة^(١) .

وفي الجلسة الختامية للمؤتمر التي عقدت في ٦ يونيو/ حزيران ١٩٥٨ ، أعلن فيها وفد لبنان عدم موافقة حكومته على قرارات المؤتمر لأنها جاءت في صيغة توصية أو وساطة ، ولا يقابل هذه التوصية سحب الشكوى من مجلس الأمن ، بل الطبيعي أن

(١) وثائق الخارجية المصرية : أرشيف الدول ، محفظة رقم ٥ لبنان ، ملف ١٣٣٥ سرى جداً ، الأمانة

العامة لجامعة الدول العربية ، الإدارة السياسية ، الإدارة العربية بوزارة خارجية الجمهورية العربية المتحدة ، سرى جداً . من وكيل الوزارة المساعد للشئون الشرقية إلى مستشار رئيس الجمهورية بتاريخ

يعلق السحب على تنفيذ التوصية ، وأيد مندوبا العراق والأردن الموقف اللبناني وسحبا موافقتهما على مشروع القرار واعتبراه كأن لم يكن . وأعلن رئيس الوفد السوداني أنه ما دام القرار يستلزم الإجماع ثم رفض لبنان ، فلا يمكن أن يصدر القرار كما أعرب رئيس الوفد اليمني عن أسفه لموقف لبنان ، وتحدث وزير خارجية ليبيا فأعلن بدوره أسفه لما وصل إليه المجلس .

وفي نهاية الجلسة ألقى رئيس وفد الجمهورية العربية المتحدة كلمة أشار فيها إلى أن حكومة لبنان عندما التجأت إلى جامعة الدول العربية ، لم تكن جادة في ذلك بل هدفها منذ البداية هو مجلس الأمن^(١) .

وهكذا فشلت جامعة الدول العربية في إيجاد حل للخلاف بين لبنان والجمهورية العربية المتحدة ، وفي واقع الأمر لم تكن هذه النتيجة مستغربة ، بل على العكس لم يكن من المتوقع في ظل الخلافات و التوجهات العربية المتباينة ، أن تتمكن الجامعة العربية من الوصول إلى تسوية للموقف تحظى بموافقة كل الأطراف .

فالجمهورية العربية المتحدة كانت ترفض الاتهام اللبناني شكلاً وموضوعاً ، ولم تكن لتقبل أن تدان بأية صورة من الصور داخل الجامعة العربية .

أما لبنان فلم يكن لديها الرغبة الصادقة في حل الخلاف داخل إطار الجامعة العربية ، فالدعم والمؤازرة الغربية للرئيس شمعون جعلته يخطط منذ البداية لتدويل الأزمة من خلال عرضها على مجلس الأمن .

(١) وثائق الخارجية المصرية : أرشيف الدول ، محفظة رقم ٥ لبنان ، ملف ١٣٣٥ سرى جداً ، الأمانة العامة لجامعة الدول العربية ، الإدارة السياسية ، الإدارة العربية بوزارة خارجية الجمهورية العربية المتحدة ، سرى جداً . من وكيل الوزارة المساعد للشئون الشرقية إلى مستشار رئيس الجمهورية بتاريخ

الشكوى اللبنانية في مجلس الأمن :

بعدما فشلت جامعة الدول العربية في وضع حل للأزمة اللبنانية ، اتخذت هذه المسألة بعداً دولياً حين تقدمت الحكومة اللبنانية في ٢٢ مايو/ آيار ١٩٥٨ بشكواها إلى مجلس الأمن ضد الجمهورية العربية المتحدة ، مدعية أن الجمهورية العربية المتحدة وبخاصة إقليمها الشمالي وقتئذ (سوريا) قد تدخلت في الشؤون الداخلية للبنان تدخلا قد يؤدي استمراره إلى تهديد السلام والأمن الدوليين^(١) .

وفي ٦ يونيو/ حزيران ١٩٥٨ ، بدأ مجلس الأمن في مناقشة الشكوى اللبنانية ، وقد وجه شارل مالك وزير خارجية لبنان خطاباً عنيفاً ضد الجمهورية العربية المتحدة، متهما إياها بالتدخل في الشؤون اللبنانية ، وذلك من خلال التزويد الضخم من الأسلحة لمخربين ، وتدريب عناصر التمرد في سوريا ، والحملة العدائية في الصحف والإذاعة ضد لبنان^(٢) .

وفي رده عرض عمر لطفى مندوب الجمهورية العربية المتحدة قضية بلاده ، فنسب إلى حكومة لبنان أنها "تحاول إعطاء صبغة دولية لمسألة داخلية محضة ، وأن تصرف الرأي العام في نفس بلادها وفي العالم أجمع عن الموقف السائد الآن في لبنان" وواصل عمر لطفى كلامه فذكر أن السبب الرئيسي فيما يوجد من المتاعب في لبنان يرجع إلى رغبة "الرئيس شمعون" في تقلد الرياسة مدة ثانية ، ثم نفى التهم الموجهة من المندوب اللبناني إلى الجمهورية العربية المتحدة^(٣) .

(١) د . بطرس بطرس غالي : الاستراتيجية والسياسة الدولية ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٧ ، ص ١٩٦ .

(2) Dawisha, Adhid Isam : The U .A .R and the Arab East, 1958-1963 . A foreign policy Analysis, PH . D . Department of International Relation of the University of London, July 1974 . P .30 .

(٣) ريتشارد ميللر : داج هرشولد دبلوماسية الأزمات، ترجمة عمر الإسكندراني، مؤسسة سجل العرب، القاهرة ، ١٩٦٢ ، ص ص ٢٦٣-٢٦٥ .

وقد انتهت المناقشات في مجلس الأمن بالموافقة على مشروع قرار تقدمت به السويد في ١١ يونيو/ حزيران نص على أن مجلس الأمن ، بعد أن استمع إلى اتهامات مندوب لبنان فيما يتصل بتدخل الجمهورية العربية المتحدة في شئون لبنان الداخلية ، وإلى رد مندوب هذه الحكومة عليه ، يقرر أن يوفد إلى لبنان على وجه السرعة فريقاً من المراقبين للتحقيق من أنه ليس هنالك تسلل غير مشروع للرجال أو الأسلحة أو المواد الأخرى ، عبر الحدود اللبنانية ، ويحول الأمين العام السلطة في اتخاذ الخطوات الضرورية لتحقيق ذلك ، ويطلب من فريق المراقبين إبلاغ المعلومات إلى مجلس الأمن أولاً بأول عن طريق الأمين العام^(١) .

ومن جانبه قام همرشولد الأمين العام للأمم المتحدة بزيارة للشرق الأوسط زار فيها لبنان في ١٧ يونيو/ حزيران والتقى خلالها بالرئيس شمعون ، وبعد يومين من ذلك غادر لبنان ، قاصداً زيارة الأردن وإسرائيل ومصر .

وعند مقابله للرئيس جمال عبد الناصر قضى في المداولة معه أربع ساعات ، ومن الواضح أن الزعيم المصري قبل القيام "بجسن وساطته" لدى زعماء المعارضة في لبنان ولكن بشرط ألا تعتبر الجمهورية العربية المتحدة طرفاً في النزاع القائم في البلاد ، وأعرب الرئيس عبد الناصر أيضاً عن رغبته في ألا تتخذ الحكومة اللبنانية إجراءات انتقامية ضد المعارضة اللبنانية^(٢) .

وكانت المصادر الرسمية اللبنانية غير متفائلة من جهة النتائج العملية التي ينتظر أن تسفر عنها مهمة "همرشولد" فقد كان في أملهم أن يكون في إمكانه إقناع الرئيس عبد الناصر حتى يتخذ بعض الخطوات الاسترضائية ، الأمر الذي على ما يظهر ، لم يتم تحقيقه ، ومن جهة أخرى لم يظفر الأمين العام بنجاح قاطع في محادثاته مع الزعماء اللبنانيين إذ كان المظنون أنه سوف يقوم برحلة أخرى إلى القاهرة لو كانت محادثته في بيروت تدعو إلى التفاؤل^(٣) .

(١) أمين سعيد : مرجع سابق ، ص ١٩٦ .

(*) ستعرض لشروط الرئيس عبد الناصر لوساطته لحل الأزمة اللبنانية عند الحديث عن الاتصالات المصرية الأمريكية لحل الأزمة اللبنانية .

(٢) ريتشارد ميلر : مرجع سابق ، ص ٢٧٢-٢٧٣ .

وفي نهاية شهر يونيه/ حزيران ١٩٥٨ وصلت إلى لبنان هيئة مراقبين تتكون من نحو ٥٤ رجلا وشرعت في إجراء التحقيقات وكتبت ثلاثة تقارير تؤكد جميعا عدم وجود تسلل جماعي ورغم ذلك فقد ظلت الحكومة اللبنانية غير راضية عن أعمال هيئة المراقبة ، فاحتجت تارة بأن المعارضة تسيطر على الحدود وأن الحكومة لا تشرف إلا على ١٨ كيلومترا من مجموع الحدود المشتركة مع سوريا والبالغ طولها ٣٢٤ ، وتارة أخرى احتجت بأن أفراد القوة غير كافية وأنها تقوم بالدوريات نهارا فقط وبعد تحديد موعد مسبق للدورية بالاتفاق مع رجال المعارضة الذين يسيطرون على الحدود، يضاف إلى ذلك وعورة المنطقة واحتمال تسلل بحري عن طريق طرابلس ، وحتى عندما تم نزول القوات الأمريكية وارتفع عدد المراقبين الدوليين وأصبحوا يتنقلون بحرية تامة ستنتهي تقاريرهم إلى نفس النتيجة وهي عدم وجود دليل ملموس على تسلل أو تدخل من جانب الجمهورية العربية المتحدة^(١) .

بيد أن خيبة أمل الحكومة اللبنانية في الحصول على قوات دولية للحماية لم يكن آخر خيار لها في طلب المعونة الدولية ، بل كان لديها بدائل أخرى ومنها طلب المساعدة العسكرية بطريقة مباشرة من المعسكر الغربي لا سيما من الولايات المتحدة الأمريكية^(٢) .

الاتصالات المصرية الأمريكية لحل الأزمة اللبنانية :

مع النجاح الجارف لتيار القومية العربية في كافة أنحاء العالم العربي ، والذي أسفر عن قيام الوحدة المصرية السورية عام ١٩٥٨ بدأت تتعالى أصوات داخل الإدارة الأمريكية تنادى بضرورة تقويم سياسة الولايات المتحدة تجاه القومية العربية ، وأن على الولايات المتحدة أن تقنع العرب بأنها ليست ضد القومية العربية ، وذلك عن طريق اتباع سياسة أمريكية أكثر واقعية تجاه الشرق الأدنى^(٣) .

(١) د . صلاح العقاد : المشرق العربي ١٩٤٥ - ١٩٥٨ ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٦٧ ، ص ٢٢٨ .

(٢) د . عباس أبو صالح : مرجع سابق ، ص ١٣١ .

(3) Bonnie F. Saunders: The United States and Arab Nationalism: the Syrian Case 1953-1960 (Westport, Connecticut London 1996) PP.86-87 .

وأخذت الإدارة الأمريكية تظهر من جانبها تفهماً أكثر إيجابية للقومية العربية التي نادى بها الرئيس عبد الناصر ، ولم تعد هذه القومية - في نظر، فريق منها على الأقل - مجرد أداة بيد الشيوعية العالمية تمدد مصالح الغرب في منطقة الشرق الأوسط ، بل رأت فيها عاملاً فعالاً لكبح جماح الشيوعية في العالم العربي ، ولكنها في أى حال لم تكن حسب رأى المسئولين الأمريكيين قوة بناءة لا تتعارض مع استراتيجية الغرب في الشرق الأوسط ، على أن هذا التحول في النظرة الأمريكية لا بد وأنه أسهم ولو إلى حد في فهم الأسباب الداخلية للانتفاضة ضد عهد شمعون ، وفي هذا الإطار صرح مساعد وزير الخارجية الأمريكي أمام لجنة الشؤون الخارجية في مجلس الشيوخ الأمريكي "بأن ما يحدث في لبنان هو نزاع بين فئتين داخل لبنان ، إحداهما تؤمن بقومية عربية متطرفة، وقد أوجع شعورها حملة دعائية عنيفة من إذاعتي دمشق والقاهرة بغية التخلص من نظام شمعون الموالي للغرب وليس وليد تدخل الشيوعية العالمية"^(١) .

ولما كانت الإدارة الأمريكية تدرك تماماً أن مفتاح حل الأزمة اللبنانية بيد زعيم القومية العربية الرئيس عبد الناصر وذلك بسبب قوة تأثيره ونفوذه لدى المعارضة اللبنانية ، فقد سعت إلى إجراء اتصالات معه في محاولة لإيجاد مخرج لهذه الأزمة .

ففى ٢٠ مايو/ آيار ١٩٥٨ التقى هير Hare السفير الأمريكى فى القاهرة بالرئيس عبد الناصر ، ودار حديثهما حول الأزمة اللبنانية ، وقد أنكر عبد الناصر تورط الجمهورية العربية المتحدة فى أحداث لبنان ، كما أبدى تعجبه من إصرار الولايات المتحدة على تأييد الرئيس شمعون على الرغم من أن المعارضة اللبنانية تضم جميع رؤساء الوزراء السابقين فيما عدا سامى الصلح ، وأيضاً رؤساء برلمان سابقين ، والرئيس السابق بشارة الخورى ، والبطريك المارونى وزعماء سياسيين مثل جنبلاط وفرنجية ، وتساءل عبد الناصر هل كل هؤلاء على خطأ وشمعون على حق؟ .

وعلى كل فقد شهد هذا اللقاء تحولاً هاماً فى موقف الرئيس عبد الناصر تجاه الأزمة اللبنانية أثار دهشة السفير الأمريكى ، حيث أبدى عبد الناصر موافقته على التعاون مع

(١) عباس أبو صالح : مرجع سابق ، ص ١٤٣ .

الولايات المتحدة من أجل إيجاد تسوية للموقف في لبنان ، ووضع صيغة تسوية لتحقيق ذلك تتمثل فيما يلي :

- العفو العام عن المعارضة اللبنانية .
- أن يتولى اللواء فؤاد شهاب رئاسة الوزارة نظراً لما يحظى به من احترام وثقة بين المسيحيين والمسلمين .
- أن يتخلى شمعون عن عزمه لتعديل الدستور وأن يكمل مدة رئاسته .
- إجراء انتخابات لبنانية جديدة .

وأشار عبد الناصر إلى أنه يعلم أن المعارضة اللبنانية تصر على استقالة شمعون ، ولكنه يعتقد أن هذا الأمر ستكون له مضاعفاته ، ولذلك لا داعي للإصرار عليه شريطة أن يكون هناك عفو عام له كافة الضمانات .

وقد أبدى عبد الناصر استعداده التام لاستغلال نفوذه لدى زعماء المعارضة اللبنانية للحصول على موافقتهم على أية صيغة يتم الاتفاق عليها .

واعتبر السفير الأمريكي بالقاهرة موقف عبد الناصر الجديد تجاه تسوية الأزمة اللبنانية بمثابة الفرصة التي يجب استغلالها⁽¹⁾ .

ويبدو أن عبد الناصر بعد أن شعر بجدية الولايات المتحدة في الوفاء بالتزاماتها تجاه لبنان وذلك تطبيقاً لمبدأ أيزنهاور ، وأنها في نفس الوقت تسعى في ظل سياستها الجديدة لتحسين علاقتها مع الجمهورية العربية المتحدة فإنه أراد أن يتجنب تصعيد المواجهة معها ، كما لا يخفى أن مقترحات عبد الناصر تحقق مطالب المعارضة اللبنانية وتقدم حلاً دستورياً للأزمة .

ومن الواضح أن موقف الرئيس عبد الناصر قد شجع الإدارة الأمريكية على التعاون معه لإنهاء الأزمة اللبنانية ، وخاصة بعد أن ألقى سامي الصلح رئيس الوزراء اللبناني

(1) Foreign Relations of U.S. (FRUS) 1958-1960, Vol. XI. PP. 67-70.

Telegram From the Embassy in Egypt to the Department of state. Cairo,

May 20 . 1958.

بياناتاً في ٢٧ مايو/ أيار عبر راديو بيروت أعلن فيه أن حكومة شمعون لن تقوم بإدخال أية تعديلات على الدستور للسماح بإعادة انتخاب الرئيس لفترة ولاية ثانية على التوالي .

وبالفعل فقد صدرت التعليمات من وزارة الخارجية الأمريكية لسفيرها في القاهرة لمفتحة الرئيس عبد الناصر في مسألة تسوية الأزمة اللبنانية ، وقد حددت الخارجية الأمريكية بعض المطالب التي ترغب أن يستخدم عبد الناصر نفوذه لدى المعارضة اللبنانية لتحقيقها :

- ثنى عزم المعارضة عن مواصلة المطالبة باستقالة الرئيس شمعون قبل انقضاء مدة رئاسته .

- اتخاذ خطوات فورية لإقناع المعارضة اللبنانية باتخاذ خطوة مماثلة للخطوة التي اتخذتها الحكومة اللبنانية .

وأما فيما يتعلق بمسألة العفو العام عن المعارضة اللبنانية التي طرحها الرئيس عبد الناصر كشرط أساسي لإيجاد تسوية للأزمة اللبنانية ، فقد اعتبرت الخارجية الأمريكية أن مسألة عدم التجديد لشمعون لفترة رئاسية أخرى يقلل كثيراً من المخاوف المرتبطة بالانتقام المحتمل من جانب شمعون تجاه المعارضة .

أما بخصوص تعيين اللواء فؤاد شهاب في منصب رئيس الوزراء فقد أبدت الخارجية الأمريكية عدم معارضتها شريطة أن يبدى شهاب رغبته في ذلك^(١) .

ويلاحظ من ذلك أن مقترحات الرئيس عبد الناصر لحل الأزمة اللبنانية لم تلق قبولاً لدى الإدارة الأمريكية ، ولكنها لم تتخل عن فكرة إمكانية استغلال نفوذ عبد الناصر لدى المعارضة اللبنانية لجعلها تتراجع عن مسألة الإصرار على استقالة الرئيس شمعون .

وقد أصيب الرئيس عبد الناصر بخيبة أمل بسبب عدم استجابة الإدارة الأمريكية لمقترحاته ، وقد أبدى غضبه لذلك في لقائه مع السفير الأمريكي بالقاهرة في ٣٠ مايو/

(1) Ibid: PP. 76-77. Telegram From the Department of state to the Embassy in Egypt . Washington . May 27 . 1958 .

آيار ، وقد رفض عبد الناصر رفضا باتا اتخاذ أية خطوات نحو تسوية الموقف في لبنان أو إقناع المعارضة اللبنانية بالتخلي عن المطالبة باستقالة شمعون إلا بمشاركة الولايات المتحدة معه من خلال موافقتها على تقديم أى ضمان لازم لتأمين المعارضة .

وقد علل عبد الناصر ذلك بأنه يخشى أن يحث المعارضة على المصالحة ثم يقوم الرئيس شمعون بشن حملة اضطهاد ضدهم خلال المدة المتبقية من فترة رئاسته^(١) .

وأمام إصرار الرئيس عبد الناصر على مشاركة الولايات المتحدة معه في أى جهود تبذل لحل الأزمة اللبنانية ، وأيضا حرص الإدارة الأمريكية على عدم التفريط في فرصة استغلال نفوذه لدى المعارضة اللبنانية ، وخاصة على ضوء اعتراف الجمهورية العربية المتحدة بقدرتها على تسوية المسألة في غضون ٢٤ ساعة ، كان لابد وأن تستجيب الإدارة الأمريكية لرغبات عبد الناصر .

وبالفعل فقد عرضت الإدارة الأمريكية على عبد الناصر استعدادها لنقل مقترحاته الخاصة بتسوية الأزمة للرئيس شمعون ، كما أكدت من جانبها أنه في حالة قبول شمعون لفكرة العفو العام عن المعارضة ، فإنه إذا ثبت في وقت لاحق عدم التزام الحكومة اللبنانية بذلك فإن الحكومة الأمريكية سوف تكون على استعداد لاستغلال نفوذها في لبنان ضد هذا العمل من جانب الحكومة اللبنانية^(٢) .

وأراد الرئيس عبد الناصر أن يطمئن الولايات المتحدة على صدق نواياه تجاه الموقف في لبنان حيث صرح للسفير الأمريكي بالقاهرة بأنه لا يسعى إلى ضم لبنان إلى الجمهورية العربية المتحدة لاعتقاده بخطأ ذلك ، كما أنه لا يريد حكومة في لبنان تابعة للجمهورية العربية المتحدة ، وكل ما يريده هو حكومة غير معادية له^(٣) .

(1) Ibid: PP. 84-85. Telegram From the Embassy in Egypt to the Department of State . Cairo, May 31. 1958.

(2) Ibid :PP. 91-93: Telegram From the Department of State to the Embassy in Egypt. Washington. June5. 1958.

(3) Ibid: PP. 101-103. Telegram from the Embassy in Egypt to the Department of State. Cairo. June 7. 1958.

وفي ١١ يونيو/حزيران ١٩٥٨ بعثت وزارة الخارجية الأمريكية برسالة إلى سفيرها ببيروت كلفته فيها بالقيام وفي سرية تامة بإبلاغ الرئيس شمعون بالمقترحات التي جاءت في صيغة التسوية التي اقترحها الرئيس عبد الناصر لإيجاد حل للأزمة اللبنانية . وأكدت الخارجية الأمريكية في رسالتها أن شمعون يجب أن يعلم أن الإدارة الأمريكية تقوم بمذه الخطوة بدافع الوفاء بتعهداتها تجاه لبنان وليس لأنها توافق على هذه المقترحات ، فالقرار النهائي متروك للحكومة اللبنانية وأياما كان القرار الذي سيتم اتخاذه فيجب التأكيد على التزام الحكومة الأمريكية بتعهداتها السابقة .

ومع ذلك فقد أشارت الخارجية الأمريكية إلى الصعوبات الخطيرة التي ستواجه مسألة إدخال قوات أجنبية في لبنان ، ومن ثم فإنها ما زالت تأمل في إمكانية الحفاظ على استقلال لبنان دون اللجوء إلى هذا الخيار الأخير^(١) .

ويدل ذلك على أن الولايات المتحدة كانت ترغب في الوصول إلى حل للأزمة اللبنانية بشكل سلمي يجنبها التدخل العسكري في لبنان ، والتي تدرك خطورته وانعكاساته على مصالحها في منطقة الشرق الأوسط ، ولكن لا يعني أبداً تخليها عن أهم حلفائها في المنطقة وهو كميل شمعون .

وربما أرادت الولايات المتحدة أن تضغط بشكل غير مباشر على الرئيس شمعون وهي تعرض عليه مقترحات الرئيس عبد الناصر لحل الأزمة اللبنانية حتى يتعامل معها وهو يدرك الصعوبات التي تواجه الخيار العسكري كحل للأزمة اللبنانية .

ومع ذلك فقد رفض الرئيس شمعون مقترحات الرئيس عبد الناصر ، إذ اعتبر أن موافقته عليها تعني تزايد قوة قوى المعارضة ، وتعطى الفرصة لعبد الناصر لفرض سيطرته عليه ، وقد قامت الخارجية الأمريكية بإبلاغ الرئيس عبد الناصر بنتائج المباحثات التي دارت مع الرئيس شمعون حول مقترحاته .

ففيما يتعلق بمسألة العفو العام عن زعماء المعارضة اللبنانية ، فإنه إذا تم بشكل فوري وقف العنف الموجه ضد الحكومة اللبنانية وإعادة النظام ، فإن الحكومة اللبنانية

(1) Ibid: PP 108-109. Telegram from the Department of State to the Embassy in Lebanon, Washington. June 11. 1958 .

لن تتخذ إجراءات عقابية ضد زعماء المعارضة ، وسوف تكون الحكومة الأمريكية على استعداد كبير للنصح بذلك .

أما الاقتراح الخاص بتعيين اللواء فؤاد شهاب رئيساً للوزراء فقد أشارت الخارجية الأمريكية بأنه لن يكون من المناسب لأية حكومة أجنبية أن تضغط على الحكومة اللبنانية بشأن فرد بعينه لتوليته منصباً عاماً ، وأن القرار في هذه المسألة متروك للحكومة اللبنانية وحدها^(١) .

ويتضح من ذلك أن الاتصالات المصرية الأمريكية التي جرت خلال شهري مايو/ آيار ويونيو/ حزيران ١٩٥٨ لم تنجح في إيجاد مخرج للموقف المتدهور في لبنان ، وذلك بسبب رفض الرئيس شمعون لمقترحات الرئيس عبد الناصر ، وبات واضحاً أن شمعون ما زال مصراً على أن يتجه بالأزمة اللبنانية نحو التدخل الأجنبي وهو ما حدث بالفعل .

الجمهورية العربية المتحدة والتدخل الأمريكي في لبنان :

عقب قيام الثورة العراقية في ١٤ يوليو/ تموز ١٩٥٨ شملت مظاهر الفرح مناطق المعارضة في لبنان ، ورددوا أن مصير شمعون سيكون مماثلاً لمصير نوري السعيد ، وطالب شمعون بتدخل سريع ورأت الولايات المتحدة أنه في حالة عدم وفائها بالتزاماتها إزاء لبنان طبقاً لمبدأ أيزنهاور ، فلن تشعر أية دولة حليفة للولايات المتحدة في المنطقة بالأمن ، وستفقد الأمل في مساعدة الولايات المتحدة لها عند الضرورة ، ولذلك فإنه في الساعة الثالثة بعد ظهر يوم ١٥ يوليو/ تموز ١٩٥٨ نزل مشاة الأسطول الأمريكي بجوار بيروت وتناحرت قوات أخرى ، كما انتشرت كل قطع الأسطول السادس الأمريكي في شرق البحر المتوسط في المنطقة بين لبنان وقبرص^(٢) .

(1) Ibid: PP. 111-112. Telegram from the Department of State to the Embassy in Lebanon, Washington, June 12, 1958.

(٢) د . محمود صالح منسى : الشرق العربي المعاصر ، القسم الأول "الهلال الخصيب" ، القاهرة ،

ورغم أن التدخل العسكري الأمريكي هذا أثار موجة من الاستنكار الشديد إعلامياً على صعيد الجبهة المعارضة الداخلية وشجبا واستنكاراً شديداً من قبل الجمهورية العربية المتحدة فضلاً عن الدول المؤيدة لسياسة عبد الناصر ، فقد لقي التدخل الأمريكي ترحيباً من دول حلف بغداد^(١) .

ومن جانبه احتج الرئيس عبد الناصر على احتلال الولايات المتحدة للبنان وكان في يوغوسلافيا حينذاك فقال : "إن احتلال القوات الأمريكية للبنان يشكل خطراً على سلام الشرق الأوسط ، واعتداءً خطيراً على ميثاق الأمم المتحدة ، وتهديداً سافراً للدول العربية التي رفضت أن تخضع للاستعمار وصممت على اتباع سياسة مستقلة . . إن إقدام أمريكا على هذا العدوان الخطير تحت عذر مختلق نسب إلى الجمهورية العربية المتحدة وتولت الأمم المتحدة تكذيبه رسمياً بواسطة التقرير الأول لهيئة المراقبين التي كلفها مجلس الأمن بتحري الموقف في لبنان ، إنما يفضح النوايا الأمريكية تجاه الشعوب العربية المستقلة ومحاولاتها لإخضاعها والسيطرة عليها"^(٢) .

وطار الرئيس عبد الناصر إلى موسكو للتباحث مع خروشوف ، وكان هدفه هو الحصول على تأكيد من موسكو بالمساعدة ضد امتداد التدخل الغربي إلى دمشق وبغداد، وإن يكن في نفس الوقت بهدف التأكد من أن الروس هم الآخرون لن يدخلوا أو يقوموا بإجراء من شأنه أن يوفر حجة التدخل الغربي ، أو يحولوا الشرق الأوسط إلى ميدان قتال نووي^(٣) .

وكانت الولايات المتحدة تعلم برحلة عبد الناصر الخاصة إلى موسكو فسلمت في اليوم السابق للرحلة الموافق ١٧ يوليو/ تموز مذكرة لوزير خارجية الجمهورية العربية المتحدة تقول : "إن أي هجوم على قوات الولايات المتحدة تقوم به الوحدات العسكرية للجمهورية العربية المتحدة أو أية وحدات تسيطر عليها الجمهورية العربية

(١) د . عباس أبو صالح : مرجع سابق ، ص ١٥٦ .

(٢) أمين سعيد : مرجع سابق ، ص ص ٢١٨-٢١٩ .

(٣) د . أحمد عبد الرحيم مصطفى: الولايات المتحدة والمشرق العربي ، مرجع سابق، ص ص ٨٠-٨١ .

سينطوى على نتائج من شأنها أن تحدث ضرراً بالغاً بالعلاقات بين بلدينا" . وكانت وزارة الخارجية الأمريكية تعتقد أن مثل هذه المذكرة ستجعل عبد الناصر يتروى ملياً قبل أن يقدم على التدخل أو يوجه نداءً يطلب فيه متطوعين^(١) .

وعلى الرغم من إقدام الولايات المتحدة على هذه الخطوة العسكرية إلا أنه قد رافقها تحرك نشط للدبلوماسية الأمريكية لتبرير التدخل العسكري والاستفادة منه لإيجاد حل سياسى للأزمة اللبنانية يتوافق مع مجمل مصالحها الاستراتيجية في المنطقة ولا سيما المحافظة على سيطرة الغرب المطلقة على منابع النفط في منطقة الخليج^(٢) .

وقد تمثل التحرك الدبلوماسى فى بعثة روبرت مورفى Murphy, Robert المبعوث الشخصى للرئيس أيزنهاور الذى وصل مع نزول القوات البحرية الأمريكية إلى بيروت ليقوم بمهمة تقريب وجهات النظر بين الفريقين المتنازعين ، حيث صرح عقب وصوله بأن الهدف من حضوره هو الوصول إلى حل ترضى عنه جميع الفئات اللبنانية ، وأنه لم يأت لیساعد فريقاً ضد فريق آخر ولا ليفرض مرشحاً معيناً للرئاسة بل ليسهم فى تسوية القضية وإيجاد اتفاق إجماعى على رئيس جديد للجمهورية ترضى عنه جميع الفئات اللبنانية^(٣) .

وقد بدأ مورفى جس النبض فى مختلف الأوساط حتى يتفق الموالون للحكومة والمعارضون لها على ترشيح شخصية يختارونها لرئاسة الجمهورية ، وقد نجح فعلاً فى تأمين الإجماع بالنسبة للواء فؤاد شهاب قائد الجيش ، وكان من المقرر عقد جلسة لمجلس النواب لانتخاب رئيس الجمهورية يوم ٢٤ يوليو/ تموز إلا أنه فى ذلك التاريخ لم يكن مورفى قد وصل إلى نتيجة يضمن بها الإجماع على تأييد مرشح واحد ، فأجلت الجلسة إلى ٣١ يوليو/ تموز^(٤) .

(1) Middle East journal, Vol. 12, 1985, No. 4. P. 445.

(٢) د . عباس أبو صالح : مرجع سابق ، ص ١٦٠ .

(٣) د . حمدى الطاهرى : مرجع سابق ، ص ٣٥٥ .

(٤) المرجع نفسه : ص ص ٣٥٦-٣٥٧ .

وبالفعل فقد عقد مجلس النواب اللبناني جلسته في ٣١ يوليو/ تموز ١٩٥٨ لانتخاب رئيس الجمهورية اللبنانية ، وقد حضر الجلسة ٥٦ نائبا ، ولدى افتتاح الجلسة تليت مواد الدستور اللبناني المتعلقة بانتخاب رئيس الجمهورية ، ثم أجريت عملية الاقتراع التي أسفرت عن فوز اللواء فؤاد شهاب بالترئاسة حيث نال ٤٨ صوتا وريمون إدة ٧ أصوات ، وعندئذ أعلن عادل عسيران رئيس مجلس النواب اللواء فؤاد شهاب رئيسا للجمهورية اللبنانية وألقى كلمة تهنئة متمنيا للرئيس الجديد التوفيق في النهوض بمهام الحكم^(١) .

ولقد كان مفهوما منذ اللحظة التي تم فيها انتخاب اللواء فؤاد شهاب رئيسا للجمهورية أنه دعي للاضطلاع بمهمة شاقة هي تصفية تلك التركة المثقلة التي خلفتها الأزمة اللبنانية منذ نشوبها في مطلع شهر مايو/ أيار ١٩٥٨ ، ولعل مما زاد المشاكل تعقيدا أمام اللواء شهاب عدم تمكنه من تولى سلطاته الدستورية فور انتخابه نظراً لإصرار سلطة كميل شمعون على البقاء في الحكم لاستكمال المدة الباقية من ولايته حتى ٢٣ سبتمبر/ أيلول ١٩٥٨^(٢) .

وعندما سئل دالاس Dulles وزير الخارجية الأمريكية عما إذا كان انتخاب اللواء شهاب رئيسا لجمهورية لبنان يسهل سحب القوات الأمريكية أجاب بأنه لا يستطيع الإجابة على ذلك إذ أن سحب القوات يتوقف على موقف الحكومة الجديدة وعلى ما ستفعله الأمم المتحدة وعلى عدة عوامل أخرى^(٣) .

وعلى الصعيد الدولي اجتمع مجلس الأمن الدولي بعد نزول القوات الأمريكية في بيروت لمناقشة الأزمة اللبنانية .

(١) وثائق الخارجية المصرية : أرشيف الدول ، محفظة رقم ٤ لبنان ، ملف ٢/٨١/٧٥٣ جـ ٤ . سفارة الجمهورية العربية المتحدة بيروت ، بتاريخ ١٩٥٨/٨/١ .

(٢) المصدر نفسه : محفظة رقم ٧ لبنان ، ملف ٥/٤٤٠/١٠٣٧ جـ ٤ . سفارة الجمهورية العربية المتحدة بيروت ، برقية رقم ١٣٩ سرى جداً بتاريخ ١٩٥٨/٨/١٤ .

(٣) المصدر نفسه : محفظة رقم ١ "الشرق الأوسط" ، ملف ٥/٣٠٠/١٠٣٧ ، مذكرة من سفير الجمهورية العربية المتحدة بواشنطن إلى وكيل وزارة الخارجية ، بتاريخ ١٩٥٨/٨/١٦ .

ففى جلسة مجلس الأمن بتاريخ ١٨ مايو/ تموز ١٩٥٨ اقترحت الولايات المتحدة إرسال قوات تابعة للأمم المتحدة إلى لبنان لكى تحل محل القوات الأمريكية ، ولم يصدر القرار رغم فوزه بتسعة أصوات بسبب معارضة الاتحاد السوفيتى له ، واقترح الاتحاد السوفيتى سحب القوات الأمريكية من لبنان فوراً ومنع التدخل المسلح فى الشئون الداخلية للدول العربية ، إلا أن مجلس الأمن رفض المشروع بأغلبية ثمانية أصوات .

ومن ثم، سارعت الولايات المتحدة إلى التقدم فى الجلسة نفسها بطلب عقد الجمعية العامة لدورة خاصة عاجلة لبحث شكوى لبنان ضد "تدخل الجمهورية العربية المتحدة" فى شئونها الداخلية مما يعرض السلام والأمن الدولى للخطر .

وقد قامت سفارة الجمهورية العربية المتحدة بواشنطن بإبلاغ وزارة الخارجية الأمريكية عدم ارتياحها لتحريك الحكومة الأمريكية لمشروع قرارها السابق مع ما فيه من اتمام للجمهورية العربية المتحدة بالتدخل فى شئون لبنان الداخلية ، الأمر الذى يتعارض مع الواقع وما تدعيه من رغبة فى تحسين العلاقات مع الجمهورية العربية المتحدة ، فاعتذر المسؤولون الأمريكيون بأن ذلك إجراء شكلى تقضيه قواعد الإجراءات وأن هناك محاولة تبذل لتعديل نص مشروع القرار .

وبالفعل ، عندما عاد مجلس الأمن إلى الانعقاد فى ٧ أغسطس/ آب ١٩٥٨ للنظر فى دعوة الجمعية العامة إلى دورة استثنائية عاجلة لبحث مشاكل الشرق الأوسط ، قبل المندوب الأمريكى إدخال تعديلات على المشروع الأمريكى السابق وتقدم بمشروع جديد حذف منه عبارة "تدخل الجمهورية العربية المتحدة"^(١) .

وفى أثناء عرض المسألة اللبنانية على الجمعية العامة فى ١٣ أغسطس/ آب طالب الدكتور محمود فوزى وزير خارجية الجمهورية العربية ورئيس وفدنا فى الجمعية العامة

(١) المصدر نفسه : ملف ١٠٣٧/١٠٣٠٠/٥ ج ٤ . سفارة الجمهورية العربية المتحدة بواشنطن ، برقية

للأمم المتحدة بضرورة جلاء القوات الأمريكية من لبنان فوراً ، وقال إن بلاده إذ ترحب بإعلان الولايات المتحدة عن نيتها في الانسحاب وبدئه فعلاً ، ولكنها قلقة أشد القلق لعدم إعلان الولايات المتحدة للوقت الذي سيتم فيه الانسحاب^(١) .

وعلى الرغم من التوتر الشديد الذي صاحب المناقشات داخل أروقة الأمم المتحدة حول الأزمة اللبنانية ، فإن مبادرة دبلوماسية جديدة لحل النزاع ، جاءت باسم جامعة الدول العربية ، وقد قام بهذه المبادرة عبد الخالق حسونة الأمين العام للجامعة العربية الذي تمكن من عقد عدة اجتماعات جانبية في مكتب الجامعة العربية الدائم في نيويورك. كما استطاع الأمين العام للجامعة أن يشكل لجنة فرعية لوضع مشروع قرار التسوية العربية للنزاع ، وتكونت هذه اللجنة من وزير الخارجية السوداني محمد محجوب ، ومن ممثلين عن المملكة العربية السعودية والعراق والجمهورية العربية المتحدة^(٢) .

وفي هذه الفترة كان دالاس وزير الخارجية الأمريكية والسفير لودج مندوب الولايات المتحدة قد اجتمعا مراراً بالدكتور محمود فوزى وناشده قبول الاقتراح الذي تقدم به همرشولد في بيانه الافتتاحي والذي طالب فيه الدول العربية أن تعيد النظر في تعهد الجامعة العربية باحترام استقلال بعضها البعض ، كما أكد دالاس للدكتور محمود فوزى أن الولايات المتحدة لا تنوى القيام بمحاولة لقلب حكم الرئيس عبد الناصر . ولكن يجب ألا ينتظر منها مساعدة الجمهورية العربية المتحدة ما لم تسلك القاهرة مسلكاً أكثر مسالمة حيال جيرانها الأضعف منها من الدول العربية^(٣) .

(١) المصدر نفسه : محفظة رقم ١٨٠ "واشنطن" ملف ٣/٨٠/٥ ، سفارة الجمهورية العربية المتحدة

بواشنطن بتاريخ ١٩٥٨/٨/٢٠ .

(٢) د . بطرس بطرس غالي : جامعة الدول العربية وتسوية المنازعات المحلية ، مرجع سابق ، ص ٧٥ .

(٣) ريتشارد ميلر : مرجع سابق ، ص ص ٣٢١ - ٣٢٢ .

وفي ٢٠ أغسطس/آب اجتمع مندوبو الدول العربية بنيويورك ، وشهد الاجتماع الأمين العام لجامعة الدول العربية ، وأسفر الاجتماع عن الموافقة على مشروع قرار للجمعية العامة^(١) .

وفي اليوم التالي قدم محمد محجوب وزير الخارجية السوداني ، باسم جميع الدول العربية ، مشروع القرار إلى الجمعية ، وصدر هذا القرار فعلاً بإجماع الأصوات ، ودعا القرار إلى ضرورة احترام الأحكام الواردة في المادة ٨ من ميثاق الجامعة العربية ، والتي تنص على احترام كل دولة من الدول المشتركة في الجامعة نظام الحكم القائم في دول الجامعة الأخرى وتعتبره حقاً من حقوق تلك الدول وتتعهد بألا تقوم بعمل يرمى إلى تغيير ذلك النظام فيها ، كما طالب القرار الأمين العام للأمم المتحدة أن يقوم في الحال بالتشاور مع الدول المعنية ، وطبقاً لميثاق الأمم المتحدة والمادة الثالثة من ميثاق الجامعة العربية لاتخاذ التدابير العملية التي تساعد على احترام أهداف ومبادئ الميثاق فيما يتعلق بـلبنان في الظروف الحالية وذلك لتسهيل انسحاب القوات الأجنبية منها في موعد مبكر^(٢) .

وهكذا نجحت جامعة الدول العربية فيما فشلت فيه في بداية الأزمة اللبنانية ، وحقيقة الأمر أن هذا النجاح جاء نتيجة لتغير الظروف التي كانت تحيط بالأزمة في بدايتها ، فالوضع في لبنان اختلف تماماً بانتخاب اللواء فؤاد شهاب رئيساً للجمهورية وعودة الهدوء والاستقرار للبلاد ، كما أصبحت الجمهورية العربية المتحدة بزعامة الرئيس عبد الناصر أكثر مرونة واستعداداً للمشاركة في إنهاء الأزمة ، بعد أن زال حكم شععون في لبنان وسبقه حكم نوري السعيد في العراق وهما من زعماء السياسة الموالية للغرب في المنطقة ومن أكبر الخصوم لسياسة عبد الناصر .

(١) وثائق الخارجية المصرية: محفظة رقم ١٨٠ ، ملف ١٨ ، سفارة الجمهورية العربية المتحدة بواشنطن، بتاريخ ١٩٥٨/٨/٢٠ .

(٢) انظر : نص القرار العربي في : وثائق الخارجية المصرية ، محفظة رقم ١ "الشرق الأوسط" ملف رقم ٤٠٣٠٠/١٠٣٧ . سفارة الجمهورية العربية المتحدة بواشنطن بتاريخ ١٩٥٨/٨/٢٩ .

أما الولايات المتحدة التي سارعت عقب الثورة العراقية بإنزال قوات عسكرية في لبنان لحماية مصالحها في المنطقة لم يكن لديها مانع وخاصة في ظل سياستها الجديدة الأكثر تجاوباً مع القومية العربية في سحب قواتها العسكرية وإنهاء الأزمة اللبنانية .

والخلاصة أن تغير الظروف المحلية والإقليمية والدولية ساعد بشكل كبير على نجاح الجهود العربية التي بذلت للوصول إلى حل للأزمة اللبنانية .

وعلى الفور قام هرشولد الأمين العام للأمم المتحدة بجولاته في الدول المعنية تنفيذاً لقرار الجمعية العامة ، ففي القاهرة التقى بالرئيس عبد الناصر في ٤ سبتمبر ١٩٥٨ ، وكان دالاس وزير الخارجية الأمريكية قد طلب منه أن يستخدم نفوذه لدى عبد الناصر لحد من الحرب الدعائية التي يشنها راديو القاهرة ، وبالفعل اقترح هرشولد على عبد الناصر نزع سلاح الإذاعات ، ولكن عبد الناصر رفض هذا الطلب رفضاً صريحاً وعلى الفور ، وأشار إلى أن نزع سلاح الإذاعة يعنى بالنسبة له نزع السلاح بالكامل ، حيث إنه في هذا المجال يجابه الولايات المتحدة التي تملك أعداداً عظيمة من الأسلحة فهي تستطيع أن تقدم المساعدات ، ولديها نشاطاتها السرية ، كما أن لها أصدقاء بين الحكام العرب^(١) .

وكان الاقتراح الثاني الذي حمّله هرشولد من "دالاس" من أجل تأمين الانسحاب الأمريكي ، بتعيين سفير مقيم للأمم المتحدة في دمشق ، فقد ألمح هرشولد للرئيس عبد الناصر بأنه يود أن يكون للأمم المتحدة "وجود" في دمشق ، وفهم الرئيس فوراً ما كان يرمى إليه . وقد رفض عبد الناصر على أساس أن قبول سفير للأمم المتحدة من شأنه أن يخلق سابقة خطيرة جداً لأن ذلك سيعنى أنه سيكون عليه القبول بسفير للأمم المتحدة لحل أية مشكلة قد يواجهها مع الدول الأخرى في المستقبل^(٢) .

وعلى أية حال ، فقد قدم هرشولد تقريره الأول إلى الجمعية العامة في ٣٠ سبتمبر/أيلول عملاً بنص القرار العربي السابق صدوره من الجمعية العامة في ٢١ أغسطس/آب

(١) محمد حسنين هيكل : عبد الناصر والعالم ، دار النهار للنشر ، بيروت ، ١٩٧٢ ، ص ٢٣٣ .

(٢) المرجع نفسه : ص ٢٣٤ .

١٩٥٨ ، وذكر همرشولد أنه قد أبلغ كلاً من لبنان والولايات المتحدة نتيجة مشاوراته في المنطقة واعتزاه الاحتفاظ بفريق المراقبة في لبنان وأنه نتيجة لذلك تدرس الحكومتان في الوقت الحاضر برنامج إتمام انسحاب القوات الأمريكية^(١) .

ومع هدوء الأمور في لبنان ، وخاصة مع تولى اللواء فؤاد شهاب رئاسة الجمهورية في ٢٣ سبتمبر/ أيلول ١٩٥٨ خلفاً لشمعون ، كما تم تشكيل حكومة جديدة في ١٥ أكتوبر/ تشرين الأول ، جاء قرار انسحاب القوات الأمريكية من الأراضي اللبنانية في ٢٥ أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٥٨ .

وفي يوم ١٦ نوفمبر/ تشرين الثاني أبلغت الحكومة اللبنانية مجلس الأمن ، أنها قد استأنفت علاقاتها الودية والأخوية مع الجمهورية العربية المتحدة . وطلبت بالتالي شطب شكواها المؤرخة في ٢٢ مايو/ أيار ١٩٥٨ ضد الجمهورية العربية المتحدة من جدول أعمال مجلس الأمن^(٢) .

خاتمة :

من خلال تتبع موقف الجمهورية العربية المتحدة من الأزمة اللبنانية عام ١٩٥٨ ، يمكن القول : بأن هذه الأزمة كانت نتاج عوامل محلية وإقليمية ودولية ، أثرت ولا شك في تطور مجريات أحداثها وما انتهت إليه من نتائج .

ولقد بينت الدراسة أن الأزمة اللبنانية عام ١٩٥٨ كانت جزءاً من المعركة الكبرى التي خاضتها في تلك الفترة حركة التحرر العربي بقيادة زعيم القومية العربية جمال عبد الناصر ضد السيطرة والهيمنة التي حاول الاستعمار الغربي فرضها على كافة أرجاء الوطن العربي .

(١) وثائق الخارجية المصرية : محفظة رقم ٢ "الشرق الأوسط" ملف ١٠٣٧/١٠٣٠٠/٥ جـ٥ . سفارة الجمهورية العربية المتحدة بواشنطن ، بتاريخ ١٠/٩/١٩٥٨ .

(٢) د . بطرس بطرس غالي : جامعة الدول العربية وتسوية النزاعات المحلية ، مرجع سابق ، ص ص ٧٦-٧٧ .

ومن الحقائق الهامة التي أكدت عليها هذه الدراسة وأبرزتها ، ذلك الدور الكبير الذي لعبته الجمهورية العربية المتحدة في دعم ومساندة المعارضة اللبنانية في معركتها ضد سياسة الرئيس شمعون الموالية للغرب ، وتلك الشعبية الجارفة التي كان يتمتع بها الرئيس عبد الناصر بطل القومية العربية في جميع أنحاء الوطن العربي ، وما كان له من نفوذ وقدرة على تحريك وتوجيه الأحداث في البلدان العربية ، وهو ما جعل الولايات المتحدة تلجأ إليه عندما أرادت أن تصل إلى حل للأزمة اللبنانية .

لقد انتصرت العروبة على أرض لبنان ، فحتى عندما نزلت القوات الأمريكية بما لم تنجح في فرض سيطرتها ، وتغلّبت إرادة الشعوب العربية وأجبرت الولايات المتحدة على الانسحاب .

ولكن ما أشبه الليلة بالبارحة / فمعركة فرض السيطرة والهيمنة الأمريكية على مقدرات العرب وخيراتهم ما زالت مستمرة ، ولكن ما فشلت فيه الولايات المتحدة بالأمس بفضل تماسك وحدة العرب بقيادة الرئيس عبد الناصر ، نجحت فيه اليوم بسبب ما أصاب العرب من تناحر وعجز وتفكك .

وفي ختام هذه الدراسة نود أن نشير إلى : أن لبنان يتعرض في الوقت الحاضر في ظل العريضة الأمريكية الراهنة لنفس الضغوط التي تعرض لها في عام ١٩٥٨ ، فإما أن ينضم للمعسكر الغربي بقيادة الولايات المتحدة ، وإما أن ينضم للمعسكر الإسلامي والعربي (معسكر الإرهاب حسب الرؤية الأمريكية) ، ولكن شتان الفارق بين الموقف العربي في الخمسينيات من القرن العشرين و الموقف العربي في وقتنا الراهن !!! .

المصادر والمراجع

أولاً : الوثائق غير المنشورة

وثائق الخارجية المصرية / أرشيف الدول "لبنان"

- محفظة رقم ١ ، ملف ٢/٨٦/٧٥٣ جـ ١ .
- محفظة رقم ٢ ، ملف ٢/٨١/٧٥٣ جـ ٢ .
- . ١/٨١/٧٥٣
- محفظة رقم ٣ ، ملف ٤/٨١/٧٥٣ جـ ٤ .
- محفظة رقم ٤ ، ملف ٢/٨١/٧٥٣ جـ ٤ .
- محفظة رقم ٥ ، ملف ١٣٣٥ .
- محفظة رقم ٧ ، ملف ٤٤٠/١٠٣٧ / جـ ٤ .
- محفظة رقم ٨ ، ملف ١/٧/٢٢٧ جـ ٤ .
- محفظة رقم ١٠ ، ملف ١/٧/٢٢٧ .
- محفظة رقم ١١ ، ملف ١/٧/٢٢٧ جـ ٤ ، ٦ .

الأرشيف السري الجديد :

- محفظة رقم ١ "الشرق الأوسط" ملف ٥/٣٠٠/١٠٣٧ جـ ٣ ، ٤ .
- محفظة رقم ٢ "الشرق الأوسط" ملف ٥/٣٠٠/١٠٣٧ جـ ٥ .
- محفظ رقم ١٨٠ ، ملف ٣٨٠١٥ ملف ١٨ .

ثانياً : الوثائق المنشورة

- (1) Burdette, Anitta (ed): The Arab League British Documentary Sources, 1943-1963, Vol. 9, 1958-1960. (Archive ed 1955) .
- (2) Foreign Relations of U. S. (FRUS) 1958-1960, Vol. XI. Lebanon and Jordan (U. S. Government Printing Office Washington 1992).

ثالثاً: المراجع العربية

- د . أحمد خليل محمودى : لبنان في جامعة الدول العربية ١٩٤٥-١٩٥٨ ، المركز العربي للأبحاث والتوثيق ، بيروت ، ١٩٩٤ .
- د . أحمد عبد الرحيم مصطفى : أزمة ١٩٥٨ والتدخل الأمريكى في لبنان ، بحث في كتاب الأزمة اللبنانية ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ١٩٧٨ .
- الولايات المتحدة والمشرق العربى ، سلسلة عالم المعرفة ، العدد الرابع ، الكويت ، ١٩٧٨ .
- أمين سعيد : الجمهورية العربية المتحدة ، الجزء الأول ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٩٥٩ .
- أنتون ناتنج : ناصر ، ترجمة شاكر إبراهيم سعيد ، ط ١ ، دار مكتبة هلال ، بيروت ١٩٨٥ .
- باسم الجسر : الصراعات اللبنانية والوفاق (١٩٢٠-١٩٧٥) دار النهار للنشر ، بيروت ، ١٩٨١ .
- د . بدر الدين عباس الخصوصى : القضية اللبنانية في تاريخها الحديث والمعاصر ، ط ١ القاهرة ١٩٧٨ .
- بشارة الخورى : حقائق لبنانية ، الجزء الأول ، منشورات "أوراق لبنانية" بيروت ، د . ت .
- د . بطرس بطرس غالى : الاستراتيجية والسياسة الدولية ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٧ .
- الجامعة العربية وتسوية المنازعات المحلية ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٧٧ .
- جورج كيرك : السياسة العربية المعاصرة ، ترجمة عبد الواحد الإمبابى - محمد الخولى ، سلسلة كتب سياسية ، العدد ٣٣٠ ، الدار القومية للطباعة والنشر ، د . ت .
- جوزيف مغيزل : لبنان والقضية العربية ، منشورات عويدات ، بيروت ، ١٩٥٩ .
- د . حمدى الطاهرى : نظام الحكم في لبنان ، المطبعة العالمية ، القاهرة ، د . ت .
- ريتشارد ميللر : داج همرشولد ودبلوماسية الأزمات ، ترجمة عمر الإسكندراني ، مؤسسة سجل العرب ، القاهرة ، ١٩٦٢ .
- د . صلاح العقاد : تكوين لبنان الحديث ، بحث في كتاب الأزمة اللبنانية ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٧٨ .
- المشرق العربى ١٩٤٥ - ١٩٥٨ ، معهد البحوث و الدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٦٧
- د . عباس أبو صالح : الأزمة اللبنانية عام ١٩٥٨ ، العربية للمنشورات ، بيروت ، ١٩٩٨ .
- عبد الحميد موافى : مصر في جامعة الدول العربية "دراسة في دور الدولة الأكبر في التنظيمات الإقليمية ١٩٤٥ - ١٩٧٠ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٣ .

- د . علي محمد الأغا : الاتجاهات السياسية في لبنان (١٩٢٠-١٩٨٢) ط١ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٩١ .
- فستحي الديب : عبد الناصر وتحرير المشرق العربي ، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام ، القاهرة ، ٢٠٠٠ .
- مايلز كوبلاند : لعبة الأمم "الأخلاقية في سياسة القوة الأمريكية، ترجمة مروان خير، ط١ ، انترناشيونال سنتر ، بيروت ، ١٩٧٠ .
- محمد حسنين هيكل : عبد الناصر والعالم ، دار النهار للنشر ، بيروت ، ١٩٧٢ .
- محمد عبد المولى الزعبي : لبنان بين التحرر والاستعمار ، منشورات مطبعة الحياة ، دمشق ، ١٩٥٩ .
- محمد فرج : ثورة يوليو ١٩٥٢ ، وأثرها في التطور السياسي العربي ، بدون ناشر .
- د . محمود صالح منسى : الشرق العربي المعاصر ، القسم الأول "اللال الخصب" ، القاهرة ١٩٩٥ .

رابعاً : المراجع الأجنبية

- Agwani. M .S.: The Lebanese Crisis, 1958 A Documentary Study (Asia Publishing House London 1965).
- Bonnie F. Saunders: The United States and Arab Nationalism: the Syrian Case 1953-1960 (Westport, Connecticut London 1996).

خامساً : الرسائل الجامعية

- Dawisha, Adhid Isam : The U .A .R and the Arab East, 1958-1963 . A foreign policy Analysis, PH . D . Department of International Relation of the university of London, July 1974 .

سادساً : الدوريات العربية

- الجمهورية

سابعاً : الدوريات الأجنبية

- Middle East Journal .

obseikan.com



موقف المملكة الأردنية
من انفصال الجمهورية العربية المتحدة
١٩٦١

د. عبد الحميد عبد الجليل شلبس
أستاذ مساعد التاريخ الحديث والمعاصر
جامعة الأزهر

oboeikan.com

موقف المملكة الأردنية من انفصال الجمهورية العربية المتحدة ١٩٦١

مداخل

لقد كانت الوحدة المصرية / السورية في عام ١٩٥٨م واحدة من مشروعات الوحدة العربية التي شهدها القرن العشرون ، وقد جاءت هذه الوحدة كنتيجة حتمية للتقارب الذي شهدته السياستان : السورية والمصرية آنذاك ، ومما هو جدير بالذكر ، فإن هذه الوحدة لم تكذب تبتدأ عامها الأول ، إلا وحيكت ضدها المؤامرات ، وخاصة من بعض القوى التي كان يزعمها التوسع في النفوذ المصري ، وحينما ظهرت التجاوزات في دولة الوحدة ، وجدت تلك القوى من يعمل في الداخل على إجهاضها وتقويضها ، حتى جاءت اللحظة التي أعلن فيها الانفصال المصري / السوري ليلة ٢٨ سبتمبر (أيلول) عام ١٩٦١م .

وقد تكونت عدة تنظيمات سرية في الجيش السوري ، كانت تعمل على إنهاء الوحدة ، عدّها البعض بأربعة تنظيمات ، هي : تنظيم حيدر الكزبري ، وتنظيم أكرم ديري ، وتنظيم عبد الله الشيخ عطية ، وأخيرا تنظيم عبد الكريم النحلاوي^(١) .

(١) للتفاصيل عن هذه التنظيمات ، يُنظر : صلاح نصر ، مذكرات صلاح نصر ، ج٢ «الانطلاق» ، (دار الخيال ، القاهرة ، سبتمبر ١٩٩٩م) ، ص ص ١٩١ - ١٩٣ ، ٢٤٥ - ٢٤٦ .

وقد استطاعت جماعة من الضباط القيام بحركة انقلابية ليلة ٢٨ سبتمبر (أيلول) عام ١٩٦١م على رأسهم عبد الكريم النحلاوي ، وحيدر الكزبري ، وعدد من الضباط السوريين^(*) ، وقد دارت بينهم وبين المشير عبد الحكيم عامر عدة اتصالات ومفاوضات للوقوف على مطالب من قاموا بهذه الحركة^(١) ، كما صدر عن الانفصاليين عدة بيانات أو بلاغات وصل عددها إلى خمسة عشر بيانا ، كان أهمها البيان التاسع والذي بدا منه وكأن الأمر قد انتهى ، وأن الأمور قد عادت إلى طبيعتها ، بعد أن اتفق قادة الانقلاب مع عبد الحكيم عامر على إزالة أسباب الانفصال ، ولكن ما لبث أن نُقض هذا البيان بعد أقل من أربع ساعات ، وذلك بعد إذاعة البيان العاشر الذي اعتبر البيان التاسع لاغيا ، وأن القيادة الثورية تعلن للشعب العربي «أنها وضعت يدها على كافة الأمور ، وتعاهد الله على صيانة الأمة والمحافظة على كرامتها»^(٢) .

وقبل أن يحل مساء يوم ٢٨ سبتمبر (أيلول) عام ١٩٦١م أعلن رسميا عن خروج سوريا من الجمهورية العربية المتحدة ، وغادر المشير عبد الحكيم عامر دمشق ، وتم اعتقال عبد الحميد السراج نائب الرئيس ، وتشكيل قيادة من الانفصاليين أطلقوا عليها

(*) للتفاصيل عن أسماء الضباط الذين اشتركوا في الحركة الانفصالية ، وكذلك القيادة العليا التي صدرت عنها بيانات الانفصال ، يُنظر : اللواء أحمد غمّض ، سوريا من الوحدة إلى التصحيح «شهادات ونظرات ١٩٥٨ - ١٩٧٠» ، (منشورات دار التوحيد ، حمص ، سوريا ، ط ١ ، ١٩٩٩م) ، ص ص ٦٢ - ٦٦ ، أسعد الكوراني ، ذكريات وخواطر مما رأيت وسمعت وفعلت ، (رياض الريس للكتاب والنشر ، بيروت ، ط ١ ، فبراير ٢٠٠٠م) ، ص ٣٤٠ ، راشد كيلاني ، مذكرات راشد كيلاني عسكريا ودبلوماسيا ، (منشورات دار مجلة الثقافة ، دمشق ، ١٩٩٠م) ، ص ص ١٧٧ - ١٧٨ .

(١) للتفاصيل عن أحداث هذه الحركة ، يُنظر : أحمد حمروش ، قصة ثورة ٢٣ يوليو ، ج ٣ ، «عبد الناصر والعرب» ، (مكتبة مدبولي ، ط ٢ ، د.ت.) ، ص ص ٨٦ - ٩١ ، صلاح نصر ، مرجع سابق ، ص ص ٢٠١ - ٢٠٣ .

(٢) يُنظر تفاصيل هذه البيانات ، وبيان اللواء عبد الكريم زهر الدين قائد الجيش السوري ، في : تبرير الانفصال ، في : د. يوسف خوري (إعداد) ، مشاريع الوحدة العربية ١٩١٣ - ١٩٨٧م «وثائق» ، (مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ص ١ ، يوليو ١٩٨٨م) ، ص ص ٣٧١ - ٣٧٧ .

اسم « القيادة العربية الثورية العليا للقوات المسلحة »^(١) ، وفور نجاح الحركة الانفصالية أيدها عدد كبير من كبار ساسة سوريا ، وعلى رأسهم الرئيس شكري القوتلي ، وصبري العسلي ، وأكرم الخوراني ، وخالد العظم وغيرهم^(٢) .

ومهما يكن من أمر ، فإن الانفصال كانت له أسبابه التي يتحمل جزءاً منها الجانب المصري ، كما يتحمل الجانب السوري جزءاً آخر ، وإن كان للإجراءات الاقتصادية التي اتخذتها حكومة ج. ع. م. ، فضلاً عن شعور الضباط السوريين بأنهم يعاملون بصورة أدنى من زملائهم المصريين ، وقد أدت إلى حدوث شعور عام وتدمر داخل الجيش والطبقة البرجوازية السورية بضرورة إنهاء هذا الوضع الذي انتقص من نفوذهم ومصالحهم^(٣) .

وفيما يخص موقف الرئيس جمال عبد الناصر من هذه الحركة ، فقد اتجهت النية في البداية إلى ضرورة التصدي لهذه الحركة ، التي تمس الهدف الوحدوي القومي في سياساته ، وبالفعل أمر بتحريك بعض القوات لوأد هذه الحركة ، وحينما تأكد أن الأمر سوف يصل إلى حد سفك الدماء أمر بإلغاء العملية ، وقد وصلت الأوامر إلى الفرقة التي نزلت مطار اللاذقية بالفعل بعدم الاشتباك مع القوات السورية ، وتسليم نفسها لقائد البحرية في ميناء اللاذقية^(٤) ، وما لبث أن اعترف عبد الناصر بالجمهورية السورية في ٥ أكتوبر (تشرين أول) ، حيث أوضح أنه ليس مهماً أن تبقى سوريا

(١) بيير بوداغوسا ، الصراع في سوريا لتدعيم الاستقلال الوطني ١٩٤٥ - ١٩٦٦ م ، ترجمة د. ماجد علاء الدين ، د. أنيس المتني ، (دار المعرفة ، دمشق ، سوريا ، ط ١ ، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٧ م) ، ص ١٦٦ .

(٢) راشد كيلاني ، مرجع سابق ، ص ١٨١ .

(٣) يُنظر أسباب الانفصال ، في : عبد الحميد محمد المواني ، مصر في جامعة الدول العربية « دراسة في

دور الدولة الأكبر في التنظيمات الإقليمية ١٩٤٥ - ١٩٧٠ م » (الهيئة المصرية العامة للكتاب ،

١٩٨٣ م) ، ص ص ٢٠٠ - ٢٠١ ، محمد حسنين هيكل ، سنوات الغليان « حرب الثلاثين سنة » ،

ج ١ ، (مركز الأهرام للترجمة والنشر ، القاهرة ، ط ١ ، ١٩٨٨) ، ص ص ٥٥٥ - ٥٥٧ .

(٤) أحمد حمروش ، مرجع سابق ، ص ٩٣ .

جزءاً من ج. ع. م. ، بقدر ما هو مهم أن تبقى سوريا عربية ، وأن يبقى الشعب العربي هو الحاكم في سوريا^(١) .

وعقب نجاح الانفصال تألفت حكومة انفصالية مؤقتة برئاسة مأمون الكزبري ، وقد أعلنت هذه الحكومة برنامجها السياسي على الصعيدين : الداخلي والخارجي^(٢) ، كما أصدر رئيس الحكومة أربعة مراسيم ، منها النص على تسمية سوريا بـ «الجمهورية العربية السورية» ، ورفع العلم السوري على جميع الدوائر والمؤسسات الرسمية^(٣) ، ولم تدم هذه الحكومة طويلاً ، حيث تألفت وزارة جديدة برئاسة عزت النص ، وقد أجرت هذه الحكومة انتخابات تم بمقتضاها انتخاب ناظم القدسي رئيساً للجمهورية السورية ، وأسندت رئاسة الحكومة إلى معروف الدواليبي^(٤) .

هذا عرض موجز للغاية عن الانفصال وأسبابه ، أما عن الموقف الأردني منه ، فجدير بالذكر أن العلاقات المصرية / الأردنية هي التي وجهت الموقف الأردني ، وقبيل التطرق إلى الموقف الأردني من الانفصال ، يجب الإشارة إلى العلاقات المصرية / الأردنية قبيل وأثناء الوحدة المصرية / السورية .

العلاقات المصرية / الأردنية قبيل وأثناء الوحدة المصرية / السورية

لم تكن العلاقات المصرية / الأردنية جيدة في تلك الفترة ؛ حيث شهدت الفترة التي سبقت الوحدة تدهوراً في العلاقات ، وقد أوضح ذلك سمير الرفاعي وزير خارجية الأردن في لقاء جمعه والسفير البريطاني في عمان ، حيث سأله الأخير عن كيفية تحسين

(١) د. عبد الحميد عبد الجليل شلبي ، العلاقات السياسية بين مصر والعراق ١٩٥١ - ١٩٦٣ م ، الهيئة

المصرية العامة للكتاب ، سلسلة تاريخ المصريين ، العدد رقم ١٩٠ ، (٢٠٠٠ م) ، ص ٣٨٧ .

(٢) يُنظر تشكيل الحكومية وبرنامجها السياسي ، في : أحد غمّيض ، مرجع سابق ، ص ٦٨ - ٦٩ ،

أكرم حوراني ، مذكرات أكرم حوراني ، (مكتبة مدبولي ، القاهرة ، ط ١ ، ٢٠٠٠ م) ، ص ص

٢٩٢٢ - ٢٩٢٣ ، بيزر بوداغوفا ، مرجع سابق ، ص ص ١٦٧ - ١٦٨ .

(٣) أكرم حوراني ، مرجع سابق ، ص ٢٨٢١ .

(٤) هيكل ، مرجع سابق ، ص ٥٧٣ .

العلاقات بين مصر والأردن ، فأجابه الرفاعي أن على مصر أن تجيب على هذا السؤال وليست الأردن ، لأن مصر هي المسئولة عن فساد العلاقة بينهما^(١) .

وعقب قيام الوحدة ازداد التوتر والشك بين الطرفين ، حتى إن السلطات الأردنية وضعت القنصل المصري في عمّان تحت المراقبة ، وقد ذكر سمير الرفاعي للسفير البريطاني ، أن السلطات الأردنية قد تأكد لها بالدليل أن هناك اتصالات بين القنصل المصري وعناصر تخريبية داخل الأردن ، وأن الحكومة قررت طرد القنصل في غضون ثمانية وأربعين ساعة ، وأن الأردن لا تحشى من المعاملة بالمثل لقنصلها في مصر ، لأن القنصلية الأردنية في القاهرة كانت مُعرّضة لكتابة « تقارير بوليسية » من قبل السلطات هناك^(٢) .

وحينما أعلنت الوحدة المصرية / السورية كان موقف المملكة الأردنية مترددا منها، حيث فضّل الملك حسين الانتظار ليرى ماذا ستسفر عنه الأحداث في هذه الوحدة ، على الرغم من أن البعض قد اعتبرها تهديدا مباشرا للمملكة الأردنية التي كانت تشطر دولة الوحدة من الناحية الجغرافية^(٣) ، ولكن سرعان ما انتهى هذا الانتظار ، فبعد أسبوعين من قيام الوحدة رد الأردن بخطوة مضادة بإعلان الاتحاد الهاشمي (العربي) ، الذي جمع بين الأردن والعراق ، والذي اعتبره البعض تحركا هاشميا بالتعاون مع القوى الغربية ضد نفوذ عبد الناصر في دمشق^(٤) .

(١) وثائق الخارجية البريطانية :

- Priestland, Jane (ed): Records of Jordan 1919- 1965, Vol. II, «1958- 1960», (Archive ed. 1996), from Amman to Foreign Office, Confidential, No. 4, Jan 21, 1958, p. 67.

(2) Ibid., British Embassy, Amman to F.O., Secret No. 10322/6/58, Arp 8, 1958, p. 70.

(٣) د. سامي عصاصة ، أسرار الانفصال مصر وسوريا، (مؤسسة دار الشعب للصحافة والطباعة والنشر ،

ط١ ، يناير ١٩٨٩م) ، ص ١٠٣ .

(4) Nevo, Joseph & Ilan, Pappé: Jordan in M.E., «The Making of a Pivotal State 1948- 1988», (Frank Cass, England, 1st ed, 1994), p. 173.

ومما لا شك فيه ، أن قيام ذلك الاتحاد كان موعزا به من قبل الغرب ، وذلك لمواجهة الوحدة المصرية / السورية ، وقد أرجع البعض اندفاع الملك حسين إلى القوى الغربية بعيدا عن النفوذ المصرى إلى السياسة المصرية نفسها ، التي اعتبرها الملك حسين تدخلا في السياسة العربية^(١) ، وقد عمقت الدعاية المصرية ضد الأسرة الهاشمية في الأردن الخلاف بين الدولتين ، ومنها ما جاء في مجلة " آخر ساعة " من أن الأسرة الهاشمية لا تنتمي إلى النبي محمد ﷺ ، مما حدا بالعلماء الأردنيين بقيادة قاضى القضاة إلى عقد مؤتمر صحفى للتنديد بمثل هذه الحملات العدائية ، وطالبوا الشعوب الإسلامية بتجاهلها ، كما طالبوا الملوك والأمراء ورؤساء الدول الإسلامية بالتدخل من أجل إنهاء هذه الحملة^(٢) .

وقد وصل التوتر بين الدولتين إلى ذروته عقب قيام الثورة العراقية في ١٤ يوليو (تموز) عام ١٩٥٨ م ، حيث قُطعت العلاقات الدبلوماسية بين الدولتين في ٢٠ يوليو (تموز) عام ١٩٥٨ م ، وقد جرت بعدها محاولات في ديسمبر (كانون أول) عام ١٩٥٨ م من أجل إعادة العلاقات بينهما ، على أساس أن تضمن ج.ع.م . عدم تدخل سفارتها في عمان في الشؤون الداخلية الأردنية^(٣) .

وقد واجهت الدولتان صعوبات من أجل إعادة العلاقات الدبلوماسية بينهما ، فعلى الرغم من فتح المجال الجوى والبرى بين سوريا والأردن عام ١٩٥٩ م ، فقد بقيت بعض العقبات من وجهة نظر الجانب الأردنى من أجل إعادة العلاقات الطبيعية بين الدولتين ، أهمها أن تقوم ج.ع.م . بإبعاد المعارضين الأردنيين ، أو أن تجعلهم يشعرون أنهم تحت السيطرة ، وتؤكد لهم ضرورة أن يكون سلوكهم متوافقا مع مبادئ اللجوء السياسى^(٤) .

(1) Ibid., p. 173.

(٢) وثائق الخارجية البريطانية :

- Records of Jordan, Vol. 11, from Amman to F.O., May 1, 1958, pp. 71-72.

(3) Ibid., Confidential, from Amman to F.O., Dec 1, 1958, p. 77.

(4) Ibid., Confidential, from Amman to F.O., Jan 24, 1959, p. 387.

وقد جاء التحسن في العلاقات - فيما بعد - نتيجة أو كرد فعل لتوتر العلاقات المصرية / العراقية عام ١٩٥٩ م ، وإن كان هذا التحسن جزءا من سياسة عبد الناصر تجاه الأردن والمملكة السعودية ، ليستعين بهما ضد سياسة عبد الكريم قاسم في العراق^(١) ، ومن أجل استعادة العلاقات الدبلوماسية بين البلدين ، قام الأمين العام للجامعة الدول العربية (عبد الخالق حسونة) بزيارة إلى المملكة الأردنية ، لتقريب وجهات النظر بين الطرفين ، وإيجاد حل للمشاكل القائمة بينهما ، وخاصة مشكلة إغلاق الحدود السورية / الأردنية ، وقد أعد حسونة خمسة اقتراحات من أجل إعادة العلاقات بين الطرفين ، منها :

- ١ - أن أمين عام الجامعة سوف يضمن احترام الجانبين لميثاق الجامعة .
- ٢ - يجب أن يتقابل المسئولون الأردنيون للتباحث معاً، ويجب إعادة فتح الحدود.
- ٣ - يضمن الأمين العام وقف الحملات الهجومية والإذاعية والصحفية من كلا الطرفين .
- ٤ - يجب إعادة العلاقات الدبلوماسية في غضون شهر ، موضحاً أن الخطوات الضرورية يجب أن تؤخذ بهذا الشأن ، مع تهيئة المناخ المناسب لذلك .
- ٥ - يضمن الأمين العام عدم السماح للاجئين السياسيين الأردنيين في مصر بالقيام بأى نشاط من شأنه أن يؤدي إلى تخريب العلاقة بين الدولتين^(٢) .

وقد عادت العلاقات الدبلوماسية بين البلدين في ٢١ أغسطس (آب) عام ١٩٥٩ م، حيث أبلغت الحكومة الأردنية نظيرتها في ج. ع. م. بموافقتها على تعيين السيد فتحى رضوان كسفير لـ ج. ع. م. في الأردن ، ومن جانبها كانت حكومة ج. ع. م. قد أبلغت وكيل وزارة الخارجية الأردنية في ١٦ أغسطس (آب) عام ١٩٥٩ م بموافقتها

(١) مالكولم كير ، عبد الناصر والحرب العربية الباردة ١٩٥٨ - ١٩٧٠ ، ترجمة د. عبد الرؤوف أحمد عمرو ، (الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سلسلة تاريخ المصريين ، العدد ٩٦ ، ١٩٧٧) ، ص ص ٤٩ - ٥٠ .

(٢) للتفاصيل عن مساعي الأمين العام للتقريب بين الدولتين ، يُنظر :

على تعيين السيد محمد شريقي كسفير للأردن في ج. ع. م.^(١) ، وبذلك تكون العلاقات الدبلوماسية قد عادت بين الدولتين ، بعد قطعها في ٢٠ يوليو (تموز) عام ١٩٥٨ م ، عقب اعتراف ج. ع. م. بالثورة العراقية ، مما اعتبره الملك حسين موقفاً عدائياً ، لأنه اعتبر نفسه هو الحاكم الشرعي للعراق ، بعد مقتل فيصل الثاني الذي كان رئيساً للاتحاد الهاشمي .

وعلى الرغم من عودة العلاقات بين الدولتين ، إلا أن الريبة والشك استمرت قائمة بين الحكومتين ، وخاصة عندما ألقى عبد الناصر خطابه في بورسعيد في يناير (كانون ثان) عام ١٩٦٠ م ، الذي هاجم فيه الاتحاد العربي ، حيث صرح بأن ج. ع. م. هي الدولة الديمقراطية العربية الوحيدة ، كما أفسح المصريون المجال للمعارض الأردني (أبو نوار)^(٢) الذي تحدث إلى إذاعة صوت العرب منتقداً السياسة الأردنية ، وعلى وجه الإجمال ، فإن إعادة العلاقات بين الدولتين لم تكن سهلة ، مما جعل السفير البريطاني في عُمان يذكر : « إننا في انتظار إلغاء هذه العلاقات مرة أخرى »^(٣) .

وقد ازداد التوتر بين البلدين باطراد ، إلى أن بلغ ذروته بعد اغتيال رئيس وزراء الأردن (هزاع المجالي) في إبريل (نيسان) عام ١٩٦٠ م ، حيث اتهمت المملكة الأردنية ج. م. ع. بتدبير الحادث ، وقد أدى ذلك إلى إغلاق جميع الطرق التي تصل إلى

(1) Ibid., Confidential, British Embassy, Amman to F.O., Aug 28, 1959, Despatch No. 39, p. 427.

(*) هو علي أبو نوار أحد الضباط الأردنيين ، عُيّن كبيراً للياوران في خريف عام ١٩٥٥ م ، وكانت له ميول قومية ، بعد إقالة حكومة النابلسي في ١٠ إبريل (نيسان) عام ١٩٥٧ م أمر الملك حسين بفصل أبي نوار وإلقاء القبض عليه ، ولكنه فر إلى سوريا والتجأ إلى ج. ع. م. .

جورج أكيرك ، السياسة العربية المعاصرة « ترجمة عبد الواحد الإمبابي ، محمد الخولي » ، (سلسلة كتب سياسية ، الدار القومية للطباعة والنشر ، د. ت.) ، ص ص ١١١ ، ١١٤ .

(2) Ibid., Vol. 12, 1960- 1962, Confidential, from Amman to F. O., No. 2, Jan 5, 1960, pp. 69- 71.

سوريا بالأردن ، ووصل الأمر إلى حد وقوع اشتباكات على الحدود الأردنية / السورية^(١) .

وقد ازدادت حدة الهجمات الإعلامية المتبادلة بين الطرفين ، فكان الملك حسين يهاجم عبد الناصر ويتهمه مباشرة بأنه قاتل هزاع المجالي ، كما وصفه بعدة صفات منها: « أنه عميل شيوعي ، ورجل مجنون ، وديكتاتور » ... إلخ^(٢) ، ومن جانبه ألقى عبد الناصر خطابا في دمشق في أكتوبر (تشرين أول) عام ١٩٦٠م هاجم فيه المملكة الأردنية ، واصفا إياها بأنها السبب في قيام دولة إسرائيل ، وأنها دولة تابعة للاستعمار^(٣) ، وفي ٢٣ ديسمبر (كانون أول) عام ١٩٦٠م ألقى خطابا آخر في بورسعيد ، تمكّم فيه على الملك حسين والاتحاد العربي ، بحجة أن هناك من كان يوعز إلى حسين بالذهاب إلى سوريا لتخليصها من الحكم المصري^(٤) ، كما قامت الصحف والإذاعة المصرية بحملات إعلامية هاجمت فيها الملك حسين والمملكة الأردنية ، ودعت في بعضها الشعب الأردني إلى الإطاحة بالملك حسين ونظامه ، وقد آتت هذه السياسة المصرية ثمارها ، حيث نجحت في إحداث بعض الاضطرابات في الأردن^(٥) .

ومع تصاعد حدة التوتر بين الدولتين حدثت انفراجة في العلاقات بينهما مع بداية عام ١٩٦١م ، وخاصة بعد اجتماع وزراء خارجية دول الجامعة العربية في الفترة من ٣٠ يناير (كانون ثان) إلى ٤ فبراير (شباط) عام ١٩٦١م في بغداد ، حيث أدرك

(١) أكرم حوراني ، مذكرات أكرم حوراني ، جـ ٤ ، ص ٢٨٧٥ .

(٢) صلاح نصر ، مذكرات ، جـ ٢ ، ص ٣٠٥ .

(3) Ibid., From Cairo to F.O., No. 209, Mar 8, 1960, pp. 80- 81.

(٤) وزارة الإرشاد القومي ، مصلحة الاستعلامات ، مجموعة خطب وتصريحات وبيانات الرئيس جمال عبد الناصر ، (القسم الثالث ، فبراير ١٩٦٠م - يناير ١٩٦٢م) ، ص ٣٣٤ .

(٥) للتفاصيل عن الدعاية بين الدولتين ، يُنظر :

- Adhid, Islam Dawisha: The U.A.R. and the Arab East 1958- 1963, A Foreign Policy Analysis, «ph.D. Un. Of London, Dept of International Relations, London, School of Economic, Jul 1974», pp. 198-214; Ibid., Vol. 12, pp. 80-135.

المجتمعون ضعف المعسكر العربي دبلوماسيا وسياسيا منذ عام ١٩٥٥ م ، وزادته الخلافات العربية / العربية ضعفا ، فاستغل الملك حسين هذه المناسبة لتحسين علاقاته بعبد الناصر ، وكما يذكر البعض فإن ثورة وغضب حسين على مقتل المجالى قد تلاشت ، وبدأ الملك حسين يعتقد اعتقادا جازما بأن عبد الناصر لم يكن شخصا طرفا في تلك القضية^(١) .

وبناء على ذلك ، أرسل الملك حسين برسالة إلى عبد الناصر بتاريخ ٢٣ فبراير (شباط) عام ١٩٦١ م ، ركز فيها على تصفية الخلافات العربية ، والتفرغ لحل القضايا العربية ، وما يحيق بالأمة من أخطار ، مؤكدا على أن عبد الناصر وحسنا وكل مسئول عربي هم خُدّام هذه الأمة العظيمة ، وأن ما يربط الأمة من مصلحة عليا وأهداف مشتركة ، يجب أن يبقى ويكون أقوى من أسباب الخلاف والقطيعة^(٢) .

وقد رد عليه عبد الناصر برسالة بتاريخ ١٣ مارس (آذار) عام ١٩٦١ م ، معتبرا رسالة الحسين مفاجأة سعيدة ، ثم أوضح له أسباب الخلافات العربية ، وأنها لم تكن خلافات لأمر سطحية ، وإنما كانت بسبب تناقضات موجودة في الوطن العربي ، ثم أوضح ضرورة الوقوف في وجه إسرائيل ، وهذا يتطلب أمة عربية متحدة ، تستطيع مواجهة خلافاتها بروح التسامح الأخوي^(٣) .

وكانت هاتان الرسالتان خطوة على طريق التقدم في العلاقات بين الدولتين ، تبعتهما رسالتان أخريان ، الأولى من الملك حسين إلى عبد الناصر بتاريخ ٢ إبريل (نيسان) عام ١٩٦١ م ، والثانية ردا من عبد الناصر على رسالة حسين بتاريخ ٧ مايو (آيار) عام ١٩٦١ م ، ولم يختلف مضمون الرسالتين عن الرسالتين السابقتين^(٤) .

(1) Dan, Uriel: King Hussein and the Challenge of Arab Radicalism, Jordan 1955- 1967, «Oxford Un. Press, 1989», p. 115.

(٢) يُنظر في الرسالة في ملحق الأهرام ، الجمعة ٣١ مارس ١٩٦١ م ، « بصراحة لمحمد حسين هيكل » .

(٣) نفس المرجع .

(٤) يُنظر نص الرسالتين ، في : وثائق الخارجية البريطانية :

ومهما يكن من أمر فإن تناقضات في سياسة الدولتين كانت قد ظهرت قبيل وأثناء الوحدة المصرية / السورية ، مما يعنى أن ظروفًا غير طبيعية كانت تتحكم في العلاقة بين الدولتين ، وأن هذا التوتر كان يصب في مصلحة إسرائيل ، التي كانت تدرك أن التقارب المصري / الأردني في ظل الوحدة يعنى خطراً على إسرائيل وتهديدا لأمنها ، وقد اختلفت وجهة نظر السفير البريطاني في تل أبيب مع وجهة نظر ساسة إسرائيل في هذا الشأن ، فبينما رأى السفير أن تقارب الأردن مع ج.ع.م. ميزة لإسرائيل P لأن ذلك لن يغيّر شيئاً من السياسة الأردنية تجاه إسرائيل ، رأى بعض ساسة إسرائيل - وعلى رأسهم جولدا مائير G. Meir - أن هناك شكاً وتخوفاً بشأن « إذا ما كان الملك حسين سوف يذهب في أى اتجاه مع الرئيس عبد الناصر »^(١) ، وهذا يعنى تخوفها من تقارب الأردن مع ج.ع.م. ، لأنها تدرك موقف عبد الناصر من إسرائيل ، وتخشى من أن يسلك الملك حسين نفس المسلك .

موقف الأردن من الانفصال

لقد سبقت الإشارة إلى وجود اتهامات متبادلة بين الدولتين ، بشأن تدخل كل منهما في شئون الأخرى ، ومحاولة إحداث انقلاب داخلي ، وقد تأثر الموقف الأردني من الانفصال بالأحداث السابقة ، ومن أهمها تلك الأحداث التي حدثت في الأردن في إبريل (نيسان) عام ١٩٥٧م ، حيث وقع تمرد داخل الأردن أتم فيه سليمان النابلسي وأبو نوار كزعماء للمؤامرة ، وقد أتم الملك حسين مصر وسوريا بالضلوع فيها ، كما ادعى جلوب Glubb في مذكراته أن الضباط الذين تورطوا في الانقلاب كانوا يحصلون على رواتب شهرية من المصريين^(٢) .

وبناءً على ما سبق ، فإن الأردن قد تحركت ضد دولة الوحدة ، من منطلق تدخل مصر في السياسة الأردنية ، ومحاولة رد الضربة إلى عبد الناصر ، وقد ألح رئيس وزراء الأردن هزاع الجعالي إلى أن الأردن سوف تستمر في مهاجمة ج.ع.م. حتى تتوقف

(1) Ibid., Confidential, from Tel Aviv to F.O., Mar 15, 1961, No. 1073/61, p. 501.

(2) Nevo: Op. Cit., pp. 172- 173.

الأخيرة عن الهجوم عليها ، وأن الحكومة الأردنية ليست لديها النية للتدخل في سوريا ، وإنما في مجال الدفاع عن نفسها « سوف تضرب عبد الناصر في أكثر المواضع ألماً بالنسبة له » ، وأن الحكومة الأردنية سوف تستمر في دعايتها في سوريا^(١) ، وبذلك يتضح أن فكرة ضرب عبد الناصر في سوريا لم تكن وليدة عام ١٩٦١ م ، وإنما تعود إلى وقت قيام الوحدة .

وقد نشطت الدعاية الأردنية في سوريا ضد حكم عبد الناصر ، مرتكزة على محاور ثلاثة ، أولها الدعاية ضد الحكم العسكري المصرى « الظالم الذى يقبض على سوريا بيد من حديد ، مستخدماً رجالاً مستهترين كأداة لتحقيق ذلك » ، وثانيها الدعاية بأن عبد الناصر أصبح - دون أن يدري - أداة للشيوعية . أما المحور الأخير فهو التأكيد على أن خط القومية العربية الحقيقى بدأ منذ قيام الثورة العربية ، وليس « بادعاءات عبد الناصر الكاذبة » ، منذ ثورة عام ١٩٥٢ م المصرية ، وقد وجهت الأردن دعايتها للشعب السورى ، مؤكدة على أن سوريا دولة عربية مستقلة ، وأن هناك ظلماً يقع على السوريين ، وركزت الدعاية على فكرة سوريا للسوريين ، وكانت الدعاية تردد عبارة مأثورة موجهة إلى الشعب السورى تقول : « تذكروا أنكم عرب ، تذكروا أنكم أحرار »^(٢) .

ونتيجة لبعض الأعمال التخريبية التى وقعت في سوريا ، أقم المصريون الملحق العسكرى الأردنى في دمشق بتدبير تلك الأعمال^(٣) ، كما نشرت بعض الصحف المصرية أنباء عن وجود مؤامرة أردنية ضد ج.ع.م. ، وأن السلطات السورية قبضت على اثنين من المتسللين إلى الحدود السورية في ١١ مارس (آذار) عام ١٩٦١ م وهما يحملان متفجرات ، ومعهما مبلغ من الدنانير الأردنية ، وقررا أنهما تلقيا تعليمات من

(١) وثائق الخارجية البريطانية :

- Records of Jordan, Vol. 12, Confidential, from Amman to F.O., No. 576, Jul 13, 1960, p. 104.

(2) Ibid., Confidential, from Amman to F.O., Nov 14, 1960, p. 133.

(3) Ibid., Top Secret, from Cairo to F.O., No. 927, Dec 1, 1960, p. 134.

ضابط أردني واثنين من السوريين يعيشان في الأردن لإلقاء القنابل في منطقة السويداء أثناء زيارة الرئيس عبد الناصر لها، وكمكافأة لهما وعُداً بألاف من الدنانير لكل منهما، وأن يتم تعيينهما في رتبة شاويش في الجيش الأردني^(١).

وفي المقابل ، تم القبض على أحد المصريين العاملين في السفارة المصرية بعمّان ، ومحاولة إرغامه على الاعتراف بتورط السفارة المصرية في الانفجارات التي أدت إلى مقتل رئيس الوزراء هزّاع المجالي^(٢).

ومما سبق يتضح أن الطرفين قد أتما بالاشتراك في أعمال تخريبية داخل حدود كل منهما ، كما كانت سفارتا البلدين موضع الشبهات عند وقوع أى حادث من الحوادث .

وتأسيساً على ما سبق ، يمكن القول أن المملكة الأردنية لم تكن بمنأى عن التدخل في شئون ج.ع.م. ، وبمعنى آخر لم تكن بمنأى عن إفساد الوحدة والقضاء عليها ، وقد ذكر البعض أن اتصالات فعلية قد جرت بين الأردن وبعض السوريين للتخلص من الوحدة ، بدأت باتصال بين وزير الدفاع والداخلية الأردني وصفى ميرزا ورفيق سورى يُدعى : شريف سلام ، الذي قام بالاتصال ببعض السوريين عقب اتصاله بالوزير الأردني ، وقد حصل وصفى ميرزا على تفويض من الملك حسين بشأن إجراء اتصالات مع زعماء الانقلاب، وتقديم العون المادى لهم ، ولكن لم يُقدّر هذه الحركة أن تقوم^(٣).

الموقف الأردني من الانفصال منفرداً

في البداية ، يجب أن نطرح سؤالاً ، وهو : هل كانت هناك اتصالات بين الأردن وبين الانفصاليين قبيل وقوع الانفصال ؟ ، أو هل قدمت الحكومة الأردنية أى دعم مادي للانفصاليين قبيل القيام بحركتهم ؟

(1) Ibid., Confidential, British Diplomatic Mission, Cairo to F.O., Mar 14, 1961, No. 1036/61, p. 499.

(2) Ibid., p. 499.

(*) للفاصل عن هذه الحركة ، يُنظر : صلاح نصر ، مرجع سابق ، ص ص ١٨٥ - ١٩١ .

وللإجابة عن ذلك نذكر أن الروايات قد تضاربت في هذا الشأن ، بين مؤكّد لوجود اتصالات بين الطرفين ، وبين منكر لها ، فيذكر البعض أن حيدر الكزبري تقابل مع الملك حسين وأطلعته على حقيقة الحركة ، وأن هذه الاتصالات تمت بتكليف من عبد الكريم النحلاوي ، وأن الكزبري أبلغ المسؤولين الأردنيين بساعة الصفر ، كما أبدى المسؤولون في الأردن استعدادهم لوضع أي عدد من القوات تحت تصرف قادة الانقلاب^(١) ، وحينما نجح الانقلاب ، وبعد القبض على حيدر الكزبري ، قام أحد الضباط (العقيد شرف زعلالوي) بتقديم تقرير يتهم فيه حيدر الكزبري بأنه قبض أموالاً من ملك الأردن من أجل تحقيق الانفصال^(٢) .

ويشير هيكل إلى أن عبد الناصر قد التقى في يناير (كانون ثان) عام ١٩٦٣م بثلاثة من الضباط الذين اشتركوا في الانفصال ، ومنهم (زهير عقل) الذي أوضح لعبد الناصر أن حيدر الكزبري ويفصل سرى الحسيني قد تلقيا أموالاً من الملك حسين ، وقد قاموا بالتحقيق معهما^(٣) .

أما من ينكر عدم وجود اتصالات بين قيادة الحركة الانفصالية ، وبين أي قوى خارجية عربية أو أجنبية ، فيوضح أن هذه الفكرة هي سورية بحتة ، وأنها قامت بسواعد نظيفة ، لم تفكر في التآمر على قضية الوطن ، معللاً ذلك بأن الحركة لو كانت استعانت بدولة أخرى لانكشف أمرها ، وتم القضاء عليها في مهدها^(٤) .

ويمكن التوفيق بين الرأيين بأن هناك فعلاً أموالاً دفعت من قبل الحكومة الأردنية لبعض الأشخاص ، ولكن دون علم القيادة العليا لحركة الانفصال ، التي حينما علمت بأمر هذه الأموال لم تتوان في القبض على الكزبري والتحقيق معه .

(١) محمد حسنين هيكل ، ما الذي جرى في سوريا ، (سلسلة كتب قومية ، الدار القومية للطباعة والنشر ، د. ت.) ، ص ١٢٧ - ١٢٨ ، ممدوح رضا ، سوريا قبل حكم الأسد « مذكرات في السياسة العربية » ، (دار العروبة للطباعة والنشر ، لبنان ، بيروت ، ط ١ ، ١٤١٥هـ / ١٩٩٤م) ، ص ١٥٢ .

(٢) أحمد غميض ، مرجع سابق ، ص ٨٠ ، أحمد حمروش ، مرجع سابق ، ص ٩٥ .

(٣) هيكل ، سنوات الغليان ، ص ٥٧٧ - ٥٨٢ .

(٤) د. سامي عصاصة ، مرجع سابق ، ص ٢٩٨ - ٣٠٠ .

أما عن مدى اتصال الملك حسين بالانفصاليين ، فيذكر السفير البريطاني في عمّان أن السفير الأمريكي التقى بالملك حسين مساء يوم ٢٨ سبتمبر (أيلول) عام ١٩٦١م ، وأن السفير الأمريكي ذكر أن الملك حسين لم يكن لديه أية معلومات عن طبيعة الحركة ، ولا الأشخاص المتورطين فيها^(١) ، كما يذكر البعض أن الملك حسين بدا - حينما حدث الانفصال ليلة ٢٨ سبتمبر (أيلول) - وكأنه غير عابئ ، مثله مثل أى شخص خارج دائرة المؤامرة وغير متورط فيها بصورة مباشرة^(٢) ، وهذا يدل على عدم حدوث اتصال مسبق بين الملك حسين وبين قادة الحركة ، وأنه لم يكن على علم بموعد هذا الانقلاب ، ولم يكن متورطا فيه بصورة مباشرة ، وذلك - أيضا - لأن الملك حسين لم تكن لديه الإمكانيات والوسائل التي يستطيع أن يدير بها مثل هذا الأمر الخطير .

ولكن الثابت أن الملك حسين قد اتصل بقيادة الانفصال عقب وقوعه ، فيذكر السفير البريطاني في عمّان أنه أرسل سكرتير أول السفارة لمقابلة السكرتير الخاص للملك حسين ، للتباحث بشأن الانفصال ، وقد حضر اللقاء الملك حسين ، وقد ذكر السكرتير الأول للسفير أن الملك قد انسحب من الاجتماع ، ثم عاد بعد بضع دقائق ليخبره أنه تحدث الآن مع قادة الثورة الذين أكدوا له رغبتهم في إقامة علاقات طيبة مع جميع الدول العربية ، وقال : إنهم كانوا ممتنين له لأنه كان أول من اتصل بهم^(٣) .

وقد أرسل الملك حسين وسيطا إلى حيدر الكزبري ، يعلمه أن الملك حسين وضع جميع إمكانياته الإذاعية وتأييده المطلق لخدمة الثورة^(٤) ، كما أرسل رسولا إلى سوريا للتأكد من أن الوضع في سوريا أصبح تحت سيطرتهم التامة ، وذكر الملك أنه « أبلغ أن

(١) وثائق الخارجية البريطانية :

- Records of Jordan, Vol. 12, Secret, from Amman to F.O., Sep 28, 1961, No. 784, p. 459.

(2) Dan: Op. Cit., p. 118.

(٣) وثائق الخارجية البريطانية :

- Records of Jordan, Vol. 12, Secret, from Amman to F.O., Sep 28, 1961, No. 789, p. 663.

(٤) صلاح نصر ، مذكرات ، ج٢ ، ص ص ٢١٨ - ٢١٩ .

حظر التجوال curfew قد توقف تماما»^(١) ، وهذا دلالة على سيطرة الانفلايين على الأوضاع في سوريا .

ومن المعلوم أن الملك حسين قد أبدى اهتماما بالغا بالحركة فور وقوعها ، حتى أنه عقد اجتماعا في ٢٩ سبتمبر (أيلول) ضم العديد من الشخصيات ، منهم بجمت التلهوني رئيس الوزراء ، بالإضافة إلى رئيس الديوان وأعضاء البرلمان ، وقائد القوات المسلحة ، وبعد الاجتماع أعلن رئيس الوزراء : « أن جلالة الملك أبدى عنايته واهتمامه التام للتقارير التي وصلت ، والخاصة بالثورة السعيدة في سوريا » ، وأضاف : « إن الملك والحكومة والشعب الأردني سعداء لرؤية الشقيقة سوريا وهي تستعيد وضعها الحقيقي كقلب للعروبة ، ورائدة للقومية العربية الحقيقية » ، كما ذكر : أنه بناءً على تعليمات الملك فإن مجلس الوزراء قرر الاعتراف بالثورة الوطنية في سوريا ، وأنه سوف يرسل برقية تهنئة وتأييد إلى قيادة الثورة ورئيس الوزراء الجديد^(٢) ، وبالفعل أرسل التلهوني برقيتين ، الأولى إلى مجلس قيادة الثورة السورية في ٢٩ سبتمبر (أيلول) ، والثانية إلى د. مأمون الكزبري رئيس وزراء سوريا ، اعترفت فيها الأردن بحكومته^(٣) .

وفيما يخص قضية اعتراف المملكة الأردنية بالحكومة الانفصالية في سوريا ، فإن السفير البريطاني في عمان كان قد توقع اعترافا سريعا من قبل الأردن بالوضع الجديد في سوريا ، معللا ذلك بأن الطائرات الأردنية تمر بالأجواء السورية ، وأن هناك مصلحة أردنية في هذا الاعتراف^(٤) . وكما توقع السفير البريطاني ، فإن الأردن كانت الدولة الأولى التي اعترفت بالنظام الجديد في سوريا بعد دقائق معدودة من تشكيل الحكومة

(1) Foreign Relation of the U.S.: Vol. XVII, 1961- 1963, Telegram from the Embassy in Jordan to the Dept of State, Amman, Oct 4, 1961, p. 282.

(٢) وثائق الخارجية البريطانية :

- Records of Jordan, Vol. 12, Telegram from Amman to F.O., Sep 29, 1961, p. 423.

(3) Ibid., pp. 423- 424.

(4) Ibid., Secret, from Amman to F.O., Sep 28, 1961, No. 786, p. 461.

السورية^(١) ، وحينما تحدث السفير البريطاني مع رئيس وزراء الأردن بشأن هذا الاعتراف السريع ، أخبره التلهوني أنه كان على اتصال بالحكومة السورية الجديدة ، وأنه مقتنع بأنهم مسيطرون تماما على الأوضاع^(٢) .

كما التقى السفير البريطاني بالملك حسين ، وتبادل معه الحديث بشأن قضية اعتراف الأردن السريع بالحكومة السورية ، وأنه أمر خطير وسابق لأوانه ، ولكن الملك - كما يذكر السفير - كان قد أخبر المستشار الجوي بالسفارة البريطانية أنه ليس لدى عبد الناصر أى سند قانوني أو شرعي للشكوى ، لأن الملك حسين لم يتصرف بأسرع مما فعل عبد الناصر نفسه في انفصال الاتحاد الهاشمي (العربي)^(٣) ، حينما اعترف بالثورة العراقية عام ١٩٥٨ م .

وعن رد فعل مصر تجاه اعتراف الأردن بالحكومة الانفصالية في سوريا ، فإن رئيس وزراء الأردن نفسه كان يتوقع أن تقدم مصر على قطع علاقاتها مع الأردن ، ولما لم تفعل - حتى ٣٠ سبتمبر (أيلول) - عبر عن سعادته لذلك^(٤) ، وحدث ما توقعه رئيس وزراء الأردن ، إذ أصدر عبد الناصر قرارا في أول أكتوبر (تشرين أول) عام ١٩٦١ م ، بقطع العلاقات الدبلوماسية مع كل من حكومتى الأردن وتركيا ، وبررت مصر هذا القرار بسبب الموقف العدائي الذي اتخذته كل منهما تجاه ج.ع.م. والقومية العربية^(٥) .

وهنا يتبادر إلى الذهن سؤال ، وهو : لماذا قطعت مصر علاقاتها بالأردن وتركيا؟ ، ألم تعترف مصر نفسها بالحكومة الانفصالية ؟

وللإجابة على ذلك نقول ، أن مصر قد اعترفت فعلا بالحكومة الانفصالية في ٥ أكتوبر (تشرين أول) ، ولكن هناك فارق بين اعتراف عبد الناصر واعتراف الأردن ،

(1) Dan: Op. Cit., p. 119; Nevo: Op. Cit., p. 174.

(٢) وثائق الخارجية البريطانية :

- Records of Jordan, Vol. 12, Secret, from Amman to F.O., Sep 30, 1961, No. 806, p. 469.

(3) Ibid., Confidential, from Amman to F.O., Sep 30, 1961, No. 808, p. 473.

(4) Ibid., Secret, from Amman to F.O., Sep 30, 1961, No. 806, p. 469.

(٥) الأهرام ، الاثنين ٢ أكتوبر ١٩٦١ ، ص ١ ، الكتاب السنوي لعام ١٩٦٢ ، ص ٣٨٦ .

فاعتراف الأردن بالانفصال كان هدفه طعن عبد الناصر ، والقضاء على الوحدة ، وإضعاف مركز مصر (ج.ع.م.) ، أما اعتراف عبد الناصر فكان هدفه لم الشمل العربي ، فحينما اعترف عبد الناصر بانفصال سوريا قال « إنني أرى بأنه ليس من المهم في الوقت الحاضر أن تبقى سوريا جزءاً من ج.ع.م. ، بقدر ما هو مهم الآن أن تبقى سوريا عربية ، وأن يبقى الشعب العربي هو الحاكم في سوريا »^(١) .

ومهما يكن من أمر ، فإن الموقف الأردني لم يتوقف عند حد الاعتراف ، بل تعداه إلى إصدار البيانات من قبل المسؤولين الأردنيين ، وعلى رأسهم الملك حسين ، الذي ألقى خطاباً في أكتوبر (تشرين أول) عام ١٩٦١م ، كرّس معظمه للثناء على الانقلاب وتأييده ، ومما قاله في هذا الشأن « إن هذه الخطوة التي حدثت من جانب سوريا تعبير حقيقي للحرية ، للشهداء الذين أراقوا دماءهم ، هؤلاء الشهداء لم يقدموا أرواحهم وحياتهم من أجل بعض الأشخاص الذين يؤلّون أنفسهم ، رأينا في سوريا معنى حقيقياً تجاه الوحدة العربية ، التي لم تقم على الخوف والإرهاب »^(٢) ، وهو يعني بذلك أن الهاشميين الذين قدموا أرواحهم من أجل سوريا منذ الثورة الكبرى ، لم يقدموها لكي يأتي عبد الناصر وأمثاله ليتصرفوا فيها كأهله .

وقد استمرت هذه النبرة هي المسيطرة على تصريحات الملك حسين لفترة طويلة ، فحينما خطب في أعضاء مجلس الأردنيين الذين اجتمع بهم في الديوان الملكي ، حذر من محاولات التخريب في الأردن، وقال إنه يهتم بسوريا واستقرارها ، وليس له أطماع فيها ، « ولكن يهمني أن تكون سوريا قوية ، لأن آبائي وأجدادي خدموا حتى تكون سوريا عربية ، وحتى تكون سوريا حرة بكل معاني الكلمة »^(٣) .

(١) بوداغونا ، مرجع سابق ، ص ١٦٨ .

(٢) وثائق الخارجية البريطانية :

- Records of Jordan, Vol. 12, Secret, from Amman to F.O., Oct 2, 1961, No. 813, p. 476.

(٣) مجلة الوقائع العربية ، دائرة الدراسات السياسية والإدارة العامة ، الجامعة الأمريكية في بيروت (كانون الثاني / يناير) - (آذار/ مارس) ١٩٦٣م ، كلمة الملك حسين في مجلس الأردنيين بشأن سوريا في ١٢/١/١٩٦٣م ، ص ٢-١ .

ومما لا شك فيه ، أن ابتهاج الأردن بالانفصال كان له ما يبرره، حيث كان لهذا الحدث نتائجه الطيبة بالنسبة للسياسة الأردنية ، ومن بين هذه النتائج :

١ - أن الانقلاب أنهى الشعور بالعزلة والتطويق الذي فُرض على الأردن ، وخاصة من جانب حدودها مع سوريا منذ عام ١٩٥٨ م .

٢ - أن الانقلاب قلل من آثار أنصار عبد الناصر في الأردن .

٣ - قضى الانقلاب على أسطورة قيادة عبد الناصر للوطنية الراديكالية (المتطرفة).

٤ - قضى الانقلاب على قاعدة ج.ع.م. ونشاطاتها التخريبية والدعائية ضد الأردن .

٥ - فتح الانقلاب الباب أمام التعاون السوري / الأردني ، وربما العراقي ، في المجالات الاقتصادية ، لتكون حلا لإنعاش الاقتصاد الأردني المتهرئ .

٦ - أن الانقلاب قضى أيضا على المركزية والدولة الموحدة كنموذج للوحدة العربية ، وفتح الطريق لترتيبات فيدرالية أو كونفيدرالية ، من الممكن أن تشارك فيها الأردن بدون أى تغييرات ثورية .

٧ - وأخيرا ، فإن الانفصال من الممكن أن يُجيب فكرة سوريا الكبرى ، أو فكرة الهلال الخصيب ، كحل لمستقبل الأردن السياسي^(١) .

ولم يقتصر تأييد الانفصال على بيانات وتصريحات المسؤولين في الأردن ، بل سخرت الحكومة الأردنية أيضا راديو عمّان من أجل تدعيم الانفصال ، ومساندة القائمين عليه ، فمنذ الساعات الأولى من يوم ٢٨ سبتمبر (أيلول) أعاد راديو عمّان - كنوع من الدعاية - البيانات التي أذاعها الانقلابيون في دمشق ، باستثناء البيان التاسع^(٢) ، كما أشار الراديو إلى أن الملك حسين قد زار الإذاعة ، للوقوف بنفسه على تطورات الحركة الانفصالية ، وأنه أصدر تعليماته بأن توضع الإذاعة برامجهما تحت

(1) Ibid., Apindex, Secret, from British Embassy in Amman to F.O., Oct 14, 1961, p. 427.

(2) Dan: Op. Cit., pp. 118 - 119.

تصرف إذاعة الحركة الانفصالية في دمشق^(١) ، وكتأييد على ضرورة مساندة الانقلاب عن طريق الإذاعة ، أذاع الملك حسين بنفسه بيانا أعلن فيه تأييده المطلق للحركة الانفصالية^(٢) ، وقد أعلن راديو عمّان فرحته الكبرى بهذه الحركة ، وقال الراديو: « إن حلقات عُقدت لرقصة الدبكة في الأردن ، ابتهاجا بنجاح هذه الحركة التي أيدها الملك حسين »^(٣) .

ويأتى الدور الأخطر في هذه القضية ، وهو التحرك العسكرى الأردني على طول الحدود مع سوريا ، حيث تسلمت وزارة الخارجية البريطانية معلومات موثقة بأن وحدات من الجيش الأردني قد تحركت جهة الشمال تجاه الحدود السورية ، وأن السفير البريطانى تلقى معلومات من الجيش الأردني مفادها أن قوات قد تحركت صوب الحدود مع سوريا ، وأن مهمتها دفاعية بحتة ، وأن هذا التحرك هو إجراء وقائي ، كما ذكر أن مقاتلتين أردنيتين تقومان بدورية كل ساعتين بطول الحدود الأردنية ، وأن القوات الجوية أعلنت درجة الاستعداد الدائم من الفجر حتى المساء^(٤) ، وقد اعترف بذلك الملك حسين للسفير الأمريكى في عمّان ماكومبر Macomber ، الذى أكد أنه أمر بتحريك قواته كإجراء وقائي ، وأنها إذا تحركت فسوف تكون مهمتها دفاعية بحتة ، ومن أجل أغراض الأمن فقط ، وطلب من السفير إمداده بأية معلومات قد تصل إليه بشأن تطورات الوضع في سوريا^(٥) .

وكانت وجهة نظر الملك حسين في هذه التحركات ، إنها تخدم الثورة السورية ، وأن هذه التحركات تعتبر رادعا مهما للقوات المصرية ، إذا حاول عبد الناصر استخدام

(١) الأهرام ، السبت ٣٠ سبتمبر ١٩٦١م ، ص ١ .

(٢) محمد فرج ، النضال الشعبى في سوريا وقصة الانقلابات ، (كتب قومية ، الدار القومية للطباعة والنشر ، د. ت.) ، ص ٩٩ .

(٣) الأهرام ، السبت ١ أكتوبر ١٩٦١م ، ص ٣ .

(٤) وثائق الخارجية البريطانية :

- Records of Jordan, Vol. 12, Secret, from Amman to F.O., Sep 28, 1961, p. 457.

(5) Ibid., from Amman to F.O., Sep 28, 1961, No. 784, p. 459.

القوة لإعادة الوحدة مرة أخرى ، وأنه كان يعتقد أن هذا العمل يحظى بتقدير من الحكومة السورية ، كما كان على استعداد لتقديم المساعدة للسوريين إذا استدعت الضرورة ذلك^(١) ، ولكن تقديرات الملك حسين لم تكن صحيحة ، إذ سرعان ما طالبت الحكومة السورية نظيرتها الأردنية بسحب القوات الأردنية بعيدا عن الحدود ، وأن هذا المطلب أسعد بعض أعضاء الحكومة الأردنية ، الذين رأوا أن تحركات القوات الأردنية كان أمرا غير ضروري^(٢) .

وهنا يفرض سؤال نفسه، هل كان سيتدخل الملك حسين فعلا عسكريا ضد مصر، إذا ما حاول عبد الناصر استعادة الوحدة بالقوة ؟

وللإجابة على ذلك ، نوضح أولا أن عبد الناصر لم تكن لديه النية لاستخدام القوة من أجل استعادة الوحدة ، والدليل على ذلك تعليماته للقوات التي هبطت في اللاذقية، وأمرها بعدم الاشتباك مع القوات السورية ، وكذلك البيان الذي ألقاه عقب اعترافه بالحكومة الانفصالية في سوريا ، فهذه دلائل تشير إلى أنه لم تكن لديه النية في التدخل عسكريا ، ولكن مع افتراض حدوث ذلك الأمر ، فإن الملك حسين أوضح للسفير الأمريكي في عمان ماكومير أن هدفه الرئيسي هو الحفاظ على الاستقرار ، « ولكن ليكن معلوما أنه إذا هوجمت الحكومة السورية الآن من عبد الناصر ، فإن الأردن ستكون معهم »^(٣) ، وفي لقاء آخر بينهما ، ذكر الملك حسين أنه خلال اتصاله بالحكومة السورية أخبروه بأنهم على اقتناع بقدراتهم للتعامل مع أي جهود عسكرية مضادة من قبل عبد الناصر ، دون مساعدة أردنية أو خارجية أخرى ، وقد أكد الملك للسفير على أنه إذا لم تكن هذه الحالة كافية ، فإن الأردن والعراق - وربما تركيا أيضا - سوف تقوم بإرسال قوات لمساعدة النظام السوري^(٤) .

(1) Ibid., Confidential, from Amman to F.O., Oct 4, 1961, No. 833, p. 484.

(2) Ibid., Confidential, from Amman to F.O., Sep 29, 1961, No. 802, p. 467; from Amman to F.O., Oct 14, 1961, p. 425.

(3) Ibid., from Amman to F.O. Sep 30, 1961, No. 808, p. 473.

(4) FRUS, Vol. XVII. 1961- 1963, Telegram from the Embassy in Jordan to the Dept of State, Oct 4, 1961, p. 282.

ومع كل ما حدث من تأييد واستعداد أردني لمساعدة النظام السوري الجديد ، هل عادت الأمور إلى طبيعتها بين الدولتين (سوريا والأردن) ؟ ، وهل نجح الأردن في الحصول على ثقة الانقلابيين ؟

لقد ذكرت آنفا أن الأردن اعترفت بالحكومة السورية الجديدة ، وبديهي أن هذا الاعتراف لا بد أن يتبعه خطوات عملية ، من أجل إعادة العلاقات الطبيعية بين البلدين ، من فتح للحدود ، وتبادل للسفراء ، وقد أقدمت الأردن على هذه الخطوات بالفعل ، حيث صرح مصدر رسمي أردني لإحدى وكالات الإعلام ، أن الأردن سيلغى إجراءات تأشيرات الدخول بالنسبة للسوريين ، بحيث يستطيعون دخول الأردن دون تأشيرة دخول ، كما صرح بأن الحكومة الأردنية ستتبادل قريبا السفراء مع الحكومة السورية الجديدة^(١) ، كما أذاع راديو عمّان يوم ١١ أكتوبر (تشرين أول) عام ١٩٦١ م نبأ استئناف سير القطارات بين عمّان ودمشق^(٢) .

وإمعانا في التقارب مع سوريا ، نقل مبعوث الملك حسين إلى قادة الانفصال رغبة الملك في قيام اتحاد بين سوريا والأردن ، ينضم إليه مستقبلا العراق^(٣) ، في إشارة إلى إحياء ما يُسمى بالهلل الخصب ، وقد أكد الملك حسين على ذلك أثناء لقائه بالسفير البريطاني حيث أوضح له أن السياسيين السوريين شغوفون لعقد علاقات وثيقة مع الأردن ، وأن هناك مباحثات جادة من أجل عقد وحدة فيدرالية بين الأردن وسوريا^(٤) ، ولكن كانت هذه المحاولات مجرد اجتهادات من الملك حسين الذي لم يستطع الحصول على ثقة الانفصاليين ، الذين ارتابوا في الموقف الأردني ، فحينما أعلن في سوريا عن بدء الانتخابات الرئاسية ، وعلى الرغم من إعلان الأردن عدم تدخلها في تلك الانتخابات ، إلا أن السلطات السورية قامت بإغلاق الحدود مع الأردن ، وكذلك

(١) الأهرام ، السبت ١ أكتوبر ١٩٦١ ، ص ٣ .

(٢) الأهرام ، الخميس ١٢ أكتوبر ١٩٦١ م ، ص ١ .

(٣) ممدوح رضا ، مرجع سابق ، ص ١٥٧ .

(٤) وثائق الخارجية البريطانية :

أغلقت حدودها مع لبنان ، وهذا يبدو كدليل على شك الجانب السوري ، بأن تدخلات الأردن في الانتخابات كانت متوقعة ، كما أدركت الحكومة السورية أن المساعدات والتأييد الأردني سوف يُشعرها بالحرج في قضية العداء للناصرية ، ولذلك بدأت تتعامل مع الأردن بشيء من الفتور ، وذلك لإثبات استقلاليتها - الحكومة السورية - بعيدا عن النظام الأردني^(١) .

ويشير البعض إلى أن العلاقات الأردنية / السورية عقب الانفصال قد شأها الفتور، فيذكر السفير البريطاني في عمّان ، والذي كان على اتصال شبه دائم بالملك حسين إبان الأزمة «أنه من الصعب أن نصف العلاقات السورية / الأردنية بأنها ودية»^(٢) .

هذا عن التأييد الأردني للامحدود للانقلابيين ، والذي وصل إلى حد استعداده للتشابك مع القوات المصرية عسكريا ، إذا حاول عبد الناصر التدخل بالقوة لاستعادة الوحدة ، فماذا عن رد الفعل المصري تجاه الموقف الأردني ؟ ، وبمعنى آخر ، ما أثر الموقف على العلاقات المصرية / الأردنية ؟

ذكرت فيما سبق أن العلاقات الأردنية / المصرية قبيل الانفصال كانت قد تحسنت نوعا ، وخاصة في الفترة ما بين فبراير (شباط) حتى يونيو (حزيران) عام ١٩٦١ م ، وأن الذي بدأ بهذا التقارب هو الملك حسين ، ولكن لا أدري هل جاءت تلك الخطوة من الملك حسين كنوع من التمويه على ما كان يضمه للوحدة المصرية / السورية ؟ ، أم أن الأحداث هي التي فرضت نفسها بعد ذلك على الموقف الأردني ؟ ، وإن كنت أرى أن العلاقة بين البلدين - وإن كان ظاهرها التقارب - إلا أن كلا الطرفين لم يكن مخلصا تمام الإخلاص في ذلك ، حيث كان كل طرف يضم للآخر العداء ، منتهزا أقرب فرصة للانقضاض عليه ، وهذا ما حدث بالنسبة لموقف الأردن من الانفصال ، ذلك الموقف الذي أعاد العلاقات بين الطرفين إلى ما كانت عليه قبل فبراير (شباط)

(1) Ibid., Confidential, from Amman to F.O., Des 2, 1961, p. 436.

(2) Ibid., Vol. 13, 1962- 1963, Confidential, from Amman to F.O., Jan 20, 1962, No. 1037/62, p. 133.

عام ١٩٦١م ، حيث عادت الهجمات الصحفية والإعلامية المتبادلة بين الدولتين ، وكان ذلك يتم بإيعاز من عبد الناصر والملك حسين .

فحينما ألقى عبد الناصر خطابه الأول عقب الانفصال في ٢٩ سبتمبر (أيلول) شن هجومه على الملك حسين ورئيس وزرائه بمجت التلهوني ، حيث ذكر أن الحركة الانفصالية هى حركة استعمارية ، قام بما عملاء الاستعمار ، كما أيدها الاستعمار وأعوانه ، وقال : «إن أول تهنئة وتهليل كان من الملك حسين ومن التلهوني وده ييكشف الحركة»^(١) ، أى أن مجرد اعتراف حسين - وهو من أعوان الغرب - بالحركة يعنى أنها تابعة للاستعمار ، كما ألقى عبد الناصر خطابا آخر في ديسمبر (كانون أول) عام ١٩٦١م ، أوضح فيه أن الملك حسين كان قد هاجم عبد الناصر وفراعة المصريين ، وأن عبد الناصر لم يرد ، ولكن الملك حسين تلقى فيضا من الرسائل الساخطة من الدول العربية^(٢) .

وعلى جانب آخر ، شنت الصحف المصرية هجوما مباشرا على الملك حسين ، متهمة إياه بالذهاب إلى لندن لمطالبة الحكومة البريطانية بدعم الحكومات الأردنية والسعودية والسورية في موقفها ضد ج.ع.م.^(٣) ، ويبدو أن الموقف المصرى عقب الانفصال لم يكن مهيئا لاتخاذ تدابير عدائية قوية ضد المملكة الأردنية ، بسبب الصدمة التى تعرضت لها الوحدة ، وبسبب المشاكل التى تعرض لها عبد الناصر آنذاك ، على الرغم من ادعاء الملك حسين للسفير الأمريكى فى عمان بأنه تلقى تقارير من القاهرة تفيد بأن فرقا تخريبية سوف تصل إلى الأراضى السورية والأردنية ، وأنه لذلك اتخذ الاحتياطات الأمنية الداخلية الضرورية لهذا الشأن^(٤) .

(١) وزارة الإرشاد القومى ، مصدر سابق ، ص ٥٣٧ .

(٢) وثائق الخارجية البريطانية :

- Records of Jordan, Vol. 12, from Cairo to F.O., Des 24, 1961, No. 1236, pp. 487- 488.

(3) Ibid., from Cairo to FO., Des 9, 1961, No. 1194, p. 488.

(4) FRUS, Vol. XVII, Telegram from the Embassy in Jordan to the Dept of State, Amman, Oct 4, 1961, p. 282.

ويذكر تقرير بريطاني أن الحكومة الأردنية قد تلقت تحذيرات بشأن ترتيبات مصرية كانت تُعد لتسريب بعض المجموعات عبر العقبة ، وأن عبد الناصر عزم على الإطاحة بالحكومة الأردنية ، وربما تصل مخططاته إلى محاولة اغتيال الملك حسين نفسه، وأن وزير خارجية السودان قد أبلغ أحد الوزراء الأردنيين بأن هناك معلومات تفيد بأن عبد الناصر يفكر في عمل انقلاب في الأردن^(١) ، وهذا - في رأيي - ادعاء غير مقبول، لأن الظروف لم تكن مواتية أو مهيأة لعبد الناصر للقيام بأي أعمال داخل الأردن أو غيرها في ذلك الظرف الحرج .

هذا عن الهجوم المصري الدعائي ضد الأردن والملك حسين ، أما الهجوم الأردني على مصر ، فقد تركز حول شخصية عبد الناصر ، فبعد أن أعلن الملك حسين عن وقف الدعاية الهجومية على عبد الناصر ، عاد وأمر باستمرارها لأنه - حسين - لم يجد سببا مقنعا لوقف هذه الدعاية ، وأن الهجوم على عبد الناصر - في رأيه - شيء عادل وأمر طيب بالنسبة للملك ، وللهجوم على عبد الناصر استعان بفنيين أمريكيين للعمل في الإذاعة الهاشمية، ولكن هؤلاء الفنيين نصحوه بوقف الحملة على عبد الناصر، لأنهم يواجهون مشكلة مع المعلنين عبر الإذاعة الأردنية ، لأنهم توقفوا عن الإعلان عن منتجاتهم بين المواد السياسية بسبب الهجوم على عبد الناصر^(٢) .

ولم تكن هذه آراء الفنيين فقط ، بل إن السفير البريطاني في عمان قد طلب من رئيس الوزراء الأردني عدم إعادة الحرب الدعائية مع القاهرة ، وأفهمه أن الأردن تستطيع أن تقدم موقفا معتدلا ومتسامحا في هذه الظروف^(٣) ، وعلى الرغم من موافقة رئيس الوزراء الأردني على رأى السفير البريطاني .

(1) وثائق الخارجية البريطانية :

- Confidential, from British Embassy, Khartoum, to F.O., Jan 13, 1962, No. 10061, p. 120.

(2) Ibid., Confidential, from British Embassy, Amman, to F.O., Dec 29, 1962, No. 1031/2, p. 119.

(3) Ibid., Vol. 12, Secret, from Amman to F.O., Sep 30, 1960, No. 806, pp. 470- 471.

إلا أن الملك حسين كان له رأى آخر ، فقد اعتقد أنه قد حقق انتصارا على عبد الناصر في هذه القضية ، ولذلك استمر في الهجوم عليه ، ففي خطاب ألقاه في بداية عام ١٩٦٢م ، قال الملك حسين : « إن عبد الناصر هو الذى فرّق العرب ، عن طريق تحريض بعض الأطراف ضد بعضها الآخر » ، وقال الحسين : « إنه فخور بمقاومته للطغيان ، ومحاربه للفساد والظلم اللذين أوقعهما عبد الناصر على سوريا ، وأنه قد حان اليوم الذى سيهب فيه الشعب المصرى لمعاقبة الطغاة الذين يغامرون بأمواله وثرواته وتطلعات بلادهم »^(١) .

تعاون الأردن مع الغرب فى الموقف من الانفصال

كان ولا بد أن يتحرك الملك حسين على كافة المستويات العربية والأجنبية والقوى المحلية ، للمساندة فى إنجاح الانفصال ، حتى لا تقوم للوحدة قائمة مرة أخرى ، وذلك بحث تلك الأطراف على الاعتراف الفورى والسريع بالحكومة الانفصالية ، وكان الملك حسين قد تحدث مع جميع السفراء الموجودين فى بلاده ، ليحثهم على ضرورة اعتراف حكوماتهم بالوضع الجديد فى سوريا ، وأنه قد أظهر ابتهاجه باعتراف تركيا بالحكومة السورية الجديدة^(١) ، ولكن لم تكتمل فرحة الملك حسين بالانفصال ، إلا بعد أن تعترف القوى الكبرى - وعلى رأسها الولايات المتحدة وبريطانيا - بالحكومة الانفصالية ، لذلك كان تركيز الملك حسين على هاتين الدولتين ، حيث كان على اتصال دائم بسفيريهما .

ففى أول اتصال بين السفارة البريطانية والملك حسين ، استدعى الملك السفير البريطانى ونظيره الأمريكى ، ليخبرهما بأمر الانقلاب، وأن الثوار قد سيطروا على

(1) Snow, Peter: Hussein «A Biography», (Barrie & Jenkins, London, 1st ed, 1972), p. 152,

(٢) وثائق الخارجية البريطانية :

- Records of Jordan, Vol. 12, Confidential, from Amman to F.O., Sep 30, 1961, No. 808, pp. 472- 743.

حلب ، وأنه يتوقع إعلان الحكومة الجديدة في تلك الليلة - ٢٨ سبتمبر (أيلول) - وحثهما على ضرورة إعطاء الثوار التأييد والمساندة^(١) ، ولكن الملك حسين أفهم من خلال لقاء جمعه وسكرتير أول السفارة البريطانية وسكرتير الملك الخاص ، أن الحكومة البريطانية ترى أن أى عمل متسرع بخصوص الاعتراف بالحكومة الجديدة من قبل بريطانيا ، سوف يكون صعبا بالنسبة لها^(٢) .

وعلى الرغم من هذه الإشارة المبدئية من قبل السفارة البريطانية ، إلا أن الملك حسين التقى بالسفير البريطاني في عمان وأخبره أنه يأمل أن تعترف حكومة جلالة الملكة بالحكومة السورية الجديدة في أسرع وقت ممكن^(٣) ، كما استدعى الملك السفير الأمريكى ماكومبر ، وتحدث معه عن أهمية اعتراف الحكومة الأمريكية بالحكومة السورية الجديدة^(٤) ، وقد كانت حجة الملك حسين في ذلك هي أن الاعتراف بالحكومة الانفصالية هو أفضل السبل للحفاظ على الاستقرار ، وأن الاعتراف بما من جانب الدولتين الكبيرتين سيجعل عبد الناصر يفكر كثيرا قبل أن يتخذ أية خطوة من أجل استعادة الأوضاع بالقوة .

ولكن السفير البريطاني أفهم الملك أنه لا يتوقع اعترافا سريعا من حكومته بالحكومة السورية ، وطلب السفير من حكومته إعطاءه الصلاحية بإخبار الملك بأية خطوة تتخذها بشأن الاعتراف^(٥) .

(1) Ibid., Secret, from Amman to F.O., Sep 28, 1961, No. 786, p. 640.

(2) Ibid., from Amman to F.O., Sep 29, 1961, No. 789, pp. 463- 464.

(3) Ibid., Confidential, from Amman, to F.O., Sep 30, 1961, No. 808, pp. 472- 473.

(4) FRUS, Vol. XVII, Memorandum, from Rebert W. Komer the National Security Council Staff to the President's Special Assistant and Deputy Special Assistant for National Security Affairs, (Bundy and Rostow), Washington, Sep 30, 1961, p. 274.

(٥) وثائق الخارجية البريطانية :

- Records of Jordan, Vol. 12, Confidential, from Amman to F.O., Sep 30, 1961, No. 808, pp. 472- 473.

أما الإدارة الأمريكية ، فقد رأت أنه يجب عدم الإقدام على عمل شئ على المستوى الرسمي ، لأن عبد الناصر ربما يلجأ للوم كل من الولايات المتحدة وبريطانيا ، «وإننا يجب أن نتجنب إتاحة هذه الفرصة له ، ويجب أن نتجنب أى اعتراف مبكر بالنظام الجديد»^(١) ، ولكن حتى لا تفقد الولايات المتحدة ميزة أولوية التعامل مع النظام الجديد في سوريا ، اقترحت إدارة شتون الأمن القومى الأمريكى إبلاغ الحكومة الانفصالية - عن طريق دولة ثالثة ، ربما تكون الأردن أو تركيا - بأن الحكومة الأمريكية ليست في عدااء مع تلك الحكومة^(٢) .

وقد استمر الملك حسين في اتصالاته بسفيرى الولايات المتحدة وبريطانيا ، وحثهما على ضرورة اعتراف بلديهما بالنظام السورى الجديد ، حيث التقى وماكومير وحنه مرة أخرى من أجل اعتراف حكومته بحكومة الانفصال ، وقال للسفير : إنه يفهم دائما أن حكومة الولايات المتحدة تؤيد مبادئ حق تقرير المصير ، وأن هذا النظام السورى المستقل قد أيدته الشعب السورى^(٣) .

وفي لقاء جمع بين سفيرى البلدين وبين الملك حسين ، كرر الملك محاوراته السابقة معهما ، مؤكدا لهما أن لديه دلائل بأن السوريين غاضبون الآن ، لعدم اعتراف حكومتيهما بالوضع الجديد في سوريا^(٤) ، ويبدو أن السوريين لم يكونوا وحنهم الغاضبين من هذا الموقف ، حيث أظهر الملك حسين نفسه استياءه وانتقاده للموقفين البريطانى والأمريكى ، فحينما التقى الملك حسين وسكرتير أول السفارة البريطانية في ٤ أكتوبر (تشرين أول) عام ١٩٦١م أظهر له سخطة ، وانتقد بحدة موقف الحكومة

(1) FRUS, Op. Cit., p. 273.

(2) Ibid., p. 273.

(3) Ibid., Telegram from Embassy in Jordan to the Dept of State, Amman, Oct 4, 1961, p. 282.

(٤) وثائق الخارجية البريطانية :

البريطانية^(١) ، كما التقى الملك حسين والسفير الأمريكي في عمّان ، وتحدث معه عن عدم رضائه بالموقف الأمريكي ، وعدم تحمسه تجاه الأحداث في سوريا^(٢) .

ونتيجة لاستياء الملك حسين من الموقفين الأمريكي والبريطاني ، نجد أن السفير البريطاني أرسل إلى حكومته ينصحها بضرورة الاعتراف بالحكومة السورية الجديدة ، بعد أن أفهمته حكومته بأنه من غير المحتمل أن يكون هناك قرار مبكر بالاعتراف بالحكومة السورية ، لأن الاعتراف في الظروف الحالية لن يكون له تأثير رادع على عبد الناصر^(٣) ، ولكن السفير عدّد بعض الأسباب من أجل حث حكومته على الاعتراف ، من بينها أن الاعتراف سيؤدي إلى تقليل الصراع في المنطقة ، كما سيؤدي إلى الاستقرار في منطقة الشرق الأوسط ، وأن هذه هي فرصتهم للتدخل من أجل إقرار الأمن والاستقرار في المنطقة ، وأن تدخلهم سيكون له فوائده بشأن تقليل نفوذ عبد الناصر وقوته في المنطقة ، وأن الاعتراف سيقوى مركز الملك حسين لأن وضعه صعب للغاية في بلاده ، وأنه يشعر أنه منعزل في بلده ، لأن هناك بعض الأردنيين الموالين لعبد الناصر ، ويعتبرونه بطل العروبة^(٤) .

وجدير بالذكر ، أن الملك حسين كان دائم الإلحاح على الدولتين للاعتراف بالنظام الجديد في سوريا ، وذلك لأهداف بعضها معلن وبعضها غير معلن . أما الأهداف المعلنة فإنه كان يرى أن الاعتراف سيؤدي إلى بناء الثقة داخل سوريا نفسها ، وأن ذلك سوف يساعد الحكومة السرية الجديدة^(٥) ، وأن اعتراف الدولتين أيضا سيكون له تأثيره على الدول الأخرى ، لأنه حينما التقى حسين وسفراء الدول الأخرى

(1) Ibid., from Amman to F.O., Oct 4, 1961, No. 831, p. 481.

(2) Ibid., from Amman to F.O., Sep 30, 1961, No. 808, p. 473.

(3) Ibid., from Amman to F.O., Oct 4, 1961, No. 1104, p. 480; from Amman to F.O., Oct 4, 1961, No. 831, p. 482.

(4) Ibid., pp. 481- 482.

(5) Ibid., p. 481.

أوضحوا له أن حكوماتهم سوف تتبع الموقف الأمريكي والبريطاني^(١)، أى أن الاعتراف سوف يشجع الدول الأخرى على الاعتراف ، لأن تلك الدول علقت اعترافاتها على الاعتراف الأمريكي والبريطاني .

أما الهدف غير المعلن ، فهو كما ذكرت سابقا أن هذا الاعتراف سيكون مانعا أو رادعا أمام أية محاولة من قبل مصر لاستعادة الوضع في سوريا بالقوة .

هذا عن محاولة الأردن الحصول للانفصاليين على اعتراف حكومتى الولايات المتحدة وبريطانيا وغيرهما من الحكومات الأخرى ، وقد جرى تنسيق من نوع آخر بين الملك حسين وبين سفيرى الولايات المتحدة وبريطانيا ، ولكن عن طريق بعض النصائح التى قدمها سفيرا البلدين للملك حسين ، حتى لا يتورط في أمور قد تزيد الوضع سوءا في المنطقة ، ففى أول لقاء لهما بالملك ، أشارا عليه بأن يفكر جيدا قبل اتخاذ أية خطوات بشأن التدخل في سوريا ، وأن يدع السوريين يرتبون شئونهم الداخلية^(٢) ، كما طلب السفير البريطاني من حكومته أن تتعاون مع نظيرتها الأمريكية في إقناع الملك حسين بعدم التدخل في الشؤون السورية ، فذكر أنه يجب أن يكون هناك تدخل على مستوى أعلى عن طريق إرسال رسائل شخصية إلى الملك من قبل رئيس الوزراء البريطاني والرئيس الأمريكي^(٣) .

و حينما بدأ الملك حسين في تحريك قواته تجاه الحدود السورية ، التقى به السفير الأمريكى - بناءً على تعليمات حكومته - وحذره بلهجة حازمة من التدخل في سوريا ، موضحا له أن هذه التدخلات من شأنها أن تجعل الحكومة الأمريكية تعيد النظر في سياستها تجاه الأردن ، إذا تصرف الملك بخلاف هذه النصيحة ، وأشار السفير في ذلك إلى المعونة التى تتسلمها الأردن من الولايات المتحدة ، كما أفهمه أنه يجب أن يستشير أصدقاءه قبل اتخاذ أية إجراءات^(٤) .

(1) Ibid., Confidential, from Amman, to F.O., Oct 4, 1961, No. 833. p. 483.

(2) Snow: Op. Cit., p. 151.

(٣) وثائق الخارجية البريطانية :

- Records of Jordan, Vol. 12, from Amman to F.O., Sep 29, 1961, No. 801, p. 466.

(4) Ibid., p. 465.

وفي لقاء آخر ، جدد السفير تحذيره للملك بشأن التدخل في سوريا ، موضحا له أن أية صدامات عسكرية ستترتب عليها عواقب وخيمة ، وإزاء هذه التحذيرات الأمريكية تعهد الملك بأن يكون على اتصال دائم بالسفير الأمريكي^(١) ، ونتيجة لهذا التعهد ، ولشعور الملك بالخطر من جانب عبد الناصر ، طلب حسين التأييد والعون من بريطانيا ، حيث طلب منها التحرك لمساعدة أصدقائها في الشرق الأوسط^(٢) .

ومما سبق يتضح أن الحكومة الأردنية قد وضعت نصب عينها ضرورة الحصول على اعتراف بريطانيا والولايات المتحدة بالنظام الجديد في سوريا ، حتى تنحو الدول الأخرى نفس المنحى ، ومع تزايد الإلحاح الأردني ، وأيضاً نتيجة لوجود مصالح للدولتين في المنطقة ، وحتى لا يكون الاتحاد السوفييتي هو الأسبق في الاعتراف ، كانت الدولتان قد أعلنت اعترافهما بالنظام الجديد في غضون شهر أكتوبر (تشرين أول) عام ١٩٦١م ، وقد تبعتهما العديد من الدول ، فوصل عدد الدول التي اعترفت بالانفصال حتى ٢٦ أكتوبر (تشرين أول) حوالي ٥٩ دولة^(٣) .

التقارب الأردني / السعودي ضد ج.ع.م.

لم تكتف المملكة الأردنية بما قامت به من محاولات مع القوى الغربية من أجل مساندة الانفصال ، بل اتجهت للتعاون مع دولة عربية كبرى لها ثقلها في الوطن العربي ، لما تمثله من مركز ديني ومالي ، وهي المملكة العربية السعودية ، وعلى الرغم من وجود عداء تقليدي آنذاك بين الأسرتين الهاشمية والسعودية ، إلا أن تلاقي المصالح وكرامية النفوذ المصري قد جمع بين الأسرتين ، لدرء المخاطر عن مملكتيهما ، وقد أخذ التقارب السعودي / الأردني - على حساب الجانب المصري - في التصاعد بدءاً من عام ١٩٥٨م ، وتحديدًا عقب الثورة العراقية ، وفي عام ١٩٦٠م شهدت تلك العلاقات تقارباً واضحاً ، حيث قام الملك حسين بزيارة إلى المملكة السعودية ، صحبه فيها

(1) Ibid., from Amman, to F.O., Sep 30, 1961, No. 808. p. 473.

(2) Ibid., from Cairo, to F.O., Des 9, 1961, No. 1194. p. 486.

(٣) يوداغوفا ، مرجع سابق ، ص ١٦٨ .

رئيس الوزراء الأردني ، ورئيس الديوان الملكي وعمه الشريف ناصر ، ودارت مباحثات بين الملكين فيما بين ٨ - ١٠ فبراير (شباط) ، وكان محور المباحثات حول حق الشعب الفلسطيني في أرضه ، ومساندة كفاح شعب الجزائر ، وكذلك التأكيد على تعاون البلدين في كافة المجالات^(١) .

وفيما يخص علاقة البلدين بمصر وعبد الناصر ، فقد أوضح رئيس وزراء الأردن (هزاع المجالي) للسفير البريطاني في عمان أن الملكين أكدا على معارضتهما للشيوعية ، وتباحثا فيما يمكن عمله من أجل أخذ الحيطة من عبد الناصر ، وجعله يقف في المعسكر المعادي للشيوعية^(٢) .

وفيما يخص موقف الدولتين من الوحدة ، فقد ثارت حولها الشبهات في الاشتراك سويا في مساندة الانقلابيين ، خاصة وأن قضية الشيك الذي قيل إن الملك سعود قد أعطاه لعبد الحميد السراج للقضاء على عبد الناصر كانت ماثلة في الأذهان، حيث تردد أن الملك سعود قد دفع مبالغ هائلة من المال لبعض السياسيين السوريين وبعض القوات الصحراوية لتقويض الوحدة في سوريا^(٣) ، وأنه في هذه المرة لم يتصل مباشرة بالانقلابيين ، وإنما دفع المال الملك حسين ليقوم هو بدوره بتسليمه للانقلابيين، لكي يخلى الملك سعود نفسه من أية مسئولية^(٤) ، ويذكر البعض أن تلك المبالغ وصلت إلى سبعة ملايين ، وقيل اثنتا عشر مليوناً من الجنيهات الإسترلينية^(٥) .

ومهما يكن من أمر في صحة هذه المعلومات من عدمها ، فالثابت أن هناك اتفاقاً غير معلن بين سعود وحسين ، من أجل تقليص النفوذ المصري ، والقضاء على الظاهرة الناصرية ، والتي كانت تمثل القومية العربية ، والتي انتشرت بين الشعوب العربية ،

(١) وثائق الخارجية البريطانية :

- Records of Jordan, Vol. 12, from Amman to F.O., Feb 11, 1960, p. 151.

(2) Ibid., p. 152.

(٣) محمد حسنين هيكل ، عبد الناصر والعالم ، (دار النهار للنشر ، بيروت ، ١٩٧٢م) ، ص ٢٨١ .

(٤) محمد حسنين هيكل ، ما الذي جرى في سوريا ، ص ص ١٢٧ - ١٢٨ .

(٥) هيكل ، عبد الناصر والعالم ، ص ٢٨١ .

والثابت أيضا أن الدولتين سارعتا بالاعتراف بالحكومة الانفصالية عقب إعلانها ، مما جعل البعض يذكر أن ذلك الاعتراف خلق وضعاً معقداً لعبد الناصر بالنسبة لمعالجة الموقف في سوريا^(١) ، مما جعله يشن حملة شعواء على الملكين مع نهاية عام ١٩٦١م ، واصفاً إياهما بأنهما « عميلاً الإمبريالية الرجعية »^(٢) ، مما زاد من تماسك الملكين حتى بعد أن خفت حدة الأزمة الانفصالية ، ففي أغسطس (آب) عام ١٩٦٢م اجتمع الملكان - سعود وحسين - في الطائف فيما بين ٢٧ - ٢٩ أغسطس (آب) ، وبعد انتهاء المباحثات أصدرتا بياناً مشتركاً ، ومما جاء فيه التأكيد على الحقوق المقدسة للعرب في فلسطين ، والعمل المشترك من أجل استعادة هذه الحقوق مهما تكلف ذلك من أموال ومخاطر ، وكذلك إعلان الوحدة العسكرية التامة بين جيشي البلدين وإنشاء قيادة عسكرية مشتركة فوراً في المملكتين ، بالإضافة إلى التعاون في كافة المجالات ، والتعاون في السياسة الخارجية ، مع ضرورة تسوية مشاكل الحدود بينهما ، كما عقدت الدولتان اتفاقاً اقتصادياً في ٣٠ أكتوبر (تشرين أول) عام ١٩٦٢م^(٣) .

ولم تكف الدولتان بذلك ، بل سعياً لضم عدد من الدول العربية لهذا الاتفاق ، حيث دعا البيان المشترك الدول العربية الأخرى للدخول في هذا الاتفاق ، وقد صدرت بعض البيانات التي تعلن أن سوريا في طريقها للانضمام لهذا الاتفاق ، بحجة أنه سيكون بديلاً لجامعة الدول العربية ، التي فشلت - في رأيهم - في تحقيق آمال العرب ، وقد علل البعض هذا التقارب بأن له عوامله ، ومنها التقارب الجغرافي ، بالإضافة إلى العداء للناصرية^(٤) .

وقد استمر التعاون الأردني / السعودي ضد ج.ع.م. حتى شهدت الأمة العربية حدثاً جديداً ، وهو الثورة اليمنية التي نشبت عام ١٩٦٢م ، والتي قسمت العرب

(١) صلاح نصر ، عبد الناصر وتجربة الوحدة ، (د.ت.) ، ص ٢٦١ .

(٢) صلاح نصر ، مذكرات ، ج٢ ، ص ٣٠٧ .

(3) Reoceds of Jordan, Vol. 13, Joint Saudi- Jorndanian Statement, Amman, Aug 29, 1962, pp. 177- 178; 185- 188.

(٤) الأهرام ، الأربعاء ١٢ سبتمبر ١٩٦٢م ، ص ١ .

معسكرين ، أحدهما مؤيد للثورة بزعامة مصر ، والآخر مؤيد للإمامة بزعامة المملكة العربية السعودية ومعها المملكة الأردنية .

كما شهدت العلاقة بين البلدين تقارباً أشد داخل أروقة الجامعة العربية ، في العديد من القضايا التي طُرحت للمناقشة داخلها ، وقد ذُكر أن هناك مساعياً أردنية / سعودية لتعديل ميثاق جامعة الدول العربية ، ونقل مقرها من القاهرة إلى أى بلد عربي آخر^(١) .

وبخصوص الشكوى التي قدمتها سوريا ضد ج.ع.م. متهمه إياها بالتدخل في شؤونها الداخلية ، وإثارة القلق والتوتر عن طريق التفجيرات التي يقوم بها بعض الناصريين ، يذكر البعض أن تعاوناً أردنياً / سعودياً قد تم في مؤتمر (شتورا) ضد مصر ، لتدمير هيبة عبد الناصر ، وإضعاف زعامته في العالم العربي ، ولذلك رأى عبد الناصر أن الفرصة غير مواتية لدخول المعركة ، فأمر بعودة الوفد المصري إلى القاهرة^(٢) .

ولم تكن هذه القضية هي الوحيدة في هذه الفترة التي اجتمع عليها الملكان - بالإضافة إلى سوريا - ضد عبد الناصر ، بل كانت هناك قضية أخرى أقل سخونة ، وهي قضية تجديد رئاسة عبد الخالق حسونة كأمين عام للجامعة العربية ، حيث اعترض مندوبو الأردن وسوريا والسعودية على التجديد له ، واقترح البعض أن يكون مدة التجديد كل سنتين بدلا من خمس سنوات ، ولكن حسونة رفض ذلك^(٣) ، ومن البديهي أن يكون السبب الرئيسي في هذه المعارضة هو أن عبد الخالق حسونة هو

(١) الأهرام ، الجمعة ٩ فبراير ١٩٦٢م ، ص ١ .

(٢) صلاح نصر ، مذكرات ، ج٢ ، ص ٢٦٠ ، وللتفاصيل عن مؤتمر شتورا ، يُنظر : أحمد حمروش ،

قصة ثورة يوليو ، ج٣ ، ص ص ١٠٨ - ١١٧ .

(٣) وثائق الخارجية البريطانية :

مرشح ج.ع.م. ، وأن الإطاحة به - في رأيهم - إضعاف لمركز مصر ، وضربة قوية لعبد الناصر ، ولكن سرعان ما تدخلت بعض الأطراف العربية التي رأت أن في ذلك تشتيئا للجامعة ، خاصة وأن مصر كانت منذ مؤتمر شتورا تهدد بالانسحاب من الجامعة ، فقرر الأعضاء في ١٥ سبتمبر (أيلول) تجديد مدة حسونة خمس سنوات أخرى^(١).

هكذا تحرك الملك حسين في قضية الانفصال بالتعاون مع المملكة العربية السعودية، ذلك التحرك الذي كان مهما للمملكتين لحماية الانفصاليين من جهة ، وللحفاظ على مملكتيهما من النفوذ المصرى - الناصرى - من جهة ثانية ، وقد تحقق لهما ما أرادوا لفترة من الزمن .

استمرار التدخل الأردنى فى سوريا حتى بعد تثبيت الانفصال

هل توقف الملك حسين عن التدخل فى الشؤون السورية عقب الانفصال ؟ ، أم أنه استمر فى أعماله فى سوريا ، بدعوى أن لعبد الناصر طموحاته التي يريد تحقيقها فى سوريا ، عن طريق عودتها إلى طريق الوحدة مرة أخرى ؟

من الواضح أن الملك حسين كانت له أطماعه التي لا تقل عن أهداف عبد الناصر فى سوريا ، بل تزيد عنها ، فكانت أهداف عبد الناصر وحدوية من أجل تحقيق الوحدة العربية المنشودة ، أما الملك حسين فكانت له أهداف (هاشمية) ، وهى محاولة إحياء مشروع أجداده بشأن (سوريا الكبرى) ، ولذلك فإن حسينا ظل على سياسته بشأن سوريا ، وهى التدخل فى الشؤون السورية ، ومنها ما حدث إبان أزمة مارس (آذار) عام ١٩٦٢م فى سوريا ، حيث قام النحلاوى وبعض أعوانه بحركة انقلابية ، سجنوا خلالها عددا من الوزراء وعددا كبيرا من النواب ، كما احتجزوا رئيس الجمهورية ناظم القدسى، وأجبروه على تقديم استقالته ، حيث استلم اللواء عبد الكريم زهر الدين مقاليد الأمور فى البلاد ، ثم قام انقلاب مضاد لهذا الانقلاب فى ٣١ مارس (آذار) عام ١٩٦٢م ، بدا من خلاله : أن مصر كانت تسانده ، وقد تم تسوية الأمور

في أبريل (نيسان) عام ١٩٦٢م حيث اجتمع أربعون سياسياً سورياً للاتفاق على تشكيل حكومة وطنية ، تقرر بعدها عودة ناظم القدسي إلى رئاسة الجمهورية ، وقد عاد بالفعل في ١٢ أبريل (نيسان) عام ١٩٦٢م، ثم تولى بشير العظمة رئاسة الوزراء^(١) .

أما عن موقف الملك حسين من هذه الأزمة ، فيذكر البعض أن الملك حسين كانت له تدخلاته في سوريا حتى قبل وقوع هذه الأزمة ، وأن الحكومة السورية كانت قد ألفت القبض في فبراير (شباط) عام ١٩٦٢م على بعض العملاء الأردنيين ، وبجوزتهم بعض المبالغ التي كانت ستستخدم في الرشوة لإحداث بعض التغييرات في تركيبة الحكومة السورية ، لتكون أكثر ميلاً وموالاة للأردن^(٢) .

أى أن الأردن كانت تعمل على زعزعة الاستقرار في سوريا ، حتى تستطيع التدخل في شئونها كما يروق لها ، وحينما وقعت أحداث ٢٨ مارس (آذار) أخطر الملك حسين السفير البريطاني بأن لديه دلائل على أن هذه الأحداث استغلت لاسترجاع المواليين لعبد الناصر ، وأن سياسة الحكومة الأردنية الثابتة هي أن للشعب السوري وحده اختيار حكومته بحرية ، واختيار السياسة التي يريدونها ، بما في ذلك الوحدة مع مصر إذا كانوا هم يريدون ذلك ، وأفهمه - الملك - أنه لن يسمح لعبد الناصر بالتمكين لنفسه مرة أخرى في سوريا بالمكائد ، وأنه من الضروري أن تتحرك الأردن بسرعة شديدة لمنع مثل هذه المؤامرات ، كما ذكر رئيس وزراء الأردن للسفير البريطاني في عمان أنه يأمل في تحذير عبد الناصر ، من أن الأردن لن تسمح له بفرض حكمه على سوريا^(٣) ، وفي لقاء آخر بين السفير ورئيس وزراء الأردن ، أخبره الأخير أنه في حالة نجاح المجموعة الموالية لعبد الناصر في الجيش السوري في السيطرة على سوريا ، فإن الأردن سوف تتدخل لإزاحتهم ، وأنه في حالة تدخل الجيش الأردني ، فإنه سوف يعيد البرلمان الشرعي المنتخب والحكومة الشرعية ثم يعود إلى الأردن مرة أخرى^(٤) .

(١) يُنظر ، راشد كيلاني ، مرجع سابق ، ص ص ١٨١ - ١٨٣ .

(2) Records of Jordan, Vol. 13, Secret, British Embassy, Washington, to F.O., Feb 7, 1962, No. 10650/2/62, p. 9.

(3) Ibid., Secret, from Amman to F.O., Apr 1, 1962, No. 341, pp. 137-138.

(4) Ibid., Secret, from Amman to F.O., Apr 1, 1962, No. 341, pp. 137-138.

وقد أوضح الملك حسين للسفارة السورية في عمّان أن الأردن سوف تساعد على حفظ الأمن واستقلال سوريا ، وأن أى هجوم على سوريا سوف يُعتبر هجوماً على الأردن ، وهذا هو واجب الأردن^(١) ، وقد وصل الأمر بالحكومة الأردنية أن حذرت السوريين - بطريق غير مباشر - عن طريق السفير السوري بعمّان زهير الدالاتي من عودة الوحدة المصرية / السورية ، وطالبتهم بمعارضة عودة عبد الناصر إلى سوريا مرة أخرى ، وأنهم - أى السوريين - إن سمحوا بعودة الوحدة ، فسيكون هذا نوعاً من الغباء^(٢) .

وإزاء هذه التدخلات الأردنية في سوريا ، عاود سفيراً الولايات المتحدة وبريطانيا مرة أخرى تحذيراتها للحكومة الأردنية ، بعدم التدخل بشكل أو بآخر في الشأن السوري ، ففي لقاء بين السفير الأمريكي بعمّان ورئيس وزراء الأردن (وصفي التل) في ٩ إبريل (نيسان) عام ١٩٦٢م ، حذره من عاقبة تدخل الأردن في سوريا ، وأنه لن يكون له عذر في المستقبل إذا تم التعامل معه بشيء من التجاهل من قبل حكومة الولايات المتحدة في حالة تدخله في سوريا^(٣) .

كما التقى السفير البريطاني برئيس الوزراء وحذره من أن التدخل الأردني في سوريا سوف يجبر حكومة جلالة الملكة على إعادة النظر في علاقتها الحالية بالحكومة الأردنية^(٤) .

ويبدو أن تحذيرات سفيرى الولايات المتحدة وبريطانيا للحكومة الأردنية يعود في المقام الأول إلى خشيتهما من تردى وتدهور الأوضاع في المنطقة ، وأن الأمر قد يصل إلى حد الصدام بين الأردن وبين ج.ع.م. (مصر) ، بل قد يتسع الأمر

(1) Ibid., from Amman to F.O., Apr 15, 1962, No. 373, p. 149.

(2) Ibid., Confidential, from Amman to F.O., Apr 3, 1962, No. 365, p. 144.

(3) Ibid., Confidential, from Amman to F.O., Apr 13, 1962, No. 1037/62, p.

(4) Ibid., Secret, from Amman to F.O., Apr 2, 1962, No. 352, pp. 142-143.

وتتدخل إسرائيل، وهنا ستجد الدول الكبرى نفسها قد تورطت في حرب كبرى ستشمل معظم المنطقة، ولذلك جاء التدخل من جانب السفيرين مبكرا حتى يتم تسوية الأمور سلميا .

ومهما يكن من أمر ، فإن الذرائع والحجج التي كانت تتعلل بها الأردن للتدخل في الشأن السوري ، وهي المحاولات المصرية لاستعادة الوحدة بالقوة ، قد تلاشت مع قيام ثورة البعث في سوريا في مارس (آذار) عام ١٩٦٣ م ، تلك الثورة التي أحدثت تقاربا في العلاقات المصرية / السورية ، مما أدى في المقابل إلى تدهور مركز الملك حسين في سوريا مرة أخرى ، حتى أن البعض وصف حالة الأردن بعد هذه الثورة «بأن الدائرة قد أُغلقت حول الأردن مرة أخرى»^(١) ، أي أن الأردن قد أصبحت في عزلة مرة أخرى ، خاصة بعد أن دارت المفاوضات الثلاثية (المصرية/ السورية/ العراقية) من أجل قيام الوحدة الثلاثية^(٢) .

وعلى أية حال ، فإن العلاقات المصرية/ الأردنية نفسها قد بدأت في التحسن التدريجي مرة أخرى ، عقب لقاء هيكل بالملك حسين في باريس في سبتمبر (أيلول) عام ١٩٦٣ م ، حيث كانت هناك مشكلة كبرى قد جمعت بين الدولتين ، وهي مشكلة محاولة إسرائيل تحويل مجرى نهر الأردن ، تلك المشكلة التي وحدت الأهداف العربية مرة أخرى ، وأعادت تحسن العلاقات المصرية / الأردنية ، حتى إن السفير

(3) Dan: Op. Cit., p. 128.

(*) كانت هناك محاولة لإقامة اتحاد فيدرالي يضم مصر وسوريا والعراق ، جرت مباحثاته في الفترة من مارس (آذار) إلى أبريل (نيسان) عام ١٩٦٣ م ، وقد عُقدت ثلاث جولات من المحادثات وانتهت بالفشل بعد أن اتضح للقيادة المصرية أن سوريا والعراق ليستا جادتين في مسألة الاتحاد الفيدرالي ، وأن القصد منه كان التخلص من الخصوم السياسيين .

يُنظر : د. جاد محمد طه ، الوحدة العربية « المحاولات والإنجازات » ، (مركز زايد للتنسيق والمتابعة ، دولة الإمارات العربية ، أغسطس ٢٠٠٢ م) ، ص ٨٨ ، وللتفاصيل عن هذه المباحثات ، يُنظر : د. عبد الحميد عبد الجليل شلبي ، مرجع سابق ، ص ص ٥٣٤ - ٥٥٢ .

البريطاني في القاهرة ذكر أنه بسبب هذه المشكلة « فإن الدعاية المصرية سوف ترسم - بلا شك - صورة طيبة للملك حسين في مقابل الموقف الإسرائيلي »^(١).

تقويم

من خلال دراستنا لموضوع :

« موقف المملكة الأردنية من انفصال الجمهورية العربية المتحدة ١٩٦١م »

يتضح أن الموقف الأردني من هذه القضية قد تأثر بعوامل مختلفة ، لا يمكن إنكارها أو تجاهلها ، ومن بين هذه العوامل الأطماع الأردنية نفسها في سوريا ، ومحاولة إزاحة النفوذ المصري (الناصري) من سوريا ، حتى تستطيع الأردن أن تحل محل مصر هناك ، ولا يستطيع أحد إنكار ما كان للأردن من أطماع في سوريا من خلال مشروع سوريا الكبرى .

أما العامل الثاني الذي تأثر به الموقف الأردني فهو التوتر في العلاقات المصرية/الأردنية ، وخاصة بعد قيام الثورة العراقية في يوليو (تموز) عام ١٩٥٨م ، حيث سيطر على فكر الملك حسين أن مصر كانت ضالعة في تلك الثورة ، بهدف القضاء على الاتحاد الهاشمي (العربي) ، الذي جمع الأسرتين الهاشميتين في الأردن والعراق ، ولم يفتأ الملك حسين يذكر أن عبد الناصر كان يغار من التحالف الأردني/العراقي ، معتبرا أن هذا التحالف كان يهدد أطماع عبد الناصر في المنطقة^(٢) ، أي أن تدخل مصر في الثورة العراقية كان دافعا لحسين على تقويض الوحدة المصرية / السورية ، لأن تقويض الوحدة - كما ذكرت - كان أشد المناطق ألما بالنسبة لعبد الناصر ، ولذا فإن الملك حسين أخذ يتحجج الفرص حتى قام الانفصال ، فسعى إلى تثبيته وتقويته بشتى الوسائل ، حتى لا تضيع الفرصة ، ويستعيد عبد الناصر مركزه مرة أخرى في سوريا .

وثمة ملاحظة ، وهي أن الملك حسين لم يتحرك في هذا الاتجاه فقط ، بل إنه سعى لضرب مصر (عبد الناصر) في مواقع أخرى كانت تم السياسة المصرية ، فالجدير

(1) Records of Jordan, Vol. 13, Confidential, from British Embassy, Cairo, to F.O., Des 19, 1963, No. 1074, p. 747.

(2) Ibid., p. 125.

بالذكر أن الثورة المصرية حينما قامت - وكما ذكر عبد الناصر في كتابه فلسفة الثورة - كانت تعمل على توطيد علاقاتها بدوائر ثلاث هي الدائرة الإسلامية ، والدائرة العربية ، والدائرة الإفريقية ، وربما أن الأردن قد تعاونت على ضرب مصر - أو قل استطاعت أن تسبب لها ألماً - في الدائرة العربية ، بمساندتها للانفصال ، فلا بأس من أن تسعى لإزعاجها في موضع آخر وهو الدائرة الإفريقية ، حيث قام الملك حسين بإرسال بعثة أردنية إلى بعض الدول الإفريقية برئاسة (أحمد الطراونة) رئيس الديوان الملكي ، وكان هدف الرحلة - كما ذكر آنذاك - هو مد هذه الدول بنسخ من القرآن الكريم ، وبرامج إذاعية وتعليمية مترجمة ، وكتب مدرسية ومدرسين ، وفتح المؤسسات التعليمية الأردنية للأفارقة^(١) .

وجدير بالذكر أن الأردن ذات الإمكانيات الاقتصادية الفقيرة لم تكن تستطيع أن تقوم بهذه المساعدة إلا بمساندة الدول الغربية ، التي كانت تشجعه على هذه الخطوة ، وذلك لأن الغرب كان يدرك أن مصر تسعى سعياً حثيثاً لمساعدة الدول الإفريقية بكل ما أوتيت من إمكانيات ، وأن الأردن بما له من عقلية غربية يستطيع - في رأيهم - إحداث تغيير طيب في تلك البلدان^(٢) ، وهذا التغيير المنشود سيكون بالطبع الموالية لتلك الدول .

فتلك الأحداث - في رأيي - تدلل على أن الهدف الأكبر من وراء مساندة الأردن للحركة الانفصالية ، هو إزعاج مصر ، ومطاردة النفوذ المصري في مختلف الميادين ، سواء كانت عربية أم إفريقية .

وهناك ملاحظة جديرة بالاهتمام ، وهي أن مساندة الأردن للانفصال قد تلاقت مع المصالح الغربية التي أسعدها ذلك ، لأن الوحدة العربية بأي شكل من أشكالها تُعتبر خطراً وتحدياً لدولة إسرائيل ، ربيبة الدول الغربية ، ففي مذكرة من السكرتير التنفيذي لوزارة الخارجية الأمريكية باتل Battle إلى مساعد الرئيس الخاص لشؤون الأمن القومي ، فيما يخص سياسة الولايات المتحدة والغرب تجاه سوريا وكذلك ج.ع.م.

(1) Ibid., Vol. 12, Confidential, from Amman to F.O., Feb 24, 1961, p. 417.

(2) Ibid., pr 14, 1961, p. 418.

(مصر) ، لخص تلك السياسة بأنه يجب أن تُعامل الحكومة السورية الجديدة بشيء من الكياسة ، وأن على الغرب إظهار تعاطفه لاحتياجات سوريا السياسية والاقتصادية ، ويجب تجنب الضغوط الغربية على سوريا ، والتدخل في شئونها الداخلية ، وذهب إلى حد القول بضرورة حث الولايات المتحدة الأمريكية لإسرائيل بأن تعامل سوريا برفق ولين kid gloves^(١) ، وبالطبع فإن إسرائيل كانت أشد خوفا من وجود ج.ع.م. حيث اعتبرت الوجود المصرى فى سوريا بمثابة تطويق لإسرائيل ، وخطوة تمهيدية للانقضاض عليها^(٢) .

وبجمل القول : أن الوحدة العربية بأى شكل من أشكالها كانت - ولا زالت - هدفا للشعوب العربية ، ولكن للأسف وجد من يعمل ضد هذه الوحدة ، إما لمصالح وأهواء شخصية ، وإما لمصالح أعداء الأمة ، وعلى وجه الإجمال : فإن فى وحدتنا عزتنا، وفى تفرقنا انكسارنا .

(1) FRUS, Vol. XVII, Memorandum, from the Dept of State, Executive Secretary, Battle, to the President's Special Assistant for National Secretary Affairs, Bundy, Washington, Nov 16, 1961, pp. 331- 338.

(*) للتفاصيل عن موقف إسرائيل من قيام ج.ع.م. ، يُنظر : د. عبد الحميد عبد الجليل شليى ، موقف إسرائيل من قيام ج.ع.م. ، (مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، مجلد ٥٧ ، العدد ٤ ، أكتوبر

قائمة المصادر والمراجع

- ١ - وزارة الإرشاد القومي « مصلحة الاستعلامات » ، مجموعة خطب وتصريحات وبيانات الرئيس جمال عبد الناصر ، (القسم الثالث ، فبراير ١٩٦٠م - ١٩٦٢م) .
- ٢ - د. يوسف خوري (إعداد) ، مشاريع الوحدة العربية ١٩١٣م - ١٩٨٧م «وثائق» ، (مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ط ١ ، يوليو ١٩٨٨م) .

ثانيا : وثائق أجنبية

- 1- Foreign Relations of the U.S., Vol. XVII, 1961- 1963.
- 2- Priestland, Jane (ed): Records of Jordan 1919- 1965, Vol. 11, 12, 13, (Archive ed, 1996).

ثالثا : مذكرات

- ١ - اللواء/ أحمد غمّيز : سوريا من الوحدة إلى التصحيح « شهادات ونظرات » ١٩٥٨م - ١٩٧٠م ، (دار التوحيدى ، حمص ، سوريا ، ط ١ ، ١٩٩٩م) .
- ٢ - أسعد الكوراني : ذكريات وخواطر مما رأيت وسمعت وفعلت ، (رياض الريس للكتب والنشر ، بيروت ، ط ١ ، يناير ، ٢٠٠٠م) .
- ٣ - أكرم الحوراني: مذكرات أكرم الحوراني ، ج٤ ، (مكتبة مدبولي ، القاهرة ، ط ١ ، ٢٠٠٠م) .
- ٤ - راشد كيلان : مذكرات راشد كيلان عسكريا ودبلوماسيا ، (منشورات دار مجلة الثقافة ، دمشق ، ١٩٩٠م) .
- ٥ - صلاح نصر : مذكرات نصر ، ج٢ «الانطلاق» ، (دار الحَيّال ، القاهرة ، سبتمبر ١٩٩٩م) .

رابعا : مراجع وبحوث عربية

- ١ - أحمد حمروش : قصة ثورة ٢٣ يوليو ، ج٣ « عبد الناصر والعرب » ، (مكتبة مدبولي ، ط ٢ ، د.ت.) .
- ٢ - د. جاد طه : الوحدة العربية « المحاولات والإنجازات » ، (مركز زايد للتنسيق والمتابعة ، دولة الإمارات العربية ، أغسطس ٢٠٠٢م) .

- ٣ - د. سامي عصاصة : أسرار الانفصال « مصر وسوريا » ، مؤسسة دار الشعب للطباعة والنشر ، ط ١ ، يناير ١٩٨٩ م .
- ٤ - صلاح نصر : عبد الناصر وتجربة الوحدة ، (د.ت) .
- ٥ - د. عبد الحميد عبد الجليل شلبي : العلاقات السياسية بين مصر والعراق ١٩٥١ - ١٩٦٣ م ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سلسلة تاريخ المصريين ، رقم ١٩٠ ، ٢٠٠٠ م .
- ٦ - د. عبد الحميد عبد الجليل شلبي : موقف إسرائيل من قيام الجمهورية العربية المتحدة ، (مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، مج ٥٧ ، عدد ٤ ، أكتوبر ١٩٩٧ م) .
- ٧ - د. عبد الحميد محمد الموائى : مصر في جامعة الدول العربية « دراسة في دور الدولة الأكبر في التنظيمات الإقليمية ١٩٤٥ - ١٩٧٠ م » (الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٣ م) .
- ٨ - محمد حسنين هيكل : ما الذى جرى في سوريا ، (سلسلة كتب قومية ، الدار القومية للطباعة والنشر ، د.ت .) .
- ٩ - محمد حسنين هيكل : عبد الناصر والعالم ، (دار النهار للنشر ، بيروت ، ١٩٧٢ م) .
- ١٠ - محمد حسنين هيكل : سنوات الغليان « حرب الثلاثين سنة » ، ج ١ ، (مركز الأهرام للترجمة والنشر ، القاهرة ، ط ١ ، ١٩٨٨ م) .
- ١١ - محمد فرج : النضال الشعبى في سوريا وقصة الانقلابات ، (كتب قومية ، الدار القومية للطباعة والنشر ، د.ت .) .
- ١٢ - مدوح رضا : سوريا قبل حكم الأسد « مذكرات في السياسة العربية » ، (دار العروبة للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ، ط ١ ، ١٤١٥ هـ / ١٩٩٤ م) .

خامسا : مراجع مترجمة

- ١ - بيبير بوداغوفا : الصراع في سوريا « لتدعيم الاستقلال الوطنى » ١٩٤٥ - ١٩٦٦ م ، ترجمة د. ماجد علاء الدين ، د. أنيس المتنى ، (دار المعرفة ، دمشق ، سوريا ، ط ١ ، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٧ م) .
- ٢ - جورج أكيرك : السياسة العربية المعاصرة « ترجمة عبد الواحد الإمباني ، محمد الخولى » ، (سلسلة كتب سياسية ، الدار القومية للطباعة والنشر ، د.ت .) .
- ٣ - مالكولم كير : عبد الناصر والحرب العربية الباردة ١٩٥٨ - ١٩٧٠ م ، ترجمة د. عبد الرؤوف أحمد عمرو ، (الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سلسلة تاريخ المصريين ، العدد ٩٦ ، ١٩٩٧ م) .

سادسا : مراجع أجنبية

- 1- Adhid, Isam Dawisha: The U.A.R. and the Arab East 1958- 1963 «A Foreign Policy Analysis», Ph.D. Un of London, Dept of International Relations, London School of Economic, July 1974.
- 2- Dan, Uriel: King Hussein and the Challenge of Arab Radicalism «Jordan 1955- 1957», (Oxford Un Press, 1989).
- 3- Vevo, Joseph & Ilan Pappé: Jordan in the M.E. «The Making of Pivotal State 1948- 1988», (Frank Cass, England, 1st ed, 1994).
- 4- Snow, Peter: Hussein «A Biography», (Barrie & Jenkins, London, 1st ed, 1972).

سابعا : دوريات

الأهرام : سبتمبر ، أكتوبر ١٩٦١ م .

فبراير ، سبتمبر ١٩٦٢ م .

* * *

أزمة الحدود العراقية - الكويتية
من استقلال الكويت حتى انضمامها للأمم المتحدة
١٩ يونيو ١٩٦١ - ١٤ مايو ١٩٦٣

دكتور / فطين أحمد فريد على

أستاذ التاريخ الحديث المساعد
كلية التربية - جامعة قناة السويس

oboeikan.com

أزمة الحدود العراقية - الكويتية من استقلال الكويت حتى انضمامها للأمم المتحدة ١٩ يونيو ١٩٦١ - ١٤ مايو ١٩٦٣

الحقيقة أن أزمة الحدود العراقية - الكويتية لم تبدأ من فراغ ، فقد أصدر الملك غازي ملك العراق في أوائل شهر فبراير عام ١٩٣٩ أمرا ملكيا لرئيس أركان الجيش العراقي : الفريق حسين فوزي باحتلال الكويت في غسق الليل ، كما اتصل الملك غازي بمتصرف لواء البصرة - على محمود الشيخ على - وأمره أن يضع كافة الإمكانيات الإدارية تحت تصرف الجيش لاحتلال الكويت حالاً^(١) .

وتمكن ناجي شوكت - نائب رئيس الوزراء ورئيس الوزراء بالوكالة لغياب نوري السعيد إضافة لمنصبه كوزير للداخلية - أن يصرف الملك غازي عن تفكيره العاجل باحتلال الكويت^(٢) .

وعلى الرغم من عمق روابط العلاقات الكويتية / العراقية - بحكم صلات الجوار والاختلاط بينهما ؛ فأهالي العراق يرحلون إلى الكويت ويقيمون بها كما أن للكثير من الكويتيين أملاكاً ومصالح حيوية في العراق - إلا أن العلاقات كثيراً ما شهدت

(١) السيد عبد الرازق الحسيني ، تاريخ الوزارات العراقية ، الجزء الخامس ، ص ص ٩٢ - ٩٣ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٩٣ .

فترات توتر وقلق لاسيما منذ إعلان الاستقلال العراقي في الثلاثينيات من القرن العشرين ، وكثيرا ما أثارت الحكومات العراقية المتعاقب لحكام الكويت لاسيما بعد تدفق النفط بها ، ولقد عجز الحكام العراقيون عن ضم الكويت إلى بلدهم بالأساليب الدبلوماسية وبالتدود إلى الحكومة البريطانية إبان فترة تولي نوري السعيد للوزارة العراقية . ففي الخمسينيات فشلت في ضمها إلى حلف بغداد كما فشلت في ضمها إلى الاتحاد العربي الهاشمي والذي ضم في عضويته كلا من العراق والأردن عام ١٩٥٨ ، ولقد أرجع السبب في رفض شيوخ الكويت الانضمام إلى هذا الاتحاد إلى تخوفهم من أن تكون هذه خطة لدمج العراق في الكويت على اعتبار أن الأخيرة جزء من الأولى^(١) .

لكن فكرة هذا الاتحاد قضى عليها وهي في المهد بقيام ثورة ١٤ يوليو ١٩٥٨ في العراق بقيادة اللواء عبد الكريم قاسم والتي تمكنت من القضاء على الملكية وإعلان النظام الجمهوري ، ومنذ بداية الثورة عمل الشيخ عبد الله السالم - حاكم الكويت - على تأكيد تأييده لها وسعى لتوثيق صلته بالنظام الجديد^(٢) ، وفي الوقت نفسه فإن عبد الكريم قاسم في بداية حكمه حرص بدوره على توثيق الروابط بين البلدين^(٣) ، فلقد ساندت الحكومة العراقية مطالب الكويت حتى قبل استقلالها بالانضمام إلى العديد من المنظمات والمؤسسات العربية والدولية استكمالاً لشخصيتها الدولية^(٤) .

وظلت قضية الحدود العراقية / الكويتية ، كما ظلت قضية الكويت ، وضمها إلى العراق ، تراود الملك غازي حتى يوم وفاته في حادث سيارة مساء الثلاثاء ٤ إبريل ١٩٣٩ . كما ظلت هذه القضية تراود كل حكام العراق الذين تولوا حكم العراق بعد ذلك وحتى مجيء عبد الكريم قاسم .

(١) فكرت نامق عبد الفتاح ، سياسة العراق الخارجية في المنظمة العربية ١٩٥٣ - ١٩٥٨ ، ص ص ٤٨٠ - ٤٨٣ .

(٢) ميمونة الخليفة الصباح ، الكويت في ظل الحماية البريطانية ، ص ص ٤٥٤ - ٤٥٥ .

(٣) جمال زكريا قاسم ، الخليج العربي : دراسة لتاريخه المعاصر ١٩٤٥ - ١٩٧١ ، ص ص ٨٨ - ٨٩ .

(٤) حكومة الكويت ، دائرة المطبوعات والنشر ، حقيقة الأزمة بين الكويت والعراق ، ص ٢٣ .

بريطانيا واستقلال الكويت

مما لا شك فيه أن الحركات التحررية ، التي ظهرت في بعض دول الخليج العربي ، في الخمسينيات والستينيات ، ولدت قناعة لدى بريطانيا ، مفادها أن المعاهدات التي عقدتها مع إمارات الخليج ، منذ القرن التاسع عشر ، أصبحت عاجزة عن المحافظة على الأمن في الخليج ، أو استمرار سيطرة لندن عليه . وأدركت أن علاقاتها أمست لا تنشأ ، كما كان عليه الحال من قبل ، بينها وبين الحكام فقط ، بل مع أطراف أخرى ظهرت في الخليج ، تتمثل في أبنائه ، وفي تيار القومية العربية ، الزاحف إلى هذه المنطقة^(١) .

وهكذا ، تزعزعت مقولة اللورد جورج ناثانيل كيرزون ، حاكم الهند ونائب الملكة فيها ، عام ١٩٠٣ ، عن منطقة الخليج ، « إن سلطنة الحكومة البريطانية ، ينبغي أن يكون هو الأقوى » كما أصبح هارولد ديكسون ، الوكيل السياسي البريطاني في الكويت ، يعترف علنا بتأثير التيارات القومية في الكويت ، ومنطقة الخليج العربي بأسرها ، في النفوذ البريطاني ، حتى أصبح الشعار السائد في الكويت ، أن « الجزيرة للعرب » ، و « الكويت للكويتيين » . وفي ذلك إشارة واضحة إلى ضرورة التخلص من النفوذ البريطاني . ولقد أرجع ديكسون قوة المد القومي العربي في دول الخليج ، والكويت على وجه الخصوص ، إلى محاولات شعب مصر للتحرر ، وإلى قضية فلسطين ، والثورة في الجزائر ، والعدوان الثلاثي على مصر ، عام ١٩٥٦ ، والوحدة بين مصر وسورية ، التي أيدها شعوب الخليج ، وطالبت بعض الدول العربية بالانضمام إليها^(٢) .

وإزاء هذه التطورات الداخلية ، والمتغيرات الإقليمية ، بدأت المطالبة الكويتية بالاستقلال ، منذ أواخر الخمسينيات ، وفي مطلع عام ١٩٦١ ، كثف الشيخ عبد الله

(١) نازلي معوض أحمد وآخر ، « الكويت من الإمارة إلى الدولة » ، مركز البحوث والدراسات ، القاهرة : نوفمبر ١٩٩٣ ، ص ٤٥٦ .

(٢) ميمونة خليفة الصباح ، « علاقات الكويت الخارجية خلال القرن الثامن عشر » ، المؤرخ العربي ، عدد ٣٤ سنة ١٩٨٨ ، ص ص ٤٣٨ - ٤٤٣ .

السالم الصباح ، أمير الكويت ، ضغوطه لتأمين الاستقلال الدائم . مما يوضح تأثير المد القومي في الضمير الشعبى العام فى الكويت ، بما هيأها ، مجتمعا ونظام حكم لإعلان استقلالها^(١) .

ولقد أخذت بريطانيا المطالبة الكويتية بشكل جدى ، إذ أعدَّ إدوارد هيث Edward Richard George Heath ، المسئول عن مكتب الشؤون الخارجية فى الحكومة البريطانية ، آنذاك مذكرة سرية ، تدارستها الحكومة البريطانية ، فى ٦ أبريل ١٩٦١ ، فى شأن ما يجب عمله تجاه مطالب أمير الكويت . وجاء فى المذكرة : « إن العلاقات بين الكويت والمملكة المتحدة تستند إلى الاتفاقية الخاصة ، لعام ١٨٩٩ . وإن الاتفاقية فى حدِّ ذاتها ، لا تعنى أن الكويت تحت الحماية البريطانية » ، لكن موضوع الحماية ، أشير إليه فى ٣ نوفمبر ١٩١٤ ، ضمن رسالة من المقيم السياسى البريطانى فى الخليج ، لدى اندلاع الحرب العالمية الأولى ، حملت اعتراف الحكومة البريطانية بأن مشيخة الكويت ، هى حكومة مستقلة ، تحت الحماية البريطانية . وقد جرى تأكيد ذلك ، فى رسالة غير منشورة ، فى ٢١ أكتوبر ١٩٥٨ ، من الوكيل السياسى البريطانى فى الكويت إلى أميرها ، تقول : « إننا سوف نظل مستعدين ، كما كنا فى الماضى ، لتوفير أى دعم ، قد يكون ضروريا فيما يتعلق بعلاقات الكويت بالدول الأخرى ، وجرت الإشارة فى البرلمان البريطانى فى ٤ فبراير ١٩٥٩ ، إلى أن مشيخة الكويت هى دولة مستقلة ، تلتزم حكومة صاحبة الجلالة بحمايتها »^(٢) .

وينتقل إدوارد هيث ، فى الجزء الثانى من مذكرته ، إلى مناقشات جرت فى مجلس الوزراء ، فى نوفمبر ١٩٥٨ ، وصدر بعدها بيان فى مارس ١٩٦٠ يشير إلى أن الكويت أصبحت مسئولة تماما عن إدارة علاقاتها الدولية . وقد أنهى ذلك الإعلان مفعول اتفاقية عام ١٨٩٩ ، ويشير هيث إلى أن وزير خارجية بريطانيا ، اقترح فى مايو

(١) صلاح العقاد ، « التيارات السياسية فى الخليج العربى » ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة : ١٩٧٤ ، ص ص ٢٤٩ - ٢٥٠ .

(2) Heath, Eldward. Kuwait: Future Relation with the united kingdom, BD,C
(16) Copy. No. 32, 6th, April 1961, pp. 28 - 31.

١٩٦٠ نتيجة هذا الإعلان ، أنه « إذا أثار أمير الكويت موضوع إعادة النظر في الاتفاقية الخاصة ١٨٩٩ ، فإنني أرى منح المقيم السياسى فى الخليج ، أو الوكيل السياسى فى الكويت ، صلاحية الإجابة بنفسه وتأكيد أن حكومة صاحبة الجلالة ستكون مستعدة لدراسة هذا الأمر»^(١) .

ويشير هيث ، فى الجزء الثالث من مذكراته إلى أن أمير الكويت ، أثار هذا الموضوع بالفعل ، وهو يرغب فى الحصول على الاستقلال التام . وأبلغ ذلك إلى المقيم السياسى البريطانى فى الخليج فى ٤ يناير ١٩٦١ . وذكر الشيخ عبد الله السالم ، أمير الكويت « أن الظروف شهدت تغيرات أساسية عما كانت عليه عندما وضعت اتفاقية عام ١٨٩٩ ، وأنه لم يبق من تلك الاتفاقية إلا علاقات الصداقة القوية ، التى تربط بين البلدين » ولذا ، فإنه يرغب فى عقد اتفاقية مع حكومة صاحبة الجلالة الآن تستبدل اتفاقية عام ١٨٩٩ ، وتؤكد هذه الصداقة ، استعداد بريطانيا لمساعدة الكويت . وذكر هيث أن أمير الكويت تواق إلى إتمام هذا المطلب قبل أن يغادر المقيم السياسى البريطانى منطقة الخليج فى مايو ١٩٦١ »^(٢) .

وحدد هيث ، فى مذكرته مجموعة من النقاط التى يجب على الحكومة البريطانية أن تأخذها فى الحسبان وهى^(٣) :

- (أ) إن اتفاقية ١٨٩٩ ، لا تتفق مع مسئولية الكويت عن شئون علاقاتها الدولية.
- (ب) إن استمرار الوصول لى موارد النفط الكويتية وبالأسعار الأفضل هو أمر حيوى، بالنسبة إلى المصالح البريطانية . وأن هذه المصالح سوف تتعرض للخطر إذا خسرت الكويت استقلالها ، فمن الواضح أنه بينما تنمو الشخصية الدولية للكويت ، فإنها سوف ترغب بوسائل شتى ، فى إظهار أنها باتت لا تعتمد علينا .

(1) Ibid, pp. 34- 35.

(2) Ibid, pp. 37- 38.

(3) Ibid, pp. 39- 44.

لكن يجب أن نستغل الفرص التي يوفرها لنا دورنا في الحماية ، وذلك حتى نضمن قدر الإمكان ألا ترفض الكويت وتفشل ترتيباتنا المالية ، وتظل حاملة بشكل جيد للجنية الاسترليني .

(ج) إن الاتفاقية الجديدة بين المملكة المتحدة والكويت التي ذكرت أن حكومة بريطانيا ملتزمة بمساعدة الكويت على صيانة استقلالها ، سوف تُعرض طرفي الاتفاقية لهجوم ، على أساس أنها تمثل « علاقة إمبريالية » ، ولا تتفق مع التطورات الجارية في أماكن أخرى ، لإدانة الحماية البريطانية ، أو على الأقل جعل الكويت أقل اعتمادا على بريطانيا في سياستها النفطية والمالية .

(د) من الأفضل للجانين عقد اتفاقية جديدة ، بدل اتفاقية ١٨٩٩ ، تتجنب إثارة الاعتراضات الواردة في الفقرة السابقة .

(هـ) في حال قبول الحكومة البريطانية إنهاء اتفاقية ١٨٩٩ ، وقبولها إصرار الأمير على للحصول على بعض التأكيدات ، أن الإلغاء لا يقلل من التزام بريطانيا بحماية الكويتيين ، فهناك ثلاث صيغ يمكن مناقشتها مع أمير الكويت ، لتوقيع اتفاقية دولية ملزمة يتعين تسجيلها لدى هيئة الأمم المتحدة ، وهذه الصيغ هي :

١ - تبادل مذكرات بين المقيم السياسي البريطاني وأمير الكويت ، تُبطل ببساطة مفعول اتفاقية ١٨٩٩ مرفقة بتأكيد شفهي حول اعتراف حكومة صاحبة الجلالة ، باستمرار التزامها بمساعدة الكويت على صيانة استقلالها ، وأن تُنشر وتسجل المذكرات المتبادلة ، لدى الأمم المتحدة . أما التأكيد الشفهي ، الذي يمكن تسجيله في المذكرة ، فلا ينشر ولا يسجل في الأمم المتحدة . واقترح هيث أن الحكومة إذا سُئلت في البرلمان عما إذا كانت المذكرات تؤثر في التزاماتنا القائمة ، أن تجيب بالنفي .

٢ - تبادل مذكرات تشير إلى إبطال مفعول اتفاقية ١٨٩٩ ، مع تأكيد أن هذا الإبطال لا يؤثر في الالتزام البريطاني المستمر بمساعدة الكويت على صيانة استقلالها ، الهدف من ذلك إيضاح أن الالتزام البريطاني قائم ومستمر ، دون أن يحدد زمن معين لصلاحيه هذا الالتزام .

٣ - تعقد معاهدة ، بعيدا عن الصيغ الرسمية تضمن الالتزامات البريطانية نفسها ، ويكون لها الأثر القانوني عينه ، كما في البند (٢) لكنها تكون خاضعة للتصديق في البرلمان . واقترح هيث ، في مذكرته كذلك ضرورة عرض بريطانيا لاتفاقيات بديلة مع الكويت في مجالى الصداقة والتجارة ، بعد الاتفاق على إنهاء مفعول اتفاقية ١٨٩٩ بأية صيغة من الصيغ الثلاث المقترحة^(١) .

ولقد تضافرت مجموعة من العوامل والمعايير الوطنية والإقليمية والدولية أدت جميعها إلى جعل استقلال الكويت ضرورة لا غنى عنها ، وهو أمر سلمت به بريطانيا بهدوء ؛ لأنها أمست غير قادرة على الحفاظ على وضعها الخاص في الكويت ، خاصة بعد أن دخلت دول أخرى حلبة الصراع حول الخليج ، والمنطقة وثرواتها ، وفي مقدمتها الولايات المتحدة الأمريكية ، والاتحاد السوفيتي ، ومن ثم جاءت الحصيلة النهائية لتفاعل جميع العوامل سالفة الذكر في ضرورة استقلال الكويت ، وإنهاء الحماية البريطانية عليها ، إذ أعلن صباح ١٩ يونيو ١٩٦١ في كل من لندن والكويت ، تبادل رسائل بين أمير الكويت الشيخ عبد الله السالم الصباح والسير وليم هنرى توكير لويس (١٩٦١-١٩٦٦) Sir William Henry Tucker Luce ، المقيم السياسى البريطانى فى الخليج ، انطوت على إعلان استقلال الكويت ، وإنهاء اتفاقية ٢٣ يناير ١٨٩٩ ، على أساس أنها تتعارض وسيادة الكويت^(٢) ، واستبدال معاهدة جديدة بما ، تُبنى على الصداقة والتعاون بينهما^(٣) . وأذاعت الحكومة الكويتية فى اليوم عينه

(1) Ibid, p. 46.

(٢) وثائق مركز البحوث والدراسات الكويتية ، مذكرة السير ويليام لومى المقيم السياسى البريطانى فى الخليج فى ١٩ يونيو ١٩٦١ إلى الشيخ عبد الله السالم الصباح ، انظر كذلك مذكرة الشيخ عبد الله السالم الصباحى فى ١٩ يونيو ١٩٦١ ردا على مذكرة المقيم البريطانى فى الخليج .

(٣) المركز الوطنى الكويتى لوثائق العدوان العراقى على الكويت ، « ترسيم الحدود الكويتية العراقية - الحق التاريخى والإدارة الدولية » ، الطبعة الأولى ١٩٩٢ ، الكويت ، ص ٤٠ .

(١٩ يونيو)، البيان الكويتي حول إلغاء معاهدة ٢٣ يناير ١٨٩٩^(١). وتُعرف المعاهدة الجديدة بين الكويت وبريطانيا باتفاقية «التشاور»، بينما وصفها العراق باتفاقية «المساعدة»^(٢).

وهكذا، وبتبادل الرسائل في ١٩ يونيو ١٩٦١، بين حاكم الكويت والمقيم السياسي البريطاني في الخليج، نيابة عن حكومة صاحبة الجلالة، الملكة إليزابيث الثانية Elizabeth II ملكة بريطانيا، حصلت الكويت على استقلالها التام. وفي اليوم التالي، ٢٠ يونيو ١٩٦٠، ألقى أمير الكويت خطاباً، عبر الإذاعة، هنا فيه الشعب الكويتي بالاستقلال، ثم قال: «ولا يفوتني، هنا أن أنوه بالروح الطيبة التي سادت المباحثات وأن أسجل للجانب البريطاني الصديق ما تحلى به من رحابة الصدر وحُسن التفهم للأمور، والرغبة الصادقة في التفاهم، مما جعل الوصول إلى الغاية المنشودة في سهولة ويسر مؤكداً ومضموناً منذ البداية»^(٣).

وفي ٢١ يونيو ١٩٦١، أرسلت اتفاقية التشاور إلى نيويورك لتسجيلها في الأمم المتحدة، كاتفاقية ومعاهدة بين الكويت وبريطانيا، وبدأت الكويت من الفور تمارس سيادتها فطلبت في ٢٣ يونيو ١٩٦١ الانضمام إلى كل من جامعة الدول العربية، والأمم المتحدة^(٤).

الدوافع والعوامل البريطانية لإنهاء الحماية على الكويت:

حمل بريطانيا على إنهاء حمايتها للكويت بعد ٦٢ عاماً، مجموعة من المتغيرات الاقتصادية والاستراتيجية والنفسية، التي من أجلها عُقدت معاهدة الحماية في ٢٣ يناير ١٨٩٩^(٥).

(١) وزارة الثقافة الكويتية، وثائق مركز البحوث، البيان الكويتي يوم ١٩ يونيو ١٩٦١، انظر كذلك،

أيمن نور، «اغتيال الكويت»، شركة الإنسان، القاهرة: ١٩٩٠، ص ١٥ - ١٦.

(٢) جمال زكريا قاسم، «تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر»، المجلد الخامس، ص ٣٤٩.

(٣) مركز بحوث الشرق الأوسط بجامعة عين شمس، «الكويت وجوداً وحدوداً»، ص ١٢٨.

(٤) جمال زكريا قاسم، «الخليج العربي: دراسة لتاريخه المعاصر ١٩٤٥ - ١٩٧١»، القاهرة: ١٩٧٤،

معهد البحوث والدراسات العربية، ص ٨٨.

(٥) المرجع السابق، ص ٢٣ - ٢٦.

تتلخص أهم العوامل الاقتصادية التي دفعت بريطانيا إلى قبول استقلال الكويت ، فيما يلي^(١) :

- ١ - انعدام الأهمية الاقتصادية لاحتكار صيد اللؤلؤ من الخليج ، نتيجة لازدياد قيمة اللؤلؤ الصناعي .
- ٢ - تراجع أهمية احتكار بريطانيا لتصدير السلاح ، بدخول أطراف أكثر منها قوة وقدرة إلى السوق .
- ٣ - النفط من أهم العوامل ، التي أدت إلى سرعة إعلان بريطانيا استقلال الكويت ، وعدم تمسكها بها ، فلقد أدركت لندن أهمية التغيرات ، التي طرأت على دول الخليج ، ومنها الكويت ، وأصبح لزاما عليها أن تغير أسلوب تعاملها مع حكام تلك الدول . فعملت على أن تكون الشركات البريطانية حائزة عقودا احتكارية، وامتيازات في هذا المجال ، لفترات مستقبلية طويلة . مما يحقق أهدافها تحقيقا أفضل مما لو كانت موجودة وجودا مباشرا يؤمن سيطرتها على المنطقة ، خاصة أن حركات التحرر الوطني رافضة لهذا الوجود ، أى أن بريطانيا ، فضلت أن تمارس أسلوب الاستعمار غير المباشر ، أو الاستعمار الاقتصادي .

العوامل الاستراتيجية وقد تمثلت فيما يلي^(٢) :

- ١ - فقد الخليج إثر استقلال باكستان في ١٤ أغسطس ١٩٤٧ ، والهند في ١٥ أغسطس ١٩٤٧ ، أهميته التقليدية، المنبثقة من كونه خط الدفاع الأمامي، بالنسبة إلى إمبراطورية بريطانيا السابقة في الهند .
- ٢ - قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة ، الرقم ١٥١٤ ، في ١٤ ديسمبر ١٩٦٠ ، بإعلان منح الاستقلال للبلدان والشعوب المستعمرة ، وذلك نتيجة للعدوان الثلاثي على مصر ، عام ١٩٥٦ .

(١) ميمونة خليفة الصباح ، « الكويت في ظل الحماية البريطانية » ، الطبعة الأولى ١٩٨٨ ، ص ٤٥٧ .

(٢) جمال زكريا قاسم، «الخليج العربي: دراسة لتاريخه المعاصر» ١٩٤٥-١٩٧١» ، ص ص ٢٧- ٢٨ .

٣ - ازدياد النفوذ الدولي المنافس لبريطانيا ، في الخليج العربي ، من قِبَل ألمانيا والاتحاد السوفيتي وفرنسا والولايات المتحدة الأمريكية ، نظرا إلى تدهور مركز بريطانيا ، وعدم قدرتها على تحمل مسؤوليتها في المنطقة أو حمايتها .

٤ - ازدياد حركات التحرر الوطني المناهضة للوجود البريطاني في المنطقة .

الدوافع النفسية وأهمها^(١):

١ - الاقتناع بأن اتفاقية عام ١٨٩٩ تتعارض مع مسؤولية الكويت عن شئون علاقاتها الدولية .

٢ - رغبة بريطانيا في الحفاظ على علاقات الود والصداقة ضمانا لمصالحها مع الأسرة الحاكمة في الكويت .

٣ - رغبة بريطانيا في عدم إثارة المشاعر العدائية العربية تجاهها في المنطقة .

وهكذا، حاولت بريطانيا قدر جهدها أن تجد طريقة تموّه بها وجودها الاستعماري. فمنذ عام ١٩٦١ أخذت تمنح بعض إمارات الخليج مظهر الدول المستقلة للحفاظ على مصالحها في المنطقة تحت هذا الستار ، وقد كانت البداية في ١٩ يونيو ١٩٦١ بإعلان استقلال الكويت^(٢) .

موقف العراق من استقلال الكويت :

عقب إعلان ما توصلت إليه الحكومتان الكويتية والبريطانية ، بادر كثير من الدول العربية إلى تأييد تلك الخطوة . إلا أن العراق اتخذ موقفا ، فقد أرسل عبد الكريم قاسم، رئيس الحكومة العراقية^(٣) برقية تهنئة في ٢٠ يونيو ١٩٦١ إلى شيخ الكويت ، صيغت

(١) المصدر السابق ظن ص ص ٢٩ - ٣١ .

(٢) يعقوب عبد العزيز الرشيد ، « الكويت في ميزان الحقيقة والتاريخ » ، ص ص ٧٥ - ٧٨ .

(٣) اللواء عبد الكريم قاسم ولد في بغداد ٢١ نوفمبر عام ١٩١٤ ، كان مساعداً أركان حرب الشؤون الإدارية في حرب فلسطين عام ١٩٤٨ ، قاد ثورة ١٤ يوليو ١٩٥٨ ضد الملك فيصل وشغل منصب القائد العام للقوات المسلحة وتولى رئاسة الوزارة من ١٤ يوليو ١٩٥٨ إلى ٨ فبراير ١٩٦٣ . ثم قتل في انقلاب بعثي قاده عبد السلام عارف في ٨ فبراير ١٩٦٣ حيث أعدم يوم ٩ فبراير ١٩٦٣ رمياً بالرصاص .

بطريقة لم يتم فيها الإشارة إلى استقلال الكويت ، وإنما عمد إلى إثارة «المطالب التاريخية» للعراق في الكويت . إذ تضمنت البرقية ترحيب العراق بإلغاء اتفاقية ١٨٩٩ ، على أساس أنها اتفاقية غير شرعية عُقدت دون علم الدولة العثمانية التي كانت الكويت تابعة لها ، وأن الذي عقد هذه الاتفاقية هو الشيخ مبارك بن صباح ، قائمقام الكويت التابع لولاية البصرة ، وفي نهاية البرقية حذر عبد الكريم قاسم شيخ الكويت ، من تقبل استعمار جديد^(١) .

ولم يلبث أن اتضح الموقف العراقي حيث عقد عبد الكريم قاسم مؤتمرا صحفيا في مقره الدائم في وزارة الدفاع يوم الأحد ٢٥ يونيو ١٩٦١ ، طالب فيه بضم الكويت إلى العراق ، على أساس أنها مقاطعة تابعة للبصرة ، بل إنها تشكل جزءا متكاملًا من العراق ، وبعدم وجود حدود بين البلدين وطلب من شيخ الكويت أن يعاون على إعادة الأمور إلى مجراها الطبيعي . وأعلن أن الجمهورية العراقية قررت « حماية الشعب العراقي في الكويت » ، وأنه في صدد إصدار مرسوم جمهوري بتعيين شيخ الكويت قائمقام لقضاء الكويت ، الذي يتبع لواء البصرة ، وأكد أن لدى الحكومة العراقية من الوثائق التاريخية ، ما يثبت تبعية الكويت للبصرة ، وأن العراق سيطالب بحقوقه في كل شبر من الأراضي التي انتزعتها المستعمر ، وكان هذا تلميحا إلى المطالبة بمناطق أخرى ، جنوب الكويت ، كالإحساء وقطر^(٢) . كما صرح بأن الجمهورية العراقية لن تتنازل قيد أنملة عن أية قطعة من أرض الكويت ، مؤكدا أنه عندما يصرح بذلك فإن له القدرة التامة على تنفيذ ما يقوله^(٣) .

(١) وثائق مركز البحوث والدراسات الكويتية ، برقية تهنئة من عبد الكريم قاسم يوم ٢٠ يونيو ١٩٦١ إلى الشيخ عبد الله السالم ، انظر كذلك مصطفى عبد القادر النجار ، « التاريخ السياسي لعلاقات العراق الدولية بالخليج العربي » ، ص ص ٣٠٤ - ٣٠٥ .

(٢) مركز بحوث الشرق الأوسط بجامعة عين شمس ، « الكويت وجودا وحدودا » ، ص ص ٩٦ - ٩٧ .
(3) Stocking, G. Middle East Oil A study in Political and Economic Controversy, Vanderbit University Press 1972, pp. 232- 235, See also.

جمال زكريا قاسم ، « تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر » ، المجلد الرابع ، ص ٧١ .

وقبل هذا المؤتمر الصحفي كان مجلس الوزراء العراقي قد عقد جلسات بحث خلالها مسألة الكويت ، والطريقة التي يجب اتباعها لإعادتها إلى الوطن الأم . وظهر في مجلس الوزراء رأيان^(١) :

الأول : ويمثله العسكريون ، وعلى رأسهم عبد الكريم قاسم . وكانوا يرون أن الكويت لن تعود ، إلا من طريق الحل العسكري ، باحتلال الكويت ، وإعلان ضمها إلى العراق .

الثاني : ويمثله المدنيون ، ويؤكدون ضرورة اتباع السبل الدبلوماسية لضم الكويت . وكان من أشد أنصار هذا الرأي وزير الخارجية العراقي ، هاشم جواد إذ أوضح أن السبل الدبلوماسية هي أسهل الوسائل وأضمنها لعودة الكويت ، ولا حاجة إلى التدخل العسكري . كما أنه يستطيع أن يحصل على تأييد ٧٠٪ من دول العالم . وبعد مناقشات طويلة ، اقتنع الوزراء العسكريون بوجهة نظر الخارجية . وكذلك اقتنع عبد الكريم قاسم . ولهذا، عُقد المؤتمر الصحفي من دون أي تحرك عسكري^(٢) .

وفي ٢٦ يونيو ، استدعت وزارة الخارجية العراقية الممثلين الدبلوماسيين لدى بغداد، وسلمت إليهم مذكرة رسمية ، تؤكد فيها أن الكويت جزء لا يتجزأ من العراق^(٣) . كما وزعت مذكرات رسمية من طريق سفارتها في القاهرة ، وعلى الدول الأعضاء في الجامعة العربية ، تؤكد فيها أن المعاهدة التي أبرمتها بريطانيا مع الكويت في ١٩ يونيو ١٩٦١ ، لا تستند إلى أسس سليمة ، وأن بريطانيا تعمل على المحافظة على نفوذها ، تحت غطاء منح الاستقلال الشكلى للكويت ، الذى تعتمد فيه فصل الكويت عن العراق^(٤) .

(١) ليث عبد الحسن الزبيدى ، « ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ في العراق » ، منشورات مكتبة اليقظة العربية بغداد ، الطبعة الثانية ١٩٨١ ، ص ٣٠٢ .

(٢) ليث عبد الحسن الزبيدى ، « ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ في العراق » ، ص ٣٠٢ .

(٣) نازلى معوض وآخر ، « الكويت من الإمارة إلى الدولة » ، ص ٤٧٠ ، انظر كذلك جريدة الأهرام ، العدد الصادر في ٢٧ يونيو ١٩٦١ ، نص مذكرة العراق إلى ممثلى الدول العربية والأجنبية .

(٤) مركز البحوث والدراسات الكويتية ، « ترسيم الحدود الكويتية العراقية » ، طبعة ١٩٩٣ ، ص ٥٠ ، انظر كذلك مذكرة الحكومة العراقية التي وزعت على سفراء الدول العربية والأجنبية في بغداد يوم ٢٦ يونيو ١٩٦١ .

وبعد أن طالب العراق بضم الكويت ، هدّد عبد الكريم قاسم بقطع العلاقات الدبلوماسية بأية دولة ، تعترف باستقلال الكويت ، أو تتبادل معها التمثيل الدبلوماسي^(١) .

وعلى الرغم من ردود الفعل الراضة للدعوى العراقية من قِبَل الدول العربية ، ومن قِبَل دول أخرى ، كبريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية ، فإن العراق استمر في دعواه مطالبا بضم الكويت إلى العراق ، ومعلنا قرب القضاء على الاستعمار وأعوانه في الكويت ، وقرب استرداد « القضاء العربي السليب » . بل إنه أخذ يهدد بأنه سوف يشعل « حربا ضروسا في الشرق الأوسط ، إذا لم تضم الكويت إلى العراق » . وتحولت أقوال عبد الكريم قاسم إلى أفعال وسلوك عدائي ، حينما استولت القوات العراقية على ١٠ سفن كويتية أثناء رسوها في ميناء البصرة العراقي . كما أصدرت الحكومة العراقية قرارا لتجميد أموال الكويتيين في المصارف العراقية . بل نفّذ العراق تهديده بإعادة النظر في علاقاته الدبلوماسية بالدول التي تعترف بالكويت وتنشئ علاقات دبلوماسية بها ، فقطع علاقته ببلبنان والولايات المتحدة الأمريكية ، وإيران والأردن واليابان وتونس . كما رفض مبدأ الاستفتاء في الكويت مدعيا أن أغلبية سكانها من الباكستانيين والإيرانيين والأجانب مؤيدين للشيخ عبد الله السالم^(٢) .

الادعاءات العراقية بأحقية العراق في تبعية الكويت له :

فشل العراق خلال الفترة من ١٩ يونيو ١٩٦١ إلى ٨ فبراير ١٩٦٣ ، في أن يقنع المجتمع الدولي بادعاءاته في شأن الكويت . ومن دراسة التصريحات والبيانات والخطب العراقية العديدة التي نشرت خلال هذه الأزمة ، يتضح أن المطالب العراقية استندت إلى جانب الادعاءات التاريخية إلى بعض المبررات ، ومن بينها^(٣) :

(١) مركز البحوث والدراسات الكويتية ، « العدوان العراقي على الكويت » ، ص ٤٩ .

(٢) مركز بحوث الشرق الأوسط بجامعة عين شمس « الكويت وجودا وحدودا » ، ص ١٠٠ .

(٣) وثائق السفارة العراقية بالقاهرة ، جريدة الجمهورية العراقية ، مؤتمر عبد الكريم قاسم الصحفي

يوم ١٩٦١/٦/٢٥ ، انظر كذلك ميمونة الخليفة الصباح ، « الكويت في ظل الحماية البريطانية » ،

ص ص ٤٦٦ - ٤٦٧ ، أحمد أبو حاكم ، « تاريخ الكويت » ، الجزء الأول ، الكويت ١٩٦٧ ،

ص ص ١١٨ - ١٢٤ ، جمال زكريا قاسم ، « الخليج العربي » (١٩٤٥ - ١٩٧٦) ، ص ٨١ .

(أ) رغبة العراق في توصيل المياه العذبة إلى الكويت ، ومن ثم ، شدد هجومه على حكام الكويت ، لاستخدامهم محطات تحلية مياه الخليج للحصول على مياه الشرب ، مما حقق للشركات الأجنبية مكاسب طائلة نتيجة بيع آلات التقطير ، بينما نقل المياه من شط العرب إلى الكويت ، هو أقل نفقة وأكثر نفعاً من وجهة نظر العراق .

(ب) حاول العراق أن يقنع العالم العربي بأنه يحمل اتجاهات تقدمية من بينها أن من واجبه إنقاذ الشعوب العربية، وفي مقدمتها شعب الكويت من مستغلي مواردها.

(ج) ترديد العراق أن كلمة «الكويت» ، كلمة لا تستخدم إلا في العراق ، ولا تزال تطلق على الكثير من المواقع فيه ، مثل « كوت العمارة » ، و « كوت الزين » ، وغيرهما .

(د) برر العراق دعوته إلى ضم الكويت ، بأنه لا يمكن التفريق بين أهالي الكويت ، والبصرة والزيبر بحكم الصلات اليومية ، والمصاهرات القائمة بينهم ، وأنه إذا ما اجتمع أهالي البصرة والكويت ، فلا يستطيع أحد أن يفرق بينهما . وعلى الرغم من تركيز عبد الكريم قاسم في تلك الروابط ، إلا أنه أعلن رفضه لمبدأ الاستفتاء الشعبي في الكويت ، متعللاً أن أغلبية سكان الكويت من العناصر الوافدة .

(هـ) ركز العراق في تبرير الدعوة إلى ضم الكويت في أن أهالي الكويت يرغبون بل يطالبون بالعودة إلى وطنهم الأصلي العراق .

وعلى الرغم من أن الأزمة التي أثارها عبد الكريم قاسم، لم تتجاوز البعد الإعلامي، فإن هناك من يرى أنه كان يفكر فعلاً في غزو الكويت ، ولم يحل دون ذلك سوى المشكلات الداخلية العديدة ، التي أخذ يواجهها . إذ اندلعت الثورة الكردية في الشمال واتخذت شكلاً أقرب ما يكون إلى الحرب الأهلية، مما يترك له فرصة للاعتداء على الكويت^(١) .

(١) مركز البحوث والدراسات الكويتية ، «العدوان العراقي على الكويت - الحقيقة والمأساة» ، ص ص ٥١-٥٢ ، انظر كذلك مركز بحوث الشرق الأوسط بجامعة عين شمس، «الكويت وجوداً وحدوداً»، ص ص ٩٦-٩٨ ، جمال زكريا قاسم ، «تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر» ، المجلد الرابع ، ص ص ٧٣-٧٤ .

دوافع عبد الكريم قاسم :

على الرغم من مضيّ عدة عقود على وقوع تلك الأزمة ، إلا أنه لم تتكشف حتى وقتنا الحاضر الدوافع الرئيسية المحركة لعبد الكريم قاسم ، للمطالبة بضم الكويت على الرغم من إدراكه استحالة تنفيذ أطماعه بحكم المعارضة العربية والدولية فضلا عن معارضة الشعب الكويتي الذي حصل على استقلاله ، وهو يتشبث به ، ومع ذلك فقد ركز كثير من الباحثين في الدافع الاقتصادي ، وأن الثروة النفطية الضخمة التي تفجرت في الكويت أغرت العراق بمحاولة ضمها إليه ، أو على الأقل الاستفادة من القروض والمنح ، التي يمكن أن تقدمها الكويت له . لذا ، فالدافع الاقتصادي قد يكون سببا رئيسيا في نشوب العديد من الأزمات^(١) .

كما ترتبط الأزمة التي افتعلها عبد الكريم قاسم بحالته النفسية ، وهي ظاهرة وضحت في العديد من تصرفاته السياسية ، حتى أصبح يُعدّ من أكثر الشخصيات غموضا في السياسة العربية المعاصرة^(٢) .

واللافت للنظر أن سياسة العراق خلال تلك الأزمة قد تناقضت مع سياسته إزاء الكويت قبل الأزمة ، إذ كان يعامل الكويت كدولة مستقلة حتى قبل أن تلغى اتفاقية ١٨٩٩ مع بريطانيا ، وظهر ذلك واضحا في جوازات السفر ، وإجراءات الجمارك بين البلدين ، وفي كتب التاريخ والجغرافيا ، في معاهد التعليم العراقية ، وهي تشير إلى تاريخ الدول المجاورة للعراق ، ومنها الكويت ، وإلى الخرائط الجغرافية التي تضمنت خط الحدود الفاصل بين البلدين^(٣) .

(١) المركز الوطني الكويتي لوثائق العدوان العراقي على الكويت ، « ترسيم الحدود الكويتية العراقية - الحق التاريخي والإدارة الدولية » ، إعداد لجنة من المختصين ، الطبعة الأولى ١٩٩٢ ، ص ص ٤٥ - ٤٦ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٤٦ .

(٣) مركز بحوث الشرق الأوسط بجامعة عين شمس ، « الكويت وجودا وحدودا » ، ص ٩٨ .

وقد اختلفت الآراء في أسباب مسلك رئيس الوزراء العراقي عبد الكريم قاسم وحكومته تجاه الكويت ، والتي تمثلت في الآتي :

هناك فريق يرجع السبب إلى الظروف والعوامل الداخلية التي كان يمر بها العراق وحكومته ، في تلك الفترة^(١) . ومن هذه العوامل تزايد الصراع العلني بين بغداد والأكراد الذي أدى إلى قيام عبد الكريم قاسم باستقدام الملا مصطفى البرازاني ، من الاتحاد السوفيتي ، في ٥ أكتوبر ١٩٥٨ ، إلى العراق بعد أن ظل لاجئاً سياسياً لمدة ١١ سنة ، لتهدئة الأوضاع ، إلا أن ذلك لم يكن كافياً لإنهاء هذا الصراع ، فقد كان الأكراد يحاولون الحصول على ما أسموه بمعاملة أعدل ، وكان استيائهم راجعاً إلى ماطلة الحكومة المركزية ، وعدم استعدادها لمنحهم الاستقلال الذاتي الذي وعدتهم به ، والمذكور في مواد الدستور العراقي المؤقت ، الصادر في خريف ١٩٥٨ . كما إن إخفاق مشروع الإصلاح الزراعي ، وحظر زراعة الطُّبَّاق في المنطقة الكردية ، وقوانين الضرائب الجديدة ، ونقل الموظفين الأكراد إلى مناطق أخرى في العراق ، كانت من العوامل التي ساعدت على إثارة الأكراد ، ودفعتهم إلى ثورة في الشمال ، أُبِيد فيها فصائل عراقية عن آخرها ، بين الجبال والتلال ، واستولى الثوار على مناطق كاملة ، بمدنها وقراها ، وفصلوها عن بقية مناطق العراق . وقد تزامنت هذه الأحداث مع التحرك العراقي نحو المطالبة بضم الكويت . فأراد عبد الكريم قاسم إيجاد حل سريع لتغطية الموقف المتدهور في الشمال ، والذي أصبح حديث الشعب العراقي كله . وكان الحل في رأيه هو فتح «جبهة التغطية» تحويل أنظار الشعب العراقي إلى الخارج ، بما يؤدي إلى تماسك الجبهة الداخلية ، فأصدر الأوامر إلى بعض اللوئات الموالية لها بالتحرك صوب حدود الكويت والاحتشاد بقرمها ، ورافق هذا الأمر تهديدات

(١) ليث عبد الحسن الزبيدي ، « ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ في العراق » ص ص ٣٠٢ - ٣٠٣ ، انظر كذلك جمال زكريا قاسم ، « تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر » ، المجلد الرابع ، ص ص ٧٥ - ٧٦ ، أحمد فوزي ، « عبد الكريم قاسم » ، القصة الكاملة ، ص ص ٢٤٩ - ٢٥٥ ، ميمونة خليفة الصباح « الكويت في ظل الحماية البريطانية » ، ص ٤٨٥ .

وإنذارات من عبد الكريم قاسم ، ووزير خارجيته ، هاشم جواد ، شغل الرأي العام العراقي ، بإثارة المشاعر القومية وتوجيهها نحو التزعة التوسعية الإقليمية^(١) .

ثمّة فريق ثان ، يرى أن عبد الكريم قاسم ، كان مدفوعاً إلى التهديد بغزو الكويت من جانب بريطانيا حتى تقضى على المعارضة التي أثيرت في شأن اتفاقية المساعدة (التشاور) التي وقعت مع الكويت في ١٩ يونيو ١٩٦١ ، ويدللون على ذلك بسرعة الإنزال البريطاني للقوات في الكويت إذ إن الأمر كان مديراً وأن السلطات العسكرية البريطانية كانت على علم مسبق بهذه الأزمة ، وأرادت بريطانيا أن تتخذ منها مثلاً لردع أى حاكم من حكام الخليج ، إذا ما فكر في المطالبة بالاستقلال ، تحت تمديد العراق أو إيران ، أو المملكة العربية السعودية كما تضمن بذلك سكوت الكويت عن المطالبة بسحب أرصدتها المجمدة بعد استقلالها عن بريطانيا^(٢) .

فضلاً عن فريق ثالث يرجع السبب إلى طموحات عبد الكريم قاسم وأطماعه في ثروة الكويت ونفطها ، وإذا لم يستطع تنفيذ مشروعه في الحصول على ثروة الكويت ، فعلى الأقل يمكنه الاستفادة من القروض الكويتية ، التي يمكن أن تقدمها الكويت ، نتيجة ضغطه عليها ، وعلى كل فقد كان قاسم يأمل أنه لدى دعوته إلى ضم الكويت ستقوم ثورة شعبية فيها ، تتولى عملية الاندماج بين الدولتين^(٣) .

إضافة إلى فريق رابع ، يرى أن الهدف الحقيقي للعراق لم يكن ضم الكويت ولكن منعها من الارتباط بالمملكة العربية السعودية ، أو الوصول إلى عقد أى اتحاد معها^(٤) .

(١) نازلي معوض وآخر ، « الكويت من الإمارة إلى الدولة » ، ص ص ٤٧٥ - ٤٧٦ ، انظر كذلك السيد السيد حجاج ، مشروع أيزنهاور للشرق الأوسط في العلاقات الدولية ١٩٥٦ - ١٩٦٠ ، رسالة ماجستير ، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ، جامعة القاهرة ، ١٩٦٧ ، ص ص ٢٢٠ - ٢٢٤ .

(٢) جمال زكريا قاسم «الخليج العربي : دراسة لتاريخه المعاصر ١٩٤٥ - ١٩٧١» ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ١٩٧٤ ، ص ص ٩٤ - ٩٦ ، وكذلك طبعة دار الفكر ١٩٩٦ ، ص ص ٧٤ - ٧٥ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٩٦ .

(٤) بطرس بطرس غالي « جامعة الدول العربية وتسوية المنازعات المحلية » ، جامعة الدول العربية ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ١٩٧٧ ، ص ص ٨٤ - ٨٥ ، انظر كذلك ميمونة خليفة الصباح ، « الكويت في ظل الحماية البريطانية » ، ص ٤٨٦ .

وأيساً ما كان الأمر ، فإن دعوة عبد الكريم قاسم ، إلى ضم الكويت إلى العراق لم يكتب لها النجاح ، لأنها قامت على دعاوى تاريخية تخفى وراءها دوافع مصلحة تُحلّ مبدأ الضم محل منطق الوحدة ، فعدها كثير من المؤرخين دعوة توسعية على أساس إقليمي مجرد من المفهوم الموحدى بوجهته القومية الصحيحة^(١) .

وننوه هنا إلى أن فريقاً من القوميين العراقيين قام بتأييد المطالب العراقية في الكويت ، وإن اعترضوا على الأسلوب القسرى الذى اتبعه قاسم وذكروا ذلك في مذكرة إلى الأمين العام لجامعة الدول العربية^(٢) .

الموقف العراقى من الدول المؤيدة للكويت :

بعد أن هدّد عبد الكريم قاسم بقطع العلاقات الدبلوماسية بأية دولة ، تعترف باستقلال الكويت ، أو تتبادل معها التمثيل الدبلوماسى ، ونفّذ تهديده بالفعل ، حيال بعض الدول العربية والأجنبية ، إذا به ينسحب من جامعة الدول العربية على أثر قبولها عضوية الكويت فى ٢٠ يولية ١٩٦١ ، وانضمامها إلى معاهدة الدفاع المشترك ، وقد عمدت السلطات العراقية إلى عدة إجراءات ، منها تعديل الخريطة السياسية للعراق ، لتضم الكويت ، ومنع قبول تأشيرات السفر إلى العراق ، الصادرة عن حكومة الكويت ، وتبع ذلك استمرار سحبها لجميع البعثات الدبلوماسية من العواصم العربية والأجنبية ، التى استقبلت بعثات دبلوماسية كويتية ، وأخذت القائمة تتسع يوماً بعد يوم ، مما وضع العراق فى عزلة عربية ودولية شديدة^(٣) .

وفى الحقيقة أن كل ما نجح فيه العراق خلال تلك الفترة هو تأجيل قبول الكويت فى الأمم المتحدة ، من خلال مساعدة سوفيتية ، وكانت وجهة نظر حكومة موسكو فى طلب هذا التأجيل أن ذلك من شأنه مساعدة الدول العربية على السعى إلى إيجاد

(١) نازلى معوض وآخر « الكويت من الإمارة إلى الدولة » ، ص ٤٧٧ ، انظر كذلك ميمونة خليفة

الصباح ، « الكويت فى ظل الحماية البريطانية » ، ص ص ٤٨٦ - ٤٨٧ .

(٢) جريدة الأهرام ، العدد الصادر فى ٣ يوليو ١٩٦١ .

(٣) مركز بحوث الشرق الأوسط بجامعة عين شمس ، « الكويت وجوداً وحدوداً » ، ص ١٠٠ .

تسوية لخلافاتها . وقد استند العراق في طلبه من الأمم المتحدة رفض انتساب الكويت إلى المنظمة الدولية ، إلى حجج ثلاث^(١) .

- إن الكويت ليست دولة ، ولم تكن كذلك في يوم من الأيام .
- إنها ظلت دائماً من الناحية القانونية والتاريخية جزءاً لا يتجزأ من العراق .
- إن الكويت لا تعدو أن تكون مستعمرة بريطانية مما لا يؤهلها للانضمام إلى المنظمة الدولية .

موقف الأحزاب العراقية من المطالبة بضم الكويت :

كان موقف الأحزاب العراقية متبايناً إزاء قضية ضم الكويت إلى العراق . فقد أيد الحزب الوطني الديمقراطي مطالبة عبد الكريم قاسم بضم الكويت إلى العراق ، على أساس أنها جزء من العراق ، فصلها الاستعمار البريطاني عنه ، وأقام فيها كياناً شكلياً لخدمة مصالحه ، وعليه فإن الكويت لا تستوفي مقومات الدولة ، وإنها مرتبطة اجتماعياً واقتصادياً بالعراق ، من طريق البصرة ، غير أن الحزب لم يؤيد ضمها من دون موافقة الدول العربية الأخرى ، ورأى في تهديد عبد الكريم قاسم بقطع العلاقات الدبلوماسية بأية دولة تعترف بالكويت سياسة غير مجدية بل متهورة لأنها تؤدي إلى عزل العراق عربياً ودولياً^(٢) .

أما الحزب الشيوعي ، فكان يعارض الطريق التي حاول عبد الكريم قاسم اتباعها لضم الكويت ويؤكد أن المسألة الأساسية آنذاك هي مسألة تحرير الكويت من الاستعمار وهي جزء من قضية العرب الكبرى ، قضية التحرر العربي ، وإن كانت أكثر مساساً بالعراق ، نظراً إلى العلاقات الخاصة التاريخية والاجتماعية والاقتصادية ، ولهذا رأى أنه لا ينبغي التركيز في هذا الهدف الرئيسي والمباشر ، الذي من شأنه أن يجمع تحت لوائه كل القوى العربية المعادية للاستعمار ، ولا يدع مجالاً لدسائس الاستعمار ضد هذه القضية العادلة ، وضد التضامن العربي^(٣) .

(١) مركز بحوث الشرق الأوسط بجامعة عين شمس ، « الكويت وجوداً وحدوداً » ، ص ١٠١ .

(٢) ليث عبد الحسن الزبيدي ، « ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ في العراق » ، ص ٣٠٤ .

(٣) المصدر السابق ، ص ص ٣٠٤ - ٣٠٥ .

ولم يصدر حزب البعث العربي الاشتراكي في العراق بياناً حول الموضوع . وقد فسّر موقفه على صالح السعدى نائب أمين سر الحزب بقوله : « إن أسلوب عبد الكريم قاسم الدعائي في المطالبة بالكويت ، جعل القوى والأحزاب القومية ترى في دعوته هذه أنها مجرد ضم إقليمى لأن الوحدة لا تتحقق إلا بالأسلوب الشعبى وبالاستناد إلى الجماهير »^(١) .

كما استنكرت الأحزاب والقوى القومية الأخرى مطالبة عبد الكريم قاسم بالكويت باعتبار أن دوافعها إقليمية وشخصية يراد بها بعث الروح في حكمه الموشك على الأختيار، وأصدرت حركة القوميين العرب بياناً في ١٠ يوليو ١٩٦١ بهذا الشأن جاء فيه « إن الدعوة في جوهرها دوافع إقليمية وشخصية ، كان النضال العربى قد لفظها ، منذ زمن طويل، وأن هذا الادعاء لا يمت إلى دعوة الوحدة العربية بصفة»^(٢) .

أما الرابطة القومية في العراق فإنها أصدرت بياناً أكدت فيه أن عبد الكريم قاسم ، في دعوته هذه قد نفذ رغبة الاستعمار الإنجليزى وعبر عن أمانيه وأطماعه أصدق تعبير، عند مناداته بضم الكويت جبراً ، وبالقوة إلى العراق، حتى يمكننا أن نقول إن السفير البريطانى في بغداد قد لقنه حتى الكلمات التى قالها في المؤتمر الصحفى الذى عقده في وزارة الدفاع^(٣) .

وأضاف بيان الرابطة القومية أن الآثار المترتبة على ذلك هي^(٤) :

- عودة القوات البريطانية إلى الخليج العربى ووقوفها في وجه تيار التحرر العربى في المنطقة .
- تخوف جميع أمراء الخليج ومشايخه من المطالبة بالاستقلال والسيادة ، ذلك لأن تخليهم عن الاستعمار سيؤدى في النهاية إلى ابتلاعهم بالقوة، من قبل أية دولة عربية مجاورة .

(١) ليث عبد الحسن الزبيدى ، « ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ في العراق » ، ص ٣٠٦ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٠٥ ، نقلاً عن بيان حركة القوميين العرب « حول أزمة الكويت » بتاريخ ١٠ يوليو ١٩٦١ .

(٣) المصدر السابق ، ص ص ٣٠٥ - ٣٠٦ نقلاً عن بيان الرابطة القومية في العراق « حول أزمة الكويت المفتعلة » بتاريخ ٩ يوليو ١٩٦١ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٣٠٦ .

- تجديد الخلافات وتوسيع شقّة الخلاف بين الدول العربية نتيجة لهذه المشكلة .
- محاولة عبد الكريم قاسم ، أن يشغل بدعوته شعب العراق عن جرائمه في الداخل .

رد فعل الكويت على الادعاءات العراقية :

كان لقرار عبد الكريم قاسم وحكومته ضم الكويت إلى العراق ، رد فعل سريع في الكويت تجلّت مظاهره في الآتي :

في ٢٦ يونيو ١٩٦١ ، أصدرت حكومة الكويت بياناً ردت فيه على ما ورد في المؤتمر ، وأعلنت فيه استنكارها قرار عبد الكريم قاسم وتصميمها على الدفاع عن أراضيها وكيانها كدولة عربية مستقلة ، وجاء في البيان : أوردت بعض وكالات الأنباء كما أذاعت محطة الإذاعة من بغداد تقارير عن المؤتمر الصحفي الذي عقده اللواء عبد الكريم قاسم في ٢٥ يونيو ١٩٦١ والذي طالب فيه بدولة الكويت ، فإذا صحت هذه التقارير فإن حكومة الكويت تعلن أن الكويت دولة عربية مستقلة ذات سيادة كاملة معترف بها دولياً ، وأن حكومة الكويت ومن ورائها شعب الكويت بأسره مصممة على الدفاع عن استقلال الكويت وحمائته ، وأن حكومة الكويت إذ تعلن ذلك واثقة تماماً أن جميع الدول الصديقة المحبة للسلام، ولا سيما الدول العربية الشقيقة، ستساندها في المحافظة على استقلالها ، وقد شفعت حكومة الكويت بيانها بإعلان حالة الطوارئ ووضعت قواتها على الحدود المتاخمة للعراق على أثر تحرك القوات العراقية قرب حدود الكويت وحشدتها هناك مع اتخاذها استعدادات واسعة^(١).

وفي الوقت نفسه دخلت حكومة الكويت في مشاورات سرية عاجلة مع بريطانيا لبحث الموقف الناشئ عن قرار عبد الكريم قاسم وقد جرت هذه المشاورات بين الشيخ عبد الله سالم الصباح ، والسير جون رتشموند ممثل بريطانيا في الكويت^(٢) . وأكدت الحكومة الكويتية ، في بيان آخر أصدرته في ٢٩ يونيو ١٩٦١ : أن الادعاءات

(١) نازلي معوض أحمد وآخر « الكويت من الإمارة إلى الدولة » ، ص ٤٧٢ ، انظر كذلك جمال زكريا

قاسم ، « تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر » ، المجلد الرابع ، ص ص ٧٤ .

(٢) نازلي معوض أحمد وآخر « الكويت من الإمارة إلى الدولة » ، ص ٤٧٣ .

العراقية لا تتركز على أى أساس من الصحة التاريخية ، وإن دلت على شيء فقد دلت على مغالطات فى التاريخ والواقع ، كما أسفرت عن مطامع إقليمية غير مشروعة^(١) .

وفى يوم ٣٠ يونية ١٩٦١ ، صدر بيان عن مجلس الكويت الأعلى ، يشرح فيه للشعب الكويتى أسباب طلب الكويت المعونة العسكرية من المملكة العربية السعودية ، وبريطانيا ، جاء فيه : « إن أمير الكويت أبرق إلى الملك سعود ، ملك المملكة العربية السعودية يخبره بالتهديد العراقى بضم الكويت ، وعن الغزو المتوقع من العراق ، وأن الملك سعود استجاب من الفور وأمر بإرسال قوات عسكرية لمساعدة الكويت استناداً على اتفاقية الدفاع المشترك التى سبق عقدها بين البلدين فى يوليو ١٩٤٧ » ، ومضى البيان يقول : « إنه بالنظر إلى الموقف الذى وضعنا قاسم فيه - بحرين ، لا مختارين فإن أمير الكويت طلب المساعدة العسكرية من حكومة المملكة المتحدة التى لبت الطلب على الفور ، وأرسلت قواتها لمساعدة جيش الكويت فى دفاعه عن الوطن ، وأن هذه القوات ستسحب حالما تنتهى الأزمة^(٢) .

رجع سبب وصول القوات البريطانية إلى الكويت ، بمذه السرعة إلى الخطاب الذى أرسله الشيخ عبد الله السالم الصباح إلى السير جون ريتشموند ممثل بريطانيا فى الكويت طالباً فيه معونة الحكومة البريطانية ، وإلى المشاورات العاجلة بينهما لبحث الإجراءات التى يجب اتخاذها لمواجهة قرار حكومة العراق خاصة بعد إغلاق الكويت حدودها معه ، والتى ترتب عليها وصول قوات المظلات البريطانية الموجودة فى قاعدة البحرين إلى الكويت ، كما أرجأت القوات البريطانية ووحدات الأسطول البريطانى رحيلها عن الكويت بعض الوقت ، إذ أن قرار عبد الكريم قاسم جاء فى اللحظة عينها ، التى كان فيها الأسطول البريطانى يتأهب للجلاء عن الكويت على أثر إعلان استقلالها^(٣) .

(١) نازلى معوض أحمد وآخر « الكويت من الإمارة إلى الدولة » ، ص ٤٧٢ .

(٢) مركز البحوث والدراسات الكويتية « العدوان العراقى على الكويت - الحقيقة والمأساة » ،

الطبعة الثانية ١٩٩٤ ، ص ٥٤ ، انظر كذلك عبد الله الحاتم ، « من هنا بدأت الكويت » ، دمشق

طبعة ١٩٦٢ ، ص ٣٦٧ ، ميمونة خليفة الصباح ، « الكويت فى ظل الحماية البريطانية » ، ص ص

٤٨٦ - ٤٨٧ .

(٣) نازلى معوض أحمد وآخر « الكويت من الإمارة إلى الدولة » ، ص ٤٧٣ .

وأصدرت الحكومة الكويتية كتاباً بعنوان : «حقيقة الأزمة بين الكويت والعراق»، وأوردت به مجموعة من الوثائق الرسمية ، الصادرة عن حكومة العراق نفسها ، في أوقات مختلفة ، وبعضها يحمل توقيع عبد الكريم قاسم ، وأخرى تحمل توقيع وزير خارجيته ، هاشم جواد ، ومثال ذلك رسالته إلى شيخ الكويت في ١٩ ديسمبر ١٩٥٨ يطلب فيها فتح قنصلية عراقية في الكويت ، وكلها مراسلات تنطوي على اعتراف ضمني باستقلال الكويت ، إلى جانب مراسلات أخرى ، تضمنت رغبة العراق في توسيع مجالات التعاون الاقتصادي والثقافي بين البلدين وبيانات مشتركة بينهما ، كما أن العراق أيد طلب الكويت الانضمام إلى عدة منظمات ، دولية وعربية ، استكمالاً لشخصيتها الدولية^(١) . وأحاط الشيخ عبد الله السالم الصباح ، كذلك الدول العربية علماً بموقف عبد الكريم قاسم من استقلال الكويت وكذلك ، أعلمت جامعة الدول العربية والأمم المتحدة بالتهديد العراقي^(٢) .

وقد لجأت الكويت إلى ذلك ، لأن المسئولين الكويتيين وجموع الشعب ، أخذوا على حين غرة من أمرهم ، عندما أعلن العراق أن استقلال الكويت مزيف ووجدوا أنفسهم غير قادرين وغير مستعدين على الإطلاق لمواجهة القوة العسكرية العراقية المستحفة ، والتهديدات العلنية الواضحة ، وفي حقيقة الأمر أن الكويت كانت تملك جيشاً صغيراً يراوح قوامه بين ألفين وثلاثة آلاف جندي فقط ، إضافة إلى ١٢ طائرة ، أربعة منها عمودية في حين كان لدى العراق جيش قوامه أكثر من ٦٠ ألف جندي ومعدات وأسلحة وطائرات مقاتلة سوفيتية حديثة ، وفي ظل هذه الأوضاع أصبح هدف الكويت الرئيسي والأساسي هو الدفاع عن النفس أمام التهديدات العراقية^(٣) .

(١) جمال زكريا قاسم « الخليج العربي : دراسة لتاريخه المعاصر ١٩٤٥ - ١٩٧١ » ، ص ص ١٠٨ -

(٢) نازلي معوض أحمد وآخر « الكويت من الإمارة إلى الدولة » ، ص ٤٧٣ .

(٣) عبد الرضا على أسيري « الكويت في السياسة الدولية المعاصرة » ، جامعة الكويت ، الطبعة الأولى ،

التزام بريطانيا تجاه الكويت :

بعد أن أعلن عبد الكريم قاسم ، في مؤتمره الصحفي في ٢٥ يونيو ١٩٦١ ، نيته في ضم الكويت كجزء من العراق ، سارعت الحكومة البريطانية بعد أن تلقت تقريراً عاجلاً عن المشاورات بين حاكم الكويت وممثل بريطانيا إلى إعلان « أن الكويت في نظر البريطانيين دولة مستقلة ذات سيادة وأنها اشتركت في عدة منظمات دولية ، كدولة مستقلة ، ولهذا اعترُف بها دولياً ، دولة مستقلة بل إن العراق نفسه قد صوت في مصلحة عضوية الكويت في الاتحاد الدولي للاتصالات السلكية واللاسلكية » . كما أكدت وزارة الخارجية البريطانية رسمياً ، « أن الحكومة البريطانية لديها التزام بمساعدة حكومة الكويت متى طلبت الأخيرة ذلك ، تنفيذاً لمعاهدة ١٩ يونيو ١٩٦١ » (معاهدة التشاور أو المساعدة)^(١) .

وعلى الفور بادر السير هيمفري تريفليان (١٩٥٨ - ١٩٦١) Humphrey Trevelyan ، السفير البريطاني لدى بغداد إلى مقابلة هاشم جواد وزير الخارجية العراقي في ٢٦ يونيو ١٩٦١ ، وأخبره بوجهة النظر البريطانية ؛ « أن الكويت دولة مستقلة وأن أي تمديد لسيادتها سوف يكون موضوعاً عميق الأثر »^(٢) .

ومنذ ذلك الوقت عقدت الحكومة البريطانية العديد من الاجتماعات ، وكذلك الحال بالنسبة إلى البرلمان البريطاني ، وأصدرت الحكومة البريطانية العديد من البيانات الرسمية التي تؤكد موقف الحكومة المؤيد لاستقلال الكويت ، كما أخذت على عاتقها عبء الدفاع عن قضية الكويت في الأمم المتحدة^(٣) .

(١) نازلي معوض أحمد وآخر « الكويت من الإمارة إلى الدولة » ، ص ص ٤٨٣ - ٤٨٤ نقلاً عن The Times June 27, 1961 .

(٢) نازلي معوض ، المصدر السابق ، ص ٤٨٤ نقلاً عن N.Y Times , June 27, 1961 .

(٣) عبد الله الأشعل ، « قضية الكويت في الخليج العربي » ، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام ، سبتمبر ١٩٧٨ ، ص ص ٢٦ - ٢٧ ، انظر كذلك ، ناتج ، انتون ، « ناصر » ، ترجمة شاكر إبراهيم سعيد ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، الطبعة الثانية ١٩٩٣ ، ص ٣٢٩ ، ميمونة خليفة الصباح ، « الكويت في ظل الحماية البريطانية » ، ص ٤٨٤ .

وانتهزت بريطانيا هذه الفرصة وأعلنت حالة الطوارئ بين قواها داخل إنجلترا وفي قواعدها في الشرق الأوسط ، وقطع وزير الدفاع البريطاني إجازته واستدعى قادة الأسلحة البريطانية من عطلتهم وأتفق في اجتماع عقده معهم على جعل التدابير العسكرية البريطانية في الشرق الأوسط في المستوى الذي يسمح للقوات البريطانية بمواجهة أية حالة من حالات الطوارئ في المنطقة^(١) .

وفي الكويت أجرى الشيخ عبد الله سالم الصباح مباحثات سرية مع السير ريتشموند حول ما يمكن عمله تجاه التهديدات العراقية . ولذلك أعلنت قيادة القوات البريطانية المنسحبة من الكويت تأجيل انسحابها إلى حين اتضاح الرؤية أكثر^(٢) .

ففى ٢٧ يونيو ١٩٦١ ، تلقت القوات البريطانية ووحدات الأسطول التي كانت تتأهب للرحيل عن الكويت عقب إلغاء اتفاقية الحماية أوامر عاجلة من لندن بتأجيل رحيلها والبقاء في الكويت إلى حين صدور تعليمات أخرى^(٣) .

وفي ٢٩ يونيو ١٩٦١ ، أصدرت وزارة البحرية البريطانية تعليماتها إلى وحدات الأسطول البريطاني بتغيير اتجاهها والتوجه من الفور إلى مياه الخليج . تحركت بالفعل ، الطائرات «فيكتورياس» من سنغافورا ، والمدمرة «لدخ روثفين» ، والطرادان «يارموث» و «لانداڤ» من هونج كونج وقد بلغ عدد هذه القطع البحرية ثمانى قطع ذهبت إلى البحرين^(٤) .

وفي يونيو ١٩٦١ ، أعلن رئيس الوزراء البريطاني هارولد ماكميلان - (Maurice Harold Macmillan) أن الحكومة البريطانية ، وبناء على طلب حكومة الكويت ، مضطرة إلى اتخاذ بعض التدابير الوقائية الضرورية بعد أن هدّد العراق بضم الكويت^(٥) .

(١) جمال زكريا قاسم ، «تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر» ، المجلد الرابع ، ص ص ٧٦ - ٧٧ ، انظر كذلك جريدة الأهرام ، العدد الصادر في ٢٨ ديسمبر ١٩٦١ ، نازلى معوض أحمد وآخر « الكويت من الإمارة إلى الدولة » ، ص ٤٨٤ ، The Times, 4/1/1961 .

(2) Foreign Office Records, F.O. 391, 28099, 1961

(3) Ibid

(4) Foreign Office Records, F.O. 391, 28199, 1961

(5) F.O. 391, 28200

وفي اليوم نفسه نزل ٧٥٠ جندياً بريطانياً في الكويت إضافة إلى قوات المظلات التي سبقتهم قادمين من القاعدة البريطانية في البحرين إضافة إلى تلك التي كانت موجودة فيها من قبل ، وانتشروا على طول الحدود مع العراق ، وقد قدر عدد القوات البريطانية المرابطة في الكويت ، حتى ذلك الوقت بنحو ٥ آلاف جندي بقيادة البريجادير : هورسفورد « في عملية فانتاج (Vantage) وتوغلوا إلى مسافة خمسة أميال من الحدود العراقية على طول الحدود بين البلدين^(١) .

وفي ٣٠ يونيو ١٩٦١ ، أعلنت وزارة الخارجية البريطانية بياناً حول نزول القوات التي بدأت تتدفق إلى الكويت واستمرت حتى يوم ٦ يولي ، قالت فيه : « إن العملية جرت بناءً على طلب رسمي عاجل من حاكم الكويت » . وأنها أبلغتها « إلى الأمين العام للأمم المتحدة » . وقال البيان ، كذلك : « إن القوات نزلت ، وستوضع تحت تصرف حاكم الكويت » . وقرأ المتحدث الرسمي في وزارة الخارجية البريطانية ، نص الخطاب ، الذي تلقاه ممثل بريطانيا في الكويت من حاكمها ، والذي يقول فيه : « نظراً إلى التحركات العسكرية ، التي قام بها الجيش العراقي ، على حدود الكويت ، مما يهدد أمن البلاد ، قررت أن أقدم طلباً إلى حكومة جلالة الملكة لإرسال معونة عسكرية وفقاً للمذكرات التي تبادلناها مع السير وليم لوس يوم ١٩ يونيو ١٩٦١ . وإني أود أن تبلغوا حكومتكم بهذا فوراً . وإني على ثقة تامة بأن حكومة جلالته ستتخذ كل التدابير اللازمة لردع المعتدين^(٢) .

وفي الوقت الذي كانت فيه القوات البريطانية تتدفق إلى الكويت ، وفي ٢ يولييه ١٩٦١ ، أعلن السير باتريك دين Patrick Dean مندوب بريطانيا في مجلس الأمن ، « أن الحكومة البريطانية ستسحب قواتها من الكويت بمجرد أن يرى حاكم الكويت أن حالة التهديد التي تتعرض لها بلاده قد انتهت » . وقال : « إن قوات بلاده ، التي أرسلت إلى الكويت ستستخدم فقط ، إذا ما وقع هجوم على الكويت . وإن الحكومة البريطانية تود أن تبقى بكل إخلاص على علاقاتها الودية مع حكومة العراق وشعب العراق^(٣) .

(1) F.O. 391, 28201.

(2) F.O. 391, 28202, See also.

عبد الرضا على أسير ، «الكويت في السياسة الدولية المعاصرة» ، جامعة الكويت ، طبعة ١٩٩٣ ، ص ٧٤ .

(2) F.O. 391, 28203, See also.

ناتنج ، أنتوني ، «ناصر» ، ترجمة شاكرا إبراهيم سعيد ، ص ٣٢٩ ، ميمونة خليفة الصباح ،

«الكويت في ظل الحماية البريطانية» ، ص ٤٨٤ .

وفي الأول من يناير ١٩٩١، كشفت وثائق وزارة الدفاع البريطانية - على أثر رفع القيود السرية عنها بعد مرور ٣٠ عاماً عليها - النقاب عن تفاصيل الخطط، التي وضعتها هيئة الأركان العامة البريطانية عام ١٩٦٠ بناء على طلب الحكومة البريطانية آنذاك، للتدخل في أغسطس ١٩٦٠، أن خطط التدخل البريطاني تهدف إلى تغطية الاحتمالات التالية^(١):

١ - تهديد الكويت من الخارج .

٢ - (أ) انتفاضة داخلية بحت .

(ب) انتفاضة داخلية ، بتأييد تخريبي من الخارج ، واحتمال التهديد .

وبينما قصرت الوثيقة إمكانية حدوث الاحتمال رقم (١) ، أي تهديد عسكري علني على العراق فقط ، واستبعدت حدوث الاحتمال رقم (٢-أ) نظراً إلى مكانة الأسرة الحاكمة في الكويت . ذكرت أن الاحتمال رقم (٢-ب) قد يحدث من قبل العراق ، أو الجمهورية العربية المتحدة^(٢) .

كما كشفت الوثائق البريطانية النقاب عن موقف الأردن ، فعلى الرغم من سوء العلاقات الأردنية العراقية ، بسبب مقتل الملك فيصل الثاني ، ملك العراق - ابن عم الملك حسين - في ثورة ١٤ يولية ١٩٥٨ ، إلا أن الملك حسيناً كان يحرض عبد الكريم قاسم سراً ، بل إنه كان يكن تعاطفاً شديداً مع المطالبة العراقية بضم الكويت فضلاً عن أنه كان هو نفسه يطمع في ضم الكويت ، قبل ذلك ، منذ فبراير ١٩٥٨ أيام نوري السعيد ، تحت لواء الاتحاد العربي الهاشمي^(٣) .

الأسباب التي دفعت بريطانيا للاستجابة لطلب الحكومة الكويتية بحماية أراضيها:

لقد كثرت التفسيرات التي حاولت توضيح المسلك البريطاني تجاه الأزمة والعمل على احتوائها^(٤):

(١) نازلي معوض وآخر ، المرجع السابق ، ص ٤٨٣ .

(٢) المصدر السابق ، ص ص ٤٨٣ - ٤٨٤ .

(3) F. O. 391, 282005.

(٤) جمال زكريا قاسم « الخليج العربي ١٩٤٥ - ١٩٧١ » ، ص ص ٩٦ - ٩٩ ، انظر كذلك نازلي معوض أحمد وآخر ، « الكويت من الإمارة إلى الدولة » ، ص ص ٤٨٥ - ٤٨٦ .

التفسير الأول : إذا ما قبلنا التفسير القائل أن الذهب الأسود (النفط) كان يقف خلف الأطماع العراقية في الكويت ، فإننا نقبل كذلك التفسير القائل إن النفط هو العامل المهم في تفسير رد الفعل البريطاني السريع ، تجاه التهديدات العراقية فقد قُدرت احتياطات الكويت من النفط ، في تلك الفترة بحوالي ٢٦ ألف مليون برميل . وهي أكبر كمية في الشرق الأوسط ؛ إذ تمثل حوالي ثلث إجمالي الاحتياطات النفطية في المنطقة ، ورابع أكبر منتج للنفط في العالم ، إذ قدر إنتاج الكويت عام ١٩٦١ بحوالي مليون و ٧٠٠ ألف برميل ، في اليوم تبلغ قيمتها ٤٥٠ مليون دولار في السنة . هذه الثروة الطائلة تقبع في دولة مساحتها ١٧ ألف كم^٢ ، وتعداد سكانها نحو ٢٥٠ ألف نسمة ، وكانت بريطانيا تدرك جيدًا أن فقدانها ثروة الكويت النفطية سوف يؤثر تأثيرًا كبيرًا في اقتصادها .

التفسير الثاني : كانت بريطانيا تسعى إلى إبعاد التهديد العراقي للكويت ، خوفًا من أن يؤثر ذلك في مركز النقد الكويتي ، الذي يُستثمر في كثير من المصارف البريطانية ، بالإضافة إلى أن الكويت كانت تُعد منطقة رئيسية للجنيه الاسترليني في الشرق الأوسط .

التفسير الثالث : يرى بعض المحللين ، أن التحركات البريطانية كانت نتيجة لنظام جديد لإعلان حالة الطوارئ في القوات المسلحة ، وأن ما حدث ليس إلا اختبارًا لصلاحيه هذا النظام عمليًا .

التفسير الرابع : ويرى آخرون أن وزارة الدفاع البريطانية أرسلت قواتها إلى الشرق الأوسط ، كإجراء دفاعي حملها عليه شكها في أن عبد الكريم قاسم ، يعتزم مهاجمة الكويت مهاجمة خاطفة .

التفسير الخامس : ويرى فريق ثالث أن التحركات البريطانية ربما كانت تحفي مؤامرة واسعة ، للقضاء على حركات التحرر الوطني في الشرق الأوسط ، وذلك بضرب العراق ، ثم التفرغ لضرب الجمهورية العربية المتحدة .

التفسير السادس : يعتقد أصحابه أن التحركات البريطانية العسكرية كانت تمهيدًا لإحداث انقلاب في العراق بالاتفاق مع الفريق محمد نجيب الربيعي ، رئيس مجلس السيادة العراقي للتخلص من عبد الكريم قاسم ، اتقاءً لخطر مبادرته إلى تأميم نفط

العراق فجأة ، أسوة بعبد الناصر مؤمم قناة السويس في مصر فضلاً عن تهديد عبد الكريم قاسم بضم الكويت^(١) .

التفسير السابع : وهو التفسير الشائع على الرغم من كثرة معارضيه يرى أنصاره أن بريطانيا قد اختلقت أزمة عام ١٩٦١ بالاتفاق مع عبد الكريم قاسم الذي لم يكن لديه أى نية لغزو الكويت ، بل لم يكن ينوى تنفيذ تهديده فهم يرون أن بريطانيا اتبعت سياسة مزدوجة إزاء هذه الأزمة . فبينما هى توقع إلغاء معاهدة الحماية ، وتعترف باستقلال الكويت إذا بما تحث عبد الكريم قاسم ، فى الوقت عينه على افتعال هذه الأزمة . ويستدل هؤلاء فى تفسيرهم بأن مسارعة بريطانيا إلى إنزال قواتها فى الكويت أثناء الأزمة تشير إلى أن الأمر كان مدبراً ، وأن السلطات العسكرية البريطانية كانت على علم مسبق بوقت إثارة الأزمة^(٢) .

هكذا ، تعددت تعليقات السلوك البريطانى تجاه أزمة ١٩٦١ ، ولكن أكثرها دقة وتأكيداً هو أن النفط الكويتى والنقد الكويتى وقفا بقوة وراء التحرك العسكرى البريطانى، كما أن رغبة بريطانيا فى إثبات أنها لا تزال صاحبة الذراع القوية فى المنطقة واختبار مدى قدرتها على ذلك ، تأتى فى مرتبة تالية ، جنباً إلى جنب مع رغبتها فى تقليص مركز قوى التحرر الوطنى وزعزعتها فى المنطقة .

الموقف العربى من الأزمة العراقية / الكويتية :

ظهرت ردود الفعل العربية التى كانت لها الدور الأساسى فى مواجهة تداعيات الأزمة ، من خلال مواقف ثلاث قوى عربية فاعلة ، هى : الجمهورية العربية المتحدة، والمملكة العربية السعودية ، وجامعة الدول العربية ، بالإضافة إلى موقف المملكة الأردنية الهاشمية وسوريا .

(١) جريدة الأهرام ، العدد الصادر يوم ٣٠ ديسمبر ١٩٦١ .

(٢) ميمونة خليفة الصباح ، «علاقات الكويت الخارجية خلال القرن الثامن عشر» ص ٤٨٣-٤٨٧ .

موقف الجمهورية العربية المتحدة :

كان موقف القاهرة من حصول الكويت على استقلالها واضحاً منذ اليوم الأول ، ففى ٢٠ يونيه ١٩٦١ وعلى المستوى الإعلامى أعربت جريدة « الجمهورية » ، عن ترحيبها بالكويت المستقلة الحرة جزءاً من الوطن العربى الكبير . وذكرت أن الكويت كانت دائماً مستقلة فى حقيقة أمرها ترفض السيطرة وتتنكر للمستعمرين^(١) .

وفى ٢٣ يونيه بعث الرئيس جمال عبد الناصر ببرقية تهنئة إلى أمير الكويت الشيخ عبد الله السالم الصباح ، قال فيها : « فى هذا اليوم الأغر ، الذى انبثق فيه فجر جديد فى تاريخ الوطن العربى باستقلال الكويت وسيادته ، لا يسعنى إلا أن أبادر بالإعراب عن ابتهاج شعب الجمهورية العربية المتحدة ، وعظيم اغتباطنا بهذا الحدث التاريخى المجيد ، الذى احتزت له مشاعرنا فرحاً ، وسعدت به نفوس العرب جميعاً ، وليس أحب إلى قلوبنا إلا أن ننتهز هذه المناسبة السعيدة لأبعث إلى سموكم وإلى شعب الكويت الشقيق بأجمل تمانينا القلبية ، وأمانينا الصادقة ، داعين الله - تعالت قدرته - أن يكتب لكم التوفيق والسداد ، وأن يمدكم بعون حتى يصل الكويت فى عهده الجديد ، بفضل قيادتكم إلى تحقيق ما يصبو إليه من عزة ومجد ورفاهية ، وأن تعمل جنباً إلى جنب مع شقيقاتها الدول العربية فى سبيل تدعيم القومية العربية وإعزازها وإننا لتتطلع ويتطلع معنا العرب فى كل مكان إلى اليوم الذى تنال فيه بقية شعوب الأمة العربية المكافحة حريتها وسيادتها»^(٢) .

فعلى الرغم من أن الجمهورية العربية المتحدة كانت تتزعم التيار العربى الوحدوى وتنادى بالوحدة العربية ، إلا أنها وجدت فى مطالبة عبد الكريم قاسم بضم الكويت ما يتعارض تماماً مع ذلك التيار فعارضته . وقد أوضحت موقفها الرسمى من مشكلة

(١) نزالى معوض أحمد وآخر ، « الكويت من الإمارة إلى الدولة » ، ص ٤٩١ نقلًا عن صوت الكويت الدولى ، ١٥ يناير ١٩٩٢ .

(٢) وثائق الخارجية المصرية ، ملف الأزمة الكويتية - العراقية عام ١٩٦١ ، برقية تهنئة من الرئيس جمال عبد الناصر إلى أمير الكويت الشيخ عبد الله السالم الصباح يوم ٢٣ يونيه ١٩٦١ .

الحدود بين الكويت والعراق في ثلاثة بيانات رسمية صدرت في ٢٧ و ٣٠ يونيو ١٩٦١ و ٥ يوليو ١٩٦١ على التوالي^(١).

فمع اندلاع الأزمة أوضحت الجمهورية العربية المتحدة موقفها الرسمي في بيانها الأول الصادر في ٢٧ يونيو ١٩٦١ والذي أذاعه وزير الدولة ، آنذاك محمد عبد القادر حاتم و اعترضت فيه على ادعاءات عبد الكريم قاسم ، وقد تضمن البيان ست نقاط تتلخص في^(٢) :

- إن الجمهورية العربية المتحدة تؤمن بأن العلاقات بين الشعوب العربية لا تحكمها معاهدات أو اتفاقيات قديمة أو حديثة ، وإنما العلاقات بين الشعوب أعمق من ذلك بكثير .
- وإنما لا تقبل منطق « الضم » وإن كانت على استعداد لبذل كل جهدها لتأييد منطق الوحدة الشاملة .
- إن الوحدة الشاملة بين مصر وسورية لا يمكن بطبيعتها إلا أن تكون سنداً لكل اتجاه إلى الوحدة ، ولكن الوحدة لا يجب إلا أن تكون تعبيراً اجتماعياً عن إرادة شعبية عربية متبادلة قائمة على الاختيار الحر .
- إنما ترى أنه من واجب الشعوب العربية الكبيرة أن تكون سنداً يعزز قدرة الشعوب العربية الصغيرة .
- إن الشعب العراقي يملك أسباب الدعوة إلى الوحدة بينه وبين شعب الكويت ، ما هو أعمق وأبقى من وثائق الإمبراطورية العثمانية وإن هذا الشعب يملك قوميته العربية ، بقدر ما يملك شعب الكويت من هذه القومية ، وتلك في حد ذاتها كفيلة بصنع الوحدة السياسية .

(١) وثائق الخارجية المصرية ، ملف الأزمة الكويتية - العراقية عام ١٩٦١ ، البيانات الرسمية التي أصدرتها الجمهورية العربية المتحدة أيام ٢٧ ، ٣٠ يونيو ، ٥ يوليو ١٩٦١ تحدد فيها موقفها الرسمي من مشكلة الحدود .

(٢) وثائق الخارجية المصرية ، ملف الأزمة الكويتية - العراقية عام ١٩٦١ ، بيان الجمهورية العربية المتحدة يوم ٢٧ يونيو ١٩٦١ إذاعة وزير الدولة محمد عبد القادر حاتم .

- دعت الجمهورية العربية المتحدة ، في نهاية البيان إلى ضرورة إنهاء هذا الموقف الطارئ ، وأكدت على أنها لا تتصور يوماً يقف فيه جندي عربي في مواجهة جندي عربي آخر .

وفي ٢٩ يونيو ١٩٦١ كلف الرئيس جمال عبد الناصر وزير العدل المركزي فاخر كيالي - سوري - بأن يسافر إلى الكويت على رأس وفد يمثل الجمهورية العربية المتحدة لتهنئتها بالاستقلال^(١) .

ومع تواتر المعلومات حول صدور الأوامر إلى بعض قوات الجيش العراقي بالتحرك صوب الحدود الكويتية ، ومع تدفق المعلومات حول التحرك العسكري البريطاني نحو الكويت أصدرت الجمهورية العربية المتحدة بيانها الثاني في ٣٠ يونيو ١٩٦١ رفضت فيه أنباء التحركات العسكرية العراقية والبريطانية معاً ، وتضمن البيان : « أن حكومة الجمهورية العربية المتحدة ، تتابع بقلق تطورات الساعات الأخيرة في الأزمة ما بين حكومة الكويت وحكومة الجمهورية العراقية ، ولقد تلقت الجمهورية العربية المتحدة ، من طريق مصادرها المختلفة ما يشير إلى أن قوات من الجيش العراقي قد صدرت إليها الأوامر بالتحرك صوب حدود الكويت . كما تلقت أن بعض الدوائر في بغداد تبحث جدياً احتمالات التدخل العسكري ، وفي هذا الجو المشحون ، فإن الجمهورية العربية المتحدة تتوجّه برجائها وأملها إلى الشعب العراقي العظيم ، واثقة أنه لن يرضى بغير مبادئ النضال العربي بدلاً يلهمه ويرشده إلى طريق الواجب العربي » .

وأضاف البيان : « أن الجمهورية العربية المتحدة تتابع بأسف وبشعور عميق من عدم الرضا عن هذه التحركات العسكرية للأسطول البريطاني وأنها لتؤمن أنه ليس من حق عربي - على غير أساس من مطلب شرعي من المطالب العادلة للنضال العربي - أن يعرض سلامة الأمة العربية للمناورات الدولية ولاحتمالات التدخل الاستعماري ... » ، وكررت الجمهورية العربية المتحدة في نهاية بيانها ثقتها بأن الشعب العراقي الذي استطاع بثورته أن يعلى منطلق الإرادة الشعبية ، لا يمكن أن يقبل شيئاً لا ينبثق من إرادة شعبية^(٢) .

(١) جريدة الأهرام ، عدد يوم ٣٠ يونيو ١٩٦١ .

(٢) وثائق الخارجية المصرية ، ملف الأزمة الكويتية - العراقية عام ١٩٦١ ، بيان الجمهورية العربية المتحدة يوم ٣٠ يونيو ١٩٦١ إذاعة وزير الدولة محمد عبد القادر حاتم .

ومع انعقاد مجلس الأمن لمناقشة الأزمة العراقية - الكويتية ، في الفترة من ٢ إلى ٧ يوليو ١٩٦١ أعلن وزير الدولة ، محمد عبد القادر حاتم ، أن حكومة الجمهورية العربية المتحدة أمرت وفدها الدائم في الأمم المتحدة برئاسة السفير عمر لطفى بتبني اقتراح «طلب الكويت الانضمام إلى الأمم المتحدة» مع المطالبة «بجلاء القوات البريطانية فوراً، عن الكويت جلاء تاماً وناجزاً»^(١) .

وفي ٥ يوليو ١٩٦١ ، صدر بيان ثالث عن الجمهورية العربية المتحدة ، دعت فيه إلى جلاء القوات البريطانية عن الكويت ، بعد أن أكدت الحكومة العراقية عدم اللجوء إلى الحلول العسكرية، وأنها ستتبع الأسلوب السلمى ، وتعهدتها بذلك في مجلس الأمن^(٢)، ولكن الحكومة الكويتية ردت على دعوة الجمهورية العربية المتحدة في بيان لها صدر في اليوم التالي ، أكدت فيه : « إن مجرد إعلان العراق أنه لن يلجأ إلى القوة لتحقيق أهدافه لا يكفى وأن حل المشكلة يجب أن يتضمن ضمانات دولية كافية لحماية أمن الكويت »^(٣) .

وفي ١٢ يوليو ١٩٦١ ، تسلم الرئيس جمال عبد الناصر رسالة من الشيخ عبد الله السالم الصباح، سلمها له ولّى العهد الكويتى الشيخ جابر الأحمد الصباح (أمير الكويت الحالى) ، تضمنت طلباً من الجمهورية العربية المتحدة لإرسال قوات منها إلى الكويت لتوطيد استقلال الكويت الذى هدده عبد الكريم قاسم^(٤) .

(١) وثائق الخارجية المصرية ، ملف الأزمة الكويتية - العراقية عام ١٩٦١ ، برقية من الدكتور محمود فسوزى - وزير خارجية الجمهورية العربية المتحدة إلى السفير - عمر لطفى - رئيس وفد الجمهورية العربية المتحدة الدائم في الأمم المتحدة - يوم ٢٩ يونيو ١٩٦١ ، انظر كذلك بيان الجمهورية العربية المتحدة يوم ٣٠ يونيو ١٩٦١ .

(٢) وثائق الخارجية المصرية ، ملف الأزمة الكويتية - العراق عام ١٩٦١ ، بيان الجمهورية العربية المتحدة يوم ٥ يولي ، ١٩٦١ . إذاعة وزير الدولة محمد عبد القادر حاتم .

(٣) وثائق الخارجية المصرية ، ملف الأزمة الكويتية - العراق عام ١٩٦١ ، رد الحكومة الكويتية يوم ٦ يولي ١٩٦١ ، على بيان الجمهورية العربية المتحدة يوم ٥ يوليو ، ١٩٦١ .

(٤) وثائق الخارجية المصرية ، ملف الأزمة الكويتية - العراق عام ١٩٦١ ، رسالة من الشيخ عبد الله السالم الصباح إلى الرئيس جمال عبد الناصر يوم ١٢ يوليو ١٩٦١ .

ورد الرئيس جمال عبد الناصر على رسالة أمير الكويت ، موضحاً الآتي^(١) :

- تعرف الجمهورية العربية المتحدة أن الإنجليز حاولوا مراراً إنزال قواتهم في الكويت ولكنها كانت دائماً تعترض على ذلك . وحاول الإنجليز ذلك عام ١٩٥٦ أثناء معركة السويس ، وحاولوا وقت ثورة العراق عام ١٩٥٨ بعد إنزال قواتهم في الأردن وإنزال القوات الأمريكية في لبنان ولكن الكويت صممت على الرفض .

- أكدت الجمهورية العربية المتحدة أن الخطر الذي واجهته الكويت بعد تصريحات عبد الكريم قاسم وتهديداته السافرة كان خطراً مباشراً إلى درجة أن الناس على حد ما وصف المندوب الكويتي إلى الجامعة العربية ، أحرقوا ما في البلد من حبال خوفاً من السحل .

- رغبت الجمهورية العربية المتحدة ، في إرسال قوات إلى الكويت إذ إن المسألة ليست الكويت وحدها وإنما هي كانت متصلة بالموقف العربي كله والموقف الدولي، ولا يمكن لأحد أن يعمل في عزلة عن هذه العوامل ، ولو بادرت الجمهورية العربية المتحدة إلى إرسال قوات إلى الكويت لركزت القوى الاستعمارية جهودها في تشويه موقعها وتصويره على أنها - الجمهورية العربية المتحدة - تحاول أن تسبق حكومة العراق إلى السيطرة على الكويت وهو ما يصعب على الجمهورية العربية المتحدة تصوُّره ، وإذا كانت الدعاية الاستعمارية تحاول تصوير دعوة القومية العربية على أنها قناع للمطامع ، فإن الجمهورية العربية المتحدة يهملها أن تعرف حكومة الكويت ما يلي :

١- يسعد الجمهورية العربية المتحدة ، كل خير للكويت ، وتريد لخيرها أن يبقى لشعبها .

٢- طالبت أصوات في العالم العربي وفي خارجه ، الكويت ، بأن تعطى بعض عائداتها للدول العربية ، والجمهورية العربية المتحدة ترفض ذلك أساساً ،

(١) وثائق الخارجية المصرية ، ملف الأزمة الكويتية - العراقية عام ١٩٦١ ، رسالة من الرئيس جمال عبد الناصر إلى أمير الكويت يوم ١٢ يوليو ١٩٦١ . ردًا على رسالة الأمير .

ولو عرض عليها قرش واحد من الكويت ، لاعتذرت عن عدم قبوله وصممت على الاعتذار إيماناً منها بأن المستقبل العربي يجب أن يقوم على المبادئ لا على المطامع .

٣- قد يقال إن هناك تمييزاً في صرف عائدات النفط العربي والجمهورية العربية المتحدة ، تشعر أن تلك ليست مشكلتها وإنما هي مشكلة متروكة للتصور العربي العام .

- لا تستطيع الجمهورية العربية المتحدة أن تقبل نزول قوات استعمارية في أية بقعة من الوطن العربي ، وهي تُعدّ « الوجود البريطاني » في الكويت ، خطراً داهماً يجب إبعاده فوراً ، ومن جهة أخرى فهي تدرك أن شعب الكويت يريد « الطمأنينة » بعد ما وجّه إليه من تهديدات . ولهذا فهي ترى أنه لا بدّ من توفير طمأنينة عربية لشعب الكويت ، وترى أن الاقتراح الكويتي لإرسال قوات عربية لتحل محل القوات البريطانية قادر على توفير هذه الطمأنينة ، كذلك تسهم عضوية الكويت في الجامعة العربية ، وفي الأمم المتحدة بعد ذلك في تدعيم هذه الطمأنينة ، وذلك ريثما يستطيع الضمير العربي أن يسوى الأزمة العربية في نطاق عربي .

- تفضل الجمهورية العربية المتحدة ألا تبعث بقوات من جيوشها إلى الكويت لعدة أسباب ، بينها ألا تتيح سبباً لإثارة التأويلات مهما يسهل الرد عليها لصدورها عن أصحاب الهوى والغرض .

- يخلق ذهاب قوات من الجمهورية العربية المتحدة ، عناداً استعماريّاً ، يُعقّد الأمور ، وقد يخلق كذلك عناداً عراقيّاً ، وهي تريد ألا تترك للاستعمار حجة ، ولا ذريعة فإن هدفها ليس أن تبعث قواتها إلى الكويت ، وإنما هدفها أن تخرج القوات البريطانية منها ، وأن يبقى الاستقلال الكويتي ممثلاً لإرادة شعب الكويت .

- إن الجمهورية العربية تريد أن تبقى كل جندي من جنودها على الخطوط مع إسرائيل ، ولهذا فإنها حرصت على أن تستثنى من إرسال القوات إلى الكويت ، أي دولة عربية لديها خطوط مع إسرائيل ، بل إن المملكة العربية السعودية نفسها ، ناشد مليكها سعود ، اللواء عبد الكريم قاسم ألا توجه القوات العربية بعضها ضد بعض ، بل نحو العدو الإسرائيلي الرابض على حدود الإقليم الشمالي (سورية) .

وفي ١٢ يوليو ١٩٦١ ، تقدمت الكويت بمذكرة طلبت فيها الانضمام إلى الجامعة العربية ومساندة الدول العربية لها ضد التهديد العراقي ، وتعهدت في مذكرتها بسحب القوات البريطانية من الكويت ، حينما تشكل الجامعة العربية قوات عربية لتحل محلها ، وقد عقدت جلسة لمجلس الجامعة في اليوم عينه لمناقشة طلب الكويت ، ومناقشة التهديد العراقي لها ، ولكن لم يسفر الاجتماع عن شيء ، نظرًا إلى تهديد العراق بالانسحاب ، إذا ما قبلت الكويت عضوًا في الجامعة . وردًا على طلب العراق تأجيل بت انضمام الكويت إلى الجامعة العربية ، أعلنت الجمهورية العربية المتحدة في الجلسة الثانية للجامعة العربية ، التي عُقدت في ١٣ يوليو أن « التأجيل لا يحل المشكلة »^(١) .

وفي اجتماع الجامعة العربية في ٢٠ يوليو ١٩٦١ ، شدّد مندوب الجمهورية العربية المتحدة في الجامعة العربية على أمرين: « الأول : انضمام الكويت إلى الجامعة ، والثاني: إحلال قوات عربية مكان القوات الأجنبية الموجودة في الكويت . وهو ما تحقق ، فقد وافقت الجامعة العربية في هذه الجلسة على انضمام الكويت إليها ، بعد أن تعهد أميرها بأن يطلب من الحكومة البريطانية سحب قواتها من أراضي بلاده ، حينما تصل إليها قوات أمن الجامعة العربية^(٢) .

وفي ٢٨ سبتمبر ١٩٦١ ، وقع الانفصال بين سورية ومصر ، وألغيت الوحدة ، من جانب سورية إثر انقلاب عسكري ، قادته مجموعة من الانفصاليين السوريين ، في الإقليم الشمالي . وفي ١٢ أكتوبر ١٩٦١ ، قامت مصر بسحب قواتها من الكويت ، على أنثر انفصال سورية، وتوترت العلاقات بين مصر وكل من الأردن والمملكة العربية السعودية ، بعد اتهام الحكومة المصرية لهما بالمشاركة في مساندة الحركة الانفصالية^(٣) .

وفي حين استمر الدعم المصري للحكومة الكويتية في مواجهة الادعاءات العراقية فإن الحكم السوري الجديد اتخذ منحى مختلفًا بعض الشيء إذ سارت العلاقات

(١) مركز بحوث الشرق الأوسط بجامعة عين شمس ، « الكويت وجودًا وحدودًا » ، ص ١٠٠ .

(٢) وثائق جامعة الدول العربية ، جلسة مجلس الجامعة يوم ٢٠ يولية ١٩٦١ ، كلمة مندوب الجمهورية العربية المتحدة .

(٣) خالد السرجاني « جذور الأزمة بين العراق والكويت » مجلة السياسة الدولية ، عدد ١٠٢ ، أكتوبر

السورية/ العراقية في تقدم مستمر، أثمر تبادلاً ملحوظاً في الزيارات الرسمية بين مسؤولي البلدين. وفي نهاية شهر يناير ١٩٦٢، أعلن معروف الدواليبي رئيس الوزراء السوري عن توسط سورية لحل النزاع الكويتي / العراقي، وأعلن في بيان صدر عن الجمهورية العربية السورية أن الوفد العراقي الذي زار سورية برئاسة الدكتور هاشم جواد وزير خارجية العراق، مؤخراً قد وافق على « ألا يقوم العراق بأى إجراء عسكري ضد الكويت، وأن العراق في الوقت الراهن على الأقل، لا يعترض على قيام الدول الأخرى بإرسال قائمين بالأعمال إلى الكويت^(١)».

وردت الحكومة الكويتية حول أنباء الوساطة السورية بأن نفت علمها بذلك، بل نفت ما نشرته بعض الصحف السورية عن بدء المفاوضات السرية بين العراق والكويت، في شأن إقامة اتحاد كونفيدرالي بينهما، يشمل أمور الدفاع والشئون الخارجية، والمسائل الاقتصادية والثقافية، على أن تبقى الدولتان مستقلتين تماماً داخلياً^(٢).

وعلى أثر قمة سورية - عراقية، عقدت في بغداد، في ٢٦، ٢٧ مارس ١٩٦٢ بين اللواء عبد الكريم قاسم والدكتور ناظم القدسي، رئيس الجمهورية العربية السورية، صدر بيان مشترك، احتجت عليه الحكومة الكويتية ببيان أصدرته في ٢٨ مارس ١٩٦٢ رفضت فيه ما جاء في البيان المشترك من دعوة إلى العمل العربي، خارج إطار الجامعة العربية، مؤكدة أن مثل هذه الدعوات لا يمكن أن يؤدي إلا إلى بعثرة الجهود العربية، وإثارة البلبلة والفرقة في الصف العربي، وإعاقة الأمة عن بلوغ غايتها وأهدافها. وأضاف البيان: «أما القول بأن هناك شيئاً اسمه حق للعراق في

(١) ناتنج، أنتوني، «ناصر»، ص ص ٣٢٩ - ٣٣١.

(٢) جريدة الأهرام، العدد الصادر في ٨ فبراير ١٩٦٢، انظر كذلك جريدة الأهرام، العدد الصادر في ٢٧ فبراير ١٩٦٢، حيث نفت حكومة العراق أيضاً بل وأنكرت هذه الأنباء وذكرت أنها لا أساس لها.

الكويت ، فليس له سند من واقع أو حق أو منطق أو تاريخ وقد أيدت جميع الدول ومجلس الأمن دولة الكويت ، في قضيتها الحققة»^(١) .

تلك هي أبرز سمات موقف الجمهورية العربية المتحدة ، إزاء أزمة الحدود العراقية - الكويتية عام ١٩٦١ .

موقف المملكة العربية السعودية :

كانت المملكة العربية السعودية طرفاً معنياً بأزمة الحدود العراقية - الكويتية ، التي أثارها عبد الكريم قاسم ، في ٢٥ يونيو ١٩٦١ . وكان موقفها حاسماً ومؤازراً ، بقوة لموقف الحكومة الكويتية ، وينبع ذلك من عدة عوامل منها موقعها الزعامي وسط المجتمع الخليجي ، إضافة إلى مساس الأزمة بمصالحها الإقليمية والاقتصادية والنفطية^(٢) .

وفي ٢٦ يونيو ، اليوم التالي من انطلاق شرارة الأزمة ، طلب أمير الكويت تدخل المملكة العربية السعودية لحمايتها بكافة السبل^(٣) ، فأبرق الملك سعود بن عبد العزيز ، ملك المملكة العربية السعودية ، إلى أمير الكويت ، في اليوم عينه ، قائلاً : « تناولت برقية سموكم ... التي أشرت فيها إلى ما أدلى به الزعيم الركن عبد الكريم قاسم ، والحقيقة أن هذا الموقف عجيب مؤسف . أما نحن فمعكم ، في السراء وفي الضراء ، وسنكون أوفياء فيما تعاهدنا عليه . ونحن على أتم الاستعداد لمواجهة أى خطر يتعرض له الكويت الشقيق»^(٤) .

(١) وثائق مركز البحوث والدراسات الكويتية ، البيان الصادر من وزارة الخارجية الكويتية في ٢٨ مارس ١٩٦٢ .

(٢) عبد الله الأشعل ، « قضية الكويت في الخليج العربي » ، ص ٢٧ .

(٣) وثائق مركز البحوث والدراسات الكويتية ، رسالة من أمير الكويت إلى الملك سعود يوم ٢٦ يونيو ١٩٦١ ، انظر كذلك عبد الله الأشعل ، « قضية الكويت في الخليج العربي » ، ص ٢٧ .

(٤) وثائق مركز البحوث والدراسات الكويتية ، رسالة من الملك سعود إلى أمير الكويت يوم ٢٦ يونيو ١٩٦١ .

وفي اليوم عينه وجه الملك سعود الرسالة التالية إلى ملوك ورؤساء الدول العربية : «أعتقد أنكم تشاركونني الأسف في البيان الذي نُشر من اللواء عبد الكريم قاسم ، بشأن الشقيقة دولة الكويت المستقلة وبالنظر لما يربطنا بالكويت ، بصورة خاصة ، فقد أعلنت البيان التالي : يجب أن يكون معلوماً لدى الجميع أن الكويت والمملكة العربية السعودية بلد واحد ، وما يمس الكويت يمس المملكة العربية السعودية ، وما يمس المملكة العربية السعودية يمس الكويت . وقد أحببت إحاطتكم علماً بهذا ، ولى أمل كبير في أن نتعاون جميعاً في رتق هذا الفتق ، الذي لا يستفيد منه إلا أعداء العرب ، ولا يتضرر منه إلا العرب أنفسهم ، راجياً أن تروا رأيكم السديد الذي يحول دون هذا الأذى الذي يصيب هذا البلد الشقيق»^(١) .

ثم انتقل الملك سعود من التصريحات إلى نطاق العمل الفعلي ، فبعث رئيس الأركان السعودي إلى الكويت لدراسة الوضع الأمني والعسكري فيها^(٢) .

وفي ٢٧ يونيو ١٩٦١ ، وفي الساعة الرابعة صباحاً ، عقد مجلس الوزراء السعودي جلسة استثنائية برئاسة الملك سعود لبحث التهديد العراقي ضد الكويت ، وفي نهاية الجلسة ، أصدر مجلس الوزراء البيان التالي : « إن حكومة حضرة صاحب الجلالة ، الملك المعظم في الوقت الذي تستنكر فيه التصريحات الماسة باستقلال الكويت تأييداً تاماً ، ونقرر اتخاذ الخطوات الإيجابية اللازمة للحفاظ على استقلاله وسيادته وهي لا تزال تأمل في أن تتغلب الحكمة والمصلحة العربية على كل اعتبار للحفاظ على السلم وجمع الصف العربي . كما يقرر اعتبار جلسته الاستثنائية مستمرة لمواجهة ما يستجد في الأمر»^(٣) .

(١) وثائق مركز البحوث والدراسات الكويتية ، رسالة الملك سعود إلى الملوك والرؤساء العرب يوم ٢٦

يونيه ١٩٦١ ، انظر كذلك ميمونة خليفة الصباح « علاقات الكويت الخارجية » ، ص ٤٩ .

(٢) نازلي معوض أحمد وآخر ، « الكويت من الإمارة إلى الدولة » ، ص ٤٩٨ .

(٣) وثائق مركز البحوث والدراسات الكويتية ، بيان مجلس الوزراء السعودي يوم ٢٧ يونيو ١٩٦١ .

واستأنف مجلس الوزراء جلسته بعد عصر اليوم نفسه ، ودعى إلى هذا الاجتماع ، رئيس أركان الجيش السعودي ، وقدم تقريراً مفصلاً إثر عودته من الكويت . وذكر أن الحكومة السعودية قررت إثر اطلاعها على تقرير رئيس الأركان ، إرسال عدة كتائب في اتجاه الحدود الكويتية^(١) .

وفي اليوم نفسه ، وبعد جلسة مجلس الوزراء السعودي وجه الملك سعود طلباً إلى عبد الخالق حسونة الأمين العام لجامعة الدول العربية ، مؤكداً ضرورة دعوة مجلس الجامعة لبحث الأزمة ، ولبحث طلب انضمام الكويت إلى الجامعة العربية في أقرب فرصة^(٢) .

وفي ٢٧ يونيو ، كذلك استدعى الملك سعود السفير العراقي لدى الرياض وأبلغه رسالة شفوية لتبليغها إلى عبد الكريم قاسم ، معبراً فيها عن إحساسه العميق بالحزن والأسف ، لما صدر عنه تجاه الكويت وأن ما حدث هو محاولة لشق الصف العربي واعتداء على دولة عربية تحررت من الحكم الأجنبي . وناشد عبد الكريم قاسم ، أن تسود الحكمة والتعقل والحرص على المصالح العربية^(٣) .

وفي ٣٠ يونيو ١٩٦١ بثت إذاعة الكويت ، أن القوات السعودية وصلت بالفعل إلى الأراضي الكويتية بناء على طلب أمير الكويت^(٤) ، وذلك بعد ساعات قليلة من إنزال القوات البريطانية ، كما بعث الملك سعود برسالة إلى الرئيس جمال عبد الناصر ،

(١) نازلي معوض أحمد وآخر ، « الكويت من الإمارة إلى الدولة » ، ص ٤٩٨ .

(٢) وثائق جامعة الدول العربية ، طلب الملك سعود إلى عبد الخالق حسونة ، يوم ٢٧ يونيو ١٩٦١ ، لدعوة مجلس جامعة الدول العربية لبحث الأزمة .

(٣) وثائق وزارة الخارجية المصرية ، رسالة من السفير المصري بالرياض يوم ٢٧ يونيو ١٩٦١ إلى الدكتور محمود فوزي وزير الخارجية المصري يوضح فيها أن الملك سعود استدعى السفير العراقي لدى المملكة وأبلغه رسالة شديدة اللهجة بخصوص الأزمة العراقية الكويتية .

(٤) وثائق وزارة الخارجية المصرية ، إدارة الصحافة والإعلام ، موجز تقارير الإذاعات والصحافة خلال الأزمة العراقية - الكويتية ٢٥ يونيو - ٣١ يوليو ١٩٦١ ، الإذاعة الكويتية تعلن وصول القوات السعودية إلى الأراضي الكويتية يوم ٣٠ يونيو ١٩٦١ .

حملها وزير الخارجية السعودي تمحورت حول الأزمة وتناولت المساندة العسكرية السعودية للكويت^(١).

وفي ظهر اليوم نفسه ، وصل إلى علم الملك سعود نبأ حشود عسكرية عراقية في طريقها من البصرة إلى الحدود الكويتية فأرسل من الفور برقية إلى رئيس الوزراء العراقي عبد الكريم قاسم ، يناشده فيها : « باسم الله والعروبة والوطنية ، تجنب كل سبب يؤدي إلى اضطراب العلاقات بين العرب أنفسهم ، بل إلى تصادمهم في وقت هم أشد ما يكونون حاجة فيه إلى جمع كلمتهم ودعم قوتهم للوقوف في وجه أعدائهم »^(٢).

وفي ٤ يوليو ١٩٦١ انعقد مجلس جامعة الدول العربية بناء على طلب المملكة العربية السعودية لبحث انضمام الكويت إلى الجامعة العربية ، وأصرّ المندوب السعودي على سرعة بت الطلب الكويتي ، خصوصا أنه صادر عن بلد نال استقلاله واعترفت بهذا الاستقلال جميع الدول العربية ، في بركات بعثت بما إلى حاكم الكويت . وحيث طالب أغلب الأعضاء بتأجيل بت الطلب الكويتي ، رفض مندوب المملكة العربية السعودية ، حتى لا يساء معنى التأجيل ، ويُعد تسويفا . وإزاء تهديد العراق بالانسحاب من الجامعة ، إذا قُبِلت الكويت عضوا فيها ، هدد المندوب السعودي هو الآخر بالانسحاب بلاده من الجامعة إذا لم تُقبل الكويت عضوا فيها^(٣).

وفي ٥ يوليو ١٩٦١ انتشرت الأنباء حول اقتراح للملك سعود بن عبد العزيز بمعالجة الأزمة في اجتماع شخصي يعقده مع اللواء عبد الكريم قاسم على الحدود العراقية ، وهذا الاقتراح ورد في رسالة حملها الحاج أمين الحسيني ، رئيس الهيئة العربية العليا لفلسطين ، إلى عبد الكريم قاسم^(٤).

(١) وثائق وزارة الخارجية المصرية، رسالة الملك سعود إلى الرئيس جمال عبد الناصر يوم ٣٠ يونيو ١٩٦١.

(٢) جريدة الأهرام ، العدد الصادر في ٢ يوليو ١٩٦١ ، برقية من الملك سعود إلى رئيس وزراء العراق عبد الكريم قاسم يوم ٣٠ يونيو ١٩٦١ .

(٣) وثائق جامعة الدول العربية ، الإدارة السياسية ، محضر انعقاد مجلس جامعة الدول العربية ، يوم ٤ يولية ١٩٦١ بناء على طلب المملكة العربية السعودية .

(٤) نازلي معوض أحمد وآخر ، « الكويت من الإمارة إلى الدولة » ، ص ٥٠٠ ، نقلا عن جريدة «صوت الكويت الدولي» ، العدد الصادر في ٢٢ يناير ١٩٩٢ .

وفي ٥ يوليو ١٩٦١ ، وصل إلى الطائف الشيخ جابر الأحمد الصباح ، ولي عهد الكويت ، يرافقه عبد الخالق حسونة ، أمين عام جامعة الدول العربية . وقد اجتمع الملك سعود في مكتبه بالطائف مع أمين عام الجامعة الذي عرض ما بذله من جهود في بغداد والكويت حول الأزمة العراقية - الكويتية ، وقد أكد الملك سعود لأمين عام الجامعة ، رغبته المستعجلة في تلبية طلب حكومة الكويت الانضمام إلى الجامعة ، ورحب الأمين العام بهذا الطلب ووعد بالعمل من أجل سرعة تلبية في أقرب وقت ممكن^(١) .

وبعد ظهر اليوم نفسه ، تسلم الملك سعود رسالة بعث بها إليه الشيخ عبد الله السالم الصباح ، حملها ولي العهد الكويتي الشيخ جابر الأحمد الصباح حيث ألقى ولي العهد كلمة أعرب فيها عن شكر أمير الكويت وشعبها وحكومتها للملك سعود والشعب السعودي ، إذ قال : « إنني مكلف يا صاحب الجلالة ، من سمو أخيكم الشيخ عبد الله السالم وحكومته ، ومن جماهير الشعب الكويتي بأسره ، بأن أعرب لكم عن عجزنا عن أداء الشكر لجلالتكم ولحكومتكم ولشعبكم بأسره ، على هذا الموقف المشرف من بلادكم الكويت . إننا لم نستغرب منكم ، ولا من حكومتكم ولا من شعبكم هذا ، فنحن نعرف ما بيننا وبينكم ولكننا نجىء إليكم شاكرين مقدرين معترفين لكم بهذه اليد الكريمة ، التي أنتم أهل لها والكويت محل لها^(٢) .

ورد الملك سعود على كلمة ولي العهد الكويتي ، بكلمة ، قال فيها : « إن هذه النازلة التي حلت بالأمة العربية ، في صميم عزتها وقوميتها يشترك في آلامها كل عربي ، وذلك أن الفرحة التي تباشرنا بها ، وتبادلنا التهانئ القلبية بحلولها ، بعد الصبر والانتظار ، وهي استقلال الكويت ، الجار الشقيق ، الجديرة بالحرية والاستقلال والازدهار ، تلك الفرحة الغالية على الأمة العربية التي كدرتها الحوادث الأخيرة التي نعتبرها نكسة مخيفة ، لا يعلم مدى مصيبتها للعرب إلا الله وحده » . وأضاف قائلاً : « إنني شخصياً وجميع

(١) الأوراق الخاصة لأمين عام جامعة الدول العربية عبد الخالق حسونة - غير منشورة - اطلع عليها الباحث بمزله بمنشئة البكري بواسطة ابنته .

(٢) جريدة « صوت الكويت الدولي » ، العدد الصادر في ٢٠ يناير ١٩٩٢ .

أفراد أسرتي وحكومتى والشعب السعودي ، نقف اليوم معكم وقفة رجل واحد ، ندافع عن ذلك الجزء العربى الغالى من وطن الأمة العربية ، ونذود عنه ذودتنا عن أى شبر آخر من بلادنا العربية كلها » . واستطرد الملك سعود يقول : « نهب اليوم جميعا ، أنا وشعبى والأمة العربية بأسرها ، فى كل مكان ، للدفاع عن ذلك الجزء العربى ، والمستقل ، من بلادنا وهو الكويت ، نريد له ما يريد له حكامه وشعبه ، بعد كفاحهما الطويل المشرف للاستقلال الذى نالوه واستحقوه ، وأن يكون الكويت عضوا كريما عاملا مع جيرانه فى الجامعة العربية ، وفى هيئة الأمم المتحدة ، وفى المجالات الدولية التى تتعاون على السلام ورفاهية البشر والإنسانية » . وختم الملك سعود قائلا : « إن بعض الإذاعات تتعرض الآن لما تسميه الوساطة فى هذه المشكلة ، والموضوع موضوع استقلال أو اغتصاب ولا شىء بينهما ، فلا مساومة ولا وساطة فى استقلال الكويت »^(١) .

وأسفر موقف الملك سعود وحكومته ، من الأزمة ، عن تصعيد الحملة ضد المملكة العربية السعودية وعاهلها . ولكن المملكة لم تثن عن موقفها المؤيد للكويت ، والذى اتضح بقوة ، فى اجتماع مجلس الجامعة العربية يوم ٢٠ يوليو ١٩٦١ ، من إصرار على ضرورة حصول الكويت على كامل حقوقها فى ترابها الوطنى ، وكامل عضويتها فى الجامعة العربية . وبناء على ذلك ، انعقد لواء قيادة القوات العربية المشتركة للملكة العربية السعودية للدفاع عن الكويت . واستمر الموقف السعودى ثابتا يشد من أزر الكويت ، حتى وضعت الأزمة أوزارها ، بمقتل عبد الكريم قاسم ، وقيام انقلاب ٨ فبراير ١٩٦٣ ضد نظامه^(٢) .

وبخلاصة القول فى موقفى كل من الجمهورية العربية المتحدة والمملكة العربية السعودية من أزمة الحدود الكويتية - العراقية ، هو رفض المطلب العراقى فى ضم الكويت ، لأنه أمر مرفوض فى العلاقات العربية - العربية .

(١) جريدة « صوت الكويت الدولى » ، العدد الصادر فى ٢٠ يناير ١٩٩٢ .

(٢) عبد الله الأشعل ، « قضية الكويت فى الخليج العربى » ، ص ٢٨ .

كان من الواضح منذ بداية الأزمة أن السعودية كانت طرفاً أصيلاً في الأزمة وفي تطوراتها ، أما الجمهورية العربية المتحدة فقد كانت في فترة الأزمة هي الدولة القومية الثورية النموذج على الساحة العربية^(١) .

ومن المؤكد أن الرئيس العراقي عبد الكريم قاسم لم يأخذ في حسبانته ردود الفعل العربية خاصة رد الفعل المصري على تهديداته للكويت^(٢) ، والواقع أن علاقات بغداد مع القاهرة والرياض كانت في ذلك الحين متدنية المستوى نظراً للإحساس بالمكانة الخاصة لكلتا العاصمتين وشعورها بأنها المؤهلة للدور القيادي في العالم العربي ، وكان سوء العلاقات ذاك منذ عام ١٩٥٩ عندما حدث التمرد في الموصل في السابع من مارس وكان وراءه عبد الحميد السراج - رجل عبد الناصر الأول في سورية - فقد جعل التمرد الحكومة العراقية وصحافتها وإعلامها يصبون غضبهم ضد الجمهورية العربية المتحدة^(٣) .

موقف المملكة الأردنية الهاشمية وسوريا

أما عن الموقف الأردني من الأزمة الكويتية العراقية ، فمن الأهمية بمكان ذكر ما دار حول ذلك الموقف . فعلى الرغم من سوء العلاقات الأردنية - العراقية فلم يكن الملك حسين عاهل الأردن لينسى أو ليتسامح بشأن مقتل ابن عمه الملك فيصل في ثورة ١٤ يوليو ١٩٥٨ ، وعلى الرغم من الموقف الأردني العلني المؤيد لرفض الدعاوى العراقية والذي لا تشوبه شائبة إلا أن الوثائق البريطانية التي أفرج عنها أخيراً كشفت النقاب عن أن الملك حسين كان يحرض الرئيس العراقي عبد الكريم قاسم سرا بل إنه كان يحمل تعاطفاً شديداً مع المطالبة بالكويت وأن الملك حسين كان يطمع في ضم الكويت قبل ذلك ومنذ عام ١٩٥٨ تحت لواء الاتحاد الهاشمي^(٤) .

(١) نازلي معوض أحمد وآخر ، « الكويت من الإمارة إلى الدولة » ، ص ص ٥٠١ - ٥٠٢ .

(٢) ليث عبد الحسن الزبيدي ، « ثورة تموز ١٩٥٨ في العراق » ، ص ص ٣٦٩ - ٣٧٠ .

(٣) ناتج ، أنتوني « ناصر » ، ص ص ٣٢٧ - ٣٢٨ ، انظر كذلك ليث عبد الحسن الزبيدي ، « ثورة

١٤ تموز ١٩٥٨ في العراق » ، ص ٣٧٠ ، نازلي معوض أحمد وآخر ، « الكويت من الإمارة إلى

الدولة » ، ص ٥٠٢ .

(٤) جريدة « صوت الكويت الدولي » ، العدد الصادر في ٤ يناير ١٩٩٢ ، نقلاً عن الوثائق البريطانية

التي أفرج عنها .

وسلكت سورية بعد الانفصال مسلكا مختلفا تجاه الأزمة وتطورات أحداثها فإلقد خطت نحو دعم العلاقات مع العراق على حساب علاقاتها مع مصر والكويت^(١).

موقف جامعة الدول العربية

بعد نشوب الأزمة ، تقدم كل من العراق والكويت بشكاوى متبادلة ، إلى مجلس الأمن ، وجامعة الدول العربية . وبناء على ذلك ، عقد مجلس الأمن ، جلسة عاجلة ، في ٢ يوليو ١٩٦١ ، وبعء مناقشات ، تأجلت هذه الجلسة إلى ٥ يوليو ، ثم إلى ٧ يوليو ، وانتهت الجلسة ، دون إصدار قرار ، مما دفع مجلس الأمن إلى أن يترك هذه المهمة لجامعة الدول العربية^(٢).

وكان الشيخ عبد الله السالم الصباح ، قد بحث مع الأمين العام للجامعة العربية ، أثناء زيارته الكويت ، في أبريل ١٩٦١ ، ضمن مهمة رسمية له في منطقة الخليج ، مسألة انضمام بلاده إلى الجامعة العربية . وفي ٢٠ يونيو من العام نفسه ، وبعد إعلان الاستقلال الكويتي ، في ١٩ يونيو ١٩٦١ ، أعلن عبد الخالق حسونة ترحيب الجامعة بأى طلب ، تتقدم به الكويت للانضمام إليها . وفي ٢٣ يونيو ، قدم عبد العزيز حسين طلب حكومة الكويت ، من أجل انضمامها إلى الجامعة العربية . وقرر مجلس الجامعة عقد جلسة في ٤ يوليو ، للموافقة على قبول الكويت عضوا في الجامعة العربية^(٣).

وبعد انفجار الأزمة العراقية - الكويتية في ٢٥ يونيو ، ورفض المملكة العربية السعودية مطالب العراق ، طلبت المملكة في ٢٧ يونيو ١٩٦١ ، عقد جلسة طارئة لجامعة الدول العربية لبحث الأزمة ، وانضمام الكويت إلى عضوية الجامعة العربية ،

(١) نازلي معوض أحمد وآخر ، « الكويت من الإمارة إلى الدولة » ، ص ٥٠٥ .

(٢) وثائق جامعة الدول العربية ، الإدارة السياسية ، شكوى الكويت ضد العراق يوم ٢٦ يونيو ١٩٦١ وشكوى العراق ضد الكويت يوم ٢٧ يونيو ١٩٦١ ، انظر كذلك جامعة الدول العربية ، جامعة الدول العربية - ميثاقها وإنجازاتها » ، ص ١٤٤ .

(٣) وثائق جامعة الدول العربية ، تقرير الأمين العام ، سبتمبر ١٩٦١ ، انظر كذلك أوراق عبد الخالق حسونة الشخصية .

ولم يتخذ قرار في شأن هذا الطلب . وفي الأول من يوليو ، تقدمت المملكة ، للمرة الثانية ، بمذكرة إلى أمانة الجامعة العربية ، تطلب فيها عقد اجتماع غير عادي لمجلس الجامعة ، لبحث موضوع انضمام الكويت إلى الجامعة العربية ، ومناقشة التهديد العراقي لاستقلال الكويت^(١) .

وبالفعل ، اجتمع مجلس الجامعة العربية ، في جلسة طارئة في ٤ يوليو ١٩٦١^(٢) . لكنه أخفق في اتخاذ قرار في الموضوع ، وقرر تأجيل الجلسة إلى يوم الأربعاء ، ١٢ يولية ، ريثما ينتهي أمين عام الجامعة العربية من الاتصال مع الحكومات المعنية بالأزمة ، والعمل على تسوية النزاع ، من أجل تهدئة الموقف ، من خلال تشكيل « وفد على مستوى رفيع من الجامعة العربية » ، برئاسته ، للسفر إلى الكويت والعراق والمملكة العربية السعودية . وقد شمل الوفد ، إضافة إلى عبد الخالق حسونة ، الدكتور سيد نوفل ، الأمين العام المساعد . وسافر الوفد ، في اليوم نفسه ، إلى بغداد ، حيث التقى أمين الجامعة العربية ، مرتين ، برئيس الوزراء العراقي ، عبد الكريم قاسم ، ووزير خارجيته ، هاشم جواد . ثم انتقل إلى الكويت ، واجتمع بحاكمها . وانتقل ، بعد ذلك ، إلى المملكة العربية السعودية . وأعرب عن تفاؤله ، وعبر عن اعتقاده أن حلا قريبا هو ممكن بين الجانبين . وأضاف عبد الخالق حسونة : « لا أستطيع أن أتصور نشوب قتال بين العرب ، في حين تحشد إسرائيل قواتها على حدود الإقليم الشمالي .. ولدى اعتبارات كثيرة تدعوني لتوقع انقشاع الغمة وعودة العلاقات إلى ما كانت عليه قبلا »^(٣) .

(١) وثائق جامعة الدول العربية ، الإدارة السياسية ، طلب المملكة العربية عقد جلسة طارئة للجامعة لبحث الأزمة ، انظر كذلك بطرس بطرس غالي ، « جامعة الدول العربية وتسوية المنازعات المحلية » ، ص ٨٥ .

(٢) وثائق جامعة الدول العربية ، الإدارة السياسية ، اجتماع مجلس الجامعة في جلسة طارئة يوم ٤ يوليو ١٩٦١ .

(٣) أوراق عبد الخالق حسونة ، غير منشورة ، تقرير عن جولة الأمين العام لجامعة الدول العربية للكويت والعراق والسعودية ، انظر كذلك نازلي معوض وآخر ، « الكويت من الإمارة إلى الدولة » ، ص ٥٠٦ .

وبقدر ما أيدت ودعمت المملكة العربية السعودية طلب الكويت الانضمام إلى الجامعة ، في هذه الجلسة ، كذلك اعترض العراق ، وبالقدر عينه ، على هذا الطلب . مما أسفر عن انقسام مجلس الجامعة العربية على نفسه ، إلى أربعة فقاء^(١) :

* المملكة العربية السعودية : أسرت على سرعة البت في الطلب الكويتي ، أي : الانضمام إلى الجامعة ، خصوصاً أن جميع الدول العربية ، قد اعترفت باستقلالها .

* لبنان والمغرب : أيدتا موقف أمين عام الجامعة ، القائل بالتريث والمرونة .

* العراق : تغيبت عن الاجتماع ، مهددة بالانسحاب من الجامعة العربية ، في حالة قبول طلب انضمام الكويت . ورداً على التهديد العراقي ، هدد مندوب المملكة العربية السعودية كذلك ، بانسحاب بلاده من الجامعة العربية ، إذا لم توافق على الطلب الكويتي .

* الجمهورية العربية المتحدة : اتخذت موقفاً معتدلاً ، حيال طلب الكويت ، مفاده أنه لا يمكن أن تُعدَّ الكويت بلدًا مستقلاً ، ما دامت قوات أجنبية ، مثل القوات البريطانية ، متمركزة في أراضيها . واستطراداً ، فهي غير مستوفية شروط العضوية في جامعة الدول العربية .

إزاء ذلك ، تأجلت المناقشات « البت في الطلب » ، إلى ١٢ يوليو ، لإتاحة الفرصة للجولة التي يظطلع القيام بها أمين الجامعة العربية ، في كل من العراق والكويت ، للوساطة بينهما ، وخوفاً من أن يؤدي انسحاب العراق إلى زيادة هيمنة الجمهورية العربية المتحدة ، على الجامعة العربية^(٢) .

وخلال الفترة من ٥ إلى ١٢ يوليو ١٩٦١ ، زارت لجنة من الحكومة الكويتية ، برئاسة وزير المالية وشئون النفط ، كلاً من مصر والسودان ولبنان ، لتوضيح الموقف

(١) وثائق جامعة الدول العربية ، الإدارة السياسية غير منشورة ، جلسة مجلس جامعة الدول العربية يوم ٤

يوليو ١٩٦١ .

(٢) المصدر السابق .

الكويتي . كما أن الجهود ، التي بذلها كلٌّ من العراق والمملكة الأردنية الهاشمية ، من أجل تأجيل آخر لاجتماع مجلس الجامعة ، لم تُوفَّق . واجتمع مجلس الجامعة العربية ، في ١٢ ، ١٣ يوليو برئاسة المغرب^(١) .

وفي اجتماع الجامعة العربية ، في ١٢ يوليو ١٩٦١ ، قدمت حكومة الكويت مذكرة إلى لجنة الشؤون السياسية ، التابعة للجامعة ، تضمنت طلبين : طلب الانضمام إلى الجامعة العربية ، وطلب مساندة الدول العربية ضد التهديد العراقي . كما تعهد أمير الكويت في المذكرة ، بسحب القوات البريطانية من الكويت ، على أن تحل محلها قوات عربية . وقد نص التعهد على الآتي : « إن سمو أمير الكويت ، يتعهد بأن يأمر ، حالاً ، بسحب جميع القوات البريطانية من الكويت ، حينما تشكل جامعة الدول العربية قوات عربية ، تقوم ، فعلاً ، بإرسالها إلى الكويت ، لتحل محل القوات الأجنبية، الموجودة بما حالياً ، وذلك لصيانة استقلال الكويت ، وصد أي هجوم عليها^(٢) .

وفي اجتماع الجامعة العربية ، في ١٣ يوليو ، قررت لجنة الشؤون السياسية ما يلي : نظرت لجنة الشؤون السياسية موضوع طلب الكويت الانضمام لجامعة الدول العربية وما أحاط به ملابسات . وبعد استعراض اللجنة لكافة وجهات النظر ، التي أبدتها الوفود الأعضاء ، والمبادئ التي تقدم بها وفد المملكة المغربية ، وهي^(٣) :

أولاً : تلتزم الكويت بطلب سحب القوات البريطانية .

ثانياً : يلتزم العراق بعدم استخدام القوة ، لضم الكويت .

(١) جريدة الأهرام ، العدد الصادر في ١٣ يوليو ١٩٦١ ، انظر كذلك نازلي معوض أحمد وآخر ، « الكويت من الإمارة إلى الدولة » ، ص ٥٠٦ .

(٢) وثائق جامعة الدول العربية . محضر اجتماع مجلس الجامعة العربية يوم ١٢ يوليو ١٩٦١ ، انظر كذلك جامعة الدول العربية ، « جامعة الدول العربية - ميثاقها وإنجازاتها ، ص ١٤٤ » .

(٣) وثائق جامعة الدول العربية الإدارة السياسية ، محضر اجتماع لجنة الشؤون السياسية بالجامعة يوم ١٣ يوليو ١٩٦١ .

ثالثاً : تلتزم الدول العربية ، من جهتها ، بما يلي :

- ١ - الترحيب بالكويت عضواً في جامعة الدول العربية .
 - ٢ - مساعدة الكويت على الانضمام إلى الأمم المتحدة .
 - ٣ - تقديم المساعدة الفاعلة لحماية استقلال الكويت ، بناء على المذكرة الكويتية ، المقدمة إلى لجنة الشؤون السياسية ، في جلستها المعقودة في ١٢ يوليو ١٩٦١ .
 - ٤ - تأييد كل رغبة يبيدها شعب الكويت في الوحدة ، أو الاتحاد مع غيره من الدول العربية ، طبقاً لميثاق الجامعة العربية .
- وقررت اللجنة ، تأجيل اجتماعها إلى الساعة السادسة مساءً ٢٠ يوليو ١٩٦١ ، وذلك ليتسنى لمندوبي الدول الأعضاء ، الرجوع إلى حكوماتهم ، لأخذ رأيها في هذه المبادئ ، وفي الخطة اللازمة ، لوضعها موضع التنفيذ .
- وفي الحقيقة ، كان أمام مجلس الجامعة مشروع قرار ، يُحدّد ، في إطاره ، بديلان للعمل . أبدى الوفد الكويتي ، برئاسة جابر الأحمد الصباح ، استعداد بلاده لقبول أي منهما وهما^(١) :
- ١ - أن يتخلى عبد الكريم قاسم عن مطالبه وادعاءاته ، وأن يقدم اعترافه باستقلال الكويت الكامل . كما يعلن هذا الاعتراف أمام مجلس جامعة الدول العربية ، ومجلس الأمن ، التابع لمنظمة الأمم المتحدة .
 - ٢ - أن ترسل الجامعة العربية قوة عسكرية ، تابعة لها ، إلى دولة الكويت ، لتحل محل القوات البريطانية .

وقد توجت مسوّدة الحل الكويتي بمقدمة ، جاء فيها : « إن الكويت جزء من الأمة العربية ورغبة منها أن تحل الأزمة الطارئة ، بينها وبين الحكومة العراقية على صعيد

(١) وثائق جامعة الدول العربية الإدارية السياسية ، مشروع قرار مقدم لمجلس الجامعة .

عربي ، في نطاق الجامعة التي تعدها الدعامة الأساسية لحفظ مصالح العرب ، وتوحيد كلمتهم ، تبنى استعدادها لقبول أي من الحلين » . ورحبت القاهرة بالموقف الكويتي ، ورأت أن الحل الأول ، التي تفترضه الكويت ، يتعلق بإرادة الحكومة العراقية . أما الحل الثاني ، فإن الجمهورية العربية المتحدة ، تعلن استعدادها التام ، وموافقتها على إرسال قوات عربية إلى الكويت بناء على الطلب الكويتي لما يترتب على ذلك من إخراج القوات البريطانية^(١) .

وحتى ١٥ يوليو ١٩٦١ ، لم تكن الجامعة العربية قد وصلت إلى حل ، يتعلق بالأزميتين المترابطتين : الأزمة بين العراق والكويت ، وانضمام الكويت إلى الجامعة العربية . وهكذا ، كانت الجامعة تعاني مأزقاً خطيراً ، يتمثل في^(٢) :

١ - إصرار المملكة العربية السعودية على إدخال الكويت إلى الجامعة العربية ، بأى ثمن كان ، وتريد أن تتخذ الجامعة قراراً بالموافقة ، ولو غضب العراق ، وانسحب من الجامعة .

٢ - رغبة الأمم المتحدة في انضمام الكويت إلى الجامعة العربية ، ولكنها لا تريد أن تتحمل مسؤولية ذلك . كما أنها توافق على إرسال القوات العربية إلى الكويت ، شريطة ألا تشترك هي فيها .

وأخيراً أوصت لجنة الشؤون السياسية في الجامعة العربية ، بالموافقة على قبول الكويت ، باستثناء وفد العراق ، الذي عمد إلى الانسحاب ، احتجاجاً على هذا القرار . وهكذا ، أصدرت الجامعة العربية ، في ٢٠ يوليو ١٩٦١ ، القرار رقم ٣٥/١٧٧٧ ، الذي نص في فقرته الثانية على انضمام الكويت إلى جامعة الدول العربية ، وفي فقرته الثالثة ، على أن تلتزم الدول العربية بتقديم المساعدة الفاعلة ، لصيانة واستقلال الكويت، بناءً على طلبها . وقد تحفظ من الفقرة الثالثة من القرار ، كلٌّ من مندوبي

(١) أوراق عبد الخالق حسونة - غير منشورة - مشروع قرار مقدم مجلس جامعة الدول العربية .

(٢) أوراق عبد الخالق حسونة - غير منشورة - تقرير عبد الخالق حسونة عن الأزمة العراقية - الكويتية

جمهورية السودان ، والجمهورية اللبنانية ، والمملكة الليبية المتحدة لرغبتها في المشاركة في قوات الجامعة ، المرسله إلى الكويت ، بينما أبدى سائر مندوبي الدول الأعضاء الحاضرين ، الاستعداد للمشاركة فيها^(١) .

وإعمالاً للفقرة الثالثة من قرار مجلس الجامعة العربية ، وبعد انضمام الكويت إلى معاهدة الدفاع العربي المشترك ، تابع عبد الخالق حسونة ، الأمين العام لجامعة الدول العربية ، تنفيذ القرار . وتوصل بعد حوالي ثلاثة أسابيع ، إلى اتفاق مع حكومة الكويت بطلب سحب القوات البريطانية، وإحلال قوات تابعة للجامعة العربية مكانها . وتحقق ذلك ، عبر رسالتين متبادلتين ، بينه وبين أمير الكويت . ففي ١٢ أغسطس ١٩٦١ ، بعث برسالة رسمية إلى أمير الكويت ، في شأن وضع قوات أمن الجامعة العربية في الكويت ، والترتيبات المتعلقة بها ، وأكد فيها : « أن هذه القوات وقتية ، توجد بأراضي الكويت ، استجابة لطلب سموكم . كما أنها تنسحب منها ، في أي وقت تطلبون انسحابها ، وبالطريقة التي يتم الاتفاق عليها بيننا ... » . واختتم بالقول : « ... فإذا وافقتم سموكم ، على ما تضمنته هذه الرسالة ، فإنها ، وردكم عليها بالموافقة ، يكونان بمثابة اتفاق مبرم في هذا الشأن ، بين جامعة الدول العربية وحكومتمكم الموقرة »^(٢) .

وتلقى عبد الخالق حسونة ، في اليوم نفسه ، جواب أمير الكويت ، الذي أبدى موافقته على إحلال القوات العربية في الكويت ، محل القوات البريطانية . وأكد في رسالته « أن حكومة الكويت ، انطلاقاً من ممارسة سلطات سيادتها ، في أي من الأمور المتصلة بوجود قوات أمن الجامعة في أراضيها سوف تحرص كل الحرص على أن

(١) وثائق جامعة الدول العربية ، الأمانة العامة ، قرارات مجلس جامعة الدول العربية ، المجلد الثالث - الدورة ٣٥ بتاريخ ٢١ مارس ١٩٦١ وحتى الدورة ٤٣ بتاريخ ٢٠ أبريل ١٩٦٥ - إعداد مكتب الأمين العام ، مركز التوثيق والمعلومات طبعة ١٩٨٨ ، القرار رقم ١٧٧٦ ، الدورة العادية رقم ٣٥ ، الجلسة رقم ٨ بتاريخ ٢٠ يوليو ١٩٦١ ، ص ٤٥ .

(٢) وثائق جامعة الدول العربية ، رسالة من الأمين العام لجامعة الدول العربية عبد الخالق حسونة إلى أمير الكويت يوم ١٢ أغسطس ١٩٦١ .

تستهدى روح التقاليد العربية والثقة التي تنير تاريخنا العربي المجيد ، وأن تلتزم بنص وروح ميثاق الجامعة ، وقرار مجلس الجامعة في ٢٠ يوليو ١٩٦١ ، المشار إليه في رسالتكم » ، واستطرد قائلاً : « وأنا ، بموجب رسالتنا هذه ، نوافق موافقة تامة على جميع البنود الواردة في رسالتكم . وتلزم كذلك حكومة الكويت بتنفيذها . كما نوافق على ما أشرتم إليه ، سيادتكم ، من أن رسالتكم وهذا الرد من جانبنا ، يشكلان اتفاقية بين جامعة الدول العربية وحكومة الكويت . وفي هذه المناسبة ، يسعدني إبلاغ سيادتكم ، أنه تنفيذاً لما ألقى على عاتقنا في قرار مجلس الجامعة سالف الذكر قد طلبنا ، اليوم ، إلى الحكومة البريطانية سحب قواتها من أراضي الكويت »^(١) .

وفي اليوم عينه ، وعلى أثر اتخاذ تلك الترتيبات ، أرسل أمير الكويت كتاباً إلى الحكومة البريطانية ، يطلب منها انسحاب القوات البريطانية من أراضيه . وتلقى ردّاً من الحكومة البريطانية بالموافقة ، حالما تصل القوات العربية إلى مواقعها^(٢) .

وعند تأمل ومراجعة الأحداث الماضية ، يبدو أن الرئيس جمال عبد الناصر استغل هيئته وتأثيره على الدول العربية الأخرى ، لكي يحصل على اعتراف وقبول الكويت في الجامعة العربية . وسعيًا لاستبدال أعدائه البريطانيين في الكويت ، كان عبد الناصر قادرًا على انتزاع تنازلين رئيسيين من الكويت : إنسحاب القوات البريطانية ومقاسمة ثروة الكويت مع الدول العربية الأخرى^(٣) .

ومنذ ذلك الحين أصبحت سياسة ومدخولات النفط متداخلة مع العلاقات العربية المشتركة ، وأصبحت الاستثمارات والمساعدات الكويتية أداة رئيسية في سياسة الكويت الخارجية .

(١) وثائق جامعة الدول العربية ، رسالة أمير الكويت إلى أمين عام الجامعة العربية يوم ١٢ أغسطس ١٩٦١ بالموافقة على تواجد قوات الأمن على الأراضي الكويتية .

(٢) المركز الوطني لوثائق العدوان العراقي على الكويت ، « ترسيم الحدود الكويتية العراقية - الحق التاريخي والإرادة الدولية » ، إعداد لجنة من المختصين ، الطبعة الأولى ١٩٩٢ ، ص ٤٩ ، انظر كذلك ميمونة خليفة الصباح ، « الكويت في ظل الحماية البريطانية » ، ص ٤٩١ .

(٣) عبد الرضا على أسيري « الكويت في السياسة الدولية المعاصرة » ، ص ٧٩ .

ومنذ تلك العقبة برزت « دبلوماسية الدينار » وأخذت شكلاً حقيقياً ومؤثراً . وكانت الفرصة السائدة أن سعى الكويت لاستثمار مدخولات النفط في مشروعات التنمية في العالم العربي هو ثمن مساعدة العرب لها ضد التهديدات العراقية^(١) .

وفي ١٥ أغسطس ١٩٦١ ، انعقد مجلس الجامعة العربية ، وأصدر قراراً هذا نصه : « أحيط مجلس الجامعة علماً ، في جلسته المعقودة في ٢٠ يوليو ١٩٦١ في شأن تقديم المساعدة الفعلية إلى الكويت ، بناءً على طلبها . كما أحيط بالرسالتين المتبادلتين ، بين سمو أمير دولة الكويت ، والأمين العام ، في شأن وضع قوات أمن الجامعة العربية في الكويت . والمجلس ، إذ يرحب بطلب سمو أمير دولة الكويت انسحاب القوات البريطانية من الأراضي الكويتية ، يعرب لسيادة الأمين العام ، وبعثة الجامعة إلى الكويت ، عن أجزل الشكر ، وعظيم التقدير ، ويتنظر أن يتم قريباً إحلال الجنود العرب محل الجنود البريطانيين ، في الكويت^(٢) .

ولتطبيق هذا القرار ، وقعت الجامعة العربية ، اتفاقات مع كل من السودان والمملكة العربية السعودية والأردن وتونس ، في شأن اشتراكها في قوات الأمن العربية . وفي ١٠ سبتمبر ١٩٦١ ، بدأ وصول هذه القوات إلى الكويت^(٣) . وما أن حل يوم ٣ أكتوبر ١٩٦١ ، حتى اكتمل وصول هذه القوات ، التي تألفت من ٢٣٣٧ جندياً ، وبياتها كالتالي^(٤) .

(١) عبد الرضا على أسيرى « الكويت في السياسة الدولية المعاصرة » ، ص ص ٧٩ - ٨٠ .
(٢) وثائق جامعة الدول العربية ، الإدارة السياسية ، قرار مجلس جامعة الدول العربية يوم ١٥ أغسطس ١٩٦١ ، انظر كذلك وثائق الجامعة ، اللواء الركن عبد الرزاق الدرديري - رئيس الإدارة العامة للشئون العسكرية بأمانة الجامعة ، « الأنشطة العسكرية لجامعة الدول العربية » ، تونس ، ٥ جانفي ١٩٨٥ ، ص ٣٤ .

(٣) وثائق جامعة الدول العربية « جامعة الدول العربية - ميثاقها وإنجازاتها » ، ص ١٤٥ .
(٤) وثائق جامعة الدول العربية ، اللواء الركن عبد الرزاق الدرديري ، « الأنشطة العسكرية لجامعة الدول العربية » ، ص ٣٧ ، انظر كذلك ميمونة خليفة الصباح ، « الكويت في ظل الحماية البريطانية » ، ص ٤٩١ ، حيث أوردت أن حجم القوات ٢٣٠٠ جندي .

* القوة السعودية : تتكون من ١٢٨١ جندياً (كتبية مشاة ٧٨٥ جندياً + كتبية مدرعة ٤٩٦ جندياً + سرية مدفعية ميدان ٦ مدافع ١٠٥ مم + وحدات خدمات فنية) .

* القوة الأردنية : تتكون من ٧٨٥ جندياً (كتبية مشاة + فصيلة مدفعية مضادة للطائرات ٦ مدافع ٤٠ مم + وحدة خدمات طبية) .

* القوة السودانية : تتكون من ١١٢ جندياً (سرية مشاة) .

* قوة الجمهورية العربية المتحدة : تتكون من ١٥٩ جندياً ، (سرية مهندسين عسكريين + سرية إشارة + وحدة سكرتارية عسكرية) .

وفي ١٢ أكتوبر ١٩٦١ سحبت مصر قواتها من الكويت ، على أثر انفصال سورية، وتوتر العلاقات بين مصر وكل من الأردن والمملكة العربية السعودية^(١) .

وذكر أنتوني ناتنج في هذا الخصوص قائلاً : « وفي النهاية نجح جمال عبد الناصر في تحقيق انضمام الكويت إلى الجامعة العربية وإحلال قوات عربية محل القوات البريطانية في الكويت . لقد حقق جمال عبد الناصر هدفه المباشر ، وعندما تأكد من أن الكويت ليست في خطر التعرض لهجوم عراقي وأن البريطانيين قد انسحبوا تماماً ، سارع بسحب جنوده من القوة العربية ، وذلك لأن احتكاكاً كان قد بدأ بين القوات المصرية وقوات المملكة العربية السعودية والأردن ، أضف إلى هذا أن رجال المخابرات المصريين في العراق كانوا يبعثون بتقارير مفادها أن وجود قوات الجمهورية العربية المتحدة في الكويت بعد رفض القاهرة التام لطلب العراق ضم الكويت بدأ يضايق عدداً كبيراً من القوميين العراقيين الذين يعارضون عبد الكريم قاسم ويؤيدون بشدة عبد الناصر ، ومن ثم لم تمض أسابيع قليلة على وصول القوات المصرية إلى الكويت حتى بعث عبد الناصر

(١) وثائق وزارة الخارجية المصرية ، ملف الأزمة العراقية - الكويتية ، طلب حكومة الجمهورية العربية المتحدة بسحب قواتها من الكويت موجه إلى الأمين العام للجامعة العربية في ١٠/١٠/١٩٦١ على أن يتم سحب القوات يوم ١٢/١٠/١٩٦١ .

إلى حاكم الكويت بقرية مفادها أنه سيسحب قواته لأن عناصر تخريبية تحاول إثارة أزمة بين قوات الجمهورية العربية المتحدة وحكومة وشعب الكويت^(١) .

وبسحب مصر لقواتها ، تغير تشكيل قوات الأمن العربية وعددها ، ليصبح مجموع القوة العربية ٢٢٢٥ جنديًا . ويلاحظ أن مجموع هذه القوات ، يقل عن المجموع الذي قدرته بعثة عسكرية ، تابعة للجامعة العربية ، وهو ٣ آلاف - ٣٥٠٠ جندي^(٢) . وقد أشارت وثائق الجامعة العربية ، إلى أن حجم القوات العربية ، الذي بلغ ٢٢٢٥ ضابطًا وجنديًا ، كان توزيعهم كالاتي^(٣) .

* القوة السعودية : تتكون من ١٢٦١ رجلاً (٧٥ ضابطًا ، ١١٨٦ صف ضابط وجنديًا) .

* القوة الأردنية : تتكون من ٨٥٢ رجلاً (٤٣ ضابطًا ، ٨٠٩ صفوف ضباط وجنود) .

* القوة السودانية : تتكون من ١١٢ رجلاً (٧ ضباط ، ١٠٥ صفوف ضباط وجنود) .

وفي ١٤ أكتوبر زار الأمين العام لجامعة الدول العربية ، عبد الخالق حسونة ، الكويت . وأصدر أمرًا إلى قوة الأمن العربية ، نصه كما يلي : « إنكم تأتون إلى الكويت أحوة عربيًا ، في قسم من وطننا العربي الكبير ، وتقفون على الحدود الكويتية - العراقية ، ضيوفًا على البلدين ، فمهمتكم عربية قومية . ولهذا فإنني أعهد إليكم بمهمة المراقبة اليقظة والشعب العراقي في مقدمتها ، لا يمكن أن يتصور أحد من بيننا أن يشهر

(١) ناتج ، أنتوني « ناصر » ، ترجمة شاكرا إبراهيم سعيد ، ص ٣٢٩ - ٣٣٠ .

(٢) وثائق جامعة الدول العربية ، اللواء الركن عبد الرزاق الدرديري « الأنشطة العسكرية لجامعة الدول العربية » ، ص ٣٧ .

(٣) المصدر السابق ، نفس المكان .

عربي سلاحه على أخيه العربي .. فلتكن رسالتكم رسالة الأخوة العربية والمحبة والوثام^(١) .

وفي خلال الفترة من ١٨ إلى ٢٥ نوفمبر ١٩٦٢ زارت الهيئة التنفيذية لقوات أمن الجامعة الكويت زيارة استطلاعية ، حيث أبلغ كبار المسؤولين في دولة الكويت السيد الأمين العام المساعد ، رئيس الهيئة التنفيذية ، طلب الحكومة الكويتية تخفيض حجم القوتين : الأردنية ، والسعودية ، ليصبح كل منهما في حجم القوة السودانية الحالية (وعدادها ١١٢ جندياً) . وعلى هذا ، طلبت الجامعة العربية ، بعد موافقة الأمانة العسكرية ، من جميع دولها الأعضاء ، أن تسهم بعدد رمزي من قواتها ، يراوح ١٥ و ٢٠ جندياً في قوات أمن الجامعة العربية ، على أن تقتصر مهمة هذه القوات على مراقبة الحدود بين العراق والكويت^(٢) . وبالفعل ، سحب كل من المملكة العربية السعودية والأردن قواتها ، العاملة ضمن قوات أمن الجامعة العربية ، في يناير ١٩٦٣ بعدما وصلت قوات الأمن الرمزية من الدول العربية الأخرى . ولقد ظلت هذه القوات ، تؤدى دورها ومهامها حتى قيام انقلاب ٨ فبراير ١٩٦٣ ، وتولّى عبد السلام عارف رئاسة الجمهورية العراقية التي بدأت بإصدار تصريحات ودية تجاه الكويت^(٣) .

وفي ١٢ فبراير ١٩٦٣ تلقى الأمين العام للجامعة العربية برقية من وزير خارجية الكويت جاء فيها : « إن السلطات المسئولة في الكويت ، تقديراً منها للموقف الجديد في العراق الشقيق وإعراباً عن الأمل في إمكان عودة العلاقات الطبيعية بين القطرين الشقيقين ، ترى صرف النظر ، حالياً ، عن تشكيل القوات العربية الرمزية ، وتأمل أن تواصل الجامعة العربية جهودها الطيبة لتصفية الجو بين الدول العربية لتهيئ لها أسباب

(١) وثائق جامعة الدول العربية ، مكتب الأمين العام ، الأمر الصادر من الأمين العام للجامعة عبد الخالق

حسونة إلى قوة الأمن العربية يوم ١٤ أكتوبر ١٩٦١ باعتباره القائد الأعلى لقوات الأمن العربية .

(٢) وثائق جامعة الدول العربية ، اللواء الركن عبد الرازق الدرديري « الأنشطة العسكرية لجامعة الدول

العربية » ، ص ص ٣٧ - ٣٨ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٣٨ .

التعاون ، لما فيه خير وتقدم الأمة العربية » . وفي ٢٠ فبراير ، اكتمل انسحاب قوات الأمن العربية من الكويت^(١) .

وتمثلت الأسس القانونية ، لإنشاء قوات الأمن ، التي أرسلت إلى الكويت في الآتي^(٢) :

(أ) قرار مجلس جامعة الدول العربية في ٢٠ يوليو ١٩٦١ .

(ب) طلب حكومة الكويت إرسال قوات عربية ، لتحل محل القوات البريطانية .

(ج) التقاء الجامعة بوصفها منظمة دولية ممثلة في الأمين العام ، بموجب سلطاته ، التي خوله إياها المجلس في هذا الشأن ، وإرادة حكومة الكويت ، ممثلة في حاكمها في صورة رسائل متبادلة تكون اتفاقية بين الكويت والجامعة .

واستندت قواعد تشكيل القوات ، وما تتمتع به من مميزات وحصانات ، وما يترتب عليها من حقوق وواجبات إلى^(٣) :

(أ) الحصانات العامة ، الواردة في المادة ١٤ من ميثاق الجامعة العربية .

(ب) المواد ٢ ، ٤ ، ٥ ، ٦ من الميثاق نفسه .

وقد تشكلت قيادة قوة الأمن العربية من^(٤) :

* اللواء عبد الله عبد العزيز العيسى ، (ضابط سعودي) ، قائداً لقوة الأمن .

(١) وثائق جامعة الدول العربية ، الأمانة العامة ، «جامعة الدول العربية - ميثاقها وإنجازاتها» ، ص ١٤٥ ، انظر كذلك دكتور سيد نوفل «الأوضاع السياسية لإمارات الخليج العربي» ، الكتاب الأول - مدخل عام ودراسة للكويت ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ١٩٦٧ ، ص ٢٤٧ - ٢٥٢ .

(٢) فكري سامي أمين سامي ، « دور المنظمات الإقليمية في حفظ السلام الدولي » ، رسالة دكتوراه ، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية عام ١٩٨٠ ، ص ٧١ .

(٣) وثائق جامعة الدول العربية ، ميثاق الجامعة ، انظر كذلك المصدر السابق ، ص ٧١ - ٧٢ .

(٤) وثائق جامعة الدول العربية ، ملف رقم ٥٧٥ خاص بقيادة قوة الأمن العربية .

- * العميد خالد الصحن ، نائب قائد قوة الأمن .
- * العقيد الركن كامل الدباغ ، رئيساً لهيئة الأركان .
- * المقدم الركن عبد الستار أمين ، مساعداً لرئيس الأركان .
- * العقيد أحمد شريف ، مديراً للعمليات .
- * المقدم بشير حسن مشير ، مديراً للمشروعات الفنية .
- * الرائد سليمان الماضي ، مديراً للإدارة والتمويل .

وحُددت واجبات القوات العربية بالعمل كقوات أمن ، داخل أراضي الكويت ، في منطقة الحدود المشتركة بين الكويت والعراق ، للمحافظة على استقلال الكويت وسلامة أراضيها ومهمتها الدفاع ، دون الهجوم ، مع تجنب التحرش بالقوات العراقية على الحدود ، أو إثارتها ، أو استفزازها ، بأى شكل من الأشكال^(١) .

وأصدر الأمين العام للجامعة عدة قرارات تنظيمية في شأن هذه القوات منها ، إنشاء الهيئة التنفيذية لقوات أمن الجامعة العربية برئاسة الأمين العام المساعد ، وكذا إنشاء اللجنة الاستشارية وتضم ممثلين عن الدول المشتركة في القوات ، وإنشاء صندوق لتمويل هذه القوات . كما عيّن قائد ورئيس أركان القوات من ضباط المملكة العربية السعودية ، تطبيقاً لأحكام معاهدة الدفاع المشترك ، التي تنص على أن تكون القيادة للدولة ، التي تكون قواتها المشاركة هي الأكثر عدداً^(٢) .

هكذا استطاعت جامعة الدول العربية أن تقوم بدور في حل التراع نظراً لعدم تورط الدول العربية الكبرى ، فالدول العربية الثورية في ذلك الوقت وهي مصر الناصرية لم تكن طرفاً في التراع وبذلك استطاعت الجامعة العربية أن تقوم بدور فعال شدّ من أزره رغبة الدول الأعضاء في تحقيق التسوية السلمية لهذا الخلاف بحيث

(١) وثائق جامعة الدول العربية ، اللواء الركن عبد الرزاق الدرديري ، « الأنشطة العسكرية لجامعة الدول العربية » ، ص ٦٧ .

(٢) وثائق جامعة الدول العربية ، اللواء الركن عبد الرزاق الدرديري ، « الأنشطة العسكرية لجامعة الدول العربية » ، ص ٦٩ .

لا تكون تلك التسوية على حساب الكويت ولا على حساب خروج العراق من الجامعة العربية والذي يهدد التوازن الحادث في الجامعة^(١).

وتعد هذه التجربة هي الأولى للجامعة العربية في حفظ السلام الإقليمي وبعد إرسالها لقوات عربية إلى الكويت إجراءً جديداً من الإجراءات المساعدة على تسوية المنازعات لم ينص عليه ميثاق الجامعة ، كما أن الجامعة بذلك تعد أسبق المنظمات الإقليمية في اتخاذ هذه الخطوة إذ اتخذت منظمة الدول الأمريكية إجراءً مماثلاً - لكنه اختلف في نواح كثيرة - بمناسبة أزمة الدومنيكان عام ١٩٦٥^(٢).

كما أسيغ التدخل العسكري البريطاني على التراع طابعاً وصفة دولية واضحة وأخرجته من كونه نزاعاً محلياً إلى مرتبة العالمية وتأكد ذلك مع عرضه على مجلس الأمن الذي لم يستطع أن يتخذ فيه أى قرار ، ولقد حول التدخل البريطاني انتباه الدول العربية فاجتمعوا على رأى واحد بصدد النقطة الفرعية (الوجود البريطاني في الكويت) من أجل وحدة الصف العربي على حين لم يجتمعوا على القضية الأصلية . وإذا كانت بريطانيا وقواتها في الكويت كانت هي الدافع الأعظم لتشكيل القوات العربية المشتركة لتحل محل القوات البريطانية ، فإن بريطانيا في الحقيقة شجعت تشكيل هذه القوة نظراً لظروف الموقف السياسى العالمى . ففي منتصف أغسطس ١٩٦٢ كانت هناك أزمة قاتلة في برلين بين المعسكرين الشرقى والغربى مما استدعى من بريطانيا إخراج قواتها من الكويت لدعم الجيش البريطانى في منطقة الراين^(٣).

الموقف الدولى من الأزمة العراقية - الكويتية ١٩٦١

لعل ما يسترعى الانتباه أن الأزمة العراقية - الكويتية ، استطاعت أن تجد حلاً لها في إطار الأسرة العربية ، بينما فشل مجلس الأمن ، والأمم المتحدة ، في معالجتها ،

(١) بطرس بطرس غالى ، « جامعة الدول العربية وتسوية المنازعات المحلية » ص ٩٠ .

(٢) عبد الله الأشعل ، « قضية الكويت في الخليج العربى » ، ص ٣١ .

(٣) بطرس بطرس غالى ، « جامعة الدول العربية وتسوية المنازعات المحلية » ص ٩١ .

بسبب الحرب الباردة بين المعسكرين : الغربي بزعمارة الولايات المتحدة الأمريكية ، والشرقي بزعمارة الاتحاد السوفيتي ، ونجاح العراق في اجتذاب موسكو إليه ، وقد أدى توازن القوى داخل المجلس وقتذاك ، إلى عجزه عن اتخاذ قرار ، مما دفعه إلى ترك هذه المهمة لجامعة الدول العربية^(١) .

وعلى الرغم من موقف مجلس الأمن ، وفشله في اتخاذ قرار بانضمام الكويت إلى عضوية الأمم المتحدة ، إلا أن كثيراً من الدول العربية والأجنبية ، وقفت ، وقتذاك إلى جانب الكويت ، وأيدت انضمامها ، مؤكدة أن جميع المقومات المطلوبة للدولة متوافرة فيها ، فضلاً عن أنها تأتي في المرتبة الثانية ، بين الأقطار المصدرة للنفط ، وأنها استطاعت استغلال ثروتها في تحسين مستوى معيشة سكانها ، وتقديم كافة الخدمات الصحية والتعليمية والعمرائية . كما أنها أنحت علاقاتها التعاقدية ببريطانيا ، واعترفت الحكومة البريطانية ، من جانبها ، بمسئولية الكويت عن إدارة شئونها الخارجية . وعلى الرغم من كل تلك المبررات ، لم يلبث أن تأجل النظر في قبول الكويت عضواً في الأمم المتحدة ، ريثما تجد الأزمة حلاً لها ، في الإطار العربي^(٢) .

لقد كانت الأزمة التي فجرها العراق ، سبباً في تدويل القضية ، منذ بدايتها ، من جانب طرفيها المباشرين ، وذلك من خلال تسليم العراق ومثلى وسفراء الدول ، العربية والأجنبية ، مذكرة في ٢٦ يونيو ١٩٦١ ، تضمنت مطالبته بضم الكويت ، وما تلا ذلك ، من مسارعة الكويت إلى إرسال رسائل إلى رؤساء الدول العربية وملوكها ، وجامعة الدول العربية ، تطلب فيها المساندة والتأييد ، وطلبها من بريطانيا التدخل العسكري المباشر ، من أجل ردع التهديدات العراقية لسلامتها الإقليمية^(٣) .

ومنذ ذلك الوقت ، بدأ تصعيد الأزمة واتسامها بالصفة الدولية . فحين بدأت الحكومة البريطانية (بالنيابة عن الكويت) بتقديم شكوى ضد العراق ، في مجلس الأمن ،

(١) المركز الوطني لوثائق العدوان العراقي على الكويت ، « ترسيم الحدود الكويتية العراقية » إعداد لجنة

من المتخصصين ، ص ٤٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٥٠ .

(٣) المركز الوطني لوثائق العدوان العراقي على الكويت ، « ترسيم الحدود الكويتية العراقية » ، ص ٥١ .

بادرت الحكومة العراقية إلى تقديم شكوى ، هي الأخرى ، ضد الحكومة البريطانية ، على أساس أن نزول قوات عسكرية بريطانية ، في أراضي الكويت ، يعرض أمن العراق وسلامته للخطر ، وأن بريطانيا تدبر عدواناً عليه . وأكد العراق في شكواه ، أنه لم يلجأ إلى العنف ، وأن قواته كانت في حالة تأهب فقط على الحدود الكويتية^(١) .

موقف الولايات المتحدة الأمريكية

كشفت أزمة السويس عام ١٩٥٦ ، عن المازق الاستراتيجية الأمريكية في الشرق الأوسط ، فلو أيدت الولايات المتحدة الأمريكية بريطانيا في عدوانها على مصر ، لأهبت المشاعر العدوانية المناهضة للغرب . وإن أيدت الحركات القومية فسيتقوض مركز بريطانيا في المنطقة ، وهي القوة المسؤولة عن الدفاع عنها . ولذلك كان البديل الواضح للولايات المتحدة الأمريكية ، أن تؤدي هي نفسها ، دوراً أكبر في الشرق الأوسط ، وليس مجرد دور سياسي ، وإنما دور عسكري ، كذلك . وفي ضوء هذا الفهم ، وجد أيزنهاور نفسه ، بعد أزمة السويس ، وبعد أن استشعر حقيقة الوضع المتدهور في المنطقة ، أن التدخل ، السياسي أو العسكري الأمريكي ، هو أفضل الوسائل لحماية المصالح الغربية ، ومنذ ذلك الوقت ، بدأت واشنطن تعيد تقييم سياستها ، مما أدى إلى تطوير في قواتها المسلحة بإنشاء وحدات ذات طبيعة خاصة قادرة على الاضطلاع بعمليات عسكرية واسعة النطاق في الشرق الأوسط^(٢) .

وكان المؤشر الأول ، إلى هذا الاتجاه الجديد في السياسة الأمريكية ، هو مبدأ أيزنهاور ، Eisenhower Doctrine ، الذي أعلن في ٥ يناير ١٩٥٧ ، وأقر في ٥ مارس ١٩٥٧ ، في قرار مشترك ، صدر عن مجلسي النواب والشيوخ ، ويقر هذا المبدأ ضرورة تقديم المساعدات الاقتصادية والعسكرية ، إلى دول الشرق الأوسط ووحدة أراضيها ، أمراً حيوياً ، بالنسبة إلى المصالح القومية والسلام العالمي . ولتحقيق ذلك ، وعندما يرى الرئيس ضرورة ما ، فإن واشنطن تكون مستعدة لاستخدام القوات

(١) مركز بحوث الشرق الأوسط بجامعة عين شمس ، « الكويت وجوداً وحدوداً » ، ص ٩٩ .

(2) Palmer, Michael A. Guardians of the Gulf, pp 85-87.

المسلحة لمساعدة أية دولة ، أو مجموعة من الدول ، تطلب المعاونة ضد عدوان مسلح ، من أى دول خاضعة لسيطرة الشيوعية الدولية ، شريطة أن يكون نشر القوات الأمريكية متوافقاً مع التزامات المعاهدات ، التى تكون الولايات المتحدة الأمريكية طرفاً فيها ، ومع الدستور الأمريكى^(١) .

ومع اندلاع الأزمة العراقية - الكويتية ، فى ٢٥ يونيه ١٩٦١ ، أتيحت الفرصة للولايات المتحدة الأمريكية أن تحل محل بريطانيا ، وأن تبدأ فى تنفيذ مبدأ أيزنهاور فأعلنت ، فى ٢٧ يونيه ، أنها مع الكويت ، كدولة مستقلة ذات سيادة ، وأكد المتحدث الرسمى فى وزارة الخارجية الأمريكية : « أن الكويت إذا ما طلبت إقامة علاقات دبلوماسية رسمية بالولايات المتحدة الأمريكية ، فإنها سوف تجد تجاوزاً من واشنطن » . وقال ، كذلك : إن تصريحات عبد الكريم قاسم ، الجديدة ، ما هى إلا ترديد لادعاءاته السابقة ، وهى ادعاءات سبقه إليها نورى السعيد^(٢) . ومن جهة أخرى أعربت جريدة « النيويورك تايمز » الوثيقة الصلة بوزارة الخارجية الأمريكية ، عن رأيها فى عبد الكريم قاسم ومطالبه ، فقالت : « إنه يريد أن يقتدى بالهند ، التى استردت جاوه Goa »^(٣) .

وقد أيدت الولايات المتحدة الأمريكية الخطوة البريطانية ، بإرسال قواتها إلى الكويت ، لمقاومة أى إجراء ، من شأنه أن يورط الشرق الأوسط برمته ، وللمراقبة أى طوارئ تحدث فى هذه المنطقة ، بل إن واشنطن وافقت على أن تقدم إلى بريطانيا ما هو مطلوب من مساندة ، فى حالة حدوث أى هجوم عراقى^(٤) .

ولقد ترتب على موقف الولايات المتحدة الأمريكية ، المؤيد للكويت ، والداعم للتدخل البريطانى ، أن شنّ العراق على واشنطن حملة إعلامية شعواء ، استمرت طويلاً ، حتى بعد انسحاب القوات البريطانية من الكويت ، مما أدى إلى سوء العلاقات بينهما .

(1) Fisher and Krinsky. Middle East in Crisis, pp. 175-176.

(٢) جريدة الأهرام ، العدد الصادر فى ٢٨ يونيه ١٩٦١ .

(٣) جريدة الأهرام ، العدد الصادر فى ٣٠ ديسمبر ١٩٦١ .

(٤) المصدر السابق .

ففي ٢ يونيو ١٩٦٢ طلبت حكومة العراق من السفير الأمريكي في بغداد أن يغادر الأراضي العراقية ، وفي الوقت نفسه طلبت من السفير العراقي في واشنطن مغادرة الأراضي الأمريكية . وفي ٢ يونيو ١٩٦٢ ، غادر بغداد « جون جيرنجان » ، السفير الأمريكي في العراق ، بناء على طلب بغداد . وجاء ذلك تنفيذًا بتهديد العراق بإعادة النظر في علاقاتها مع كل دولة تعترف بالكويت^(١) .

موقف الاتحاد السوفيتي

تجلت للاتحاد السوفيتي الأهمية الاستراتيجية للمنطقة العربية ، إذ إنها تحقق له الحماية من جهة الجنوب . وتعدّ ، كذلك ، طريقًا طبيعيًا للوصول إلى المياه الدافئة ، في الخليج العربي ، والمحيط الهندي ، إضافة إلى كونها موقعًا استراتيجيًا ، ذا ثقل دولي ، تجاري واقتصادي ، يحقق له وضعًا أفضل ، كقوة عظمى ، يمكنها من مساندة الحركات التحررية في المنطقة وتقليل الوجود الغربي فيها^(٢) .

ومن المؤكد أن الأزمة العراقية - الكويتية عام ١٩٦١ ، قد وضعت الاتحاد السوفيتي في موقف المواجهة والاختيار بين بغداد والدول العربية الأخرى ، مثل الجمهورية العربية المتحدة ، والمملكة العربية السعودية والأردن . وعلى الرغم من أن الاتحاد السوفيتي قد أيد انضمام الكويت للأمم المتحدة وقبول عضويتها في بعض المنظمات الدولية المتخصصة مثل اليونسكو ومنظمة الطيران المدني ، إلا أن هذا الموقف الإيجابي تحول إلى موقف سلبي ، مع نشوب الأزمة ، إذ ساند الاتحاد السوفيتي عبد الكريم قاسم . وقد استغلت الصحف السوفيتية الأزمة ، فشنت حملة عنيفة على بريطانيا ، والولايات المتحدة الأمريكية ، ووصفتها بأثما يستغلان الأزمة ، لتحقيق مصالحهما في المنطقة ، وقالت : إن العملية العسكرية البريطانية ، في الكويت ، ليست إلا استفزازًا للشعوب العربية ، وتهيئًا للسلام في الشرق الأوسط^(٣) .

(1) Palmer, Michael A. Guardians of the Gulf, P92 .

(٢) يحيى حلمي رجب ، الخلية العربية والصراع الدولي المعاصر ، مكتبة دار العروبة ، الكويت طبعة ١٩٩٨ ، الجزء الأول ، ص ص ٦٠ - ٦٤ .

(١) عبد الرضا على أسيري ، الكويت في السياسة الدولية المعاصر ، جامعة الكويت طبعة ١٩٩٣ ، ص ٧٨ .

ولم تشذ بعثة الاتحاد السوفيتي الدبلوماسية إلى الأمم المتحدة ، عن النهج الذي وضعته لإسقاط المشروع ، الذي تقدمت به بريطانيا . ولكنها في الوقت عينه ، وافقت على المشروع المقدم من الجمهورية العربية المتحدة^(١) .

ويُذكر أن الاتحاد السوفيتي ، تمكن من عرقلة انضمام الكويت إلى منظمة الأمم المتحدة ، لفترة ، ولكن عندما انتهت الأزمة ، وسقط حكم عبد الكريم قاسم ، واستبدل به نظام آخر ، سارع الاتحاد السوفيتي إلى الموافقة على عضوية الكويت في الأمم المتحدة ، خلال الدورة ، التي عقدت في ١٤ مايو ١٩٦٣^(٢) .

موقف مجلس الأمن

استطاعت الكويت ، بفضل مساندة بعض الدول ، وخاصة الاتحاد السوفيتي ، قبل أزمة ١٩٦١ ، أن تنضم ، قبل إعلان استقلالها ، إلى كثير من المنظمات الدولية المتخصصة ، التابعة للأمم المتحدة ، مثل منظمات : اليونسكو (UNESCO) ، الإمبروكو (IMCO) ، الإيكاو (ICAO) ، وغيرها^(٣) .

وإثر حصول الكويت على استقلالها ، في ١٩ يونيو ١٩٦١ ، تقدمت حكومتها ، رسمياً بطلب للانضمام إلى كل من الأمم المتحدة والجامعة العربية . ومن نشوب الأزمة بين العراق والكويت في ٢٥ يونيو ١٩٦١ ، أخذ طلب عضويتها مساراً صعباً ، في كلتا المنظمتين^(٤) .

ففي الأول من يوليو ١٩٦١ ، تقدمت الحكومة البريطانية نيابة عن الكويت ، بشكوى ضد العراق ، إلى مجلس الأمن ، من أجل عقد جلسة طارئة ، لبحث التهديدات العراقية لاستقلال الكويت ، بمحاولة ضمها ، قسراً ، إلى دولة أخرى ، مما

(١) عبد الرضا علي أبري ، المصدر السابق ، نفس المكان .

(٢) المصدر السابق ، ص ص ٧٨ - ٧٩ .

(٣) ميمونة خليفة الصباح ، « الكويت في ظل الحماية البريطانية » ، ص ص ٤٧٧ - ٤٧٨ .

(4) United Nations , Security Council Official Records – New York : 1957, meeting, July 2. 1961, P. 13.

يهدد الأمن والسلم العالميين . وبناءً على ذلك ، قرر مجلس الأمن عقد اجتماع طارئ في اليوم التالي الأحد ٢ يوليو ١٩٦١^(١) .

وفي ٢ يوليو ١٩٦١ وقبيل اجتماع مجلس الأمن ، تقدم العراق بشكوى ضد بريطانيا مشيراً إلى أنها أنزلت قواتها في الكويت ، وأن هذه القوات تهدد استقلال العراق وأمنه ، إضافة إلى تهديدها السلم والأمن الدوليين . ونتيجة لذلك ، أدرجت شكوى العراق ، هي الأخرى ، في جدول أعمال المجلس . وبذلك واجه المجلس شكوتين متضادتين وكتلتاهما تعبر عن أن الوضع ، يعرض السلام والأمن الدوليين للخطر^(٢) .

وفي بداية الجلسة ، وبعد كلمة رئيس المجلس ، التي اعتذر فيها عن اضطرابه إلى عقدها في يوم عطلة رسمية (الأحد) ، تحدث فالريان زورين (Zorin) ، نائب وزير خارجية الاتحاد السوفيتي ، ورئيس وفده إلى الأمم المتحدة ، فقال : « إن مبادرة بريطانيا إلى طلب عقد اجتماع عاجل للمجلس ، بناءً على طلب حاكم الكويت ، تثير الشك حول حقيقة الوضع ، خاصة أن هذا يختلف مع المعلومات والحقائق ، التي تلقيناها من منطقة الكويت » ، ثم أعلن ، بعد انتهاء كلمته ، عدم معارضته لمسألة بحث الأزمة برمتها . وفي الجلسة ، أشار رئيس المجلس إلى رغبة العراق في حضور الاجتماع وعندما لم يبد أي من الأعضاء معارضته دعى عدنان محمد باجهجي مندوب العراق الدائم في الأمم المتحدة ، ليأخذ مقعده إلى مائدة الاجتماع^(٣) .

ثم تكلم السير باتريك دين ، مندوب بريطانيا ، وردّ على المندوب السوفيتي قائلاً : « إن الحكومة البريطانية ، ستسحب قواتها من الكويت ، بمجرد أن يرى حاكم الكويت ، في حالة التهديد ، التي تتعرض لها بلاده ، قد انتهت ، وإن إرسال القوات

(1) Ibid, pp. 13 – 14, see also.

جمال زكريا قاسم « تاريخ الخليج العربي الحديث » ، المجلد الرابع ، ص ٨١ .

(2) United Nations Ibid p. 15.

(3) United Nations, Security Council Official Records - s/pv 957, PP. 1-14.

البريطانية ، إلى الكويت كان بناءً على طلب من حاكمها ، وإنما لا تضرر أى نيات عدوانية كما أننا لا تشكل أى تهديد للعراق » .

وأضاف : « إنه في الفترة الماضية ، اضطلعت دولة الكويت المسئولية التامة عن إقامة وإدارة علاقاتها الدولية الخاصة ، مع دعم كامل من حكومة جلالة الملكة . واشتركت ، في الماضي ، في العديد من المنظمات الدولية ، كدولة مستقلة ذات سيادة . وعلى هذا ، أعلن الاستقلال الكويتي ، في ١٩ يونيو ١٩٦١ واعتقدت بريطانيا ، أن هذه الخطوة ، سوف تقبلها جميع الدول ، خاصة الدول العربية . ولذلك استقبلنا أخبار عدم قبول العراق لاستقلال الكويت ، بل ردّها بالتهديد ، بالدهشة والصدمة . ثم أخذ مندوب البريطانى يستعرض المسلك العدائى ، من قبل حكومة العراق تجاه الكويت ، منذ إعلان استقلالها ، والأحداث التى أدت إلى الموقف المتردّى في المنطقة^(١) .

وتحدث السفير عمر لطفى مندوب الجمهورية العربية المتحدة ، فقال : « نحن نأسف لهذا الخلاف بين دولتين عربيتين . إن الجمهورية العربية المتحدة ، تود أن تُحل هذه المشكلة ، وفقاً للتقاليد والمبادئ العربية . لذلك ، لا يمكن أن نتصور أن الجنود العرب ، يقاتلون بعضهم بعضاً ، في حين أن الأمة العربية في خضم صراع ضد القوات الإمبريالية » . وأضاف : « نحن متأكدون أن الشعب العراقى ، سيقبل فقط مبادئ كفاح الشعب العربى كله . لكننا سمعنا للأسف ، أنباء عن إرسال وحدات من الأسطول البريطانى إلى الكويت . ونحن نعتقد ، أنه ما من دولة عربية ، يحق لها اتخاذ خطوة تبرر أى تدخل استعمارى » . وأكد عمر لطفى : « أن نزول القوات البريطانية في الكويت ، مسألة مؤسفة ، وتثير قلق الجمهورية العربية المتحدة ، إذ إن مثل هذا العمل ترك دولة عربية مفتوحة أمام الاستعمار . وهذه الأحداث الحالية ، يمكن أن يكون لها رد فعل خطير ، ومؤسف ، بالنسبة للدول العربية » . وفي ختام كلمته ، أعرب عن أمله « ألاّ يتخذ العراق أية خطوة ، من شأنها تعكير صفو الأمن والسلام في المنطقة ، وأنه واثق من أن مبادئ الوحدة العربية ، ستحل محل المنازعات الشخصية^(٢) .

(1) Ibid, P. 14.

(2) Ibid, PP. 15 - 16.

وتحدث المندوب العراقي في الأمم المتحدة، عدنان محمد باجهجي ، نافيًا الشائعات، التي أُثِّرت عن حشد القوات العراقية بالقرب من الحدود ، وأعلن أن العراق لم يحرك جنديًا واحدًا وقال : « إن الغرض من شكوى بريطانيا ، هو تدبير الأعمال العدوانية السفارة » . وأضاف : « إن حكومة العراق ، أعلنت مرارًا ، أنها ستلجأ إلى الوسائل السلمية ، لتسوية النزاع . وأن بريطانيا أخطأت بقيامها بمحاولة خرقاء ، فريضة في نوعها ، وغير مقنعة ، وهي تخفي وراء عباءة حاكم الكويت . وأن مغامرتها في الكويت ، تشبه مغامرتها في السويس^(١) .

انقضى اجتماع مجلس الأمن وتقرر تأجيل الاجتماع إلى يوم الأربعاء الخامس من يوليو ١٩٦١ ، حتى يتمكن كل وفد من الرجوع إلى حكومته ، ويعرف رأيها في الشكوتين المعروضتين للمناقشة^(٢) .

واستأنف المجلس مناقشاته في ٥ يوليو . وطُرح ، في بداية الجلسة ، مشروعان لحل الأزمة . تقدم بهما كلٌّ من بريطانيا والجمهورية العربية المتحدة . ويدعو المشروع البريطاني جميع الدول ، إلى احترام استقلال الكويت ووحدة أراضيها . كما يدعو الأطراف المعنية ، إلى العمل على حفظ السلام والهدوء في المنطقة ، وبقاء الوضع في الكويت تحت نظر مجلس الأمن . ويطالب الجامعة العربية بالتدخل ، لتسوية النزاع ، سلميًا ، في أقرب وقت . أمّا المشروع ، الذي تقدمت به الجمهورية العربية المتحدة ، فقد كان يقضى بأن يكون حل أزمة الكويت بالوسائل السلمية ، وأن تسحب بريطانيا قواتها ، « فورًا » من الكويت . وتأجلت الجلسة إلى يوم الجمعة ، ٧ يوليو ١٩٦١ ، لبحث المشروعين والاقتراع عليهما^(٣) .

وفي ٧ يوليو ١٩٦١ ، عقد مجلس الأمن ، جلسة للاقتراع على المشروعين المقدمين إليه . وقبل الاقتراع ، تحدث السفير عمر لطفى ، مندوب الجمهورية العربية المتحدة ،

(1) Ibid, PP. 16 - 17.

(٢) عبد الرضا على أسيرى ، المصدر السابق ، ص ٧٧ ، انظر كذلك جمال زكريا قاسم ، « تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر » ، المجلد الرابع ، ص ص ٨٠ - ٨٣ ، جريدة الأهرام ، العدد في ٣ يوليو ١٩٦١ .

(٣) جمال زكريا قاسم ، المصدر السابق ، ص ٨٥ ، انظر كذلك جريدة الأهرام ، العدد الصادر في ٦ يوليو ١٩٦١ .

معارضاً على المشروع البريطاني ، وقال : « إنه مشروع ، غير كامل ، لأنه لم يتناول مسألة انسحاب القوات البريطانية من الكويت ، وهى المسألة ، التى تعلق عليها الجمهورية العربية المتحدة أهمية كبيرة » ، ثم تحدث مندوب الاتحاد السوفيتى ، فأعلن « أن بلاده ستؤيد مشروع القرار ، الذى قدمته الجمهورية العربية المتحدة ، لأنه يتماشى مع وجهة نظرنا ، والموافقة عليه قمى حلاً صحيحاً لهذه المشكلة ، واعترض مندوب المملكة العربية السعودية على كلمة « فوراً » فى مشروع الجمهورية العربية المتحدة»^(١) .

واقترح المجلس بعد ذلك ، على المشروعين ، فأخفق المشروع العربى فى الحصول على الأغلبية المطلوبة ، إذ حصل على ثلاثة أصوات فقط هى : سيلان والاتحاد السوفيتى والجمهورية العربية المتحدة وامتنع سائر الأعضاء عن التصويت . أما المشروع البريطانى ، فقد حظى بتأييد سبع دول ، من إحدى عشرة دولة ، هى : الولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا وليبيريا وتركيا والصين الوطنية وشيلي والمملكة المتحدة ، بينما امتنعت الجمهورية العربية والإكوادور وسيلان عن التصويت . ولكن الاتحاد السوفيتى ، استخدم حق النقض ، فأبطل المشروع . وبذلك وقف مجلس الأمن عاجزاً عن الفصل فى النزاع ودعا رئيس المجلس كل المهتمين بالوضع فى الكويت إلى الامتناع عن اتخاذ أى خطوات من شأنها زيادة الموقف خطراً^(٢) .

ومع فشل المجتمع الدولى فى صدّ التهديدات العراقية ، اندفعت الكويت إلى عرض القضية على جامعة الدول العربية ، بعد أن قبلت عضويتها فيها ، فى ٢٠ يوليو ١٩٦١ ونص قرار الجامعة العربية على ما يلى^(٣) :

١ - تلتزم حكومة الكويت بطلب سحب القوات البريطانية من أراضى الكويت ، فى أقرب وقت ممكن .

٢ - تلتزم حكومة الجمهورية العراقية بعدم استخدام القوة فى ضم الكويت إلى العراق .

(١) جمال زكريا قاسم ، المصدر السابق ، ص ص ٨٥ - ٨٦ .

(٢) جريدة الأهرام ، العدد الصادر فى يوليو ١٩٦١ ، انظر كذلك جمال زكريا قاسم ، المصدر السابق ، ص ٨٦ .

(٣) وثائق جامعة الدول العربية ، قرار مجلس جامعة الدول العربية يوم ٢٠ يوليو ١٩٦١ .

٣ - تأييد كل رغبة تبديها الكويت في الوحدة أو الاتحاد مع غيرها من دول الجامعة العربية ، طبقاً لميثاق الجامعة .

وبعد انقلاب ٨ فبراير ١٩٦٣ في العراق ، الذي أطاح بحكم عبد الكريم قاسم ، بدأ قادة النظام الجديد يصدرن بيانات مطمئنة بالنسبة إلى مستقبل العلاقات الكويتية العراقية . وبناء على ذلك ، طلبت الكويت انسحاب قوات أمن جامعة الدول العربية ، وشرعت هذه القوات في الانسحاب، الذي اكتمل من ٢٠ فبراير ١٩٦٣^(١) .

وعلى أثر هذه المتغيرات ، بادرت الكويت إلى تجديد طلبها الانضمام إلى الأمم المتحدة . وفي الجلسة الطارئة لمجلس الأمن ، في ٧ مايو ١٩٦٣ ، أوصى ، بالإجماع ، الاعتراف بالكويت ، عضواً في المنظمة الدولية . وفي جلسة الجمعية العامة للأمم المتحدة ، المنعقدة في ١٤ مايو ١٩٦٣ ، وبناءً على توصية مجلس الأمن ، صدر قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة رقم ١٨٧٢ والمؤرخ في ١٤ مايو ١٩٦٣ ، بقبول الكويت عضواً في الأمم المتحدة . ومنذ ذلك الوقت ، أصبحت الكويت الدولة الحادية عشرة بعد المائة ، في المنظمة الدولية^(٢) .

في ضوء كل ما سبق ، يمكن أن نؤكد أن هناك ثمة جدلاً كبيراً دار حول طبيعة أزمة ١٩٦١ ، وهل كانت أزمة صراع فكري ما بين نظامين للحكم متعارض التوجهات والتوجهات ؟ أم كانت أزمة إعلامية دعائية تستهدف جوهرياً إشعال حرب نفسية في المنطقة الخليجية العربية ؟

من الواضح أن النزاع العراقي - الكويتي سنة ١٩٦١ لم يكن نزاع حدود بل هو نزاع وجود ، فلقد طالبت العراق بالكويت ولم يكن خلافها معها يدور حول الحدود ، وأعلنت أن الكويت كانت جزءاً لا يتجزأ منها ولا بد وأن يعود الجزء إلى الكل والفرع إلى الأصل ، إن النظام العراقي قد اعترف عام ١٩٦٣ باستقلال الكويت ولكن بخطوات مرحلية لأمر واقع خليجي ينبغي التعايش معه مؤقتاً .

(١) المركز الوطني لوثائق العدوان العراقي على الكويت، «ترسيم الحدود الكويتية»، ص ص ٥٠ - ٥١ .

(٢) المصدر السابق، ص ٥١ ، انظر كذلك : جمال زكريا قاسم ، المصدر السابق ، المجلد الرابع ، ص ٨٦ ، ميمونة خليفة الصباح ، « الكويت في ظل الحماية البريطانية » ، ص ٤٩٣ .

المصادر

أولاً : الوثائق

(أ) الوثائق غير المنشورة

١ - العربية

* وثائق الخارجية الكويتية ، وثائق المركز الوطني الكويتي :

ذكرت هذه الوثائق في هوامش الدراسات وضمن هذه الوثائق ما يلي :

- مذكرة السرير « وليم هنرى لوس » المقيم السياسي البريطاني في الخليج ، في ١٩ يونيو ١٩٦١ إلى الشيخ عبد الله السالم الصباح حاكم الكويت التي تنص على إلغاء اتفاقية ٢٣ يناير ١٨٩٩ .

- مذكرة الشيخ عبد الله السالم الصباح حاكم الكويت ، في ١٩ يناير ١٩٦١ ردًا على مذكرة السرير « وليم هنرى لوس » المقيم السياسي البريطاني في الخليج ، التي تنص على إلغاء اتفاقية ٢٣ يناير ١٨٩٩ .

- البيان الكويتي المعلن في ١٩ يونيو ١٩٦١ ، بإلغاء اتفاقية ٢٣ يناير ١٨٩٩ .

- مذكرة الحكومة العراقية التي وزعت على سفراء الدول العربية والأجنبية في بغداد ، في ٢٦ يونيو ١٩٦١ ، التي طالب فيها عبد الكريم قاسم بضم الكويت .

- مذكرة الحكومة البريطانية ، إلى أمير الكويت ، في شأن سحب قواتها من الكويت .

* وثائق وزارة الخارجية المصرية :

ذكرت هذه الوثائق في هوامش الدراسة وضمن هذه الوثائق ما يلي :

- ملف الأزمة الكويتية - العراقية عام ١٩٦١ .

- رسائل الرئيس جمال عبد الناصر للزعماء الكويتيين والعراقيين .

- وثائق القوة العسكرية المصرية المرسلة إلى الحدود الكويتية العراقية عن طريق جامعة الدول العربية .

- البيانات الرسمية المصرية بخصوص الأزمة .

*** وثائق جامعة الدول العربية :**

ذكرت هذه الوثائق في هوامش الدراسات ، وضمن هذه الوثائق ما يلي :

- وثائق الإدارة السياسية : ذكرت هذه الوثائق في هوامش الدراسة .
 - قرارات مجلس الجامعة العربية ، وضمن هذه القرارات : القرار رقم ١٧٧٧ ، في دورته العادية رقم ٣٥ في جلسته رقم ٨ ، المنعقدة في ٣٠ يوليو ١٩٦١ في شأن انضمام الكويت إلى جامعة الدول العربية .
 - رسائل الأمين العام لجامعة الدول العربية إلى الزعماء العرب بخصوص الأزمة والرد عليها وضمن هذه الرسائل الآتي :
 - رسائل الأمين العام لجامعة الدول العربية إلى أمير دولة الكويت ، في ١٢ أغسطس ١٩٦١ في شأن وضع قوات أمن الجامعة العربية في الكويت ، والترتيبات المتعلقة بها .
 - رسالة أمير الكويت ، إلى أمين عام جامعة الدول العربية ، في ١٢ أغسطس ١٩٦١ ، بموافقتها على إحلال قوات أمن من جامعة الدول العربية في الكويت بدلاً من القوات البريطانية .
 - موجز المبادئ والأسس التي وضعها الأمين العام لجامعة الدول العربية ، لتشكيل قوات أمن الجامعة ، طبقاً للقرار رقم ١٧٧٧/٣٥ في ٢٠ يوليو ١٩٦١ .
 - تقرير الأمين العام لجامعة الدول العربية إلى اللجنة السياسية في ١٢ يوليو ١٩٦١ .
 - تقرير الأمين العام إلى مجلس الجامعة ، دور الانعقاد العادي رقم ٣٦ ، ١٢ سبتمبر ١٩٦١ .
- * وثائق السفارة العراقية بالقاهرة :**
- الكتاب الأبيض الذي أصدرته الخارجية العراقية .
 - بعض برقيات ورسائل الرئيس العراقي عبد الكريم قاسم إلى الرئيس جمال عبد الناصر وبعض الزعماء العرب وردود الزعماء عليها . وضمن هذه الرسائل والبرقيات الآتي :
 - برقية عبد الكريم قاسم إلى الشيخ عبد الله سالم الصباح ، في ٢٠ يونيو ١٩٦١ .
 - برقية الملك سعود بن عبد العزيز ، إلى رئيس الوزراء العراقي عبد الكريم قاسم في الأول من يوليو ١٩٦١ ، يطالبه بعدم استخدام القوة ضد الكويت .

٢ - الأجنبية

Foreign Office records

- F.O.391, 28099, 1961.
- F.O.391, 28199, 1961.
- F.O.391, 28200,
- F.O.391, 28201,
- F.O.391, 282005,

(ب) الوثائق المنشورة

١ - العربية

* وثائق مركز البحوث والدراسات الكويتية التابع لوزارة الثقافة الكويتية :

ذكرت هذه الوثائق في هوامش الدراسات ، وضمن هذه الوثائق ما يلي :

- بيان الحكومة الكويتية في ٢٦ يونيو ١٩٦١ ، ردًا على ما ورد في المؤتمر الصحفي الذي عقده رئيس الوزراء العراقي عبد الكريم قاسم ، في ٢٥ يونيو .

- البيان الرسمي الكويتي في ٦ يوليو ١٩٦١ ردًا على البيان الثالث للجمهورية العربية المتحدة في ٥ يوليو ١٩٦١ .

- الكلمة التي ألقاها الملك سعود بن عبد العزيز في ٥ يوليو ١٩٦١ ، عند استقباله ولي عهد الكويت ، الشيخ جابر الأحمد الصباح ، ردًا على كلمته .

- برقية عبد الكريم قاسم ، رئيس وزراء العراق ، إلى الشيخ عبد الله سالم الصباح ، حاكم الكويت في ٢٠ يونيو ١٩٦١ يهنئه فيها باستقلال الكويت .

* وثائق مركز الدراسات بالخليج : ذكرت في هوامش الدراسة .

* وثائق الخارجية المصرية : ذكرت في هوامش الدراسة ومنها :

- البيان الرسمي الأول ، للجمهورية العربية المتحدة ، في يوم ٢٧ يونيو ١٩٦١ في شأن الأزمة التي فجرها عبد الكريم قاسم ، لضم الكويت للعراق .

- البيان الرسمي الثاني ، للجمهورية العربية المتحدة ، في يوم ٣٠ يونيو ١٩٦١ في شأن تطورات أزمة ١٩٦١ واحتمال التدخل العسكري العراقي ، لضم الكويت للعراق .

- البيان الرسمي الثالث ، للجمهورية العربية المتحدة ، في يوم ٥ يوليو ١٩٦١ في شأن أزمة ١٩٦١ والتدخل العسكري البريطاني في الكويت .

- الكتاب الأبيض الكويتي عن الأزمة الكويتية - العراقية عام ١٩٦١ .

* وثائق مركز بحوث الشرق الأوسط بجامعة عين شمس .

* وثائق جامعة الدول العربية : ذكرت في هوامش الدراسة ، ومنها قرارات مجلس الجامعة المنشورة في ٨ مجلدات .

٢ - الأجنبية

- United Nations, security Council Official Records - New York: 1957, meeting, July 2, 1961 .

- U. N. S. C. F. R, S/PV 957

- U. N. S. C. F. R, S/PV 958

- U. N. S. C. F. R, S/PV 959

- U. N. S. C. F. R, S/PV 960

- قرارات الجمعية العامة للأمم المتحدة :

ذكرت في هوامش الدراسة ومنها :

• قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة ، رقم ١٨٧٢ ، في ١٤ مايو ١٩٦٣ ، بقبول الكويت في عضوية الأمم المتحدة .

• قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة ، رقم ١٥١٤ ، في ١٤ ديسمبر ١٩٦٠ بإعلان منح الاستقلال للبلدان والشعوب المستعمرة .

- الأمم المتحدة ، سلسلة الكتب الزرقاء ، المجلد رقم ٩ ، طبعة ١٩٩٨ .

- الجمعية العامة للأمم المتحدة ، وثائق الدورة رقم ١٥ ، الجلسة رقم ٩٤٠ ، في ١٤ ديسمبر ١٩٦١ .

أولاً: المذكرات الشخصية والأوراق

١ - العربية (غير منشورة)

- أوراق عبد الخالق حسونة ومذكراته .

- أوراق محمود رياض ومذكراته .

- أوراق ميمونة خليفة الصباح .

- أوراق سعاد الصباح .

ثانياً : الوثائق

٢ - الأجنبية (منشورة)

- أوراق أنتوني ناتنج وزير الدولة البريطاني السابق المنشورة في جريدة صوت الكويت خلال يناير ١٩٩٢ .

ثالثاً : الدوريات المعاصرة

- جريدة « الأهرام » ، القاهرة ، الأعداد الصادرة في :

- ٢٧ يونيه ١٩٦١ ، ٢٨ يونيه ١٩٦١ ، ٣٠ يونيه ١٩٦١ ، أول يوليو ١٩٦١ ، ٢ يوليو

١٩٦١ ، ٢ يوليو ١٩٦١ ، ٣ يوليو ١٩٦١ ، ٤ يوليو ١٩٦١ ، ٥ يوليو ١٩٦١ ، ٦ يوليو

١٩٦١ ، ٧ يوليو ١٩٦١ ، ٨ يوليو ١٩٦١ ، ٢٨ ديسمبر ١٩٦١ ، ٣٠ ديسمبر ١٩٦١ ، ٣٠

يناير ١٩٦٢ ، ٨ فبراير ١٩٦٢ ، ٢٧ فبراير ١٩٦٢ .

- جريدة « الجمهورية » ، القاهرة ، العدد الصادر في ٦ يوليو ١٩٦١ .
- جريدة « أم القرى » ، مكة المكرمة ، المملكة العربية السعودية ، الأعداد الصادرة في : ٣٠ يونيو ١٩٦١ ، ٧ يوليو ١٩٦١ ، ١٤ يوليو ١٩٦١ .
- جريدة « صوت الكويت الدولي » ، الكويت الأعداد الصادرة في : ٤ يناير ١٩٩٢ ، ١٥ يناير ١٩٩٢ ، ٢٢ يناير ١٩٩٢ .
- مجلة « حماة الوطن » ، الكويت ، العدد ١٣ ، السنة الثانية ، الصادرة في ١٥ أكتوبر ١٩٦١ .
- مجلة السياسية الدولية الأعداد ١٠١ ، ١٠٢ ، عام ١٩٩٠ ، الأعداد ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، عام ١٩٩١ ، الأعداد ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٠ .

رابعاً : المؤلفات والبحوث والدراسات العلمية

١ - العربية

- أحمد فوزى ، « عبد الكريم قاسم - القصة الكاملة » ، بيروت ، ١٩٦١ .
- السيد السيد حجاج ، « مشروع أيزنهاور للشرق الأوسط في العلاقات الدولية ١٩٥٦ - ١٩٦٠ » ، رسالة ماجستير ، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ، جامعة القاهرة ، ١٩٦٧ .
- الكتاب الأسود - وثائق ومشاهدات الغزو العراقي للكويت ، الشركة السعودية ، « اغتيال الكويت » ، شركة الإنسان للخدمات الصحفية والمعلومات ، القاهرة ، ١٩٩٠ .
- السيد عبد الرزاق الحسيني : تاريخ الوزارات العراقية ، الجزء الخامس مطبعة العرفان ، صيدا ، لبنان ١٩٦٦ .
- بطرس بطرس غالى ، «جامعة الدول العربية وتسوية المنازعات المحلية» ، جامعة الدول العربية ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٧٧ .
- جمال زكريا قاسم ، « تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر » ، دار الفكر العربي ، القاهرة ١٩٩٦ .
- جمال زكريا قاسم ، « الخليج العربي - دراسة لتاريخه المعاصر ١٩٤٥ - ١٩٧١ » ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ١٩٧٤ .
- جمال زكريا قاسم ، « الخليج العربي - دراسة لتاريخه المعاصر ١٩٤٥ - ١٩٧١ » ، طبعة دار الفكر العربي ، القاهرة ١٩٩٦ .

- خالد بن سلطان ، « مقاتل من الصحراء » ، دار الساقى ، بيروت ، ١٩٩٥ .
- خالد السرجاني ، « جذور الأزمة بين العراق والكويت » ، مجلة السياسة الدولية ، العدد ١٠٢ أكتوبر ١٩٩٠ .
- سيد نوفل ، « الأوضاع السياسية لإمارات الخليج العربي » ، الكتاب الأول ، مدخل عام ودراسة للكويت ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ١٩٦٧ .
- صلاح العقاد ، « التيارات السياسية في الخليج العربي » ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٧٤ .
- عبد الرضا على أسيرى ، « الكويت في السياسة الدولية ، المعاصرة - إنجازات ، إخفاقات ، وتحديات » ، جامعة الكويت ١٩٩٣ .
- عبد الله الأشعل ، « قضية الكويت في الخليج العربي » ، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام ، القاهرة ، سبتمبر ١٩٧٨ .
- فكرت نامق عبد الفتاح ، سياسة العراق الخارجية في المنطقة العربية ١٩٥٣-١٩٥٨ ، دار الرشيد للنشر ، منشورات وزارة الثقافة والإعلام ، بغداد ١٩٨١ .
- ليث عبد الحسن جواد الزبيدي ، « ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ في العراق » ، منشورات مكتبة اليقظة العربية ، بغداد ١٩٨١ .
- ميمونة خليفة الصباح ، « علاقات الكويت الخارجية خلال القرن الثامن عشر » ، المؤرخ العربي ، العدد ٣٤ ، ١٩٨٨ .
- ميمونة خليفة الصباح ، « الكويت في ظل الحماية البريطانية » ، ١٩٨٨ .
- بالمر ، مايكل ، « حراس الخليج - تاريخ توسع الدور الأمريكي في الخليج العربي ١٨٣٣ - ١٩٩٢ » ، ترجمة نبيل زكي ، مركز الأهرام للترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٩٥ .
- نازلي معوض أحمد وآخر ، « الكويت من الإمارة إلى الدولة - أزمة الحدود العراقية - الكويتية الأولى (١٩٦١ - ١٩٦٣) » ، مركز البحوث والدراسات السياسية ، جامعة القاهرة ، نوفمبر ١٩٩٣ .
- نخبة من خبراء وأساتذة الجامعات ، « الكويت وجودًا وحدودًا » ، مركز بحوث الشرق الأوسط ، جامعة عين شمس ، القاهرة ١٩٩١ .

- نخبة من الأساتذة ، « العدوان العراقي على الكويت - الحقيقة والمأساة » ، مركز البحوث والدراسات الكويتية ١٩٩٤ .
- نجم محمود ، « المفاضلة - برلين بغداد » منشورات الغد ، لندن ١٩٩١ .
- يحيى حلمي رجب ، « الخليج العربي والصراع الدولي المعاصر » ، مكتبة دار العروبة ، الكويت ١٩٨٩ .

٢ - الأجنبية

- Dunn, Uriel Iraq Under Qassem, A political History 1958-1963. N.y, 1969.
- Heath Edward. Kuwait: Futre Relation with the united Kingdom, BD, C(16) copy No. 32. 6th . April, 1961.
- Palmer, Michael A. Guardians of the Gulf: A History of America's Expanding Role in the Persian Gulf, 1833-1992. Gopyright 1992 by Michael A. Palmer .
- Stocking, G. Middle East Oil, A study in Political and Economic Controversy, Vanderbit University. Press, 1972.

مخطوط ابن حَيَّان .. هل من جديد ؟

د . محمد عبد الحميد عيسى

أستاذ التاريخ الأندلسي والحضارة

ورئيس قسم التاريخ بتربية عين شمس

oboeikan.com

مخطوط ابن حيان .. هل من جديد ؟

يجمع المؤرخون ، عربيا وغير عرب ، على مكانة ابن حيان في صناعة علم التاريخ حتى لقد اعتبروه عمدة المؤرخين المسلمين بلا منازع ، وقد وصفه المؤرخ الأسباني إنخيل جونثاليث بالثيا بأنه أعظم مؤرخي هذا العصر^(١) . ويؤكد دوزي أن عنده صدق الرواية وجمال الأسلوب ، وجزالة اللغة ، ورين العبارة ، ويبدى أسفا على ضياع مؤلفات ابن حيان ويرى أنها لو بقيت لألقت على تاريخ الأندلس - الغامض - ضياء باهرا ، وصورته لنا أحسن تصوير ، ولوجدنا أنها تبلغ من الامتياز مبلغا يجعلنا نستغنى بما عن غيرها من الكتب التي تتناول تاريخ هذه العصور^(٢) .

أما عند المؤرخين العرب ، القدامى منهم والحديثين ، فإن ابن حيان هو شيخ الأدب ومؤرخ الأندلس ، كان لا يتعمد كذبا فيما يكتبه في تاريخه من القصص والأخبار . وتكفى عبارات د. محمود على مكي في تمهيده لما قام به من تحقيق لأحد أسفار المقتبس، أنه : يتفق الكثيرون من الباحثين على أن أبا مروان حيان بن خلف بن حيان يعد من أعظم مؤرخي الإسلام ، وأنه بلا شك أعظم مؤرخ أنجبته الأندلس بل والغرب

(١) بالثيا : تاريخ الفكر الأندلسي - ترجمة د. حسين مؤنس ، القاهرة . طبعة مكتبة الثقافة الدينية .

كله : الإسلامى والمسيحى على السواء طوال العصور الوسطى ، ولا نستثنى من هذا الحكم إلا فيلسوف التاريخ : عبد الرحمن بن خلدون^(١) .

ولد أبو مروان حيان بن خلف بن حيان عام سبعة وسبعين وثلاثمائة الموافق للعام السابع والثمانين بعد التسعمائة من ميلاد المسيح ، فى مدينة قرطبة عاصمة الخلافة الإسلامية فى الأندلس ، وكانت قرطبة فى ذلك القرن هى عروس الغرب وواحدة من أعظم مدن العالم حضارة وتقدما ، وساعد ذلك على نشأة ابن حيان نشأة علمية متميزة فدرس على أبيه وعلى أحمد بن عبد العزيز بن الحباب النحوى ، وصاعد البغدادى الأديب ، وعمر بن نبيل المحدث .

كان والده خلف بن حسين بن حيان أحد رجال قرطبة المعروفين فى مجالى العلم والسياسة وقد أورث ابن حيان حبا للعلم ، وكان له أستاذا حقيقيا - بل كان له أفضل وأعماق الأثر فى تكوينه الشخصى والعلمى ، ولقد أفرغ كل اهتمامه من أجل تعليمه وتربيته ، ووفر له منذ الصبا أفضل المؤدبين والمعلمين ، والذين وجدت جهودهم عند الصبى حيان تربة صالحة للغرس ، قابلة للتشكيل والتعليم ، ومساعدة على نمو المواهب ، وتقبل العلوم .

ولم يكن والده ييخل عليه فى شبابه بأفضل المعلمين ، وساعدته على ذلك مكانته فى بلاط الحاجب محمد بن أبى عامر الملقب بالمنصور ، ومن الأمثلة على ذلك أنه سمع كتاب الفصوص لأشهر علماء الأندلس على أيام المنصور أبى العلاء صاعد البغدادى ، فى منزل منفردا . يقول ابن حيان : جمع أبو العلاء للمنصور بن أبى عامر كتابا سماه "الفصوص فى الآداب والأشعار والأخبار" ، وأمره - المنصور - بأن يسمعه الناس فى المسجد الجامع بالزاهرة فى عقب سنة خمس وثمانية وثلاثمائة (أوائل ٩٩٦م) ، واحتشد له من جماعة أهل الأدب ووجوه الناس أمة . قال ابن حيان : وقرأته عليه منفردا فى داره سنة ثلاثمائة وتسع وتسعين من الهجرة التى تقابل العام التاسع من بداية الألفية الثانية من التاريخ الميلادى .

(١) محمود على مكى : المقتبس ، دار الكتاب العربى ، بيروت ١٩٧٣ . ص ٧ .

ويعلق الأستاذ الدكتور محمود على مكي على ذلك بقوله : وفي اعتقادنا أن صاعدا وهو ما هو من علو المكانة والحظوة من المنصور بن أبي عامر ، ما كان ليستقبل في داره تلميذا من تلاميذه لكي يقرأ عليه كتابا لا يتوسع في إنفاقه إلا المقتدرون .

ويلاحظ د. مكي أيضا أن مُعَلِّمًا آخر لابن حيان هو اللغوي النحوي أحمد ابن عبد العزيز بن الفرج المعروف بابن أبي الحباب القرطبي هو نفس الرجل الذي اختاره المنصور بن أبي عامر لتعليم ابنه وولى عهده عبد الملك المظفر بن أبي عامر ، مما يدل دلالة واضحة على أن خلف بن حسين بن حيان كان يختار لولده حيان أعظم المعلمين .

ومن دراسة تخصصات الأساتذة الذين دَرَسُوا لابن حيان فإننا نجد أن الطابع الغالب عليها هو الثقافة الإنسانية مع الاتجاه القوي نحو العلوم الدينية والعلوم اللغوية والتي أفاد ابن حيان منها إفادة كبيرة على نحو جعلت من ابن حيان مالكا لتمام اللغة العربية بصورة أفضل مما أتيج لأي مؤرخ عربي آخر ، ونستطيع أن نتبين في كتابات ابن حيان أنها كانت إلى جانب قيمتها التاريخية من أرقى نماذج النثر الفني^(١) .

ولقد استمعت شخصيا إلى الأستاذ الدكتور محمود إسماعيل وهو يؤكد أنه يقرأ ابن حيان مرتين ، مرة لكي يستوعبه ، ومرة لكي يستمتع بجمال أسلوبه وعظمة عبارته .

تؤكد غالبية المؤرخين عدم مغادرة ابن حيان لبلدة قرطبة سواء للتعلم أم هربا من صروف الدهر وتقلبات السياسة وخاصة في عصر الفتنة والأحداث الجلل مع مطلع القرن الخامس الهجري وتولى بعض الوظائف كصاحب الشرطة ، أو صاحب المدينة زمننا ولكنه أيام الفتنة من المحتمل أن يكون قد لجأ هو ووالده خلف بن حسين إلى الابتعاد عن شغل المناصب العامة ، وأنها اعتزلا الفتنة ، بينما استغل ابن حيان ذلك في كتابته للتاريخ حيث تظهر هذه الكتابات علاقة ابن حيان بعدد كبير من رجال العصر وهم بالنسبة له المصدر الأساسي للأخبار .

(١) محمود على مكي - المقتبس ، التمهيد ، ص ٢٤ .

من الأمور التي توصل إليها الباحثون في تاريخ ابن حيان ، أن العوامل الوراثية التي انتقلت إليه من والده حسين بن خلف ، والبيئة الاجتماعية والثقافية التي أحاطت به جعلت من ابن حيان مؤرخا بالسليقة أو إن شئت الدقة مؤرخا طبيعيا تنبض كل خلجات نفسه بحب مهنة التاريخ والكتابة التاريخية ، وكان لا بد وأن يدرك ابن حيان تلك الميول الجارفة التي تجذبه إلى مهنة المتاعب وأحيانا - جالبة المصائب - إلى المشتغلين بها وهي مهنة الكتابة في التاريخ ، حيث يقول عن نفسه : وبعد ، فإني امرؤ يسرت لطلب هذا الخبر ، واقتفاء هذا الأثر ، أدرس شاردة وأقيد نافرة ، وأبيت بأبوابه ، وأنصّب لطلابه ، فشغلت به دهرا ، وفجرت منه نهرا ، صيرني تربا لعدنان ، وزماما على الحدثان ، أقصى أنباءه ، وأضرب أمثاله ، وأحصى وقائعه ، وأحترز مواعظه^(١) .

مؤلفات ابن حيان :

ينسب لابن حيان مؤلفات كثيرة في مجالات الأدب والشعر والحديث، ولكن يجمع الكافة من أرخوا لابن حيان على أن صنعته التاريخ، وأنه كان متخصصا في هذا المجال. وأشهر كتابين لابن حيان: هما «المقتبس» و «المتين» ، وفي أولهما يتناول ابن حيان تاريخ الأندلس منذ الفتح الإسلامي لهذه البلاد في عام ٩٢هـ / ٧١١م ، ويستمر فيه حتى قرب وفاته تقريبا ، ولقد أشار ابن حزم إلى هذا الكتاب في رسالته عن فضل الأندلس قائلا : ومنها كتاب التاريخ الكبير في أخبار أهل الأندلس، تأليف أبي مروان بن حيان، نحو عشرة أسفار ، أجل كتاب ألف في هذا المعنى .

وثانيهما كتاب «المتين» والذي لم يصلنا منه أية أجزاء متكاملة ، لكن كتاب الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام الشنتريي ، قد احتفظ لنا بنصوص كثيرة قيمة ، أوضحت موضوعا لرسالة دكتوراه قام بها الأستاذ الدكتور عبد الله جمال الدين وقدمها إلى جامعة مدريد عام ١٩٨٧م . ويتناول هذا الكتاب «كتاب المتين» عصر

(١) ابن بسام ، الذخيرة القسم الأول ، ج ٢ ، ص ٨٦ . تحقيق إحسان عباس . بيروت ١٩٧٥م . وكذلك دراسة د. مكى للمقتبس ، ص ٢٨ .

الدولة العامرية ، وجزءا من تاريخ ملوك الطوائف ، أو بصورة أدق تسجيلات المؤلف لأحداث عصره وشواهدة .

قطع المقتبس التي وصلت إلينا حسب ترتيب تناولها للسنوات :

يتألف كتاب المقتبس من عشرة أسفار كبيرة ، فقدت معظمها ولم تصل إلينا من هذا الكتاب الضخم إلا بعض القطع بالإضافة إلى نصوص كثيرة وردت ضمن كتابات المؤرخين اللاحقين والذين اعتمدوا عليه اعتمادا كبيرا ، والقطع التي وصلت إلينا من المقتبس هي على النحو التالي مرتبة حسب السنين التي تناولتها :

أولا : قطعة كبيرة في حدود مائة وثمان وثمانين ورقة تناول التاريخ لعصر الأمير الحكم الربطي الذي حكم الأندلس خلال المدة من ١٨٠هـ إلى ٢٠٦هـ ، ٧٩٧/ ٨٢١م وشطرا كبيرا من إمارة عبد الرحمن الأوسط وبما الوقائع والأحداث التي وقعت اعتبارا من بدايات عام مائة وثمانين من الهجرة إلى عام مائتين واثنان وثلاثين أي قبل نهاية عصر الأمير عبد الرحمن الأوسط بست سنوات ، وهذه القطعة هي محور حديثنا الأساسي في هذه السطور .

ثانيا : قطعة ثانية تستكمل القطعة السابقة حيث تبدأ باستكمال سنوات الأمير عبد الرحمن الأوسط ، ثم تواصل الحديث عن الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط وتشتمل على خمس وتسعين ورقة قام بتحقيقها والتعليق عليها ونشرها الأستاذ الدكتور محمود علي مكي ، وقامت دار الكتاب العربي، بيروت بطباعتها عام ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م .

ثالثا : قطعة ثالثة تناول عصر الأمير عبد الله بن محمد ٢٧٥ - ٣٠٠هـ / ٨٨٨ - ٩١٢م وتبلغ حوالي مائة وسبع ورفقات ، وكانت موضعاً لأكثر من دراسة كان أولها وأهمها التي نشرها الراهب الأسباني ميلتشور أنطونيا ، وطبعت بباريس ١٩٣٧م .

رابعا : أما أكبر القطع التي وصلتنا من مقتبس ابن حيان فهي التي تشكل السفر الخامس من هذا الكتاب ، وكانت محفوظة بالخزانة الملكية بالرباط وهي تتحدث عن السنوات الثلاثين الأولى من حكم الأمير عبد الرحمن بن محمد المعروف بالناصر ، وهو أول من تسمى بالخلافة في الأندلس ، ويتناول هذا المخطوط الأعوام من سنة ٩١٢م

إلى ١٩٤٢ م ، وقد قام المعهد الأسباني العربي للثقافة ، والقائم في مدريد في تلك الأعوام بنشر هذا السفر الكبير بتحقيق الأساتذة بدور شالميتا ، وفيدريكو كورنيطي ، ومحمود صبح ، ثم قام نفس المعهد بنشر الترجمة الأسبانية لهذا السفر في عام ١٩٨١ م حيث تولاهما كل من الدكتور فيدريكو كورنيطي والدكتورة ماريا خيوسى فيغيرا بمدريد .

خامسا : وجد جزء من السفر السادس يتناول سنوات خمس فقط من عصر الحكم المستنصر بالله ، والذي خلف والده الناصر على حكم الأندلس خلال المدة من ٣٥٠- ٣٦٦هـ / ٩٦١-٩٧٧ م . والقطعة تتناول الأعوام من ٣٦٠ إلى ٣٦٤هـ قام الأستاذ الدكتور عبد الرحمن على الحجى بتحقيقها ونشرها ببيروت سنة ١٩٦٥ م ، كما نشرها بالإسبانية عميد المستشرقين الأسبان إميليو جارسيا جوميت في مدريد عام ١٩٦٧ م .

نركز الحديث الآن عن القطعة الأولى من المقتبس والتي تعرضت لكثير من الألغاز، وأثارت الكثير من الجدل في أوساط الدارسين للتاريخ والحضارة في الأندلس . ولترك أ. د. محمود على مكى عميد الدارسين في هذا المجال يحدثننا عنها عند طباعته للجزء التالى لها في بيروت عام ١٩٧٣ م ويتحدث عنها بقوله : هى قطعة مخطوطة كبيرة حصل عليها المستشرق الفرنسى الأستاذ ليفى بروفتسال من الخزانة العامة لجامع القرويين في فاس بالمغرب الأقصى . وهى تضم كل إمارة الحكم من هشام الربضى (١٨٠-٢٠٦هـ) والشطر الأعظم من إمارة ابنه عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦-٢٣٢هـ) وكانت تقع في مائة وثمان وثمانين ورقة . وقد انتفع ليفى بروفتسال كثيرا من هذه القطعة في عديد من أبحاثه ولا سيما كتابه الجامع عن «تاريخ إسبانيا الإسلامية» ، الذى نشره في باريس بين سنتي ١٩٥٠ و ١٩٥٥ في ثلاثة أجزاء .

ولم يترك لنا المستشرق الفرنسى وصفا مفصلا لهذه القطعة ، ولكننا نأخذ من بعض إشارات إلبيها في تاريخه أنه كان قد حققها تحقيقا كاملا ، وأعددها للنشر منذ سنة ١٩٣٨ ، وأنه أرسلها إلى إحدى الجامعات المصرية لكي تنشر هناك ولكن الجامعة المذكورة لم تعتن بإخراجها على الرغم من مضي اثني عشر عاما على الفراغ منها وإرسالها . ويعنى ليفى بروفتسال بذلك جامعة الإسكندرية . فالمعروف أنه كان قد

فاوض الأستاذ الدكتور عبد الحميد العبادى - رحمة الله عليه - فى أن تقوم الجامعة بنشر المقتبس ، وأنه بعث إليه بمصورة للمخطوط ، ولكن الذى نعرفه هو أن ليفى بروفنسال لم يكن قد أتم تحقيق المخطوط ، وإلا فإنه لم يكن يعدم الوسائل لنشر مثل هذا الكتاب الجليل فى أى مكان آخر بدلا من هذا الانتظار الطويل . ويبدو أن ليفى كان يريد أن يشرك معه الأستاذ العبادى أو غيره من المشتغلين بالأندلسيات فى تحقيق الكتاب ، ولكن ذلك لم يتيسر ، واسترد المستشرق الفرنسى مصورة المخطوطة ، وظلت فى حوزته حتى وفاته سنة ١٩٥٧ .

ومنذ هذا الوقت لم يعرف أحد لهذه القطعة مستقرا ، وقد اجتهدنا فى البحث عنها لدى من يمكن أن تكون لديه ، فسألنا عنها أرملة ليفى بروفنسال وأصدقاءه من المستشرقين فلم يهتد أحد إلى مالها . ولو انتهى أمرها إلى الضياع لكان ذلك خسارة كبيرة لتراث الأندلس وتاريخها . على أننا لم ن فقد الأمل بعد فى إمكان العثور على هذه القطعة الجليلة ، أو الاطمئنان إلى أنها ستقع فى أيدى أمينة تحرص على أن تنشر بما هى جديرة به من عناية أو تعرف على الأقل مدى قيمتها ونفاستها^(١) .

كتب الدكتور مكى ذلك الكلام قبل عام ١٩٧٢ م :

ويقول الأستاذ محمد عبد الله عنان - رحمة الله عليه - أنه انتفع بوجه خاص بثلاث قطع مخطوطة نادرة من مؤلف ابن حيان القيم فى تاريخ الأندلس وهو كتاب « المقتبس فى تاريخ رجال الأندلس » أو « المقتبس فى أخبار أهل الأندلس » .

القطعة الأولى وتشمل حوادث سنى ١٨٠ - ٢٣٢هـ ، أعنى عصرى الحكم ابن هشام وعبد الرحمن بن الحكم ، وتقع فى نحو مائة صفحة من ٨٨ - ١٨٩ من القطع الكبير ، وهى عبارة عن بداية السفر الثانى من كتاب المقتبس « ويرجع الفضل فى انتفاعى بهذا القسم إلى صديقى العلامة المرحوم الأستاذ ليفى بروفنسال ، وكان قد

(١) ملكى : المصدر السابق ، ص ١٤٧ - ١٤٨ .

عشر عليه في مكتبة جامع القرويين بفاس . وقد اختفى هذا القسم ولا نعرف مكان وجوده»^(١) .

كتب الأستاذ عنان هذا الكلام مع مطلع عام ١٩٦٩م عند إصداره للكتاب : « دولة الإسلام في الأندلس » .

وفي شهر مارس من عام ١٩٧٩ نشر الأستاذ الدكتور سعد زغلول عبد الحميد الجزء الثاني من كتابه « تاريخ المغرب العربي » ، والذي حمل مفاجأة سارة إلى الجميع عبر عنها بالكلمات التالية :

وهنا أود أن أضيف هامشا إلى موضوع المصادر . ففي الفترة التي كنا نقدم فيها الكتاب إلى المطبعة ، وفقت الدكتورة نبيلة حسن - مدرسة التاريخ الإسلامي بكلية الآداب بجامعة الإسكندرية - إلى كشف هام في مصادر تاريخ الأندلس ، فلقد تعرفت على الجزء من كتاب المقتبس لابن حيان مما يعالج تاريخ الأندلس من سنة ١٨٠هـ إلى سنة ٢٣٢هـ ، وذلك من المخطوطات المصورة بمكتبة بكلية الآداب بجامعة الإسكندرية .

ولقد أطلعنا على المخطوط الثمين ، وتزودنا منه ببعض النصوص الخاصة بالعلاقة بين دول المغرب « العدو » في تلك الفترة وبين الأندلس ، وكنا قد اكتفينا بالإشارة إلى بعضها مما يوجد بالفرنسية في كتاب الأستاذ ليفي بروفنسال في تاريخ إسبانيا الإسلامية .

ومع تهنيتي للدكتورة نبيلة حسن بكشفها الهام أرجو أن تتم منه الفائدة ، فيتيسر لها إخراج المخطوطة الثمينة محققة ومدروسة في وقت قريب^(٢) .

وكانت المفاجأة السارة والكبيرة والمحيرة في ذات الوقت ، وكان التساؤل الكبير من أين حصلت د. نبيلة حسن على هذا المخطوط الثمين ؟ وهل فعلا استرد ليفي

(١) محمد عبد الله عنان : دولة الإسلام في الأندلس - مكتبة الخانجي - الطبعة الثالثة ، ١٩٨٨ ، ص ٦ - ٧ ، من المقدمة .

(٢) سعد زغلول عبد الحميد - تاريخ المغرب العربي ، ج٢ ، المقدمة ، معارف الإسكندرية ، ١٩٧٨ .

بروفنسال مصورة المخطوطة كما قال د. محمود على مكى أم أن الدكتور عبد الحميد العبادى قد احتفظ بصورة منها قبل أن يعيدها إلى فرنسا؟ أسئلة لم يعرف أحد الإجابة عنها حتى الآن ، ولا أعتقد أنها ستنجلى لأن الأبطال الذين يعرفون الإجابة قد انتقلوا إلى رحمة الله منذ عشرات السنين .

وانتهت الأنظار جميعها . الدارسون المحدثون والقدامى إلى الإسكندرية أملا في رؤية ذلك المصدر النفيس والاستفادة منه ، وطمع الكثيرون في القيام بتحقيقه أو على الأقل المشاركة في هذا التحقيق ، وانهالت العروض على الدكتورة نبيلة حسن ، ولكن لم يستطع أحد أن يزعم - سوى د. سعد زغلول - أنه قد رأى المخطوط بعينه أو اطلع على محتوياته .

ظل الحال على هذا الوضع سنوات طووالاً ، لم تقم الدكتورة نبيلة بتحقيق المخطوط ولا أنها سمحت لأى من المتخصصين بالعمل فيه ، كما كثرت الشائعات والأقاويل حتى قيل بأنه قد وضع في خزانة بأحد البنوك خوفاً عليه .

وإن كانت قد قامت في عام ١٩٩٤م بكتابة دراسة مستفيضة عن المخطوط في حوالي ست وسبعين صفحة بينت فيها أهم ما جاء به من معلومات^(١) .

يقول أ.د. حواكين فالفى بريميجو Joaquin Vallve Bermejo إنه في عام ١٩٩٥ قد كتب في حولية الأكاديمية الملكية للتاريخ^(٢) مشيراً إلى وجود أعمال هامة للمستشرق الكبير أميلوجارثيا جوميث Emilio Garice Gomes لم ترل مطبوعة وأنها لم تنشر ، وأنه قد وجه نداء إلى الأكاديمية الملكية للتاريخ في مدريد لكى تصل إلى اتفاق مع السيدة زوجة الدكتور إميليوجارثيا جومث . واسمها الكونيسية ماريا لويزا فوريرتث Condosa: Maria Luisa Fuertes . على نشر هذه الأعمال التى تركها زوجها الراحل ويواصل الدكتور فالفى حديثه في المقدمة التى كتبها لما أطلق عليه اسم المقتبس الثانى - ويقصد بذلك القطعة التى نتحدث عنها قائلاً : كم كانت الشكوك

(١) حواكين فالفى : المقدمة الإسبانية للمقتبس الثانى ، ص ١١ .

(٢) العدد ٩٢ لسنة ١٩٩٥ - الصفحات من ١٨٥ - ٢٠٢ .

تراودني حول امتلاك أميليو جارثيا جوميث لمخطوطة المقتبس الثاني لابن حيان أو على الأقل فإن لديه صورة منها - ولم يكن ما يدور بخلدني ظنوننا فحسب لأن كثيرا مما كنت أسأل عنه الفقيه الراحل من أحداث تاريخية محدودة أو مواقع جغرافية معينة ، قد وجدت بعد ذلك بخط إميليو جارثيا جوميث مما يعنى أن الرجل كان يعمل جديا وفي صمت على نشر هذا المخطوط وترجمته إلى الإسبانية ، وأن الموت كان هو الحائل الوحيد الذى منعه من استكمال هذا المخطوط ذى الأهمية الفائقة .

في السابع من أكتوبر عام ١٩٩٨ ، أودعت مكتبة الجمع الملكى للتاريخ القسم الأول من الوصية الكريمة بإهداء هذه المكتبة كل ما كان في بيت الراحل جارثيا جوميث - وفي هذه الدفعة الأولى وجدت عددا من الصفحات نسخ عليها أجزاء من المقتبس كما وجدت صفحات أخرى بما نقول وترجمة إلى الإسبانية من ذات المخطوط .

ويواصل الدكتور فالفى حديثه عن زيارة قام بها إلى منزل جارثيا جوميث وموافقة الزوجة على إهداء مكتبة زوجها كاملة إلى الجمع الملكى للتاريخ ، وأنه قد تولى الإشراف على ذلك إلى أن يصل إلى القول :

منذ اللحظات الأولى ، وعند إقائى نظرة سريعة على محتويات المكتبة لفت نظرى وجود رزمة ضخمة مربوطة كتب عليها مخطوط المقتبس وكانت هذه الرزمة متضمنة المخطوط الأصيلى العربى ، ومحاولات إعادة كتابتها بالخط العربى فى معظمها بخط إميليو جارثيا جوميث وبعضها بخط ليفى بروفتسال ، علاوة على عدد من التعليقات^(١) .

ويتحدث بعد ذلك عن قصة عثور العالم الفرنسى على المخطوط والاعتماد عليه فى كتابه عن تاريخ إسبانيا . والقصة الطويلة التى انتهت بضياع المخطوط ، ثم ظهوره فى الإسكندرية وعدم تحقيقه حتى عام ١٩٩٩م ثم يقول :

لهذه الأسباب جميعها وفى الثانى عشر من شهر مارس ١٩٩٩م قدمت تقريرا إلى الجمع الملكى للتاريخ فى إسبانيا أزف إليه بشرى هذا الاكتشاف العظيم بين أوراق إميليو جارثيا جوميث ، وأقترح على الجمع انطلاقا من الأهمية العظمى وغير العادية

لهذا المخطوط أن تقوم بطبعه طباعة فاكسيملى ، أى أن يتم تصويره ونشره على ما هو عليه . ولقد وافق أعضاء المجلس بالإجماع على ذلك ، ويتم تكليف المسئولين بالمجمع بالنهوض بهذه المهمة ، وقد تم المخطوط على هذا النحو فى مدريد عام ١٩٩٩ وبدأت نسخة تنسرب إلى القاهرة ويتم تصويرها ، وهى الآن بين أيدي الجميع من الباحثين والدارسين ، ويعكف البعض على تحقيقها تحقيقاً علمياً ونشرها مطبوعة أسوة بالأجزاء الأخرى من مقتبس ابن حيان .

يتضح لنا من ذلك العرض السريع لقصة هذا الجزء من مقتبس ابن حيان الإجماع على أهميته الكبيرة والتي عبر عنها كل المؤرخين العرب والأسبان والتي وصفت عند بعضهم بأن لها أهمية فائقة وفوق العادة ، وهى بالفعل كذلك فيما جاء بها من تفاصيل دقيقة لم تغب عن فطنة ذلك المؤرخ المتميز ابن حيان ومن ذلك مثلاً : ما جاء فى ص ١٧٧ من حديث عن محنة هارون بن حبيب وهو أخ عالم الأندلس فى عصره عبد الملك بن حبيب ، وكيف شفع له هذا الأمير عبد الرحمن الأوسط .

وقصة خير صلب ابن أخت مجيب فى ص ١٧٥ .

وقصة المنجم عبد الواحد بن إسحاق وإقصائه ، ص ١٧٠ .

وتحديد أرزاق معلمى الولاد الأمير عبد الرحمن .

وغير ذلك مما لا يحصيه عدد من الموضوعات ذات الأهمية الاجتماعية والاقتصادية والثقافية .

لكن ليس معنى ذلك أن ظهور هذا الجزء من المقتبس يمكن أن يغير من الصورة العامة التى كتب بها التاريخ الأندلسى فى عصرى الأميرين: الحكم الربضى وعبد الرحمن الأوسط .

لقد راجعت عصر هذين الأميرين فى كتابات الأستاذ محمد عبد الله عنان والأستاذ الدكتور السيد عبد العزيز سالم وغيرهما من المؤرخين الأندلسيين ، وقارنتهما بما جاء فى المخطوط فلم أجد فرقاً كبيراً اللهم إلا فى التفاصيل بالزيادة أو النقص ، مما يدل على وجود هذه المعلومات فى عدد من المصادر التاريخية الأخرى ، أو مما تم الاستفادة منه فى نفس المخطوط .

ولعل الأسباب التي جعلت الكثيرين لا يبنهرون بنتيجة ظهور الجزء من المخطوط يمكن إجمالها فيما يلي :

أولاً : أن المخطوط كان في حوزة المستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال وأنه اعتمد عليه كثيراً في تأليف كتابه في تاريخ إسبانيا باللغة الفرنسية ، وقد قام إميليو جارثيا جوميث بترجمة الكتاب إلى الإسبانية ، ومن هاتين اللغتين انتقلت جميع هذه المعلومات إلى اللغة العربية ، هذا وقد قام المجلس الأعلى للثقافة في مصر بترجمة هذا الكتاب من اللغة الإسبانية إلى اللغة العربية ونشره في عام ٢٠٠٠ م .

ومن الواضح أن ليفي بروفنسال كان عالماً لم يجبس علمه على نفسه كما فعل البعض من الناس ، وإنما أتاح لأصدقائه وللعلماء فرصة الاطلاع على المخطوط ، وأرسل نسخة منه إلى الدكتور عبد الحميد العبادي بالإسكندرية ، كما أطلع عليه الأستاذ محمد عبد الله عنان والذي استفاد كثيراً جداً من هذا المخطوط ونقل منه نصوصاً وأبياتاً شعرية ضمنها الجزء الأول من كتابه « دولة الإسلام في الأندلس » ، وذلك منذ طبعته الرابعة في عام ١٩٦٩ م .

وطبعي أن ليفي بروفنسال قد اطلع عليه بعرض الدارسين من أبناء المغرب بحكم صلته المباشرة بمذه البلاد خلال الاحتلال الفرنسي هناك ، فإذا أضفنا إلى ذلك قيام الدكتورة نبيلة حسن بتقديم دراسة مستفيضة عن أهمية المخطوط ومحتواه أمكننا أن نفهم أسباب عدم غربة النص أو حداثة بالنسبة للباحثين .

ومع ذلك ، تبقى لهذا المخطوط أهمية فائقة باعتباره جزءاً أساسياً في سلسلة أهم موسوعة ألغت في تاريخ الأندلس ، وهي موسوعة : المقتبس لابن حيان والتي لو استكملت حلقاتها لكانت من أعظم المصادر في التاريخ الأندلسي خاصة والإسلامي عامة .

ميناى آياس
فى السياسة المالىكية

أ.د. عادل عبد الحافظ حمزة

أستاذ تاريخ العصور الوسطى

رئيس قسم التاريخ - كلية الآداب

جامعة المنيا

obseikan.com

ميناء آياس في السياسة الماليكي

ورد ذكر هذا الميناء في كتب الجغرافيين باسم " آياس " بفتح الهمزة الممدودة والياء المثناة من تحت^(١)، وكذلك باسم " آياذ "^(٢)، وهناك إشارات في بعض الدراسات تشير إلى أن هذه المنطقة كانت تسمى قديما " أيجاي " Aigai ثم حُوِّل الاسم إلى " آياش " Ayash^(٣)، كما أُطلق عليها باللغة الإيطالية " لاجازوا " Lajazzo^(٤)، وباللغة التركية يمورتاليك Yumurtalik^(٥)، وعرفت أيضا باسم الجوزات^(٦).

(١) أبو الفدا: تقويم البلدان، تحقيق رينو والبارون ماك كوكين ديسلان، بيروت، ١٨٤٠م، ص٢٤٨.

وانظر القلقشندی : صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، ج٤ ، ص ١٣٣ .

(٢) شيخ الربوة : تحفة الدرر في عجائب البر والبحر، مكتبة المثنى، بغداد (د.ت) ، ص ٢١٤ .

(3) Ramsay(W-M):The Historical Geography of Asia Minor, Amsterdam, 1962, p. 385.

د: هايد (ف) : تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ترجمة : أحمد محمد رضا،

مراجعة: عز الدين فوده، القاهرة، ١٩٩١م، ج٢، ص ٣٠٩ .

(4) Setton(K-M): A history of the Crusades,V.2,Philadelphia,1962,p. 762.

وستيفن رنسيمنان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج٣، ترجمة السيد الباز العريني، بيروت، ١٩٦٨،

ص٦١٤ .

CF:The Encyclopaedia of Islam , V.I, Leyden, 1913, pp528-529.

وانظر : هايد (ف) : المرجع السابق ، ج٢، ص١٤، هامش ص ٣٠٩، وغفاف صيرة : العلاقات

بين الشرق والغرب ، القاهرة ، ١٩٨٣، هامش ص ١٠٨ .

(5)Setton (K-M): Op.Cit., V.2,p. 762.

(٦) فتحى عثمان : الحدود الإسلامية البيزنطية ، ج٣، القاهرة ، ١٩٦٦، ص٢٢٦ .

ويقع هذا الميناء بمنطقة سيخ m منخفضة تكونت من غرين نهرى سيحان وجيحان على شاطئ قليقية^(١) في الجانب الغربي للخليج الإسكندرونة^(٢). بينها وبين بغراس مسافة تقدر بمرحلتين^(٣)، ويحدها من الشمال كارامارنيا التي يسكنها التركمان^(٤).

(١) تقع قليقية بالإقليم الواقع في الجنوب الشرقي من آسيا الصغرى بين جبال طوروس والبحر المتوسط، وقد أطلق العرب على هذا الإقليم اسم الدروب؛ أى الطريق الذى يسلك ما بين طرسوس وبلاد الروم. انظر: سعيد عاشور: سلطنة المماليك ومملكة أرمينية الصغرى، مقال بالموسم الثقافي للجمعية التاريخية ١٩٦٨/٦٧م، ص ١٣٣ وما بعدها. ويضيف البعض أن قليقية كانت ولاية من ولايات الإمبراطورية البيزنطية طيلة عهد الإمبراطور البيزنطى حنا كومنين (١١١٨-١١٤٣م). انظر: عبد الحفيظ محمد على: المسلمون والبيزنطيون في شرقى البحر المتوسط (٣-٦هـ/٩-١٢م)، ج ٢، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٨٢م، ص ١٩١-١٩٢. وعلى أية حال فقد خضعت قليقية بعد ذلك للأرمن.

CF: Sauvaget (J) : Alep, Paris, 1941. p. 164.

وعن مملكة أرمينية انظر: أحمد مختار العبادى: قيام دولة المماليك في مصر والشام، الإسكندرية، ١٩٨٢م، ص ٢٣٠-٢٣١.

(٢) ماركو بولو: رحلات ماركو بولو، ج ١، ترجمها إلى الإنجليزية: وليم مارسدن، ونقلها إلى العربية: عبد العزيز جاويد، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٩٥، ص ١٨٥. والقلقشندى: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٨٣.

CF: The Encyclopadeia of Islam, V.I, p. 528.

وهايد (ف): المرجع السابق، ج ٢، هامش ص ١٧.

وكى لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة بشر فرنسيس وكور كيس عواد، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٥، ص ١٦٤.

(٣) القلقشندى: المصدر السابق، ج ٤، ص ١٣٣.

CF: Demonbynes (G) : La Syrie Al' Epoque Des Mamelouks, Tome III , Paris , 1923, pp . 98, 248.

(٤) ماركو بولو: المصدر السابق، ج ١، ص ٤٩.

وتعد آياس ميناء الأرمن وداخلة في نطاق دولتهم^(١) . وعدها البعض عاصمة بلاد ما وراء نهر جيحان^(٢) . واستمر الحال على هذا المنوال حتى ظهرت دولة سلاطين المماليك على الساحة السياسية في الشرق الأوسط سنة ٦٥٨هـ - /١٢٦٠م.

وعلى أيه حال ، فإن المنطقة البحرية الواقعة عليها هذا الميناء حملت اسمه وغدت تعرف بمخليج آياس الذي تمتع برحابة المكان، والحصنين اللذين يندودان عنها، أحدهما على جزيرة قبالة الميناء في البحر^(٣) يسمى أطلس وهو مبني من الحجر الأصم الأطلس، وتقدر مساحته بحوالي ثمانية وثلاثين قيراطا، وارتفاعه يصل قرابة اثنتين وأربعين ذراعاً بـ (ذراع العمل)^(٤) ، ويقدر طول السور الذي يحيط بالميناء بحوالي خمسة آلاف ومائتين وستون ذراعاً - بذراع العمل أيضا^(٥) ، ويقدر عرضه بثلاث عشرة ذراعاً^(٦).

والذى لا شك فيه أن هذا الميناء يعد مرفأً حيويًا مهما لكثير من القوى المعاصرة آنذاك سواء الإسلامية أم الصليبية ؛ حيث توجد فيه عيون جارية ، وأثمار عذبة ،

(١) أبو الفدا: المصدر السابق ، ص ٢٩ ، ص ٢٤٨.

CF: Ciggaar (K), Davids (A) and Teule (Herman): East and West in the Crusader States , Leuven, 1996,p.65.

وانظر: شيخ الربوة: المصدر السابق، ص ٢١٤. والقلقشندي: المصدر السابق، ج ٤، ص ١٣٣.

وهايد (ف) : المرجع السابق ، ج ٢، هامش ص ٣٠٩.

(٢) محمد جمال الدين سرور : دولة بني قلاوون في مصر، القاهرة ، (د.ت) ، هامش ص ٢٢٤.

(٣) هايد (ف) : المرجع السابق ، ج ٢، ص ٣٠٩.

وانظر : فتحي عثمان : المرجع السابق، ج ٣، ص ٢٢٦.

CF: The Encyclopadia of Islam , V.I, pp.528-829.

(٤) ذراع العمل : وضع في العراق زمن ولاية زياد بن أبي سفيان أيام خلافة معاوية بن أبي سفيان . انظر:

إبراهيم على طرخان: النظم الإقطاعية، القاهرة، ١٩٦٨م، ص ٥١٣-٥١٤.

(٥) الشجاعى : تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون، تحقيق: بربارة شيفر، ج ٢، ق ١، فسادن، ١٩٧٨،

ص ١١-١٢.

(٦) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٤، بيروت ، ١٩٨٣، ص ١٠٣.

وبساتين عامرة بأنواع مختلفة من الفواكه^(١) ، ويتردد عليه تجار بنادقه وجنويون ليتبادلوا المتاجر من التوابل والعقاقير والمنسوجات الحريرية والصوف وغير ذلك من السلع الثمينة^(٢) . وبالإضافة إلى تجار هذه الجنسيات ، كان هناك تجار من جنسيات أخرى يتوجهون إليها مثلما كانوا يتوجهون إلى عكا أثناء السيطرة الصليبية عليها^(٣) .

واعتبارا من النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي (السابع الهجري) بدأ المغول الإيلخانيون يسلكون طرقا تجارية عبر آسيا، الأمر الذي أدى إلى علو مكانة "آياس" ، بسبب اتخاذها نقطة انطلاق للرحالة والقوافل التجارية إلى تبريز وبغداد بصفة خاصة ثم إلى الشرق بصفة عامة^(٤) ، فضلا عن كونها ممرا لكثير من البعثات البابوية إلى خاقانات المغول في الشرق^(٥) .

وبطبيعة الحال ، بعد أن أخذت القلاع والحصون الصليبية الساحلية وغير الساحلية بالشام تنهاوى وتتساقط في أيدي سلاطين المماليك ، بدأت بالتالي التجارة الساحلية الشمالية تسلك طرقا بعيدة عن السيطرة المالكية، وتتخذ نقاطا جديدة للانطلاق

(١) الشحاعي: المصدر السابق، ج٢، ق١، ص١١.

(2) Toumanoff (C): Armenia and Georgia, Chapter , N.24 in Camb - Med-Hist,V.4, part .1, Camb, 1964, p. 633.

وانظر:ماركو بولو:المصدر السابق،ج١، ص٤٨، ج٢، ص٣١٢، ص٣١٤-٣١٥.

(3) Leopold(Antony):How to Recover the holy land, Ashqate,2000,p. 96.

(4) Toumenoff (C) : Op.Cit,p. 633.

وسعيد عاشور : سلطنة المماليك وممكة أرمنية الصغرى ، ص١٥٤-١٥٥ ، وستيفن رنسيمان: المرجع السابق ، ج٣، ص٥٥٩ . وصبحي لبيب : سياسة مصر التجارية في عصر الأيوبيين والمماليك ، مقال بمجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، المجلدان ٢٨ ، ٢٩ لسنة ٨١ -١٩٨٢م، ص١٣٠ . ويوشع براور : عالم الصليبيين ، ترجمة : قاسم عبده قاسم ومحمد خليفة حسن ، دار عين ، القاهرة ، ١٩٩٩م، ص١٧٥-١٧٧ .

(٥) هايد (ف) : المرجع السابق ، ج٢، ص٣١٠ ، وعادل هلال : العلاقات بين المغول وأوروبا وأثرها على العالم الإسلامي ، الطبعة الأولى، دار عين، القاهرة ، ١٩٩٧ ، ص٦٨-٦٩ . وانظر: السيد الباز العربي: المغول ، بيروت ، ١٩٨١ ، ص٣٠١ .

مسنها، مثل ميناء آياس الأرمني^(١)، على الرغم من أن طريق آياس تبرز لم يكن مألوفاً تماماً^(٢).

وهنا يضيف بعض المؤرخين أنه مما زاد من أهمية ونشاط ميناء آياس ما لجأت إليه البابوية بعد سقوط عكا عام ١٢٩١م من إصدار مراسيم تحرم التجارة مع المماليك . وفرض حصار اقتصادي عليهم في مصر والشام ، الأمر الذي أثر بالفعل على النشاط الاقتصادي لدولة المماليك^(٣) . وأصبحت آياس نقطة ارتكاز تجارية مهمة لكافة القوى المسيحية بالمنطقة ، وكذلك محطاً للتجار الأوروبيين؛ إذ حصل الجنويون على امتيازات لبعض السلع فيه مثل : الفلفل ، والجنزيبيل ، والنيلة ، وغيرها .. وبدأ يتواجد بها البنادقة^(٤) ، وغدت لهم أسواق فيها^(٥) .

والذي لا شك فيه ، أن تغير مسار التجار الغربيين بمتاجرهم إلى آياس قد أدى إلى رقى مكانتها التجارية ، وارتفاع دخلها حيث قدره بعض المؤرخين " كل شهر ثلاثين ألف دينار خارجاً عن ملاحظة بما " و " في كل سنة سبعمائة ألف درهم"^(٦)، في الوقت الذي خفض فيه الأرمن الضرائب على التجارة المارة بأراضيهم، بما فيها طبعاً ميناء آياس، من ٤٪ إلى ٢٪ ، وذلك لجذبوا التجار إليهم^(٧) . بالإضافة إلى كل هذا

(١) السيد الباز العريني: المغول، ص ٢٩٤، وهامش ص ٣٠١.

(٢) هايد (ف) : المرجع السابق، ج ٢، ص ٣١١. وانظر : عادل هلال : المرجع السابق، ص ٢٢٢.

(٣) سعيد عاشور : سلطنة المماليك ومملكة أرمينية الصغرى ، ص ١٥٥.

CF: Riley - Smith (J): The Oxford illustrated History of the crusades , Oxford , New York , 1995 , p. 128.

(٤) هايد (ف) : المرجع السابق، ج ٢، ص ٣١٠-٣١١. وانظر : ستيفن رنسيان: المرجع السابق ، ج ٣، ص ٦٨٢-٦٨٣. وسعيد عاشور : سلطنة المماليك ، ص ١٦٢.

CF: The Encyclopaedia of Islam ,V.I, p. 528.

(5)Setton (K.M) : Op.Cit, V.5. p. 445.

(٦) الشجاعى : المصدر السابق ، ج ٢، ق ١، ص ١١. وانظر : السيد الباز العريني : المغول، هامش ص

٣٠١، وسعيد عاشور : سلطنة المماليك ، ص ١٥٥. وعادل هلال : المرجع السابق، ص ٢٤٧.

(٧) سعيد عاشور: الحركة الصليبية ، ج ٢، الطبعة الثالثة، ١٩٧٦، ص ١١٥٧-١١٥٨.

فإن هذا الوضع الجديد أعطى فرصة لتجمعات صليبية في آياس، الأمر الذي دفعهم إلى التفكير في إنزال قوات عسكرية بحرية صليبية لاستخدامها ضد المسلمين^(١).

ولعل هذا مما أدى إلى تدهور داخل الموانئ الساحلية المماليكية في مصر والشام، وبخاصة الواقعة جنوبي ميناء آياس، الأمر الذي أثار حفيظة سلاطين المماليك، وبدأت المحاولات من جانبهم في وقت مبكر من تاريخ دولتهم، منذ عهد الظاهر بيبرس (٦٥٨-٦٧٦هـ / ١٢٦٠-١٢٧٧م) للسيطرة على آياس، فقد أخذ على عاتقه عدة مهام تتصل بتأمين حدود الدولة المماليكية الناشئة، منها: مهاجمة الأرمن بوجه عام وآياس بصفة خاصة. وتعود أولى هجمات السلطان بيبرس عليهم إلى سنة ٦٦٤هـ / ١٢٦٦م، إذ دخل المماليك في هذه المرة عددا من المدن الأرمينية من بينها آياس^(٢)، حيث تولى قيادتها العسكرية الأمير قلاوون^(٣)، وكرر المماليك هجماتهم على سبب عاصمة مملكة الأرمن، وعلى آياس في يوم الاثنين ٢١ رمضان ٦٧٣هـ / ١٢٧٥م، بقيادة الأمير بدر الدين بيسرى والأمير سيف الدين أيتمش السعدى، وأقام الجيش المملوكى هناك قرابة شهر، وكان الأرمن قد علموا بقدوم هذه الحملة عن

(١) ستيفن رنسيمان: المرجع السابق، ج ٣، ص ٦٧٨.

(٢) ابن العبري: تاريخ الزمان، ترجمة إسحق أرملة، بيروت، ١٩٨٦م، ص ٣٢٦. وابن دقماق: الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين، تحقيق: محمد كمال الدين عز الدين، ج ١، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٨٥، ص ٧٤. وانظر: عبد السلام عبد العزيز فهمي: تاريخ الدولة المغولية في إيران، القاهرة، ١٩٨١م، ص ١٥٨. وللمزيد عن موقف السلطان الظاهر بيبرس من مملكة أرمينية. انظر: سعيد عاشور: سلطنة المماليك ومملكة أرمينية، ص ١٥٧. وسعيد عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، القاهرة، ١٩٩٠م، ص ٢١٢. وأحمد مختار العبادي: قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، الإسكندرية، ١٩٨٢م، ص ٢٣٠-٢٣١. وستيفن رنسيمان: المرجع السابق، ج ٣، ص ٥٥٣. وعلى إبراهيم حسن: تاريخ المماليك البحرية، الطبعة الثالثة، القاهرة، ١٩٦٧م، ص ١٦٩.

CF: Vryonis (Spero): The Decline of Medieval Hellenism in Asia Minor and the process of Islamization from the Eleventh through the fifteenth century, London, 1971, p. 256.

(٣) المقرئى: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١، ق ٢، تحقيق: محمد مصطفى زيادة، القاهرة، ١٩٥٧م،

طريق الصليبيين، الأمر الذي ترتب عليه هروب ما لا يقل عن ألفين من الأرمن بأموالهم إلى مراكزهم، فلقى عدد كبير منهم حتفهم في البحر غرقا، وأسر المماليك بعضهم وحصلوا على غنائم منهم^(١)، كما أن الصليبيين أنفسهم انتهزوا هذا الوضع ونهبوا ما استطاعوا من الأرمن " كل ما لهم وانتزعوا ثيابهم كذلك"^(٢).

وعلى أية حال ، فقد شارك الأرمن المغول في المعركة التي نشبت بينهم وبين المماليك في حمص سنة ٦٨١ هـ / ١٢٨١م والتي هزم فيها المغول؛ وعندئذ حدد السلطان المنصور قلاوون (٦٧٨-٦٨٩ هـ / ١٢٧٩-١٢٩٠م) سياسته تجاه الأرمن في اتجاهين : الاتجاه الأول عسكري ؛ إذ أصدر أوامره في سنة ٦٨٢ هـ / ١٢٨٣- ١٢٨٤م إلى نائب حلب بتوجيه حملة ضد الأرمن في عقر دارهم " سيس " ، وبالفعل هجموا عليها وقتلوا منهم جماعة وغنموا ثم عادوا إلى حلب^(٣) . الاتجاه الثاني ؛ فقد لجأ السلطان قلاوون إلى مواجهة المنافسة الخطيرة التي يشكلها ميناء آياس للموانئ المماليكية ، إذ أمر السلطان نوابه في الثغور بحسن معاملة التجار الأجانب وترغيبهم في الوفود إلى مصر، ومراعاة العدالة فيما يجبونه منهم من أموال ، بحيث لا يأخذون منهم سوى الحقوق السلطانية، كما أصدر السلطان منشورا للتجار الذين يفدون على مصر

(١) ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات، المجلد السابع (٦٧٢-٦٨٢ هـ) تحقيق : قسطنطين رزيق، بيروت، ١٩٤٢م، ص ٣١، وابن شداد : تاريخ الملك الظاهر ، تحقيق : أحمد حطيظ، بيروت ، ١٩٨٣م، ص ١٠٦، وأيضا : ابن شداد : الأعلام الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ، ج ١، ق ٢، تحقيق : يحيى زكريا عبارة، دمشق ، ١٩٩١، ص ٣٤٦ . وانظر: بيرس المنصوري : التحفة المملوكية في الدولة التركية ، تحقيق : عبد الحميد صالح حمدان ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٧، ص ٨٠-٨١، ومفضل بن أبي الفضائل : النهج السديد والدر الفريد في تاريخ ما بعد ابن العميد ، في :

CF: Blochet in Patrologia Orientalis, T. 14, Paris , 1920, pp. 389-390.

(٢) ابن العبري : المصدر السابق ، ص ٣٣١.

(٣) ابن الفرات: المصدر السابق ، المجلد السابع ، ص ٢٧٦-٢٧٧. وانظر : بيرس المنصوري : زبدة الفكرة في تاريخ الحجر ، تحقيق : زبيدة عطا ، جدة (د.ت) ، ص ٢١٥ . وانظر : سعيد عاشور : سلطنة المماليك ومملكة أرمينية ، ص ١٦٤-١٦٥.

من الصين والهند والسند والعراق وبلاد الروم يرحب بهم ويشرح ويصف لهم محاسن مصر^(١).

ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل إن القوات المالكية توجهت إلى بلاد الأرمن، في عهد السلطان المنصور لاجين (٦٩٦-٦٩٨هـ / ١٢٩٦-١٢٩٨م)، يقودها الأميران كجكن وقرا أرسلان إلى آياس، غير أنهما لم يحققا نجاحا يذكر بل لقيتا الهزيمة أمام قوات الأرمن حيث أكمّن لهما في الطريق، وعندما وجه الأمير بكتاش اللوم إليهما (اعتذرا بضييق المسلك والتفاف الأشجار وعدم التمكن من العدو)^(٢).

وعلى الرغم من هذه الهجمات المالكية على آياس فإن لسان حالها يقول إن أهميتها أخذت في الزيادة عاما بعد آخر، وبالتالي زادت خطورتها على سلطنة المماليك، ومن ثم سعت الأخيرة للسيطرة عليها حتى في الأوقات التي كانت تعاني السلطنة من عدم الاستقرار السياسي، ففي أوائل القرن الرابع عشر الميلادي / الثامن الهجري أرسل الأمير قرّة سنقر نائب حلب قوات بقيادة الأمير قشتمر للسيطرة على ميناء آياس، ومهاجمة الأرمن سنة ٧٠٥هـ / ١٣٠٥م، غير أن هذا الأمير لم يكن قوى الشخصية ولم يتصف بالاتزان النفسي والعقلي كما وصفه ابن الوردي، الأمر الذي أدى إلى هزيمته أمام الأرمن الذين استعانوا بالصليبيين والمغول لصد المماليك عن آياس، وأسفر عن قتل وأسر عدد كبير من الجيش الحلبى، ومن نجاحه تاه في الجبال، ولم يرجع منه إلى حلب غير عدد قليل بدون أسلحة وأقنعة^(٣).

وإبان فترة حكم الناصر محمد بن قلاوون الثالثة (٧١٠-٧٤١هـ / ١٣٠٩-١٣٤٠م) عملت القوات المالكية على تكرار هجماتها على الأرمن بصفة عامة وعلى

(١) انظر: سعيد عاشور: سلطنة المماليك ومملكة أرمينية، ص ١٦٥-١٦٦.

(٢) المقريزى: المصدر السابق، ج ١، ق ٣، ص ٨٣٨-٨٣٩. وانظر: سعيد عاشور: سلطنة المماليك، ص ١٦٩.

وعن دور الإمبراطور البيزنطى في مساعى الصلح بين الأرمن والمماليك. انظر ليلي عبد الجواد: علاقة الدولة البيزنطية بسلطنة المماليك البحرية (٦٥٩-٧٨٤هـ / ١٢٦١-١٣٨٢م) مقال بمجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، العدد ٤٦، ٤٧ لسنة ١٩٨٦، القاهرة، ١٩٨٨م، ص ٩٧-٩٨.

(٣) تنمة المختصر في أخبار البشر، ج ٢، مصر، ١٨٦٩م، ص ٢٥٣.

ميناء آياس بصفة خاصة ، إذ لم ينس الممالك ما حدث لهم سنة ٧٠٥هـ / ١٣٠٥م عند آياس ، ومن ثم قام الأمير تمرناش بالإغارة على سبب عاصمة الأرمن سنة ٧١٩هـ / ١٣١٩ - ١٣٢٠م، وعندئذ فر ملك الأرمن إلى قلعة آياس ، وظل الأمير المذكور يعبث بتلك البلاد فسادًا سلبيًا ونهبًا قرابة شهر ثم سحب قواته منها^(١) ، وتكررت هذه المحاولات ثلاث مرات في ثلاث سنوات متتاليات غير أنها لم تكن حاسمة^(٢) . لذلك أرسل السلطان جيشًا شاميا بقيادة الأمير شهاب الدين قرطاي الناصري نائب طرابلس ، فأغار على آياس، وطلب السلطان من صاحب بلاد الأرمن رد القلاع التي أخذت من قبل من نهر جاهان إلى قلاع آياس وكورة وبعليك وسرفندكار وغيرها، فأجابه إلى طلبه، لكن عاد وعدل عن رأيه^(٣) .

ويمكن القول أن كل المحاولات المماليكية السابقة لم تأت بنتائج حاسمة، وظلت آياس شجرة في حلق السلطنة المماليكية إلى أن أصدر السلطان الناصر محمد أوامره سنة ٧٢٢هـ / ١٣٢٢م بتجهيز جيش ضخم من البلاد المصرية والشامية بقيادة الأمراء : جمال الدين أقوش الناصري نائب الكرك ، والسيفى طرشى وسيف الدين بهادر آص والسيفى كجكل وعلاء الدين الطنبغا الناصري نائب حلب بجيشه، وجيش طرابلس وحماه، وغيرهم من القوات والأمراء . وتوجهوا إلى آياس بأبراجها الثلاثة : الأطلس، ذى الأبواب الحديدية المطلية بالرصاص، والشمعة والآياس؛ واستمر حصارهم لها أكثر من أربعين يوما، تمكنوا خلالها من هدم أسوارها وأسر كثير من رجالها وسبى حريمها^(٤) ، غير أن قلعة آياس الموجودة في البحر استعصت على القوات المماليكية ، فاضطرت القوات إلى عمل طريقين في البحر، طول الواحد منهما ثلاثمائة ذراع

(١) أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر ، ج٤، الطبعة الأولى، القاهرة، (د.ت) ، ص ٩٠٥.

(٢) ابن الوردي: تنمة المختصر ، ج٢، ص ٢٦٩.

(٣) ابن حبيب : تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه ، ج٢، تحقيق: محمد محمد أمين ومراجعة : سعيد

عاشور ، القاهرة، ١٩٨٢، ص١٠٦-١٠٧.

(٤) بيبرس المنصوري : المصدر السابق ، ص٢٤٠-٢٤١ . وانظر : ابن حبيب : درة الأسلاك في دولة

الأثراك ، ج٢، مخطوط بجامعة القاهرة ، ورقة رقم ٢٢٨ . وأيضاً : ابن حبيب : تذكرة النبيه ، ج٢،

ص ١٢٤ . والنويرى : الإسلام فيما جرت به الأحكام المقضية في وقعة الإسكندرية ، مخطوط ورقة

٢٧١أ . وانظر : محمد جمال الدين سرور: دولة ابن قلاوون في مصر، القاهرة (د.ت) ، ص ٢٣٠.

(العمل) وأقاموا عليها مجانيق، فهرب الأرمن منها وأحرقها المسلمون في يوم الأحد ٢١ ربيع الآخر ٧٢٢هـ / ١٣٢٢م، وهدموا بعض جوانبها ، وعادت القوات في جمادى الآخرة من نفس العام بقيادة أقوش نائب الكرك^(١) وهنا أنشد الشاعر يقول :

قد ألف الناس أخبارا فدارهم فيها على ما حكاه السمع والبصر
وأنت ألفت تاريخا وقائعه فيها لك الورد يوم الروع والصدر
فكم وصفت حروبا لم تفتك وقد بذلت نفسك فيها الأجر والظفر^(٢)

وكذلك قال بعض أهل الأدب :

نحو آياس فرقة من جيشنا توجهوا كى يملكوا بعضها
فاقتلعوا قلعتها وفصلوا أطلقسها وأطفأوا شمعها^(٣)

والسؤال الذى يفرض نفسه الآن هو : هل خضعت آياس للسلطنة المالكية خضوعا كاملا بعد هذه الضربات ؟ أم أن السلطان المملوكى اكتفى بما حدث لآياس من تدمير وتخريب ؟ ! فى الواقع ليس هنا فى المصادر ما يشير صراحة إلى خضوع آياس خضوعا كاملا للسلطنة المملوكية حتى هذه اللحظة - أعنى سنة ٧٢٢هـ / ١٣٢٢م- وعلى الرغم من ذلك نجد بعض المصادر تشير إلى أن السلطان الناصر محمد قد سمح لملك الأرمن ليو الخامس (١٣٢٠-١٣٤١م) بإعادة إعمار آياس سنة ٧٢٣هـ / ١٣٢٣م على أن " يزيد ملك الأرمن - القطيعة مائة ألف درهم"^(٤) فهل شدة

(١) أبو الفدا: المختصر، ج٤، ص٩١. وابن كثير: البداية والنهاية، ج١٤، الطبعة الخامسة، بيروت،

١٩٨٣، ص١٠٣. وابن حبيب : تذكرة النبيه، ج٢، ص١٢٤. وانظر : أبو المحاسن : المنهل

الصافي والمستوفى بعد الوافى، ج٣، تحقيق: نبيل عبد العزيز، القاهرة، ١٩٨٥، ص٥٤-٥٥.

(٢) بيبرس المنصورى : التحفة المملوكية فى الدولة التركية، ص ٢٤٠-٢٤١.

(٣) ابن حبيب : تذكرة النبيه، ج٢، ص١٢٥.

(٤) الشجاعى : المصدر السابق، ج٢، ق١، ص١١. وهنا يحتلف القلقشندى فى تقدير هذه القطيعة التى

يرسلها الأرمن للمماليك بالقول " أنه قرر على الأرمن لملوك الديار المصرية قطيعة مقررة وبلغت ألف

ألف ومائتى ألف درهم مع أصناف". انظر : صبح الأعشى، ج٨، ص٣٠. وانظر : سعيد عاشور :

سلطنة المماليك، ص ١٧٧. ومحمد جمال الدين سرور : دولة بنى قلاوون، ص ٢٣٠.

هجمات المماليك على بلاد الأرمن ، ومن بينها آياس ، دفعت الأخير إلى طلب الإذن من السلطان المملوكي لإعمار آياس ؛ ذلك الميناء الأرمني ؟ أم أن ثمة اتفاقا تم التوصل إليه بين الجنابيين بموجبه تظل آياس على حالها دون إعمار بعد هجمات المماليك عليها سنة ٧٢٢هـ / ١٣٢٢م . هنا يشير بعض المؤرخين إلى وجود اتفاقية بين ملك الأرمن ليو الخامس والسلطان المملوكي الناصر محمد - يغلب على الظن أنها عقدت بعد الهجمات الأخيرة - تشير إلى أن ملك الأرمن تعهد بدفع مبالغ مالية للسلطنة المالكية قدرت بحوالي ٥٠,٠٠٠ خمسين ألف فلورنس Florins ذهب ، فضلا عن نصف دخل جمر آياس، وأن هذه الاتفاقية مدتها خمس عشرة سنة^(١) . ليس هذا فحسب، بل تشير بعض المصادر إلى اعتذار ملك الأرمن عما حدث في آياس للمسلمين للسلطان الناصر محمد، ويعلل أن ما حدث لم يكن بأمره أو باختياره ، كما ترك نصف آياس للمسلمين، وكان بهذا الجزء كنيسة فبنى المسلمون عليها مئذنة وصاروا يؤذنون عليها للصلاة فيها، ويرفعون أصواتهم في آياس^(٢) . ولعل هذا الوضع صور لبعض المصادر أن ما حدث من المسلمين في آياس عام ٧٢٢هـ / ١٣٢٢م هو فتح لها^(٣) .

لكن يمكن القول أن تعهد ملك الأرمن بإرسال نصف متحصل جمارك آياس إلى السلطنة المالكية يعني أن هذا الميناء ظل خاضعا للأرمن حتى هذا التاريخ ، وأن التواجد المماليكي بها كان محدودا ، ويساعدنا في تأكيد هذا الرأي ما حدث بعد هذا

(1) Toumanoff (C): Op.Cit , p. 636.

(٢) التويري : المصدر السابق ، ورقة ٢٧١أ. انظر : سعيد عاشور : سلطنة المماليك ، ص ١٧٧ .

(٣) انظر: الدواداري: كثر الدرر وجامع الفرر، ج٩، تحقيق: هانس روبرت روبر ، القاهرة، ١٩٦٠م، ص٣٠٩. وزترستين : تاريخ المماليك ، ليدن ١٩١٩ ، ص ١٥٠ ، ص ١٧٢ . وابن إياس : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٤٧١ .

وذهب ابن دقماق إلى أن آياس تعد من فتوحات الظاهر بيبرس . انظر: المصدر السابق ، ج ١ ،

من تطاول الأرممن على أفراد من حلب^(١) ، وغير هذا من الأحداث التى أصابت القوات الممالىكىة فيما بعد بآياس^(٢) .

على أى حال فقد استمرت فترة هدوء مشوب بالخذر بين الممالىك والأرممن لمدة لم تتجاوز سنوات المعاهدة - الأنفة الذكر - المبرمة بين الجانيين، حتى اعتدى حجاج أرممن على اثنين من رجال نيابة حلب ، وقتل أحدهما، فأبلغ نائب حلب السلطان الناصر محمد بما حدث، واعتبر أنه بذلك العمل قد نقض الأرممن العهد والميثاق المبرم معهم^(٣) .

وعلى الرغم من أن ما حدث يعتبر تصرفا لا يسأل عنه ملك الأرممن، إلا أن هناك ظروفا اقتصادية تعانى منها مملكة الأرممن^(٤) كانت من الدوافع التى دفعته لكى يعتذر للسلطان المملوكى عما حدث من الأرممن للممالىك، لكن السلطان المملوكى الناصر محمد رفض قبول أى أعذار^(٥) ، وأصدر أوامره إلى الأمير علاء الدين الطنبغا الصالحى العلائى، نائب حلب والى التركمان لإرسال قوات تهاجم بلاد الأرممن بما فيها آياس^(٦) وقد نفذت هذه الأوامر بالفعل فى شهر رمضان سنة ٧٣٥هـ / ١٣٣٥م، فهاجمت القوات هذه البلاد وأسرت قرابة ثلاثمائة من الأرممن، وغنمت واستاقت عدة من الدواب . ولا شك أنه كان لهذا الهجوم صدى على الأرممن فى آياس فقبضوا على التجار المسلمين سواء كانوا شواما أو بغاددة ، وكان عددهم يدنو من ألفين فى عيد الفطر لهذا العام (٧٣٥هـ) فجمعوهم فى خان كبير ثم أشعلوا فيهم النيران ولم ينج

(١) الشجاعى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ق ١ ، ص ٨ .

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٤٧١ .

(٣) الشجاعى: المصدر السابق ، ج ٢ ، ق ١ ، ص ٨ .

(٤) عن أحوال الأرممن الاقتصادية . انظر: سعيد عاشور : سلطنة الممالىك ، ص ١٨١ . وستيفن رنسيما:

الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٧٥٢ . وعادل هلال : المرجع السابق ، ص ٢٢٢ .

(٥) ابن أيبك الدوادارى : الدر الفاجر ، ج ٩ ، ص ٣٩٩ .

(٦) الشجاعى: المصدر السابق ، ج ٢ ، ق ١ ، ص ٩ . وابن كثير: البداية والنهاية ، ج ١٤ ، ص ١٧٠ .

منهم إلا القليل^(١)، وعلم السلطان الناصر محمد بذلك في ليلة عيد الأضحى لنفس العام "فتشوش لذلك ، واضطرب من هذا الخبر" ، وعندئذ دخل عليه ابن الشهاب محمود الثناء وأنشده يقول :

أيا ملك الإسلام وابن ملكهم	ومن أيد الرحمن بالنصر جنده
ومن جيشه ملأ القضاء وأنه	ليهزم جيش الكفر بالله وحده
أتاك بعيد النحر سعدك مخبرا	لنا أن عيد النصر يأتيك بعده
فصل لرب الناس وانحر فبعدها	ستنحر من يدعو مع الله نده ^(٢)

ويبدو أن هذه الحادثة قد شجعت السلطان المملوكي الناصر محمد على الانتقام من الأرمن على ما فعلوه بالمسلمين من ناحية ، وعلى إخضاع ذلك الميناء الحيوى من ناحية أخرى، ومن ثم أصدر أوامره بضرورة توجيه الجيش المملوكي إلى تلك المنطقة يقوده عدد من الأمراء على رأسهم الأمير علاء الدين الطنبغا الصالحى العلائى نائب حلب، والأمير سيف الدين أرقطاي الناصرى مقدم الجيش المصرى، والأمير سيف الدين قطلوبغا الفخرى مقدم جيش دمشق، والأمير سيف الدين بمانر الناصرى مقدم جيش طرابلس، والأمير صارم الدين أزيك الحموى مقدم جيش حماه^(٣) ، وفى شهر رجب من عام ٧٣٧ هـ / ١٣٣٧ م شقت هذه القوات المماليكية طريقها شطر الحدود الأرمينية، ثم أرسل نائب حلب آلات الحصار إلى باب إسكندرونة ، وهناك وصلت رسل ملك الأرمن إلى نائب دمشق تطلب منه سحب القوات الحلبية من إسكندرونة، وعندئذ طلب نائب دمشق من نائب حلب الكف عن القتال وتحريك آلات الحصار إلى قلعة بغراس ، على أن يتحرك هو وجيشه إلى آياس حين وصول تعليمات أخرى من السلطان الناصر محمد، ولما كان نائب حلب هوالمقدم على الجيش

(١) ابن حبيب : تذكرة النبيه ، ج ٢، ص ٢٥٩ - ٢٦٠. وأبو الفدا : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١١٥.

وابن الوردي : تنمة المختصر ، ج ٢، ص ٣١٠ .

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ١، ق ١، ص ٤٧١ .

(٣) ابن حبيب : تذكرة النبيه ، ج ٢، ص ٢٧٨-٢٧٩ .

وصاحب الحل والعقد في تحركاته ، فإنه كان أدرى بأحواله عن نائب دمشق ، لأنه هو الذى جهز الجيش بالعدد والعتاد ، ووضع خطة محكمة للجوانب لتنفيذ مهامه ، كذلك عز عليه التراجع عن خطته ، وقرر العبور بالجيش إلى آياس فوصلها في ١٢ شوال ٧٣٧هـ — / ١٣٣٧م ، ثم قام بعمل زحافات وستائر ، في حين وقف بعض عساكر الأرمن على أسوار آياس ، ونزل بعضهم إلى البحر يطلقون سهامهم من المراكب على الجيش الحلبى ، فاشتد القتال بين الطرفين وقتل عدد كبير من الجيش الحلبى ، في حين تقدم المشاة بالزحافات إلى سور آياس .. وبينما هم على هذا الحال وصل مهندار نائب دمشق وبصحبته رسل ملك الأرمن ، حيث قال لنائب حلب : "ملك الأمراء - تنكز - يسلم عليك يقول لك لا تدخل غارة ولا توقع قتالا إلا أن يحضر الجواب من السلطان " . وهنا قال رسل ملك الأرمن لنائب حلب : " نحن رسم لنا ملك الأمراء - تنكز - ألا يعارضنا أحد " ، ومن ثم زاد الموقف حرجا لنائب حلب ، إذ ظهر أمام رسل ملك الأرمن أن الحل والعقد ليس بيده - أعنى نائب حلب - ولكن بيد نائب دمشق ، وحتى يثبت عكس ذلك ، أمر بأن يؤخذ رسل ملك الأرمن بعيدا ويقتلوا ، كما وجه لوما شديدا لرسول نائب دمشق . وعندما وجد رسل ملك الأرمن هذا الموقف المتشدد من نائب حلب طلبوا الأمان والصلح معه على أن يعهدهم مدة أسبوع لإحضار المفاتيح المتفق عليها ، وتعهدوا على أنفسهم إن لم يحضروها خلال هذه المدة يكون نائب حلب في حل من عمل أى شىء ضد بلاد الأرمن ، ومن ثم اتفق الجميع على وقف القتال ورفع الحصار ، ولكى يثق نائب حلب بتعهد رسل ملك الأرمن أرسل إليه ملك الأرمن مؤكدا له ما تم الاتفاق عليه بينه وبين أولئك الرسل ، ثم أرسل له مفاتيح القلاع في الموعد المحدد آنفا ، وطلب ملك الأرمن من نائب حلب رد ما نهبه جيش حلب من بلاد الأرمن ، وعندئذ أمر نائب حلب بالناداة فى الجيش على رد ما سلبوه ، ثم توجه الأمير ركن الدين بيبرس الحاجب لتسلم قلعة آياس وبرجها أطلس ، وبالفعل تسلموا القلعة المذكورة غير أنهم تأخروا بعض الوقت فى تسلم برج أطلس ؛ لأن فيه بضائع للتجار استغرق نقلها وقتا طويلا ، وظلت القوات الحلبية ثمانية أيام لم تتمكن من هدم هذا البرج حتى جاء أربعون

حجارا من القلاع المجاورة وعلقوه على أخشاب وأشعلوا فيه النيران حتى هوى فيها يستعر^(١).

وهكذا كانت المعارك ضارية بين القوات المماليكية والأرمينية حتى إنه قتل من المماليك الأمير صارم الدين أذربك الحموى مقدم جيش حماه بالقرب من آياس في يوم الأربعاء ٢٥ من ذى القعدة ٧٣٧هـ / ١٣٣٧م^(٢). ولعل أهم ما أسفرت عنه هذه المعارك هو السيطرة المماليكية على ميناء آياس الأرميني الذى سلم إليهم علاوة على عدة قلاع أخرى مثل كاورا وسونديكار والهارونية ونجيمة وغيرها^(٣)، إلا أن أهم هذه القلاع جميعا هو ميناء آياس التى يعدها القلقشندي فى عصره أمما " أم بلاد ما وراء نهر جاهان "^(٤)، ومن ثم حظيت السيطرة المماليكية على هذا الميناء بفرح غامر فى الأوساط المماليكية بمصر والشام وكذلك من المسلمين فى الشرق والغرب ، وزف السلطان الناصر محمد هذه البشرى إلى أبى الحسن على المريشى صاحب فاس والمغرب^(٥).

وبطبيعة الحال فقد كان لهذا صداه عند الأرمين إذ إنه لطمة وضربة قوية لاقتصادهم، وبالتالي بدأوا يفكرون فى استرداد آياس من المماليك ، ولم يكن قد مضى

(١) الشجاعى : المصدر السابق ، ص ٨-١١. وسعيد عاشور : سلطنة المماليك ومملكة أرمينية الصغرى ، ص ١٧٨-١٧٩. ومحمد جمال الدين سرور: دولة بنى قلاوون، ص ٢٣١.

(٢) ابن حبيب : تذكرة النبيه، ج ٢، ص ٢٨٤. وأبو المحاسن : المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافى، ج ٢، تحقيق : محمد محمد أمين ومراجعة : سعيد عاشور : القاهرة، ١٩٨٤، ص ٣٤١.

(٣) ابن حبيب : تذكرة النبيه ، ج ٢، ص ٢٧٨-٢٧٩. وأبو الفدا: المصدر السابق ، ج ٤، ص ١١٩. وانظر: القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤، ص ١٣٣، ١٧٩. وزترستين : المصدر السابق، ص ١٥٠، ص ١٩٣-١٩٤. والعيني: السيف المهند فى سيرة الملك المؤيد ، تحقيق : فهيم شلتوت ، القاهرة ، ١٩٦٧م، ص ٢١٢. وابن كثير : المصدر السابق ، ج ١٤، ص ١٧٨.

(٤) صبح الأعشى ، ج ٨، ص ٣٠.

(٥) القلقشندي: المصدر السابق، ج ٧، ص ٣٩٥، ص ٤٠٤-٤٠٦، وعن نص الرسالة التى أرسلت من القوات المماليكية إلى السلطان الناصر محمد عند فتح آياس انظر : القلقشندي : المصدر السابق، ج ٨، ص ٤٠٠-٤٠٣.

على سيطرتهم عليها عشرة أعوام حيث أرسل ملك الأرمن قسطنطين الثاني (١٣٤٤-١٣٦٣م) في المحرم من سنة ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م قوة من حوالى مائتى أرمينى للسيطرة عليها، لكن الأمير المملوكى حسام الدين محمود بن داود الشيبانى نائب آياس تصدى لهم بكل قوة، وقتل حوالى خمسين وأسر ما لا يقل عن ثلاثين منهم عند " كوار " وفر الباقون، وحمل الأسرى إلى حلب، ويبدو أن أهالى " كوار " هذه قد تعاونوا مع قوات نائب آياس المملوكى، وإلا فبماذا نفسر إغداق الماليك الأموال عليهم؟^(١).

وإذا كانت قوات ملك الأرمن قد فشلت في استرداد آياس من الماليك، فإن الصليبيين قد شعروا بما حاق بهم من جراء فقدهم هذا الميناء وغيره من المدن والموانئ الشامية، مما دفعهم إلى التفكير في غزو آياس. ولكن كيف ومتى حدث هذا؟ هنا يشير بعض المؤرخين إلى محاولة جاءت في سنة ٧٦٩هـ / ١٣٦٧م من صليبي قبرس واسبتارية رودس للاستيلاء على الإسكندرية^(٢). ومن الثابت تاريخيا أن هذه المحاولة باءت بالفشل الذريع، فما كان من هؤلاء إلا أنهم وجهوا أنظارهم إلى المدن والموانئ الساحلية الشامية، ما بين شهرى يونيه وسبتمبر من نفس العام بقيادة بطرس لوزجنان، فهاجموا طرابلس، وهناك تكرر فشلهم أيضا كما فشلوا في الإسكندرية من قبل، فاعتقدوا أنه من الأجدى لهم السيطرة على ميناء آياس، فأبحروا من طرابلس ومعهم ما يزيد عن مائة قطعة بحرية حربية مجهزة قتاليا وعليها الخيول وبصحبتهم ملكا قبرس وروودس ومقدم الاسبتارية^(٣). ووصلت هذه القوات إلى ميناء آياس. والسؤال الذى يفرض نفسه الآن هل كانت هناك ثمة نداءات أرمينية ضد التواجد المماليكى في آياس^(٤)، أم أن هذه القوات وصلت إلى آياس كامتداد طبيعى لنشاطهما العسكرى على ساحلى مصر والشام؟

(١) أبو الفدا: المصدر السابق، ج٤، ص١٤٧. وابن الوردي: المصدر السابق، ج٢، ص٣٤٥.

والمقريزى: السلوك، ج٢، ق٣، ص٧٢٦.

(٢) انظر: السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامى، الطبعة الثانية، الإسكندرية، ١٩٦٩، ص٣١٠-٣٤٤.

(٣) ابن حبيب: درة الأسلاك، ج٣، مخطوط ورقة ٤٤٣. وانظر: المقريزى: السلوك، ج٣، ق٣،

ص١٤٩-١٥٠. وابن إياس: المصدر السابق، ج١، ق٣، ص٦٥.

(٤) سعيد عاشور: قبرس والحروب الصليبية، القاهرة، ١٩٥٧م، ص١٤١.

لعل استعراض ما ورد في بعض المصادر المعاصرة يجلي لنا حقيقة هذه الحملة ، حيث يشير النويرى إلى أنه عندما علم الأرمن بوصول الحملة إلى آياس طلبوا المساعدة من المماليك ضد الصليبيين ، وتم الاتفاق بين الأرمن والمماليك بآياس على أن يخرج الأرمن لمقابلة القبارسة لأنهم نصارى مثلهم ، وعندئذ يصنعون الحيل والمكائد ضدهم لحين وصول الإمدادات إلى المماليك . وتنفيذا لهذه الاتفاقية خرج نائب الأرمن في آياس وطلب من القبارسة حقن الدماء " لنستريح من غضب السيد المسيح " ، وعندئذ نزل ملك قبرس إلى آياس واتخذ من الأرمن أدلاء له . ويبدو أن ملك قبرس خشى أن تكون ثمة مؤامرة مدبرة ضده للنيل منه ومن جيشه ، فطلب حضور قائد المماليك إليه ، وحتى لا يخامر ملك قبرس الشك حضر إليه قائد المماليك في ثياب رثة ، ولم يفث الأخير تذكرة ملك قبرس بالعلاقات السابقة بين سلطنة المماليك وقبرس والهدايا المتبادلة بينهما ، وذكر له أنه أولى وأحق بآياس من الأرمن والمماليك . وأردف قائلاً : " وإذا طلبت البلد لا نمنعك عنها " ، وعندئذ سعد ملك قبرس بكلام قائد المماليك وتطلع للسيطرة على آياس وحتى يطمعوه أكثر فيها وتنجح خطتهم ، قدم الأرمن والمماليك الأبقار هدية له ، وتركوا خيوله ترعى في الحشائش الخضراء ، وتلقى وعودا منهم بتسليم آياس إليه ، وقد ترتب على هذا اطمئنان ملك قبرس . وما إن جن الليل حتى هجم المماليك ومن معهم من العربان والتركماني عليه ، ولم يكن آنذاك أمام الجيش القبرسى بما فيه الملك إلا الفرار إلى مراكبهم الرابضة على ميناء آياس^(١) .

هذه رواية من روايات النويرى ، وهناك رواية ثانية ذكرها هو أيضا ، مفادها أنه عند وصول الجيش القبرسى إلى آياس قام قائد الجيش المملوكى بتحصين قلعة آياس ، وطلب من جنوده إخلاء الشاطئ ، على أن يسمح للمراكب القبرسية بالرسو والنزول ، وبعد ذلك قام المماليك بحرقها . ويستطرد النويرى بالقول أن هذه الخطة نفذت بالكامل ، حيث تم حرق نحو خمسين مركبا ، وقتل من الصليبيين ما يقرب من خمسة آلاف قبرسى ، وغرق منهم في البحر عدد كبير ، كما جرح مثلهم ، ومنهم

(١) النويرى : المصدر السابق ، ورقة ٢٧١ ، ٢٧١ ب . وانظر : محمد جمال الدين سرور : دولة بني

من سلم نفسه ، ويقال إن ملك قبرس لجأ إلى سرداب فى أحد الأديرة بآياس ، وعندئذ أبلغ مقدم الدير القائد المملوكى بذلك وطلب منه الحضور بقواته لمساعدته فى القبض على ملك قبرس ؛ لأن الأرض المقام عليها الدير كانت منحة من الممالك . وهنا يضيف النويرى أن الأقوال ترددت فى وضع الملك القبرىسى : هل قتل ؟ أم أسر ؟ أم هرب ؟ أم جرح ؟ وقيل قد قص لحيته حتى لا يتعرف عليه أحد^(١) .

هذه هى الرواية الثانية التى أوردها النويرى ، وهناك رواية ثالثة يذكرها لنا أيضا ، تردد فيها أن المسلمين عندما رأوا الجيش القبرىسى أشعلوا النيران على قمم الجبال فاجتمع الممالك وقاتلوا القبارسة على الساحل ؛ حيث قتلوا منهم نحو خمسمائة وفر الباقون إلى مراكبهم فى البحر ، وأشعل الممالك النار فى قتلى الصليبيين أمام رفاقهم ؛ فى الوقت الذى قتل فيه من الممالك قرابة ثلاثة وسبعين وجرح نحو مائة ، ثم هرب ملك قبرس فى البحر^(٢) .

ويضيف ابن حبيب أن القبارسة دخلوا آياس فلم يجدوا فيها إلا الأرمن بما لأن الممالك تركوها ، فاستولى القبارسة على الأموال والأمتعة^(٣) ، وتذكر بعض المصادر أنهم ملكوا قلعة آياس^(٤) .

وباستعراض الروايات الآنفة الذكر يمكن القول أن القوة القبرىسية التى نزلت على آياس كانت أكثر وأقوى عددا وعدة من القوات الممالكية المرابضة بها ، ومن ثم فإن اجتياحها أصبح سهل المنال وليس غريبا ؛ نظرا لأنها الميناء الحدودى الشمالى الذى يبعد عن قلب عاصمة السلطنة الممالكية آلاف الأميال ، فى الوقت التى لم تستعص عليهم الإسكندرية التى لا تبعد عن قلب السلطنة (القاهرة) ثمانين ميلا ؛ بالإضافة إلى هذا ، إذا عقدنا مقارنة عندئذ بين القوتين الممالكيتين فى كل من الإسكندرية وآياس لأمكن إدراك الأسباب التى ساعدت القوات القبرىسية على اجتياح آياس .

(١) النويرى : المصدر السابق ، ورقة ٢٧٢ أ .

(٢) نفسه ورقة ٢٧٢ ب .

(٣) ابن حبيب : درة الأسلاك ، ج ٣ ، ورقة ٤٤٣ والمقرىزى : المصدر السابق ، ج ٣ ، ق ١ ، ص ١٥٠ .

(٤) ابن آياس : بدائع الزهور ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٥ .

على أية حال ، أصبحت المهمة الملقاة على عاتق المماليك هي طرد القبارسة ومن معهم من آياس ، وهي المهمة التي تولى تنفيذها نائب أقرب نيابة إلى آياس ألا وهو نائب حلب الأمير منكلى بغا الشمسى الذى تحرك بجيشه مع جيش القلاع المجاورة لآياس لمقاتلة القبارسة الذين سرعان ما أحلوا قلعة آياس وفروا إلى البحر ، وتعقبهم المماليك بعدما استولوا على خيولهم ، وأسروا بعض جنودهم ، ثم تمركز الجيش في آياس خشية عودة الجيش القبرسى مرة أخرى^(١) .

على أية حال فإن لسان حال الأحداث السابقة الذكر يقول لنا : إنه على ما يبدو كان يوجد بآياس آنذاك أرمن ومماليك، مما يجعلنا نقرر أنها غدت مناصفة بين الجانبين، وأن الجزء الذى يخضع للسيطرة المماليكية يمثل نقمة عليهم أكثر مما هو نعمة لهم ؛ وذلك لأن الأطماع الصليبية القبرسية في آياس ، والاستغاثة الأرمينية بهم ، ساعدت على زيادة القلاقل في هذه المنطقة ، الأمر الذى ترتب عليه أن قرر المماليك السيطرة الكاملة ليس على آياس فحسب بل على بلاد الأرمن جميعها ؛ وهو ما حدث في شهر شعبان ٧٧٦هـ/ يناير ١٣٧٥م ، وخضعت تماما للسلطنة المماليكية ، وعينت الأخيرة نائبا على أرمينية الصغرى يحمل لقب نائب سيس^(٢) .

غير أنه إذا كانت السلطنة المماليكية قد ارتاحت من الأطماع القبرسية الصليبية في آياس، فإنه سرعان ما ظهرت أطماع ليست خارجية ، ولكن من داخل المناطق المتاخمة

(١) ابن حبيب : درة الأسلاك ، جـ ٣ ، ورقة ٤٤٣ . وانظر : المقرئى : السلوك ، ج ٣ ، ق ١ ، ص ١٥٠ . وابن إياس : المصدر السابق ، جـ ١ ، ق ٢ ص ٦٥ . وسعيد عاشور : قبرس والحروب الصليبية ، ص ٧٨ ، ١٥٧ . هايد (ف) : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٣٢٨ .

(٢) ابن حبيب : درة الأسلاك ، جـ ٣ ، ورقة ٤٧٥ . وانظر : شمس الدين الحلبي : تاريخ الأمير يشبك الظاهرى ، تحقيق : عبد القادر طليمات، القاهرة ١٩٧٣م ، ص ١٣٢ . وابن إياس : المصدر السابق ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ١٣٩-١٤٠ ؛ على إبراهيم حسن : تاريخ المماليك البحرية ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٦٧م ، ص ١٧١-١٧٢ وهايد (ف) : المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٣٢٨ وإيرامارفين لايدوس : مدن الشام في العصر المملوكى، ترجمة : سهيل زكار، الطبعة الأولى، دمشق ، ١٩٨٥م ، ص ٥٥ . وسعيد عاشور: الحركة الصليبية ، جـ ٢ ، ص ١١٦٠ - ١١٦١ .

لأرمينية الصغرى، ومن هذه القوى التركمان . ففي ذى الحجة سنة ٧٨٠هـ / ١٣٧٩م طغى التركمان الأجدية والأعاجرية في مدينة سيبس ، الأمر الذي دفع الأمير تمرياش الدمرداشي نائب حلب إلى التحرك بقواته ومعه بعض قوات من دمشق وحماه لمواجهة هذه الجماعات التركمانية ، وعندما كان قاب قوسين أو أدنى من آياس جاء إليه بعض أمراء التركمان وأهدوه هدية قيمة ، وطلبوا منه الأمان للتركمان على أن يدفعوا له ما هو مقرر عليهم كالعادة، غير أن نائب حلب سرعان ما قبض على هؤلاء الأمراء التركمان الذين قدموا له الهدية، وبذلك يكون قد أخلف وأخل بالعهد معهم مما أثار حفيظة بقية التركمان ضده . وانتهزوا فرصة دخوله بمن معه إلى آياس ليعيث فيها فسادا وهجموا عليه وعلى جيشه عند خروجه منها في مكان ضيق يقال إن اسمه " باب الملك " وقتلوا منهم عددا كبيرا ، واستولوا على كثير من أمتعة وخيول وجمال وأسلحة وخيام وقماش الجيش المملوكي^(١) .

ولعل الإشارة السابقة إلى دخول نائب حلب بقواته إلى آياس ، هو خير دليل على أنه حتى هذه اللحظة كانت هناك قوات صليبية فضلا عن التواجد الأرميني بها . وهنا يمكننا التأكيد على ما سبق طرحه من أنه بالرغم من السيطرة المماليكية على سيبس فإن تلك السيطرة على آياس كانت حتى ذلك الوقت سيطرة جزئية ، وإلا فما الذي دفع نائب حلب إلى دخولها بقواته؟^(٢) .

لقد سبق القول أن آخر المحجمات الصليبية على آياس كانت حملة بطرس لوزجنان القيرسى، وعلى الرغم من عدم تمكنه منها إلا أن فكرة السيطرة على آياس راودت الصليبيين مرة ثانية ، كما راودت التركمان وغيرهم، وقد ظهرت السفن الصليبية في عرض البحر المتوسط خلال شهر شعبان ٧٨٥هـ / ١٣٨٣م في طريقها إلى آياس ، وعندئذ تحرك يلبغا الناصري نائب حلب بقواته لمواجهتها ، ونزل في منطقة " العمق " قرب البحر لكن السفن الصليبية رست ونزلت في بيروت ، فصدتها القوات الشامية ،

(١) المقرئى : المصدر السابق ، جـ ٣ ، ق ٢ ، ص ٣٤٧ - ٣٤٨ . وانظر ابن إياس : بدائع الزهور،

ج ١ ، ق ٢ ، ص ٢٣٧ - ٢٣٨ .

(٢) حول هذا الرأى انظر محمد جمال الدين سرور : دولة بنى قلاوون في مصر ص ٢٥٧ .

وقتل من الصليبيين ما لا يقل عن خمسمائة وفر الباقون إلى السفن في البحر^(١) مما أجهض تلك المحاولة الصليبية التي كانت تستهدف آياس .

وما إن تخلصت القوات المماليكية من الهجوم الصليبي على آياس حتى جدد التركمان هجماتهم عليها مرة ثانية في أواخر عام ٧٨٥هـ/١٣٨٤م ، ودخل يليغا الناصري نائب حلب في حرب معهم عند "باب الملك" أيضا ، واضطر الأخير إلى دخول آياس ، الأمر الذي ساعد التركمان على الإحاطة به إحاطة السوار بالمعصم ، وسدوا عليه منافذ المتونة بتحكمهم في "باب الملك" ، ووقعت القوات المماليكية في ضائقة اقتصادية شديدة^(٢) أنقذهم منها الأمير سودون المظفرى حاجب حجاب حلب فضلا عن أمراء وشباب من حلب ، إذ تمكنوا من كسر الحصار التركمانى على الجيش المماليكى عند "باب الملك" فخرج من آياس وعاد إلى حلب بعد إلحاق عدة إصابات به^(٣) .

ومن الواضح إذن من خلال العرض السابق أن آياس كانت دائما وأبدا مطمعا للقوى المعاصرة ، الأمر الذى أدى إلى صراع شبه دولى حولها ، من الأرمن والصليبيين والمماليك والتركمان ، ولعل هذا الصراع هو الذى كثف الهجمات المماليكية عليها ، رغبة في السيطرة عليها سيطرة كاملة ، وصمدت القوات المماليكية أمام كل القوى الآتفة الذكر إلى أن انتهى المطاف باستقرار الأوضاع بآياس فى النهاية لصالح المماليك.

وقد أخذت آياس تلعب دورا مهما فيما يحدث على الحدود الشمالية لسلطنة المماليك من مؤامرات وثورات كان من شأنها أن تقلق عاصمة السلطنة بالقاهرة ، ونذكر بعضا منها على سبيل المثال لا الحصر ، حتى تتأكد صحة هذه الفكرة من

(١) الصيرفى : نزهة النفوس والأبدان فى تواريخ الزمان ، تحقيق : حسن حبشى، ج١، القاهرة ١٩٧٠م ، ص ٧٦ .

(٢) المقرزى : المصدر السابق ، ج٣ ، ق٢ ، ص ٤٩٩ .

(٣) المقرزى : المصدر السابق ، ج٣ ، ق٢ ، ص ٥٠٥-٥٠٨ . وابن إياس : بدائع الزهور ، ج١ ، ق٢ ، ص ٣٣٩-٣٤٠ .

عدمها، فعندما حدثت ثورة الشام ضد السلطنة المالكية في أوائل القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، تزعمها الأمير حكيم أمير طرابلس والأمير علان نائب حماه، حاول نائب حلب الصمود في وجه الثائرين دون جدوى، فاجتاح الثائران حلب، ولم يكن أمام نائب حلب غير الفرار هو ومن معه من الأمراء إلى آياس في ١٣ شعبان ٨٠٧هـ/١٤٠٥م، واستقبله نائبهما استقبالا حافلا، وأمدته بالمراكب التي أقلته إلى سواحل مصر خوفا من وقوعه في يد الثائرين^(١).

كما أن هناك إشارات في بعض المصادر تشير إلى أن الذي أوعز إلى السلطان برسباي المملوكي (٨٢٥-٨٤١هـ/١٤٢٢-١٤٣٨م) بغزو قبرس رجل من رجال البحر يسمى الرئيس فاضل: "من أهل مدينة آياس قدم إلى السلطان في السنة الخالية (٨٢٧هـ/١٤٢٤م) وحسن له غزو الفرنج، ووعده بغنيمة أموال عظيمة، حتى كان من غزوة اللمسون [ميناء ليماسول في قبرس] فأخذ في التعبئة لغزوهم"^(٢).

لكن الوضع لم يستمر على هذا الحال، إذ مع أواخر القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، بدأت تضعف دولة المماليك، وتظهر قوى جديدة على الساحة السياسية، وبدأت هذه القوى تتطلع إلى آياس، حتى استولى عليها شاه سوار في المحرم سنة ٨٧٥هـ/يوليو ١٤٧٠م^(٣). ويبدو أنه لم يمكث فيها طويلا، وليس أدل على ذلك من أنه أثناء عودة الأمير خليل من رحلته من تبريز إلى الشام ومصر عرج على آياس في ٢٢ ربيع الآخر سنة ٨٧٦هـ/أكتوبر ١٤٧١م، ووزع فيها على الجند عليق شهر جمادى الأولى لنفس العام^(٤).

(١) المقرئزي: السلوك، ج٣، ق٣، تحقيق: سعيد عاشور، القاهرة، ١٩٧١، ص١١٤٦. وانظر:

ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٧٠٦.

(٢) المقرئزي: السلوك، ج٤، ق٢، تحقيق: سعيد عاشور، القاهرة، ١٩٧٢، ص٦٨٩. وعن

حملات السلطان برسباي على قبرس: انظر: سعيد عاشور: قبرس والحروب الصليبية. وسعيد عاشور: العصر المملوكي، ص١٦٩ وما بعدها.

(٣) ابن إياس: المصدر السابق، ج٣، ص٥١.

(٤) شمس الدين الحلبي: المصدر السابق، ص١٢٤.

لكن الذى لا شك فيه أن القوات المماليكية فى تلك الآونة لم تعد قادرة على السيطرة تماماً على هذا المرفأ الحيوى المهم ، الأمر الذى يفسر لنا السيطرة العثمانية عليها فى جمادى الآخرة لسنة ٨٩٣هـ / ١٤٨٨م دون قتال ولا ممانعة من المماليك ، وكل الذى حدث فى السلطنة المماليكية أن السلطان الأشرف قايتباى (٨٧٢-٩٠١هـ / ١٤٦٨-١٤٩٦م) قد " انزعج " ^(١) لهذا الأمر، كما شوهدت فى جمادى الآخرة سنة ٩١٦هـ / أكتوبر ١٥١٠م سفن بما طوائف صليبية بالقرب من آياس تقطع الطريق فى البحر على السفن المماليكية المشحونة بالسلاح وآلات الحرب وتستولى عليها ^(٢) ، وعندئذ أمر السلطان قانصوه الغورى (٩٠٦-٩٢٢هـ / ١٥٠١-١٥١٦م) بالقبض على رهبان كنيسة القيامة بالقدس ، وطلب منهم مكاتبة ملوكهم لرد الغنائم، وهدد بدم الكنيسة وشنق رهبانها ، وأصدر أوامره بإغلاقها ومنع زيارتها، وعلاوة على هذا فقد أمر بالقبض على التجار الأوروبين بالإسكندرية ودمياط وغيرها من مدن الساحل وسجنهم ومصادرة أموالهم المودعة بكنيسة القيامة ^(٣) .

وبعد هذا العرض التاريخى عن ميناء آياس والصراع الدولى حوله ، نجد أمامنا عدة تساؤلات تطرح نفسها على بساط البحث ، منها : هل خضع ميناء آياس - بعد السيطرة المماليكية عليه للنظام الإدارى الذى وضعه سلاطين المماليك للسلطنة؟ لعل تتبع الإشارات التى وردت فى المصادر المعاصرة وتحليلها ، يساعدنا على إيجاد إجابة عن هذا الاستفسار .

تذكر بعض المصادر أنه إبان سلطنة الناصر محمد بن قلاوون الثالثة ، جردت حملة عسكرية ضد آياس للسيطرة عليها فى سنة ٧٣٧هـ / ١٣٣٧م ، وهدمت برجها البحرى ، ويذكر ابن حبيب : " وأقاموا بها نوابا للسلطان " ^(٤) ، وكان على ما يبدو أول أمير لها هو مغلطاي الذى كان من مقدمى الألوفا بجلب وشارك فى فتوحات

(١) ابن إياس : المصدر السابق ، ج٣ ، ص ٢٥١ .

(٢) نفسه ، ج٤ ، ص ١٩١-١٩٢ .

(٣) محمود رزق سليم : قانصوه الغورى ، ص ١٢٠-١٢١ .

(٤) ابن حبيب : تذكرة النبى ، ج٢ ، ص ٢٧٩ .

آياس^(١) ، وتوفى سنة ٧٤١هـ/١٣٤٠-١٣٤١م^(٢) ، وعين مكانه الأمير بيبرس السلحدار الناصرى الذى توفى بما سنة ٧٤٢هـ/١٣٤١-١٣٤٢م^(٣) ، كما وليها أيضا الأمير شهاب الدين أحمد بن الأمير علاء الدين مغلطاي الشمسى الذى توفى فى ربيع الآخر سنة ٧٦٤هـ-١٣٦٣م^(٤) ، كذلك ورد اسم الأمير خليل بن بلال الذى وليها فى العاشر من محرم ٨١٦هـ /أبريل ١٤١٣ ، ثم عين مكانه فى الاثنى ٢٣ ربيع أول ٨٢٠هـ /١٤١٧م الأمير سيف الدين صاروجا مهمندار حلب، ثم فى سنة ٨٢٣ هـ/١٤٢٠م ونقرأ عن وجود الأمير درمش نائبا لها^(٥)، وفى ٢٨ محرم ٨٧٧هـ/يوليو ١٤٧٢م الأمير يلبغا^(٦) .

وباستعراض هؤلاء النواب الذين تناوبوا على نيابة آياس يمكن القول أنه على الرغم من أن سلاطين الممالك كانوا يعينون بأنفسهم نائب آياس ، إلا أن الأخير كان يتبع نائب حلب، ويشير إلى هذا ابن شاهين الظاهرى فى أواخر القرن التاسع الهجرى /الخامس عشر الميلادى إذ يقول: "وهى من معاملة حلب"^(٧) ، ويضيف القلقشندى أنه يكتب لنائب آياس عن النائب الكافل والأتابك^(٨) ، ويكتب له فى قطع النصف بقلم خفيف الثلث وبصيغة " المجلس العالى السامى بالياء أو بغير الياء"^(٩) .

هذا فيما يتصل ببعض النواب الذين عينوا فى نيابة آياس . أما عن الأجناس التى كانت تعيش فيها ، فهناك أقوال لبعض المعاصرين مفادها أنها مدينة لسائر التجار

(١) الشجاعى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ق ١ ، ص ١٢٣ .

(٢) أبو الفدا:المصدر السابق، ج ٤ ، ص ١٣٥ . والمقرزى : السلوك ، ج ٢ ، ق ٣ ، ص ٥٥٣ .

(٣) الشجاعى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ق ١ ، ص ٢٢١ . والمقرزى : السلوك ، ج ٢ ، ق ٣ ، ص ٦١٦ .

(٤) وابن حبيب : تذكرة النبيه ، ج ٣ ، ص ٢٦٠ .

(٥) المقرزى : المصدر السابق ، ج ٤ ، ق ١ ، ص ٤٠١ ، ٤٠٢ ، ٤٠٨ ، ٥١٧ .

(٦) شمس الدين الحلى : المصدر السابق ، ص ١٥١ .

(٧) زيدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، تحقيق: خليل المنصور، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٩٧م،

(٨) القلقشندى : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٢١ .

(٩) نفسه ، ج ١١ ، ص ١٠٨ .

المسلمين والصليبيين ، وهى " بلد فسق ظاهر ، تمتك فيها الأعراض ، وتشرب فيها الخمر ، وبها أربعمائة بيت خمارة ، وستمائة خاطية من سائر الجنوس ، وما دخلها أحد إلا خرج منها مسلوب المال والدين " (١) .

ومن ثم كان الأرمن من بين الأجناس التى فرضتها طبيعة المكان على آياس ، وتوافد عليها شوام من عكا وصور و إنطاكية ، حيث حملوا معهم القطن إليها ، وكذلك وجد المغول ، وتجار من بغداد ، وكان أحدهم يدعى يوسف ، وقد امتلك بما متجرا مستديما (٢) ، علاوة على هذا فإنه وجد فيها كثيرا من البنادق ، وخصصت لهم فيها كنيسة بما قسيس ، وملحق به مقبرة . ويبدو أن عددهم كان يفوق عدد غيرهم من الأجناس ، ربما لأن سفنهم كانت تأتى بصفة دورية سنوية إلى آياس ، الأمر الذى أدى إلى ارتباط عقد الصفقات التجارية بوصول البنادق . ونظرا لكثرة عددهم فقد حدثت منهم اعتداءات وسلب ونهب على التجار فى آياس ، وعلاوة على التواجد البندقى ، وجد الجنويون الذين كان لهم قنصل دائم فى آياس يساعده مجلس من أهل الخبرة ، ومعه موظف ينفذ الأحكام، ويقوم بشئون البيع والشراء ، خصوصا فيما كان يتصل بالتراع الذى ينشأ بين الجنوبيين والبنادق ، ويضاف إلى الجنوبيين والبنادق البيزيين ، الذين كان لهم قنصلية بما . زد على كل هذه الأجناس ، الفرنسيين والقطلان الذين كان لهم حى وسوق خاص بهم (٣) ، كما وجدت أيضا بآياس مخيمات للتركمان (٤) .

(١) الشجاعى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ق ١ ، ص ١١ .

(٢) هايد (ف) : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٣١٦ .

(٣) هايد (ف) : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٣١٦ - ٣٢٤ .

(4) Vryonis (Spero) : The Decline of Medieval Hellenism in Asia Minor and the process of Islamization from the eleventh through the fifteenth century , Landon , 1971 , p. 275.

أما عن ديانة هذه الجنسيات التى تعيش فى آياس ، فكانت بطبيعة الحال المسمىحة والإسلامية ، وإن قل عدد المسمىحين بما منذ بداية التطلعات المملوكية إليها إلى أن تمت السيطرة عليها تماما^(١) .

وإخلاصة القول : أن ميناء آياس كان يشكل خطورة على دولة سلاطين الممالىك منذ نشأتها فى منتصف القرن السابع الهجرى /الثالث عشر الميلادى ، الأمر الذى دفعهم إلى السيطرة عليها فى محاولة منهم لقطع الطريق على أية تطلعات عسكرية من المغول أو الصليبيين ، سواء من غرب أوربا ومن جزر البحر المتوسط أو من الأرمن ؛ وهذه القضية شغلت بال الممالىك أكثر من قرن من الزمان . ويمكن القول أنه رغم التطلعات والهجمات من القوى الدولية المعاصرة آنذاك على آياس فإن الدور القيادى فى هذا المضمار كان للممالىك ، ليس بحجماتهم المتوالية فحسب بل بتمكّنهم من فرض نائب مملوكى عليها .

ومما يجب التركيز عليه هنا أيضا أنه رغم هذا الصراع على آياس فإن التجارة بين الصليبيين والأرمن كانت قائمة على قدم وساق وبخاصة بين قبرس وآياس^(٢) . ولعل لهذا دلالة يعضدها ما سبق ذكره من أن هذا الميناء كان بمثابة الشريان التجارى لكثير من شعوب المنطقة وغيرها من مناطق الشرق والغرب على حد سواء .

وجملة القول : أن آياس هذا الميناء الذى كان يحمل اسم خليج يقع أقصى شمال الحدود الممالىكية الساحلية الشامية، هو الآن قرية زراعية تبعد عن أنقرة حوالى ثلاثين ميلا إلى الغرب^(٣) ، يخيم عليها البؤس وتملأها الأطلال الكثيرة^(٤) ، وهناك كثير من القصص والروايات التى تحكى أن أشجار الزيتون التى مازالت موجودة إلى الآن ، كان قد زرعها الجنويون ، وغير ذلك من القصص التى لاتتصل كثيرا بالواقع فى شىء لا من قريب أو من بعيد^(٥) .

* * *

(١) Setton (K. M) . Op. Cit., V.4, p.179 .

(٢) Riley- Smith (J) : Op. Cit. , p. 316.

(٣) The New Encyclopaedia Britannica , V. 1 , Chicago , 1973- 1974, p.691.

(٤) The Encyclopaedia of Islam , V. 1 , Leyden , 1913, p. 529.

(٥) هايد (ف) : المرجع السابق ، جـ٢ ، ص ٣٢٨-٣٢٩ .

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر العربية :

- ١- أحمد بن على الحريرى : (عاش في القرن ١٠هـ / ١٦م)
- الإعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاعين على بلاد المسلمين ، تحقيق : سهيل زكار ، دمشق ، ١٩٨١م.
- ٢- الإدريسي : (أبو عبد الله محمد ، ت ٥٦٠هـ / ١١٦٤م)
- نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، ليدن ، ١٨٦٦م .
- ٣- الاضطخري : (أبو إسحق إبراهيم بن محمد الفاسى المعروف بالكرخي ، ت ٣٠٩هـ / ٩٥١م)
- المسالك والممالك ، تحقيق : محمد جابر عبد العال الحيني ، مراجعة محمد شفيق غربال ، القاهرة ، ١٩٦١م.
- ٤- ابن إياس : (محمد بن أحمد بن إياس الحنفى ، ت ٩٣٠هـ / ١٥٢٤م)
- بدائع الزهور في وقائع الدهور ، تحقيق : محمد مصطفى ، القاهرة ، ٨٢-١٩٨٤م.
- ٥- ابن أبيك الدوادارى : (أبو بكر عبد الله ، ت ٧٣٣هـ / ١٣٢١م)
- الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر ، ج ٩ ، تحقيق : هانس روبرت روبر ، المعهد الفرنسى ، القاهرة ، ١٩٦٠.
- ٦- بيبرس المنصورى : (ركن الدين بيبرس بن عبد الله المنصورى الدوادارى ، ت ٧٢٥هـ / ١٣٢٥م)
- المتحفة الملوكية في الدولة التركية (٦٤٨-٧١١هـ) ، تحقيق : عبد الحميد صالح حمدان ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٩٨٧م.
- زبدة الفكرة في تاريخ المحجرة ، ج ٩ ، تحقيق : زبيدة عطا ، جدة (د.ت).
- ٧- ابن حبيب : (الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر بن حبيب ، ت ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م)
- تذكرة النبي في أيام المنصور وبنه ، ج ٢ ، ج ٣ ، تحقيق : محمد محمد أمين ، مراجعة سعيد عاشور ، القاهرة ، ٨٢-١٩٨٦م.
- ٨- ابن حوقل : (أبو القاسم بن حوقل النصيبى ، ق ٤هـ / ١٠م) .
- كتاب صورة الأرض ، ليدن ، ١٩٦٧م .

- ٩- ابن خرداذبة: (أبو القاسم عبد الله بن عبد الله بن خرداذبة، ت ٣٠٠هـ/٩١٢م).
- المسالك والممالك، ليدن، ١٨٨٩م.
- ١٠- ابن دقمان: (صارم الدين إبراهيم بن محمد بن أيذر العلاق، ت ٨٠٩هـ/١٤٠٦م).
- الجواهر الثمين في سير الملوك والسلاطين، ج١، تحقيق: محمد كمال عزالدين، القاهرة ١٩٨٥م.
- ١١- زترستين: Zetersteen.
- تاريخ الممالك مخطوط مجهول المؤلف تحقيق: زترستين، ليدن ١٩١٩م.
- ١٢- شافع بن علي: (ناصر الدين شافع بن علي عباس بن عساكر الكتاني المصري، ت ٧٣٠هـ/١٣٣٠م).
- حسن المناقب السرية، المنتزعة من السيرة الظاهرية، تحقيق عبد العزيز الخويطر، الرياض، ١٩٨٩م.
- ١٣- ابن شاکر الکتبی: (محمد بن شاکر، ت ٧٦٤هـ/١٣٦٣م).
- عيون التواريخ، ج٢١، تحقيق: فيصل السامر ونبيلة عبد المنعم، بغداد، ١٩٨٤م.
- ١٤- ابن شاهين الظاهري: (غرس الدين خليل، ت ٨٧٣هـ/١٤٦٨م).
- زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، تحقيق: خليل المنصور، بيروت، ١٩٩٧م.
- ١٥- الشجاعی: (شمس الدين، منتصف القرن ٨هـ / الرابع عشر الميلادي).
- تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحی وأولاده، ج ٢، ق ١، تحقيق: بربارة شيفر، فسادن، ١٩٧٨م.
- ١٦- ابن شداد: (عز الدين محمد بن علي بن إبراهيم، ت ٦٨٤هـ/١٢٨٥م).
- الأعلام الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، ج ١، ق ٢، تحقيق: يحيى زكريا عبارة، دمشق، ١٩٩١م.
- تاريخ الملك الظاهر، بيروت، ١٩٨٣م.
- ١٧- شمس الدين الحلبي: (محمد بن محمود بن خليل الحلبي المعروف بابن أجا، ت ٨٨١هـ/١٤٧٧م).
- تاريخ الأمير يشبك الظاهري، تحقيق: عبد القادر أحمد طليمات، القاهرة، ١٩٧٣م.
- ١٨- شيخ الربوة: (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي طالب الأنصاري الدمشقي، ت ٧٢٧هـ/١٣٢٧م).
- نخبة الدهر في عجائب البر والبحر.
- ١٩- الصيرفي: (الخطيب علي بن داود، ت ٨٧٩هـ/١٤٧٥م).
- نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، تحقيق: حسن حبشي، القاهرة، ١٩٧٠م.
- ٢٠- ابن عبد الحق: (صفى الدين بن عبد المؤمن، ت ٧٣٩هـ/١٣٣٨م).
- مرآة الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، ليدن، ١٨٥٢م.

- ٢١- ابن العبري : (أبو الفرج جمال الدين) ت ١٢٨٦م / ٦٨٥هـ .
 - تاريخ الزمان ، ترجمة : إسحق أرملة ، بيروت ، ١٩٨٦م .
- ٢٢- العيني : (بدر الدين، ت ٨٥٥هـ / ١٤٥١م) .
 - السيف المهند في سيرة الملك المؤيد شيخ الحمودي ، تحقيق : فهم شلتوت ، القاهرة ، ١٩٦٧م .
- ٢٣- أبو القدا : (عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر، ت ٧٣٢هـ / ١٣٣١م) .
 - تقويم البلدان ، حققه : رينو والبارون ماكل كوكين ديسلان .
 - المختصر في أخبار البشر ، ج ٤ ، الطبعة الأولى ، القاهرة، (د.ت) .
- ٢٤- ابن الفرات : (ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم، ت ٨٠٧هـ / ١٤٠٥م) .
 - تاريخ ابن الفرات، المجلد السابع (٦٧٢-٦٨٢هـ) ، تحقيق : قسطنطين رزيق، بيروت، ١٩٤٢م .
- ٢٥- القلقشندي : (الشيخ أبو العباس أحمد، ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م) .
 - صبح الأعشى في صناعة الإنشا .
- ٢٦- ابن كثير : (أبو القدا الحافظ ابن كثير الدمشقي، ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٣م) .
 - البداية والنهاية ، بيروت ، ١٩٨٣م .
- ٢٧- ماركو بولو : (ابن نيقو بولو، ت ١٣٢٤م / ٧٢٤هـ) .
 - رحلات ماركو بولو، ترجمه إلى الإنجليزية : وليم مارسدن، ونقله إلى العربية : عبد العزيز جاويد ، القاهرة ، ١٩٩٥م .
- ٢٨- أبو المحاسن : (يوسف بن تغرى بردى الأتابكي جمال الدين، ت ٨٧٤هـ / ١٤٧٠م) .
 - المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي ، ج ١ ، ج ٢ ، تحقيق محمد أمين، ومراجعة سعيد عاشور ، القاهرة ، ١٩٨٤م ، ج ٣ ، تحقيق : نبيل محمد عبد العزيز ، القاهرة ١٩٨٥م .
- ٢٩- مفضل بن أبي الفضائل : (ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م) .
 - النهج السديد والدر الفريد في تاريخ ما بعد ابن العميد ، نشره بلوشية Blochet في :
 Patrologia Orientalis . V. 14 , Paris , 1920 .
- ٣٠- المقرئزي : (تقى الدين أحمد بن علي، ت ٨٤٥هـ / ١٤٤٣م) .
 - السلوك لثعرة دول الملوك ، تحقيق : محمد مصطفى زيادة وسعيد عاشور ، ١٩٥٧-١٩٧٢م .
- ٣١- النويري : (محمد بن قاسم بن محمد بن السكندري ، ت ٧٧٥هـ / ١٣٧٣م) .
 - الإلام فيما جرت به الأحكام المقضية في وقعة الإسكندرية، مخطوط في معهد المخطوطات العربية .
- ٣٢- ابن الوردي : (زيد الدين عمر، ت ٧٥٠هـ / ١٣٥٠م) .
 - تمة المختصر في أخبار البشر ، مصر ، ١٨٦٩م .
- ٣٣- ياقوت الحموي : (شهاب الدين أبو عبد الله، ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م) .
 - معجم البلدان ، مصر ، ١٩٠٦م .

ثانيا : المراجع الأجنبية :

- 1- Ciggaar (Krijnie), Davids (Adelbert) and Teule (Herman):
East and West in the crusader states . Context - Contacts-
Confromtations , Uilgeveru peeters leuven 1996 .
- 2- Demombynes (Gaufrey):
La Syrie , AL'Epoque Des Mamelouks tome . III , Paris , 1923.
- 3- Leopold (Antony) :
The Crusade proposals of the late thirteenth and early fourteenth
centuries, Ashgate 2000.
- 4- Ramsay (William –Michell):
The Historical Geography of Asia Minor, Amsterdam , 1962.
- 5- Riley - Smith (Janathan) :
The Oxford illustrated History of the crusades , New York ,
Oxford , 1995 .
- 6- Sauvaget (J) :
Alep, Paris , 1941.
- 7-Setton (Kenneth .M) :
A History of the crusades , V. 2 , Philadelphia , 1966, V. 3-5 ,
University of Wiscansin press , (1975-1985) .
- 8- The Encyclopaedia of Islam , V.I, leden , 1913.
- 9-The Encyclopaedia of Britannia , V. I Chicago , 1973- 1974.
- 10-Toumenoff (C) :
Armenia and Georgia , Chapter, 24, in camb- med . Hist, V. 4,
Camb, 1964 .
- 11-Vryonis (Spero) :
The Decline of Mechieval Hellenism in Asia Minor and the
process of Islamization from the Eleventh through the fifteenth century
, Landon , 1971.

ثالثا : المراجع العربية والمصرية :

١- أحمد مختار العبادى :

- قيام دولة الممالىك الأولى فى مصر والشام ، الإسكندرية ، ١٩٨٢م .

٢- ايرامرفين لايدوس :

- مدن الشام فى العصر المملوكى ، ترجمة : سهيل زكار ، الطبعة الأولى ، دمشق ، ١٩٨٥م .

٣- دائرة المعارف الإسلامية :

- ج٣ ، ترجمة : عباس محمود وعبد الحميد يونس وأحمد الشنتاوى وإبراهيم حورشيد ، القاهرة ،

١٩٣٣م .

٤- ستيفن رنسيماى :

- تاريخ الحروب الصليبية ، ج٣ ، ترجمة: السيد الباز العربى، بيروت ، ١٩٦٨م .

٥- سعيد عاشور :

- الأيوبيون والممالىك فى مصر والشام ، القاهرة ، ١٩٩٠م .

- الحركة الصليبية ، جزآن ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ، ١٩٧٦م .

- العصر الممالىكى فى مصر والشام، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩٧٦م .

- قبرس والحروب الصليبية ، القاهرة ١٩٥٧م .

- الممالىك ومملكة أرمينية الصغرى ، مقال بالجمعية التاريخية الموسم الثقافى ، ٦٧-١٩٦٨ .

٦- السيد الباز العربى :

- المغول ، بيروت ، ١٩٨١م .

٧- السيد عبد العزيز سالم :

- تاريخ الإسكندرية وحضارتها فى العصر الإسلامى ، الطبعة الثانية ، الإسكندرية ، ١٩٦٩م .

٨- صبحى لبيب :

- سياسة مصر التجارية فى عصر سلاطين الممالىك ، مقال فى مجلة الجمعية المصرية للدراسات

التاريخية ، المجلدان ٢٨ ، ٢٩ لسنة ١٩٨٢-٨١م .

٩- عادل إسماعيل هلال :

- العلاقات بين المغول وأوروبا وأثرها على العالم الإسلامى ، القاهرة ١٩٩٧م .

١٠- عبد الحفيظ محمد على :

- المسلمون والبيزنطيون فى شرقى البحر المتوسط فيما بين القرنين ٣-٦ هـ / ٩-١٢م ، الطبعة

الأولى ، القاهرة ، ١٩٨٢م .

١١- عبد السلام عبد العزيز فهمى :

- تاريخ الدولة المغولية فى إيران ، القاهرة ، ١٩٨١م .

- ١٢- عفاف سيد صبرة :
- العلاقات بين الشرق والغرب (علاقة البندقية بمصر والشام) ، (١١٠٠-١٤٠٠م) ، القاهرة ،
١٩٨٣ م .
- ١٣- على إبراهيم حسن :
- تاريخ الممالك البحرية ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ، ١٩٦٧ م .
- ١٤- فتحي عثمان :
- الحدود الإسلامية البيزنطية ، القاهرة ، ١٩٦٦ م .
- ١٥- كى لستريج :
- بلدان الخلافة الشرقية ، ترجمة : بشير فرنسيس وكوركيس عواد ، بيروت ، الطبعة الثانية ،
١٩٨٥ م .
- ١٦- ليلى عبد الجواد إسماعيل :
- علاقة الدولة البيزنطية بسلطنة الممالك البحرية (٦٥٩-٧٨٤هـ/١٢٦١-١٣٨٢م) ، مقال بمجلة
كلية الآداب - جامعة القاهرة ، العدد، ٤٦-٤٧ ، لسنة ١٩٨٦ م ، القاهرة ، ١٩٨٨ م .
- ١٧- محمد جمال الدين سرور :
- دولة بني قلاوون في مصر ، القاهرة (د.ت).
- ١٨- محمود رزق سليم :
- قانصوه الغورى (د.ت).
- ١٩- منى إبراهيم عبد الرحمن :
- السفارات الأجنبية في مصر على عصر سلاطين الممالك ، رسالة ماجستير ، آداب القاهرة ،
١٩٧٥ م .
- ٢٠- هايد (ف) :
- تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى ، ترجمة : أحمد محمد رضا ، ج٢ ، القاهرة ،
١٩٩١ م .
- ٢١- يوشع براور :
- عالم الصليبيين ، ترجمة : قاسم عبده قاسم ومحمد خليفة حيسن ، الطبعة الأولى ، القاهرة ،
١٩٩٩ م .

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

الجمعية المصرية للدراسات التاريخية
 سیمنار التاریخ الإسلامی والوسیط
 الأربعاء الأول من كل شهر
 من الخامسة مساء
 بمقر الجمعية، بمدينة نصر.

أولاً : شهر ديسمبر ٢٠٠٣ الأربعاء ٢٠٠٣/١٢/٣ يدير الجلسة : أ. د. نجوى كيرة

- ١ - أ. د. منى بدر : العقوبات من خلال صور المخطوطات الإسلامية .
- ٢ - أ. د. على السيد على : أهمية وثائق الحرم القدسي في دراسة التاريخ الاقتصادي للقدس عصر سلاطين المماليك .
- ٣ - أ. د. حسن خضير : المراكز التجارية في الصحراء المغربية وأثرها في قيام الكيانات السياسية في القرنين ٤ ، ٥ الهجريين .

ثانياً : شهر يناير ٢٠٠٤ الأربعاء ٢٠٠٤/١/٧ يدير الجلسة : أ. د. أيمن فؤاد سيد

- ١ - أ. د. عفاف صيرة : الجزيرة الفراتية والقوى المجاورة قبل الإسلام وحتى نهاية العصر الأموي .
- ٢ - أ. د. سعيد مغاوري/المرأة في العصر الإسلامي في ضوء البرديات العربية .

ثالثاً : شهر فبراير ٢٠٠٤ الأربعاء ٢٠٠٤/٢/٤ يدير الجلسة : أ. د. عبادة كحيلية

- ١ - أ. د. أيمن فؤاد سيد : موضوع سيعلن عنه في حينه .
- ٢ - أ. د. صبرى سليم : حضارة مدينة سمرقند عاصمة السامانيين الأولى ٢٠٤ هـ - ٢٧٩ هـ .

رابعاً : شهر مارس ٢٠٠٤ الأربعاء ٢٠٠٤/٣/٣ يدير الجلسة : أ. د. محمد النشار

- ١ - أ. د. محمد مؤنس عوض : نقد اتجاهات بعض الباحثين الغربيين في دراسة تاريخ الحروب الصليبية .
- ٢ - د. أحمد عبد اللطيف : الوليد بن عقبة بن أبي معيط والى الكوفة المفترى عليه .

خامسا : شهر إبريل ٢٠٠٤ الأربعاء ٧/٤/٢٠٠٤ يدير الجلسة : أ.د. عفاف صبرة

١ - أ.د. محمد النشار : قضية الحروب الصليبية في الأندلس .

٢ - د. عمى رضوان : البحرية الإسلامية في الأندلس في النصف الأول من القرن الرابع الهجرى .

٣ - د. عبد العزيز رمضان : البيزنطيون بين اليونانية والرومانية .

سادسا : شهر مايو ٢٠٠٤ الأربعاء ٥/٥/٢٠٠٤ يدير الجلسة : أ.د. على السيد على

١ - أ.د. نجوى كيرة : موقف الإسلام من الرق .

٢ - أ.د. عبد الحميد حمودة : موضوع سيعلن عنه في حينه .

الجمعية المصرية للدراسات التاريخية

قطعة ٤ بلوك ٧ المنطقة التاسعة مدينة نصر - خلف مدارس المنهل

سمنار تاريخ مصر المعاصر

برنامج الموسم الثقافى لعام ٢٠٠٣ - ٢٠٠٤

تعقد الجلسات فى مقر الجمعية فى تمام الساعة السادسة

اليوم	المتحدثون	الموضوع	يدير الجلسة
الأربعاء ٢٠٠٣/١٢/١٧	المستشار طارق البشرى د. أحمد زكريا الشلق	البنية التحتية للديمقراطية فى التاريخ المصرى الدستوريون والانتقال على الدستور	د. رءوف عباس
الأربعاء ٢٠٠٤/١/٢١	د. رءوف عباس د. إيمان يحيى	دستور ١٩٢٣ ، نظرة نقدية ثمانون عاما من الحياة الدستورية والنيابية (ملاحظات عامة وأولية)	د. عاصم الدسوقى
الأربعاء ٢٠٠٤/٢/١٨	د. أحمد الشربينى د. إسماعيل زين الدين	المعارك الانتخابية فى مصر ١٩٢٤- ١٩٥٢ نماذج للمعارضة النيابية فى مصر ١٩٣٦ ١٩٥٢-	د. على بركات
الأربعاء ٢٠٠٤/٣/١٧	أ. صلاح عيسى د. سعيدة حسنى	دستور ١٩٥٤ الاختيار الليبرالى الذى رفضته ثورة يوليو عبد العزيز فهمى ودستور ١٩٢٣	د. عادل غنيم
الأربعاء ٢٠٠٤/٤/٢١	د. على شلبي د. عبد الواحد النبوى	ثورة ١٩٣٥ ودستور ١٩٢٣ فلسطين فى البرلمان المصرى	د. عبد النعم الجمعى
الأربعاء ٢٠٠٤/٥/٢٠	د. سيد دياب أ. نبيل عبد المولى	نواب الغربية فى برلمان الحديو إسماعيل مديرية الفيوم ودورها فى الحياة النيابية	د. أحمد الشربينى

رئيس الجمعية
د. رءوف عباس

- المشرف على السمنار : د. أحمد زكريا الشلق
- مقرر السمنار : د. أحمد الشربينى

جهود الدولة العثمانية فى تأمين الطريق البحرى
من عاصمة الدولة إلى الحرمين الشريفين
- دراسة تاريخية تحليلية -

إعداد الدكتور

عايض بن خزّام الروقى

أستاذ مشارك التاريخ الحديث والمعاصر

جامعة أم القرى - مكة المكرمة

المملكة العربية السعودية

oboeikan.com

جهود الدولة العثمانية في تأمين الطريق البحري من عاصمة الدولة إلى الحرمين الشريفين - دراسة تاريخية تحليلية -

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على خاتم أنبيائه ورسله سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ، أما بعد :

فقد كان تاريخ الدولة العثمانية في مراحلها الأولى يمثل ملحمة جهادية صادقة ، خاض فيها سلاطين آل عثمان الجهاد الإسلامي في أبهى صورته ، حيث خاض سلاطين الدولة العثمانية معارك حاسمة لنصرة دين الله والحفاظ على مقدسات الإسلام ومقدرات المسلمين ، وحافظوا على الثغور الإسلامية التي كانت عرضة للهجمات الأوروبية المستمرة ، وما لبث العثمانيون أن اجتازوا البحر ودخلوا غاليبولي^(١) متخذين منها نقطة متقدمة لعملياتهم الحربية وفتوحاتهم المتتابعة داخل أوروبا ، وبسطوا

(١) غاليبولي - كليبولي : مدينة ذات موقع استراتيجي ، لها أهمية كبيرة في المعارك الحربية ، إذ إنها تقع على ضفة مضيق الدردنيل - في الجانب الأوروبي - وتبعد عن مدينة أدرنة حوالي مائة وأربعين كيلومتراً ، ولأن مضيق الدردنيل هو المر الوحيد بين بحر مرمره وبحار أوروبا فقد اكتسبت مدينة غاليبولي هذه الأهمية الاستراتيجية ، انظر : محمد فريد: تاريخ الدولة العلية العثمانية ، تحقيق د. إحسان حفي ، هامش ١ ، ص ١٢٦ - ١٢٧ ، ط ٢ ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م دار النفائس - بيروت .

٥٤٤ ————— جهود الدولة العثمانية في تأمين الطريق البحري من عاصمة الدولة إلى الحرمين الشريفين سلطانهم على البلقان ، ونقلوا عاصمة دولتهم إلى أدرنة^(١) ، فعظمت قوتهم وزادت انتصاراتهم وعلت مكانتهم .

وقد حقق بايزيد الأول بن مراد الأول (٧٩١-٨٠٥هـ/١٣٨٩-١٤٠٣م) انتصاره على الحملة الصليبية التي قادتها فرنسا والمجر في أواخر القرن الثامن الهجري وأواخر القرن الرابع عشر الميلادي ، والتي كانت سبباً لا يُنسى في إطفاء حماس الفرنسيين لشن أية حملة صليبية قادمة للشرق الإسلامي ، وفرصة لقيام علاقات دبلوماسية بين فرنسا والدولة العثمانية^(٢) ، اتخذت لها مساراً خاصاً في مجال العلاقات السياسية بين الدولتين .

إن الدولة العثمانية في مراحلها التاريخية الأولى قد شكلت نموذجاً إسلامياً فريداً ، حيث كان الجيش العثماني لا يقاتل إلا وفي مقدمته السلطان ومعه شيخ الإسلام ، وكان هذا الجيش لا يقاتل إلا الكفار ، أي أنه اتجه غرباً ، مُهدداً أوروبا في عقر دارها ، وفتحاً للبلدان والأقاليم ، وناشراً للدين الإسلامي في ربوع أوروبا النصرانية . من هنا برزت شخصية الدولة العثمانية ، وجيشها الإسلامي ومنهجها الجهادي ، حتى إنه بات معروفاً لدى دارسي التاريخ في تلك المرحلة أن العثمانيين لا يجارون إلا لهدف ديني صرف ، وهم يسعون لنشر راية الإسلام وإعلاء شأن المسلمين ، وقد وصفهم أحد المؤرخين العرب حينذاك بقوله : " ... وكانوا في صدر دولتهم من خير من تقلد أمور الأمة بعد الخلفاء المهديين ، وأشد من ذب عن الدين وأعظم من جاهد في المشركين ، فلذلك اتسعت ممالكهم بما فتحه الله على أيديهم وأيدي نوابهم ، وملكوا أحسن المعمور من الأرض ودانت لهم الممالك في الطول والعرض ، هذا مع عدم إغفالهم الأمر وحفظ النواحي والثغور وإقامة الشعائر الإسلامية والسنن الحممدية ، وتعظيم العلماء وأهل الدين وخدمة الحرمين الشريفين والتمسك في الأحكام والوقائع

(١) محمد فؤاد كوبريلي : قيام الدولة العثمانية ، ترجمة د.أحمد السعيد سليمان ، وقدم له د.أحمد عزت

عبد الكريم ، ص ١٨٠-١٨٢ ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ، د.ت.ن.

(٢) روبر ماتران : تاريخ الدولة العثمانية ، ترجمة بشير السباعي ، ج ١ ، ص ٦٠-٦٩ ، ط ١ ، ١٩٩٣م ،

دار الفكر للدراسات والنشر ، القاهرة .

بالقوانين والشرائع ، فتحصنت دولتهم وطالت مدتهم وهابتهم الملوك وانتقاد لهم المالك والمملوك^(١).

من هنا كان استيلاء العثمانيين على جزء كبير من شرق أوروبا ، واجتيازهم البحر وإقامتهم في غاليبولى عاملاً على تقوية بنیان الدولة ، وتأكد ذلك باعتناق كثير من الطبقة الأرستقراطية في أوروبا للدين الإسلامى فى مراحل الفتوحات العثمانية الأولى لتلك الجهات^(٢) ، وتحقق لهم الريادة حين فتحوا القسطنطينية - معقل الكنيسة الشرقية ومركز الدولة البيزنطية العتيد ، حيث تمكن سابع السلاطين العثمانيين السلطان محمد الثانى بن مراد الثانى (٨٥٥-٨٨٦هـ / ١٤٥١-١٤٨١ م) والمعروف فى التاريخ بالسلطان محمد الفاتح ، فى العشرين من جمادى الأولى سنة ٨٥٧هـ / الموافق ٢٩ مايو ١٤٥٣ م من دخول المدينة بعد حصار طويل وملحمة تاريخية نادرة، وفتح المدينة للمسلمين وسماها إسلام بول - أى أرض الإسلام^(٣) ، لتتحقق له المعجزة النبوية التى جاءت على لسان المصطفى ﷺ فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد بن حنبل فى مسنده عن رسول الله ﷺ أنه قال :

" لَتُنْفَتَحَنَّ القسطنطينيةُ ولنعم الأميرُ أميرها ولنعم الجيشُ ذلك الجيشُ "^(٤).

(١) عبد الرحمن الجيرتى : تاريخ عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، ج ١ ، ص ٣٧-٣٨ ، دار الجليل بيروت ، د.ت.ن.

(٢) محمد فؤاد كوبرلى : قيام الدولة العثمانية ، المرجع السابق ، ص ١٨٧-١٨٩ .

(٣) محمد بن أحمد بن إياس الحنفى : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، تحقيق محمد مصطفى ، ج ٢ ، ص ٣١٦ الفئدة المصرية العامة للكتاب ، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤ م .

جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تفرى بردى : حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور ، ج ٢ ، ص ٤٥٣ تحقيق محمد كمال الدين عز الدين ، الطبعة الأولى ، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠ م ، منشورات عالم الكتاب .

(٤) مسند الإمام أحمد بن حنبل ، ج ٤ ، ص ٢٣٥ .

السيد أحمد زينى دحلان : الفتوحات الإسلامية بعد مضى الفتوحات النبوية ، ج ٢ ، ص ١٢٨ ط ١٣٨٧هـ / ١٩٦٨ م نشر مؤسسة الحلبي وشركاه - القاهرة .

يقول السلطان محمد الفاتح : "إننا لا نلقى بأنفسنا إلى المخاطر من أجل مدينة ، وإنما في سبيل الله عز وجل حتى إذا لقيناه يوم الحساب قدمنا إليه فخورين لا نحجلين وبأيدينا سيوفنا التي حاربنا بها في سبيله ، إن هذه السيوف التي نحملها ليست للزينة والتباهى وإنما هي لنقاتل بها في سبيل الله ، إن هذا العناء الذى نلاقه كله في سبيل الله"^(١) ، لقد حقق السلطان العثماني محمد الفاتح بفتح إسطنبول أملاً كبيراً طالما راود خيال المسلمين منذ الفتوحات الإسلامية الأولى ، في الوقت الذى أدى هذا الفتح إلى ارتفاع مكانة الدولة العثمانية في العالم الإسلامى ، وجعل منها القوة الإسلامية الواعدة التى يتطلع إليها المسلمون لرفع راية الجهاد وتحقيق الانتصارات وحماية البلاد الإسلامية ومقدراتها .

بهذا الفتح المبين لمدينة القسطنطينية وضع العثمانيون أقدامهم في مركز استراتيجى مهم في مضيق البوسفور والدردينيل وفي بحر مرمره وبحر إيجه وهو ما سيجعل تقدم روسيا أو إمبراطورية النمسا إلى الشرق الإسلامى أمراً مستحيلاً ومن دونه خَرَط القَتَاد، وهو ما تحقق طوال تاريخ الدولة العثمانية في عصر قوتها ، حيث أصبح لها النفوذ الكامل والسيطرة المطلقة على معظم طرق المواصلات البرية والبحرية المهمة بين الشرق والغرب .

ونظر الأوروبيون إلى الفتوحات العثمانية في أوروبا بدءاً من فتح إسطنبول وما أعقبه من فتوحات عسكرية حاسمة على أمم فتوحات إسلامية وكارثة كبرى على أوروبا لا يماثلها أية كارثة ، ووقر في أذهانهم أن أى نصر عسكري تحققه الدولة العثمانية إنما هو نصر للإسلام وهزيمة للنصرانية^(٢) ، ليصل الأمر بهؤلاء القوم في نهاية المطاف إلى اعتبار أن جذور المسألة الشرقية هي وجود الأتراك العثمانيين في أوروبا

(١) زياد أبو غنيمه : جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك ، ص٣٨-٣٩ ، الطبعة الأولى، ١٤٠٣ هـ/١٩٨٣م ، دار الفرقان للنشر والتوزيع ، عمان ، الأردن .

(٢) د.عبد العزيز محمد الناوى: الدولة العثمانية ، دولة إسلامية مفترى عليها، ج١، ص ١٤ مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٨٠م

واستيلاؤهم على مدينة القسطنطينية ، وسيطرتهم كمسلمين أسياذ على شعوب مسيحية ، يقول إدوارد دريو Driault : " إن المسألة الشرقية هي مشكلة القضاء على قوة الإسلام السياسية " (١) ، وهذا يعنى أن العامل الدينى كان من أهم عوامل المسألة الشرقية ، وبالتالي أصبحت كراهية العثمانيين وبغضهم عسكرياً وعرقياً ودينياً من أهم دوافع المسألة الشرقية .

ولقد كان فتح القسطنطينية بداية مباركة وفأل خيرٍ على المسلمين ، لتقوم الدولة العثمانية المسلمة منذ ذلك التاريخ بجهود جهادية لتأمين طريق الحجاج البحرى من عاصمة الدولة - إسطنبول - إلى الأماكن المقدسة فى مكة المكرمة والمدينة المنورة ، ولاسيما فى مياه البحر المتوسط الذى تنتشر على سواحله وفى مياهه القوة النصرانية فى داخل الجزر وعلى السواحل .

من هنا ، كانت علاقات العثمانيين مع القوتين البحريتين : إمارتى جنوة والبندقية ساخنة بصفة تكاد تكون مستمرة ، لكن أمام بروز القوة العثمانية عقدت البندقية صلحاً مع السلطان محمد الفاتح تعهدت فيه بمساعدته بأسطول بحرى مكون من مائة سفينة إذا هوجمت دولته من أية دولة أخرى (٢) .

وكان للحرمين الشريفين وأهلها مكانة خاصة عند سلاطين الدولة العثمانية قبل هذا الفتح المبين، حيث أرسل السلطان بايزيد الأول بن مراد الأول (٧٩١-٨٠٥هـ/ ١٣٨٩-١٤٠٣م) إلى الحرمين الشريفين ولأول مرة مساعدات مالية من عاصمة الدولة أدرنة مقدارها ثمانون ألف ٨٠٠٠٠ ذهب (٣) ، وقد عُرُفت هذه المساعدات

(١) زين نور الدين زين: الصراع الدولى فى الشرق الأوسط وولادة دولتى سوريا ولبنان ، ص٢٢-٢٣ ، الطبعة الثانية ، دار النهار للنشر - بيروت ١٩٧٧م .

(٢) محمد مصطفى صفوت : فتح القسطنطينية وسيرة السلطان محمد الفاتح ، ص١٦٤-١٦٩ ، منشورات الفاخرية بالرياض ، ب.ت.ن .

(٣) محمد أمين المكى : الآثار المبرورة والمشكورة لسلاطين آل عثمان فى الحرمين الشريفين ، ص١٩ ، إستانبول ، مطبعة عثمانية ، ١٣١٨هـ .

٥٤٨ ————— جهود الدولة العثمانية في تأمين الطريق البحري من عاصمة الدولة إلى الحرمين الشريفين
المالية فيما بعد باسم "الصرة"^(١) ، وفي عهد السلطان محمد جليي (٨١٦-٨٢٤ هـ/١٤٠٣-١٤٢١ م) استمرت هذه المساعدات المالية وأوقفت الأوقاف الكثيرة
على الحرمين الشريفين ، واستمر سلاطين الدولة العثمانية منذ ذلك الوقت في
إرسال الصرة الهمايونية سنوياً ، والحفاظ على المساعدات المالية المستمرة ، لأهل
الحرمين الشريفين والمقيمين فيها^(٢) .

وقد استمر حرص السلاطين العثمانيين على أداء هذه المهمة وإنجازها على
أكمل وجه ، بل والحفاظ على سلامة الحج والحجاج في سفرهم وإقامتهم ، حيث
أكدت الوثائق العثمانية هذا المنهج الثابت في سياسة الدولة العثمانية ، فقد ورد في
الحكم السلطاني المرسل إلى وإلى مصر وقاضيها والولاة والأمناء في الولايات والسناجق
العثمانية برقم ٣٤٨ وتاريخ ذى الحجة سنة ١١٠٣ هـ ما نصه :

" إن من لوازم ذمة وهمة سلطان الزمان الحفاظ على ذهاب وعودة من شد العزم
ورغب في زيارة الحرمين الشريفين لأداء فريضة الحج والطواف ببيت الله الحرام وزيارة
مسجد المصطفى سيد الأنام عليه أفضل الصلاة والسلام ، وحفظهم بكمال الأمن
والسلامة ومزيد الاطمئنان والرفاهية ، وأن في وضع المغارم علي رؤوسهم وضرب
المكوس على أموالهم صدداً والعياذ بالله عن سبيل الله وأمرًا مخالفًا لرضاء الله ومنافياً
لسيرة أهل الإسلام ، بل وارتكاب أمر شنيع واختيار وزر فظيخ ، وعليه فقد أرسلنا
أوامر بمنع التعرض والاعتداء عليهم بما يخالف الشرع مراراً ... لذا صدر الأمر
الشريف هذا بالعمل به وبمقتضى الأوامر السابقة في هذا الشأن"^(٣) .

(1) Munir Atalar : Osmanli Devletinde Surre-I Humayun ve Surre Alaylari,
Ankara , 1991, Diyanet -1 sleri Başkanligi Yayinlari, S.10.

(٢) أحمد بن محمد الحموي : فضائل سلاطين بني عثمان ، تحقيق د.محسن محمد سليم ، ص٢٧ ، الطبعة
الأولى ١٤١٣هـ/١٩٨٣م - دار الكتاب الجامعي ، القاهرة .

محمد نشري : كتاب جهان نما " تاريخ نشري " الناشر F.R.UNAT-M.A.
; Koymen, Ankara , 1949 , 1957 , TKK.Basimevi , C.II. , S. 678

عاشق باشا زادة : تواريخ آل عثمان ، إستانبول ، ١٣٣٢ هـ ، مطبعة عامرة ، ص١٩٦ .
عبد القادر دده أوغلو : السلاطين العثمانيون ، ترجمة محمد جان ، ص٤١ ، دار سحنون للنشر ،
تونس ١٩٩٢ م .

(٣) وثيقة عثمانية - الأرشيف العثماني - إسطنبول - دفتر المهمة رقم ١٠٤ - الحكم السلطاني
رقم ٣٤٨ في أواخر ذى الحجة سنة ١١٠٣ هـ .

وكان السلطان سليم الأول قد رتبَ صدقة سنوية من الحب توزع على سكان الحرمين الشريفين ، وهو أول من قام بكسوة الكعبة المشرفة من آل عثمان من ماله الخاص ، لذلك تمتع العثمانيون في نفوس المسلمين عامة بمركز ديني متميز ، وخاضوا حروبهم باسم الإسلام ومن أجله ، يقول السلطان محمد الفاتح : " إن بلادنا هي بيت الإسلام وسيظل مصباحها مضيئاً بزيتٍ نستخرجه ويستخرجه خلفاؤنا من قلوب الكافرين " (١) .

من هنا كان تصميم السلطان محمد الثاني - الفاتح - على فتح جزيرة رودس (٢) ، ولا سيما أنه أخضع آخر الإمارات اليونانية المستبدة في المورة ، وجعل صربيا والبوسنة مقاطعتين عثمانيتين وفتح عدداً من جزر اليونان (٣) ، وكانت رودس معقلاً لفرسان القديس يوحنا (٤) ، والتي كانت الحرب بينها وبين مصر سجالاتاً ، حيث

(١) د. محمد بن عبد اللطيف البحرأوى : فتح العثمانيين عدن - وانتقال التوازن الدولي من البر إلى البحر ص ٨٥-٨٧ الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م ، دار التراث - القاهرة .

(٢) جزيرة صغيرة تقع بالقرب من شاطئ آسيا الصغرى في جنوب شرق بحر إيجه ، وهي من أشهر الجزر في بحر إيجه - وهو الجزء الشرقي من البحر الأبيض المتوسط ، واسمها مشتق من لفظة " رودون " اليونانية ، ومعناها الورد ، وهي جزيرة طيبة الهواء ، حسنة التربة ، كثيرة الفواكه والأزهار ؛ انظر : محمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، تحقيق د. إحسان حقى ، ص ١٧٦-١٨٠ ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ، دار النفائس - بيروت .

(٣) برنارد لويس : إسطنبول وحضارة الخلافة الإسلامية ، ترجمة د. سيد رضوان على ، ص ٤٩ ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ، الدار السعودية للنشر والتوزيع ، جدة .

(٤) يعرف فرسان القديس يوحنا باسم Hospitalers Of Saint John أو فرسان رودس Kinights Of Rhodes ويعرفون عند العرب باسم الاسبارتية ، وهم طائفة دينية عسكرية من بقايا طوائف الحروب الصليبية ، وقد جمعت هذه الطائفة بين العبادة والفروسية والشدة والصلابة ، وكانت نشأهم في بيت المقدس في القرن الحادى عشر الميلادى ، ولما استولى المسلمون على عكا سنة ٦٩٠هـ/١٢٩١م انتقل الاسبارتية إلى جزيرة قبرص ومنها إلى جزيرة رودس التي كانت بالنسبة لهم مكاناً جيداً لمواصلة الحروب الصليبية لقرىها من البلاد الإسلامية ، انظر : عبد الرحيم بن عبد الرحمن العباسى : منح رب البرية في فتح رودس الأبية ، تحقيق د. فيصل بن عبد الله الكندرى ، ص ١٧-١٩ حوليات كلية الآداب ، جامعة الكويت ١٤١٧هـ/١٩٩٧م .

٥٥. ————— جهود الدولة العثمانية في تأمين الطريق البحري من عاصمة الدولة إلى الحرمين الشريفين كانت تقوم بتهديد مباشر للبحار الإسلامية وطرق التجارة ، كما تقوم بتهديد الطريق البحري للحجاج المسلمين ، فأرسل لها السلطان العثماني عمارة بحرية مشحونة بمائة ألف مقاتل تحت قيادة القائد العثماني ميشطس باشا ، وضرب الحصار عليها من ١٣ ربيع الأول سنة ٨٨٥ هـ / ٢٣ مايو سنة ١٤٨٠ م ولمدة ثلاثة أشهر ، حاول العثمانيون خلالها الاستيلاء على الجزيرة وتدمير قلاعها لكنهم لم يتمكنوا من ذلك ، فرفعوا الحصار عنها وعادت قواتهم دون تحقيق أية نتيجة تذكر^(١) .

وكان القائد العثماني طره خان أوغلو عمر بك قد شتت الجيش الذي حاول الدفاع عن البندقية في منتصف سنة ٨٨٢ هـ / أوائل نوفمبر سنة ١٤٧٧ م ، وأسّر قائده ، وعندئذ أجبر السلطان محمد الفاتح البندقية على دفع غرامات الحرب وتسليم خراج سنوي للدولة^(٢) ، ويعود سبب تلك التحركات في المقام الأول إلى أهمية مدينة البندقية التي تقع على البحر الأدرياتيكي والتي تعتبر من أهم الثغور التجارية التي تتحكم في تلك البحار ، إضافة إلى أن جزيرتي قبرص وكريت الاستراتيجيتين كانتا تابعتين للبنادقة حينذاك وتهددان طريق الحجاج في البحر الأبيض المتوسط دون شك .

ثم أخذ السلطان العثماني محمد الثاني في تجهيز قواته الحربية لفتح جزيرة قبرص ، حيث أمر بتجهيز تجريدة بحرية قوية لمهاجمة الجزيرة وفتحها ، لكن الأجل عاجله قبل أن يحقق هدفه الجهادي العظيم^(٣) ، ومات - يرحمه الله - في اليوم الرابع من ربيع الأول سنة ٨٨٦ هـ / ٣ مايو سنة ١٤٨١ م^(٤) .

(١) رزق الله منقربوش الصديقي: تاريخ دول الإسلام ، ج ٣ ، ص ١٠٨-١٠٩ ، مطبعة الهلال ، القاهرة ، ١٣٣٦ هـ / ١٩٠٨ م ،

أرغون : المصاييح المنيرة في تواريخ القرون الأخيرة ، ترجمة حنفي هند بن إسماعيل ، ج ١ ، ص ٤١ ب.ت.ن. ، ب.م.ن.

(٢) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج ١ ، ص ١٦٧-١٦٨ ، منشورات مؤسسة فيصل للتمويل ، إسطنبول ، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م .

روبير ماتران : تاريخ الدولة العثمانية ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٤٤ .

(٣) يوسف آصاف : تاريخ سلاطين آل عثمان ، تحقيق بسام عبد الوهاب الجابي ، ج ٢ ، ص ٦١ ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م ، دار البصائر - دمشق .

(٤) محمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، تحقيق د.إحسان حقي ، المرجع السابق ، ص ١٧٦

أصبحت جزيرة رودس مصدر خطر على الدولة العثمانية ، فقد استقبلت الأمير جم الذى انشق على أخيه السلطان بايزيد الثانى ، ووصل الجزيرة فى منتصف سنة ٨٨٧ هـ / منتصف ١٤٨٢م وقد هدد السلطان العثمانى فرسان القديس يوحنا فى رودس ، ثم أرسل لهم وفوداً كى يسلموا له أخاه أو يضعوه تحت المراقبة على أن تدفع لهم الدولة العثمانية مبلغاً سنوياً لقاء ذلك ، أما السلطان سليم الأول بن بايزيد الثانى (٩١٨-٩٢٦هـ/١٥١٢-١٥٢٠م) الملقب بـ - ياووز - أى القاطع ، فقد كان حريصاً على فتح جزيرة رودس ، لأنه يدرك أنها تشكل عقبة كؤوداً فى طريق الحجاج البحرى العثمانى ، وطريق التجارة البحرية العثمانية ، بيد أن الأجل عاجله قبل أن يحقق أهدافه^(١) ، لقد كانت جزيرة رودس مصدر قلق لتجارة العثمانيين بين إسطنبول وموانى البحر المتوسط كالإسكندرية وغيرها ، كما كانت مصدر تهديد للطريق البحرى الذى يربط عاصمة الدولة العثمانية بموانئها فى البحر المتوسط والبحر الأحمر ، وهى بالتالى خطر على الحجاج والمسافرين من رعايا الدولة العثمانية ، فقد وصفها أحد المؤرخين المعاصرين بقوله : " ... جزيرة رودس التى أذهلت بشرها العقول وحيّرت الأبواب ، ... كانت شرك الشرك ، وحبالة الإفك ، ومقر الظلم والعدوان ومستودع الخزي والبهتان ، طالما سيقت إليها الزمر من المسلمين أسارى ، مكبلين فى الحديد فتراهم من الكرب سكارى ، وما هم بسكارى ، ويستعملون فى الأعمال الشاقة ، ويكلفون فوق الجهد والطاقة ، ويقتسمون أموالهم كالأنفال ، وهم ينظرون ولا يُغنون بحال ..."^(٢) .

من هنا طلب السلطان العثمانى سليمان الأول بن سليم الأول - القانونى - ٩٢٦ هـ - ٩٧٤هـ / ١٥٢٠-١٥٦٦م " من قادته متابعة أحوال هذه الجزيرة وإعطاء معلومات

(١) إبراهيم بك حليم : التحفة الحليمية فى تاريخ الدولة العلية ، ص ٨٥ ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م ، مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت .

(٢) عبد الرحيم بن عبد الرحمن العباسى - منح رب البرية فى فتح رودس الأبية ، تحقيق د. فيصل بن عبد الله الكندرى ص ٩٣-٩٤ ، الحولية الثامنة عشر من حوليات كلية الآداب ، جامعة الكويت ، ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م .

وافية عنها ، وحجم الأسطول فيها وأنواع السفن التي يملكها أهل هذه الجزيرة ، فجاءه الرد سريعاً ، والشرح وافياً عن هذه الجزيرة وغيرها من الجزر التابعة لحكومة البندقية ، فهناك خمس عشرة سفينة تابعة لجزيرة رودس ، وجزيرتان تابعتان للبندقية هما اسكاثوس واسكيروس ، والأولى منهما عبارة عن قلعة حصينة ملاذاً لسفن اللصوص وقطاع الطرق من هؤلاء القوم ، وفي الجزيرتين أعداد كبيرة من اللصوص النصاري ، الذين يهاجمون قرى المسلمين ويقطعون الطريق عليهم ، فيأخذون النساء والأطفال أسارى ويقتلون الرجال وينهبون الأموال ، والتعاون قائم ومعروف بين رودس وجزر البندقية لمحاربة المسلمين وإيقاع الضرر بهم في كل وقت وحين ، وأن أعمال القرصنة والسلب والنهب تنطلق في معظمها من جزيرة رودس ، وما يتبعها من جزر ، وقد سبق لأهل هذه الجزيرة أن قبضوا على زوجة وأبناء أحد طائفة السباهية العثمانيين ، وحبسوهم لمدة عامين ، وأنه في عام ٩٢٧هـ خرجت ثلاث سفن من قلعة رودس واستولت على سفينتين عثمانيتين كانتا تحت قيادة كل من عيسى ريس ، واسكندر ريس^(١) .

ويؤكد أحد المؤرخين العثمانيين هذه الحقائق العلمية بقوله : " إن جزيرة رودس وقلعتها العسكرية كانت مأوى ومقراً لطائفة الإفرنج ، وقراصنة البحر منهم ، وكانت قريبة من الممالك العثمانية ، وكان أهلها لا يتخلون عن إيصال الضرر لأهل الإسلام ؛ خصوصاً التجار والحجاج والمسافرين الذين يذهبون إلى مصر بالسفن عن طريق البحر ، والحجاج الذين يذهبون إلى بلاد الحرمين الشريفين لأداء فريضة الحج عن طريق البحر كذلك ، عندئذ يتعرض هؤلاء القوم من أهل رودس للمسافرين والحجاج من المسلمين ويطردون لهم الطرق ، ويضربونهم بالمدافع ، وينهبون أموالهم ويأخذونهم أسارى ويضربون عليهم السلاسل والأغلال ، ويدخلونهم في السجون ،

(١) د.فيل بن عبدالله الكندري: تحقيق مخطوط " منح البرية في فتح رودس الأبية " ، ص ١٤٣-١٤٤ ، ترجمة للرسالتين المنقولتين عن : جلال زادة مصطفى جليلي : طبقات الممالك ودرجات المسالك ، مكتبة متحف طوب قاي سراي اسطنبول .

ويعرضونهم لأصناف الإهانة والأذى ، فيقتلون الرجال ويستعبدون النساء والأطفال حتى يردوهم عن دينهم إن استطاعوا فلما عُرض الأمر على العتبة السلطانية بكل تفاصيله ودقائق أخباره ، أخذته الحمية الدينية وأعلن الحرب عليهم وتسخيرهم ورد شرورهم ، لأن ذلك من مهمات الدين والدولة ، فجهز لهم أسطولاً همايونياً في فصل الشتاء طاعة لله ورسوله ... " (١) .

من هنا يتبين لنا أن جزيرة رودس كانت مصدر قلق لتجارة العثمانيين بين إسطنبول وموانئ البحر المتوسط كالإسكندرية وغيرها ، كما كانت مصدر تهديد للطريق البحري الذي يربط عاصمة الدولة العثمانية بموانئها في البحر المتوسط والبحر الأحمر ، ومصدر خطر عظيم للحجاج العثمانيين الذين يخرجون من عاصمة الدولة العثمانية - إسطنبول - إلى الحرمين الشريفين عن طريق البحر المتوسط وموانئه ومن ثم عن طريق البحر الأحمر وموانئه . هنا كان قرار السلطان سليمان الأول بن سليم الأول بتجهيز قوة بحرية قوامها ثلاثمائة مركب تحمل عشرة آلاف بحري بقيادة القائد العثماني بيىرى باشا إضافة إلى مائتي ألف جندي عثماني تحت قيادة مصطفى باشا صهر السلطان العثماني ، وفتحت الجزيرة بعد حرب ضروس وقاتل عنيف ، شاركت فيه قوات من ولاية مصر العثمانية ، ورُفِع علم الدولة العثمانية في وسط الجزيرة ، واستسلمت المدينة للسلطان العثماني سليمان القانوني في السابع من شهر صفر سنة ٩٢٩هـ / أواخر ديسمبر ١٥٢٢م ، ومنح السلطان العثماني فرسان القديس يوحنا حرية الانسحاب من الجزيرة ، ومنح الأمان والحماية لأهل الجزيرة (٢) .

(١) صولاق زادو : تاريخ صولاق زادة ، ص ٤٣٩ ، مطبعة محمود بك ، الآستانة ، ١٢٩٨هـ ، مكتبة أوقاف الديانة ، اسكودار ، إسطنبول .

(٢) د. محمد كمال الدسوقي : الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ، ص ٥٦-٥٧ ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ط ١٩٧٦م

د.خلف بن دبلان الوديناني: الفتح العثماني لجزيرة رودس ، ص ٦٢-١٠٥ ، معهد البحوث وإحياء التراث الإسلامي - جامعة أم القرى - مكة المكرمة - ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م .

وسارع السلطان العثماني سليمان القانوني من مركز قيادته في قلعة رودس بنقل أخبار هذا الفتح المبين إلى قاضي بورصة مؤكداً له حرصه الشديد والمستمر على نصره الدين الإسلامي ، ورفع راية الدين وقمع وقلع آثار الكفرة والظالمين ، وفي مقدمتهم أهالي رودس الذين يقطعون طريق المسافرين بالبحر، ويسفكون دماء التجار، وشرح السلطان في رسالته تلك مراحل الاستعداد للمعركة وبدايتها وأسماء القادة الذين شاركوا ومهامهم ، وما قام به السلطان نفسه في هذه المعركة الحاسمة التي نصر الله فيها جند الإسلام ، وأن جزيرة رودس قد طُهرت من دنس أهل الكفر والضلال ، وتحولت معابد الأصنام والأوثان إلى مساجد لأهل الإيمان ، وأكد السلطان العثماني سليمان القانوني في رسالته هذه نجاح الدولة العثمانية وجيشها المظفر في تأمين الطريق البحري للحجاج القادمين من عاصمة الدولة العثمانية وأطرافها إلى الأماكن المقدسة في مكة المكرمة والمدينة المنورة ، حيث قال : " ... وأضحى معابر بيت الله الحرام آمنة من عبث الكفرة الفجرة " ، وهو بذلك يقصد أهالي رودس والجزر المماثلة لها في البحر المتوسط التي ينطلق منها للصوص وقطاع الطرق لمهاجمة قوافل الحجيج البحرية التي تجوب مياه البحر المتوسط في طريقها إلى موانئ الدولة الإسلامية في مصر والشام وعلى سواحل البحر الأحمر ، وفي ختام هذه الرسالة السلطانية التي تعطي الدليل الواضح على مهمة هذه الحملة البحرية وأهداف هذا الفتح الإسلامي الكبير ، أشار السلطان سليمان القانوني إلى أن كافة الجزر وقلاعها قد أضيفت إلى أملاك الدولة ، وأن العفو والأمان قد مُنح لأهل هذه الجزر وتلك القلاع ، على أرواحهم وأموالهم وأولادهم وعبائهم ، وأن كافة أسرى المسلمين في هذه الجزر قد أُطلق سراحهم وصاروا أحراراً بعد أن فك الله قيدهم وتحقق النصر لدولتهم الإسلامية، والمرجو إظهار الفرح والمسرات والدعاء لدوام الدولة والسلطنة^(١) .

(1) Osmanli Devletinin - Merkez ve Bahriye Teşkilâtı ismail Hakki Uzuncarsili-C.3.S.401-404 Ankara - 1988 .

أحمد فريدون بك : منشآت سلاطين ، ج ١ ، ص ٤٦٩-٤٧٤ ، نشر في إسطنبول ، سنة

وهكذا بدأ العثمانيون في حماية طريق الحج البحري ، وبدأت قوافل التجارة العثمانية البحرية تشعر بشيء من الأمن والاطمئنان ، ولا سيما أن القرصنة في البحر المتوسط لم تعد تجدد من يساندها بعد فتح جزيرة رودس التي كانت تشكل خطراً حقيقياً في البحر ، وقد خضعت الجزر البحرية القريبة من رودس لنفوذ الدولة العثمانية ، عندما علمت بفتح الجزيرة وضمها للدولة العثمانية ، وأصبحت تلك الجزر جميعها جزءاً عثمانياً ، تقدم الولاء والطاعة للدولة^(١) ، لكن فرسان القديس يوحنا غادروا جزيرة رودس بعد سقوطها في أيدي العثمانيين ، واتخذوا من جزيرة مالطة^(٢) قاعدة لهم ، حيث تنازل لهم ملك أسبانيا وألمانيا شارل الخامس - الشهير بشارلكان - عن هذه الجزيرة المهمة كي يشنوا منها هجماتهم البحرية وقرصنتهم القتالية ضد السفن التجارية العثمانية ، وضد سفن الحجاج المسلمين بين سواحل آسيا الصغرى وبلاد الشام ومصر^(٣) ، وبالتالي صار موقف الدولة العثمانية في تأمين طريق الحجاج البحري من عاصمة الدولة العثمانية وأقاليمها عبر البحر المتوسط حرجاً جدياً ، وبات التهديد واضحاً للسفن التجارية ولقوافل الحجاج البحرية ، وهو ما زاد من مهمات الدولة العثمانية في هذا المجال .

لقد أصبح انضمام المشرق العربي إلى الدولة العثمانية يشكل عبئاً على قوتها البحرية كي تضمن سلامة المواصلات عبر البحر المتوسط من عاصمة الدولة - إسطنبول - إلى الموانئ المصرية وموانئ الشام ، وبالتالي الوصول إلى الحرمين الشريفين لأداء فريضة

(١) يوصف آصاف : المرجع السابق ، ص ٧٤-٧٥ .

(٢) جزيرة مالطة : جزيرة صغيرة في البحر المتوسط بالقرب من سواحل إيطاليا ، وهي ذات أهمية بحرية كبيرة لموقعها الاستراتيجي ، وقد تنازعتها الملوك والأمم على مر التاريخ ، وقد استقر بما فرسان القديس يوحنا إلى سنة ١٧٩٨م ، ثم احتلها نابليون بونابرت عند مجيئه إلى مصر ، وفي سنة ١٨٠٠م احتلها الإنجليز ليسودوا بها ومن خلالها على البحر المتوسط ، وقد أيد مؤتمر ويانة سنة ١٨١٥م احتلالها لها .

انظر : محمد فريد : تاريخ الدولة العلية ، هامش ٢ ، ص ٢٠٦ .

(3) Sydney Nettleton Fisher : The Middle East History , London , Second Edition , 1971 , PP.161-163

٥٥٦ ————— جهود الدولة العثمانية في تأمين الطريق البحري من عاصمة الدولة إلى الحرمين الشريفين الحج ، وهذا ما أدركه السلاطين العثمانيون حينذاك ، وبالتالي كان تأمين الطريق البحري من أولوياتهم ، وهو ما انعكس إيجابياً على تطور الأسطول البحري العثماني^(١) .

لقد باتت موانئ الشام في طرابلس وبيروت واللاذقية تمثل مركزاً استراتيجياً لاستقبال قوافل الحجاج وتأمين سلامتهم ، وبالتالي انتعاش التجارة وتطورها ، وهو ما ظهر واضحاً على مواردها الجمركية في أواخر القرن العاشر الهجري / أواخر القرن السادس عشر الميلادي^(٢) ، حيث أقامت الدولة العثمانية في عهد السلطان سليمان القانوني قلعة بقراص في المضائق بين ميناء خليج الإسكندرونة والبحر لحماية المسافرين وقوافل الحجاج من غارات القراصنة البحرية ، وقلعة أخرى على ساحل الخليج الشرقي في باياس ، وكلفت الحامية فيها بعدم مغادرتها إلا لأمر خطير ، لأهمية هذه القلعة وأهمية موقعها^(٣) ، وزيادة في سلامة الحجاج والمسافرين عبر البحر أمر السلطان العثماني سليمان القانوني ببناء برج مراقبة في داخل البحر مقابلاً للقلعة ، شبيهاً بالبرج المقام في البحر عند مدخل البوسفور في عاصمة الدولة إسطنبول^(٤) .

وأمام هذه المتغيرات المتلاحقة فقد جمع السلطان سليمان القانوني مجلس الشورى في إسطنبول لأخذ رأيهم في التهديدات التي تتعرض لها الدولة ، فأشار المجلس على السلطان بفتح جزيرة مالطة أولاً وقبل كل شيء ، لأن فرسان القديس يوحنا فيها هم أساس كل هذه الاضطرابات ، فهم يقومون بكل أنواع القرصنة في حوض البحر الأبيض المتوسط كما كانوا يقومون بها في جزيرة رودس ، عندئذ أمر السلطان العثماني بتجهيز قوة بحرية أوصلها البعض إلى ٣٠٠ سفينة فيها من المعدات والأسلحة عشرون مدفعاً كبيراً ، و ١٢٠ مدفعاً صغيراً ، و ٢٠٠٠٠ قنطار من البارود ويقود

(١) روبر مانتران : تاريخ الدولة العثمانية ... ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢١٧-٢١٨ .

(٢) الأرشيف العثماني - إسطنبول - دفاتر المالية رقم ٢٠١١٥ - دفتر الأحكام المالية - صحيفة ٢٥٢ الفرمان الموجه في ٢٢ ذى القعدة سنة ٩٨١هـ إلى أمير أمراء الشام .

(٣) وثيقة عثمانية - الأرشيف العثماني - إسطنبول - دفتر المهمة رقم ٧ - الفرمان رقم ٣٧٣ .

(٤) وثيقة عثمانية - الأرشيف العثماني - إسطنبول - كبه جي - رقم ٢٣٠ - دفتر الرؤوس - صحيفة رقم ١٨٧ - بتاريخ ٢٩ ذى الحجة سنة ٩٨٣هـ .

هذه القوة بياله باشا للأسطول البحرى ، والوزير مصطفى باشا لقيادة الجند ، بيد أن هذا الأسطول لم يحقق أية انتصارات رغم وصوله إلى الجزيرة ، لكنه فك الحصار عنها وعاد دون أن يفتحها^(١) .

و لم يغفل العثمانيون عن سلامة البحر والمسافرين عليه في أية اتفاقية أبرموها أو معاهدة وقعوها ، وهذا ما ظهر واضحاً في معاهدة الامتيازات القنصلية التي وقعها السلطان العثماني سليمان القانوني مع فرنسا في منتصف سنة ٩٤٢هـ / أوائل سنة ١٥٣٦م ، حيث أكد البند الأول من بنود تلك المعاهدة على الالتزام بسلامة المسافرين على البحر وسلامة أموالهم في أى مكان سواء داخل البحر أم على الثغور ، وأن تلتزم الأساطيل البحرية للدولتين بسلامة رعايا الدولة الأخرى على البحر وعدم إخضاعها للتفتيش أو التوقف ، وهو ما أشار إليه البند الحادى عشر من تلك المعاهدة^(٢) ، وهذا ما يؤكد أهمية تأمين الطريق البحرى ، لا سيما وأنه أصبح شرياناً رئيسياً يربط عاصمة الدولة بأطرافها البعيدة في الشام ومصر ، وبالتالي لا بد أن يكون معبراً آمناً للحجاج والمسافرين والتجار ، وسلامته سلامة للدولة وهيبتها .

وقد برزت قوة العثمانيين البحرية في البحر المتوسط بشكل واضح بعد انتصار أمير البحر " الأدميرال " خير الدين برباروس^(٣) وأسطوله البحرى المكون من ١٢٠

(١) خليل ساحلى أوغلى : من تاريخ الأقطار العربية في العهد العثمانى ، ص ٣٤١-٣٤٢ ، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية ، إسطنبول ، ٢٠٠٠م .

(٢) محمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، المرجع السابق ، ص ٢٢٣-٢٣٠ .

(٣) خير الدين باشا بربروسا - أو " برب روس " أى ذى اللحية الذهباء ، من أسرة تركية مسلمة ، وهو من أصل يونانى - انتقل هو وأسرته من جزيرة مدلىلى - إحدى جزر اليونان التى فتحها محمد الثانى ، التحق بخدمة السلطان سليم الأول بعد فتحه مصر برتبة بكلربك - بيلربى - أى أمير ، حيث أمده بألفى جندى عثمانى مع مدفعتهم وسمح لهم بزيادة عدد جنده فى البحر ومنحهم حقوق الإنكشارية وامتيازاتهم وقد عيّن أميراً للبحر سنة ١٥٣٣م ، وتوفى فى إسطنبول سنة ٩٥٣هـ / ١٥٤٦م حيث دفن فى حى بشكطاش على شاطئ البوسفور فى المحل المعد لمرسى الدونائمات العثمانية ، وقد ترك للدولة العثمانية أسطولاً بحرياً مجهزاً بأفضل أنواع الأسلحة والتجهيزات ، ورجال أكفاء من البحارة المهرة الذين تمرسوا على خوض المعارك البحرية ؛ انظر : محمد فريد : المرجع السابق ، ص ١٢٦-١٢٧ .

٥٥٨ ————— جهود الدولة العثمانية في تأمين الطريق البحري من عاصمة الدولة إلى الحرمين الشريفين

قطعة بحرية في المعركة البحرية التي خاضها أمام بَرُوزَة^(١) في أوائل سنة ٩٤٦ هـ / ٢٨ سبتمبر سنة ١٥٣٨م مع التحالف البحري الأوروبي المؤلف من مائة وسبعين سفينة بحرية^(٢) ، وكان اهتمام العثمانيين بالبحر قد ازداد منذ عهد السلطان محمد الفاتح حيث تقدمت البحرية العثمانية خطوات سريعة ، لأن الجهاد في البحر كان يتساوى مع الجهاد في البر إن لم يكن يتفوق عليه وفق مقتضيات العصر التاريخي وانتقال التوازن الدولي من البر إلى البحر .

ولقد كان أسطول البندقية البحري مصدر قلق للدولة العثمانية ، حيث عاث في الشواطئ الجنوبية من آسيا الصغرى ، واحتل عدداً من المناطق الساحلية ، بيد أن انتصار البنادقة على العثمانيين في معركة غاليبولي البحرية في سنة ٨١٩هـ / ١٤١٦م ، جعل السلطان محمد الثاني فيما بعد يحفظ للعثمانيين مكاتهم البحرية ويحفظ لهم سمعتهم الدولية التي يستحقونها ، حين جهز حملة بحرية قوامها مائة وثمانون سفينة شراعية في أواخر سنة ٨٦٠هـ / ربيع سنة ١٤٥٦م من غاليبولي إلى سواحل بحر إيجه ، للسيطرة عليها وبسط نفوذ الدولة العثمانية هناك وهو ما تحقق فعلاً^(٣) ، ويشير أحد المؤرخين إلى هذا التفوق البحري للعثمانيين في تلك الفترة في مقارنة رقمية يبين فيها أن الأسطول العثماني كان يحتوي على ثلاثين سفينة حربية وقطع صغيرة بينما كان الأسطول البندقي متفوقاً على الأسطول العثماني بمراحل ، بيد أن السلطان محمد الفاتح جعل الأسطول العثماني يفوق الأسطول البندقي باثنتين وتسعين قاذراً^(٤) ، وأكبر

(١) بروزة : مدينة تقع على رأس الخليج في ألبانيا .

(٢) د . محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة : ص ٩٨-٩٩ ، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ /

١٩٨٩م - دار القلم للطباعة والنشر - دمشق .

(٣) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ، ص ٤٦٨-٤٦٩ - نقله إلى العربية - نبيه أمين فارس

منير البعلبكي ، الطبعة التاسعة ١٩٨١م ، دار العلم للملايين - بيروت .

(٤) قاذراً Kadirga - نوع من السفن في الأسطول العثماني ، وكان أكبرها - ولكل واحدة منها

خمسة وعشرون متعبداً ، وتسعة وأربعون مجدافاً ، ويحرك المجداف الواحد أربعة أو خمسة

أشخاص ، وكان طول الواحدة منها ١٦٥-١٦٨ قدماً وعرضها ٢١-٢٢ قدماً ، وهي تعمل

بالمجداف والشراع ، وتحمل الواحدة منها مدفعية كبيرة وأربع وسطى وثمان صغيرة ، ويعمل فيها

١٩٦ مجدفاً و١٠٠ محارب و٣٥ بحاراً ، بالإضافة إلى أصحاب المهن الأخرى ؛ انظر: تاريخ جودت:

تحقيق د. عبد اللطيف الحميد ، ص ٢٢٢-٢٢٣ ، ط ١ ، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م ، مؤسسة الرسالة ،

بيروت .

منها ١٦ طراداً ، ونحواً من ٤٠٠ سفينة نقل وإنزال ، ووضع المدافع على السفن ، ولم تبقى أية سفينة حربية بلا مدفع ، وقبيل وفاة السلطان محمد الفاتح كوّن أسطولاً بحرياً يعادل ضعفى الأسطول البندقى - ٢٥٠ سفينة حرب و ٥٠٠ سفينة نقل ، وبالتالي تحققت لأول مرة في التاريخ العثماني قوة بحرية عثمانية ، تستحق الدهشة وتتفوق على الأساطيل الأوروبية باعتراف المؤرخين الأوروبيين أنفسهم^(١) .

ومع تفوق العثمانيين في المواد الخام لبناء أسطولهم البحري ، حيث كانت الغابات الكثيفة على شواطئ البحر الأسود ، وكذلك وفرة المعادن اللازمة لبناء السفن ، إلا أن ازدياد الملاحين من النصارى الطليان أو اليونان أو البنادقة ، قلل من نسبة الولاء ، وزاد من ظاهرة الخيانة وعدم الولاء للدولة العثمانية^(٢) ، وهذا بطبيعة الحال يقلل من الجانب الجهادي في البحر على المدى البعيد ، وقد أسندت إلى والي سنجق غاليبولي قيادة القوات البحرية في بداية الأمر ، وعند تعيين خير الدين بربروس أميراً للبحر كلف بالولاية على جزر بحر إيجه أيضاً^(٣) ، لأن الدولة العثمانية أصبحت تدرك أهمية الولاء الديني ، والإخلاص القيادي عند رجال الدولة في المجال البحري وحماية الثغور البحرية العثمانية من القراصنة وقطاع الطرق .

وقد أدرك السلطان علاء الدين ، سلطان الهند قوة وأهمية الأسطول العثماني في مواجهة الأساطيل الأوروبية ، وأهمية الاستعانة به ضد هذه الأساطيل في البحار الإسلامية ، عندئذ أرسل إلى السلطان العثماني سليمان القانوني في سنة ٩٥٤هـ / ١٥٤٧م ، يستنجد به ضد البرتغاليين الذين ظهروا في مياه المحيط الهندي ، وبدأوا يهددون سواحل دولته ، ولا غرابة في ذلك حيث إن الملك فرنسيس الأول ملك فرنسا قد استنجد هو الآخر بالسلطان سليمان القانوني ضد أعدائه الذين تغلبوا عليه في مملكته ، وكان رده حاسماً وسريعاً ، وأشار في رسالته إلى ملك فرنسا بأنه سلطان البحر الأبيض المتوسط والأسود وبلاد الروم إيلي والأناضول ... إلخ ، وهذا يؤكد

(١) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج ١ ، ص ١٨٠ ، المرجع السابق .

(٢) د . محمد كمال الدسوقي : المرجع السابق ، ص ٦٩ .

(٣) كارل بروكلمان : المرجع السابق ، ص ٤٧١ .

٥٦٠ ————— جهود الدولة العثمانية في تأمين الطريق البحري من عاصمة الدولة إلى الحرمين الشريفين

شعور السلطان العثماني بقوته العسكرية في البر والبحر ، والتي برزت بصورة واضحة في فتح الجزر الاستراتيجية في البحر المتوسط ، حيث فُتِحَت جزيرة جربة على الساحل التونسي ، وعندما تَمَمَّ ملك أسبانيا وبدأ في مضايقة المراكب العثمانية في البحر المتوسط ، ودعم قراصنة جزيرة مالطة من فرسان القديس يوحنا الأورشليمي ، والذين باتوا يهددون الطريق البحري للدولة العثمانية ، أعد السلطان العثماني قوة بحرية هائلة قوامها مائة وواحد وثمانون مركباً تحت قيادة القبطان شايبلي وهاجمت جزيرة مالطة Malta في البحر الأبيض المتوسط ، وضربت عليها الحصار في أواخر سنة ٩٧٢هـ/ أواخر شهر مايو سنة ١٥٦٥م ، ودمرت حصونها وقلاعها واستمر الحصار ما يقرب من أربعة أشهر ، ثم رفع عنها الحصار لرداءة الجو وقرب فصل الشتاء وخوفاً على الجند العثماني وقوته البحرية^(١) ، بينما يذهب أحد المؤرخين في معالجة تلك الحادثة إلى أن السبب في فك الحصار عن جزيرة مالطة حينذاك هو استبسال فرسان القديس يوحنا في الدفاع عن الجزيرة مما كلف العثمانيين خسائر فادحة في الأرواح والعتاد وهو ما أرغمهم على فك الحصار ، وعلل تلك المتغيرات باتساع رقعة الدولة العثمانية ، وعدم قدرتها على مجاراة الأوروبيين في التطور التَّقْنِي ولا سيما في المجال البحري والسفن البحرية الحديثة التي تحمل المدافع والأسلحة المتقدمة^(٢) .

لقد كان حرص السلاطين العثمانيين على البحر شديداً ، مما يعني أن الجزر والثغور والسواحل البحرية لا بد وأن تكون تحت السيادة العثمانية لتكون الطرق البحرية والساحلية آمنة ، وبالتالي يكون طريق الحاج وطرق التجارة في مأمن عن القراصنة وقطاع الطرق .

من هذا المفهوم جهزت الدولة العثمانية حملة بحرية بقيادة والي مصر سليمان باشا ، وخرجت هذه الحملة من ميناء السويس لمواجهة البرتغاليين ، ومنعهم من التغلغل في البحر الأحمر ، ومن ثم التوجه إلى المحيط الهندي لإغاثة سلطان الهند ضد هؤلاء الغزاة ، وقد مكنت تلك الحملة البحرية وما تبعها من حملات الدولة

(١) يوسف آصاف : المرجع السابق ، ص ٧٥-٧٩

(٢) أحمد عبد الرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ١٠٢-١٠٣ ، الطبعة الأولى ١٤٠٢

هـ/١٩٨٢م ، دار الشروق ، القاهرة .

العثمانية من السيطرة على ميناء عدن ومدخل البحر الأحمر في أوائل سنة ١٥٤٥هـ / منتصف سنة ١٥٣٨م^(١) .

إن الدولة العثمانية في عهد السلاطين الأوائل ، كانت تمثل القوة الحقيقية للدولة الفاعلة في مسار الأحداث ، فهي في مرحلة بناء وصراع عسكري وتوسع في أملاك الدولة ، وتأکید لمكتسباتها وحدودها وأمنها ، من هنا كان الحرص مستمراً على فتح الجزر التي تشكل تهديداً لأمن الدولة ورعاياها ، وهذا ما رأيناه في حملة جزيرة قبرص^(٢) ، تلك الجزيرة التي كانت تمثل مرتكزاً خطيراً في خاصرة شرق البحر المتوسط، إذ هي تشكل وكراً للقرصنة ، وبلاءً مستمراً لطريق الحاج العثماني وللتجارة العثمانية ولا سيما إذا كان الجو مكفهراً بين الآستانة والبندقية ، من هنا حرص السلطان العثماني سليم الثاني بن سليمان الأول (٩٧٤-٩٨٢هـ/١٥٦٦-١٥٧٤م) على إكمال مجد القوة العثمانية ، فساق عمارة بحرية مؤلفة من ثلاثمائة وستين مركباً تحمل مائة ألف جندي عثماني ، حيث هاجمت الجزيرة وخاضت معها حرباً ضروساً ، انتهت باستسلام عاصمة الجزيرة نيقوسيا في أوائل سنة ٩٧٨هـ / أواخر سنة ١٥٧٠م، رغم مشاركة كثير من رجال البحرية البنادقة في الدفاع عن الجزيرة لكن دون جدوى، وبعد فرض سيطرتهم الكاملة على الجزيرة ، سمح العثمانيون لمن يرغب من أهل الجزيرة بمغادرتها والانتقال إلى جزيرة كريت على السفن العثمانية، وتكفلوا بحماية أرواح وممتلكات سكان قبرص الذين لا يرغبون في مغادرتها، ثم منح العثمانيون رئيس الأساقفة الأرثوذكس في الجزيرة كافة الصلاحيات المدنية بالنسبة للجماعات الرومية ، وهو ما كان يفتقده في عهد البنادقة^(٣) ، ورغم أن بعض المؤرخين تطرفوا في تعليل الأسباب التي حملت السلطان سليم الثاني على فتح جزيرة قبرص ، وأنه فتحها نزولاً

(١) د. محمد البحراوي : المرجع السابق ، ص ٩١ .

(٢) قبرص جزيرة صغيرة ذات موقع جغرافي استراتيجي في شرق البحر الأبيض المتوسط بالقرب من سواحل الشام ومصر والأناضول حيث تبعد عن ساحل الأناضول ٧٠ كم وعن ساحل سوريا ١٠٠

كم وعن مصر ٣٨٠ كم ، انظر : محمد فريد : المرجع السابق هامش ١ ، ص ٢٥٥

(٣) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج ١ ، ص ٣٦٨-٣٧١ ، المرجع السابق .

د . محمد كمال الدسوقي: المرجع السابق ، ص ٧٩-٨٠ .

٥٦٢ ————— جهود الدولة العثمانية في تأمين الطريق البحري من عاصمة الدولة إلى الحرمين الشريفين على رغبة أحد ندمائه اليهود^(١) ، إلا أن الحقائق التاريخية والمعطيات العلمية في تلك المرحلة ، ومنهجية مسار التاريخ ، وناموس قيام الدول ، ترفض مثل تلك التحليلات والتعليقات ، لأن العثمانيين كانوا حينذاك في مرحلة جهاد ديني صرف ، ولهم أهداف سياسية ودينية تكاد تكون معروفة للمؤرخ المتخصص والمنصف ، أيّ كان توجهه وموقعه من أهمية الحدث ، بينما تؤكد المصادر العثمانية القريبة من الحدث أن جزيرة قبرص حينذاك كانت تمثل خطراً محدقاً بمصالح الدولة العثمانية ومكتسباتها وطرقها البحرية وثغورها المهمة ، وأن أهل قبرص قد اعترضوا الحجاج الذين يذهبون إلى الحج عن طريق البحر ، وأنهم قد نهبوا أموالهم وقتلوهم وأسروا نساءهم وأطفالهم ، وتأميناً لحياة العباد وصيانةً للبلاد فقد قرر السلطان العثماني بنية خالصة أن تُملأ الجزيرة بأهل الإسلام كما كان ، فأرسل لفتحها قائده المظفر لالا مصطفى باشا ومعهُ الأسطول العثماني الذي حقق النصر وبلغ الغاية المنشودة^(٢) .

ويؤكد بعض المؤرخين المعاصرين استناداً إلى الوثائق العثمانية أن القراصنة المسيحيين المتمركزين في جزيرة قبرص في تلك الفترة وتحت حماية وسيطرة البنادقة ، كانوا كثيراً ما يقومون بالاعتداء على السفن التجارية العثمانية ، وعلى سفن ومراكب الحجاج العثمانيين المتجهين إلى الحرمين الشريفين عن طريق البحر ، وأن علاقة البندقية حينذاك مع الدولة العثمانية كانت تسير إلى الأسوأ ، من هنا صدرت فتوى شرعية من شيخ الإسلام في الدولة العثمانية ، بأن جزيرة قبرص كانت فيما مضى بلداً مسلماً ، وهي الآن تمدد المسلمين وبلادهم ، فيجب غزوها وإعلان الحرب عليها ، وقد تحقق ذلك وفتحت الجزيرة وباتت بكلربكية عثمانية^(٣) .

(١) يوسف آصاف : المرجع السابق ، ص ٨٠ .

(٢) كلشني : كلشن معارف ، ص ٥٦١ ، ط ١٢٠٢هـ ، إسطنبول - مكتبة أوقاف الديانة الإسلامية ، كتب خانة ، اسكودار ، إسطنبول .

(٣) أكمل الدين إحسان أوغلي وآخرون : الدولة العثمانية تاريخ وحضارة ، ترجمة صالح سعداوي ، ج ١ ص ٤٤ ، ط ١٩٩٩م مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية - إسطنبول .

؛ محمد بن أبي السرور البكري الصديقي نصره أهل الإيمان بدولة آل عثمان ؛ دراسة وتحقيق د. يوسف بن علي بن رابع الثقفي ، ص ١٦٣ ، الطبعة الأولى ، ١٤١٥هـ ، مطابع الصفا ، مكة المكرمة .

لكن جزيرة مالطة أصبحت مصدر خطر حقيقي في البحر المتوسط على التجارة العثمانية وعلى طريق الحاج البحري القادم من عاصمة الدولة العثمانية إلى الحرمين الشريفين ، وهو ما ظهر في تلك الحادثة التي ذكرها المؤرخون في عهد السلطان العثماني إبراهيم بن أحمد الأول (١٠٤٩-١٠٥٨هـ / ١٦٤٠-١٦٤٨م) حيث هاجم قراصنة مالطة قافلة الحاج العثماني وفيها قزقرز آغاسي^(١) ، الذي كان في طريقه إلى الحج ومعه جارية حسناء من جوارى القصر ومعها طفلها الرضيع ، وبينما هو في الطريق هاجمه قراصنة مالطة فقتلوه وأخذوا الولد ظناً منهم أنه ابن السلطان ، وأخذوه معهم ونصّروه واشتهر عند الإفرنج بعد ذلك باسم " بدر أوتو ماتو - أى الأب العثماني " ، وكانت هذه الحادثة سبباً مباشراً في مهاجمة جزيرة كريت من قبل الأسطول العثماني في أواخر شهر ربيع الثاني سنة ١٠٥٥هـ الموافق أواخر يونيو سنة ١٦٤٥م ، لأن هؤلاء القراصنة قد نزلوا جزيرة كريت بعد تلك الحادثة واستضافهم أهل الجزيرة وأحسنوا وفادقم ، مما جعل السلطان العثماني يزداد غيظاً ويأمر بغزو هذه الجزيرة وتأديب أهلها^(٢) .

ولم يتوقف هؤلاء القراصنة في جزيرة مالطة عن مهاجمة الطريق البحري الذي يربط عاصمة الدولة العثمانية بولاياتها وأقاليمها في المشرق العربي ، حيث هاجم هؤلاء القراصنة سفينة عثمانية أثناء عودتها من ميناء الإسكندرية في الأراضي المصرية إلى عاصمة الدولة إسطنبول ، هنا أعلن السلطان العثماني الحرب على جزيرة مالطة ،

(١) قزقرز آغاسي Kizlaragasi ، تعني المشرف على دائرة الحرم في القصر السلطاني ويطلق عليه أيضاً " آغا دار السعادة " وكان على رأس خدم القصر ، ولأهمية منصبه كان يأتي بعد شيخ الإسلام مباشرة في الترتيب الرسمي ، وكان يأتمر بأمره كل الأغاوات القائمين بالخدمة في القصر السلطاني ، وكان الأغاوات القائمون على خدمة الحرمين الشريفين يأتمرون بأمره أيضاً فهو الرئيس المباشر لهم ، وكان يصحب الصرة إلى الحجاز سنوياً ، وهو من مراكز القوى في القصر السلطاني . انظر : المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية ، للدكتور سهيل صابان ، ص ١٨٠ ، ط ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م ، مكتبة الملك فهد الوطنية - بالرياض .

(٢) محمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، المرجع السابق ، ص ٢٨٦ .

٥٦٤ ————— جهود الدولة العثمانية في تأمين الطريق البحري من عاصمة الدولة إلى الحرمين الشريفين والجزر المنصورة لها والمتعاطفة معها ، واستمرت الحرب سجالاتاً حتى تمكن العثمانيون من بسط نفوذهم والسيطرة الكاملة على جزيرتي كريت ومالطة وعلى أهم القلاع والثغور فيها^(١) .

في تلك المرحلة الحاسمة ، وفي ضوء الانتصارات البحرية المتتابة بدأت الأساطيل العثمانية في مهاجمة بعض الجزر المهمة في البحر المتوسط مثل جزيرتي كريت وزانطة^(٢) ، ذات الموقع الاستراتيجي ، هنا بدأ تجمع القوى النصرانية ضد الدولة العثمانية ، والتقى الجانبان في معركة بحرية حاسمة في خليج ليبانتو Lepanto في ١٧ جمادى الأولى سنة ٩٧٩هـ / ٧ أكتوبر سنة ١٥٧١م وتفوق التحالف المسيحي على القوات العثمانية ، التي فقدت سفنها وسلاحها وأسراً عدد من رجالها ، وتعتبر هذه المعركة من أولى المعارك البحرية التي خسرتها الدولة العثمانية ، حيث غنم النصارى ١٣٠ سفينة عثمانية ، وأحرقوا وأغرقوا ٩٤ سفينة ، وغنموا ٣٠٠ مدفع ، وأسروا ثلاثين ألفاً من الجند العثماني ، لكن الدولة العثمانية سارعت في تضييد جراحها واستعادت مجدها وبدأت في بناء أسطولها البحري^(٣) .

إن جهود الدولة العثمانية لفتح الجزر الاستراتيجية في البحر المتوسط لم تتوقف لأنها تنطلق من منطلق قيام الدولة العثمانية ذاتها ، فهي تهدف لحماية الأماكن المقدسة وتأمين الطرق المؤدية إليها ، وقد استمرت الحملات البحرية لفتح الجزر المهمة

(١) أكمل الدين إحسان أوغلي وآخرون : الدولة العثمانية ... ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٥٦-٥٧ .

خليل ساحلي أوغلي : من تاريخ الأقطار العربية في العهد العثماني ، ص ٣٣٣ ، المرجع السابق .

(٢) - جزيرة كريت تقع في الشمال الشرقي للبحر الأبيض المتوسط ، فهي ذات موقع بحري مهم ،

حيث تتحكم في مضيق الدردنيل ، فتحها العرب ، ثم استرجعها الروم سنة ٩٦١م ، وفي سنة

١٢٠٤م أخذها البنادقة ، ثم فتحها العثمانيون بعد ذلك .

- أما جزيرة زانطة ، فهي جزيرة تقع بالقرب من مدخل خليج كورنتوس إلى الغرب من الجزء

السفلى من اليونان ، انظر : محمد فريد : المرجع السابق ، هامش ٤ ، ص ٢٣٤-٢٣٥ ،

وهامش ٣ ، ص ٢٠٢-٢٠٣ .

(٣) د . محمد كمال الدسوقي : المرجع السابق ، ص ٨١-٨٢ ، وليانتو : ميناء يقع في غربي اليونان عند

مضيق يعرف بمضيق ليبانتو في بداية خليج كورنتوس شمال مورة .

في البحر الأبيض المتوسط والتي تشكل لسبب أو لآخر خطراً على طريق الحاج العثماني من عاصمة الدولة إسطنبول إلى الأماكن المقدسة ، حيث رأينا البحرية العثمانية تضرب الحصار على جزيرة مالطة وتؤدب قراصنتها ، ثم ترفع الحصار الذي استمر أربعة أشهر ، بعد أن تحققت الغاية منه ، ولكي لا يتأثر رجال البحرية العثمانية من تقلبات فصل الشتاء القارس ، ولاسيما أن المهمة قد نجحت كما خُطط لها ، وحين اعترضت مراكب رهبان مالطة قافلة بحرية عثمانية في طريقها إلى الحج ، وقتلوا الرجال وسبوا الغلمان والنساء ، وقاموا بتنصير الغلمان ، كان غضب السلطان العثماني قوياً ومؤثراً ، فأمر بتجهيز عمارة بحرية قوية لفتح جزيرة كريت ذات الموقع الجغرافي والحربي الفريد في البحر المتوسط ، ولتوسطها في الطريق بين الآستانة والأماكن المقدسة ، وضرب الحصار على أهم ثغور الجزيرة وتم فتح أهم مدنها ، ثم ضرب الحصار على عاصمة الجزيرة ، وبعد صراع طويل دام نحو خمسة وعشرين عاماً حول هذه الجزيرة ومدنها وقلاعها الحصينة أعلنت فيها العصيان ضد الدولة العثمانية ، وسعت إلى إغلاق مضيق الدردنيل في وجه البواخر العثمانية كي لا تتجه إلى عاصمة الدولة ولا تخرج منها ، مما يعني أن طريق الحاج البحري وطرق التجارة البحرية أصبحت معرضة للأخطار ، إن لم تتمكن الدولة العثمانية من ضم هذه الجزيرة ومدنها ، وبالفعل رجحت الكفة لصالح البحرية العثمانية فتنازلت جمهورية البندقية عن جزيرة كريت للدولة العثمانية عدا ثلاث قرى في شمال الجزيرة هي - قره بوزا وسودا وسينالونجا^(١) ، إن هذا الفتح العثماني الكبير لجزيرة كريت وقلاعها الشهيرة ، بعد تلك الحادثة الغريبة التي قام بها قراصنة ورهبان مالطة ضد قافلة الحاج العثمانيين ، يُعطي الدليل الواضح والصريح على سلامة المنهج الذي تسير عليه الدولة العثمانية في فتوحاتها لتلك الجزر التي تحتل موقعاً إستراتيجياً على طريق الحاج العثماني ، وطريق التجارة العثمانية في البحر المتوسط وإلى عاصمة الدولة إسطنبول .

(١) محمد فريد بك : المرجع السابق، الصفحات ٢٤٩، ٢٨٦-٢٨٨ ، ٢٩٨ .

يوسف آصاف : المرجع السابق ، ص ١١١ - ١١٤ .

أحمد بن محمد الحموي : فضائل سلاطين بني عثمان ، ص ٤٩-٥٠ ، المصدر السابق .

٥٦٦ ————— جهود الدولة العثمانية في تأمين الطريق البحري من عاصمة الدولة إلى الحرمين الشريفين

لقد ذهب المؤرخون مذاهب شتى في ماهية هذه الفتوحات ، بيد أن الرأي الأرجح والمنطلق من القراءة التاريخية المترنة والمتوازنة ، يرى أن تلك الفتوحات كان مرتكزها الأساسى تأمين الطريق البحري من عاصمة الدولة - إسطنبول - إلى الأماكن المقدسة في مكة المكرمة والمدينة المنورة ، ولاسيما أن موانئ البحر الأحمر والموانئ الشرقية من البحر المتوسط - أى سواحل الشام والأناضول- وكذلك الموانئ المصرية ، وكل هذه المراكز البحرية أصبحت تحت سيطرة ونفوذ الدولة العثمانية ، فهذا هو السلطان مراد الثالث بن سليم الثاني (٩٨٢-١٠٠٣هـ / ١٥٧٤-١٥٩٥م) يبعث بأوامره القوية إلى قائد الأسطول العثماني في البحر المتوسط : " ... وإننى أمرمك بأن تراقبوا طريق السفن بين قبرص والإسكندرية والطريق إلى الجزائر ، وألا تسمحوا للكفار أن يعتدوا على السفن المصرية أو أية سفن أو أراضٍ في مملكتي ، وعليك أن تبذل مساعيتك بحيث تعود أية سفينة تخرج إلى البحر سالمة آمنة " (١) ، ولعل تفاعل الدولة العثمانية مع هجمات البرتغاليين البحرية على مداخل البحر الأحمر الجنوبية ، وانتقال القوة البحرية العثمانية إلى هناك لمجابهة هذا الخطر البحري الجديد ، هو تأكيد لما ذهب إليه البحث من أن الدولة العثمانية كانت حريصة دائماً على تأمين الطرق البحرية التي يسلكها الحجاج إلى الأماكن المقدسة ، وإذا كان المؤرخون قد ذهبوا إلى أن التوازن الدولي قد انتقل من البر إلى البحر في القرن السادس عشر الميلادي ، فإن حماية الثغور الإسلامية ، وطريق الحاج البحري من قبل الدولة العثمانية في تلك المرحلة التاريخية الحاسمة ، هي بلا شك حقائق لا تقبل الجدل ، لأن التوازن الدولي يعكس صورة التحولات التاريخية ويعطى الدليل عليها .

إن أواخر القرن السابع عشر الميلادي كان يمثل نقطة حاسمة في قوة الدولة العثمانية البحرية ، رغم أن الدولة في تلك المرحلة كانت في حروب مع النمسا والبنديقية وبعض القوى الأوروبية البارزة والمستعدة لمواجهةها ، بيد أن مشاكل الدولة العثمانية بدأت في الازدياد مع روسيا مع مطلع القرن الثامن عشر الميلادي ، وهو ما حدّ من

(١) وثيقة عثمانية - الأرشيف العثماني - إسطنبول - دفتر المهمة رقم ٣١ - حكم سلطان برقم ١٩٧ في شهر رجب سنة ٩٨٥هـ / أكتوبر ١٥٧٧م .

الفتوحات البحرية في البحر المتوسط، وقلل من أهميتها خاصة في شرق البحر المتوسط، ومع هذا كله ومع الضعف الذي بدأ يظهر على الدولة بشكلها العام إلا أن منهجية الحفاظ على طريق الحاج البحري من عاصمة الدولة - إسطنبول - إلى الأماكن المقدسة في مكة المكرمة والمدينة المنورة لم تتغير، والوثائق العثمانية المحفوظة في أرشيف رئاسة مجلس الوزراء العثماني في إسطنبول تؤكد هذه الحقيقة العلمية التي ذهب إليها البحث، فهذا هو الحكم رقم ٧٩١ في أوائل شهر رجب سنة ١١٠٤هـ والموجه إلى أمير الحاج المصري إبراهيم بك من السلطان العثماني، يقول: "اعلم أيها الأمير المومى إليه بأن ذهاب وإياب من شد عزيمته لأداء فريضة الحج من الحجاج ذوى الابتهاج بالأمن والسلامة وحفظهم وحراستهم وحمايتهم وصيانتهم على ما ينبغي أمر معظم من أمور مصالح المُلْك والملة ومن مهام اشتغال الدولة والسلطنة، وقد أحيل على عاتقك وفوض إليك حماية وصيانة الحجاج ذوى الابتهاج الناهضين من مصر القاهرة، فكن على بصيرة وعلى يقظة وأمن مسالك الحج بعون الله واسهر على حفظ الحجاج وصيانتهم فلا يلحق بفرد منهم أذى وإبذل قصارى جهدك على ذهابهم وقبولهم برفاهية حال وفراغ بال" (١).

وفي حكم آخر إلى والى مصر من السلطان العثماني تأكيد واضح على أهمية تأمين الأسلحة والمعدات والذخيرة العسكرية اللازمة لتأمين السفن القادمة والمغادرة من وإلى مينائى ينبع وجدة، لا سيما أن هذه السفن تنقل الحجاج القادمين لأداء فريضة الحج (٢)، ليس هذا فحسب وإنما كان هناك اهتمام من الدولة العثمانية بتأمين أفضل المراكب للحجاج القادمين من عاصمة الدولة، ففي الأمر السلطاني الصادر إلى قائم مقام الآستانة وإلى القبودان باشا توجيه صريح بتجهيز السفن الكبيرة والجديدة الموجودة في موانئ العاصمة إسطنبول وحتى لو لم تكن سفنا عثمانية خاصة أو أميرية،

(١) وثيقة عثمانية - الأرشيف العثماني - إسطنبول - دفتر المهمة رقم ١٠٤ - حكم سلطان برقم ٧٩١ أوائل شهر رجب سنة ١١٠٤هـ / أوائل سنة ١٦٩٣ م .

(٢) وثيقة عثمانية - الأرشيف العثماني - إسطنبول - دفتر المهمة رقم ١٨٠ - حكم سلطان برقم ٦٨٢ في أواخر ربيع الثاني سنة ١١٠٩هـ .

٥٦٨ ————— جهود الدولة العثمانية في تأمين الطريق البحري من عاصمة الدولة إلى الحرمين الشريفين واستئجارها للحجاج وإرسال قوة عسكرية لحمايتها حتى تصل إلى الموانئ المصرية في أمن وأمان لأداء فريضة الحج وزيارة مسجد المصطفى ﷺ^(١) .

من هنا يتأكد لنا أن الدولة العثمانية لم تَغفَلْ في أى يوم من الأيام عن تأمين طريق الحاج البحري من عاصمة الدولة - إسطنبول - أو أى ميناء من موانئها الكثيرة إلى الحرمين الشريفين ، وكان ذلك هو ديدنها وتعتبره فخراً لها حتى في مراحلها التاريخية المتأخرة لم تَغفَلْ عنه ، فهي تطلب من قائم مقام ينبع البحر على شاطئ البحر الأحمر أن يبذل قصارى جهده وكل طاقته لحماية الحجاج القادمين إلى الميناء ، فهذا العمل من واجبات الدولة المقدسة^(٢) ، وفي نفس الوقت تؤكد على والى الحجاز أن يُكَلِّف قادة السفن العثمانية في البحر الأحمر بتعليق العلم العثماني ذى الهلال والنجم عند سفرها وقدموها لأهمية أمنها وأمن القادمين عليها من الحجاج المسلمين^(٣) .

* * *

(١) وثيقة عثمانية - الأرشيف العثماني - إسطنبول - دفتر المهمة رقم ١١٠ - حكم سلطان برقم ٢٥٤

في أواخر جمادى الآخرة سنة ١١١٠هـ .

(٢) وثيقة عثمانية - الأرشيف العثماني - إسطنبول - دفتر العينيات رقم ٨٧٣ صفحة ١٤٤ في ٤ صفر

سنة ١٢٩٠هـ -

(٢) وثيقة عثمانية - الأرشيف العثماني - إسطنبول - دفتر العينيات رقم ٨٧٦ صفحة ١٢ في ١٠ ربيع

الأول سنة ١٢٩٢هـ .

الوثائق والمصادر والمراجع

(أ) - الوثائق :

- ١- الأرشيف العثماني - اسطنبول - دفاتر المالية رقم ٢٠١١٥ - دفتر الأحكام المالية .
- ٢- الأرشيف العثماني - اسطنبول - دفاتر المهمة - دفتر رقم ٧ - فرمان رقم ٣٧٣ .
- ٣- الأرشيف العثماني - اسطنبول - كيه جي - رقم ٢٣٠ - دفتر الرؤوس - صحيفة رقم ١٨٧ .
- ٤- الأرشيف العثماني - اسطنبول - دفاتر المهمة - دفتر رقم ٣١ - الحكم السلطاني رقم ١٩٧ .
- ٥- الأرشيف العثماني - اسطنبول - دفاتر المهمة - دفتر رقم ١٠٤ - الحكم السلطاني رقم ٣٤٨ .
- ٦- الأرشيف العثماني - اسطنبول - دفاتر المهمة - دفتر رقم ١٠٤ - الحكم السلطاني رقم ٧٩١ .
- ٧- الأرشيف العثماني - اسطنبول - دفاتر المهمة - دفتر رقم ١١٠ - الحكم السلطاني رقم ٢٥٤ .
- ٨- الأرشيف العثماني - اسطنبول - دفاتر المهمة - دفتر رقم ١٨٠ - الحكم السلطاني رقم ٦٨٢ .
- ٩- الأرشيف العثماني - اسطنبول - دفاتر العينيات - رقم ٨٧٣ .
- ١٠- الأرشيف العثماني - اسطنبول - دفاتر العينيات - رقم ٨٧٦ .

(ب) - المصادر والمراجع العربية والمعربة :

- ١- إبراهيم بك حليم : التحفة الخليمية في تاريخ الدولة العلية ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت .
- ٢- أحمد بن حنبل : مسند الإمام أحمد بن حنبل .
- ٣- أحمد جودت باشا : تاريخ جودت ؛ تحقيق د. عبداللطيف الحميد ، ط ١ ، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م ، مؤسسة الرسالة ، بيروت .
- ٤- السيد أحمد زيني دحلان : الفتوحات الإسلامية بعد مضي الفتوحات النبوية ، ط ١٣٨٧هـ / ١٩٦٨م نشر مؤسسة الحلبي وشركاه - القاهرة .
- ٥- أحمد عبد الرحيم مصطفى : فى أصول التاريخ العثماني ، الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م دار الشروق ، القاهرة .
- ٦- أحمد فريدون بك : منشآت سلاطين ، نُشر في إسطنبول ، سنة ١٢٧٤هـ / ١٨٥٨م .
- ٧- أحمد بن محمد الحموي : فضائل سلاطين بين عثمان ، تحقيق د. محسن محمد سليم ، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م - دار الكتاب الجامعي ، القاهرة .

٥٧. ————— جهود الدولة العثمانية في تأمين الطريق البحري من عاصمة الدولة إلى الحرمين الشريفين
- ٨- أرغون : المصاييح المنيرة في تواريخ القرون الأخيرة، ترجمة حنفي هند بن إسماعيل ب.ت.ن.
- ٩- أكمل الدين إحسان أوغلي وآخرون : الدولة العثمانية تاريخ وحضارة ، ترجمة صالح سعداوى ، ط ١٩٩٩م مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية - إستانبول .
- ١٠- برنارد لويس : إستانبول وحضارة الخلافة الإسلامية ، ترجمة د.سيد رضوان على ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ، الدار السعودية للنشر والتوزيع ، جدة ، المملكة العربية السعودية .
- ١١- جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى : حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور ، تحقيق محمد كمال الدين عز الدين ، الطبعة الأولى ، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م ، منشورات عالم الكتاب .
- ١٢- خلف بن دبلان الوديناني : الفتح العثماني لجزيرة رودس ، معهد البحوث وإحياء التراث الإسلامي جامعة أم القرى - مكة المكرمة - ١٤١٨هـ/١٩٩٧م .
- ١٣- خليل ساحلى أوغلى : من تاريخ الأقطار العربية في العهد العثماني ، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية ، إسطنبول ، ٢٠٠٠م .
- ١٤- رزق الله منقريوش الصدفى : تاريخ دول الإسلام ، مطبعة الهلال ، القاهرة ، ١٣٣٦هـ/ ١٩٠٨م .
- ١٥- روبر مانتران : تاريخ الدولة العثمانية ، ترجمة بشير السباعي ، ط ١ ، ١٩٩٣م ، دار الفكر للدراسات والنشر ، القاهرة .
- ١٦- زياد أبو غنيمة : جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م ، دار الفرقان للنشر والتوزيع ، عمان ، الأردن .
- ١٧- زين نور الدين زين : الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان ، الطبعة الثانية ، دار النهار للنشر - بيروت ١٩٧٧م .
- ١٨- سهيل صابان : المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية ، ط ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م ، مكتبة الملك فهد الوطنية - بالرياض .
- ١٩- صولاق زادة : تاريخ صولاق زادة ، مطبعة محمود بك ، الآستانة ، ١٢٩٨هـ ، مكتبة أوقاف الديانة ، إسكودار ، إسطنبول .
- ٢٠- عاشق باشا زاده : تواريخ آل عثمان ، إستانبول ، ١٣٣٢هـ ، مطبعة عامرة .

- ٢١- عبد الرحمن الجبرتي : تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار ، دار الجليل ، بيروت ، د.ت.ن.
- ٢٢- عبد الرحيم بن عبد الرحمن العباسي : منح رب البرية في فتح رودس الأبية ، تحقيق د. فيصل بن عبد الله الكندري ، الحولية الثامنة عشرة من حوليات كلية الآداب ، جامعة الكويت ، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م .
- ٢٣- عبد العزيز محمد الشناوي : الدولة العثمانية ، دولة إسلامية مفترى عليها، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٨٠م .
- ٢٤- عبدالقادر دده أوغلو : السلاطين العثمانيون ، ترجمة محمد جان ، دار سحنون للنشر ، تونس ١٩٩٢م .
- ٢٥- فيصل بن عبد الله الكندري : تحقيق مخطوط " منح البرية في فتح رودس الأبية " ، ترجمة للرسالتين المنقولة عن : جلال زادة مصطفى جلي : طبقات الممالك ودرجات المسالك ، مكتبة متحف طوب قابي سراي إسطنبول .
- ٢٦- كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ، نقله إلى العربية - نبيه أمين فارس منير البعلبكي ، الطبعة التاسعة ١٩٨١م ، دار العلم للملايين - بيروت .
- ٢٧- كلشني : كلشن معارف ، ط ١٢٠٢هـ ، إسطنبول - مكتبة أوقاف الديانة الإسلامية ، كتب خانة ، اسكودار ، إسطنبول .
- ٢٨- محمد بن أحمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور ، تحقيق محمد مصطفى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م .
- ٢٩- محمد أمين المكي : الآثار المبرورة والمشكورة لسلاطين آل عثمان في الحرمين الشريفين ، إسطنبول ، مطبعة عثمانية ، ١٣١٨هـ .
- ٣٠- محمد بن أبي السرور البكري الصديقي : نصره أهل الإيمان بدولة آل عثمان ، دراسة وتحقيق د. يوسف بن علي بن رابع الثقفي ، الطبعة الأولى ، ١٤١٥هـ ، مطابع الصفا ، مكة المكرمة .
- ٣١- محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م - دار القلم للطباعة والنشر - دمشق .
- ٣٢- محمد بن عبد اللطيف البحراوي : فتح العثمانيين عدن - وانتقال التوازن الدولي من البر إلى البحر الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م ، دار التراث - القاهرة .

- ٥٧٢ ————— جهود الدولة العثمانية في تأمين الطريق البحري من عاصمة الدولة إلى الحرمين الشريفين
- ٣٣- محمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، تحقيق د.إحسان حقي ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م دار النفائس - بيروت .
- ٣٤- محمد فؤاد كوبريلي : قيام الدولة العثمانية ، ترجمة د. أحمد السعيد سليمان ، وقدم له د. أحمد عزت عبد الكريم ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ، د.ت.ن.
- ٣٥- محمد كمال الدسوقي : الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ط ١٩٧٦م.
- ٣٦- محمد مصطفى صفوت : فتح القسطنطينية وسيرة السلطان محمد الفاتح ، منشورات الفاخرية بالرياض ، ب.ت.ن.
- ٣٧- يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، منشورات مؤسسة فيصل للتمويل إستانبول ، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م .
- ٣٨- يوسف آصاف : تاريخ سلاطين آل عثمان ، تحقيق بسام عبد الوهاب الجاي ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م ، دار البصائر - دمشق .

(ج) - المراجع الغير عربية :

- 1- F.R.UNAT-M.A. " محمد نشري : جهان نما " تاريخ نشري " Koymen, Ankara , 1949 , 1957 , TTK.Basimevi , C.II.
- 2- Munir Atalar : Osmanli Devletinde Surre-I Humayun ve Surre Alaylari, Ankara , 1991, Diyanet -1 sleri Başkanligi Yayinlari
- 3- Osmanli Devletinin-Merkez ve Bahriye Teşkilâti ismail Hakki Uzuncarsili-C.3.Ankara - 1988
- 4- Sydney Nettleton Fisher : The Middle East History , London , Second Edition , 1971

عرض الكتب

obseikan.com

Mine Ener : Managing Egypt's Poor and the Politics of Benevolence 1800 - 1952, Priceton University Press 2003 (pages 195)

هذا كتاب فريد لمؤلفته "مينا إنر" (١٩٦٥ - ٢٠٠٣) التركية الأصل، الأمريكية الجنسية التي رحلت عن عالمنا في ظروف مأساوية ، قبل أن يصدر الكتاب بشهور قليلة، وهو - في الأصل - رسالة دكتوراه في التاريخ الاجتماعي .

ويقع الكتاب في خمسة فصول وخاتمة ضمنيتها الباحثة ما توصلت إليه من نتائج . فخصصت **الفصل الأول** : للمفاهيم المتصلة بمواجهة مشكلة الفقراء في مصر ، فحاولت أن تميز بين مفاهيم « الإحسان » ، و « العمل الخيري » ، و « البر » ، واتخذت من الثقافة الإسلامية عامة والتراث الثقافي المصري خاصة إطاراً لشرح هذه المفاهيم . وقدمت في **الفصل الثاني** : أسس التمييز بين الفقير الذي يستحق المساعدة ، والفقير الذي لا يستحق ذلك ، فتناولت في الفريق الأول الشحاذين وأصحاب العاهات والعاجزين عن العمل والأرامل واليتامى ، وعرضت لأوضاع الفريق الثاني من فقراء أهل الحرف . وفي **الفصل الثالث** : قدمت دراسة لتزلاء تكية ابن طالون وأوضاعهم كما استخلصتها من الوثائق المصرية . وفي **الفصل الرابع** : تناولت مشكلة الفقر في مصر أسبابها والشرائح الاجتماعية المندرجة فيها ، وجعلت من **الفصل الأخير** : دراسة لما طرح على الساحة المصرية من مقترحات وسياسات لمواجهة مشكلة الفقر سعياً وراء التخفيف من آثارها السلبية على مستقبل البلاد .

وفي خاتمة الكتاب : ربطت الباحثة بين أسلوب معالجة مشكلة الفقر في مصر في القرن التاسع عشر ، وأسلوب معالجتها في القرن العشرين ، فعلى حين كان هم الحكومة إيجاد مأوى للشحاذين والمسولين يقيمهم شر الوقوع في شباك الإرساليات التبشيرية التي استهدفت العمل بين الفقراء ، والحرص على عدم اندفاعهم لارتكاب

الجرائم عن طريق جمعهم في التكايا التي أقامها الحكام وأهل الخير من الأثرياء ، وأوقفوا عليها الأوقاف ، هذا فضلاً عن آليات الإحسان المختلفة التي حددها الدين ودورها في مساندة الفقراء ؛ فسياسات مواجهة الفقر في القرن التاسع عشر كانت غائبة ، وكانت مواجهة الفقر متروكة للمجتمع ، تعتمد على مبادرة القادرين فيه على البر والإحسان والخيرات .

وفي القرن العشرين بدأت الأحزاب السياسية تهتم بمشكلة الفقر ، لا سيما لإيجاد حل لها ، ولكن لكسب أصوات الفقراء في الانتخابات عن طريق مساهمة رجال الأحزاب في أعمال البر ، وسجلت الباحثة ما توصلت إليه من أن معالجة مشكلة الفقر باعتبارها حجر الزاوية في التنمية لم تعرفها مصر قبل ثورة يوليو ١٩٥٢ .

والكتاب يعتمد على الوثائق المصرية والدوريات والعديد من الدراسات التي تناولت تطور مصر الاجتماعي .

ر . ع

« برنارد لويس » : أين الخطأ ؟ التأثير الغربي واستجابة المسلمين

ترجمة محمد عناني ، الناشر سطور ، القاهرة ٢٠٠٣ (٢٦٩ صفحة)

صدرت الطبعة الإنجليزية من هذا الكتاب في خريف ٢٠٠١ ، عشية حادث ١١ سبتمبر الذى مثل ساعة الصفر لانطلاق « المحافظون الجدد » لتنفيذ مشروعهم الإمبراطورى التوسعى تحت مسمى « الحرب على الإرهاب » . لذلك تلقفت أيدي القراء فى الغرب الكتاب عند صدوره ، فى ظروف كان الجميع فيها يسعون إلى فهم موقف الإسلام والمسلمين من الغرب .

وصاحب الكتاب هو المستشرق البريطانى الأشهر " برنارد لويس " الذى أوقف حياته منذ نهاية الحرب العالمية الثانية على تقديم صورة سلبية للإسلام، هدفها : استتارة القارئ الغربى ضد الإسلام وأهله . والكتاب الجديد يردد مقولات المؤلف السابقة التى نشرها فى كتب عديدة منها : « الإسلام والغرب » و « الإسلام فى التاريخ » ، و « اكتشاف المسلمين لأوروبا » و « اللغة السياسية للإسلام » ، و « ثقافات متصادمة » وكلها ظاهرها علمى وباطنها سياسى ، كتبت لخدمة الصهيونية ، وحشد تأييد الرأى العام الغربى لها .

والكتاب يقع فى سبعة فصول ، عالج أولها ما أسماه المؤلف : « دروس ساحة القتال » وفيه يركز على العداء القديم بين العثمانيين وأوروبا الذى بلغ ذروته بجزيمة العثمانيين أمام أسوار فينا عام ١٦٨٣ ، وكيف ولدت هذه الهزيمة روح الثأر عند المسلمين، وجعلتهم يكنون الكراهية للغرب ويتحينون الفرص للانقضاض عليه . وفى الفصل الثانى يتحدث عن مرحلة الاستعمار الغربى الذى كان يستهدف جنى الثروات والتزود بأسباب القوة ، وكانت بلاد المسلمين مسرحاً له ، مما زاد من إحساس المسلمين بالكراهية نحو الغرب ، وتحميله مسئولية ما أصابهم من تخلف وضعف ، وفى الفصلين : الرابع والخامس تناول محاولات التحديث ، وبناء الدولة الحديثة فى بلاد الإسلام ، وإن

انصرف اهتمامه على العالم العربي ، وفي الفصل الأخير : تناول مظاهر التغير الثقافي من وجهة نظره .

وفي خاتمة الكتاب : يلقي "برنارد لويس" بكل ما في سلتة من مقولات تقود القارئ الغربي إلى نتيجة واحدة : فالمسلمون قوم أوغاد بطبعهم يكرهون الآخر الذي يختلف معهم في الدين ، ويريدون تدمير الغرب ، وذبح اليهود انتقاماً لعجزهم وتخلفهم . ويتحلى عداؤهم للسامية في رفضهم القبول بالكيان الصهيوني ، ومشكلتهم الأساسية هي ثقافتهم التي تجعلهم لا يندمجون مع الآخر . فإذا أراد المسلمون صلاحاً لأمرهم فعليهم تبني الثقافة العصرية (الغربية) ، وإلا أصبحوا عرضة للسيطرة الأجنبية ، عليهم أن يكفوا عن الشكوى ، وإلا سيكون مصيرهم مصير « من يفجر نفسه والآخرين بقنبلة » !

وترجمة الكتاب إلى العربية تساهم - دون شك - في توعية القارئ العربي بأصول أيديولوجية الهيمنة الغربية الحديثة ، ويستحث الهمم على مواجهتها بتصحيح صورة المسلمين عند الرأي العام الغربي .

ر . ع

«إيريك هوبسباوم» و«تيرنس رينجر» (محرران) : اختراع التراث دراسات عن التقاليد بين الأصالة والنقل والاختراع

ترجمة "شيرين أبو النجا وآخرين" ، مراجعة وتقديم : "عاصم الدسوقي"
نشر مركز البحوث والدراسات الاجتماعية ، جامعة القاهرة ،
القاهرة ٢٠٠٤ (٤١٦ صفحة)

هذا كتاب تولى الإشراف على تحريره مؤرخ بارز ، ومتخصص في التراث ، نشر
بالإنجليزية عام ١٩٩٣ ، وترجم إلى العربية ونشر عام ٢٠٠٤ .

والكتاب يعرض في فصوله السبعة لإشكالية أبعاد التراث الثلاثة : الموروث ،
والمقول ، والمخترع ، ومدى إمكانية اعتبار التراث من المقدسات ، وأى تلك الأبعاد
تضفى عليه هذه الصفة . وتتناول دراسات الكتاب : أوروبا وأفريقيا والهند ، ليقول
لنا : إن ما نظنه موروثاً ثقافياً وتقاليد واجبة الاحترام ما هى إلا اختراع من صنع القوة
المسيطرة التي تفرض نموذجها في الحياة على الآخرين ليكونوا نسخة مشابهة ، ولكن
تحت هيمنة القوة المسيطرة .

وكشفت لنا تلك الدراسات كيف أن القوة المسيطرة في أى بلد أوروبى صنعت
تراثاً من عندها ، وهيات له أسباب السيادة ، وكيف قامت تلك البلاد بنقل تراثها
المصطنع معها إلى مستعمراتها في آسيا وأفريقيا والأمريكيتين ، وأوجدت هناك عناصر
أو نخب تتأققت معها ، وجدت تلك العناصر - في محاكاة القيم الوافدة - مصلحة لها
على حساب تراثها الوطنى ربما بدافع الإحساس بالنقص أمام قوة القهر الاستعماري ،
مما يترتب عليه صراع في تلك البلاد بين الثقافة الوطنية وثقافة المستعمر الوافدة .

وينتهى الكتاب بالدعوة إلى إعادة النظر في كل مقولات الثقافة والتقاليد في بلاد
أخرى ، غير البلاد التي وردت فيها في الدراسات التي شملها الكتاب ، وخاصة أن
الكتابات في هذا المجال نادرة في الأدبيات السوسيولوجية والإنثروبولوجية ، مع غياب
هذا الجانب في الموسوعات .

وعلى الرغم مما قد يبدو من « تأصيل » لفكرة « اختراع » التراث في هذا الكتاب ، وعدم تناوله لبلاد عربية أو إسلامية ، إلا أنه يوجه رسالة - على درجة كبيرة من الخطورة - تتوافق مع « عصر العولمة » الذى يدعو إلى تغليب الثقافة التى ثبتت قوتها وتفوقها فى عصر الحضارة الرقمية ، ويقصد بها الحضارة الغربية ، ويقدم أطروحة (علمية) لمواجهة الدعوات إلى مقاومة العدوان على الثقافات الوطنية ، ومحاولة مسخها وإهدار هوية الشعوب . فإذا كان التراث مبتدعاً مصطنعاً ، تكون من خلال عملية تاريخية معقدة ، فما جدوى الحرص على بقائه والتمسك به ؟

ومن هنا ، تأتى أهمية ترجمة هذا الكتاب ، وإتاحته فى المكتبة العربية ، حتى نقف على الأطروحات الفكرية التى تخدم التوسع الغربى الجديد فى عصر العولمة .

ر . ع

« مجدى حماد » : جامعة الدول العربية ، مدخل إلى المستقبل

عالم المعرفة ٢٩٩ ، الكويت ، يناير ٢٠٠٤ (٥٢٠ صفحة)

هذا كتاب جاء ليلبي حاجة ماسة في واقعنا العربي المعاصر ، صاحبه باحث متميز في العلوم السياسية ، وممن توفرت لهم خبرة واسعة بشئون جامعة الدول العربية طوال عمله فيها ، فهو يجمع هنا بين الدراسة والتجربة معاً ، مما يعطى الكتاب أهمية خاصة . ويركز البحث على «مؤسسات» النظام العربي من زاوية ارتباطها بمسألة ؛ ولذلك يتخذ من إنشاء الجامعة نقطة انطلاق ، كما يركز عليها باعتبارها أولى وكبرى « مؤسسات » النظام العربي من ناحية ، وباعتبارها تعكس ظروف مؤسسات النظام العربي الأخرى وأحوالها ، من ناحية أخرى . فلا شك أن مرور ستة عقود على إنشاء الجامعة ، وما تفرع عنها ، أو نشأ بجانبها من مؤسسات ، أعطى المؤلف فرصة كافية لتقييم دور الجامعة في الوطن العربي ، وتحليل أسباب الانتقادات التي توجه إليها ، ورده إلى أصوله ودوافعه ومرامييه .

وينقسم الكتاب إلى ستة فصول ، خصص الفصل الأول منها : لدراسة أصول أزمة الجامعة ؛ وتناول في الفصل الثانى : الجامعة فى علاقة جدلية مع النظام العربى ، محلاً واقع هذا النظام وتأثيره على الجامعة من شتى النواحي . وعرض فى الفصل الثالث: لمحاولات تطوير الجامعة . وقدم فى الفصل الرابع : استشرافاً لمستقبل الجامعة ، وخص عهد عمرو موسى كأمين عام جديد فى ظل نظام قديم ، خصه بالفصل الخامس ، وأخيراً : جعل من الفصل الأخير إطاراً لما طرح من مبادرات ومقترحات جديدة .

وفى خاتمة الكتاب : دعا المؤلف إلى ضرورة الحفاظ على الجامعة باعتبارها الهيكل التنظيمى الوحيد للنظام العربى ، وباعتبارها الحصن الأخير له، وخاصة أنه خرج من تقييمه للجوانب الإيجابية والجوانب السلبية بترجيح كفة الأولى على الأخيرة ، وخاصة أن من يطرحون الحلول القطرية أو الإقليمية على حساب الحل القومى سوف ينتهى

بم الأمر إلى التأكد من أن تحقيق التنمية ، وحماية الاستقلال والسيادة ، فضلاً عن صيانة الأمن القومي على المستوى العربي - لن يتأتى عن غير طريق العمل العربي المشترك .

ولكن ذلك يقتضى : تطوير الجامعة من حيث الآليات والأدوات والأداء ، أى : من حيث بناء منظومة حقيقية وشاملة لمؤسسات العمل العربي المشترك كافة . ولا بد أن يتحول دور الجامعة من تنسيق العلاقات العربية إلى دفعها على طريق العمل العربي المشترك .

ر . ع

« عبد الله على إبراهيم » : الشريعة والحداثة مبحثاً في جدل الأصل والعصر

دار الأمين ، القاهرة ٢٠٠٤ (١٧٤ صفحة)

هذا كتاب لباحث سوداني ، يعالج موضوعاً ندرت الكتابة فيه ، وهو حركة التشريع والقانون والقضاء على مدى القرنين الماضيين . ومجال الكتاب يعد مجالاً مهملاً نحن في أشد الحاجة إلى أن تتجه جهود الباحثين إليه ، ممن تتوافر لديهم دقة نظر المتخصص ، وشمول النظرة الثقافية العامة ، مع التحلي بأكبر قدر ممكن من الموضوعية .

والكتاب يتناول : منشأ التجديد الإسلامي في السودان الذي يوصف عادة « بالأصولية » الإسلامية . ويعارض الكتاب منهج « التحديث » الذي يرى في التمسك بالتراث التقليدي ردة عن طريق التجديد ، ويتناولها تناولاً نقدياً من زاوية ارتباط ما سمي بالتحديث بالزحف الغربي على بلاد الإسلام ، الذي استهدف مسخ هويتها ، وبإطار منهجي عاج الدين في سياقه السياسي والاجتماعي والتاريخي ، ومن ثم أبرز فهمه للأصولية باعتبارها مشروعاً « تحررياً » على ضوء دراسته للنظام القضائي في السودان .

ويقع الكتاب في سبعة فصول ، عاج الفصل الأول : الأسلوب الذي أدار به القانون الوضعي خلال الفترة الاستعمارية - ظهره للشريعة الإسلامية ، فيما عده « استشرافاً داخلياً » . وتناول في الفصل الثاني : صراع القضاة الشرعيين والمدنيين والتجديد الإسلامي في السودان . وفي الفصل الثالث : قدم دراسة تحليلية للتجديد القانوني المستمد من الشريعة ، الذي عده « متقدماً » مقارنة بما اتسمت به الحداثة من « الرجعية » . وخصص الفصل الرابع : لفكر "حسن الترابي" الذي يقدم رؤية للتجديد

الإسلامي ، على حين قدم في الفصل الخامس : فكر القانونيين الجامعيين وتأثيره السلبى على قوام الجامعة الإسلامية ، وقدم في الفصلين الأخيرين من الكتاب : نماذج من أفكار "عبد الله الشيخ البشير" ، و"الشيخ مدثر البوشى" .

ومن الغريب ، أن الكتاب لا ينتهى بخاتمة يقدم فيها المؤلف ما توصل إليه من نتائج، ربما لأن طريقته في المعالجة كانت انعكاساً لنتائج توصل إليها من خلال الدراسة والعمل السياسى ، ثم راح يعالجها في الجزئيات التى كونت الفصول السبعة ، ولكن القارئ يحتاج إلى استخلاص الرؤية التى تمثل محور الدراسة . كذلك قدم فى موضوع قائمة المراجع : كلمة عامة أشار فيها إلى بعض ما أفاد به من الكتب وبعض من شاركهم قضايا الكتاب من الأصدقاء والمتخصصين ، ولكن ما يعطى الدراسة مذاقاً خاصاً إبرازها للخصوصيات الوطنية السودانية ، يضعها فى مكانها الصحيح عن دراسة مصر أو غيرها من الأقطار العربية الأخرى . وخاصة نظرته إلى تقنين الشريعة الإسلامية باعتبارها : « حركة تحررية » من ثقافة الاستعمار .

ر . ع

الفروسية : الجزء الأول - فنون الفروسية فى تاريخ المشرق والمغرب

عَرَبَهُ وَحَرَّرَهُ وَعَلَّقَ عَلَيْهِ "شهاب الصَّرَاف" ، الرياض

مكتبة الملك عبد العزيز العامة ٢٠٠٢م ، ٢٧٤ صفحة ، ٣٧ × ٢٧سم

يتناول هذا الكتاب مَوْضُوعًا مُهِمًّا هو « الفروسية » بكلِّ جوانبها المتمثلة فى : رُكُوب الخَيْل وسياستها ، وتدريب الفارس على استخدام الأسلحة ، وفن الرَّمى بالقوس ، والصيد بمختلف أنواعه ، واللعب بالكرة والصولجان ، والتي تُعدّ حَصيلة تزاوج ثقافات شُعوب المنطقة التي ازدهر فيها الإسلام ، بحيث أضحت نتاجًا فريدًا وأصيلًا للحضارة العربية الإسلامية وتجلياتها فى السَّلْم والحَرْب .

وبذلك ، أصبح كُلُّ فَرَعٍ من فروع الفروسية علمًا قائمًا بنفسه ، أشبه السَّلَفُ بحثًا وتنقيًا ، ووضَعُوا فيه تصانيف عديدة تَنَجُّ عنها أدبٌ مستقل أطلق عليه : « أدب الفُروسية » .

ويضمّ هذا المجلد : ثلاثين دراسة تتوزّع على فترة زمنية تمتدُّ من الألف الرابع قبل الميلاد ، وحتى القرن الثالث عشر الهجرى ، والتاسع عشر للميلاد ، ويتقاسم نطاقها الجغرافى مناطق الشرق العربى والشرق الإسلامى وامتداداتها الآسيوية ، وبلاد المغرب العربى وامتداداتها الأفريقية والأوروبية (أسبانيا) وجاءت مقالاته لتُغطّى مختلف التَّخصّصات كالتاريخ والآثار والفنون الإسلامية مع بعض الإسهامات المتخصصة فى الفن الحربى والسلاح وعلوم الفروسية .

ومن بين مقالات هذا المجلد أشير إلى مقالة "ديفيد نيكول" المهمة عن « حرب الخيالة وتطورها فى العصور الإسلامية الأولى » والتي استعرض فيها كاتبها بمنهجية مركبة مراحل تطوُّر الخيالة والفن الحربى منذ الجيوش الإسلامية الأولى وحتى القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى . ومقال "شهاب الصَّرَاف" - محرر الترجمة العربية - عن « أدب الفروسية فى العصرين : العبّاسى والمملوكى » التي ضمّنها خلاصة مكثفة لأبحاثه فى الموضوع ، وأثبت فيها : أن أدب الفُروسية كُتِبَ منته فى

العصر العباسي ، الذي يعدّ أهم وأزهى عصور الفروسية في تجلياتها ومعانيها المختلفة ، وأنّ العصر المملوكي أعادَ نسخته وتدويره وإضافة إليه . ويمثل هذا المقال : مقدّمة منهجية أولية تعين الباحثين على تلمّس طريقهم في هذا المبحث الوعر .

وتناول "ألستر نورثيدج" في مقاله عن « سباق الخيل وميادينه في سامراء » هذا الموضوع من زاوية آثارية مع نبذة تاريخية مختصرة ، أمّا مقالة بيانه سيورت - ماير « ركوب الخيل في بداية العصر العباسي » فهي نصّ عن ركوب الخيل ورياضتها اجترى من مُصنّف « الفروسية والبيطرة » لابن أخي حزام الختلي " الذي يُعدُّ أقدم نصّ عن فن الركوب وصل إلينا من العصر العباسي الأوّل .

ويضم هذا المجلد كذلك مقالاً "لما يكل ما ينكه" عن الرثوك والفروسية في العصر المملوكي . حاول أن يربط فيها بين الرثوك والفروسية ، ومقالاً طريفاً "لروبرت إبروين" عن « أكل لحم الخيل وشرب لبن الأفراس في العصر المملوكي » تناول فيها جانباً من تقاليد الممالك الأتراك والمغول وعاداتهم ذات الصلة بالخيل ، والتي استوطنت معهم في مصر والشام .

وجاءت الفروسية العثمانية امتداداً للفروسية العربية الإسلامية ، ولكن مع شيءٍ من الحذف والإضافة ، ويشتمل الكتاب على مقالة واحدة عن « الفروسية العثمانية » "لمايكل روجرز" تناول فيها فرّق الخيالة والخيل عند العثمانيين .

وفي المجلد ، أيضاً عدّد من المقالات التي تناولت الخيل والفروسية من الناحيتين : الفنية والجمالية ، فتناولت "أنا كونتادين" في مقالتها « الخيل في مخطوطتين من كتاب منافع الحيوان لابن بختيشوع » ، المنمنمات التي ترين هاتين المخطوطتين وقارنت بينهما وبين فنّ التصوير الإسلامي ، وتحدّثنا "تيريز بيطار: عن « مخطوط مصوّر عن علم الخيل في المكتبة الوطنية بباريس مع نشر قطعة منه . ويستعرض "محمد عيسى ولي" في مقاله « مخطوط فرس - ناة المحفوظ في المكتبة الملكية بقلعة وندسور » مادّة هذا الكتاب المترجم إلى الفارسية من المصنّف المملوكي المعروف « كامل الصناعتين في البيطرة والزردقة » لأبي بكر بن البيطار .

ويشتمل المجلد كذلك على عدة مقالات عن تصوير الخيول في إيران والهند في القرن العاشر الهجري "لشيلا كانبي" وعن « ظهور مواضيع الصيّد في زخارف السجاجيد والأقمشة الصّفوية » "لدانييل ووكر" ، وعن « تصوير الخيول على المسكوكات الإسلامية » "لسعود ذياب" .

وخصّصت للحصان العربي مقالتان هما : مقالة "سايمون دغني" عن « تجارة الخيول العربية في الهند في العصر الوسيط » ، ومقالة علامة الجزيرة الراحل الشيخ "حمّد الجاسر" المعنونة « مخطوطة عباس باشا وأنساب الخيل العربية الحديثة » .

أمّا مُعرّب هذا المجلّد ومُحرّره والمُعلّق عليه ، فهو الباحث العراقي المعروف في مجال علوم الفروسية الدكتور "شهاب الصرّاف" مدير المركز الدولي لدراسات الفروسية في باريس ، الذي أسهم في الكتاب بمقالة مرجعية أساسية عن « أدب الفروسية في العصرين العباسي والملوكي » ، كما جاءت تعليقاته واستدراكاته على ما جاء في الطبعة الإنجليزية وشروحه المتخصصة ، إضافة إلى الكشافات الفنية التفصيلية التي صنّعتها للطبعة العربية والتي تخلو منها الطبعة الإنجليزية ؛ لتجعل من الطبعة العربية مرجعاً فريداً متميزاً لا غنى عنه للباحثين في علوم الفروسية والفروسية ، العربية الإسلامية بوجه خاصّ .

إنّ ظهور هذا المجلّد في طبعته العربية التي تولّت إخراجها مكتبة الملك عبد العزيز العامة بالرياض ، يعدّ بكل المقاييس إضافةً مهمّةً في حقل دراسة الفروسية ، هذا العلم الذي مازال في بداياته ، والذي يحتاج إلى تضامير جهود المتخصّصين لرسم حدوده وتثبيت ضوابطه وترسيخ تقاليد بحثه .

أ . ف . س .

العلاقات المصرية الأمريكية

الجزء الأول : الفترة من ٢٣ يوليو ١٩٥٢ إلى ٢٢ نوفمبر ١٩٦٣ ط ٢٠٠١ ، ص ٣٢٠

الجزء الثاني : من ٢٣ نوفمبر ١٩٦٣ إلى ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ ط ٢٠٠١ ، ص ٣٢٠

فطين أحمد فريد على

تدور المحاور الرئيسية لهذه الدراسة حول ثلاثة ثوابت ، لسياسة الولايات المتحدة الأمريكية تجاه مصر وهى :

١ - أن تتخذ الولايات المتحدة من مصر حليفاً طبيعياً للغرب بهدف إيقاف أية محاولة للزحف الشيوعى تجاه منطقة الشرق الأوسط .

٢ - محاولات التقريب بين مصر وإسرائيل ، والسعى إلى حل منفرد بينهما ، والوقوف ضد فكرة القومية العربية .

٣ - رفض الرئيس عبد الناصر لسياسة التبعية والأحلاف ، ودعوته للقومية العربية واصطدامه بالسياسة الأمريكية تجاه المنطقة ، ومعارضته لوضع ترتيباتها للدفاع عن الشرق الأوسط لإدراكه أنه ليس هناك خطر شيوعى يتهدد مصر .

وتكمن أهمية هذه الدراسة فى مصادرها ، وطريقة كاتبها فى التعامل مع هذه المصادر ، وتوظيفها فى كتابة دراسته . فقد اعتمد كتاب "العلاقات المصرية الأمريكية" على وثائق أصلية لم يتح لأحد الاطلاع عليها من قبل ، منها : وثائق القصر الجمهورى ، ومجلس الوزراء ، ووزارة الخارجية . وقد حاول المؤلف بحكم ما توافر له من خبرة ودراية ورؤية ، وتحليل دراسة ذلك الكم الضخم من هذه الوثائق والخروج بهذه الدراسة التى كشفت لنا النقاب عن العديد من خفايا العلاقات المصرية الأمريكية فى الفترة من ٢٣ يوليو إلى وفاة الرئيس "جمال عبد الناصر" فى ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ بما فيها من علاقات ثنائية تحللها صدام إدارات ومصالح ومواجهات أدارها "جمال

عبد الناصر" طوال ثمانية عشر عاماً وهو مرفوع الرأس ، متحملاً مسؤوليات وتبعات صدامه مع السياسة الأمريكية التي كانت قد بنت سياستها تجاه مصر منذ أن تصدرت زعامة العالم الغربي الرأسمالي في أعقاب الحرب العالمية الثانية على ثوابت لم تحاول تبديلها وهى : أنه يجب على مصر أن تكون حليفاً طبيعياً للغرب ، وأن تسير سياساته، وأنه يجب عليها أن تبني أيديولوجيتها على ذلك ، غير أن هذا المخطط بسياسة "عبد الناصر" ودعوته لمواجهة الأحلاف ورفضه التبعية للغرب ، وتشجيعه لحركة القومية العربية ؛ ولذلك برزت حتمية الصدام وتضارب المصالح بين الدولتين .

وتنقسم هذه الدراسة إلى فصل تمهيدى ، وتسعة فصول ، خمسة منها في الجزء الأول الذى يشمل الفترة من ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وحتى اغتيال الرئيس الأمريكى "جون كنيدي" في ٢٢ نوفمبر ١٩٦٣ وأربعة في الجزء الثانى الذى يشمل الفترة من ٢٣ نوفمبر ١٩٦٣ وحتى وفاة الرئيس "عبد الناصر" في ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ هذا بالإضافة إلى : مقدمة وخاتمة .

وقد تعرض الفصل التمهيدي في هذه الدراسة لجذور العلاقات المصرية الأمريكية منذ بدايات القرن التاسع عشر وحتى قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ ، موضحاً أن اهتمام الولايات المتحدة بمصر كان مقتصرًا - حتى الحرب العالمية الأولى - على الروابط الثقافية والتبشيرية والتجارية والخيرية ومركزاً على تغير هذه العلاقات في أعقاب الحرب الثانية ، بعد أن ازداد اهتمام الولايات المتحدة بمستقبل المنطقة السياسى ، فاستغلت ظروف هذه الحرب ، وقامت بتسيخ أقدامها في المنطقة ، وخاصة مصر بهدف تنمية مصالحها ، وإبعاد النفوذ البريطانى عنها واستبداله بالنفوذ الأمريكى ، وذلك عن طريق سياسة الخطوة خطوة ؛ مما أحدث رد فعل لدى بريطانيا التى حاولت وقف مد هذا النفوذ الوافد على المنطقة ولكن دون جدوى ، خاصة وأن القوى الوطنية المصرية كانت تميل في بداية الأمر إلى جانب الولايات المتحدة لاعتقادها أنها تدافع عن حق تقرير المصير ، وتقف بجوار الدول المقهورة وأن في إمكانها الضغط على الحكومة البريطانية لتسوية المسألة المصرية .

ومن أجل ذلك ، حرص الرئيس الأمريكي "روزفلت" على لقاء "الملك فاروق" في طريق عودته من «مؤتمر بالتا» في ١٣ فبراير ١٩٤٥ في عرض البحيرات المرة بقناة السويس، كما ازدادت روابط هذه العلاقات برفع درجة التمثيل الدبلوماسي بين مصر والولايات المتحدة في يونيو ١٩٤٦ من مستوى المفوضية إلى مستوى السفارة . ومع أن الولايات المتحدة مارست ضغوطاً على بريطانيا لوضع حل للمسألة المصرية ، فقد ساور الرأى العام المصرى الشكوك من المواقف الأمريكية ، خاصة بعد أن ماطلت الولايات المتحدة في إمداد مصر بالسلاح ، وبعد أن اتضحت نواياها تجاه مساندة إسرائيل . ونتيجة لذلك ، وقعت مصر معاهدة الضمان الجماعى العربى في ١٣ إبريل ١٩٥٠ وردت الولايات المتحدة على ذلك بإصدار بيانها المعروف بالبيان الثلاثى ، والذى تضمن حماية وجود إسرائيل في المنطقة . وفي هذا الجو غير الودى كان من الصعب تطوير علاقات مصر بالولايات المتحدة إلى الأفضل مما دفع الإدارة الأمريكية إلى البحث عن طريق لتنظيم الدفاع عن منطقة الشرق الأوسط بإنشاء قيادة متحالفة للشرق الأوسط ، تشترك فيها الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا وتركيا على أن تكون مصر مقراً للقيادة المتحالفة ، وأن يتم إقناع مصر بضرورة الانضمام إلى هذا الحلف ، ولكن إنشاء الغرب لإسرائيل ودعمه لها ، بذر بذور الشقاق بين الطرفين ، ووقف حائلاً دون تحقيق ذلك .

ورسم الفصل الأول المعنون : «الولايات المتحدة ومرحلة التقارب» عدم استقرار الأحوال في مصر قبيل قيام الثورة ، ونجاح الولايات المتحدة في تقويض التأثير الإنجليزى على "الملك فاروق" ، وقناعتها بأن ما حدث في ٢٣ يوليو ضد الملك أمر داخلى ، ورفضها تأييد أى تدخل بريطانى لإنقاذ عرش الملك ، واستمرار دورها النشط في تحريك عملية التفاوض مع الإنجليز ودفعها إلى الأمام ، وإعلان تأييدها للنظام الجديد في مصر وزيادة المعونات الاقتصادية والعسكرية له بشرط اشتراك مصر في التخطيط للدفاع المشترك عن الشرق الأوسط للحيلولة دون وقوع المنطقة في أيدي الشيوعيين ، وتشجيع مصر لعقد اتفاق سلام مع إسرائيل .

وتعرض هذا الفصل لإدارة الرئيس "أيزنهاور" ، ورغبتها في تحقيق الاستقرار في الشرق الأوسط ، مع الاحتفاظ بوضع منابع البترول في يد الولايات المتحدة ، ومعارضة مصر لوضع ترتيبات للدفاع عن الشرق الأوسط ، وتصميم الولايات المتحدة على الاضطلاع بدور قيادي في المنطقة ، ووصول "دالاس" إلى القاهرة حاملاً معه المشروع الخاص بالدفاع عن الشرق الأوسط، واستقبال مصر لهذا المشروع بفتور، ورؤيتها بأن الدفاع عن المنطقة لا بد وأن يستند أساساً إلى دول المنطقة ، واقتراحها بأن اتفاقية الدفاع المشترك القائمة بين الدول العربية هي البديل عن أى تحالف آخر .

وبالرغم من استمرار الحكومة المصرية في طلب السلاح من الولايات المتحدة ، فقد أدت ملاحظة الولايات المتحدة في الاستجابة لهذا الطلب إلى تحذير "عبد الناصر" من أن مصر قد تلجأ إلى الكتلة السوفيتية للحصول على السلاح ، وخلال ذلك أمكن الاتفاق بين مصر وبريطانيا على انسحاب القوات البريطانية من منطقة القناة على مراحل خلال عشرين شهراً من توقيع الاتفاقية ، في نظير التزام مصر بالدخول شريكاً في الدفاع المعادى ضد السوفييت ، وسعادة الولايات المتحدة بهذا الاتفاق وإعلانها عن فتح باب المعونة الأمريكية لمصر ؛ نظراً للدور المهم الذى يمكن أن تلعبه في ترتيبات الدفاع عن المنطقة ، وعلى أمل احتواء الثورة المصرية .

وتعرض الفصل الثانى المعنون : « الولايات المتحدة ومحاولات الاحتواء » إلى فشل المفاوضات حول المعونة العسكرية الأمريكية لمصر ، وتناقض المقترحات التى قامت عليها السياسة الأمريكية والمصرية بالنسبة لهذه المعونة ، وتشدد مواقف الولايات المتحدة تجاه مصر ، وإعراب الاتحاد السوفيتى عن استعدادة لإمداد مصر بالسلاح ، والعدوان الإسرائيلى على غزة ورغبة الدول الغربية في فرض إجراء تسوية نهائية للقضية الفلسطينية ، والتزام مصر بسياسة الحياد الإيجابي ، وسفر "عبد الناصر" إلى باندونج ، وتوسط رئيس وزراء الصين لإمكانية حصول مصر على سلاح من الاتحاد السوفيتى ، وإرسال بعثة عسكرية مصرية إلى موسكو بعد رفض الولايات المتحدة إمداد مصر بالسلاح ، والاتفاق سرّاً على أن تكون تشيكوسلوفاكيا هى المورد للأسلحة السوفيتية

لمصر مما زاد من حرج موقف الغرب ، خاصة وأن هذه الصفقة قد أدت إلى انهيار السياسة الأمريكية البريطانية في المنطقة ، وإدخال الاتحاد السوفيتي لأول مرة في محور السياسة العربية . وأنه نتيجة لتردد الغرب في مساعدة مصر لبناء السد العالي اتفقت مصر مع الاتحاد السوفيتي على تمويل هذا المشروع ، كما اتخذت خطوة كبرى أخرى بالاعتراف بالصين الشعبية ؛ مما أثار حالة من الغليان لدى الخارجية الأمريكية التي كانت تعد العدة لسحب قرار تمويل السد العالي .

وتناول الفصل الثالث المعنون : « سياسة التهدة وفشل محاولات الاحتواء » موضوع سحب الولايات المتحدة عرضها لتمويل السد بهدف معاقبة "عبد الناصر" بعد اعترافه بالصين الشيوعية ، وعقده صفقة الأسلحة مع السوفييت ، وإلجاء مصر على السير في ركاب الغرب ، مما أدى إلى استفزاز "عبد الناصر" ، ورده السريع والمباشر على القرار الأمريكي بتأميم شركة قناة السويس . كما تناول هذا الفصل مؤتمر لندن الأول ، وطرح وزير الخارجية الأمريكي «دالاس» حلاً لأزمة قناة السويس، يتضمن : وضع القناة تحت إدارة دولية تشمل مصر ، وأن تكون لهذه الهيئة صلة بالأمم المتحدة على أن تشكل بموجب معاهدة ينص فيها على أن تكون إدارة القناة طبقاً لاتفاقية القسطنطينية ١٨٨٨ ، وعدم سيطرة أية دولة منفردة أو مجموعة من الدول على الهيئة، وأن تفتح القناة لجميع الدول وحذر « دالاس » من أن عملية التأميم يمكن أن تقطع الموارد الاقتصادية الحيوية عن دول كثيرة في الغرب ، وانتهاء هذا المؤتمر بتشكيل لجنة لتحرى موقف مصر من الاقتراح الأمريكي ، ومدى استعدادها للموافقة على الدخول في مفاوضات على أساسه ، وإدلاء الرئيس الأمريكي « أيزنهاور » بتصريح تحدث فيه عن تدويل قناة السويس ، واحتجاج الحكومة المصرية على هذا التصريح ، وتراجع الولايات المتحدة عن موقفها .

وَتَطَرَّقَ هذا الفصل إلى بعثة رئيس الوزراء الاسترالي « روبرت متريس » إلى مصر، وفشل هذه البعثة في مهمتها ، ثم اعتراضات مصر على مشروع "جمعية المنتفعين" الذي اعتبرته اعتداء على سيادتها وحقوقها ، وإعلان الاتحاد السوفيتي عن

رغبته في المساهمة في الوصول إلى تسوية سلمية وبروز الخلافات بين الولايات المتحدة وبريطانيا بشأن الحل الأمثل لهذه المشكلة ، وإلى عقد مؤتمر لندن الثاني في ١٩ سبتمبر ١٩٥٦م وفشله ، وانتقال الأزمة إلى الأمم المتحدة ، ومحولات مصر الدبلوماسية لإقناع الولايات المتحدة باستعمال نفوذها للضغط على بريطانيا وفرنسا لمنع حدوث حرب ، وبذل جهودها لمساندة المساعي السلمية ، بما يصون حقوق مصر وسيادتها مع ضمان الملاحة في القناة، ورغبة الجانب السوفيتي في ضرورة الوصول إلى حل سلمى قبله جميع الأطراف المعنية ويحفظ سيادة مصر ومصالح مستخدمي القناة ، وبروز علامات الخلاف بين موقف الولايات المتحدة وكل من بريطانيا وفرنسا بشأن تسوية المسألة ، فبينما كانت الولايات المتحدة تسعى إلى تسوية المشكلة بالطرق السلمية كان الجانب البريطاني والفرنسي يسعى إلى الحرب واستخدام القوة ضد مصر ، بالتعاون مع إسرائيل تم اتضاح سيناريو العدوان في فجر يوم ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ حيث بدأ الهجوم الإسرائيلي على مصر ، وما أعقبه من إنذار بريطاني فرنسي إلى مصر وإسرائيل بالابتعاد بقواتهما عشرة أميال إلى شرق قناة السويس ، ورفض مصر للإنذار وتحول الأمور إلى متزلق خطير .

وشمل الفصل الرابع المعنون «العدوان الثلاثي وتأجيل المواجهة الأمريكية المصرية» موقف الولايات المتحدة من العدوان ، ودعوتها لعقد جلسة لمجلس الأمن بصفة عاجلة، وتقديمها بمشروع يطالب إسرائيل بالانسحاب فوراً إلى ما وراء خطوط المدينة، والامتناع عن استخدام القوة ، واجتماع مجلس الأمن وفشل المشروع الأمريكي بسبب الفيتو البريطاني الفرنسي ، وتبني مجلس الأمن لمشروع القرار اليوغوسلافي ، واجتماع الجمعية العام للأمم المتحدة وصدور قرارها بانسحاب القوات المعتدية وتطهير القناة ، وتلكؤ المعتدين في تنفيذ القرار ، والإنذار السوفيتي إلى كل من بريطانيا وفرنسا وإسرائيل بضرورة الامتناع لقرار الأمم المتحدة . كما تعرض هذا الفصل للسياسة الجديدة التي رسمتها الولايات المتحدة لمنطقة الشرق الأوسط ، ورغبتها في إقامة نظام جديد في المنطقة تتحمل فيه المسؤولية وحدها ، واستمرارها في الضغط على بريطانيا لتعلن موعد انسحابها ، وانتهاء المداوالات البريطانية الفرنسية بإصدار بيان في

٣ ديسمبر ١٩٥٦ أعلننا فيه إمكانية الجلاء عن مصر ، وتفكير الولايات المتحدة في العمل على معاونة بلاد منطقة الشرق الأوسط لرفع المستوى الاقتصادي والاجتماعي لشعبها وكسب صداقتها وثقتها ، مما يساعد على تدعيم الأمن والاستقرار وبحول دون الخطر الشيوعي ، وانسحاب إسرائيل من سيناء بعد أن أكدت لها الولايات المتحدة حق المرور في مضائق العقبة ، ومحاولات "أيزنهاور" تغيير مسار سفينة السياسة الأمريكية في الشرق الأوسط ، ورغبة عبد الناصر في تقوية علاقاته مع الولايات المتحدة وفتح صفحة جديدة معها بشرط عدم ارتباط مصر بالأحلاف ، واصطدامه مع مشروع "أيزنهاور" لملء الفراغ الناتج عن انحسار النفوذ البريطاني في منطقة الشرق الأوسط ، ومع رغبة الولايات المتحدة في أن تكون صاحبة الكلمة الأولى في المنطقة وتلويحها باتخاذ إجراءات اقتصادية ضد مصر إذا رفضت مصر المشروع ورفض مصر للمشروع وإعلان عبد الناصر أن أى دفاع عن المنطقة ينبعث من صميم المنطقة دون تدخل خارجي ، وانعدام الثقة بين البلدين والشعور الأمريكي بالنفور من أسلوب الحكم بمصر ، والدعاية المصرية المعادية للولايات المتحدة.

وتناول هذا الفصل أيضًا : اشتراط إسرائيل الانسحاب من شرم الشيخ وخليج العقبة بحققها في الملاحه في هذا الخليج ، وضغوط الولايات المتحدة بشأن وضع قوات طوارئ دولية في غزة وشم الشيخ ، وضمان حق إسرائيل فيما أسمته حق المرور البريء الحر في مضيق تيران وخليج العقبة . وفي أن مياه خليج العقبة دولية ، وأنه ليس من حق أية دولة أن تمنع المرور فيه ، كما تناول انسحاب القوات الإسرائيلية من قطاع غزة ، ودخول القوات الدولية منطقة شرم الشيخ ، ومحاولات الولايات المتحدة السماح للسفن الإسرائيلية بالمرور في قناة السويس ، ورفض مصر لذلك وبروز الاتفاق بين الأهداف الأمريكية المباشرة والإسرائيلية ، ولجوء الولايات المتحدة إلى أساليب الضغط والتهديد ومحاولات فرض الهيمنة ، والإجراءات التي اتخذتها ضد مصر بإعلانها تجميد الأموال المصرية الموجودة لديها ، ورفضها طلب مصر تزويدها بالغذاء والأدوية لمواجهة الأوضاع السيئة التي كانت تعاني منها بسبب العدوان الثلاثي ؛ مما اضطر "عبد الناصر" إلى طلب المعاونة من الاتحاد السوفيتي مع ميله إلى التهدة تجاه الولايات المتحدة .

وركز الفصل الخامس المعنون : « مرحلة المواجهة (مصر ناصر ومواجهة سياسات الولايات المتحدة) » على تتابع الأحداث في الشرق الأوسط وخشية الولايات المتحدة من سيطرة الشيوعيين على أنظمة الحكم به بعد محاولات قلب نظام الحكم في سورية ، والهجمات الدعائية عليها ، وقيام الوحدة بين مصر وسورية في ٢٢ فبراير ١٩٥٨ وانتخاب « جمال عبد الناصر » رئيساً لدولة الوحدة وانطلاق صيحات القومية العربية المنادية بالحرية والاشتراكية والوحدة ، ثم قيام وكالة المخابرات المركزية الأمريكية في بيروت بالعمل ضد نظام الحكم في مصر مستغلة في ذلك نظام « كميل شمعون » في لبنان الذي طلب رسمياً من الرئيس الأمريكي إنزال قوات أمريكية في بيروت لحفظ الأمن فيها .

وتعرض هذا الفصل لأبناء الانقلاب الذي أطاح بالأسرة المالكة في العراق وما أعقبه من نزول القوات البحرية الأمريكية إلى الشواطئ اللبنانية قرب بيروت ، ونزول القوات البريطانية إلى الأردن ومحاولات الولايات المتحدة التخلص من زعامة "عبد الناصر"، وتولى اللواء «فؤاد شهاب» رئاسة الحكومة اللبنانية بدلاً من «شمعون»، وحدثت توتر في العلاقات المصرية السوفيتية بسبب الوحدة المصرية السورية ، وتعلق الحركات التحررية في أفريقيا بمصر وبشخصية « جمال عبد الناصر » ومناهضة الولايات المتحدة لذلك ومحاولاتها تقويض النظام المصري ، وإلى جانب ذلك فقد تعرض هذا الفصل إلى أزمة الباحرة المصرية « كليوباترة » التي رأى اتحاد البحارة الأمريكيين مقاطعتها وعدم تفريغ حمولتها، ورد اتحاد العمال العرب على ذلك بمقاطعة البواخر الأمريكية ، وإلى الصدام في الكونغو ١٩٦٠ وتدخل الأمم المتحدة ، وإلى محاولات تحسين العلاقات بين مصر والولايات المتحدة ، وإلى مساندة مصر لحركات التحرر في أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية ، وإلى مؤتمر الدار البيضاء ١٩٦١ والذي كانت اجتماعاته بمثابة ثورة على السياسة الاستعمارية ودعوة لتحرير كافة الأراضي الأفريقية التي مازالت تحت السيطرة الأجنبية ، والالتزام بسياسة عدم الانحياز .

وبعد أن تولى « جون كينيدي » رئاسة الولايات المتحدة ارتكزت سياسته تجاه مصر على خطين متوازيين هما : مساعدة "عبد الناصر" في المواجهة الدائرة بينه وبين

الاتحاد السوفيتي ، والثاني هو منع تحويل مصر إلى قوة استراتيجية في المنطقة تضر بمصالح الغرب ، كما أشار هذا الفصل إلى مراسلات الرئيس « عبد الناصر » مع الرئيس « كنيدي » خاصة خطاب الرئيس « كنيدي » إلى « عبد الناصر » حول رأيه في الحل المناسب للصراع العربي الإسرائيلي وتسوية مشكلة اللاجئين ، وإلى انتهاج « عبد الناصر » لسياسة الحياد الإيجابي وعدم الانحياز ، وإلى صدمة الانفصال ، وإلى وقوع الانقلاب في اليمن الذي أطاح بأسرة « حميد الدين » وأعلن النظام الجمهوري ، ومساندة مصر لقادة الانقلاب وقيام السعودية بإيواء « الإمام البدر » وإلى مشكلة تواجد العلماء الألمان في مصر ونجاح إسرائيل في إبعادهم عنها ، وإلى اتجاه السياسة الأمريكية في الشرق الأوسط خلال إدارة « كنيدي » إلى منع حدوث أزمات مع مصر كما حدث في عهد الإدارات السابقة ، وإلى محاولة إعادة اكتساب بعض النفوذ الذي فقدته لمصلحة السوفيت ، عن طريق التقارب مع النظام المصري ، غير أن هذه المحاولة قد صاحبها العمل على تقوية العلاقات والروابط مع إسرائيل .

هذا عن فصول الجزء الأول الخمسة ، أما عن الجزء الثاني والمكون من أربعة فصول فقد تضمن الفصل الأول منه والمعنون : «مرحلة تصادم المصالح والسياسات بين البلدين» انزلاق العلاقات المصرية الأمريكية بعد اغتيال « كنيدي » من مرحلة الاحتواء والمواجهات البسيطة إلى مرحلة المواجهة والصدام العلني والمباشر في عهد الرئيس « جونسون » . فقد قامت الحكومة الأمريكية خلال هذه الفترة بضغط شديد على القاهرة في محاولة منها لترويض القيادة السياسية المصرية وإخضاعها لمصالحها باللين أولاً ثم بالقوة ثانياً ، وفشلت في المحاولتين ؛ فقد هاجم الرئيس «عبد الناصر» الولايات المتحدة وندد بمساعدتها لإسرائيل ، وطالب بتصفية القواعد الأمريكية في ليبيا وشمال أفريقية ، كما طالب بدعم السلام القائم على العدل وليس بسلام الأمر الواقع ، ثم ازدادت الأزمة في العلاقات بين مصر والولايات المتحدة توتراً بعد زيارة « نيكيتا خروتشوف » للقاهرة في مايو ١٩٦٤ وإعلان الاتحاد السوفيتي منح مصر قروضاً ومساعدة عسكرية بالإضافة إلى مساندة سياسية لا حدود لها في كفاحها ضد إسرائيل والغرب ، واستغلال ظروف كانت معبأة بأسباب الشك

والتوتر بعد انعقاد مؤتمرات القمة التي دعا إليها "عبد الناصر" واعتبرتها خسارة للجانب الغربي ، ومكسباً للسياسة السوفيتية ، وبعد موقف مصر من قضية الكونغو ومساندة «عبد الناصر» للقوى الثورية هناك ووقوفه بوضوح تام ضد الاستعمار بكافة أشكاله . وتطرق هذا الفصل إلى حريق المكتبة الأمريكية بالقاهرة ، وإسقاط المقاتلات المصرية لطائرة أمريكية ، ومحاولات أمريكا التأثير على سياسة مصر الخارجية عن طريق وقف معوناتها من القمح لمصر ، وإمداد إسرائيل بالسلاح ورد «عبد الناصر» على ذلك بأن مصر تستطيع الاستغناء عن القمح الأمريكي طالما أن ثمنه هو إرادة الشعب المصري وكرامته ، وطلبه شراء قمح من الاتحاد السوفيتي ، وإعلانه بأن مصر غير مستعدة لأن تباع استقلالها مقابل شحنات القمح . كما تعرض هذا الفصل لاتفاقية «جدة» بشأن اليمن وإلى زيارة «أنور السادات» رئيس مجلس الأمة المصري وقتذاك للولايات المتحدة وفشلها في تحقيق التفاهم بين البلدين .

ونتيجة المعارضة للسياسة الأمريكية في الشرق الأوسط واقتناع الولايات المتحدة بأن التعايش السلمي مع نظام «عبد الناصر» لم يعد ممكناً ، فاستقر القرار الأمريكي على التخلص منه عن طريق إطلاق حرية العمل لإسرائيل للقضاء عليه وعلى نظامه الثوري في المنطقة .

وتناول الفصل الثاني المعنون : «قمة الصدام - الولايات المتحدة وحرب يونيو ١٩٦٧» إطلاق العنان لإسرائيل في الشرق الأوسط ووضع كل معلومات المخابرات الأمريكية تحت تصرفها ، وتوفير كل إمكانيات الحرب الإلكترونية من التشويش إلى الإعاقة وإلى ما هو أكثر من ذلك ، واستدراج «عبد الناصر» لتحطيم صورته كزعيم للعرب . يجره إلى المعركة والتنسيق بين الإسرائيليين وأجهزة المخابرات الأمريكية في إقناع الروس ، ومن ثم المصريين بأن هجوماً ضخماً يوشك أن يقع على سوريا بهدف توريط "عبد الناصر" ، ونقل سوريا لنوايا إسرائيل العدوانية إلى مصر مما دفعها إلى رفع حالة الاستعداد في القوات المسلحة ، وإعلان التعبئة العامة وحشد قواتها في جبهة سيناء، وسحب قوات الطوارئ الدولية من خطوط الهدنة ، وإغلاق خليج

العقبة أمام السفن الإسرائيلية ، وما أعقب ذلك من قيام الرئيس الأمريكى «جونسون» بمعاونة إسرائيل على كسب الحرب عن طريق توفير عنصر المبادأة لها ، ومنع مصر من القيام بضربة وقائية وذلك عن طريق تأكيده للرئيس « عبد الناصر » أن الولايات المتحدة تقف ضد أى عدوان . هذا بالإضافة إلى استغلاله لأطراف أخرى فى عملية الخداع مثل «يوتانت» السكرتير العام للأمم المتحدة ، الذى وصل إلى مصر للتشاور فى الأمر بالإضافة إلى إشراك الاتحاد السوفيتى فى سيناريو الخداع عن طريق المقابلة العاجلة التى قام بها السفير السوفيتى فى القاهرة للرئيس « عبد الناصر » فجر يوم ٢٧ مايو والتى طلب فيها من الرئيس "ناصر" عدم البدء بالهجوم ، وكان « عبد الناصر » قد تلقى قبل ذلك بساعات رسالة من « جونسون » تحمل طابع التهديد المباشر لمصر ، مما جعل «عبد الناصر» يعلن أن مصر لن تكون هى البادئة بالعدوان ، كما أبدى استعداداه لإرسال « زكريا محيى الدين » إلى واشنطن موضحاً أن مصر سوف تدافع عن حريتها ضد أى عدوان يقع عليها ، وبالرغم من ذلك فقد كانت الولايات المتحدة تعلم جيداً بموعد الضربة الإسرائيلية الجوية التى بدأت ما بين الساعة الثامنة حتى الساعة الحادية عشرة والنصف من صباح الاثنين الخامس من يونيو ١٩٦٧ والتى انتهت بمزمنة مؤلمة لمصر والأمة العربية كلها .

وتَعَرَّضَ الفصل الثالث والمعنون : «الولايات المتحدة وضغوط من أجل حل منفرد» لاقتراح الرئيس « جونسون » لمخطط عام للتسوية فى بيانه يوم ١٩ يونيو ١٩٦٧ والذى حدد فيه مبادئه الخمسة ، واتباع الإدارة الأمريكية آنئذ منهج ترك المبادرات الأساسية تتم فى الأمم المتحدة وتركيز جهودها الدبلوماسية على محاولة الوصول إلى قرار فى مجلس الأمن يتضمن مبادئ « جونسون » ويتفق مع الموقف الأمريكى بخصوص التسوية وقضايا الصراع الأخرى . والذى ينحصر فى عدم إدانة إسرائيل ، وعدم إجبارها على الانسحاب دون شروط . وهكذا تميزت الفترة التى أعقبت حرب يونيو ١٩٦٩ بممارسة أقصى الضغوط السياسية والعسكرية والاقتصادية على مصر من أجل الدخول فى حل منفرد مع إسرائيل . وكان مشروع « سيسكو »

تنويجاً لسلسلة من الإشارات والإيماءات والتلويحات سبقته ومهدت له الطريق ، والتي كانت عبارة عن عدد من الغارات الجوية التي استهدفت هيئة النظام وإصابته في الصميم ، ومع كل ذلك فقد استمرت مصر في إعادة بناء قواتها المسلحة ، وبدأت تنتقل إلى مرحلة الردع ضد الاحتلال العسكري الإسرائيلي ، وفي تصعيد حرب الاستنزاف . وعندما تبين للولايات المتحدة وإسرائيل فشلها في فرض الأمر الواقع ، وأن مصر بدأت في القيام بعمليات عسكرية في الجبهة ، ولمست الولايات المتحدة تزايد الوجود السوفيتي في المنطقة بدأت في مراجعة سياستها ، والتخفيف من انحيازها للسافر لإسرائيل .

وتناول الفصل الرابع والأخير والمعنون : « الصراع من أجل تسوية شاملة وحرب الاستنزاف » ضغط الولايات المتحدة على مصر والعرب من أجل الرضوخ للحل المنفرد مع إسرائيل ، ولما كان رفض مصر للحل المنفرد يحتاج إلى القدرة على الصمود لمواصلة هذا الرفض ، فقد وقفت الدول العربية جميعاً تدعم رفض مصر للحل المنفرد . وقد شهدت الفترة من يوليو ١٩٦٩ وحتى سبتمبر ١٩٧٠ أكبر قدر من الصراع بين مصر وإسرائيل المدعمة بالمساندة الأمريكية ، واتسمت هذه المرحلة بتحدى مصر للعدو الإسرائيلي والقيام بعمليات حربية ضده داخل سيناء ، كما أصبح الوجود السوفيتي بالطيارين والصواريخ بمثابة عملية ردع سياسى وعسكري لإسرائيل . وانتهت هذه المرحلة بخوض قوات الدفاع الجوي معارك تساقطت فيها الطائرات الإسرائيلية بأعداد كبيرة مما جعل الولايات المتحدة تشعر بأن الحلول السلمية للتسوية الشاملة أجدى من استمرار القتال في المنطقة ، وهكذا كانت حرب الاستنزاف التي قرر «عبد الناصر» تصعيدها ضد إسرائيل بمثابة العامل القوي لإفساد خطط إسرائيل والولايات المتحدة بفرض الأمر الواقع ؛ ومن أجل ذلك سعت إدارة الرئيس « نيكسون » إلى البحث عن صيغة حل شامل لتسوية الصراع حسب القرار ٢٤٢ وكان التصور الأمريكي لتسوية الصراع هو تعهد العرب بقبول التزامات محددة في اتفاقية سلام مع إسرائيل ، وتعهد إسرائيل بالانسحاب من أراضي محتلة كجزء من اتفاق سلام ملزم يقيم حدوداً آمنة ومعترفاً بما ، ثم دخول الطرفين في عملية مفاوضات

للاتفاق على الشروط والبنود التفصيلية للتسوية . وعلى الرغم من اللحظات القاسية التي واجهتها مصر أثناء حرب الاستنزاف نتيجة للغارات الإسرائيلية في العمق لم يخرج صوت واحد من أفراد الشعب المصرى يشكك في جدوى تضحيات مصر . وهكذا ارتبطت حرب الاستنزاف تمامًا بالصراع الذى خاضته مصر من أجل التسوية منذ حرب ١٩٦٧ .

وظلَّ « عبد الناصر » رافعاً رأسه ، رافضاً الخضوع للولايات المتحدة وهو واثق أن الشعب المصرى وقواته المسلحة قادرة على تحرير الأرض وطرد العدو الإسرائيلى حتى وافته المنية في ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ ، فتراجعت مشكلة الشرق الأوسط بعد وفاته إلى السوراء لفترة . وهكذا أوضحت لنا هذه الدراسة المهمة تلك السنوات الحاسمة في صياغة السياسة الأمريكية تجاه الشرق الأوسط، والتي لم يجانبها التوفيق معظم الوقت ، خاصة وأنها لم تستوعب تمامًا دروس تجاربها مع الوطنية المصرية ، والقومية العربية ، فانحازت إلى إسرائيل بشكل سافر . وكانت هزيمة مصر والعرب في عام ١٩٦٧ مناسبة لإظهار الطريقة التي تتصرف بها سياسة الولايات المتحدة ورغبتها في فرض الأمر الواقع والرضوخ إلى الحل المنفرد مع الكيان الإسرائيلى .

ع . م . ج .

المحتويات

٧ تقديم
٩ وفاء وورثاء
	⊗ حركة المختار الثقافى وملاحم الحراك الفكرى والاجتماعى للشيعه والموالى
١١ - د. صلاح العاوور
	⊗ طرز تخطيط مساجد دهلى قبل عصر المغول
٣٩ - د. أحمد رجب محمد على
	⊗ بنو زهر ودورهم فى ازدهار الطب فى الأندلس فى القرنين الخامس والسادس للهجرة / الحادى عشر والثانى عشر للميلادى
٧٣ - د. حسن خضيرى أحمد
	⊗ روسيا الكيفية
١١٣ - د. وفاء بنت عبد الله المزروع
	⊗ نظرة الرحالة العرب إلى الغرب فى القرن التاسع عشر
١٤٣ - د. عامر جاد الله أبو جبلة
	⊗ نشأة قطر وتطورها حتى عام ١٨٦٨
١٨٩ - د. يوسف إبراهيم العبد الله

⊗ أم الرشرش بين حقائق التاريخ والأطماع الصهيونية فبراير ١٨٤١ -
مارس ١٩٤٩

٢١٧ د. فطين أحمد فريد على

⊗ التهود الثقافي والإقليمي لمدينة القدس وتراثها

٢٨٩ د. خالد عزب

⊗ موقف الجمهورية العربية المتحدة من الأزمة اللبنانية ١٩٥٨

٣١٧ د. زكريا أحمد محمد سعد

⊗ موقف المملكة الأردنية من انفصال الجمهورية العربية المتحدة ١٩٦١

٣٦٥ د. عبد الحميد عبد الجليل شلي

⊗ أزمة الحدود العراقية - الكويتية من استقلال الكويت حتى انضمامها

للأمم المتحدة ١٩ يونيو ١٩٦١ - ١٤ مايو ١٩٦٣

٤١١ د. فطين أحمد فريد على

⊗ مخطوط ابن حيان .. هل من جديد

٤٨٩ د. محمد عبد الحميد عيسى

⊗ ميناء آياس في السياسة المالكية

٥٠٣ أ.د. عادل عبد الحافظ حمزة

⊗ جهود الدولة العثمانية في تأمين الطريق البحري من عاصمة الدولة إلى

الحرمين الشريفين

٥٤١ د. عايض بن خزام الروقي

٥٧٣ ⊗ عرض الكتب

Mine Ener : Managing Egypt's Poor and the Politics of Benevolence

٥٧٥ 1800 - 1952, Priceton University Press 2003 (pages 195)

« برنارد لويس » : أين الخطأ؟ التأثير الغربي واستجابة المسلمين

٥٧٧ ترجمة محمد عناني

«إيريك هوبسباوم» و«تيرنس رينجر» (محرران) : اختراع التراث

دراسات عن التقاليد بين الأصالة والنقل والاختراع

ترجمة "شيرين أبو النجا وآخرين" ، مراجعة وتقديم : "عاصم الدسوقي" ٥٧٩

جامعة الدول العربية ، مدخل إلى المستقبل

مجدي حماد ٥٨١

الشريعة والحداثة (مبحث في جدل الأصل والعصر)

عبد الله على إبراهيم ٥٨٣

الفروسية : الجزء الأول - فنون الفروسية في تاريخ المشرق والمغرب

عربيه وحرره وعلق عليه "شهاب الصراف" ، الرياض ٥٨٥

العلاقات المصرية الأمريكية

فطين أحمد فريد على ٥٨٨